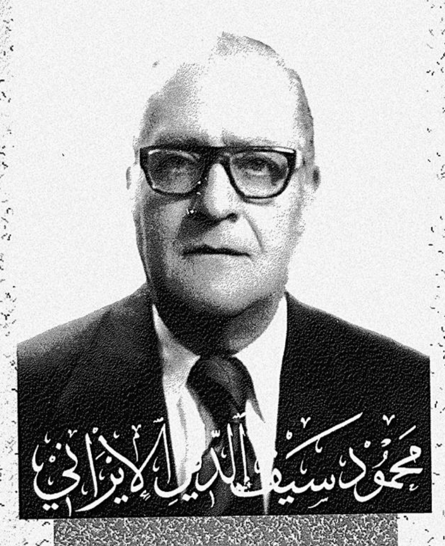


محمود سيف الدين الإيراني

الأعمال الأدبية الكاملة



مؤسسة عبد الحميد شومان
عمان - الأردن



إهـــــــداء 2005

مؤسسة عبد الحميد شومان

عمان / الأردن



في ثلاثة مجلدات

المجلد الثالث



محمود سيف الدين الإيراني

الأعمال الأدبية الكاملة

في ثلاثة مجلدات

المجلد الثالث



منشورات مؤسسة عبد الحميد شومان
عمان / المملكة الاردنية الهاشمية

رقم الايداع لدى دائرة المكتبة الوطنية
(١٠٠١/٧/١٩٩٧)

رقم التصنيف : ٨١٣
المؤلف ومن هو في حكمه : محمود سيف الدين الايراني
عنوان الكتاب : محمود سيف الدين الايراني: الأعمال الكاملة
الموضوع الرئيسي : ١- الآداب
٢- القصة العربية
رقم الايداع : (١٠٠١/٧/١٩٩٧)
بيانات النشر : عمان: مؤسسة عبدالحميد شومان

* - تم اعداد بيانات الفهرسة الأولية من قبل دائرة المكتبة الوطنية

الصف والاخراج : قبعة للاعلان.

مؤسسة عبد الحميد شومان

الطبعة الأولى ١٩٩٨

الفهرس

المـــادة	الصفحة

المـادة	الصفحة

حوار مع المرحوم محمود سيف الدين الايراني

فيما يلي نص الحوار الذي أجراه الزميل القاص خليل السواحري، ونشرته مجلة «رسالة الأردن» الصادرة في عمان في عددها رقم ١٢١، السنة الثانية عشرة، حزيران ١٩٧٢:

أستاذ إيراني، يكاد يجمع النقاد على اعتبارك رائد القصة القصيرة في فلسطين والأردن. فهل لك أن تعطي القراء فكرة عن البدايات الأولى لكتابتك القصصية عندك؟؟

بدايتي القصصية الأولى موجودة في كتاب قديم لي اسمه «أول الشوط» صدر سنة ١٩٣٧، وهو يضم خمس قصص، وعددا من الأبحاث والمقالات الأدبية يدور معظمها حول قصصيين عالميين وأبحاث اجتماعية. وقد كان لي محاولات قبل هذا الكتاب غير ناجحة وإن كانت قد نشرت في بعض الصحف التي كانت تصدر في مدينة يافا ذلك الحين، حتى القصص المنشورة في هذه المجموعة لا أعتقد أن تكنيك القصة فيها كان ناجحا إلى الحد الذي يرضيني. وعلى أي حال فهي من ثمرات الشباب. ويبدو لي أن هذه القصص وقد نشر معظمها في مجلات القاهرة، كانت بالنسبة لذلك الوقت رائدة بمعنى أنه لم يكن قد سبق لكاتب فلسطيني أن عالج القصة القصيرة معالجتي إياها.

ما هي المجموعات القصصية التي صدرت لك حتى الآن؟ وهل هناك

مجموعات قصصية لك غير مطبوعة او في طريقها إلى المطبعة؟

مجموعاتي القصصية المطبوعة هي على الترتيب:

- أول الشوط ١٩٣٧.

- مع الناس ١٩٥٦.

- ما أقل الثمن ١٩٦١.

- متى ينتهي الليل ١٩٦٤.

- أصابع في الظلام ١٩٧١.

وهناك مجموعة قصصية مترجمة عن الأدب القصصي العالمي تضم ٣٨ قصة، وقد نشرت بعنوان «أقاصيص من الشرق والغرب» سنة ١٩٦٠. ذلك بالإضافة إلى مجموعتين أخريين معدتين للنشر.

وهل هناك مؤلفات أخرى غير المجموعات القصصية معدة للنشر؟

هناك ما يقارب ستة كتب معدة للنشر منها«معرض النماذج» «دراسات عن أدباء وقصصيين عالميين»، «تورجنيف سيرته ودراسة أدبه»، «تشارلز ديكنز دراسة لأدبه»، «رواد القصة القصيرة تشيكوف، موباسان، كاترين مانسفيلد»، «في الأدب والحياة ٣ أجزاء»، وهناك كتب أخرى لي منشورة ليست ضمن القصص منها كتاب «اليونسكو والأردن» مع آخرين، واللغة العربية ٣ أجزاء مع آخرين اعتمدته وزارة التربية والتعليم للصفوف الإعدادية الثلاثة.

* من هم الكتاب الذين تأثرت بهم سواء كانوا عربا أم أجانب؟

لقد أحببت من خلال مطالعاتي للأدب العربي أدب القصة عند «محمد حسين هيكل» و محمود تيمور ومن قبله شقيقه محمد تيمور ويحيى حقي وابراهيم المصري وابراهيم المازني. أحببتهم ولم أتأثر بأي منهم في كتابتي للقصة وإنما كان تأثري بالكتاب الغربيين الذين تأثر بهم من سبق ذكرهم من الكتاب العرب. ومن هؤلاء، تشيكوف ، وموباسان وكاترين كدستوفسكي وتولستوي وتورجنيف وغوركي، والروائي الإنكليزي الشهير د. هـ. لورنس.

* أستاذ إيراني كيف تكتب القصة؟ هل تبدأ بالحدث أم بالفكرة أم بالشخوص؟

في العادة أبدأ بالشخصية حتى إذا اكتمل تركيبها من عدة شخصيات أوجد لها الفكرة والحدث. وحتى الحدث يكون أيضا مركبا أي قد تكون فيه ملامح من عدة أحداث أكون منها حدثا واحدا يقوم على فكرة، والأهم من هذا كله أنني أترك لشخوص القصة والحدث والفكرة فيها أن تعيش في نفسي مدة من الزمن حتى تنضج ومن ثم توضع على الورق.

* من متابعتي لنتاجك القصصي لاحظت القدرة الفائقة لديك على رسم أبعاد شخوصك. كيف تستطيع تحقيق ذلك؟

ما أزال وأنا في هذه السن أجد متعة كبيرة في مراقبة الناس، كيف يسلكون في حياتهم، كيف يتحدثون، كيف يفكرون وأتابع دائما التعبير عن هذا كله في ملامحهم، وهذه عادة تأصلت في منذ الصغر. وفي رأيي أن القصة سواء كان ذلك في الرواية أو القصة القصيرة أو المسرحية إن هي إلا شخصيات وتحليل لنفسياتهم في إطار من الحدث القصصي البسيط، لأنني لا أؤمن بالحدث القصصي الحاد أو العنيف إلا في حدود ضيقة. صحيحة وصادقة ومعبرة عن اللون المحلي.

* في مقالك الأخير المنشور بافكار عن دستوفسكي قررت أن كتاب القصة العرب خرجوا جميعا من معطف دستوفسكي فهل ينطبق هذا عليك؟ وما مدى تأثرك بهذا الكاتب العملاق؟

أعتقد أن معظم الإنتاج القصصي العربي متأثر إلى حد بعيد بالقصص الروسي الكلاسيكي، وفي نطاق القصة السيكولوجية كان التأثر مباشرة بدستوفسكي فكلنا قد قرأ الجريمة والعقاب والإخوة كرامازوف والأبله وبيت الموتى..الخ وكان هذا بالنسبة لي ولأبناء جيلي في البلاد العربية شيئا جديدا بهرنا وملأ قلوبنا بالفرحة على الرغم من أن عالم دستوفسكي عالم مظلم ولا يبدو فيه الإشراق إلا لمحا.

* كل ما قرأناه لك حتى الآن يخلو من العمل الروائي. هل حاولت أن تكتب الرواية؟ وإذا كان الجواب بالنفي فلماذا؟؟

كنت دائما أفكر في كتابة الرواية وفي كثير من الأحيان كنت أضع الهيكل لرواية ما، ولكن أعمالي اليومية كانت تستغرق معظم وقتي ومن هنا لم أجد الوقت الكافي للتفرغ لكتابة الرواية. وأعتقد أن وقت الفراغ هذا قد أصبح متاحا الآن، ولذلك أمسكت عن كتابة القصة القصيرة مؤقتا لأضع أول رواية وستصدر خلال عام. وفي اعتقادي أن كتابة الرواية أسهل من كتابة القصة القصيرة التي تحتاج إلى دقة وصقل لا تحتاج مثله الرواية.

* ما رأيك بالإنتاج القصصي للكتاب الشباب؟ وهل ترى فيما تقرؤه لهم ما يبشر بمستقبل في هذا المجال؟

دائما أحسن الظن وأكون عظيم الأمل بالكتاب الشباب، وأعتقد أن لهم من الطاقات والقدرات الشيء الكثير، والشباب دائما أبناء عصرهم وهم أقدر منا نحن الشيوخ على التعبير عن البيئة المحلية وعن روح العصر، وإذا ما تكاملت

للكاتب الشاب عناصر الثقافة الواسعة وبالطبع الموهبة فإنه لقدير على أن يكون عطاؤه ممتازا حقا، والقصصيون الشباب في الأردن يبشر من توافرت له هذه المزايا بخير كثير. ومن الخطأ الجسيم أن يعترض سبيلهم الكتاب الشيوخ لأنهم الذين يعول عليهم في حمل الشعلة والاستمرار في العطاء. أنا لا أنكر في الوقت نفسه صراع الأجيال ولكن من العيب على الكبير أن يقاوم الكاتب الناشئ صاحب الموهبة لأن موهبته ستشق له الطريق مهما كان الأمر وسيتبوأ مكانته مهما كان الأمر أيضا ما دام الأصل هو العطاء الجيد.

* ما نوع الالتزام الذي يقوم به كاتب القصة؟ وهل تعتقد بإمكانية فقدان الالتزام الاجتماعي أو السياسي بالنسبة للقصاص؟

أنا أعتقد أن الكاتب القصصي ككاتب المقال ككاتب البحث ملتزم أراد ذلك أو لم يرده ما دام ابن بيئة معينة وبلد معين، وحتى لو لم يلتفت إلا إلى النواحي الجمالية في العطاء فهو ملتزم، لأنه سيجد أن قلمه ينساق هنا وهناك إلى القول في واقع حياة أمته. وإنما الالتزام السيء هو خدمة أغراض ومبادئ متعسفة، ولتقريب ما أقول إلى الأذهان فإنني أستطيع أن أشير إلى الكتاب والقصصيين الذين وضعوا أقلامهم في خدمة النازية إبان استشرائها قبل الحرب العالمية الثانية، وكذلك الفاشية والصهيونية. غير أن مثل هذا الأدب سرعان ما ينهار بانهيارأمثال هذه النظم التي قامت أصلا لتكريسها، وفي رأيي بشكل عام يجب أن يترك للأديب أو القصصي أو رجل الفكر حرية الاختيار والتفكير النابع من النفس في ضوء القناعة الشخصية. ونحن إذا تركنا له حرية التحرك يستطيع أن يقدم إنتاجا حسنا. وأحب أن أؤكد هنا على ناحية مهمة وهي أصالة الأداء الفني، أي أن يعطي الكاتب للأداء الفني حظه الكامل من الجودة وأصول الصياغة الفنية، ويمكن أن أضرب مثالا لذلك في أدبنا العربي القديم ابن المقفع، فقد كان في اعتقادي، ملتزما بمبادئ خلقية وواقعية غير أنه استطاع إلى جانب هذا

الالتـزام، كـمـا نراه في كليلة ودمنة والأدب الصـغـيـر والأدب الكـبـيـر ورسـالة الصحابة، أن يوفق بين التزامه وبين الأداء الفني على ما في ذلك من فارق كبير في الظروف والعصر والبيئة.

* في القصة الرئيسية «أصابع في الظلام» من مجموعتك الأخيرة لاحظت أنك قد بدأت تنحو نحو القصة الرمزية. هل تنوي حقا مواصلة هذا الاتجاه؟

الشكل في القصة يستهويني دون ريب، إلا أن الموضوع هو الذي يملي الشكل وهذا يعرفه كل من مارس الكتابة القصصية، ومع ذلك وعلى الرغم من أنني قد جاوزت الخمسين من العمر إلا أنني لا أستطيع أن أجبر نفسي على الجمود عند شكل معين فالقصة التي تحتاج إلى الرمزية أو غير الرمزية من المذاهب الجديدة فلا بد لي من أدائها في هذا الإطار. وأحب أن أشير هنا إلى أن الكثيرين من أصحاب المذاهب الحديثة هم في سني مثل يوجين يونسكو، ولا بأس أن يعلم القراء أن الكثيرين من الأدباء وكتاب القصة في الغرب يعدون مبتدئين بعد أن جاوزوا سن الأربعين.

وأما بالنسبة لقصتي «أصابع في الظلام» فإنني أعتقد أن الرمز فيها قريب أي غير مغرق في الرمزية على نقيض قصة«آن للشمس أن تطلع في منتصف الليل»، وهكذا ترى في هذه المجموعة قصصا تختلف من حيث الشكل ومن حيث المضمون، ففيها الشكل الكلاسيكي والشكل الرمزي وشكل اللامعقول.

وأرى أن أوجه كلمة شكر لك ليس باعتبارك صحفيا فحسب، ولكن لأنك قبل ذلك كاتب قصصي شاب وصاحب موهبة أكيدة ومشرقة في كتابة القصة. كما أنني أشكر مجلة رسالة الأردن التي قررت فيما يبدو أن تفسح مجالا لمثل هذه المقابلات لأدباء هذا البلد ورجال الفكر فيه.

(قصص مترجمة)

أقاصيص من الغرب والشرق

مقدمة

في فترات متباعدة حينا ومتقاربة حينا آخر ترجمت هذه القصص القصار . ولقد أحببت بعضها لانه وافق هوى في نفسي ومواءمة لمزاجي الفني في كتابة القصة . وبعضها الآخر نقلته الى العربية غير كاره له وغير محب ، وانما رأيت فيه ألوانا قد يحبها غيري ويؤثرها على ما سواها . الا ان ثمة سببا يجمع بين هذه القصص وهو أني أردت لها ، على تعدد الوانها وأنماطها ، أن تمثل أكثر من مذهب في مفهوم القصة القصيرة . ففيها : الرومانسي ، والواقعي ، والرمزي ، والسيكولوجي أو النفسي ، وغير ذلك مما أصطلح عليه وأخذ به كتاب القصص في حقب مختلفة من تاريخ الأدب في شرق وغرب .

ولقد تتناول هذه القصص بالرسم والتصوير والتحليل حالات وأزمات واحداثا ومواقف لشخوص أو نماذج انسانية متباينة الملامح والسمات . بيد أنها ، اذا اختلفت باختلاف بيئاتها ومجتمعاتها وباختلاف أوضاعها في السلم الاجتماعي ، تظل ، ولا حديث لها غير هذا الانسان في شتى مشاعره وأهوائه ، ومتعدد غرائزه وميوله ، ونوازع الخير والشر فيه .. وربما كان حسبي منها أن تثير تفكير القارىء ، أو تحرك عاطفته أو تحفز خياله أو تفتح لعينيه أفقا يكسبه رؤية جديدة في جوانب من الحياة وملامح من الانسان .

والشكر ، من بعد ، للأخوان الذين راجعوا هذه القصص في كثير من التفهم والتفطن الذكي لمقاصدها وانماط أدائها ، وللجنة الاردنية للتعريب

والترجمة والنشر فهي قد تبنت هذا الكتاب وأنفقت على نشره وأثابت مترجمه ووضعت بذلك لبنة في هذا البناء الذي نريده ، لنشر الكتاب الاردني ، عاليا قوي الاركان .

١٩٦٩/١/١٥

محمود سيف الدين الايراني

محمد ديب القصصي الجزائري

نعيمة لن تعود

خمسة أسابيع تقضت دون أي نبأ عن « نعيمة » . لا شيء أبدا . هناك أناس يعتقدون أنها محتجزة في ثكنة « بدو » . . ان الذين يحبسون فيها يعتبرون رهائن . . ويتحدث المتحدثون عن أهوال مروعة يلقونها هناك . . .

ولكن كيف يمكن أن يتأكد الانسان ويتثبت ؟ لا سبيل الى معرفة أي شيء على وجه الصحة . وما من أحد عاد من هناك ليروي ما يحدث ، وليس ثمة غير الانتظار : ان يرشح خبر ما ، ان تمثل نعيمة بمعجزة أمام المحاكم . . الانتظار . . هذا كل ما يتركونه . . .

وأخرج أنا بالاطفال أنزههم ، وأذهب بهم في اكثر الاحيان الى الحديقة العامة التي نسميها « الحديقة الصغيرة » ، ونمضي ثمة بعض الوقت من عصر كل يوم . . .

والخريف لا ينفك يشيع حمرته القاتمة في كل ما هو أخضر ، بل هو يخلط الوانه الحمر والصفر بزرقة السماء ، ولا نستطيع ان نمكث طويلا . ومع ذلك فان الاطفال يتلهون جيدا ، وأنا أيضا أجد في تلك الحديقة لحظات الراحة والاستجمام الوحيدة التي قدر لي أن أذوقها منذ الان . ستقضي علينا جميعا هذه الحرب .

ولكن اذا كان هناك من سينجون منها ، فانهم يكونون قد تعلموا الكثير .
. ابني « رحيم » الذي لم يجاوز السابعة من عمره عاش ثلاث سنوات منها في غمار الحرب ، وهو يسلط علي نظرات جد ثقيلة ومليئة بالتساؤل الصامت .
. وسرعان ما اضطرب وأحس بأني مذنب . . .

سألته ، منذ أيام ، لماذا تراه يحدق في وجهي هكذا ، واجاب قائلا:

- يجب ان لا نتوانى ، يا ابتاه ، اذ نقذفهم بالقنابل أليس كذلك ؟

واعتصرتني كآبة مجنونة ، ماذا اقول له ؟ هل أخدعه بالكلمات الطنانة الجوفاء ؟ لم يعد مثل هذا يجدي حتى مع رحيم . القتل ، والاغتيال ، والهجوم ، ونصب الفخاخ والمكامن . . كلها كلمات تجد صداها ، في حديثه وتفكيره ، من كل ما يحدث. ولست أحاول أن أعلمه الحذر والحرص ، فانه لن يفهمني. لقد قام بيننا هذا التمزق . .

وفي يوم آخر، دون ان استريب فيما أعرض له نفسي، سألته متضاحكاً:

- ماذا يجب ان نفعل فيما ترى؟

- ان نقتلهم جميعا . . ان نفجر القنابل . . دون توقف . .

قال هذا بلا تردد، وهو لا ينفك يتفحصني بعينيه البريئتين . .

وقلت:

- اتراك تفعل هذا . . أنت؟

- أجل وانت . . الا تفعله؟

وقلت :

- كلا . .

انني ما زال اراه بعين خيالي وهو يتأملني غير مصدق.

وفي البيت أصبح جيراننا متكتمين أكثر فأكثر بصدد نعيمة. وانا أحاول أن أقوم مقامها، على نحو ما، ازاء الاطفال مدة سجنها.

وتأبى الجارات الا أن يتولين عني بعض اعمال البيت: فيكنسن، ويطبخن، ويغسلن الاواني والاطباق والملابس. انهن هن اللواتي يقمن بهذا كله. وما كن يسمحن، بأي ثمن، أن ينهمك رجل في الاعمال، بل كن احيانا، وفي غيابي، يطعمن اولادي: بنالي، وزاهية، ورحيم .

وبانتظام كانت تأتي امرأة متحجبة حاملة شيئا من المال. فتسلمهن اياه، فتقدمه الجارات لي بدورهن.

لم يكن البيت ليخلو، في أية لحظة، من حركة وجيشان. وفي هذا الصباح كانت العتمة لم تنجل بعد. انه يوم شذي، بهي، توشك أن تشرق شمسه. وعلى حين غرة شاعت فيه أصوات وهمسات مذعورة، مجنونة.. ثم هذا كل شيء. كان الامر مجرد اشاعة عن اشارة خطر كاذبة..

ان هذا الاهتياج، وهذا الانتقاض، وهذا الفزع، ان هذا كله وان يكن ملازما وكثير الوقوع الا انه لايبلغ ذروته الا بعد دوي الانفجارات خاصة. وعندئذ يعود الجيران بأنباء يزعقون بها للآخرين، فتخلو الحجرات في فناء البيت، ويتنادى الجميع، ويروح كل يقول ما في جعبته.. لم يحدث شيء من هذا، غير ان النهار كان ما يزال في بدايته..

وفي وسط هذه الجلبة، وهذا الاضطراب اروح أفكر في «نعيمة». ان جهلي بمكانها، وبما فعلوه بها، يعذبني عذابا شديدا. ان الذين يختفون، ويموتون، ويسجنون، في كل ناحية من المدينة، هم من الكثرة بحيث لا يعود في الامكان حصرهم.. وان ضحايا اليوم لتنسينا ضحايا الامس.

الملصقات على الجدران والحيطان، في كل مكان، لا يتبدى فيها غير صرعى وقتلى.. والمحاكم لاتنفك، كل يوم، تصدر احكاما بالاعدام.. ويزداد الاعدام ويتكاثر.. ولا يسفر صبح الا عن ضحايا واجساد مشوهة..

كان الجيران يعتقدون ان نعيمة لن تعود .. كانوا لا يجرؤون ان يقولوا لي هذا، وانما كنت اقرأه في ملامح وجوههم وحسب..

يوم أمس حاذاني مجهولان في الشارع واوقفاني قبالة دكان خياط، وبعد ذهابهما قال لي الخياط بكل البساطة الممكنة:

- أجل لقد وضعا هنا أشياء بعينها..

- ماذا تقول؟

فقال

- ألا تفقه؟

وأدركت ما هنالك. لقد اكتشفت في هذه اللحظة: ان الخطر لا يثير في نفسي غير رد فعل من التحدي..

وبعد ظهر هذا اليوم، وفيما كنت أجتاز الشارع الذي يفضي الى ساحة سوق الغزل المزدحمة الصاخبة دائما، كان الفخ المنصوب قد أخذ يفعل فعله. في

بادىء الامر تماوج الخلق واخذوا يتصايحون.. ولعلعت طلقتان ناريتان أعقبهما انفجار، وتدافع الناس، وداس بعضهم بعضا. وما هي الا ان خلت الساحة بأسرع من لمح البصر، ولم يبق غير جثة لا سبيل للعين ان ترى وجهها..

غادرت المكان انا ايضا لكي اتحاشى الوقوع في أيدي رجال الشرطة الذين أخذت اصوات صفاراتهم تدوي في الجو.

والان..والان..ماذا حدث.. هل من جديد؟

وقلت:

الجديد في الامر..حادث اغتيال وقع في سوق الغزل..

ثم أمسكت متقطع الانفاس، وقال هو:

آه ... فهمت ...

واستضاء محياه الشاحب الرقيق المستطيل بنور ابتسامة، وعاد يقول:

كنت أحسب ان السلام قد حل فعلا.. كنت اوشك ان اراهن على أنك تحمل الينا أنباء السلام..

وقلت أنا:

السلام؟ انه أمر لم يسمع به أحد...

انني ما ازال احتفظ حتى الان بذكرى واضحة عن هذه اللحظة والكلمات التي نطق سريعا بها الرجل. انها ذكرى من الوضوح بحيث لم اكد أجيبه، وأغرق ضاحكا، بعصبية ظاهرة، حتى هز الشارع انفجاران مدويان مروعان.

وفي هذه المرة تأدى الينا، غير بعيد، صراخ وحشي، ولعله سيل من رصاص انطلق سريعا في جنون مخيف، ثم تحول الى عاصفة من نار.. وكنت أرى بأم عيني قامات تصاب وسرعان ما تنثني نصفين ثم تنهار مجندلة على الارض..

كانت شهقات المدافع الرشاشة تقترب، واقترحت على صانع الاحذية أن يغلق دكانه. ودون ان ينبس بكلمة أقفل الباب. ثم ارتمينا كلانا فوق بلاط الدكان.

رحت أنصت الى الصخب في الخارج وهو يغيب في الشارع. لا اذكر انني كنت خائفا، بل كنت هادئا"، ساكن الطائر، متطلعا فقط الى ما قد يحدث. وكانت الثواني تمر ببطء يجمد الاطراف. وعندئذ انهالت ضربات عنيفة على باب الدكان كأنها ستحطمه. واراد صانع الاحذية ان يفتح دكانه. وسألني بنظرة من عينه، فأومأت اليه أن لا يأتي بحركة. وتضاعف الخبط على الباب وأضحى ملحا آمرا أكثر فأكثر، وساخطا غاضبا أكثر فاكثر.. وأخيرا تداعى الباب وانفتح .. فدخل جندي، ولم يبحث طويلا، فقد أمسك بطوق زميلي واقتاده الى الخارج. وعند العتبة سدد الى صدره ضربة عنيفة، جبارة، متلظية غضبا من كعب بندقيته.. فتقيأ صانع الأحذية فيضا من دم وسقط .. وقد استدار وجهه الى السماء .. ووقعت عيني على سدة خشبية مرتفعة فوق رأسي فتسلقتها واختبأت .. غير أن الجندى لم يعد الى داخل الدكان .

وانتظرت وأنا راقد، فوق، في العتمة قرب لفائف الجلود. وفي مكاني، ومن شق بين لوحين منفرجين، استطعت ان اتبين جزءا من الشارع. وعلى مهل أخذت عتمة الاصيل تملأ الدكان. ولم أكن لآتي بحركة، وانما كنت أنظر، وكنت أشم رائحة الجلد، وتمر الدقائق.

كان الهول قد ابتعد. ولم يعد يسمع غير دوي مكتوم يتأدى من الأعماق القصية في المدينة..

ونهضت، ونفضت ملابسي، وكان لا بد، وأنا أخرج من فرجة الباب المخلوع أن أخطو من فوق جثة صانع الأحذية، وكانت الشوارع التي رحت أسير فيها هادئة، خاوية، بصورة غريبة.

إننا نرضى بالموت، غير أننا لم نتعلم، بعد، كيف نفترق. وفي هذه الليلة كان كل شيء صامتاً أبكم: فكري، المدينة، الحرب.. كل شيء على الاطلاق.. واستويت جالساً في سريري ورحت أنظر من حولي، وبدا لي كل شيء غير معقول.. الأولاد يغطون في نومهم. ولكن.. لماذا هؤلاء الأولاد؟ ما تراهم يفعلون هنا؟ وتملكتني الرغبة في أن أرتدي ملابسي وأنطلق راكضاً حتى البلدة القديمة مخالفاً منع التجول المفروض.. ثم لم أجد إلى استعادة النوم سبيلاً إلا بعد مشقة عظيمة. عاودني النوم، وأحسست أن رأسي غدا ميداناً مخيفاً لمد وجزر لا نهاية لهما. . .

ومع أولى شعاعات الفجر خرجت. كان ثمة أناس يهرعون مستعجلين لمزاولة أعمالهم، وراكبو الدراجات يتسللون متعرجين بين الرائحين والغادين وأجراس دراجاتهم لا تنفك ترن، والباعة المتجولون يزحمون الأرصفة. وفي سوق الغزل كانت الدكاكين المغلقة هي التي لاقى أصحابها مصارعهم. وها هي آثار الرصاص تبدو واضحة في واجهات العمائر، وها هي الأبواب الحديدية مبقورة وممزقة. انها لا تزال هنا. وأنا لم أحلم قط. ان ألواح الزجاج المحطمة، وشظايا القرميد، وبقايا مجزرة يوم أمس تفرش كلها الأرض..

وصلت إلى دكان صانع الأحذية، فإذا هو مغلق، وقد تركته يوم أمس مفتوحاً. لقد جيء، هذا الصباح، بقفل وضع في رزتي الباب فتم اغلاق مصراعيه. ومكثت برهة أتأمل الباب المغلق.. ولكن صانع الأحذية ماذا تراهم صنعوا به؟ ودخلت دكاكين جيرانه التجار على أمل أن أعلم أكثر مما علمت من أمره.. غير أنني لم أفز بطائل.. سوى أنه لن تكون له جنازة ولا مأتم. ان جميع

الجثث التي رفعت ليلاً قد حملت إلى المقابر، وقامت السلطات بدفنها دون اشعار ذويها. وانثنيت أسير، وأجوب الطرقات دون هدف أو قصد. وأحسست أنني منقطع ولا تربطني صلة بهذا اليوم السافر. ولا بد من التفكير؟ فهذه السماء المترامية، وهذا الضوء الزغبي الملمس، وحلاوة كل الأشياء تحول بيني وبين التفكير..

بقيت أتسكع طويلاً. وسرعان ما استبان لي أن كل شيء قد استقر فيه طعم الدم ورائحته... .

في الليل شعرت كأنّ يداً جبارة تهزني، فاستفقت، وألقيت بسمعي. كان الصراخ ينبعث من بيوت بعيدة. وكان الصخب والصياح والاهتياج ينتشر من حي إلى حي، وتتخلل ذلك أعيرة نارية متفرقة، تعقبها دفقات مروعة من رصاص المدافع الرشاشة. وجعلت أصغي وأنا مكتوم الأنفاس.. ودون أن آتي بأية حركة.. كان صياح الألم وصراخ الخوف والذعر ينبعثان من حناجر نساء ورجال.. ثم أطبق الصمت، وأغمضت أنا عيني. ولتأت بعد هذا وحوش رؤيا القديس يوحنا الانجيلي لتجتاح الأرض..

ولم يبق غير أزيز السيارات يسمع من بعيد، ولكن هذا الأزيز سرعان ما تلاشى هو الآخر..

كانت الشمس، في الصباح، تتلألأ بزرقتها الصافية وكأنما هي قد غسلت وصقلت فتألق فيها نور يبهر الأنظار، وما من أحد يغدو إلى عمله إلا وفي قلبه مثل الكلاليب من فرط نفاد الصبر. وقد وجدت جثث منكل بها، ومشوهة من فرط التعذيب وقد ألقي بها عند أبواب المدينة.. كانت عشر جثث بينها ثلاث لنساء...

لقد طالت الحرب، ويمكن أن تدوم سنوات أخر.. ولم يعد أحد يستطيع أن

يتصور أن العيش ممكن إلا في معمعة الرصاص، والنار، والانفجارات المستمرة..

وراحت تنتشر، همساً، أخبار رهيبة مروعة، وأصبحت لا أسير في الشارع إلا وأنا لا أنفك أتلفت ورائي دون أن أكون متأهباً لألقي بنفسي متمدداً على بطني في حالة قذف مفرقعات أو القاء قنبلة. كان منظر حركة واحدة مشبوهة يضعني موضع الحذر والتربص، فلا أنتظر أن تنقضي هذه الحركة لكي أفر، كان المرء إذا غادر بيته لا يثق أنه سيعود إليه حياً..

ان ثمة أماكن وأسواقاً ومفارق طرق بعينها، ولا سيما تلك التي تحرسها مراكز جند، أقلعت عن المرور بها نهائياً.. وهناك أيضاً شوارع وأزقة ودروب أقيمت من حولها الأسلاك الشائكة. ويجب أن لا يغامر الإنسان فيلوذ بها في حالات الخطر والاغتيال، والا فانه يجد نفسه وكأنه قد وقع في مصيدة..

وفيما كنا نحن، في المدينة، وقد أسلم أمرنا لجزارين عتاة، وكأننا موثقو الأيدي والأقدام، كانت الحرب الحقيقية تدور رحاها بعيداً.. ولهذا السبب كنا نجد في الفوضى والاضطراب، الدفاع الوحيد في وجه الارهاب اليومي.. ولقد دفعنا الثمن غالياً جداً فلم نعد نتردد أو نتراجع..

ثم حدث ما هو أسوأ من الحرب نفسها. كنت أحياناً أشتهي الموت في حوادث القتل الكثيرة التي تتكرر كل يوم إلى ما لا نهاية.. إن هذا الدم الذي تلطخت به، وروائح هذه المجازر العفنة، كانت تدير رأسي وتقلب أمعائي، وتجعلني أنظر إلى كل شيء بمقت واشمئزاز.. ثم، وعلى حين غرة، أحسست بجوع بنهم شديد إلى الحياة.. بظمأ بالغ يدفع بي إلى معرفة - ما سيكون - من بعد ولو واجهت جند العالم وجيوشه قاطبة.

أجل، كيف ستكون وسيلة العيش لأولئك الذين سينجون من الحرب وويلاتها الرهيبة؟ وماذا ستعني لهم العودة إلى حالة السلام؟ لقد فقدت الدنيا، في

حسنها، طعمها ولونها.. فكيف سيسعهم أن يعودوا فيصنعوا لها وجهاً انسانياً؟

لم أكد أجلس الساعة في مقهى «التيزاوي» حتى انقضت علينا دورية من الجند، فدفعوا بي مع جميع رواد المقهى الذين كانوا منتشرين على الأرصفة الخارجية إلى الداخل مرفوع اليدين.. وراح كل منا ينتظر دوره ليتم تفتيشه، وقد التصقنا ببعض حتى لنكاد نختنق.. وكان علينا أن نخضع لابراز هوياتنا وتدقيقها ونحن على مثل الجمر.. وكانت فوهات المدافع الرشاشة السوداء تنذر بالموت كل متهور تحدثه نفسه أن يأتي بأيسر حركة.. وبقينا هكذا لا تصدر عنا نأمة واحدة وسط هذا الصمت المطبق الذي رانت عليه سكينة غريبة، وكنت أقول في نفسي: انهم لن.. لن.. يتغلبوا علينا..

وقد استغرق هذا التدقيق ساعة كاملة، كان على كل رجل في أثنائها أن يثبت هدوءه ورباطة جأشه.. ثم رددنا إلى عصر هذا اليوم المليء بالوعيد.. ولقد آلمني حلقي من شدة ما كظمت في صدري الشتائم والمسبات، فلم أقذف بها في سحنهم النكراء.. كان منع التجول الذي عينت له الساعة الرابعة والنصف يوشك أن يخلي الشوارع.. فغادرت المقهى، وبدلاً من أن أعود من توي إلى البيت آثرت أن أسير قليلاً. كانت واجهات المساكن كأن على رأسها الطير في هذا الانتظار القاتل.. وكان الخلق يذهبون صامتين، وينقلون خطاهم بحذر شديد، واتخذت المدينة التي تكورت على نفسها، مظهرها في أيام الهول..

وفي طرف الميدان الفسيح كانت تلال «المنصورة» الزرقاء ترتسم ظلال لها في صفحة السماء وتنفحني بوعد بالسعادة لا يكذب.. وكان في وسعي أن أطوف حول الأسوار، وأجتاز أبوابها، لو كان هذا ممكناً..

لقد كان القصد من نزهتي هذه هو كشك بيع الصحف في الميدان الذي تقوم فيه دار البلدية.. وكانت لي بعض معرفة بصاحب هذا الكشك فأستطيع أن ألقي

نظرة على جميع الصحف اليومية دون أن أضطر إلى شرائها.. ولقد طالعني من الأنباء ما يشبه أنباء الأمس، فمضيت في طريقي، وجعلت أسير محاذياً سور المتحف الحديدي، وكنت قد بلغت زاوية الشارع.. وهنا كانت الواقعة.. فقد هز الانفجار المروع الجدران من حولي بعنف شديد حتى لقد اصطدمت بالهواء الذي لفح وجهي بمثل النار.. وفي اللحظة نفسها انهارت، في دوي مخيف، كتل من الزجاج الذي فتته الانفجار، وانطلق الصياح من كل الصدور. وكان الناس، في الميدان المغروسة فيه أشجار الدلب، يفرون في كل اتجاه. ودخلت أنا في أقرب شارع حيث كانت تسمع أيضاً الصيحات والنداءات، والأوامر.. وجاءت دفقات من رصاص المدافع الرشاشة فكنست هذا الشارع. فسقط أمامي رجل، ثم امرأة تعثرت بملاءتها ثم انقلبت على الأرض

همد الشارع!

وسرعان ما ظهرت سيارات الجند الكبيرة، وأبواقها الحادة تزعق زعيقاً متواصلاً، ثم توقفت وقد شدت كوابحها بعنف وحشي. وتقفز منها جند المظلات وأسلحتهم في أيديهم. وأشار لي أحدهم أن أذهب، وهو ذو عينين زرقاوين جامدتين، فابتعدت..

ولكن، عند زاوية الشارع المجاور، صاح بي جندي من جنود الجيش الاقليمي أن قف.. فتجمدت في مكاني ورحت أحدق فيهم النظر. ثم قررت أن أسير نحوهم. وفي كل لحظة كنت أنتظر أن يطلقوا علي النار. وكنت هادئاً تماماً ببرود، وكلي احتقار لهم.. وفكرت، وأنا أرغم نفسي على السير قدماً لن أدع الفرصة بأن يروا الرجل الذي سيردونه قتيلاً: يذل نفسه أمامهم...

وكانت ثمة وجوه لا أجهلها، ولكنها وجوه رجال قدامى في المدرسة... وانبعث صوت، من ثلة الجند، يصيح بي:

- لا تتحرك!

وخطوت بضع خطوات أخرى. ثم ألم بي احساس بالغشيان. ولست أدري بالتفصيل ما حدث بعد ذلك، فقد ذهبوا بي إلى الساحة بعد أن تلقيت ضربة في عنقي..

ووجدت نفسي في حشد من جزائريين آخرين، وقد التصق بعضهم ببعض. وكانت قد تمددت على الأرض أجساد لا حراك فيها. انهم رجال ماتوا، أو هم يحتضرون ويوشكون أن يلفظوا أنفاسهم، كان أحد أولئك المحتضرين يئن بصوت واهن تحت أقدامنا:

- أعينوني... أعينوني

ولم يأت أحدهم بحركة ما لكي يساعده. كانت حركة مطاردة «الانسان» وقنصه مستمرة، متواصلة في الساحة، وفي الشوارع المتفرعة عنها، وكانت أشباح ترتدي البزات الرسمية، وقد انحنت ودفعت سلاحها إلى أمام، تجري وراء أشباح أخرى هاربة.. فكان بعضها لا يلبث أن يرفع ذراعيه فجأة ثم ينكب على وجهه ويروح يتخبط على الأرض الغبراء..

في هذه اللحظة خرج رجل من حانة وراح يشير إلى شخص لائذ بركن ويصرخ وهو يهز يديه:

- هو ذاك.. إن الشخص الذي بث القنبلة.. هو نفسه.. رأيته بعيني...

وقد تطلع إليه الشخص دون أن يفقه شيئاً، ثم ضم قفته البائسة المهلهلة فوق سترته السوداء القذرة التي انطبقت شقتاها المجعدتان فوق صدره. وكان بعض أفراد الجيش الاقليمي أول المتراكضين نحوه، فأمسكوا به من تحت ابطيه، فلم

تبدو منه أية مقاومة، ثم استاقوه إلى وسط الساحة حيث أفرغوا نيرانهم في صدره وبطنه عدة مرات.. فتهاوى دون أن يترك قفته من بين يديه.. وكان الواشي صاحب مكتبة، فصاح بملء أشداقه:

- تحيا العدالة!

لا شك في أنه كان هو، الرجل القميء، الذي أنقذنا. والأرجح أنه عامل بناء، وقد بدا - في الموت أكثر قماءة وضآلة.. وهو ممدد هكذا وسط الساحة الحجرية، إلا أنه كان يتراءى وكأنه يتحدى الدنيا كلها من بعد. ولم يكن في وسعي أن أحول نظري عن صورته، ولا أن أنجو من صمته العميق..

بعد قليل أبيح لنا أن ننطلق، ورفع منع التجول، وراح السكان يتجولون بحرية من جديد: راكبو الدراجات طاروا خفافاً فوق دراجاتهم، والزبائن دخلوا الدكاكين والمخازن وخرج منها غيرهم، ومشتري الثياب الرثة البالية أرسل نداءه المعهود، وبائع الخضر أقبل وهو يدفع عربته.. لقد انتهى الخوف.. ولم يعد يطفو في الجو غير رائحة دم مراق.. إلا أنها كانت تلوث كل شيء وتشقل الرأس والقلب.. وتابعت أنا طريقي، ثم ملت إلى الشارع الذي يصعد نحو حينا.

انه القلق نفسه دائماً، والحيرة ذاتها، والجنون عينه، ودائماً تلك الهوّة المفغورة التي يغيب في أحشائها وجودنا..

في هذا الصباح اكتشفت عشرون جثة معروضة في الساحة القديمة، فذهبت لأراها، وتوافد الكثيرون أيضاً. ومن البيوت والمنازل كانت تتراءى وجوه قد التهبت فيها العيون.

وعند أطراف الساحة كان الجند يردون الناس، ويقيمون المتاريس في الشوارع كلها. ولم يكن في الوسع الذهاب إلى أبعد من ذلك. وكنت أنا أدور هنا وهناك.

في هذه اللحظة ظهرت أغرب مسيرة شهدتها مدينتنا. كانت مكونة من النساء والأولاد فقط.. كان هذا السيل العرم يتقدم وهو يجأر عالياً بـ «نشيد التحرير» وساد العنف مختلطاً بالغضب والألم والتحدي، وما كان أحد ليدري ما الذي كان أكثر دفعاً لهاتيك النساء وأولئك الصبية ذوي الأقدام الحافية لكي يهرعوا ويهرعن هكذا مواجهين السيارات حاملة المدافع الرشاشة.. كانت راية من اللونين الأبيض والأخضر، وقد صنعت من أطمار بالية ممزقة وعقدت بطرفها عصا، تتماوج فوق رؤوس تلك الجموع، واصطف جنود المظلات حول الساحة، وبينما كانت النساء يمررن أمامهم أتين بحركة أطارت أغطية رؤوسهم.. وما هي إلا أن اندلعت النار من فوهات الرشاشات، وشعرت كأنما عمي بصري.. وعندئذ أحسسنا، نحن الذين كنا ننظر إلى تلك الجموع ونسمع أصواتها الخانقة تتصاعد إلى السماء، اننا نذوب في هوة الموت والدم نفسها.. وأردت أن أنطلق نحو هاتيك الجموع وأرفع عقيرتي بالنشيد معها.. وليطلق الجند على الرصاص بعدئذ..

وجاء دورنا فاستدارت فوهات المدافع الرشاشة نحونا.. فتفرقنا وداس بعضنا بعضاً، وعلا الصياح والأنين، وجثونا على الركب..

الساعة الثانية صباحاً.

انفجار هز المدينة. ومن بعيد علت جلبة وضوضاء. شقت العتمة طلقتان فأجابهما سيل من رصاص متدفق خانق.. ثم مرت سيارات ناقلة نصفية رجت البيوت. ولا شيء بعد هذا. لم نعد نسمع شيئاً على الاطلاق. وأضاف الصمت جدراناً أخرى إلى كتلة الليل.

وتنفس الصبح رطباً ندياً، وتدفق الضياء، حتى صرصار الليل استفاق، وراح يرسل صياحه الرقيق. ومن العمائر انطلقت جموع من الصبية احتلت الشارع.

إن أملاً غير معهود شاع في نفسي اليوم. فما معنى هذا؟ أتراه رغبة في البقاء، رغم كل شيء، بعد الانهيار العام؟ انني مستعد أن أقسم - صدقني الناس أم لم يصدقوا - إن الأمل والسلام والنصر.. هذه كلها آتية غداً لا ريب فيها..

وشددت قامتي مهتزاً مرتجاً، صلب العود، متوتراً، ورحت أشجع الآخرين.. في هذه الأثناء أخذ اللاجئون يتدفقون من الريف، يحملون، مع جوعهم ولغوهم، رائحة الأرض، نسمة مخيفة، عنفاً صامتاً.. ورحت أفر بهدوء إلى الحقول التي تكتنف المدينة، والوعيد الذي يخبئه هذا الهدوء.. حتى الشجر كان لا يتحرك، والأغصان لا تميد، والورق يتبدى وحشي التجهم كأنما تلعقه ألسنة من لهب غير مرئية.. كان هذا كله يلوح كأنه يجد في أثر شيء ما..

ومع ذلك فإن وجود النساء على عتبات دورهن أو مجتمعات في أفنيتها، وسماع جلبة أصواتهن وهن يتحدثن، كان هذا يجعلني أستشعر شعوراً غريباً بأنه لم يتغير شيء ولن يتغير شيء.. كان أشبه بهذا الجو البديع الثابت الذي لا يتغير، فلا ضباب، ولا مطر يمكن أن يعكر صفوه.. فما كان أروعه وأحلاه!

إنني ما أزال حراً طليقاً وعلى قيد الحياة - غير انني لا أنفك أتساءل كل يوم: بماذا استوجبت هذا، وما نفعه وجدواه؟ الرصاص ما فتىء يطلق ويتفجر في كل لحظة، وفكري يتجه بغتة إلى «نعيمة» ثم يرتد إلى الأخطار التي تأتي بها كل ثانية.. أفكر فيها في ثنايا الليل وأنا مفتوح العينين في الظلام، وأصغي إلى أقل نأمة في المدينة. غير أن تفكيري يتجه إليها، بصورة خاصة، وفي الصباح، الساعة التي يستيقظ فيها الأطفال فنكون في أشد حاجة إليها..

إن هذه الاصباح النشطة ذات السماء الزرقاء الصافية ولكنها مع ذلك أقرب ما تكون إلى اصباح الشتاء، هي الوحيدة التي كانت خليقة أن توائم بيني وبين

الدنيا، وأنا أكثر ما أكون طواعية، لولا أني أصحو كما أنام: الهم ملء قلبي...

الحياة كابوس يداخلك منه الخوف، والانتظار يتحول، خفية، إلى رضى لا سبيل إلى التعبير عنه. وعلى مهل أخذ يتسلل إلى نفسي التفكير بأنني لن أرى نعيمة أبداً.. بأنها لن تعود.. ولن تقع عليها عيني.. وهي تسير في أرجاء هذه الحجرة كالعهد بها..

ومع ذلك فإني أعيش، وأواصل العيش، وأستمر مترقباً الأصوات والأصداء في البيت، ومستمعاً إلى حكايات الجيران.

أتت بعد هذا أيام ذات رياح عاصفة. وهمد الخريف، وذهب سناؤه مخلفاً وراءه القتام والاربداد. وقد تصلبت الأشجار، ومن فوق أغصانها الجافة ملأت صفحة السماء سحب ربداء، حتى في صميم يأسي وقنوطي وعدم اكتراثي سررت لهذا التحول، وغدت أيام أواخر الخريف لا تطاق بسبب من توهجها وشفافيتها، ونقائها..

وأمطرتنا السماء فكانت في هذا النجاة. استمر هطول المطر طويلاً، لا ينقطع له مدد، مطر متدفق لا سبيل إلى التنفس معه، ينزلق على مهل فوق بلد محترق.. وجعلت حرب الشوارع من نفسها هي الحارسة الساهرة..

وما يزال المطر يهطل وأنا أدير هذه الأفكار في رأسي، وكأنما السماء لم تمسك قط.. وفي المدينة ماء ينفطر ويسيل. كنت أنفق أياماً وأسابيع في ذهاب، واياب، ومساع، وتوسلات.. كنت أدق أبواباً لا حصر لها لكي أجد امرأتي.. وكان يخيل إلي كأن هذا كان في يوم أمس.. في هذا اليوم.. ولكن بلا جدوى.. والمطر لا ينفك يهطل فوق عالم أسود فاحم، وفوق أشجار عارية، ومنازل أحالها المطر قاتمة مربدة..

وإذ أرفع نظري اليوم إلى هذه السماء المسفة الثقيلة، فانني لا ألبث حتى تتراءى لي السماء المغلقة نفسها في تلك الأيام، والشوارع ذاتها الغارقة في الأبخرة والضباب، وأشباح المارة عينها.. وكنت يومئذ ما يزال يساندني ضرب من الأمل كان يتاخم، في الواقع، مناطق عسيرة المنال من النفس حتى لأتردّد اليوم في أن أسميه أملاً..

كنت كأنما قد ألقي بحجر في هوة لا قرار لها فأروح أصغي إلى صوت سقوطه الذي لا ينتهي: أنا كنت هذا الحجر.

وربما كان الأمل الذي كنت أتشبث به هو أن لا يصل هذا الحجر إلى قراره قط..

عندما كانت السماء تنفرج قليلاً، بين حين وآخر، وتلقي بضوئها الأصم على المدينة كنت أخرج وأروح أتسكع في الطرقات.. وأحاول أن أجد بعض اهتمام بحياة الآخرين لعدم استطاعتي الاهتمام بنفسي. كنت في هذه الأثناء لا أعنى بشخصي أبداً. . . .

وفي وقت مبكر من صباح أحد الأيام جاء أحدهم وناداني وأنا لا أزال في البيت. كنت ا أعرف هذا الرجل الذي كان ينتظرني على عتبة الباب. وقد 'جتذبني إلى ناحية غير بعيدة، وراح يحدثني وهو يخافت من صوته.

قال لي أنهم.. منذ وفاة رجل كان يصنع الأحذية.. وجدوا أنفسهم في بعض حرج وضيق. فقد كان ركأنه يحتل مركزاً له أهميته.. ثم ان البوليس لم يضع عليه علامة اشتباه على الرغم من كل ما حصل.. واذن فان في الامكان العودة إلى استعمال هذا الدكان.. ثم أضاف قائلاً:

لا شك في أنك كنت معه، ما دمت قد ذهبت غداة المجزرة، تسأل جيرانه

عن مصيره.. ومنذ ذلك اليوم لم نجد أحداً يحتل مكانه ويعود إلى فتح دكانه.. على الأخص لم نجد أحداً من جيرانه المقربين إليه.. ولا بد من استعادة الدكان.. أو لا تريد أنت أن.. على أي حال فان ثمة وقتاً كافياً لكي تفكر.. اننا لا نستعجلك الأمر.. بل أنت في حل من أن تقدم جواباً، إذا كان هذا لا يروق لك..

وتركت هذا الرجل يلقي خطابه ريثما أكون فكرة عنه - وأخيراً قلت له:

- هل معك مفاتيح الدكان؟

فأخرج من جيب بنطاله حلقة تضم مفتاحين، فأخذتها منه، ثم مضى.

انني أوقف هذه الذكريات.. فان التفكير في زوجتي، وفي صانع الأحذية، وفي الآخرين، هو الذي ساندني، وأعانني على أن أعيش حتى هذا اليوم!

لقد عرفوا، هم، لماذا قضوا نحبهم..

آرنست هيمنغواي (أميركا)

قط تحت المطر

لم يكن في الفندق غير اثنين من الأميركيين. ولم يكونا يعرفان أحداً من النزلاء الذين يلتقيان بهم في السلم وهما ذاهبان إلى غرفة نومهما، أو هما خارجان منها. وكانت غرفتهما في الطابق الثاني، تطل على البحر، وكان يبدو منها منظر الحديقة العامة والنصب المقام للأموات. وكانت في الحديقة أدواح من النخيل الباسق ومقاعد خضراء اللون.

وكثيراً ما كان يشاهد، حين يصحو الجو ويروق، أحد الرسامين وقد جلس إلى لوحته وأدوات رسمه.

لقد كان الرسامون يحبون أشكال هذا النخيل الباسق، والألوان الزاهية المتألقة لتلك الفنادق المشرفة على الحديقة العامة والبحر معاً. وكان الايطاليون يأتون من بعيد ليشاهدوا النصب المقام للأموات. انه مصنوع من «البرنز»، وكان دائماً يلمع تحت وابل المطر. وكانت قطرات الماء تتهاوى من أعراف النخيل. ثم تتكون منها برك صغيرة في الممرات المفروشة بالحصباء. وكانت أمواج البحر تتدافع على امتداد الشاطيء، ثم ترتد لتعود أعنف وأشد فتتكسر على الرمال وراء ستار من المطر الثقيل.

كان الميدان القريب من النصب المقام للأموات خلواً من السيارات.. ومن الناحية الأخرى كان يقف فتى من الخدم في مدخل أحد المقاهي وهو يتأمل الميدان

المقفر.

وكانت المرأة الأميركية تنظر إلى الخارج من خلال زجاج النافذة. ورأت في الجانب الواقع مباشرة تحت نافذة غرفتها في الحديقة، هراً لبد في مكانه تحت منضدة خضراء يتقطر منها المطر، وكان القط يتقبض ويتداخل بعضه في بعض محاولاً بذلك أن يتجنب قطرات الماء. قالت الأميركية «سأهبط لآتي بهذا الهر المسكين»، واقترح زوجها وهو لا يز ال راقداً في سريره. قال «سأذهب أنا لآتي به، فقالت «كلا. سأذهب أنا. يا للصغير المسكين الذي يحاول أن يحتمي تحت المنضدة». وعاد الزوج يقرأ، وهو لا يزال راقداً متمدداً، ورأسه فوق وسادتين في مؤخرة السرير. ثم قال لامرأته: احذري أن تبتلي.

ونزلت الأمريكية. وعند مرورها وقف صاحب الفندق وحياها. وقد كانت منضدته في أقصى غرفة مكتبه. انه رجل عجوز ولكنه ضخم، منيف القامة وكانت الأميركية تنطوي له على مودة فقالت: - المطر ينهمر - فأجابها بلهجته الايطالية : - أجل، أجل يا سيدتي. يا له من جو سيء سيء جداً.

كان صاحب الفندق واقفاً وراء مكتبه، في صدر الغرفة المعتمة، وكانت المرأة الشابة تحبه. تحب برودة طبعه الهادىء إذ يتلقى جميع الطلبات. وكانت تحب وقاره، وحسن قيامه بالخدمة، وطريقته في فهم مهنته. وكانت تحب وجهه الهرم الثقيل، ويديه الكبيرتين.

فتحت باب الفندق وهي تحس بهذه المشاعر تعتمل في صدرها. وألقت نظرة إلى الخارج. كانت السماء لا تنفك تمطر ثقيلاً، ورأت رجلاً يجتاز الميدان الخالي متجهاً إلى المقهى وقد ارتدى معطفاً واقياً من المطاط. إن الهر لا بد أن يكون في جهة ما إلى اليمين. ولعلها تستطيع أن تسير محاذية للجدار وتتقي المطر برفرف السطح. وفيما كانت تنتظر متلبثة عند عتبة الباب، شعرت أن مظلة فتحت

خلفها. لقد كانت احدى خادمات الطابق الثاني هي التي أتت بالمظلة وفتحتها. وقالت الفتاة بالايطالية: «لا ينبغي أن تبللي نفسك» وكانت تبتسم. ولا ريب في أن صاحب الفندق هو الذي أوعز إليها أن تفعل ذلك. وسارت الأميركية وهي تتقي المطر بالمظلة التي تحملها الفتاة. وقطعت الممر المفروش بالحصى إلى أن وصلت إلى المكان الواقع تحت نافذة غرفتهما. كانت المنضدة هناك، خضراء تلمع تحت ماء المطر. ولكن الهر كان قد اختفى. وشعرت الأميركية بخيبة الأمل. ونظرت إليها الخادمة وقالت لها بالايطالية: - هل فقدت شيئاً يا سيدتي؟ - وقالت الأميركية: - كان هنا قط - .

- قط؟

- أجل.. قط..

وقالت الخادمة وهي تضحك: «قط؟ قط تحت المطر؟».

- أجل. قط تحت الطاولة. آه.. شد ما اشتهيته. كنت أريد هذا القط.

وقالت الخادمة: هيا يا سيدتي.. يجب أن نعود، فانك على وشك أن تبتلي.

وقالت الأميركية: - أجل. لا ريب في هذا.

ورجعتا سائرتين في الممر. واجتازت الأميركية الباب. وبقيت الخادم هنيهة في الخارج لتغلق المظلة. ولما مرت الأميركية أمام مكتب مدير الفندق حياها من مكانه. وأحست بحلقها ينكمش وبأنها صغيرة جداً أمام صاحب الفندق، وأنها ذات شأن وأهمية في نفس الوقت. لقد داخلها الشعور، هنيهة، بأنها ذات أهمية عظمى. ثم صعدت السلم وفتحت باب غرفتها. كان زوجها جورج لا يزال يقرأ مضطجعاً على السرير. فسألها وهو يضع كتابه: «هل وجدت ذلك الهر؟.»

وأجابته «كان قد ذهب.» فقال: «أين أمكنه أن يذهب يا ترى».. وجلست على السرير وقالت: شد ما اشتهيته. لا أدري لماذا اشتدت بي الرغبة في الحصول عليه. لقد كنت أريد هذا الهر المسكين. ليس مما يضحك أن يكون ثمة قط صغير يعاني وطأة المطر في الخارج.

وكان جورج قد عاد يقرأ. ونهضت هي، وسارت إلى نضد الزينة، وجلست على مقعد قبالة مرآتها، وراحت تتفحص جانباً من محياها، ثم الجانب الآخر. وبعد هذا تفحصت عنقها من أمام ومن خلف. ثم سألت زوجها قائلة، وهي لا تنفك تتأمل صفحة وجهها: ألا تعتقد أن الأفضل أن أدع شعري ينمو ويطول؟

وتطلع جورج إلى قفاها الحليق كأقفاء الفتيان وقال: «أحب أن تبقي عليه كما هو.» فقالت «أما أنا فهذا حسبي. وكفى أن أظل أبدو وكأنني فتى».

وغير جورج وضعه في السرير. وكانت عيناه لم تفارقاها منذ شرعت تتحدث، ثم قال – انك جميلة جداً – وأعادت هي المرآة إلى نضد الزينة ودلفت نحو النافذة وتطلعت إلى الخارج. كان الليل قد طفق يرخي سدوله. وراحت تقول: «أريد أن أسحب شعري إلى الخلف، وأن يكون أملس ناعماً وأن أجعل منه عقيصة كبيرة أحس بها، وأريد أن يكون لي قط يرقد على ركبتي ويروح يهر وأنا ألاطفه»..

وقال جورج وهو في سريره: – أصحيح هذا؟ – ومضت هي تقول: وأريد أن أتناول طعامي على المائدة المزدانة بجميع أدواتها وفضياتها، وأريد لها شموعاً، وأريد أن يكون الفصل الآن ربيعاً، أريد أن أسرح شعري بفرشة كبيرة أمام المرآة. أريد قطاً وأريد أثواباً جديدة..

قال جورج: اسكتي.. اسكتي.. وعليك بكتاب.

وعاد هو يقرأ.

وتطلعت الزوجة من النافذة، فإذا الدنيا قد لفها ظلام مطبق، والسماء لا تنفك تمطر فوق النخيل. وعادت تقول: - على أي حال أريد قطاً. أريد قطاً. أريده حالاً! وإذا كنت لا أستطيع أن يكون لي شعر طويل، وإذا كنت لا أستطيع أن ألهو، فانه يمكن أن يكون لي على الأقل قط.

ولم يعد جورج يصغي إليها. كان يقرأ في كتابه. ومن النافذة كانت امرأته تنظر إلى الميدان الذي أنير في تلك الآونة.

وقرع الباب، فقال جورج وهو يلتفت نحوه:

«ادخل.» وكانت الخادمة هي التي انفرج عنها الباب. وكانت تحتضن قطاً كبيراً، أربد، أغبر، كأنه قوقعة السلحفاة. قالت الخادمة معتذرة: ان المدير أمرني أن أحمل هذا إلى السيدة..

آرنست هيمنغواي (أميركا)

الكناري المسافر

مر القطار كالسهم أمام بيت مستطيل من الحجارة الحمراء، وللبيت حديقة وأربع نخلات تنهض في ظلها بضع طاولات.. وكان البحر يقع في الناحية الأخرى ثم تبع ذلك شق كبير محفور في الحجر الأحمر، ولم يعد البحر يظهر قط إلا بين فترة وأخرى ومن أسفله عند ارتطام موجة بالصخور..

وقالت المرأة الأميركية:

لقد اشتريت الكناري من مدينة باليرم. وكان اليوم يوم أحد، ولم نلبث على البر إلا ساعة. وكان الرجل لا يريد ثمنه إلا بالدولارات، فدفعت له دولاراً ونصف الدولار. في الحق انه يغرد تغريداً رائعاً.

كان الحر شديداً في القطار وغرفة الجلوس فيه. وما كانت لتدخل نسمة هواء واحدة من النافذة الزجاجية المفتوحة. وأسدلت الأميركية الستار، وعندئذ اختفى البحر تماماً. وفي الناحية الأخرى كانت نافذة، ثم الممر، ثم شباك زجاجي مفتوح. وفي الخارج شجر مغبر، وطريق من الحصباء، ومغارس كروم منبسطة فوق تلال غبراء ضاربة إلى الزرقة. وهنا وهناك كان يتصاعد بعض الدخان من مدخنة عالية. وتباطأ القطار عند مدخل مدينة مارسيليا، وراح يشق لنفسه طريقاً بين الخطوط الحديدية المتشابكة، التي تؤدي إلى المحطة. وقف القطار في مارسيليا

خمساً وعشرين دقيقة، واستطاعت الأميركية أن تشتري صحيفة «الديلي ميل» ونصف زجاجة من ماء «افيان» المعدني. وقد تمشت قليلاً على الرصيف ولكن دون أن تبتعد كثيراً عن مقصورتها في القطار، ذلك أنه، في مدينة «كان»، وقف اثنتي عشرة دقيقة ثم انطلق دون أن يرسل صفيره المعتاد، فلم تجد، هي، من الوقت غير لحظة مكنتها من ركوبه ثانية. وكانت الأميركية ثقيلة السمع، ولهذا كانت تخشى أن لا تسمع صفير انطلاق القطار.

غادر القطار محطة مارسيليا بخطوطها الحديدية ودخان معاملها تاركاً وراء شعاعات الشمس الأخيرة تأتلق فوق الماء، وتاركاً المدينة ومرفأها المحاطين بالتلال الصخرية. وإذ أوشك الليل أن يهبط مر القطار بمزرعة اشتعلت فيها النار وسط أحد الحقول. وقد توقف عدد من السيارات على طول الطريق وتبعثر الفراش والأثاث ومختلف الأدوات في الحقل، وتجمهر كثير من الخلق يشاهدون البيت الذي تلتهمه النيران. وكان قد حل الظلام تماماً عندما بلغ القطار محطة آفنيون وراح ركاب يهبطون من القطار وركاب غيرهم يصعدون. وكان ثمة فرنسيون عائدون إلى باريس يشترون من كشك المحطة صحفاً فرنسية. وعلى رصيف المحطة وقف جنود من الزنوج، لقد كانوا أقوياء أشداء في زيهم العسكري الكستنائي اللون، وكانت وجوههم تلمع قريباً من النور.. كانوا شديدي السواد، منيفي القامات، فلا يجسر أحد أن يحدق النظر فيهم. وغادر القطار محطة آفنيون تاركاً الزنوج واقفين على الرصيف ومعهم وكيل ضابط اوروبي.

كان خادم القطار قد أنزل، في مقصورة النوم، الأسرة الثلاثة التي تطوى وترد إلى حاجز المقصورة نهاراً، وبسط فوقها الأغطية. وما استطاعت الأميركية أن تغمض عينها طيلة الليل، لأن القطار كان من النوع السريع الذي ينطلق دون أن يلوي على شيء، ولأنها، كانت، يتملكها الذعر من السرعة ليلاً. وكان سريرها محاذياً للنافذة وكان «الكناري» الذي اشترته من باليرم في قفصه الملتف

بستار، فهو بذلك بعيد عن مجاري الهواء في الممر المؤدي إلى مرافق المقصورة، وكان في الممر مصباح أزرق النور، واستمر القطار منطلقاً طيلة الليل وظلت الأميركية ممددة دون أن تنام في انتظار الكارثة التي ستحدث..

اقترب القطار من باريس مع اشراقة الصباح وخرجت الأميركية من مخدعها نشطة نضرة رغم ليلتها البيضاء تلك، انها امرأة نصف، بين عمرين، ونموذج للمرأة الأميركية وقد نحّت الستار عن قفص الكناري وعلقته في ضوء الشمس، ثم ذهبت إلى مطعم القطار لتنارل فطورها. ولما عادت إلى مقصورتها كانت الأسرة قد طويت واتخذت مكانها في الجدار، وتحولت إلى مقاعد، وكان الكناري ينفض ريشه في الشمس التي دخلت أشعتها من النافذة الزجاجية المفتوحة.. وأصبح القطار قريباً جداً من باريس وقالت الأميركية:

– انه يهيم بالشمس.. ولن يلبث أن يروح يغرد..

ونفض الكناري ريشه، ونقر نفسه بضع نقرات وعادت الأميركية تقول:

– لقد أحببت العصافير دائماً واني لذاهبة به إلى حفيدتي، هاكه انه يغرد الآن.

وغرد الكناري، وانتفش ريش عنقه.. ثم عاد ثانية ينقر نفسه. ومر القطار فوق نهر، وبعد أن اخترق غابة معتنى بها جداً اجتاز مجموعات منازل الضواحي، وكان في الشوارع حافلات، ولوحات اعلانات فوق الجدران موجهة للمرأة التي تعني بحديقتها. وكان المشاهد يحس لدى تتابع هذه المناظر من خلال نافذة القطار احساساً عجيباً بأن ساعة الفطور لم تحن بعد، ومضت دقائق عديدة لم أسمع خلالها المرأة الأميركية وهي تتحدث إلى زوجتي. وسألتها:

– هل زوجك أميركي أيضاً؟

وقالت زوجتي:

- أجل. هو وأنا أميركيان.

- حسبتكما انكليزيين.

- أه! كلا!

وقلت أنا مصطنعاً التعبير الانكليزي:

- ربما لأنني أستعمل حمالات لبنطالي.

وأوشكت أن أصطنع الكلمة الأميركية لحمالات البنطال إلا أني أمسكت لأظل محتفظاً بطابعي الانكليزي.

ولم تسمع الأميركية ما قلت فقد كانت صماء تماماً.. وكانت طريقتها أن تقرأ الكلمات على شفاه قائليها، وأنا كنت قد أدرت لها ظهري إذ كلمتها. واستمرت تحدث زوجتي فيما كنت موشكاً أن أنظر من النافذة:

- انني جد مغتبطة أن تكوني أميركية. إن الأميركيين أفضل الأزواج. ولهذا السبب تركنا، نحن، القارة. لقد وقعت ابنتي في حب في مدينة - فيفي - وأمسكت عن الكلام ثم عادت تقول: - ولقد جن أحدهما بحب الآخر - وأمسكت عن الكلام مرة أخرى ثم قالت: - وبالطبع عدت فاستقدمت ابنتي.

وقالت زوجتي:

- وهل نسيت هذا الحب الآن؟

فقالت الأميركية:

- لا أعتقد. انها لا تنام.. ولا تتناول شيئاً من الطعام. وبذلت لها جهدي ولكن يبدو انها لا تريد أن تهتم بشيء. لقد أصبح، في نظرها، كل شيء سواء.. وما كان في وسعي أن أدعها تتزوج غريباً.. ان أحدهم - وهو صديق حميم - قال لي مرة: ما من رجل غريب يمكن أن يكون زوجاً صالحاً للمرأة الأميركية.

قالت زوجتي:

- لا يمكن. هذا هو الأرجح. راحت الأميركية تتأمل معطف السفر الذي ترتديه زوجتي.. واتفق أن زوجتي ظلت تشتري جميع لوازمها - منذ عشرين عاماً - من محل الأزياء ذاته بشارع سانتو نوريه بباريس. وكانت عند المحل أقيستها وثمة بائعة تعرفها، وتعرف ذوقها، فتختار لها ثيابها وترسلها إلى أميركا، فتصل إلى مكتب البريد في نيويورك قريباً من منزلنا، فندفع رسوم الجمارك وهي غير باهظة، إذ أن تلك الثياب كانت تستخرج من صناديقها ويجري تقديرها في مكتب البريد نفسه، وانها لثياب بسيطة لا زخرف فيها، ولا توشية تكسبها مظهراً نفيساً، ثميناً. وقبل هذه البائعة الحالية التي تحمل اسم تيريز كانت ثمة بائعة غيرها اسمها اميلي، وما عرفت زوجتي غيرهما في مدى عشرين عاماً. ومع ذلك فإن الأسعار كانت قد ارتفعت، ولكن فرق العملة كان يسد دائماً فرق السعر. وعند محل الأزياء هذا أقيسة ابنتها الآن، وهي فتاة راشدة، والأمل ضعيف في أن تستبدل به محلاً آخر. وصل القطار إلى باريس، وكانت صفوف من العربات والمقطورات تنتظر فوق قضبانها الحديدية: عربات المطاعم، وعربات النوم ذات الخشب الكستنائي التي ستنطلق إلى ايطاليا في الساعة الخامسة، هذا المساء، لو صح أن رحلة هذا القطار هي دائماً في الساعة الخامسة. وكان المرء يستطيع أن يقرأ على تلك المقطورات عبارة باريس - روما. وكان ثمة أيضاً مقطورات من ذوات الطابق الواحد مخصصة لرحلات الضواحي، حيث يتكدس الناس حتى سقوفها في بعض الساعات.. فتنطلق هذه القطارات

بهم مارة أمام الجدران البيضاء والمنازل ذوات النوافذ التي لا عداد لها. وما كان انسان أو غير انسان قد تناول بعد شيئاً من فطور الصباح.

قالت الأميركية لزوجتي:

– الأميركيون هم أفضل الأزواج!

وكنت أنا منهمكاً في انزال الحقائب عن الرفوف المصنوعة من الشبك. وعادت الأميركية تقول:

– الأميركيون هم وحدهم، من رجال الدنيا، الخليقون أن تتزوجهم النساء.. وسألتها زوجتي:

– منذ متى غادرت مدينة فيفي؟

– منذ سنتين.. ومن أجلها هي أتيت بهذا الكناري.

– هل كان الرجل الذي أحبته ابنتك سويسرياً؟

– أجل، وهو من أسرة كريمة في مدينة فيفي. وعندما التقينا كان يوشك أن يصبح مهندساً. وكانا يقومان معاً، في أكثر الأحيان، بنزهات طويلة

وقالت امرأتي:

– أنا أعرف مدينة فيفي، كنا قد مررنا بها في شهر العسل.

– أصحيح هذا؟ لا بد انه كان جد ممتع.. وبالطبع لم أكن لأتصور أبداً أنها ستغرم به.

وقالت زوجتي:

- انها مدينة رائعة.

قالت الأميركية:

- أجل. رائعة.. أليس كذلك؟ في أي فنادقها نزلتما أنت وزوجك؟

- في فندق التيجان الثلاثة.

قالت الأميركية:

- أوه! انه فندق قديم ظريف جداً.

- أجل قالت امرأتي، لقد أقمنا فيه بغرفة بديعة، وكان الريف ساحراً في الخريف.

- كنتما هناك في الخريف؟

- أجل..

ومر القطار متجاوزاً ثلاث مقطورات تالفة، مبقورة البطون مقتلعة السطوح.

وقلت أنا:

- انظري.. بقايا حادث صدام..

وتطلعت الأميركية إلى حيث أشرت فشاهدت المقطورة الأخيرة وقالت:

- هذا ما كنت أخشاه طيلة الليلة الماضية. انني أحياناً تنتابني أحاسيس مسبقة خارقة. لن أركب منذ اليوم قطار الليل، ولا ريب في أن هناك قطارات أخرى مريحة لا تنطلق بسرعة.

ثم دخل القطار محطة ليون الدكناء بباريس، وتوقف واقترب الحمالون. وجعلت أناولهم الحقائب من خلال النافذة، ثم التقينا جميعاً على رصيف المحطة المستطيل المعتم. وسلمت الأميركية أمورها لأحد موظفي شركة كوك الثلاثة الذي قال لها: لحظة يا سيدتي.. دعيني أبحث عن اسمك. وجاء الحمال بعربة يد راكم فوقها الحقائب، واستأذنا، زوجتي وأنا. من المرأة الأميركية، وكان موظف شركة كوك قد وجد اسمها مكتوباً بالآلة الكاتبة في ورقة أعادها إلى جيبه، وسرنا نحن في أثر الحمال وعربته على امتداد القطار حتى بلغنا نهاية الرصيف. وعند الباب أخذ أحدهم بطاقات السفر منا.

لقد عدنا إلى باريس، زوجتي وأنا، لكي نعيش منفصلين.. كل على حدة..

كاثرين مانسفيلد (نيوزيلاندا)

الذبابة

قال الرجل العجوز « وودفيلد » بصوت يعروه الارتعاش:

-انك على أحسن ما يرام هنا..

ثم راح يتطلع حوله بفضول، وأطل برأسه خارج المقعد الكبير المصنوع من الجلد الاخضر، والموضوع قريبا من مكتب صديقه المدير، تماما كما يطل برأسه طفل من عربته الصغيرة .

كان الحديث قد انتهى، وحان وقت انصرافه..الا انه لم تكن به رغبة في ذلك. وهو منذ اعتكافه..منذ اصابته..كانت امراته وبناته يحتجزنه في البيت كل ايام الاسبوع، سوى يوم الثلاثاء. في هذا اليوم كن يلبسنه ثيابه، وينفضن عنها الغبار، ويهندمنه، ويأذن له في الذهاب الى المدينة طيلة يومه. وما كانت امراته وبناته ليستطعن أن يتخيلن ما يفعله في المدينة. وكن يحسبن أنه يضايق، بشخصه، أصدقاءه ويسئمهم. اجل، فربما كان الامر كذلك!

انتهى الحديث، ولكن الرجل العجوز تشبث بالبقاء كما تتشبث الشجرة بأواخر أوراقها. وظل جالسا يدخن سيجاره الكبير، ويتأمل، بنظرة يغلب عليها الحسد، المدير الذي احتل مكانه راضيا مرتاحا، وقد بدا قويا، متينا، مورد الخدين، ناضر المظهر، وهو مع ذلك أكبر منه بخمس سنوات، ان المرء ليشعر

بالارتياح حين يراه.

وعاد الصوت الراعش يقول باعجاب واشتهاء:

-بشرفي انك لعلى احسن ما يرام هنا!

وأمن المدير على ذلك قائلا:

-أجل. المكان مريح.

وتناول مسطرة وراح يضرب بها صحيفة « التيمس» المالية ضربا خفيفا متتاليا. فقد كان في الواقع، فخورا بحجرة مكتبه، وكان يحب ان يجعلها مثار الاعجاب، وعلى الاخص اعجاب «وودفيلد» العجوز. وكان يستشعر الرضى العميق أن يرى نفسه رابضا وسط حجرته على مرأى قريب من ذلك الشيخ المهزول المتدثر بارديته:

وقال:

-لقد أعدت فرشها واصلاحها مؤخرا: بساط جديد..

واشار باصبعه الى البساط الاحمر المتوهج، وقد ارتسمت عليه دوائر كبيرة بيضاء.

-أثاث جديد.

وبرأسه أومأ الى خزانة الكتب الضخمة، ثم الى المنضدة ذات القوائم المجدولة كأنما صنعت من الدبس الاسود المعقود.

-ومدفأة كهربائية...

وأشار مبتهجا، ظافرا، الى الاصابع الكهربائية الخمس التي تتألق في وعائها النحاسي الماثل أمامه. الا انه لم يعمل على استرعاء نظر وودفيلد العجوز الى صورة موضوعة فوق المنضدة. كانت صورة فتى رصين النظرة، وقد وقف ببزته العسكرية في حديقة اصطناعية من حدائق المصورين، وبدت وراءه غيوم تنذر بعاصفة هوجاء. لم تكن الصورة جديدة. انها قائمة في موضعها ذاك منذ أكثر من ست سنوات .

قال وودفيلد العجوز:

-كنت اريد ان احدثك في أمر ما..

وغامت عيناه فعل من يريد ان يتذكر:

-*والان ما عسى ان يكون هذا الامر يا ترى؟ لقد كان في ذهني ساعة خرجت* هذا الصباح..وراحت يداه ترتجفان، وظهرت على وجنتيه من فوق لحيته بقع حمراء.

وفكر مدير المكتب:

-يا للشيخ المسكين..انه مشرف على نهايته ولا ريب..

ثم حدجه بنظرة عطوف من جانب عينه وقال يمازحه:

-ساخبرك انا بهذا الامر الذي يستعصي عليك تذكره..عندي بضع قطرات من شيء ينفعك قبل ان تعود الى الخروج في هذا البرد..انه شيء رائع ولا يمكن أن يؤذي طفلا.

وتناول مفتاحا معلقا بسلسة ساعته، وفتح به درجا في أسفل مكتبه، وأخرج

زجاجة سوداء منتفخة وقال:

-هذا هو العلاج. ولقد أنبأني الرجل الذي أتاني بالزجاجة..ولو أخرج المدير من الدرج ارنبا لما كانت دهشته أشد وأعظم..وراح يقول هامسا بصوت واهن:

-ولكن هذا..ويسكي..اليس كذلك؟

وادار صاحب المكتب الزجاجة، واراه بلطف رقعتها الملصقة عليها. انه ويسكي حقا..

وقال الرجل العجوز وهو يرفع الى المدير نظرة حائرة:

-اتدري..انهم في البيت لا يدعون لي قطرة منه.

وبدا عليه كأنما يهم ان يبكي.

وهتف المدير وهو يدلف من مكانه ليأتي بكاسين موضوعين فوق طاولة مع ابريق ماء:

-آه! اننا في هذا المجال ادرى من السيدات قليلا..

وراح يسكب من الويسكي بسخاء، مقدار أصبع في كل كأس ويقول:

-خذ واشرب..انه يفيدك. ولكن لا تضف اليه ماء، والا انتهكت حرمة هذا الرحيق! وشرب كأسه دفعة واحدة، واخرج منديله ومسح شاربيه بسرعة، ورفت عينه وهو ينظر الى وودفيلد العجوز الذي راح يمتص الويسكي امتصاصا.

وانتهى الشيخ من شرب كأسه، ولزم الصمت هنيهة ثم قال بصوت خافت:

-ان له نكهة البندق..

لقد اشاع الويسكي الدفء في بدنه، وتسلل الى دماغه المقرور. وما لبث أن تذكر..

وراح يقول وهو يقتلع نفسه من مقعده الكبير:

-اجل هو ذاك. لقد حسبت انك تحب ان تعرف ذلك: بناتي ذهبن الى بلجيكا في الاسبوع الماضي. ليلقين نظرة على قبر فقيدنا العزيز ريجي، ووجدن قبر ولدك مصادفة. ان القبرين متجاوران فيما يبدو.

وأمسك عن الكلام. غير ان المدير لم يجب. ارتعاش اجفانه فقط دل على انه سمع ما قيل.

وعاد الصوت الكبير يقول:

-كانت البنات جد مبتهجات لما رأين المبالغة في العناية بالمقبرة. ان القبرين لو كانا هنا ما وسعنا ان نكون اكثر عناية بهما. الم تذهب الى هناك؟

-كلا..كلا..

ولاسباب شتى لم يكن المدير قد ذهب الى هناك.

واردف وودنيلد العجوز بصوته المرتعش :

-المقبرة تمتد مسافة اميال.. والعناية مبذولة لها كأنها عناية بحديقة غناء فثمة أزهار نامية على جميع القبور، وممرات واسعة ممتدة..

وكان صوته ينبيء بمبلغ حبه الممرات الممتدة. ومن جديد ساد الصمت، ثم دبت الحياة في صوت العجوز بصورة مفاجئة وراح يهمهم:

-أتدري كم دفعت البنات للفندق، ثمنا لقارورة مربى؟ عشرة فرنكات! اني اسمي هذا اختلاسا، لقد كانت قارورة صغيرة فيما قالت ابنتي جرترود، وهي لم تتناول منها أكثر من ملعقه صغيرة واحدة، فتقاضوها عشرة فرنكات! ان هذه تجارة بعواطفنا. هؤلاء الناس يتصورون اننا، اذ نذهب الى بلادهم لنلقي نظرة على قبور اعزائنا، يتحتم علينا ان ندفع لهم أي ثمن يطلبونه..واستدار نحو الباب.

وعلى الرغم من ان المدير لم يكون لنفسه أي رأي في الموضوع فقد هتف قائلا :

صحيح.. هذا صحيح تماما.. ثم دار حول مكتبه، وتبع خطى الشيخ الوئيدة مودعا اياه حتى الباب. لقد ذهب وودفيلد.

وانقضت برهة ظل المدير خلالها تائه النظر لا حراك به. وكان خادم المكتب الاشيب يدخل مصوب العينين نحو المدير،وكانه كلب ينتظر ان يؤخذ في جولة. وناداه المدير اخيرا وقال:

-ماسي، لا اريد ان ارى أحدا يدخل على مدة نصف ساعة. مفهوم؟ لا أحد على الاطلاق..

-حسن جدا يا سيدي.

وأغلق الباب. وعاد المدير الى تجواله على البساط ذي الالوان المتوهجة بخطى ثابتة، ثقيلة الوطء، ثم ترك جسمه البدين يهبط في المقعد الكبير، وانحنى الى أمام، وحجب وجهه براحتيه. كأنه يريد ان يبكي. كان قد اعتزم ان يبكي واتخذ لذلك أهبته، لقد أحسّ بصدمة عنيفة حين أشار وودفيلد الى قبر والده. خيل اليه عندئذ ان الارض تنشق أمامه، وانه يشاهد ولده مسجى تحت

عينيه، وبنات وودفيلد يتأملنه. ما أغربه من أمر، لقد انقضى أكثر من ست سنوات، ومع ذلك فان مدير المكتب لا يتمثل ابنه ابدا الا ممدا وهو لا يزال ناضر المحيا لم يمسسه سوء، في بزته العسكرية، وقد رقد رقدته الاخيرة: وصاح المدير:

-واولداه !

غير ان الدموع لم تطاوعه. فيما سبق، في الشهور الاولى، وحتى بعد سنوات من موت ولده، كان حسبه أن ينطق بهذه الكلمات حتى يشعر بالالم الشديد الذي لا يطامن من شدته غير نوبة حادة من البكاء.

ويومذاك قال للجميع ان الزمن لا يمكن ان يحمل اليه أي عزاء. ان الاخرين يمكنهم ان يَسْلوا ويتحملوا في النهاية الخسارة الفادحة. أما هو، فلا. كان هذا يتراءى مستحيلا.. لقد كان ابنه وحيده.. ومنذ ولادته عكف مدير المكتب على العمل دون وناء. كان يريد ان ينهض به له وحده.. وبدونه ما كان لهذا العمل أي معنى.. الحياة نفسها اضحت هي الاخرى لا قيمة لها غير ذلك. وكيف استطاع اذن، ان يعمل جاهدا، ويكد كل هذه السنين الطوال، وينكر ذاته، ويذل نفسه لو لم يكن نصب عينيه دائما الامل بأن يرى ولده يخلفه ويتسلم زمام العمل من حيث يتركه هو؟

هذا الامل كان وشيكا ان يتحقق. وقد جاء ولده الى المكتب، قبل الحرب بسنة واحدة، وراح يدرس دخائل العمل. كانا ينطلقان من البيت معا كل صباح، ويعودان مساء في القطار نفسه. وما اكثر الثناء الذي تلقاه ولده وما كان في هذا ما يدعو الى الدهشة، فقد نجح الابن نجاحا باهرا منذ البداية. واحبه موظفو المكتب كبيرهم وصغيرهم، حتى الخادم العجوز ماسي. كلهم كانوا يثنون عليه. ولم يفسده النجاح أبدا. فقد ظل كالعهد به دائما، مرسلا على سجيته، وكله اندفاع وحيوية، يجد الكلمة الطيبة التي تلائم كلا منهم، وفي عينيه تلك النظرة

الصبيانية الحلوة.

هذا كله..قد انتهى..وتلاشى..كأنه لم يكن قط. انتهى يوم أقبل الخادم ماسي ومد يده ببرقية الى المدير. كان مطلعها هكذا:- يؤلمنا ألما عميقا ان نخبركم..ولهذا انهار كل شيء في نفسه..وغادر مكتبه وهو انسان محطم وحياته أنقاض..

وراح يفكر:

-ست سنوات..ست سنوات مضت..ما أسرع ما يمر الزمان. لكأن هذا وقع في الامس. ونحى يديه عن وجهه، وادهشه أن شيئا في نفسه يبدو غير سوي. لم يكن يحس بما كان يود ان يحس به. وقرر ان ينهض ويلقي نظرة على صورة ولده..وتبين له انها ليست خير صورة له. لم يكن التعبير فيها طبيعيا، وبدت صارمة قاسية. وما كان ابنه ليبدو هكذا قط.

وفي هذه اللحظة رأى المدير ذبابة هوت في دواة الحبر الكبيرة. وقد حاولت، على ضعف، ولكن بهمة المستيئس، أن تخرج منها متسلقة حافتها. وكانت سيقانها الضعيفة كأنما تقول وهي تختلج وتضطرب: الغوث..الغوث.. الا ان جوانب الدواة رطبة ملساء، زلقة، فكانت الذبابة تقع فيها من جديد، وتروح تسبح في المداد. وتناول المدير ريشة الحبر فأخرج بها الذبابة والقاها بنفضة خفيفة على ورقة النشاف، فبقيت جزءا من دقيقة ولا حراك بها، فوق بقعة الحبر الاسود الاخذة بالاتساع حولها شيئا فشيئا، ثم تحركت رجلاها الاماميتان، ثم وجدتا نقطة ارتكاز، فراحت تدفع بجهد بالغ جسمها الصغير المبتل الى اعلى، وشرعت من بعد تقوم بعملها العظيم لازالة الحبر من جناحيها..وكانت رجلها تعلو وتهبط، على امتداد الجناح كما ينتقل حجر فوق المنجل الكبير مرة وتحته مرة..

ومرت برهة سكون بدت الذبابة خلالها كأنها قد نهضت على أطراف

أرجلها-تحاول ان تبسط جناحا من بعد جناح. ولقد أفلحت اخيرا، فجثمت وشرعت تنظف وجهها كما يفعل الكلب الصغير. ثم لاحت رجلاها الخلفيتان الصغيرتان تحك احداهما الاخرى حكا لطيفا، باعثا على السرور. لقد زال الخطر الهائل، وكتبت لها النجاة، وكانت على وشك أن تستأنف حياتها من جديد..

ولكن..في هذه اللحظة بالذات.. خطرت للمدير فكرة: فعاد وغمس ريشته في المداد الاسود، رضغط بقبضته القوية على النشاف، وفي اللحظة التي كانت الذبابة تجرب فيها جناحيها انقضت عليها قطرة كبيرة ثقيلة من الحبر. ماذا تراها ستفعل؟ أوه ان الامر بسيط. لقد بدت الصغيرة المسكينة وكأنما قد قضي عليها، فلم تجرؤ أن تأتي بحركة، بعد هذا أخذت تزحف بجهد وعناء كبير الى الامام. وتحركت رجلاها الاماميتان، ثم وجدتا نقطة الارتكاز، ومن جديد عادت الى سابق جهدها ولكن ببطء أشد هذ المرة.

وفكر المدير : يا لها من شيطانة باسلة!

وداخله اعجاب حقيقي بشجاعتها. وفكر:

-هكذا يجب ان يكون تلقي النوازل. لقد رأى بعينه التصرف الصحيح . انه ما ينبغي الاقرار بالهزيمة قط.

غير ان الذبابة كانت قد انجزت من جديد عملها المرهق..ولم يكن امام المدير متسع من الوقت الا ريثما يملأ ريشته حبرا ويصب على الجسد الصغير النظيف قطرات اخرى سوداء. وماذا عسى أن يحدث هذه المرة!

تبعت ذلك برهة حيرة أليمة. ولكن ها هما الرجلان الخلفيتان اخذتا تتحركان من جديد..وأحسّ المدير بارتياح عظيم. وانحنى فوق الذبابة وخاطبها بحنان:

-انك لفنانة ماهرة جواً.

وداخله شعور طيب بأنه أخذ ينفخ على الذبابة ليساعدها في مهمة تجفيف نفسها. ومع ذلك فقد كان جهد الذبابة فيه ضرب من التهيب والضعف. وقرر المدير وهو يغمس ريشته حتى قاع الدواة: ان هذه ستكون المرة الاخيرة. وقد كانت الاخيرة فعلا، فقد سقطت قطرة الحبر على ورقة النشاف الرطبة فأغرقت الذبابة وصرعتها. انها لم تأت بحركة ما . وبقيت رجلاها الخلفيتان ملتصقتين بجسمها، اما رجلاها الاماميتان فما كان من سبيل لرؤيتهما وقال المدير:

-هيا...أسرعي...

وحركها بريشته دون جدوى. وما حدث من شيء. وما كان ينبغي ان يحدث شيء على الاطلاق. لقد قضت الذبابة نحبها.

وعندئذ رفع المدير جثتها على رأس قاطعة الورق والقاها في سلة المهملات. الا ان شعورا شديدا بالتعاسة والالم النفسي قد تملكه، فأحس بالخوف فعلا..فتقدم قليلا وقرع الجرس مناديا الخادم. ولما أقبل خاطبه عابسا..آتني بورق نشاف جديد نظيف.. جئني به سريعا.

وبينما راح الكلب العجوز الامين يبتعد بخطى مكتومة، كان المدير يعجب متسائلا عما كان يفكر فيه من قبل:

-فيم كنت افكر؟ هل كان ذلك..

وأخرج منديله، ومر به على رأسه.. يستحيل ان يتذكر أبد الدهر..

كاترين مانسفيلد (نيوزيلاندا)

الكناري

هل ترى ذلك المسمار الكبير في الجهة اليمنى من مدخل الدار؟ اني حتى اليوم لا أكاد أجرؤ على النظر اليه. ومع ذلك فلن تطاوعني شجاعتي ان انزعه. واني لأوثر، حتى لو غادرت تلك الدار، ان افكر بأنه لا يزال موجودا هناك. ولقد أسمع جاري يقول أحيانا: « كان ينبغي ان يكون به قفص معلق » فيبعث هذا في نفسي عزاء وسلوى، واشعر ان طائري لم يغد نسيا منسيا..انك لا تستطيع أن تتصور أي طائر، غرد كأن لم يكن تغريده يشبه تغريد الطيور الاخرى. وليس هذا وهما، فما اكثر ما كنت ارى الناس، من خلال النافذة، يقفون عند باب الحديقة لكي يسمعوه، أو ينحنوا فوق السياج، قرب زهر معقول، ولكن لو قدر لك سماعه لادركت ما أقول. وكان يلوح لي أنه كان يشدو انغاما حلوة، هي في الحق قطع كاملة من الموسيقى الرائعة.

كنت عند الفراغ من شؤون المنزل، بعد ظهر كل يوم، أبدل ملابسي، واحمل اشغال الابرة ثم انحدر لاجلس تحت الشرفة. وعندئذ كان يتواثب، ويقفز، من مجثم الى آخر، ويروح يضرب قضبان قفصه برفق كأنما يريد أن يسترعي انتباهي، ثم يحسو قليلا من ماء تماما كما يفعل المغني المحترف. ويشرع بعدئذ في شدو مفرط العذوبة اضطر حياله أن أضع ابرتي جانبا لكي القي اليه بسمعي. ولسوء الحظ فاني أحس بالعجز عن وصف جمال تغريده. كان هذا كله يحدث على هذا النحو في جميع الايام. وكنت أجد أنني أفهم الحانه واستوعبها كلها.

لقد كنت أحبه حبا جما. لا يهم ان يكون ما نحبه هو هذا الشيء أو غيره. ولكن لا بد من ان نحب شيئا ما. وبالطبع كان لي دائما بيتي الصغير، وبستاني. غير أني لا أدري سبب احساسي بأن هذا وحده لم يكن يكفيني ابدا. ولا ريب في اننا نستطيع أن نحب الازهار. وهي تستجيب لحبنا استجابة معجبة. بيد انه يعجزها، اذا حدثناها، ان ترد..فأحببت اذ ذاك نجمة المساء. قد لا يكون هذا معقولا، اليس كذلك؟ وكنت اذهب بعد غياب الشمس الى الفناء الذي يقع خلف البيت، واروح انتظر ان اراها اخذت تتلألأ فوق ذؤابات الشجر العالي، فأهمس لها عندئذ: « هذه أنت ياحبيبتي » وفي هذه اللحظة بالذات كان يبدو لي انها تتألق لي وحدي. وكان يتراءى لي انها تفهمني.. وتفهم هذا الشعور الذي يشبه رغبة من الرغبات..ومع ذلك فما هو برغبة.. أفيكون حسرة اذن؟ قد يكون هذا هو الاصوب والاصح. ولكن ما الداعي الى التحسر؟ ان ثمة اسبابا عديدة تحملني على الرضا والطمأنينة..

وما ان خالط ذلك الطير حياتي حتى أنسيت نجمة المساء. انني لم اعد بحاجة اليها. ويوم جاء الرجل الصيني فقرع باب بيتي عارضا طيوره وعصافيره، رأيته يرفعه من قفصه الصغير. وبدلا من ان يرفرف بجناحيه من الفزع، كما تفعل الحساسين الصغيرة المسكينة، فقد أطلق صرخة صغيرة خافتة. ويا للعجب! سرعان ما جعلت عندئذ أقول له، بالضبط، ما كنت أقوله لنجمة المساء التي كانت تتلألأ فوق أشجار الكينا: « هذا أنت يا حبيبي ! » ومنذ تلك اللحظة أصبح ملكا لي.

انني لا ازال تتولاني الدهشة كلما فكرت الى أي حد كانت حياته وحياتي مرتبطتين، لقد كان يستقبلني بزقزقة مليئة بالنعاس، حين كنت اهبط اليه في الصباح، وانحي الغطاء الذي يحجب قفصه. وكنت ادرك انه يريد ان يقول: سيدتي..سيدتي.. وعندئذ كنت أغلق القفص وأغلقه بالمسمار الموجود في الخارج،

ثم أروح أعد الفطور لنزلائي الشبان الثلاثة. وكنت انتظر حتى نصبح وحدنا، انا هو، لكي أعيده الى داخل البيت. وبعد ان أنهي غسل الاواني كنت الهو معه لهوا حلوا سريعا، فأبسط صحيفة فوق ركن من المائدة وأضع عليها القفص. وفي هذه الاثناء كان، هو، يصفق بجناحيه الى درجة اليأس.. كأنه لا يدرك ما يوشك ان يحدث. وكنت اؤنبه وأقول له: « يا لك من ممثل صغير، حاذق. » ثم أروح أنظف قاع القفص، وأفرش فوقه رملا نظيفا جديدا، وأضع بين القضبان شيئا من عشب ونصف قرن من الفلفل الحلو غذاء له، وانا واثقة تماما انه يفهم كل حركة من حركاتي، ويعجب أشد الاعجاب بها.

ولا بد ان أذكر انه كان على جانب كبير من النظافة المدهشة. لقد كان هذا شيئا في طبعه. وما حدث قط اني وجدت فوق مجثمه لطخة ما. ولو أمكنك أن ترى سروره وهو يباشر حمامه لادركت انه يهوى النظافة حقا. لقد كان اغتساله يأتي اخر كل شيء. وكنت لا أكاد احمل اليه مغطسه الصغير حتى يهرع اليه ويلقي بنفسه في داخله. وكان في بادىء الامر ينفض جناحا، ثم الاخر، ثم يغوص برأسه، وبعد ذلك يغمس فيه صدره. وكان، بذلك، يريق الماء في انحاء المطبخ كلها، ويعود لا يريد ان يخرج من مغطسه فأقول له: هذا حسبك الان. وكان في النهاية يقفز خارج الماء، فيقف على رجل ويرفع الاخرى، ثم يطلق زقزقته ويمد عنقه.

آه.. شد ما تؤذيني هذه الذكرى. لقد كنت دائما، في تلك الاثناء، أشحذ سكينا بأخرى. وكانت السكاكين تبدو لي كأنها تغرد هي أيضا وأنا أقوم بصقلها وتلميعها.. لقد كان رفيقا لي. وصاحبا. وكانت صحبته رائعة. لو حدث انك عشت وحدك فانه يسعك أن تدرك كم كان هذا الطير ثمينا علي عزيزا.

لا ريب في أنه كان ثمة نزلائي الشبان الثلاثة الذين كانوا يؤوبون لتناول عشائهم كل مساء، ثم يمكثون في حجرة الطعام ليقرأوا صحيفة أو نحوها. أما

أنا فلم اكن استطيع قراءة الصحيفة ولم يكن يسعني أن أسألهم الاهتمام بالحوادث الصغيرة التي تتألف منها ايامي. ولماذا؟ اتراهم كانوا سيهتمون بها؟ انني لم اكن في نظرهم شيئا مذكورا. حتى لقد سمعتهم مصادفة في احدى الامسيات يذكرونني، وهم يهبطون السلم، ويقولون « يا لها من هولة مفزعة» ولكن هذا ما كان ليهمني. وما كنت أبالي به أقل مبالاة، كنت أدرك أنهم شبان أغرار، فما استيائي منهم؟ غير أني أذكر أنني أحسست، في تلك الامسية، انني شاكرة للسماء ان لم اكن وحدي، ولقد رويت لطائري ما حدث بعد ذهابهم، وقلت له: أتدري ما هو الاسم الذي أطلقوه على سيدتك؟ فمال برأسه الى جانب، وصوب الي من عينه الصغيرة نظرة متألقة جدا. فلم أتمالك أن ضحكت، فقد بدا كأنه يجد ذلك أمرا يدعو الى الضحك..

هل كان في حوزتك طيور أو عصافير؟ فاذا لم يكن الامر كذلك، فاني لاخشى انك لا تفهم ما أقول كل الفهم. ان الناس يتصورون ان الطيور مخلوقات صغيرة، باردة، لا قلب لها، وأنها لا تشبه الكلاب والقطط. وقد كانت غسالة الثياب تأتيني يوم الاثنين من كل اسبوع فتبدي دهشتها ان لا يكون عندي كلب أصيل وتقول : ما كان الكناري في يوم من الايام، ليكتسب الانسان منه الصحبة والثقة والاطمئنان ». وهذا خطأ جسيم. اني لاذكر حلما مفزعا حلمته ذات ليلة، وبعد ان صحوت من نومي لم استطع ان اثوب الى نفسي. فارتديت معطف البيت ونزلت الى المطبخ لاشرب كوب ماء. ولا ريب في اني كنت لا ازال نائمة نصف نوم، ومن نافذة الغرفة التي لا ستار لها، لاح لي كأنما الظلام يحدق بي ويترصدني، وتراءى لي ان من نكد العيش ان لا يكون ثمة انسان استطيع أن أقول له « لقد حلمت حلما مفزعا » أو.. «آه.. خبئني فاني خائفة من الظلام..» ووضعت رأسي بين راحتي هنيهة. وعندئذ سمعت صوتا صغيرا يقول: كوي.. كوي.. وكأنه اراد ان يقول انا هنا يا سيدتي.. انا هنا.. لقد كان صوته سندا لي وقوة، وترقرقت الدموع في عيني..

لقد ذهب الان. ولن يكون لي طائر احبه، ولا حيوان من أي نوع. انني وجدته ملقى على ظهره، وقد جمدت عيناه كقطعتين من زجاج، وتقبضت براثنه. فلما أيقنت انني لن اعود اسمع شدو صغيري الحبيب، داخلني شعور بأن شيئا قد مات في نفسي. ولقد أحسست ان قلبي غدا خاويا كقفصه. ولا ريب في أني سأثوب الى نفسي. ومع الوقت لا بد ان يبرأ الانسان من كل ما يصيبه.. غير أنه يبدو لي ان للحياة اصلا من حزن واسى. وانه لعسير أن أشرح هذا الشيء على حقيقته، وأنا لا أتحدث عن الهموم التي نعرفها كلنا كالمرض، والفقر، والموت. كلا. انه شيء مختلف جدا. انه كامن في أعماقنا، وهو بعض منا، كأنه حشاشتنا، أو رمق الحياة. وعبثا انهمكت في العمل وانهكت قواي، فانا أعلم اني إذا توقفت لحظة واحدة فان هذا الشيء ينتظرني، وإني لأسائل نفسي فيما ...اذا كان الناس جميعا يجدون مثل احساسي هذا . من يدري؟ ولكن اليس غريبا ان يكون الاسى كامنا وراء تلك الزقزقة الحلوة المرحة، زقزقة عصفوري الذي رحل؟.

لويجي بيرانديللو (ايطاليا)

نسمة هواء

بريق من العينين، وشعر أشقر، وذراعان صغيرتان، وساقان عاريتان، وضحكة مجنونة متصلة متدفقة.. انها تلك الشيطانة الصغيرة «تيتي». لقد دخلت الحجرة، واندفعت نحو الشرفة لتفتح نافذتها.

ولكنها ما كادت تدير مقبض النافذة حتى تناهت إليها همهمة، كتلك التي تصدر عن وحش ضار، بوغت في مربضه، فوقفت فجأة وجعلت تتلفت مذعورة، لترى ما بداخل الحجرة.

كان قد بهرها النور خارج الحجرة فلم تميز شيئا فيها في بادىء الامر. ثم سرعان ما تبينت في تلك العتمة- وقد تملكها الروع- وجود جدها القابع في قرارة مقعده الكبير: كتلة ضخمة تحف بها الوسائد وتحيط بها الشيلان الاسكتلندية، وتكتنفها الاغطية الثقيلة. لقد كان جدها فريسة شيخوخة متورمة يفوح عفنها، وتتحلل في جمود شللها.

لم يكن وجوده هو الذي روعها، وانما نسيانها برهة ان جدها لا ينفك قابعا في عتمة حجرته الموصدة نوافذها ابدا... .

كيف حدث انها خالفت، دون قصد، ذلك الامر الصارم الذي أصدره أبوها للجميع بأن لا يدخل احد تلك الحجرة دون ان يطرق الباب ويستأذن بالدخول،

ويكون الاستئذان خافتا، خافتا «جدي.. حبيبي.. أتسمع؟ » أجل هكذا برقة وخفض صوت، في حين تتقدم على رؤوس اصابعها دون ان تأتي بأيسر حركة.

وتغيرت ضحكتها الصاخبة اذ دخلت حجرة جدها فأضحت شيئا أقرب ما يكون الى شهيق خانق..

وتصاغرت الطفلة، وتضاءلت، وهي لا تنفك ترتجف، واتجهت على رؤوس أصابعها الى الباب دون ان يخطر لها ان الرجل العجوز، وقد اعتاد تلك العتمة الشديدة، أخذ يتبعها بنظره. واذا اوشكت ان تبلغ العتبة ناداها بلهجة آمرة صارمة « تعالي هنا. »

واقتربت الطفلة، وهي لا تزال تسير على رؤوس أصابعها، حائرة مروعة حابسة أنفاسها.. وراحت بدورها تميز الاشياء في العتمة. وتراءت لها عينا جدها، عيناه النافذتان، الحاقدتان.. وعلى الفور غضت من طرفها.

وفي عيني الرجل العجوز، بل في ظل من اجفانه المحمرة المنتفخة التي يحس الناظر اليها اشمئزازا كالذي يحسه عندما يمس حشرة كريهة، كانت روحه تبدو كأنها قد لاذت هناك، في حذر وتوجس، وهي تتوقد بالحقد الاخرس الضاري، وقد طردت من سائر الجسد الذي تغشاه الموت..

ما كان الرجل ليستطيع تحريك يده اليسرى الا بجهد، وذلك بعد ان يحدق النظر فيها طويلا كأنما يريد ان يبثها، بذلك، القدرة على الحركة، وكان بعد تركيز ارادته فوق رسغ يده يفلح على الجهد في رفعها قليلا فوق الاغطية، ولكنها لا تلبث أن تهوي من جديد وهي لا حراك فيها.

وكان الرجل العجوز لا ينى يعاود هذا التمرين في عناد بالغ. انه كان يرى ان هذا الشيء هو الحياة نفسها، الحياة بأسرها، الحياة التي ينعم بها الاخرون

بحرية. انه هو الاخر يستطيع ان تكون له هذه المشاركة، ولكن ضمن هذا الحد لا يعدوه أبدا..

وقال متلعثما، مضطرب اللسان:

-لماذا.. الشرفة؟

ولم تجب الصغيرة، واستمرت ترتعد. الا ان العجوز لمح بغتةً في ارتعاد جسدها امرا غير معتاد. انه ليس ارتعاد الخوف المعهود الذي كانت لا تكبحه الا بجهد كلما أرغمها على الاقتراب منه. ان خوفها الناجم هذه المرة عن ندائه اياها فجأة، وبقسوة، ليخفي شيئا اخر. فقد كان في ارتعاد الصغيرة شيء من غموض. وسألها:

-ما بك؟

وأجابت الطفلة دون ان ترفع رأسها:

- لا شيء.

الا أنه لا حظ في صوتها شيئا غير معهود. وأعاد سؤاله بمزيد من الحقد:

-ما بك؟

وانفجرت الصغيرة باكية، وارتمت على الارض، وراحت تتلوى، وتتخبط بعنف وشدة احنقتا الرجل العجوز، وزاد من حنقه ان هذا كله لم يكن له في الواقع ما يبرره.

واندفعت زوجة ابن الرجل العجوز الى الحجرة وهي تصيح:

-يا الهي.. تيتي ماذا حدث.. ما الذي دهاك.. هدئي من روعك.. اقتربي مني.. كيف دخلت هنا؟ ماذا تقولين؟ رجل سوء؟ من يكون؟ جدك رجل سوء؟ .. انك أنت الفتاة السيئة.. غير ممكن.. انه جدك.. الذي يحبك كثيرا.. ولكن ما الذي حدث؟

كان السؤال الاخير موجها اليه هو، فصوب نظرة ضارية الى ثغر زوجة ابنه الضاحك الفض، ثم الى خصل شعرها الاشقر الذهبي البديع الذي راحت الطفلة، وقد احتضنتها أمها، تشعثه فوق جبينها وهي لا تنفك تتخبط وتتلوى.

وقالت الام.

-اي! تيتي، دعي شعري. انك تقتلعينه ايها الحمقاء. انظري، ان شعري كله في يدك.. انظري.. انظري..

وراحت تستل من بين أصابع طفلتها شعرة من بعد شعرة، من تلك الخيوط الذهبية وهي لا تزال تردد:

-انظري.. انظري.. انظري..

وأخذت الفتاة الصغيرة، وقد داخلها التأثر بغتة، تنظر بعينين دامعتين الى قبضتها كأنها اقتلعت شعر امها كله بالفعل، ولم تر شيئا. غير ان الغضب عاد فاستحوذ عليها أذ سمعت ضحكة امها العالية، فاضطرت المرأة الشابة أن تخرج بها من الحجرة.

وفي هذه الاثناء كان الرجل العجوز يلهث في غضب متزايد ويقول:

-ماذا بهما ... ماذا دهاهما؟

ذلك انه لمح في عيني كنته وفي صوتها، وفي ضحكتها، وفي حركتها وهي تنتزع شعراتها واحدة واحدة من بين انامل ابنتها الصغيرة.. لمح شيئا غير معهود.. فماذا دهاهما؟

وبلغ الغضب منه ذروته عندما القى نظرة على غطاء ساقيه فشاهد شعرة من شعر كنته. انها شعرة خفيفة، خفيفة جدا، ولا بد انها استقرت فوق ساقيه الميتتين لحظة انفجرت المرأة الشابة ضاحكة....

وانهمك طويلا في دفع يده الى الزحف فوق الغطاء لتصل الى الشعرة التي كانت تبدو له مقيتة، ومنه ساخرة. واستمر انهماكه ومحاولته، يكر الكرة تلو الكرة بلا جدوى، نصف ساعة كاملة، فعظم لهاثه واستنفد قوته كلها. واذ ذاك دخل ابنه ليراه، شأنه كل صباح، قبل ان يغدو الى عمله.

-اسعد الله صباحك يا ابي..

فرفع العجوز رأسه، وبدت نظرته كئيبة كدراء، واتسعت حدقتاه بدهشة فزعة. لقد حان دور ابنه الان. وخيل لهذا الشاب انه يقرأ عدم الرضا في عيني والده فسارع يقول وهو يحسب ان السبب هو عصيان طفلته:

-لقد ازعجتك تلك الشيطانة الصغيرة، اليس كذلك؟ انك لتسمعها تبكي هناك، الى اللقاء يا أبيّ فأنا الان مسرع لحاجة ولن تلبث « نرينا » ان تأتي.

ذهب الشاب وأتبعه الرجل العجوز نظرته نفسها الذاهلة القلقة حتى عتبة الباب.

ماذا؟ حتى ابنه ايضا!؟ انه ما تحدث اليه قط بهذه اللهجة « اسعد الله صباحك يا أبي » ولم؟ ماذا كان يرجو؟ واذن فقد اتحدوا كلهم ضده؟ ما الذي

حدث؟ بدأوا بهلـه . ـغيرة، فـقد دخلت وجسـمـهـا كله يرتعش.. ثم أمـهـا وهي تضحك.. والان ولده بلهجته هذه المرحة وهو يحييه تحية الصباح!

لا بد من أن في الجو شيئا يريدون ان يكتموه عنه. ولكن ما هو هذا الامر؟

الابن، وزوجته، والحفيدة، جميعا، قد جعلوا من عالمهم ملكا لهم. بل هم أكثر من ذلك قد امتلكوا الزمان ايضا، وكأنه قد أقصي هو عنه اقصاء. وكأنه أضحى لا يرى ولا يتنفس ولا يفكر على الاطلاق. ومع ذلك فانه لا ينفك يتنفس ويرى كل شيء، أفضل منهم جميعا، وما من أمر يفوته أبدا....

وجعلت صـور وذكريات تدور مـشـوشـة مـضطربة في ذهنه، أشبـه مـا تكون ببروق العاصـفة. وتراءت له سـهـول أمـيـركا الجنوبيـة وسـهـوبهـا ومستنقعاتها وأنهارها الضائعة في فجاج الارض، وقطعان الماشيـة لا تكف عن ثغـاء وخوار وهدير.. انه في بادىء أمره لم يكن شيئا مذكورا. ولما بلغ الخامسة والاربعين كان قد جمع ثروة طائلة هناك. وكانت الوسائل كلها، وضروب المكر والختل جميعا حسنة في رأيه. كان يمسك بالفرصـة وهي طائرة، وينصب فـخاخ احتيـاله واحابيـل خداعه بصبر ودهاء.. وقد بدأ حياته حارسا لقطعان الماشية قبل ان يمتلك الارض ويعمرها. ثم شارك في مشروعات كبيرة لمد السكك الحديدية، وفي النهاية صـار من أصحاب العمائر. ولما عاد الى ايطاليا، بعد غياب امتد خمسة عشر عـاما، تزوج، ورجع فجأة وحده هناك، بعد ان ولد ابنه الوحيد هذا. ولقد قـضت امراته نحبها دون ان يراها ثانية. وكبر ولده بعيدا عنه في كنف جديه لامه. وعـاد من جديد الى ايطاليـا منذ أربع سنوات وقـد اقـعـدته العلة، وأنهكه المرض، ومـلأ الاستسقاء بطنه ماء فانتفخ، وتيبست شرايينه وتلفت كليتاه ، وانهار قلبه، غير أنه لم يعترف بالهزيمة. وعلى الرغم من أيامه، بل من ساعاته المعدودة، فقد اراد أن يشتري الأرض في روما وينشيء عليها العمائر الجديدة. وبادر الى العمل، وجعل يغدو الى الورش محمولا على كرسيه المتحرك لكي يعيش بين الفعلة

والعمال. وفي صميم حمى هذا النشاط، يصبح كصخرة صلدة، ضخمة، منتفخة. وكانوا يسحبون ماء بطنه مرة كل خمسة عشر يوما، ثم سرعان ما يعود الى مركز عمله.. حتى كان يوم، منذ سنتين، صعقه فيه الشلل وهو قابع في قرارة معقده، ولكنه لم يقض عليه. ان نعمة الموت في ميدان العمل قد تأبت عليه. وانه-وقد تلف جسمه - ليستنفد حياته منذ عامين مترقبا اجله، حانقا، حاقدا على ابنه الذي لا يشبهه الا قليلا حتى ليوشك ان ينكره. هذا الابن الذي ما كاد ينتهي من تصفية اعمال الورش، ومن تحويل ثروة والده الى مورد دخل ثابت، حتى شرع يواصل مهام عمله المتواضع كرجل من رجال القانون.. فكأنه، بذلك، يأبى أي ارضاء لوالده، وينتقم لامه ولنفسه ايضا من اهمال طويل. ما من سبب من الاسباب يلتقي عنده مع ابنه، وما من فكر او حس يجمع بينهما ، وانه ليبغضه كما يبغض زوجته وابنتهما.. اجل . اجل انه ليمقتهم جميعا لانهم نبذوه خارج نطاق حياتهم.. ولانهم ايضا يأبون أن يبوحوا له بما يجري اليوم من امر، يجعلهم كأنهم جد مختلفين عما هم عليه عادة. وانفجرت الدموع من عينيه، فاستسلم لها كطفل وقد أنسي امره وما كان عليه سنين طوالا.

وعندما دخلت عليه ترينا الخادم الصغيرة، لتعتني به، لم تبال دموعه تلك أي مبالاة وفكرت الخادم وهي تمسح له وجهه وتكفكف دموعه دون اكتراث: ان الرجل العجوز ممتلىء ماء، ولا يضيره ان يخرج بعض هذا الماء من عينيه. ثم تناولت كوب الحليب وغمست فيه بسكوته وراحت تطعمه وتقول:

-كل... كل...

فجعل يأكل وهو يخالسها النظر. وقد سمعها تتنهد مرة ، ولكنه لم يكن تنهد التعب والألم. وعلى الفور رفع عينيه الى وجهها. لا ريب في ان هذه المداجية كانت سترسل تنهدة أخرى، ولكنها، وقد أحسّت أنها مراقبة، جعلت تخرج أنفاسها متقطعة وعلى مهل من فتحتي انفها، وهي تهز رأسها كأنها

غضبى. لماذا تراها قد احمر وجهها بغتة؟ ماذا دهاها هي الاخرى. انهم جميعا، أجل جميعا، على غير مألوفهم اليوم. وأمسك عن تناول طعامه وسألها محنقا:

-ما بك؟

وأجابت الخادم الصغيرة وقد اذهلها السؤال:

-ما بي أنا؟

-أجل انت.. انتم كلكم.. ماذا هناك.. ماذا دهاكم؟

-لا شيء... لست أدري.. ماذا عساك تجد بي؟

-تنهداتك.

-تنهداتي؟.. انا تنهدت؟ ابدا. او اني فعلت ذلك دون قصد، فما من سبب يدعوني الى التنهد.

وطفقت تضحك.

-لماذا تضحكين هكذا؟

-أنا.. اضحك؟ أضحك لانك قلت اني تنهدت!

وجعلت تضحك ضحكا اشد ولا تستطيع أن تكف.

وعندئذ جاء الطبيب، مساء، ليعوده كما يفعل دائما ودخل معه الى الحجرة ابنه وزوجته والحفيدة، تأكدت عنده الفكرة بأن شيئا ما قد حدث، هذه الفكرة التي لا حقته حتى في سباته، تأكدت الان واصبحت يقينا واضحا يفقأ العين.

لا شك في أنهم متفقون جميعا: انهم يتحدثون امامه أحاديث لا أهمية لها يخفون بها الحقيقة، ولكن حسب المرء ان يراقبهم ليدرك اتفاقهم. ما حدث قط انهم تبادلوا مثل هذه النظرات. ان حركاتهم ولهجاتهم وابتساماتهم لا علاقة لها بتاتا بما يخوضون فيه من حديث ، وما الداعي الى كل هذه الحماسة في جدلهم حول الشعر المستعار الذي عادت « موضته » من جديد؟

-أتقول انها جمات شعر خضراء؟ خضراء وبنفسجية .

بهذا هتفت الزوجة، زوجة الابن وقد شاعت الحيوية في ملامحها، وتظاهرت بغضب مفتعل لم تفلح معه في ان تمنع فمها عن الضحك. كان يضحك وحده هذا الفم، وكانت يداها ترتفعان من تلقاء نفسهما فتداعبان شعرها وكأنه هو الذي استدعى هذه الملامسة اللطيفة.

وأجاب الطبيب وقد ارتسمت الغبطة على محياه المستدير كالقمر في ليلة تمامه:

-طبعا، طبعا، ثم اذا كان للمرأة شعر كشعرك فان اخفاءه تحت جمة مستعارة لخطيئة كبرى. بذل الرجل العجوز، هذه المرة، جهدا كبيرا ليكبح جماح غضبه. كان يتمنى ان يطردهم جميعا من حجرته، وهو يزأر كوحش ضار. وما أن غادر الطبيب الغرفة تشيعه المرأة الشابة ممسكة بيد ابنتها حتى راح يصب جام غضبه على ابنه:

-ماذا بكم؟ ولماذا انتم جميعا هكذا اليوم؟ ما الذي حدث؟ وماذا تكتمون عني؟

وأجاب الابن مندهشا مغلوبا على أمره:

-لا شيء يا ابي . مـاذا تريد ان نخـفي عنك؟ أؤكـد لك اننا كـعـهـدك بنا دائما.

-ليس هذا بصحيح. ان ثمة أمرا، أمرا اراه وأحس به. أو تحسب اني غدوت لا أرى شيئا في حالتي هذه؟

- في الواقع لست أدري مـا هذا الذي تجده فـينا يا ابي. لم يحـدث شيء، ولقد أقسمت لك، وانا مستعد أن أقسم لك ثانية. دع هذه الوساوس ولا تزعج نفسك.

طامنت لهجته الصادقة شيئا من حدة الشيخ، ولكنها لم تقنعه. ما من ريب في أن أمرا ما، امرا خارقا للعادة، قد حدث. انه يراه ويحسه فيهم..

لكن ما هو؟

وقد جاءه الجواب خلسة وعلى حين غره عندما خلا الى نفسه، فان النافذة التي ادارت حفيدته مقبضها في الصباح كانت قد انفتحت قليلا، وبرفق، في ساعات الليل الاولى بفعل نسمة هواء. ولم يلمح الرجل العجوز ذلك في أول الامر، الا انه أحس أن أريجاً شذيا يتصاعد اليه حلوا، عبقا، من الحدائق المجاورة ويملأ عليه الحجرة. وأدار رأسه فشاهد بقية من ضوء القمر على أرض الغرفة كأنها اثر ساطع خلفه أريج العطر في الظلام الدامس.

-آه! هو ذاك.. هو ذاك..

ما كان الاخرون ليستطيعوا ان يروه ويستشعروه في أعماق ذواتهم، وهم اللذين لم ينفكوا تستغرقهم الحياة. اما هو، وقد خلص منها او كاد، فانه رآه واستشعره بمجرد ملاحظته اياهم .

ولهذا السبب، أجل لهذا السبب بالذات لم ترتعد الطفلة في الصباح كعادتها وانما هي ارتعشت كلها ارتعاشا وحسب، ولهذا السبب ايضا كانت زوجة ابنه تضحك وتتلاعب بخصل شعرها ، ولهذا السبب كذلك كانت الخادم الصغيرة تتنهد، لهذا السبب نفسه كانت لهم جميعا هذه السمة الغريبة دون علم منهم او ادراك:

وذلك ان الربيع قد أقبل!

لويجي بيرانديللو (ايطاليا)

من يكون ؟

قولوا أنتم، اذن، من يكون اذا كان ما أقوله لا بد ان يضحككم وحسب. ولكن على الاقل، اطلقوا سراح اندريا سانسيرا فهو بريء. وهو لم يكن معي في ذلك الموعد، واني لاعيد قولي هذا للمرة المئة. والان دعوني الحدث عن نفسي.

ربما كان الدليل على انني مذنب أثيم هو انني عدت الى روما في شهر تشرين الاول، أليس كذلك؟ في حين انني اعتدت دائما، في السنوات الاخرى، ان آتي اليها مرة واحدة فقط، وفي شهر حزيران. ولكن الا تريدون ان تحسبوا حسابا ان خطبتي للآنسة-تردا-قد انفصمت عراها في حزيران الماضي؟ وفي- نابولي- فيما بين شهري تموز وتشرين الاول، كنت كمن أصيب بمس من الجنون.. حتى لقد اراد رئيس المكتب الذي اعمل فيه ان يمنحني اجازة شهر آخر اجبارية في شهر تشرين الاول بالذات. ان حلمي، حلم الاعوام الطوال كان قد انهار تماما. وانه لكذب صراح، كذب مخز انني عكفت على معاقرة الخمر في نابولي لكي انسى.. انني ما اشتريت الخمر ابدا. وانما كان الالم هنا، في رأسي، ولقد أصابني هذا الالم بالهذيان، والدوار والرغبة في التقيؤ. فهل يعقل انني كنت أسكر، ولكن لا داعي الى الدهشة ما دمتم الأن تحاولون إقناع الأخرين.. اقناع الاخرين بأنني اصطنع الجنون لكي أبرىء نفسي! لقد اندفعت على نقيض ما تتوهمون، في تيار هاتيك.. أجل .. في تيار هاتيك المغامرات السهلة اندفاع بلاهة وحماقة لكي انتقم لنفسي، أو على الاصح لكي أثأر من مشاعرتي وثباتي، وفي هذا

الاندفاع افرطت وبالغت.

في روما، عند امي، وجدت اندريا سانسيرا بعد غياب امتد سبع سنوات. كان قد عاد من اميركا منذ شهرين، فأولته أمي أمرى. لقد نشأنا معا منذ الطفولة. وكان احدنا يعرف الاخر خيرا من معرفتها ايانا.. تلك الام المسكينة التي كانت في ضوء افكارها النقية، تقيم لنا من الوزن والتقدير اكثر مما نستحق في الواقع.. كانت تحسبنا ملاكين مطهرين ونحن بعد في السادسة والعشرين من العمر! الا انني انا الذي أعطاها هذه الفكرة الطيبة بسبب من طراز حياتي طيلة خمس سنوات هي مدة خطبتي.

ومع اندريا بقيت مستمرا في طريق الغواية التي كنت قد اندفعت فيها منذ ثلاثة أشهر في مدينة نابولي. راروي لكم الان ما حدث.. ذات مساء عرض هو علي..والواقع اني اريد ان اكون دقيقا فأوكد ان -سانسيرا - لم يكن يعرف الشخص الذي سأذكره.. وانما كان قد سمع به من آخرين.. أقول أنه عرض علي ان نتعرف- كما قال بالضبط- بواحدة من نوع خاص.. وحدثني بما لا استطيع ان اعيده.. وانه ليخيل الي ان كلماته صورت لي: غرفة معتمة، فيها سرير كبير، وعند طرف السرير حاجز يحجب الواقف خلفه عن الانظار، وثمة فتاة ملتفة بمطرف كأنها شبح من الاشباح، ووراء الحاجز عمة أو خالة عجوز للفتاة لا تنفك تحوك شيئا ما وهي جالسة على الجدار، ويداها الناشطتان لا تفتران عن الحركة.. أما الفتاة فلا تتكلم ولا يكاد المرء يتبين الا وجهها، وعمتها على نقيض هذا فهي تتحدث وتتحدث وتروي لبعض الزبائن الموثوق بهم.. خليطا لا قرار له من التعاسة والبؤس: فابنة أخيها كانت موجودة الا ان كارثة عائلية ذهبت بها.. واصبح لا بد من ادخارها مرة اخرى، وبأقل ما يمكن من الوقت.. قبل ان يعلم الشاب الممتاز.. ما تفعله الان خطيبته.. واختتم اندريا حديثه قائلا:

-ويمكن ان يكتب على باب تلك الحجرة كلمة: احتضار.. وبالطبع أغراني

ما قاله اندريا واتفقنا معا على موعد في مساء الغد، الساعة الثامنة والنصف عند باب الشعب.. وهو يقيم في شارع- فلامينيا- ، وذلك البيت المشبوه يقع في حي- لورينا- ولست أتذكر رقمه..

كان ذلك مساء يوم السبت والمطر يهطل مدرارا، وكان شارع فلامينيا يمتد مستقيما موحلا تضيئه هنا وهناك مصابيح تسطع انوارها احيانا ثم تخبو تحت صفعات الريح التي كنت أحس هبوبها في ظهري، وأرى عصفها بأشجار دارة بورغيز والمطر يضربها بسياطه.. وقلت في نفسي انه لن يأتي في هذا الجو الرهيب، ومع ذلك لم استطع الوصول الى قرار حاسم في ترك المكان والعودة من حيث اتيت.. وبقيت حائرا، مترددا، وانا انظر الى خيوط ماء المطر وهي تتساقط من حول مظرتي.. أفأذهب وحدي الى حي لورينا؟ لا.. لا ..ابدا.. وفي هذه اللحظة تملكني اشمئزاز عميق من الحياة التي كنت أعيشها منذ ثلاثة أشهر.. وخجلت من نفسي وقد تركني رفيقي هنا.. في طريق الرذيلة.. وفكرت أن أندريا قد ذهب على الارجح لكي يمضي سهرته في بيت شريف نظيف دون أن يخطر له انني بلغت من الفساد ان اوافيه الى موعدنا في مثل هذا الوقت الكريه.. وفكرت: بل أنا أكثر من فاسد ضال.. انني شقي تعيس.. وأين عساني أذهب الان؟ وعاودتني ذكرى الامسيات الهادئة الهانئة، والى جانبي حبيبي.. وترا ءت لي حياتي السابقة .. ولاح لي بيتها هي..- تودا-.. تودا.. خطيبتي. وعلى حين غرة برز من تحت أحد العقود والحنايا رجل عجوز قميء، ضئيل، متقوس الظهر ملتف بمعطف ينحدر حتى عرقوبيه.. وبيده مظرة ممزقة.. وكان يخطو فتكاد تحمله الريح وهو ينحدر نحو شارع فلامينيا.. فجحظت عيناي وترأرأتا.. واعترتني رعشة في بدني كله.. انه- جاكوبو ستورزي- والد تودا خطيبتي.. ولكن كيف؟ ألم أضعه أنا نفسي، وبيدي الاثنتين، في تابوته في العام الماضي، ثم رافقت جنازته حتى- كامبو فيرانو-؟ ومع ذلك فها هو ذا.. وانه ليمر امامي.. يا الهي-! ويلتفت ليراني.. ويحني رأسه من جانب كأنما يريد ان يريني

ابتسامته، ويا لها من ابتسامة! وبقيت مسمرا في الارض وفريسة لارتعاد منقبض مؤلم.. حاولت ان أصيح ولكن صوتي لم يخرج من حلقي.. واتبعته نظري هنيهة! وأخيرا استطعت ان اتحرر من خوفي فاندفعت في اثره.

صدقوني.. فأنا لست بقادر على ابتكار شيء كهذا.. ولن استطيع ان أعيد على مسامعكم ما قاله لي كلمة.. ولكنكم ستدركون بسهولة ان بعض الاراء والافكار لا يمكن أن تخرج من ذهني أنا، لان-جاكوبو ستورزي- وان كان متطرفا جدا ولا يعرف حدا للاعتدال فانه كان فيلسوفا أصيلا، ولقد كلمني بحكمة الاموات، وادركته فيما كان يضع يده الصغيرة المرتعدة على مقبض باب حانة زجاجي.. فالتفت بوثبة واحدة وأخذني من ذراعي وانتحى بي ناحية معتمة وقال:

-رحماك يا لويجي.. لا تقل انني حي..

وتمتمت: ولكن.. كيف. فأردف قائلا:- أجل.. أنا ميت.. يا لويجي.. ولكن الرذيلة أقوى.. اتفهم ما أقول؟ سأشرح لك كل شيء حالا: هناك أشخاص يموتون وقد بعثوا ليستقبلوا حياة أخرى.. وهناك غيرهم لم يبعثوا بعد.. اولئك يموتون ولا يرجعون لانهم عرفوا كيف يجدون طريقهم، وهؤلاء على النقيض، لم يرجعوا لانهم لم يجدوا تلك الطريق.. وبالطبع فهم يبحثون عنها حيث فقدوها.. أنا مثلا.. هنا.. في هذه الحالة.. ولكن ماذا عساك تظن.. انه الهلاك الابدي والتجديف.. انني أعاقر الخمر وكأني لا أحتسيها.. وكلما شربت ازداد اشتعال الظمأ في صدري.. ثم، كما لا بد انك تفهم، لا يسعني أن أكون مسرفا في السخاء على نفسي.. ثم فرك ابهامه بسبابته واعوجت صفحة وجهه بحركة غريبة كأنه يريد ان يفهمني انه لا يملك شيئا من مال..

وجعلت أحدق فيه النظر مذهولا.. أكان هذا حلما؟ وصعد الى شفتي الاثنين هذا السؤال الغبي:

-آه.. تماما.. ولكن كيف تراك تجد المال؟ فابتسم وأجاب وهو يضع يده على كتفي:

-آه لو علمت ! بدأت ذلك غداة اليوم الذي دفنت فيه، فبعت الاكليل الخزفي الذي وضعته زوجتي على قبري مع هذه العبارة المحفورة- الى زوجي المعبود-.. ان ثمة اكاذيب لا نستطيع نحن الموتى، تحملها.. بعت اذن ذلك الاكليل لقاء بضع ليرات.. فكفاني هذا المبلغ اسبوعا.. وما ثمة من خوف ان تذهب زوجتي لزيارة قبري فتفتقد الاكليل.. أما الان فاني امارس لعب القمار مع الزبائن..

فأربح وأشرب الخمر على حساب الخاسرين.. وانه والله لمهنة.. وانت ما تراك تفعل؟

لم أجد ما أقوله له، وتطلعت اليه هنيهة، ثم انتابني ما يشبه نوبة جنون فأمسكت به من ذراعه وقلت:

-قل الحقيقة.. من انت ؟ وكيف وجدت هنا ؟ ولكنه لم يضطرب، بل ابتسم وقال:

-ولكن.. ما دمت انت نفسك قد عرفتني! سأقول لك كيف وجدت هنا. ولكن فلندخل اولا، الا ترى ان المطر يهطل؟..

وجذبني الى الحانة.. وارغمني على احتساء الخمر.. فشربتها.. وشربتها.. بقصد ان اسكر ولا ريب.. ولقد بلغت من الذهول والاضطراب حدا لم استطع معه ان اتمرد واتأبى.. انني لا أشرب الخمر ومع ذلك فقد شربت ما لا اعلم مقداره.. ولست اذكر الا سحابة من دخان خانقة ومنعقدة في جو الحانة، والا رائحة الخمر القوية، واصداء ارتطام اواني الطهي، والقتار الدافىء الثقيل المتصاعد من المطبخ.. وهدير الاصوات المكتومة المنبعثة من حلوق مبحوحة.. وكان ثمة عجوزان

قد انحنى احدهما نحو الاخر، كأنما يريد ان يستل انفاسه، وهما يلعبان الورق وسط صياح الاخرين وهرجهم ومرجهم.. وكان يتدلى من السقف الواطىء مصباح معلق يرسل ضوءه الشاحب خلال سحابة كثيفة من الدخان.. ولكن الذي أثار عجبي ودهشتي أكثر من هذا كله هو انه ما من احد من اولئك الاشخاص جميعا ساوره الاشتباه بأن هنا شخصا من غير الاحياء.. وحدثتني نفسي، وانا انقل نظري فيهم، ان اصيح بهم قائلا وانا أشير الى رفيقي: *هذا الرجل الذي ترونه ميت من الاموات ولكن جاكوبوستوورزي*، وكأنما قد قرأ على شفتي في هذه اللحظة تلك الكلمات التي هممت *ان اصيح بها*، راح يبتسم وقد استند ذقنه الى صدره.. يبتسم دون أن تفارقني نظرته المنبعثة من عينيه الملتهبتين المليئتين بالدموع! وحتى وهو يشرب كان يحدق في النظر.. وعلى حين غرة انتفض وراح يتحدث الي بصوت خفيض.. وكان خمار النبيذ قد أخذ يدير لي رأسي.. غير ان عباراته الغريبة حول امور الحياة والموت كانت اشد ادارة لرأسي، فلمح هو ذلك فراح يضحك وقال:

-هذه أشياء ليست لك.. فلنتكلم في موضوع آخر.. تودا مثلا..

وقلت:

-تودا؟ الا تعلم ان كل شيء قد انتهى بيننا؟

فأشار برأسه عدة مرات اشارة من يعلم ثم قال نقيض هذا:

-لم اكن لاعلم. غير انك خيرا فعلت أن فصمت خطبتك.. الا قل الم يكن ذلك بسبب أمها؟ أمها اميليا، زوجتي، تلك المخلوقة البغيضة.. كسائر أفراد أسرتها،أما أنا...فانتظر:

وخلع قبعته، ووضعها على المنضدة وضرب جبهته الصلعاء بيده وهو يغمز

بعينه وأردف يقول:

- انها فعلتها مرتين... المرة الأولى في سنة ١٨٦٠ ثم في سنة ١٨٧٥ .. ولاحظ أنها لم تكن غضة نضرة وان ظلت رائعة الحسن.. غير انني لا أستطيع أن أرثي لحالي.. فقد صفحت عنها.. وحسب هذا.. فيا ولدي - واسمح لي أن أناديك بهذا الاسم - صدقني.. انني لم أبدأ أتنفس الصعداء إلا بعد أن قضيت نحبي.. والواقع أنني ما عدت أهتم بهما.. هي وابنتها.. وإذا كنت لا أهتم بالبنت فبسبب أمها.. وأريد أن أقول كل شيء.. فأنا أعلم كيف تعيشان: انني أستطيع أن أذهب عندهما دون أن يراني أحد، كما يفعل الكثيرون غيري في مثل حالي.. وأستطيع من حين إلى آخر أن أتزود، خلسة ببعض المال.. ولكن لا انني لا أمد يدي إلى هذا المال.. وانك لتعلم بل تعلم جيداً كيف تعيشان.. وأجبته،

- كيف تراهما تعيشان، فما عدت أتلقى شيئاً من أخبارهما.

- بل انك لتعلم.. ولقد قيل لك هذا مساء أمس..

وسألته - متردداً - بنظرة من عيني.. فقال:

- أجل. حيث كنت تريد الذهاب الليلة قبل أن تراني..

فوثبت واقفاً، غير اني عدت فتهاويت، ومرفقاي على المائدة وصرخت:

- هما.. تودا.. تودا وأمها؟ فتناول ذراعي ووضع اصبعه على شفتيه وقال:

- اسكت.. اسكت.. ادفع، وتعال معي. ادفع.. ادفع..

وخرجنا من الحانة.. وقد اشتد هطول المطر، وازداد عصف الريح، فكانت تقذف وجهينا بالماء وتعوق سيرنا.. غير أنه كان يجرني من ذراعي بسرعة في

وجه الريح.. وفي المطر.. وكنت أئن وأنتحب وأنا أتعثر مخموراً، مشتعل الرأس ثقيل الهامة كأنها من الرصاص.

- تودا؟ تودا وأمها؟

كان يغذ السير ملتفاً بمعطفه متقبعاً بغطاء رأسه، ذائباً في كتلة الظلام الحالكة، وبيده مظرته يتقي بها المطر.. وخيل إلي أنه كبر وتضخم حتى غدا وكأنه شبح يجرني في أهوال كابوس رهيب ويدفع بي نحو الهاوية.. وهناك - بدفعة واحدة - أدخلني من الباب الصغير المعتم المريب، وهو يصرخ في اذني:

- اذهب.. اذهب.. عند ابنتي..

والآن.. أيها السادة.. ما في رأسي هنا.. غير صرخات تودا وهي متشبثة بعنقي.. صرخات كانت تحطم دماغي.. أوه! انه هو.. وأقسم مرة أخرى أنه هو.. جاكوبو ستورزي.. هو.. هو.. الذي خنق بقبضتيه ذلك الشيطان الذي كان يزعم أنه عمة تودا.. ولو لم يخنقها هو ويكتم أنفاسها، لتوليت أنا خنقها.. ولكنه هو الذي فعل ذلك.. لأنه أحق به مني..

البيرتو مورافيا (ايطاليا)

الغماز

كنا، بيا وأنا، خطيبين طيلة عامين كاملين. انها خطبة طويلة سببها اني لم أكن لأملك فلساً واحداً، وإن كنت أعمل مع أبي في محله الذي يبيع فيه الألبان ومشتقاتها. أما هي فما كانت تملك أكثر من قميص نومها وتدرس - مع ذلك - لتصبح ممرضة كأمها. أقول أنها خطبة امتدت سنتين؟ إن الأصح أن أقول أنهما سنتان من الخصام والنكد والجدل والأخذ والرد.. ولقد كان همنا الأكبر أن نجد منزلاً نقيم فيه. وصحيح أنه كان في وسعنا أن نقيم مع أمي وأبي اللذين كان يطيب لهما ذلك، غير أن - بيا - رفضت بشدة، فقد كرهت أمي حتى قبل أن تعرفها. ومن ناحية أخرى كان لأم بيا منزل واسع يمكن أن نقيم فيه معها، إلا أن الأم هذه المرة، هي التي تأبت.. كانت قد ترملت، وهي ما تزال بعد صغيرة السن، وكانت تؤثر أن تعيش على النحو الذي يتراءى لها، وأن لا تربكها وتضايقها أسرة زوج ابنتها.. وذات يوم في - فيلا بورغيز - قلت لبيا وقد خيل إلي انني أقدم لها عرضاً معقولاً:

- اسمعي.. انني أعرف انك لا تطيقين والدتي.. ولكنني لست أسألك أن تقيمي معها العمر كله.. وان هي إلا بضعة أشهر.. ريثما نجد منزلاً آخر.. فلنتزوج اذن.. ولنقم مع أمي في بيتها.. ونرى بعد ذلك ما يكون.. فالأمور يتولد بعضها من بعض..

وعلى الفور اشتعلت بيا غضباً، وراحت تقول:

- صحيح.. إن الأمور يتولد بعضها من بعض.. فعرضك هذا، مثلاً، يتولد منه أن أدعك..

وخلصت ذراعها من ذراعي وراحت تركض نحو ساحة - ينشيد - وعدوت وراءها وأنا أصيح أن انتظري.. يا بيا ماذا تراك تفعلين؟ وأوشكت أن أصل إليها عندما توقفت أمام أحد رجال الشرطة وكأنها حية رقطاء. وأخذت تهيب به: «هلا قلت لهذا الانسان أن يتركني وشأني.. انه منذ الصباح لا ينفك يلاحقني.. ويضطهدني..» وانبهرت أنفاسي، واقترب الشرطي مني، وطلب أن أريه بطاقة هويتي، ومددت يدي إلى جيبي لأخرج البطاقة، وأنا لا أزال أتبع - بيا - بعيني، وأراها تبتعد بسرعة.. في حين بقيت أنا أمام الشرطي يائساً، ولا حراك بي.

وفي اليوم نفسه ذهبت إلى بيتها وأنا أرجو أن أجدها.. ولكنها لم تكن هناك.. وحاولت عبثاً أن أتصل بها هاتفياً.. وأخيراً كتبت لها رسالة عاجلة.. ومرت أيام ثلاثة دون أن أتسلم جواباً ما.

وهكذا بقيت بدون - بيا - وعلى حين غرة، أحسست أنني فقدت بعضاً من نفسي.. هو هذا البعض الذي يتيح لي أن أتنفس، وأتناول طعامي، وأنام، وأعمل، وأحيا.. كنت أتألم ألماً لا سبيل إلى وصفه.. ولم يكن الألم في نفسي وحسب بما يصاحبه من شجن ممض لا يزول بصورة من الصور، وإنما كان ألماً شمل جسمي كله، رتناول بالأوجاع كل عضل وكل عصب.. وكنت - عندما أخلو إلى نفسي في غرفتي من حين إلى آخر - أبكي وأنتحب دون ما سبب.. وقد جلست إلى منضدتي ووضعت رأسي فوق مرفقي الاثنين.. أو كنت أغادر غرفتي فأرى السماء، بتأثير حزني وأسى روحي، سوداء الصفحة، والشمس المشرقة داجية

مظلمـة.. والدور والمنازل الناصعـة مـربدة دكنـاء، والشـجـر الربيـعي الفـينان والأغصـان الوريقة جرداء حـالكة السـواد.. وصـدت نفسـي عن الطعـام وكنت إذا تناولت لقـمـة وقـفت في حلقي لا تهـبط منه.. وغـدوت لا أنام أبداً، ولا أكـاد أغمض عيني حتى تعتريني ارتعاشة هائلة فأصحو، وأظل مستيقظاً، مفتوح العينين، مـفكراً بـ - بيـا - واشـتـد بي، ذات يوم، هذا العـذاب المبرح، وتوترت عضلات جسمي توتراً عظيماً، حتى غدت كأوتار الكمان المشـدود.. فدخلت حانة تقع تحت مسكن - بيا - في شارع - اوستيانس - كان ذلك في ساعة مبكرة من الصـباح، ولم يكن في الحـانة غـيـر امـرأة تحتسي القـهـوة، وقـد أدارت ظهـرها للباب.. واعـتـمـدت بمرفقيـها على المشرب.. وللوهلة الأولى حسبتـها - بيا - نفسها بسبب شعرها الأسود اللماع القصير المقصوص المرسلة منه خصلات متفرقة حول رقبتها.. فقد كانت تصفف شعرها على هذا النحو.. وأقسم لك أنني ما أن خيل إلي أنها هي حتى أحسست أن جسمي قد تراخى وزال توتره، وأن أنفاسي المحبوسة في صـدري، كأنني بهيـمـة أصابهـا الذعر، عـادت تملأ رئتي الاثنتين هادئة، مطمئنة، رخيـة.. وهتـفت: - بيـا - فـاسـتـدارت المرأة. وأدركت عـندئذ خطئي.. انها لم تكن بيا وإنما هي أمها التي تصـفف شـعرها كما تصففه ابنـتها.. والأمر الغريب أن الراحة التي شعرت بها عندما خيل إلي أنها - بيـا - دامت لا تفـارقني.. فلم تعـد عـضـلات جـسـمي تؤلمني كـالسـابق، واحـتـفظت أنفـاسي بخفـقـانهـا، وسـهـولتـهـا، وانتظامـهـا.. وقـالت بعد أن عـرفـتـني «هذا أنت يا جيوستينو المسكين! انني لست بيا.. ولكن أمها..» وحييتها، ورحت - فيما كنا نتحدث في أشياء لا أهمية لها - أتفحصـها بانتباه.. فاتضح لي أمر لم أكن قد التفت إليـه حتى تلك الساعة، وهو انها كانت صورة تامة لابنتها: الشعر الأسود القصير المقصـوص نفسه، العـينان المستديرتان البراقـتـان نفسـهما، الحاجبان الرقيقان العاليان ذاتهما، الأنف الصغير الأقنى عينه، الفم على شكل منجل وقد تراخت زاويتاه قليلاً هو نفسه.. وما كان من فارق بينهما إلا أن بيا كانت

في العشرين من عمرها وأن لأمها ضعف هذا العدد من السنين على الأقل.. وبصورة اجمالية كنت أشاهد وجه بيا وقد غرق في وجه أمها الذي انبسط قليلاً بفعل السن، وتراخى شيئاً ما وأصابه بعض انتفاخ وذبول.. ومع ذلك كان يلوح لي، وأنا أشاهدها، أنني أرى بيا كما اشتهيت دائماً أن أراها بعد أن تركتني.. وكنت أحس أنني أحسن حالاً، كأنما كانت بيا أمام عيني الاثنتين وكأنما قد أشبعت رغبتي بوجودها..

وبمثل تلك الحساسية التي تملكها النساء حيال هذا النوع من الأمور.. وجدت الأم أنني أحدق فيها النظر.. فابتسمت لي.. وكانت هي نفسها ابتسامة بيا.. وابتسمت أنا بدوري.. وسألتني:

- وماذا حل بك يا جيو ستينو؟

وعندئذ لاحظت شيئاً آخر كان قد فاتني، وهو أن لها صوت بيا نفسه، ولكنه إلى حد ما أكثر خفوتاً.. وأجبتها:

- لا شيء.. لست أعمل شيئاً..

وعادت تقول مشفقة:

- أتدري أنك تغيرت كثيراً؟ وانتهت من شرب قهوتها وأردفت تقول وهي تخرج معي من الحانة:

- انني أحدثك جادة، يا جيو ستينو، الأفضل أن تتخلى عن بيا.. انها تريد منزلاً خاصاً بها، وأنت لا تستطيع أن تقدمه لها.. ثم هي لا تريد أن تقيم عند والديك، وأنا نفسي لم أستطع أن أقرر ايواءكما عندي.. وليس هذا إلا سبباً من أسباب أخرى كثيرة تدعوني إلى أن أنصح لك بفك خطبتكما..

وقلت: لقد انتهى الأمر.. وتخليت عنها.. ثم أضفت وأنا أتلعثم قليلاً لعلمي أن طلبي ربما بدا لها غريباً أو مستهجناً: ماذا ترين في أن.. نتناول عشاءنا معاً.. الليلة؟ ونظرت إلي مبهوتة ثم قالت: حباً وكرامة.. ولكن إذا كنت ستتحدث إلي عن بيا فلا.. ثم ما جدوى هذا.. فأنا شخص.. وهي شخص آخر.. وإن لكل منا حياتها الخاصة..

وقلت لها صادقاً كل الصدق:

– لن يكون اجتماعنا للحديث عن بيا.. وإنما لكي أنفق معك أنت بعض الوقت..

ومرة أخرى رشقتني بنظرة مدهوشة، ثم واعدتني في الساعة التاسعة من الليلة نفسها في مطعم يقابل بيتها تماماً.. بشارع ـــ اوستيانس – وافترقنا..

وأقبلت في تمام الساعة التاسعة من تلك الليلة.. ولاحظت أنها كانت أكثر نضارة وتبرجاً، فقد كانت، كما سبق وقلت، لا تزال في حدود الشباب، وكانت غندورة يعجبها الرجال. وتحب أن تكون موضع اعجابهم. كانت – جرستها – الحمراء محبوكة حول صدرها، وقد أحاطت خصرها بنطاق عريض من الجلد الأسود ازدان بمشبك معدني مفضض، وارتدت تنورة سوداء ضيقة جداً بدت فيها محشورة حشراً، وبان ردفاها مضغوطين تحت القماش المشدود.. وذهبنا إلى المطعم من الناحية الأخرى لشارع – اوستيانس – وقد كان مدخله من الشارع، ولكن حديقته وأكشاكها تطل على نهر – التيبر – فجلسنا في الخارج أمام منضدة كبيرة، فقد كنا في شهر ايار، وكان الجو حاراً.. ولم يكن نهر – التيبر – يبدو للعيان بسبب الظلام، إلا أن مصابيح الضفة الأخرى المصطفة على طول حواجز الجسر، ومن وراء المصابيح شعلة اللهب الحمراء المنبعثة من فوهة مستودع الغاز.. كانت كلها تشق ظلام الليل بأضوائها.. وطلبت عشاء لنا دجاجاً

محمراً.. وفي فترة انتظار الدجاج أحضرت نبيذاً وسكبت لها ملء كأس، وكنت أعلم أنها تحب النبيذ وتشربه طيبة الخاطر، ولقد شربت، في الواقع، كأساً ثم أخرى، ولما رأتني لا أشرب، ولا أقول شيئاً ولا أفعل غير أن أحدق فيها النظر قالت بلهجة نزقة: هل أستطيع أن أعرف لماذا تطيل إلي النظر هكذا؟

وأجبتها: - انني أنظر إليك هكذا.. لأنك تعجبينني، وكانت ترجمة ذلك في خاطري أنني أنظر إليك لأنني أحب ما فيك من ملامح بيا.

وقد سحرها قولي فقالت متهتكة: «وما الذي يعجبك في بصورة خاصة؟» وعندئذ رحت أعدد لها ما يعجبني فيها.. وهي كلها صفات مشتركة بينها وبين ابنتها.. وكنت وأنا أتكلم أشعر أكثر فأكثر بالراحة، والارتخاء وسهولة التنفس.. وكانت هي لا يسعها أن تفهم فقالت: «وأنت لو لم تكن خطيب بيا لقلت لك أنك أيضاً تعجبني.. بل قد أعجبتني دائماً ولسوء الحظ فإن الأمور هكذا.. تجري بما لا نشتهي.. ولا حيلة لنا معها..» وقد بدا عليها، وهي تقول هذه الكلمات، صورة التعبير نفسها التي تبدو على بيا عندما تتظاهر بالتواضع وتتوقع الثناء والاطراء.

وعلى الرغم مني مددت ساعدي فوق الطاولة فأمسكت بيدها وقلت: «وماذا يهم.. إن العمل لا حساب له.. ولا قيمة في الانسان إلا ما يعجبنا فيه.» وكنت قد أخذت يدها في راحة يدي لأنها شبيهة بيد بيا من جميع الوجوه.. يد بيضاء ناصعة قاسية قليلاً، طاغية إلى حد ما.. بأظفارها المخضبة الحمراء.. تركتني آخذ يدها.. وقد اضطربت.. وبدا أنها تتنفس بصعوبة.. ولحسن الحظ جاءنا، في هذه اللحظة، الدجاج المحمر.. فتركت يدها وشرعنا نتناول طعامنا.

كنت آكل بشهية، وقد تملكتني الدهشة، فقد كانت هذه هي المرة الأولى التي آكل فيها بشهية بعد أن فصمت بيا ما بيني وبينها.. أما هي فما كانت تمس

الطعام.. وإنما كانت تنظر إلي بعينين واهنتين، جعلهما النبيذ براقتين.. في هذه اللحظة وقع – لا أدري كيف – أمر عجيب قد لا يصدق.. ولكنه حدث فعلاً.. كنت قد قلت لها شيئاً سرها، فابتسمت.. فاستخفني حبي لبيا كما استخفني السرور أن أجد على محيا أمها ملامحها هي فقلت: إن ما أحبه فيك بصورة خاصة هو ابتسامتك.. انك حين تبتسمين هكذا يبدو لك غماز.. هنا.. إلى اليسار.. فهو ميزة لك دون سواك.. وكنا جالسين تحت غمر من النور الساطع.. وما كان لينهض لي حتى العذر، في خطئي، بسبب من الظلام.. أجل.. ما كدت أتلفظ بتلك الكلمات حتى تبينت أن محيا أم بيا المبتسم ليس فيه أثر لأي غماز.. أما بيا نفسها فقد كان لها ذلك الغماز.. إلا انني انسياقاً مع ضلال الهوى نسبت الغماز إلى أمها.. بل لقد خيل إلي أنني أراه في وجهها فعلاً بدافع من الوهم والخيال.. ورجوت لحظة أن لا تكون قد تبينت ذلك.. غير انني كنت واهماً، فان للنساء ما يكاد يكون حاسة سادسة حيال هذه الأمور.. ثم ان لهجة هواي خانتني، فرأيت ابتسامتها تمحي.. ويملأ وجهها تعبير متزايد من الحيرة والارتباك..

وقالت أخيراً: «ولكن.. ماذا تقول؟.. انني حين أبتسم لا يبدو لي غماز.. أو على الأقل لم ألحظ شيئاً من هذا حتى اليوم» وأحسست بحمرة الخجل تعلوني.. واشتد ارتباكي.. ولاحظت هي اضطرابي.. وبانت القسوة في ملامحها.. ثم تناولت حقيبة يدها وأخرجت منها مرآة صغيرة وراحت تنظر فيها وقد ارتسمت على شفتيها ابتسامة مغتصبة.. بدت لي في تلك اللحظة مروعة، ممزقة.. وبقيت هكذا بعض الوقت.. ثم عبست جادة وأعادت المرآة إلى الحقيبة وقالت بصوت منطفىء: «ان لبيا غمازاً أليس كذلك؟» وأومأت بالايجاب خجلاً، مضطرباً.. وعادت تقول وهي تحدق بي.. «واذن فقد كنت أنت.. تكاد تلتهمني بنظراتك. لأنني أشبه بيا.. إن إحدانا في الواقع تشبه الأخرى شبهاً كبيراً حتى ليلتبس الأمر على الكثيرين فيحسبوننا اختين.. قل الحقيقة.. انك إذا كنت قد

دعوتني الليلة فما ذلك إلا لأنك كنت تريد أن ترى في وجهي ما تجده في وجه بيا.. أليس هذا هو الصحيح؟» وأومأت مرة ثانية بالايجاب.. فقد أدركت أن من العبث منذ الآن أن أخفي الحقيقة..

وساد بعد ذلك صمت طويل.. وبدا عليها انها وهنانة، منحطة القوى وأقامت مرفقيها فوق المائدة، واعتمدت وجهها بين راحتيها، وأسبلت أجفانها.. ثم رفعت عينيها إلي فرأيت الدموع تلتمع فيها، ولم أستطع أن أدرك أن ذلك بسبب من الشعور بالذل والهوان أو لأي شيء آخر.. وتنهدت ثم سألتني: هل أنت تحب بيا كثيراً! وأجبتها بقوة، بل بما يشبه العنف: «أحبها أكثر من حياتي» وقالت: «ولا تستطيع أن تعيش بدونها» فقلت: «لا.. لا أستطيع..» ومرت بيديها على شعرها، وبدا عليها أنها مترددة، معذبة، وتنهدت من جديد، ونهضت فجأة وقالت لي: انتظرني هنا.. سأعود حالاً وخرجت وهي تعدو، وتركتني وحدي ذاهلاً، مبهوتاً.

انتظرت طويلاً أمام المائدة غير المرتبة، وطبقي مليء بالعظام الصغيرة، وطبقها هي لا تزال الدجاجة فيه كما هي لم تمس.. ولعل نصف ساعة كان قد انقضى عندما شاهدت أم بيا تظهر في نهاية كشك الحديقة ووراءها ابنتها وقد أخذت تجرها بيدها. وعندما أصبحت الأم أمام الطاولة راحت تنظر إلي مواجهة في حين كانت بيا مربدة المحيا، ساكنة الحركة، مسبلة العينين.. وقالت الأم:

– هيا.. إن كل شيء على ما يرام.. قلت لبيا انك ما دمت لا تكسب ما يكفي لتدبير حياتكما الزوجية فقد قررت أن تقيما عندي.. انني منذ اليوم امرأة عجوز.. ومن العدل، وأنتما شابان، أن تنعما بحياتكما كما نعمت أنا بحياتي.. وتمنعت بيا غير اني أقنعتها وأتيت بها إليك، وفي وسعك منذ الآن أن تتملاها بنظرك مباشرة دون أن تحتاج إلى النظر إلي أنا.. وإلى اللقاء. ومضت على غير عجل.. مارة من الكشك إلى الشارع..

وجلست بيا أمامي، في مكان أمها.. ورحت أتأملها وقد استوت تجاهي بلحمها وعظمها.. وأحسست احساس الرجل السعيد الذي يكون قد أمضى شهراً في ضوء الشمس على شاطىء البحر، أو ملأ رئتيه بهواء الجبال.. لقد كانت بيا - لي أنا - هي الشمس والبحر والهواء والجبل وأنها الآن أمامي وما بي من حاجة على الاطلاق للبحث عن معارفها وملامحها في وجه أمها.. وأخذت يدها فوق المائدة وقلت لها: «انني لسعيد أن أراك كما تعلمين!» وأجابت مغمغمة. وأنا أيضاً.. وكانت قارورة النبيذ فارغة.. فاستدرت نحو كشك الحديقة وطلبت قارورة غيرها.

البيرتو مورافيا (ايطاليا)

التخلص من ماتليد

كتب صديق لي، وهو سائق سيارة نقل، على الزجاج الامامي لسيارته هذه العبارة:- المرأة والسيارة بهجة وخسارة-.. ولا نكران في أن له أسبابه الوجيهة التي دعته الى المقارنة بين المباهج والآلام التي ملأت بها المرأة حياته فاعتدلت كفتا الميزان نشوة وعذابا، فلا زيادة في هذه ولا نقصان في تلك.. فهما متساويتان متوازيتان، لا ترجح احداهما ولا تميل قيد شعرة عن أختها..

أما أنا- ماتليد- فقد كان الامر بيننا مختلفا جدا، ثقلت كفة العذاب ورجحت رجحانا تاما، وخفت وشالت كفة البهجة والسرور الى نهاية ذروتها المقدورة لها.. ولقد مرت سنة كاملة على خطبتنا فما كانت هذه السنة الا شجارا لا ينقطع، ونكدا لا يزول، وما كانت الا غدرا موصول الاسباب، وخلفا لكل وعد وعهد.. فقررت أن أقطع صلتي بها في أقرب مناسبة تكون.

وسرعان ما أتت هذه المناسبة، وكان هذا ذات مساء تواعدنا فيه على اللقاء في ميدان- كامبينيلي- القريب من مسكنها. وبكل بساطة أخلفت ماتليد وعدها ولم تأت. وانتظرت ساعة اخرى، ثم تبينت أن ما أحس به هو راحة وتخفف أكثر منه ألما وعذابا. وأيقنت أن ساعة الفراق قد حانت. وعدت الى بيتي واويت الى فراشي وأنا في حال من الالم واخرى من الرضا والطأنينة.. الا انني قبل ان أطفيء النور رسمت على صدري علامة الصليب بكل وقار وقلت بصوت جهير:

« لقد انتهى الامر هذه المرة، انتهى تماما.. » ولا بد ان هذا القسم قد هدأ من روعي فاستغرقت في نوم عميق متصل دام تسع ساعات كاملة، ولم أصح الا صباحا على صوت أمي تنبئني بأن هناك من يريد أن يحدثني هاتفيا.

وذهبت الى هذه المحادثة الهاتفية في الشقة المقابلة لشقتنا حيث تقيم خائطة تربطنا بها علاقة صداقة. وعلى الفور سمعت صوت ماتيلد في الهاتف.

وسألتني:

-كيف حالك اليوم؟

وأجبت بنبرة قاسية:

-على أحسن ما اروم

-أعذرني اذا لم استطع ان اوافيك في الليلة الماضية، فقد حال دون ذلك حائل..

فقلت:

-لا أهمية لهذا. سنلتقي غدا فاني اريد ان احدثك في أمر من الامور

-وما هو؟

-أمر ذو أهمية

-أهو أمر حسن؟

-حسن بالنسبة لي أنا..

-وأنا ؟

وفكرت لحظة ثم قلت:

-اجل.. ولك أيضا..

-فما هو أذن؟

-سأقوله لك غدا

-كلا. قله الان

-لن أقول.. ولو مت..

-طيب. ولكن اتدري لماذا طلبت محادثتك؟ لان هذا اليوم بديع جدا، ولانه يوم عيد، ولاننا نستطيع ان نذهب على دراجتك النارية الى شاطىء البحر..

فما رأيك؟

وأسقط في يدي، فما كنت أتوقع مثل هذا العرض اللطيف المغري، وبمثل هذه اللهجة الحلوة. وفكرت في هذا الذي اعتزمت أن أقوله لها، ورأيت أن الافضاء به اليوم أفضل من تأجيله الى الغد. وسنذهب معا الى شاطىء البحر، وفي اللحظة الملائمة سأقول لها انني قررت تركها وقطع صلتي بها. وبهذا سأثأر لنفسي قليلا، وأجبتها:

-سأمر بك بعد ساعة فنذهب معا.

وأتيت بدراجتي النارية، وفي الوقت المحدد كنت أصفر لها لتأتي عند أسفل بيتها.. فاندفعت فورا مستجيبة للنداء، وكانت في العادة تتأخر وتتباطأ

وتجعلني انتظرها مدة طويلة.. وجعلت انظر اليها وهي تتواثب مقبلة نحوي فأحسست مرة أخرى انها تحبني حقا. وهذه هي: صغيرة القد، متوقرة، سمراء، عريضة الوجه من أسفل كأنها هرة، وحول شفتيها زغب جميل خفيف، سوداء العينين، ماكرة اللحظ، براقة الحدقتين، مقصوصة الشعر، تتهدل منه خصل على جبينها كأنها حيوان صغير شرس.. ومع ذلك قلت في نفسي:« انها تعجبني ولا ريب، تعجبني كل الاعجاب. ولكنني رغم هذا سأتركها..» وتبينت انني لم أضطرب لهذه الفكرة اطلاقا. ولما أصبحت أمامي وهي لا تزال تلهث من شدة الركض سألتني على الفور، وبصوت عذب:

-ماذا؟ الا تزال غاضبا من الليلة الماضية؟

فغمغمت:

- هيا اركبي...

وامتطت الدراجة النارية خلفي، وتشبثت بي بيديها الاثنتين، وانطلقنا..

لما أصبحنا في ميدان- كريستوفر كولمبوس- بين حشود السيارات والدراجات النارية المنطلقة في يوم العيد، وقد أرسلت الشمس أشعتها المحرقة، جعلت أفكر بشدة فيما يجب ان افعل.. ومتى يجب ان اقول لها انني قد قطعت علاقتي بها؟ خطر لي، اولا، انني سأقول لها هذا عندما نصل الى شاطىء البحر لكي أفسد عليها نزهتها، ولأعود بها من ثم الى روما فورا.

انها فكرة انتقام رائعة كما ترى.. ولكنني قلت في نفسي بعد التفكير انني اذا ما أفسدت عليها نزهتها فانني في الوقت نفسه أفسد نزهتي أنا.. فالافضل اذن أن اغتنم فرصة وجودها والمتاع بقربها مدة ما.. حتى الساعة الثانية بعد الظهر مثلا.. بعد الفراغ من تناول طعام الغذاء.. أو الانتظار حتى نهاية النزهة

فأفضي لها بما في صدري في طريق العودة، في ميدان-كريستوفر كولمبوس-.. هكذا في سياق الحديث، دون ان التفت اليها، وكأن الامر جاء عفو الخاطر وبلا تدبير سابق .. وقد يحسن ايضا ان اتريث حتى نكون في روما نفسها، فألقي اليها بكلماتي على باب بيتها نفسه: وداعا يا ماتيلد.. وأقول وداعا لان هذه هي آخر مرة نمضي فيها يومنا معا..

ومن بين كل هذه الافكار لم أدر أيها أختار. وقلت في نفسي، اخيرا، سيتاح لي ما اريد في لحظة مناسبة، لا ادري متى تكون.. وفي أثناء هذا كله كانت ماتيلد تزداد التصاقا بي وكأنها ادركت ما يدور في خاطري، ثم اشتد ضغطها على ذراعي كأنما هي تقرصني قرصا.. وكان هذا، في طبعها، من دلائل الحب والحنان.. وسمعتها تميل على اذني وتقول بمرح:

-اتدري انه يجب ان تذهب الى الحلاق فتقص شعرك الطويل هنا.. انني لا أجد بينه مكانا أضع فيه قبلة على رقبتك..

والواقع أن هذه القرصات، وهذه الكلمات، أحدثت في نفسي تأثيرا ما.. ولكنها لم تثنني عن عزمي، وقلت لي نفسي:- هيا.. هيا.. لقد فات الاوان .. واخترت ناحية منعزلة موحشة من الشاطىء، فركنت دراجتي، وانطلقنا راكضين معا حتى بلغنا سيف البحر، ومصطخب الموج، ولقد أمسكت بيدها غير أنها كانت هي التي أملت علي هذه الحركة من المودة والحنان، فتركتها تفعل.. ولقد أحسست عندئذ بهذه العاطفة الحلوة التي كنت أحس مثلها في أيام حبنا الغابرة.. ولكنني ما برحت، مع ذلك، أشعر بأنه يجب ان أقطع ما بيني وبينها.. فاطمأن قلبي، وقالت:

-سأنزع ثيابي وأتعرى وراء ذلك الدغل الصغير من الشجيرات البرية.. فلا تحاول ان تنظر..

وساءلت نفسي عما اذا كانت هذه هي اللحظة المناسبة لاقول لها ما اريد.. وستتلقاه كدفقة الماء البارد، اذ تكون قد تجردت وتعرت وامتلأت بهجة ومسرة بما ترى حولها من جمال المكان، وبما تحس من غبطة النزهة على الشاطىء.. الا انني ما كدت استدير نحوها، واراها خارجة من وراء الشجيرات البرية بكتفيها الناحلتين، وذراعيها المرفوعتين لكي تنضو فستانها من فتحة الرأس حتى تبخر ما في نفسي.. وزاد الطين بلة انني سمعتها تقول بصوت عذب:

-أتعتقد انني لا أراك يا جوليو؟.. انك ترقبني فيما يلوح لي..

واستلقينا على الرمال: أنا على بطني، وهي على ظهرها، وقد وضعت رأسها فوق ظهري فكأنه وسادة لها.. والهبت الشمس كتفي كما الهبت الرمل تحت صدري، وكنت لا أحس بثقل رأسها على ظهري لخفته المحببة.. وسألتني بعد فترة طويلة من الصمت:

-لماذا تراك سكت هكذا.. وبماذا تفكر؟

واجبت على الفور:

-افكر فيما يجب ان اقوله لك

-اذن هيا قل..

وتهيأت للقول الا انها سرعان ما تكلمت هي، وكأنها، بحركتها وخفتها، احدى هاتيك الفراشات التي تتطاير من زهرة الى زهرة، ولا تترك ليد مجالا ان تقبض عليها:

-ادهن لي كتفي ببعض هذا الزيت، فما اريد ان أصاب بضربة شمس..

وافلتت الفرصة من يدي مرة اخرى، وتناولت زجاجة الزيت ودهنت به ظهرها، من عنقها حتى خصرها، ثم قالت:

-دعني أنم الان، ولا تزعجني..

وبقيت أنا واجما أفكر بأنه في الواقع، لا يهمها كثيرا ما اريد ان اقوله. وأغفت ماتيلد نحو ساعة، ثم استفاقت وقالت:

-فلنسر قليلا على الشاطىء فلا يزال الوقت مبكرا للسباحة.. الا انني أود، على الاقل، ان تبتل قدماي.

وأخذت بيدي، ورحنا نركض معا نحو البحر، وكان الموج عاليا مصطخباً، ودخلت البحر دون ان تترك يدي، وكانت تتقدم مرة وتتراجع مرة وفقا لمد الموج وجزره بفعل هبوب الريح، وشدة عصفها. وكان الموج اسرع من ماتيلد دائما، وكلما هاجمها وأحدق بها صاحت وولولت.. ولما شاهدت مرحها العظيم هذا تملكتني الرغبة الملحة أن أفسد عليها سرورها، ورحت اصرخ بملء أشداقي لكي أسمعها صوتي رغم احتدام الموج:« الآن اريد ان احدثك فأصغي..» الا انها اجتذبتني فجأة وبشدة وهي تقول: خذني بين ساعديك الاثنين، وكانت ثقيلة الوزن، وان تكن صغيرة القد، وخضت الماء بعيدا بها وانا اتحدى الموج الصاخب الذي يرغي ويزيد ويتراكض ويتلاقي ويتكسر بعضه فوق بعض.. وتساءلت: لماذا تراها ارادت هذا؟ واستنتجت أنها ادركت بغريزتها النسوية أن ما كنت سأقوله لها لن يسرها.. وهكذا، بعد ان أحسّت خطر افضائي بما في صدري، دعتني الى الخروج من الماء الى الشاطىء، وعدت بها، وأنزلتها برفق، فشكرتني بقبلة على خدي، وقالت:

-فلنتناول طعامنا الان!

وجلسنا، ثم فتحنا الورق الملفوف على الطعام، وجعلنا نتناول شطائر لحم العجل التي أعدتها أمي لنا. ودام الامر على هذه الحال ساعتين كاملتين: الكلمات تتراقص على طرف لساني فأهم ان انطق بها في لحظة ملائمة، وعلى حين غرة تروح تتحدث الي بحنان ودلال، او هي تأتي بحركة غير منتظرة، أو تقطع علي كلامي.. وخطر لي أكثر من مرة ان اقارن بينها، وبين الفراشات البيض الناصعة التي تكون اول ما يظهر من فراشات الربيع، وفي الوقت نفسه أكثرهن خفة وافلاتا وذهابا مع الريح حتى لا يتأتى لأحذق الحاذقين ان يمسك بها.. وكنت قد يئست من ان استطيع الافضاء بما اريد، ولكنها، وعلى حين غرة مني أتاحت هي لي فرصة الكلام، فقد قالت من تلقاء نفسها:

-والآن.. قل ما تريد ان تقوله..

وفتحت فمي لكي أتكلم غير أنها هتفت قائلة:

-لا.. لا تقل شيئا.. دعني أحزر: اتراك تريد ان تقول انك تحبني؟

-كلا

-واذن فأنت تريد ان تقول انني جميلة.. وانني أعجبك..

-لا

-ستقول اننا سنتزوج قريبا

-ولا هذا

فقالت وهي تحرك رأسها:

-وبما ان هذه الامور الثلاثة هي التي تهمني فانني لا اريد ان اعرف غيرها..

- ولكن يجب يجب ان أقول آ... أ...

وقالت:

- هش.. اتريد أن أعطيك قبلة؟

وماذا كان يسعني ان افعل؟ فسكت. وانزلت هي راحة يدها عن فمي وأطبقت بشفتيها على شفتي في قبلة مستغرقة بدت لي حارة وصادقة.

وما أكثر الاشياء التي قمنا بها: فقد شوينا جسدينا في الشمس، وغنا، وسبحنا، وأكلنا، وتحدثنا، الا انني لم أقل ما كنت اريد ان اقوله، ولم يبق أمامنا الا ان نعود! ورجعنا فارتدينا ملابسنا كل وراء الشجيرات البرية البعيدة، وخيل الي، مرة أخرى، أن اللحظة الملائمة قد حانت، فقلت بصوت طبيعي هادىء:

-هذا ما كنت اريد ان انبئك به يا ماتيلد: لقد قررت قطع ما بيني وبينك..

وبعد ان نطقت بهذه الكلمات تطلعت الى الشجيرات البرية التي اختفت وراءها لترتدي ملابسها، ولكنني لم أرها، وكانت الريح تهب وتصفر اكثر من أي وقت مضى، ولا يتأدى الى السمع غير صخب البحر واصطفاق الموج.. ولاح كأنما قد اختفت ماتيلد وكأن كلماتي قد أحالتها بخارا طار به الهواء كما تطير هاتيك الدوامات من الرمل ترتفع به الريح دون انقطاع فوق تلال الصحراء، لكي تذهب به نحو الادغال الموحشة. وجعلت أصيح: ماتيلد... ماتيلد... ولكن ما من جواب.. واضطربت وفزعت اذ فكرت أنها ربما كانت تبكي من الحزن والاسف، بل ربما كانت قد أغمي عليها.. وأكملت ارتداء ملابسي على عجل، ورحت أركض نحو الشجيرات التي لا بد ان تكون مختفية وراءها.. ولكنها لم تكن هناك، ولم أر فوق الرمال غير حقيبة يدها ونعليها الصغيرتين الحمراوين، الا انني في اللحظة التي استدرت فيها وانا انادبها من جديد أحسست بها وهي تسقط فوقي

كأنها إعصار من ماء.. وبعنف فقدت معه توازني.. وهويت منهارا واياها على ظهري.. ونهضت هي وجلست مقرفصة على صدري، وراحت تغرق في الضحك وتقول:

– أعد ما قلته.. أعده قليلا.. هيا أعده فأرى ما انت فاعل..

وكان الرمل يتطاير في وجهي فيلذعني لذعا، ولا تنفك هي تضحك..

وأجبت أنا كالجبان الرعديد:

– طيب.. انتهينا.. لن أقول هذا مرة اخرى.. فدعيني..

ولكنها لم تنهض في الحال عن صدري وقالت:

– وهل هذا كل شيء؟ ما أسخفني، أنا التي كانت تحسب انك ستتحدث في أمر خطير حقا..

ثم انزاحت عني، ونهضت أنا وأحسست فجأة انني سعيد بأن قلت لها ما أريد دون ان تأخذه مأخذ الجد، على اعتبار انه من المفاكهات التي يتبادلها المحبون.. ورحنا نصعد المنحدر وقد أمسك كل بخصر الاخر، وقلت لها انني أحبها حبا قويا، وأجابتني هي بعد ان اطمأنت ووثقت ان لا قطيعة بيننا: وانا احبك ايضا. وما هي الا لحظات حتى كنا ندرج من جديد على طريق كريستوفر كولمبوس.. الا انها عندما وصلت بها الى مسكنها، قالت وهي تمد لي يدها:

–جوليو.. يحسن أن لا نتقابل في بضعة الايام المقبلة..

وأحسست بانقطاع نفسي وهتفت كالمختنق:

– ولكن.. لماذا؟..

وعندئذ تطلق محياها وقالت:

- انما اردت أن أمتحنك.. كنت تريد ان تقطع صلتك بي.. اليس كذلك؟..
الا انك لمجرد التفكير بأنك لا تراني بضعة أيام فقط بان عليك هذا الأسى وهذا الاضطراب.. هيا.. هيا.. لا بأس عليك.. وسنتقابل غدا..

ومضت راكضة، وبقيت أنا كالأبله انظر اليها وهي تعود الى بيتها...

البير تومورالميا (ايطاليا)

البوح

لا تحدثني عن الاسرار.. لقد كان سري من هاتيك الاسرار التي تثقل على الضمير وكأنها عذاب كابوس يلازمك في الايام التي تتأبى معدتك، خلالها، على الهضم،، وانا أعمل سائق سيارة نقل، ولا أنفك أحمل في سيارتي حجارة بركانية ضاربة الى الحمرة من محجر يقع في نواحي- كامبانيانو- الى ورشة بناء في روما.. وذات صباح ربيعي بديع صرعت رجلا كان مندفعا في مواجهتي وهو يمتطي دراجته النارية، وكان ذلك عند الكليو متر الخامس والعشرين على طريق- كاسيا- وقد زاد الطين بلة انه ما كان لي أي عذر فقد كنت أقود سيارتي الى يسار الطريق بعد ان تجاوزت إحدى السيارات، وكنت مسرعا جدا في حين كان هو ملتزما الجانب الايمن من الطريق، ومتمهلا في سيره. ولقد صدمته سيارة النقل بقوة بالغة لم أكد ارى معها هذه الكتلة السوداء التي انقذفت في الفضاء الازرق ثم انحطت على أرض السهل دون حراك وسط ازاهير- المارغريت- الناصعة البياض. وبقيت دراجته النارية في الجانب الاخر من الطريق وقد ارتفعت عجلاتها في الهواء، اشبه ما تكون بحشرة ميتة.. أما انا فقد ضغطت على البنزين وطأطأت رأسي وانطلقت مسرعا، فقطعت الطريق حتى روما دفعة واحدة.. وافرغت حمل سيارتي في ورشة البناء.. ثم عدت عدة مرات الى-كامبانيانو- غير اني كنت اجتنب- كاسيا- فأمر من طريق- فلامينيا-.. وفي الغداة نشرت الصحف خبر الحادث «فلان، رب عائلة في الثالثة والاربعين من عمره، ويعمل

سمسارا، صرعته سيارة عند الكيلو متر كذا في طريق كاسيا ففارق الحياة فورا.. ولا يدري احد من ارتكب الحادث، فقد فر المجرم الجبان.. « جبان،، تلك كانت الكلمة التي استعملتها الصحف اليومية، وما خلا هذا الوصف الذي أثر في نفسي فان اربعة اسطر كانت كافية لسرد الحادث الذي روى موت رجل.

في الايام التالية لم أفعل غير ان افكر فيما وقع.. وصحيح انني سائق سيارة نقل، ولكن من ذا يقول ان سائقي سيارات النقل لا ضمير لهم؟ ان السائق منا سواء اظل يقود سيارته او اخلد الى الراحة في فراشه فان له لساعات وساعات للتفكير في شؤونه الخاصة.. وعندما لا يكون سلوكه كما يجب ان يكون- كما هي حالي- فان رد الفعل في نفسه يلازمه ويتسلط عليه ويرهقه.. وكنت، بصورة خاصة، لا أصفح عن نفسي أن لم أقف، لم أحمل جثته الى سيارتي.. وبقي مشهد مصرعه يعاودني ويتمثل لخاطري، فأراني أحسب حساب المسافة التي كانت تفصل بيني وبين السيارة التي تجاوزتها، ثم ارى جسم ذلك الرجل التعس وهو يطير في الهواء امام حاجز سيارتي الزجاجي، واذ ذاك ابادر الى محو تلك الرؤيا من خاطري كما تمحي من خواطرنا حوادث فيلم من الافلام، واروح أفكر في سريرتي: الآن تضغط على كوابح السيارة وتنزل منها.. وتتجه الى السهل.. وتأخذ الصريع بين ذراعيك.. وتمدده في السيارة وتهرع به الى مستشفى - سانتو سبيرتو- في روما.. ولكن.. واسفاه.. انها ليست اكثر من احلام .. فانني لم أقف بل انطلقت لا الوي على شيء، وقد طأطأت رأسي كثور يتأهب لينطح بقرنه.. وباختصار، كنت كلما عدت الى التفكير بتلك اللحظة الفريدة قل فهمي لنفسي.. انه الجبن دون أي ريب. ولكن كيف يمكن لرجل ان يكون شجاعا أو على الاقل يعتقد أنه شجاع في لحظة سابقة ثم يغدو جبانا في لحظة لاحقة؟ ومع ذلك فقد جرت الامور هكذا تماما.. فالميت قد مات حقا.. وتلك اللحظة التي كان في وسعي أن أقف فيها قد مرت وانقضت.. وهي الآن تفر في اطواء الماضي دون ان يستطيع أي شيء ارجاعها، وانا لم أعد- جينو- الذي

استطاع ان يتجاوز سيارة امامه.. وانما غدوت- جينو- آخر قتل رجلا ولاذ بالفرار.

وند النوم عن أجفاني.. وأصبحت متجهما، مريد الاسارير، وما هي الا أن تجنبني الجميع في ورشة البناء وفي مكان آخر غيرها.. ما من أحد يحب أن يبقى مع انسان كئيب يطفىء المرح بدلا من أن يأتي به ويشيعه.. كنت احمل سري في ذاتي كما لو كان شيئا مسروقا يحرق لك بدنك ولا تدري لمن تبوح به وتتخفف منه.. وصحيح ان تفكيري في هذا السر كان يقل شيئا فشيئا، بل استطيع أن أقول انني أمسكت عن التفكير فيه على وجه التقريب.. ومع ذلك فقد كان هذا السر ماثلا دائما أمامي، يثقل بوطأته على ضميري ويحول بيني وبين الاستمتاع بالحياة.. وكنت غالبا ما أحسب انني لو فتحت قلبي لأحدما لتخففت منه، وما كان ذلك لأنني كنت أرجو أن أجد المغفرة- فقد كنت اعلم أنَّ ما اجترحته لا غفران له- وانما لأنه كان يتراءى لي انني بالبوح به استطيع ان ازيل عن كاهلي بعض عبئه الذي يكتم أنفاسي ما دام ان امرءا آخر سيشاركني في حمله.. ولكن لمن تراني أفضي به؟ الزملائي في ورشة البناء؟ ان لهم ما يفكرون فيه.. أم لاسرتي؟ لا اسرة لي، فانا لقيط.. أم لخطيبتي؟ ربما كانت هي الوحيدة الجديرة بأن تفهم، فالنساء يعرفن كيف يتكهن وكيف يشفقن ويرحمن.. ولكن، لسوء الحظ، لم تكن لي خطيبة

في أحد أيام شهر أيار ذهبت مع فتاة خارج المدينة، فتاة تعرفت بها في السابق اذ كنت احملها مع صديقة لها في سيارتي واقطع بهما شوطا في طريق- كاسيا- وكنت قد رأيتها مرتين فارتاح أحدنا للآخر، وفي النهاية أفهمتني أنني نلت اعجابها، وانها ستتلقى ممهدات الغزل مني بعين الرضى.. كان اسمها- ايريدا- وتعمل في خدمة امرأة ثرية .. ولقد خلبت لبي برزانتها على الفور ان لم يكن بوداعة محياها البيضوي الرقيق الشاحب الذي تلتهمه عيناها الواسعتان

الرماديتان الكئيبتان.. وبوجه الاجمال كانت هي ضالتي التي أبحث عنها في ظروفي الراهنة. وقد رضيت ان تجالسني في ناحية من السهل صامتة، رقيقة الحاشية كتوما، بعد ان احتسينا القهوة في مقهى هناك يقوم بين الاثار والاطلال من اعمدة وجدران. وكان مجلسنا عبر بوابة- سان بول- حيث ينبسط ثمة منظر رائع على نهر- التيبر- والعمائر الحديثة القائمة جنبا الى جنب على الضفة المقابلة. وقد فرشت شالها فوق العشب لكي لا تتسخ ملابسها، وبقيت هكذا بدون حركة وقد طوت ساقيها ووضعت يديها على ركبتيها وراحت تنظر الى العمائر الضخمة في الضفة الاخرى. لاحظت ان في العشب من حولنا الكثير من ازاهير- المارغريت-.. وعلى الفور تذكرت البياض الناصع لهذه التي كانت اشبه ببساط ممدود رقد فوقه، منذ شهر مضى، رجل كان قد فارق الحياة.. انه الرجل الذي صرعته بسيارتي.. ولست ادري لماذا أحسست بدافع مفاجىء يغريني بالافضاء لها بسري.. ولاح لي انني اذا بحت لها بما في قلبي فان هذا سيريحني من العبء الذي أرزح تحته.. انها لم تكن من هاتيك الفتيات الطائشات الرعناوات اللواتي اذا ما بحت لهن بسرك سرعان ما تعض يد الندم، ويغدو سرك في صدرك أشد وطأة واعظم ثقلا مما سبق.. وانما كانت فتاة جادة، متفهمة، متحفظة، ذات تجارب خاصة، لم تكن على التأكيد، مبهجة كما يبدو على الاقل من التعبير الكئيب الذي يعلو محياها.. وسألتها لكي أحطم ثلج الصمت بيننا:

- فيم تفكرين؟ فأجابت:

- لا أفكر في شيء. وكانت في هذه اللحظة توشك ان ترفع يدها الى فمها لتكتم بها تثاؤبها.. ولم أيأس من جوابها فأردفت أقول:

- ايريدا.. انني أحبك كما تعلمين.. ولهذا السبب فانني أحس أنه يجب أن لا أخفي عنك شيئا من ذات نفسي.. يجب ان تعلمي كل شيء يا ايريدا.. ان في صدري لسرا..

وتطلعت الى العمائر الكبيرة في الضفة لاخرى، وتحسست بأناملها ذقنها حيث كان يبدو تورم خفيف أحمر لا بد انه بثرة صغيرة من بثور الربيع..

وقالت:

- ما هو هذا السر؟ فقلت بجهد:

- قتلت رجلا.. وتقوله لي بهذه الصورة؟

-وكيف كان يجب ان اقوله؟ فلم تجب، وبدت كأنها تبحث عن شيء وهي تحدق النظر في الارض. وعدت اقول:

- بالطبع انا لم اقتله عامدا متعمدا..

ووجدت ما كانت تبحث عنه.. فقد قطعت عشبة ووضعتها في فمها وراحت تمضغها مفكرة.. وعندئذ أخذت اروي لها الحادث دون أن أخفي شيئا، بل كنت، اذا جاز لي القول، أشدد على الوصف بأنني جبان.. وانهيت كلامي قائلا وقد تملكني الانفعال رغما عني ولكنني تخففت من عبء سري قليلا:

- والآن.. ما رأيك؟ ولكنها استمرت تمضغ العشبة الصغيرة ولم تقل شيئا.

ولكنني قلت ملحا:

- أراهن الآن انك لا تطيقينني..

فرأيتها ترفع كفيها قليلا غير مبالية.. ثم قالت:

- ولماذا يجب ان لا أطيقك؟

- لا أعلم.. ولكن ذلك الشيطان التاعس قد مات بجريرتي.

- وهل انت نادم.. يخزك ضميرك؟

- نادم جدا.. ومعذب الضمير جدا.

وعلى حين غرة تضاغط حلقي كأنما توشك الدموع أن تخنقني .. وتابعت قائلا:

- يلوح لي انني لن استطيع العيش ابدا.. لا يمكن ان يعيش انسان اذا ما فكر انه كان جبانا.

- وهل تحدثت الصحف بالحادث..؟

- أجل. في أربعة أسطر.. قالت فيها انه قضى نحبه.. وان الفاعل مجهول وسألتني فجأة:

- أتعرف كم الساعة الان؟

- انها الخامسة والربع.. وتبع ذلك صمت آخر وقلت:

- فيم تفكرين؟

ونقلت العشبة المضوغة من ناحية الى أخرى في فمها وأجابت بصراحة:

- لا أفكر في شيء.. انني أحس انني مرتاحة.. لا أفكر في شيء. في هذه المرة أحسست بالذهول.. وانكار ما تقول.

وقلت:

- غير ممكن.. لا بد انك كنت تفكرين في شيء ما.. ولا ريب.. فابتسمت نصف ابتسامة. وقالت:

- اجل. كنت أفكر في شيء ما.. ولكن لو اخبرتك به فلن تصدقني..

وسألتها وقد تولد في نفسي بعض الامل:

- أكنت تفكرين في شيء له علاقة لك به..

- وما هو اذن؟

فقالت ببطء:

- انه أحد هذه الاشياء التي نفكر فيها نحن النساء: كنت انظر في حذائي فتبين لي انه مثقوب.. ففكرت ان في شارع- كولادي ريونتزو- متجرا يجرى تصفية لبضائعه، وانني سأذهب غدا لكي اشتري حذاء جديدا.. فهل انت مسرور الان؟

وبقيت هذه المرة صامتا متجهما. فلاحظت ذلك وسألتني:

- ماذا دهاك؟ هل أغضبتك؟ فلم استطع ان امتنع عن الصياح:

- أجل لقد غضبت. انني رويت لك قصة حياتي.. ولكن كان الاجدر بي ان لا أقول لك شيئا ما دام هذا هو كل تأثرك.. وبدا عليها كأنما قد امتعضت قليلا ثم قالت:

- ولكنك أحسنت فعلا ان قلت لي هذا.. لقد تأثرت حقا..

- أي تأثر؟ ففكرت ثم قالت متحرجة:

- انني آسفة ان يكون قد وقع لك هذا.. ولقد أثر بي تأثيرا محزنا..

-أهذا كل شيء؟ وعادت تقول وهي تتحسس من جديد تلك البثرة الصغيرة

في ذقنها:

- وأعتقد أن من العدل ان تشعر بالندم ووخز الضمير..

- ولم ؟

- انت نفسك قلت انه كان في وسعك ان تقف.. وتقدم للرجل عونا ما.. ولكنك لم تفعل..

- واذن.. فأنت ترينني جبانا ؟

- اراك جبانا ؟ نعم ولا .. الصحيح ان هذا قد يقع لاي انسان غيرك.

- ولكنك قلت الان انه كان يجب ان اقف.

- كان يجب.. اجل.. ولكن.. ما دمت لم تفعل.

- واذن؟ في هذه اللحظة رأيتها منهمكة في النظر الى زهرة من ازهار- المارغريت- باستغراق. وفجأة أحسست بفراغ في نفسي.. كأنما هذا السر الذي شد ما علبت نفسي في سبيله قد تلاشى في انسجام الربيع، او تطاير كهاتيك الفراشات البيض التي كانت تحوم، ازواجا، هنا وهناك في الشمس. ومع ذلك سألتها وفي نفسي اماضة آخر أمل.

- باختصار.. هل انا في رأيك أحسنت أم أسأت اذ لم أقف؟

- أحسنت وأسأت معا.. بالطبع كان يجب ان تقف ما دمت قد ارتطمت به.. ومن ناحية اخرى ما كان وقوفك ليجدي شيئا اذ انه مات.. والله يعلم ما كنت ستعاني من هموم.. واذن فقد أصبت وأخطأت في آن واحد. وقد ولدت كلماتها هذه في نفسي هذه الفكرة: انها المرة الاخيرة التي أراها فيها.. كنت

أحسبها فتاة ذكية، قادرة على الفهم.. غير أنها، على النقيض، غبية بلهاء..
ونهضت فجأة وأنا أقول- حسن هيا بنا.. والا تأخرنا عن حفلة السينما.. وما ان
جلسنا في ظلام القاعة حتى وجدتها تضع يدها في يدي وتحتضن أصابعها
أصابعي.. وتركتها تفعل ذلك.. وكان الفيلم المعروض يروي قصة حب مؤثرة ولما
استضاءت القاعة رأيت عينيها الرماديتين الواسعتين قد امتلأتا بالدموع فابتل
بها خداها.. وقالت وهي تكفكف دموعها بمنديلها.

- ان هذا أقوى مما استطيع.. وانا كلما شاهدت فيلما من هذا النوع بكيت..

وبعد السينما ذهبنا الى «بار» شربنا فيه القهوة.. وكانت لا تنفك تلتصق
بي، وتضغط بردفيها على ردفي، وفي لحظة من اللحظات التي فاح فيها أريج
القهوة، همست وهي تحدق بعينيها الواسعتين في وجهي:

- انك تعلم انني أحبك حبا قويا جدا.

وودت أن أجيبها: « انك تحبينني ولكنك تتركينني احمل عبء سري
وحدي» غير اني أمسكت.. وادركت انا من العبث ان أطلب منها او من
الاخريات جميعا اكثر من المودة والحنان.. ولا شيء غير هذا وقلت متنهدا:

- وانا أيضا أحبك جدا.. ولكنها كانت قد انصرفت عن الاصغاء الي.. وانما
كانت تنظر الى المرآة المعلقة فوق المشرب وهي مشغولة البال ولا تني تمس من
ذقنها تلك الناحية التي ظهرت فيها بثرة صغيرة حمراء.

اتطون تشيكوف (روسيا)

الآنسة نتالي

كان ذلك منذ نحو تسع سنوات، في وقت حصاد الهشيم، عصر احد الايام. وكنت أنا وبيير سرغيتش، وكان يزاول عمله قاضيا للصلح، قد ذهبنا على ظهور الخيل الى محطة السكة الحديدية لكي نأتي بالبريد. وكان الجو صافيا ، غير أننا في طريق العودة سمعنا هزيم الرعد، ورأينا سحابة ضخمة دكناء تتقدم في اتجاهنا، مهددة متوعدة. وكنا نسير صوبها.

من بعيد، وراء تلك السحابة، كانت دارنا تبدو كبقعة بيضاء، ومعها الكنيسة، وأشجار الحور الفضية الباسقة. كانت رائحة المطر والهشيم تملأ الانف. وكان زميلي متوقد الذهن لا ينفك يضحك ويفيض بلغو القول، ويخال الخيالات. قال: ما أروع ان نجد في طريقنا قصرا من قصور العصور الوسطى، وقد نهض ثمة على حين غرة بأبراجه المسننة وطحالبه وبومه فنلوذ به من المطر، ثم تضربنا الصاعقة في النهاية فنهلك.

وثارت الريح فجأة، وجرت دوامتها فوق القمح والقرطم، وتطاير الغبار في الجو. وضحك بيير وهمز جواده، وتنحنح وصاح: حسن. حسن جدا. ورحت أنا أضحك كذلك تحت تأثير اندفاعه، وانسياقا مع تصوري باني لن البث ان ابتل حتى عظامي، وان من المحتمل ان تصرعني الصاعقة.

ولما عدنا كانت الريح قد هدأت، وهطلت قطرات كبيرة من المطر كانت تتفقأ

بين العشب وفوق الاسطح. ولما دخلنا الاصطبل لم نجد فيه انسانا قط.

قام بيير سرغيتش نفسه برفع السرجين، وقاد الجوادين الى مربطهما. وفي انتظار ان يفرغ من عمله هذا كنت واقفة على العتبة أشاهد خيوط المطر المنحرفة. وكانت رائحة الهشيم المثيرة أشد هنا منها في الحقول. وقد اربد الجو وتجمعت الغيوم وانهمر المطر شديدا. ثم قصف الرعد قصفا مروعا حتى لقد بدا كأنما السماء قد انشقت شطرين. وعلى أثر ذلك اقترب بيير مني وقال: يا لقعقعة هذا الرعد!

كان واقفا الى جانبي على العتبة يتأملني، وما برح مبهور الانفاس من شدة عدو الجواد به. ثم قال: يا آنسة نتالي، شد ما وددت ان أخرج عن كل ما أملك في سبيل أن أظل واقفا هكذا أطول مدة ممكنة وانا أنظر اليك. فأنت اليوم رائعة باهرة.

كانت نظرته مفتونة متضرعة، ومحياه شاحبا، تلتمع فوق لحيته وشاربيه قطرات المطر. وكان يُخيل الي كأن تلك القطرات هي الاخرى، تنظر الي برفق. ومضى يقول: اني احبك. أحبك وأحس أني سعيد ان اراك، وانا اعلم انك لا تستطيعين ان تكوني زوجي. غير أني لا أبتغي شيئا، ولست بحاجة الى أي شيء. ولتعلمي أني أحبك وحسب. لا تقولي شيئا ولا تجيبي ولتعلمي فقط انك العزيزة الغالية. ودعيني بعد اتملى النظر منك.

وانتقلت الى حماسته، ورحت أتأمل محياه الملهم، وأصغي الى صوته يختلط بصوت المطر. ولم أعد أستطيع ان آتي بحركة. لكأنما تملكني سحر ساحر. وتمنيت لو بقيت هكذا الى الابد أتأمل عينيه البراقتين، وأسمع صوته الجميل.

قال بيير: أنك لا تفوهين بكلمة. وهذا حسن جدا. استمري في صمتك.

تملكني احساس مستطاب، وطفقت أضحك فرحا وابتهاجا. ثم ركضت نحو البيت تحت وابل المطر. وضحك هو الاخر، واندفع يلاحقني.. وطرنا خفيفين، كل الى غرفته نصخب صخب الاطفال، وكانت ثيابنا مبلولة، وأنفاسنا مبهورة، وصات السلم تحت وقع أقدامنا. وما كان أبي ولا أخي، قد تعودا أن يرياني مبتهجة ضاحكة السن هكذا، فحدقا النظر في مندهشين، ثم أغرقا في الضحك.

وانقشعت غيوم العاصفة وسكن الرعد، ولكن قطرات من المطر كانت لا تزال تلتمع على لحية بيير. وراح هو طيلة المساء يغني ويصفر ويلاعب الكلب في جلبة ويلاحقه في أرجاء البيت حتى كاد يصطدم بالخدم. وحان موعد العشاء فأخذ يلتهم الطعام التهاما، ويتحدث، ويقول الحماقات ثم أكد ان المرء اذ يتناول خيارا طازجا في الشتاء يحس بشذا الربيع في فمه.

ولما حان وقت النوم، اوقدت شمعة في غرفتي، وفتحت النافذة على وسعها، واستولى على روحي شعور لا سبيل الى تفسيره. وطاف في ذهني أني حرة، وذات ثراء، وجيدة الصحة واني من الطبقة الاجتماعية الرفيعة. أحاسيس ما أجملها يا الهي!

وحاولت، وانا أضطجع على سريري، واستنشق العبير الرطب المتصاعد من البستان مع أنداء الليل، ان اتفهم حقيقة شعوري نحو بيير سرغيتش، وهل أنا أحبه، ولما لم يسعني أن أفهم شيئا ادركني النوم، ولكني لما استيقظت في الصباح، وشاهدت ظلال شجر الزيزفون، وشعاعات من نور الشمس تمر فوق سريري، عادت الى ذاكرتي حوداث العشية السابقة. وبدت لي الحياة عندئذ غنية متنوعة، مليئة بالسحر والروعة، ورحت أرتدي ملابسي بسرعة، وعلى شفتي يتراقص نغم جميل، ثم انطلقت الى الحديقة.

فماذا جاءت به الايام بعد ذلك؟ لا شيء. لقد كان من عادة بيير، في أثناء

اقامتنا في المدينة شتاء، ان يزورنا احيانا. ان اصدقاء الريف، أمثال بيير لا تطيب بهم نفوسنا الا في الريف وحده، صيفا. وأما في المدينة وفي فصل الشتاء فان هؤلاء الاصدقاء يفقدون نصف كياستهم وملاحتهم. ونحن حين نقدم لهم الشاي في المدينة، يساورنا الشعور بأنهم يرتدون حلل الريدنغوت المستعارة وانهم يحركون الملاعق الصغيرة في أكواب الشاي مدة جد طويلة..

وفي المدينة كان بيير يتحدث احيانا في الحب. غير انه كان لذلك الحديث وقع مختلف عنه في الريف كل الاختلاف. لقد كنا في المدينة نحس بالحاجز الذي يفصل بيننا احساسا اقوى وأشد: فأنا ثرية، ومن الطبقة الرفيعة، وهو فقير.

كان مرشحا لوظيفة قاضي صلح. وكنا، كلانا نعتبر الجدار القائم بيننا عاليا وسميكا جدا. وكان هذا مني نزق شباب، واما منه فعلمه عند الله، وكان حين يتردد علينا في المدينة لا ينفك يتكلف الابتسام ويوجه نقده الى الطبقة الرفيعة. واذا وجد في غرفة الاستقبال زائر اخر لزم جانب الصمت عابسا مقطبا.

لقد كنت محبوبة. وكانت السعادة بجانبي. لكأنما تعايشني وتقيم معي كتفا الى كتف. وكنت احيا دون مبالاة، دون محاولة لفهم نفسي، دون ان ادرك ماذا انتظر واتوقع من الحياة. وكان الزمن يمضي.

كان الناس يمرون أمامي ومعهم الحب. وكانت الايام الصافية والليالي الدافئة تتعاقب والبلابل تغرد، والهشيم يفوح أريجه. ان هذا كله، وهو غاية في الفتنة واثارة الذكرى لي وللآخرين، قد مر وانقضى وشيكا، دون ان يبقى أثرا يجد تقديرا. فأين هو الان، اين، اين؟..

وتوفي والدي وأخذت أشيخ. وكل ما كان يبهج ويسر، ويحلو ، ويهب، الامل: وقع المطر.. هزيم الرعد.. فكرة السعادة.. احاديث الحب.. هذا كله لم يعد سوى ذكرى.. واني لارى الان أمامي منبسطا شاسعا كله وحشة وخواء.. والافق،

هناك، مريدا مخيفا..

ويقرع جرس الباب: انه بيير.

إنّ بيير منذ زمن طويل قد استقر في المدينة بسبب من حماية أبي ومسعاه. ولقد شاخ قليلا، وانحنى ظهره شيئا ما، وكف منذ زمن بعيد عن مطارحتي الحب ولم يعد يلقي بحماقاته قط، كما لم يعد يحب مهنته. فكأنه مريض، وكأنما زال عنه السحر والوهم، فأدار ظهره للحياة وراح يعيشها مرغما.

جلس قرب الموقد يتطلع بصمت الى اللهب.. ولا يدري ما يقول.. وسألته: ماذا هناك؟ وأجاب : ما ثمة من شيء..

وأطبق الصمت عليه من جديد. وراح اللهب الاحمر المنعكس يتراقص على صفحة وجهه. وعاد الماضي الى مخيلتي. وعلى حين غرة اهتز كتفاي، وانحنى رأسي، وطفقت أبكي بحرقة.. ولقد رثيت رثاء مريرا لنفسي ولهذا الرجل، وتمنيت لو عاد ما فات مما تأباه علينا، اليوم الحياة، لم افكر عندئذ أني ثرية.. واني من الطبقة العالية.. ثم شهقت في البكاء وانتحبت بصوت مرتفع وانا أضغط فودي، ورحت اتمتم: رباه.. رباه.. لقد ضاعت حياتي..

ولما سرت معه اودعه في رواق البيت تلبث طويلا وهو يرتدي معطفه المبطن بالفراء. وقد قبل يدي مرتين دون ان ينبس بكلمة. وحدق مليا في وجهي المبلل بالدمع. واحسب انه في تلك اللحظة قد تذكر ذلك اليوم العاصف.. وخيوط المطر المنهمر.. وضحكاتنا.. ووجهي اذ ذاك.. وهم ان يقول لي شيئا ما، كان سيشعره بالسعادة لو افضى به، الا انه لم يفعل، واكتفى بأن يهز رأسه ويضغط يده بشدة.. كان الله معه..

وبعد ان رافقته حتى الباب عدت الى غرفة مكتبتي، فجلست ثانية على

البساط قبالة الموقد.. وقد اكتست الجمرات الحمر بالرماد وشرعت تخمد.. ولقد قرع الجليد زجاج النوافذ بعنف متزايد، وأخذت الريح تفح في مدخنة الموقد، ودخلت الخادم وحسبتني نائمة وراحت تناديني لتوقظني.

انطون تشيكوف (روسيا)

المحار

لست أحتاج الى جهد كبير لكي اتذكر جميع تفاصيل تلك الامسية من أمسيات الخريف الماطرة: هأنذا مع والدي في شارع من أشد شوارع موسكو ازدحاما بالخلق. واني لاحس بعارض غريب يتملكني شيئا فشيئا. انا لم أتألم غير أن ساقي الاثنتين تتراخيان، والكلمات تقف في حلقي، ورأسي ينثني جانبا دون قوة.. انني، بكل وضوح اوشك ان انهار وافقد وعيي..

في تلك اللحظة لو حملت الى المستشفى لاضطر الاطباء ان يكتبوا في اللائحة المعلقة فوق رأسي كلمة« جوع » باللاتينية.. وهو مرض لم يعد له ذكر في كتب الطب..

ان ابي يقف الى جانبي على الرصيف، وهو يرتدي معطفا صيفيا رثا، وقد دس رأسه في قلنسوة من نسيج صوفي تفلتت منه كبة من شعر اشيب، ووضع في قدميه حذاء ثقيلا من المطاط، وبداع من الغرور، وخشية أن ترى رجلاه العاريتان في حذائه المطاط، فقد لف حول ساقية شقتين من جلد جزمة عتيقة..

هذا الرجل الفذ الاحمق قليلا، الذي يزداد حبي له كلما ازداد معطفه الصيفي تمزقا واتساخا، هذا الرجل كان قد اتى العاصمة قبل خمسة اشهر باحثا عن عمل مكتبي، عن وظيفة ما.. وطيلة هذه الاشهر الخمسة لم ينفك يجوب شوارع المدينة في طلب العمل..واليوم فقط قرر ان يمد يده سائلا صدقات

المتصدقين..

وينهض أمامنا بناء من طابقين وعليه لافتة زرقاء داكنة كتبت عليها هذه الكلمة «مطعم». ان رأسي الذي فارقته القوة يتطوح الى الخلف وينثني جانبا.. ودون ما ارادة مني، فاني أنظر في الفضاء فأرى نوافذ المطعم وقد انبعث منها النور.. وها هي اطياف الاشخاص تمر ثم تعود فتمر ثانية وراء الزجاج. وان عيني لتأخذ، في الناحية اليسرى، معازف الموسيقى، ورسمين منقولين عن أصل زيتي، وثريات النور.. ويقف بصري عند نافذة فألحظ ثمة بقعة بيضاء.. ان البقعة ثابتة، تحيط بها خطوط مستقيمة وقد التصقت هذه الخطوط بخلفية كستنائية اللون من جدار البناء.. واحدق بهذه البقعة، فأتبين لافتة بيضاء من لافتات الاعلان..ان فيها كتابة.. ولكنني لا استطيع تمييزها.. وابقى نحوا من نصف ساعة دون ان احول بصرى عن اللافتة. ان لونها الابيض الناصع ليجتذب انظاري وكأنه قد استهواني وسحرني..واحاول أن أقرأ الكتابة، ولكن جهودي تبوء بالخيبة.

وأخيرا فان عارض المرض تملكني تماما.. واخذت ضوضاء العربات تقع في سمعي وكأنها هزيم الرعد.. واني لأستطيع ان اميز الاف الروائح في نتن الشارع وعفنه..

وان عيني لتريان في مصابيح الطريق وأضواء المطاعم بروقا تخطف الابصار.. لقد غدت حواسي المتوترة الى أقصى حد مرهفة بصورة غير طبيعية.. فاذا بي قد شرعت أرى ما لم اكن لاراه من قبل.. وقرأت ما هو مكتوب فوق اللافتة.. انها كلمة: محار.

يالها من كلمة غريبة! لقد عشت في هذه الدنيا ثماني سنوات وثلاثة اشهر بالضبط دون ان اسمع هذه الكلمة تلفظ مرة واحدة.. ماذا تراها تعني؟ ربما كانت

اسم صاحب المطعم.. ولكن اللافتات التي تحمل اسماء اصحاب المطاعم تعلق فوق الابواب، وليس على الجدران.

وأسأل والدي بصوت مبحوح محاولا أن ادير وجهي نحوه:

- ابتاه.. ماذا تعني هذه الكلمة: محار؟

لم يسمعني أبي. انه يتفحص حركة جموع الناس، ويتبع بنظره كل من يمر.. انني ارى في عينيه انه يريد ان يقول لهم شيئا.. الا ان الكلمة المشؤومة تظل معلقة بشفتيه المختلجتين، لا تند عنهما كأنها عبء ثقيل.. بل لقد سار خطوة وراء أحد المارة.. ومس كمه بيده.. وعندما استدار الرجل نحوه قال ابي معتذرا:

عفوك يا سيدي، ثم تراجع مضطربا.

وعدت أنا لأقول:

- ابتاه.. ماذا تعني كلمة محار؟

فقال:

- انه نوع من الحيوان.. يعيش في البحر.

وبمثل لمح البصر تمثلت ذلك الحيوان المجهول الذي يعيش في البحر.. انه لا بد يكون شيئا وسطا بين السمك والقشريات.. وما دام يعيش في البحر فلا بد انهم يصنعون منه حساء سمك شهيا.. ساخنا.. يعبق برائحة الفلفل الاسود وورق الرند.. او قد يصنعون منه متبلات غضروفية ذات مزازة.. أو حتى مرقا من مرق القشريات.. وربما تناولوه باردا مع الفجل البري.. وبإماضة خاطفة جعلت اتخيل كيف يحضرون هذا الحيوان من السوق: انهم ينظفونه بسرعة.. وبسرعة أيضا

يدسونه في القدر.. اجل بسرعة.. بسرعة.. لان الكل جائع.. الكل يفري الجوع أمعاءه.. ،من المطبخ تنبعث رائحة السمك المقلي.. وحساء القشريات .

واحس ان هذه الرائحة تدغدغ لي حلقي وانفي، ثم تغمر جسدي كله شيئا فشيئا.. ومن المطعم.. ومن ابي ومن اللافتة البيضاء.. واكمامي.. تنبعث هذه الرائحة وتتصاعد قوية.. قادرة.. قاهرة.. الى حد رحت معه أمضغ.. كأنما في فمي حقا قطعة من هذا الحيوان الآتي من البحر.

وتتراخى ساقاي وتلتويان من فرط اللذة التي أحس بها.. ولكني لا اسقط أمسكت بكم أبي.. ثم لذت بمعطفه الصيفي المبتل.. ان ابي يرتجف.. ويتكور على نفسه من البرد.. وعدت أسأله:

- أبتاه.. هل المحار هزيل.. ام سمين ذو دهن وشحم

وقال أبي:

- انه يؤكل حيا.. وهو يوجد في اصداف كالسلاحف انه في قوقعة من صدفتين..

وعلى الفور لم تعد الرائحة الشهية تستثيرني. لقد زال الوهم.. واصبحت ادرك كل شيء الان..

واراني اهمس قائلا:

- انه لكريه.. كريه جدا .

واذن فهذا هو ما تعنيه كلمة محار.. واتصور حيوانا اشبه ما يكون بضفدع.. ضفدع في قوقعة تتطلع بعينين كبيرتين.. ولا تنفك تحرك فكيها

الكريهين..واروح أتخيل كيف يؤتى بها من السوق وهي لا تزال في قوقعتها.. ولها كلابتان وعينان تبرقان.. وجلد لزج.. دبق.. ويختبىء الاولاد جميعا.. والطاهية تمسك بها من كلابتيها وقد بان عليها الاشمئزاز وتضعها في طبق وتذهب بها الى حجرة الطعام.. ويتناولها الاشخاص الكبار.. ويروحون يأكلونها.. يأكلونها حية.. بعينيها وأسنانها.. وقوائمها.. وهي تصرخ.. وتحاول ان تنهش لهم شفاههم.

وجهي يلتوي من الاشمئزاز.. ولكن لماذا شرعت أسناني تمضغ..! انها حيوان كريه.. تتقزز منه النفس.. حيوان مخيف.. ولكني مع ذلك أمضغ هذا الحيوان وآكله بنهم.. بشراهة.. وانا احاذر ان اعرف طعمه ورائحته.. ابتلعت واحدا..واني لالمح الاخر بعينيه البراقتين.. والثالث.. فآكلها أيضا..وآكل معهما الفوطة، والطبق، وحذاء ابي واللافتة البيضاء آكل كل شيء.. كل ما يقع عليه نظري.. لانني أحس ان الطعام وحده هو الذي يستطيع ان يذهب بمرضي.. ان للمحار عيونا مخيفة.. ان المحار كريه.. كريه.. واني لارتعد لمجرد تصوره.. ولكنني جائع.. جائع..

- أعطوني محارا.. أعطوني محارا..

هذه الصرخة تنبعث من صدري من صدري.. وامد يدي الاثنتين الى الامام..

- ايها السادة... من فضلكم... بعض الفوث...

انه صوت ابي يصافح سمعي.. صوت واهن.. اجش .. واني لاشعر بالخزي من التسول.. ولكن يا الهي .. ان قواي تخور..

وأصرخ وانا اشد ابي من ذيل معطفه:

- أعطوني محارا.. اعطوني محارا.. واسمع من يضحك قريبا مني ويقول:

- أتأكل محارا..وانت لا تزال صغيرا الى هذا الحد؟

وأمامنا يقف سيدان بقبعتين سوداوين عاليتين من قبعات السهرة ويتفرسان في ملامحي ضاحكين:

- واذن، أيها الصبي، فأنت تأكل محارا.. اصحيح هذا؟ عجيب ! وكيف تراك تأكل المحار؟!

واتذكر ان يدا قوية تجرني الى المطعم المتألق.. وبلحظة واحدة يتجمع الناس حولي متعجبين.. هازئين.. واجلس الى مائدة.. واروح آكل بشراهة.. دون ان أمضغه او انظر اليه.. دون ان احاول معرفة ما آكل.. ويخيل الي انني لو فتحت عيني لرأيت، حقا، وبلا ريب على الاطلاق عيونا براقة.. وكلابات واسنانا مدببة ماضية.

وعلى حين جعلت امضغ شيئا صلبا.. تسمع له قضقضة.. ويضحك المجتمعون ويقولون :

- يا سلام.. انه يأكل الصدف ايضا.. يا للابله الصغير .. ايمكن ان يؤكل مثل هذا؟

وبعد ذلك.. اتذكر ما الم بي من ظمأ فظيع.. وأراني ممددا في سريري.. ولا استطيع ان انام.. وينتابني احساس بالاحتراق.. ويشتعل فمي بمذاق غريب كالنار..يذود عني النوم.. وابي يروح ويجيء كثير الحركات والكلام، ولا ينفك يغمغم:

- احسبني قد اصبت بالبرد.. أحس كأن في رأسي شيئا ما.. كأن في داخله

أحدا.. وربما كـان ذلك لاني.. لاني.. لم آكل شيئـا اليـوم.. مـا أعـجب أمري لا ريب في أنني غبي.. رأيت أولئك السادة يدفعون عشرة روبلات لقاء ما تناولوا من محـار. فلماذا لم اذهب اليـهم طالبابضع محارات.. على سبـيل الاعـارة. لا شك في انهم كانوا سيعطونني اياها... .

ويستغرقني النوم قبيل الصباح.. وأرى في أحلامي ضفدعا بكلابتين.. وقد اقتعدت قوقعة.. وراحت تجول بأنظارها، وعند الظهيـرة يوقظني العطش فأبحث بنظري عن أبي.. انه لا ينفك يسير.. ويتكلم.. ويأتي بحركات كثيرة.

مكسيم غوركي (روسيا)

الحب القاتل

كان « ماكارتشودرا » يروي لي هذه القصة الغريبة، وكنا جالسين في تلك الناحية من سهوب سيبيريا يطرق اذاننا دوي الامواج المصطخبة على طول الشاطىء الموحش. وكان هو لا يهتم للبرد، ولا تزعجه صفعات الريح وهي تجلد صدره الاسمر العاري الا من الشعر الكثيف الذي يغطيه، وكان مضطجعا وقد ادار وجهه نحوي، وجعل يدخن غليونه الكبير وينفث في الجو دخانه الداكن، وكانت عيناه تحملقان في الظلام، وقد حدثني طويلا دون ان تبدو منه حركة واحدة ليدرأ عن نفسه صفعات الريح القوية. وقد بدأ حديثه ببعض الافكار الغريبة: ليس على الانسان الا ان يسير في درب الحياة وينظر، وحين يكون قد رأى كل شيء ليس عليه سوى أن يضطجع ويموت. وماذا يجدي ان نعلم الآخرين. هل يسعك ان تعلمهم كيف يكونون سعداء؟ انك لا تستطيع ذلك. ان الناس جميعا يعلمون، فلأي غاية هم يعلمون؟ لا أحد يدري. ترى احدهم وقد انحنى فوق الارض يعمل دون راحة، دون وناء، ومع ذلك فانك تقول ان هذا الرجل يستنفد حياته وقوته قطرة قطرة في سبيل هذه الارض، وسيأتي يوم فيرقد في جوفها حيث تتعفن جثته وتتحلل، وسوف لا يرى شيئا من حقله الذي كد وتعب في سبيله. قل لي هل ولد هذا الانسان لكي يحرث أرضه ويموت بعد ذلك دون ان يستطيع حفر قبره؟ هل هو يعلم ما هي الحرية؟ هل يدرك عظمة هذه السهوب المهولة في سيبيريا، هل يعي لغة هذه الامواج المصطخبة، وهل هي تثير فيه

السرور والبهجة؟ انه عبد منذ ولد وسيظل عبدا طيلة الحياة. هذا كل ما هناك. .
لقد عرفت مرارة السجن يا صديقي، وسا لمت نفسي ذات يوم ما الفائدة من وجودي في هذه الدنيا؟ فقد كان السأم يعتصر قلبي وانا في السجن. هل يستطيع أحد ما أن يقول ما فائدة وجوده في هذه الدنيا؟ لا أحد يستطيع ذلك. علينا ان نعيش وهذا حسبنا. سر وانظر من حولك، فلن ينال منك السأم بعد هذا. وفي السجن تحدث الي أحدهم وهو روسي مثلك، وقال لي يجب ان لا تعيش وفق ارائك الخاصة، بل عش وفق ما يقوله الله، واخضع لمشيئته تحصل على ما تريد. وكان محدثي يرتدي ثوبا مهلهلا، وقلت له ببساطة: لماذا لا تطلب من الله ثوبا غير هذا؟ فغضب وأغلظ لي القول وطردني، ومع ذلك فقد سمعته دائما يقول: يجب ان نغفر للناس ذنوبهم ونمنحهم المحبة. ان أمثال هؤلاء الناس يدعونك تأكل قليلا وهم يأكلون في اليوم الواحد عشر وقعات سمان. » وبصق ماكار في النار وصمت قليلا، وراح يحشو غليونه، وكانت الريح تتناوح، والخيل تصهل من بعيد، وترتفع من المخيم أغنية حلوة وقد أثار اللحن الشجي ذكريات صديقي ماكار.

وأخذ يقول: انه صوت فتاة حلوة. اتود ان تحبك واحدة مثلها؟ كلا. اليس كذلك؟ لا تثق يا صديقي بهاتيك الفتيات. ابتعد عنهن دائما. ان الواحدة منهن تحب القبل وتتعشق الضم كما احب انا غليونني هذا. انك اذا قبلت احداهن ماتت ارادتك في قلبك وتهبها روحك. انهن يكذبن دائما، انهن يشبهن الافاعي، بل هن الافاعي ذاتها. تقول لك الواحدة منهن اني أعبدك، ولكنك لو خدشتها برأس دبوس فانها تمزق قلبك. انا اعرف هذا كله. اتريد ان اروي لك حكاية واقعية؟ سأرويها لك فاحفظها واذكرها دائما طيلة حياتك، لتظل حرا طليقا كالعصفور.

كان هناك رجل اسمه زوبار وكان شابا من جماعة النور، وكانت هنغاريا، وبوهيميا، والبلاد السلافية كلها تعرفه، وتعرف شجاعته واقدامه. وكان اذا

اعجب بفرس اختطفها حتى لو كانت فرقة عسكرية كاملة تقوم على حراستها. وكان له أعداء كثيرون يتمنون ان يقضوا عليه، ولكن أحدا منهم لم يستطع أن يمسه بسوء. ان الشيطان نفسه ما كان ليستطيع ان يناله بشر. كان الجميع يعرفونه، ويعرفون حبه للخيل. الا انه لم يكن يحتفظ بها مدة طويلة. كان يكتفي بأن يمتطي صهوة الجواد أياما قليلة ثم يبيعه وينفق ثمنه بسخاء عجيب. انك لو طلبت منه قلبه لا نتزعه واعطاك اياه. هكذا كان كرمه.

وكانت بين جماعتنا فتاة نورية مثلنا اسمها- رضا- ابنة الشيخ دانيلو، انت تعرف ابنتي نونكا، انها ملكة جمال، أليس كذلك؟ ومع هذا فلا سبيل الى مقارنة جمالها بجمال رضا. ليس في اللغة كلام يمكن ان يصف جمال رضا. لقد حطمت هذه الفتاة قلوبا كثيرة، قلوب فتيان أشداء، وشباب مغامرين، واثرياء كبار. كلهم تمنوا الظفر بها، ولكنها ردتهم بأنفة، ومرغت انوفهم في التراب، حرقت أكبادهم، وشردتهم هائمين بحبها، مولهين بجمالها. وكان ابوها اذ يرى هذايضحك، بل يغرق في الضحك، ويقول: ان ابنتي أشبه بالنسر، وعلى عاشقيها ان يبحثوا عن الأخريات اللواتي يماثلن الحمائم الوديعة. أجل هكذا كانت- رضا- ذات بأس ودهاء واعتزاز يذل الجبابرة.

وكنا مجتمعين ذات ليلة، وعلى حين غرة صافحت آذاننا انغام حلوة، انغام تأخذ بالالباب، انغام تثير في النفس اشتهاء شيء ما، يمكن للانسان ان يموت بعده، واذا عاش كان ملك الارض كلها. تلك كانت الموسيقي التي راحت تتأدى الى أسماعنا. وكانت الانغام تقترب شيئا فشيئا. فجأة استطعنا ان نتبين على ضوء اللهب الجواد الذي يركبه عازف تلك الموسيقى. ولما اقترب منا امسك عن العزف وترجل عن جواده وراح ينظر الينا وهو يبتسم. لقد كان زوبار نفسه. وكان شارباه الطويلان يتهدلان على كتفيه ويختلطان بشعر رأسه الاسود الكثيف المسترسل، وكانت عيناه كالنجوم المتلألئة، وكانت ابتسامته الرائعة شمسا

مضيئة. وقد بدا لعيوننا كأنه هو وجواده قد صبا في قالب واحد من الفولاذ .

وكانت اسنانه تلتمع على ضوء اللهب. ولقد أحببته منذ تلك اللحظة اكثر مما أحب نفسي. وقالت له رضا: « انك تحسن العزف يازوبار. فمن الذي صنع لك هذا الكمان الجميل؟» وضحك زوبار وراح يقول : « أنا الذي صنع هذا الكمان. ولكني لم أصنعه من الخشب، وانما نحته من ضلوع فتاة جميلة كنت أحبها حبا عظيما . أما أوتار الكمان فقد اتخذتها من نياط قلبها. » ولكن رضا اجابته بازدراء قائلة: لقد قيل لي أن زوبار رجل مستقيم وذكي. فما أعجب كذب الناس. ثم ابتعدت.

ومنذ تلك اللحظة وقع زوبار في هواها، فلازمنا ولم يفارقنا لحظة واحدة، وكانت الحانة العذبة تأسر قلوبنا دائما، وتثير ذكرياتنا وتشجينا مرة، وتملأ أرواحنا بمشاعر النعيم مرة أخرى. وكان يبلغ بنا الطرب، في أكثر الاحيان، حداً لو قال لنا معه ان نستل خناجرنا لفعلنا وخضنا معه المعركة التي يريدها، وكثيرا ما كان ينأى عنا في ظلام الليل، ليظل وحده يعزف على كمانه ويناجي الارواح الهائمة ويبث نجوم الليل هواه، ولكن رضا كانت دائما تسخر منه ومن الحانة ومن فنه الجميل بعبارات لاذعة، وكان هو يتحمل هذا كله صابرا. واراد ان يتزوجها وتقدم منها وهو يبثها هواه، فما كان منها الا أن القت تحت قدميه ما عرقل سيره والقاه على الارض واثار السخرية به. ونهض زوبار، وابتعد عنا وهو مطرق الرأس لا ينظر الى أحد ، وتبعته أنا خفية لأرى ماذا عساه يفعل، ورأيته يجلس عند صخرة بارزة ويعتمد رأسه بين راحتيه. وبعد مدة أقبلت رضا يلفها ظلام الليل، واقتربت منه دون ان يحس بوجودها. ومست كتفه بيدها فرفع رأسه ورآها منتصبة أمامه، فاستل خنجره واستوى جالسا، ولكنها قالت له هازئة « دع هذا أو أحطم دماغك» وشاهدت في يدها مسدسا مصوبا نحوه. وترك خنجره وسمعتها تقول له « انني لم آت لاقتلك. ولكني أتيت لأصالحك. »

وكان القمر في هذه اللحظة قد اراق ضوءه الفضي فرأيتهما واقفين متقابلين يحدق أحدهما في الآخر، وكأنهما رغم جمالهما الرائع وحشان مفترسان. واستطردت رضا تقول: « لقد عرفت كثيرا من الفتيان الاشداء، ولكنك أجملهم وأشجعهم. وكان كل منهم يود ان يقبل قدمي ولكن أحدا منهم لم يستطع ان يحرك في قلبي شيئا. انني لم احب أحدا حتى عرفتك فأحببتك، ولكني أحب ايضا حريتي، وحبي حريتي أقوى في نفسي من حبي لك، وكلانا لا يستطيع ان يعيش بدون الاخر. واريدك ان تكون لي روحا وجسدا فلا تضيع وقتك وافعل ما اريده منك لتغدر قبلاتي لك وحدك، وسوف تنسى معي حياتك وانغامك واغنياتك، ولن تغني الا لي وحدي. ستأتي غدا أمام الجميع وتتقدم مني بكل خشوع ثم تنحني امامي وتقبل يدي اليمنى. وعندئذ أغدو زوجتك. »

وانتفض زوبار رأرسل من حنجرته صيحة مدوية، وارتعشت رضا قليلا ولكنها تمالكت نفسها رقالت له: « الى اللقاء. وسوف تفعل غدا ما طلبته منك، اليس كذلك؟ » وأجابها هو بصوت مرتعش:« أجل . سأفعل. » وابتعدت هي وتهاوى هو على الثرى يضحك ويبكي ويهذي هذيان المحموم. ورجعت أنا الى المخيم وحدّثت الجماعة بما رأيت، واتفقنا على أن ننتظر ما سوف يقع، وفي مساء اليوم الثاني، وفيما كنا متحلقين حول النار، أقبل زوبار، وقد بدا سليه كأنه وهن وهزل وغارت عيناه. ووقف قريبا رراح يقول: « أيها الرفاق ان رضا قد تملكت قلبي. انها هنا. وهي تبتسم الآن كأنها ملكة نادرة الحسن. وهي تحب حريتها أكثر مما تحبني، أما أنا فاني أحبها أكثر مما أحب حريتي.

ولقد اعتزمت ان أنحني على قدميها. ولقد أمرتني هي بهذا لكي لا يبقى أحد يجهل الى أي حد طغى حبها على قلب زوبار الشجاع. وقد وعدت أن تتزوجني اذا فعلت هذا. وسوف تغمرني بقبلاتها وتملأ قلبي بحبها الى حد لا أعود معه أغني وأعزف الا لها وحدها. ولا أفكر بحريتي الضائعة الى الابد.

اليس كذلك يا رضا؟»

ورفع رأسه، ونظر اليها، ولم تنبس هي بكلمة واحدة بل حنت رأسها قليلا، وقد بانت القسوة الضارية في عينيها، ثم أشارت له أن يتقدم وينحني عند قدميها. وكنا نحن ننظر دون ان نفهم شيئا. وكان ما سمعناه قد أثار سخطنا وخجلنا. وكنا لا نريد ان نراه ينحني على قدميها ابدا.

وفي طرفة عين كان زوبار قد وثب نحو رضا وأغمد خنجره المعقوف في صدرها حتى مقبضه، وأذهلنا ما حدث فلم ندر ماذا نفعل، وانتزعت رضا الخنجر من صدرها وألقته جانبا وراحت تمسح الجرح العميق بذوائب شعرها الطويل، ثم ابتسمت وقالت بصوت مرتفع: «وداعا يا زوبار، كنت أعلم أنك ستفعل هذا» ثم لفظت نفسها الاخير.

وهتف زوبار بصوت قوي: «سأمرغ رأسي عند قدميك يا ميلكتي المتكبرة» وألقى بنفسه على الارض، وقبل قدميها، ثم ألصق شفتيه بنحرها، وبقينا نحن صامتين وقد حسرنا عن رؤوسنا، لا ندرك ما يجب أن نفعله.

وتقدم «دانيلو» والد رضا، تقدم ببطء، وتناول الخنجر الملقى على الارض وتفحصه طويلا، وتراقص شارباه ثم اقترب من زوبار وأغمد الخنجر في ظهره من جهة القلب والتفت زوبارنحوه وقال «حسنا فعلت» ثم مات. وبقينا نحن واقفين نفكر في حين كانت كتفا الشيخ دانيلو ترتعشان وجسده يرتعد، أما «نور» وهو أحد رفاقنا فقد ارتمى على الارض يبكي بحرقة ولوعة.

وأنهى ماكار حديثه في حين كان المطر قد أخذ يهطل، ويتصاعد من البحر هدير كأنه لحن حزين فاجع على زوبار وحبيبته رضا ابنة الشيخ دانيلو. أما أنا فقد كنت أفكر فيما قاله ماكار، واردد هامسا: «انهن يشبهن الافاعي، بل هن الافاعي ذاتها..»

غي دى موبسـان (فرنسـا)

الثأر

كانت أرملة «باولو سافريني» تقطن مع ابنها دارا صـغيرة بائسة فـوق أسوار «بونيفاسيو»، المدينة القائمة على ناحية مشرفة من الجبل، حتى لتبدو من بعض جهـاتهـا مـعلقـة فـوق البـحـر ومطلة من فـوق المضـيق المحـفوف بالصـخـور على الشـاطىء الاكثـر انخفـاضـا جزيرة «سـردينيـا». وعند أقدام المدينة- من الناحية الاخرى- يمتد صـدع صـخري كـبـير أشـبـه مـا يكون بممر هائل لا يلبث ان يسـتـدير حتى ليكاد يطوق المدينة. انه بمثابة مرفـأ لهـا يقـود مـراكب الصـيـد الايطاليـة الصـغـيرة، أو التي تخص سـكان «سـردينيـا»، حتى مـشـارف البيـوت الاولى من المدينة بعـد دورة طويلة بين جدارين من المنحدرات. وكل خمـسـة عـشـر يومـا تلوذ بهذا المرفأ كذلك السـفينة البـخارية العـتيقة المبهورة الانفاس التي تقوم بمهمتها بين المدينة وجزيرة «أجاكسـو». ان البيـوت البيضـاء المحتشدة فـوق الجبل الابيض تزيد هذا اللون قوة وبروزا، وتبدو كأنها أعشـاش لطيور متوحشـة، جارحة، وهي مـعلقـة هكذا فوق الصخرة المشرفة على اقتحامه.

ان الريح هناك لا تنفك توهن الشـاطىء الاجرد دون ونـاء، وتـنخر فـيـه نخرا، فـلا تترك فـوقـه غـير بعض العـشب الهزيل، ثم لا تفـتـأ تقـتـحم المضـيق ومجتـاحـه مكتسحة امامها ضفتيه الاثنين. وتعلق العين من بعيد ببقايا الزبد الشـاحب وقد تعلقت برؤوس الصـخـور السـوداء التي لا عـداد لهـا، والتي تنفـذ بقـوة من بين الامواج فـتلوح عاتيك البقـايا وكأنهـا مزق من نجوم تطفو وتختلج فـوق صـفـحة

الماء.

وكانت دار الارملة ملاصقة لحافة الجبل المشرف على البحر، تطل نوافذها الثلاث على ذلك المرفأ الموحش الكئيب. كانت تعيش ثمة متوحدة الا من ابنها الشاب «انطوان» وكلبتهما «سيميانت» العجفاء ذات الوبر المستطيل القاسي، وهي من فصيلة الكلاب التي تقوم على حراسة الماشية. وقد كان الشاب يستخدمها في الصيد والقنص.

وذات مساء وبعد شجار عنيف قتل «انطوان سافريني» غيلة بطعنة من سكين، وكان الذي اغتاله هو «نيقولا رافوتي» الذي فر في الليلة نفسها الى الجزيرة سردينيا.

ولما حملت جثة الشاب الى امه العجوز لم تبك وانما لبثت مدة طويلة لا تأتي بحركة ولا تنفك تتأمله وقد بسطت يدها المعروقة فوق جثته، حيث أقسمت أن تثأر له. وقد أبت ان يبقى معها أحد. فغلقت الابواب ومكثت هي والكلبة بجانب جثة ولدها. وكانت الكلبة تنبح نباحا متواصلا، وقد وقفت عند اسفل السرير ومدت رأسها نحو سيدها وشدت ذنبها بين رجليها. ولم تكن تتحرك، شأنها في ذلك شأن الأم التي انحنت فوق ولدها محدقة في جثته، بينما كانت دموعها الغزيرة الخرساء، تسح على خديها.

وكان الشاب يبدو كأنه نائم متمدد على ظهره، وقد اخترق النصل الحاد سترته ومزقها من ناحية الصدر. وكان الدم قد لوثه في كل ناحية، فقميصه وصديرته ووجهه ويداه ملطخة كلها بالدماء، كما تجمدت بقع من الدم في لحيته وشعره جميعا.

وطفقت الام العجوز تحدثه، فأمسكت الكلبة عن نباحها عندما سمعت الام تقول «سأثار لك يا صغيري، يا فتاي العزيز، يا ولدي المسكين، نم أجل نم،

فلسوف أثأر لك، أسامع أنت؟ انها الام هي التي تعدك بذلك، وما حنثت يوما بوعد.. انها الأم.. وانت تعرف ذلك جيدا..»

وعلى مهل انحنت نحوه وألصقت شفتيها الباردتين على شفتيه المائتتين. وعادت الكلبة عندئذ تئن، ثم ارسلت نباحا موجعا طويلا ممزقا، رهيبا.. ولبثت الاثنتان، الام والكلبة، على هذا النحو حتى مطلع الصبح. ودفن انطوان سافريني في الغداة، ولم يعد أحد بعد ذلك يذكره على الاطلاق.

ولم يكن لانطوان أخ أو قريب، لم يكن ثمة أي رجل يأخذ على عاتقه الانتقام له. ان الأم وحدها هي التي كانت تفكر بذلك. وكانت صباح مساء، تشاهد من الناحية الاخرى من المضيق بقعة بيضاء تبدو على الشاطىء البعيد. انها قرية صغيرة اسمها «لونغوساردو» من قرى جزيرة سردينيا يلجأ اليها اللصوص والفتاك الكورسيكيون المطاردون. وهؤلاء وحدهم على وجه التقريب يعمرون تلك الضيعة المواجهة لشواطىء بلادهم، حيث ينتظرون فرصة العودة اليها والرجوع الى ادغالها. وهي تعلم ان نيقولا رافولاتي قاتل ولدها قد لاذ بهذه القرية نفسها. وكانت لا تنفك طيلة يومها ترسل بصرها من النافذة الى حيث تجثم القرية وتديم التفكير بالثأر، وماذا عساها تفعل وهي المرأة العاجزة الموشكة على الموت التي لا سند لها من احد، الا انها قطعت عهدا بالثأر لولدها وأقسمت على جثته. وهي لا تستطيع ان تنسى ولا يسعها ان تنظر. فماذا عساها تفعل؟ لم تعد تنام الليل ولم تعد تجد سبيلا الى الراحة والطمأنينة. كانت تفكر وتبحث في عناد واصرار. وكانت الكلبة تهوم راقدة عند قدميها، وفي بعض الاحيان ترفع رأسها وتنبح نحو شيء بعيد. ومنذ اليوم الذي مات فيه سيدها ما برحت تعوي هكذا أغلب الاحيان. كأنما تناديه وكأنما روحها البهيمية التي لا تجد سبيا الى العزاء لا تزال تحتفظ بذكرى غالية لا يمحوها شيء.

وذات مساء فيما أخذت الكلبة تئن وتنوح، طرأت للأم على حين غرة فكرة

وحشية غلابة ضارية، وراحت تنعم التأمل في هذه الفكرة حتى الصباح، ثم نهضت وتحاملت على نفسها وذهبت الى الكنيسة، وركعت على البلاط وطفقت تصلي خاشعة القلب أمام الله تسأله ان يعينها ويأخذ بناصرها ويهب جسدها الفاني القوة الضرورية لكي تستطيع ان تثأر لولدها ثم عادت الى دارها.

وقد كان في باحة الدار برميل فقلبته وأفرغت ما فيه ونظفته ثم ركزته على الارض ببعض الحجارة وربطت كلبتها «سيميانت» الى هذا الوجار، وأوت الى غرفتها وراحت تنتقل فيها دون ان تكل، وعينها مصوبة دائما الى الشاطىء «سردينيا» ان القاتل النذل. يقبع هناك..

وعوت الكلبة طيلة الليل والنهار وحملت اليها العجوز في الصباح ماء في وعاء، لا شيء غير الماء. اجل لا شيء من خبز او حساء.. ومضى النهار ونامت الكلبة منهوكة جوعى، وفي اليوم الثاني كانت عيناها تبرقان وقد انتفش شعرها واخذت تحاول عبثا الافلات من قيدها. ولم تقدم لها العجوز شيئا تأكله، وجن جنون الكلبة وراحت تعوي بصوت أجش مخيف وانقضى الليل أيضا. وفي الصباح جمعت العجوز بعض القش والتبن من جيرانها، وجاءت ببعض ملابس زوجها القديمة وحشتها تبنا وقشا لتصنع منها ما يشبه شكل الانسان، ثم غرزت عصا في الارض أمام وجار الكلبة، وربطت اليها هذا الشخص المصنوع من القش والتبن، فبدا كأنه واقف، ثم سوت له رأسا من بعض الخرق القديمة، وقد دهشت الكلبة اذ رأت هذا الرجل المصنوع من التبن وامسكت عن العواء رغم الجوع الذي يفري أمعاءها.

وعندئذ غدت العجوز الى القصاب واشترت معيا اسود محشوا باللحم ثم عادت الى دارها وأوقدت نارا قريبا من وجه الكلبة وشوت المعي، وثارت الكلبة وعصف بها جنون الجوع وعلا الزبد شفتيها وراحت تشب بعنف وقد علقت عيناها بالمعي المشوي الذي تتصاعد رائحته وتملأ خياشيمها وتدخل معدتها.. وحملت

العجوز المعى المحشو وادارته حول عنق الشخص المصنوع من التبن وثبتته قويا متينا. وبعد ان فرغت من هذا أطلقت الكلبة، وبقفزة هائلة كانت الكلبة قد وصلت الى اكتاف هذا الشخص وسرعان ما انشبت مخالبها في عنقه وراحت تمزقها تمزيقا، ثم سقطت وفي فمها قطعة من اللحم ثم انطلقت صوب الشخص من جديد وغرزت مخالبها في العنق وانتزعت قطعا اخرى، وعاودت السقوط والوثوب بقوة وعنف حتى مزقت الوجه والعنق جميعا. وكانت العجوز تشاهد هذا كله ساكنة صامتة متقدة النظرة. ثم عادت واوثقت رباط الكلبة، وجوعتها من جديد مدة يومين واعادت التجربة السابقة كرة اخرى. ولقد عودت العجوز كلبتها هذا الضرب من الصراع ثلاثة شهور كاملة. وبعد هذا لم تعد بحاجة الى ربطها، وكانت اشارة واحدة منها تكفي لتنطلق الكلبة واثبة على الشخص المصنوع من التبن، وأصبحت كلما شاهدت هذا الشخص تعروها ارتعاشة حادة فتدير عينيها الى سيدتها فتصيح بها قائلة بصوت كالصفير وهي تومىء بأصبعها: «عليك به!»

ولما رأت العجوز ان الوقت قد حان غدت في صباح يوم من ايام الآحاد الى الكنيسة فاعترفت للكاهن وتناولت القربان في خشوع وذهول، وعادت الى بيتها فارتدت زي رجل عجوز رث الثياب وسارت هي وكلبتها بصحبة صياد من سردينيا اوصلهما الى الناحية الاخرى من المضيق، وكانت قد حملت في كيس معها قطعة كبيرة من المعي المحشو بلحم الخنزير وجعلت طيلة الطريق تثير كلبتها الجائعة منذ يومين برائحة هذا المعي المثير.

ودخلت هي والكلبة ضيعة «لونغوساردو» وراحت هذه المرأة «الكورسيكية» تسير في طرقات القرية وهي تتطلع، ثم سألت خبازا عن مسكن «نيقولا رفولاتي» وكان هذا قد عاد يزاول مهنته كنجار ويعمل وحيدا في دكانه. ودفعت العجوز الباب ونادته «هيه.. نقولا.» ولم يكد يستدير ليرى من يناديه حتى

كانت العجوز قد اطلقت كلبتها وهي تصرخ: «عليك به.. عليك به.. افترسيه.. افترسيه..»

وثار جنون الكلبة وانطلقت صوب الرجل وامسكت بعنقه ومد الرجل ذراعيه وضمهما على الكلبة وتدحرج على الارض ثم راح يتلوى وهو يضرب الارض بقدميه ثم سكنت حركته في حين كانت الكلبة تحفر عنقه حفرا بمخالبها حتى احالتها مزقا مبعثرة.

لقد ذكر اثنان من الجيران فيما بعد انهما شاهدا رجلا عجوزا مسكينا، يخرج من الدكان ومعه كلب اسود اللون اعجف الشكل يأكل في الطريق شيئا أسود كان يعطيه اياه صاحبه.

وعادت العجوز مساء الى دارها ونامت في تلك الليلة نوما عميقا مريحا..

غي دي موبسان (فرنسا)

«أب وابنته»

دخل نزلاء الفندق القاعة الكبيرة وجلسوا في اماكنهم وشرع الخدم يقدمون الطعام ببطء ليتسنى للمتأخرين ان يأتوا فلا يحتاج الخدم ان يقدموا الاطباق نفسها مرة أخرى.

وكان القدماء من الوافدين على الفندق، أولئك الذين اعتادوا الاقامة فيه طيلة فصل الاستشفاء بالمياه المعدنية من كل سنة، ينظرون باهتمام الى الباب كلما فتح، وهم متلهفون ان يروا وجوها جديدة غير التي ألفوا رؤيتها.

واذن كنا في ذلك المساء، شأننا في كل الامسيات السابقة، ننتظر دخول اشخاص مجهولين، ولم يدخل غير اثنين غريبي المظهر: رجل وامرأة، أب وابنته. وكان يبدو عليهما ضرب من السحر والروعة البائسة. ورحت انا أتصورهما وكأنهما من ضحايا القدر والمصير المشؤوم. كان الرجل فارع القامة، مهزولا منحني الظهر قليلا، وقد شاب شعره كله، وان كان محياه يدل على ان هذا الشيب كان جد مبكر، غير ان ملامحه كانت تنطق بالوقار وكان مظهره يدل على طبع صارم في السلوك والتصرف. وكانت ابنته قميئة، ضامرة، شاحبة الوجه، تلوح وكأنها واهنة مرهقة. ونحن كثيرا ما نصادف اشخاصا يبدون ضعافا واهنين حيال ضرورات الحياة ومهامها، وهم أشد ضعفا من ان يجدوا الى الحركة سبيلا والى السير متجها والى ما نقوم به من عمل كل يوم منفذا. وكانت الفتاة جميلة

الى حد ما. وكان جمالها شاحبا، شفافا، وكانت تتناول طعامها ببطء كأنما هي عاجزة عن تحريك يديها.

انها هي، دون ريب، التي جيء بها لتستشفي بالمياه المعدنية. وقد كانا جالسين أمامي في الناحية الاخرى من المائدة. وعلى الفور لاحظت ان الاب مصاب بحركة تشنج عصبية جد غريبة، فقد كانت يده كلما اراد ان يتناول شيئا من الاشياء تتبقض أصابعها بسرعة على هيئة كلاب، ثم تعروها ارتجاجات متتابعة الى يمين ويسار قبل ان تصل الى الشيء الذي تطلبه. وبعد لحظات اتعبني النظر الى تلك الحركة فأدرت وجهي لكي لا اراها، وكان مما لاحظته ايضا ان الفتاة كانت تخفي، وهي تتناول طعامها، يدها اليسرى، طي قفاز.

وبعد تناول طعام العشاء نهضت لكي أقوم بجولة في حديقة العمارة المخصصة للاستشفاء بالمياه المعدنية، وكان مركز الاستشفاء هذا يقع عند مضيق في قاع جبل عال تنحدر منه الى الينابيع مياه فائرة آتية من أغوار البراكين القديمة، وكنا نرى من فوقنا قمم تلك البراكين الشامخة برؤوسها فوق القمم العالية.

كان الحر شديدا في تلك الامسية، وكنت أسير في ذلك الممر الظليل وانا أصغي من فوق التل الصغير الذي يحيط بالحديقة الى موسيقى الملهى القريب وأغانيه الحلوة، ثم شاهدت الاب وابنته مقبلين بخطى وئيدة. وقد حييتهما كما يحيي الانسان زملاءه النزلاء في فنادق مدن الاستشفاء، ووقف الرجل بعد هذا وراح يسألني:

– ألا تستطيع يا سيدي أن تدلنا على مكان جميل وغير متعب لنزهة قصيرة؟.. وأرجو أن تعذرني اذا تطفلت عليك.

وعرضت عليهما ان اذهب بهما الى واد يسيل فيه جدول ماء، انه واد

سحيق، وفيه مضيق بين منحدرين كبيرين من صخور وأشجار، فقبلا وسارا معي ورحنا نتحدث عن مزايا المياه المعدنية. وقال الرجل:

ان ابنتي مصابة بمرض غريب، لا يعرف مستقره، انها تشكو من حالات عصبية غير مفهومة. وقد ظنها الاطباء مصابة بمرض في القلب مرة، وبعلة في الكبد مرة أخرى، ومرة ثالثة بمرض في العمود الفقري. ويقولون اليوم ان علتها في معدتها، هذا هو سبب وجودنا هنا يا سيدي. أما انا فاني أرجح انها مصابة بأعصابها. وعلى أي حال فانه لأمر محزن حقا.

وعلى حين غرة تذكرت حركة يده هو، تلك الحركة الغريبة التي وصفتها، وقلت أسأله:

– أليس مرضها وراثة؟ وأنت، ألا تشكو من أعصابك؟ يا سيدي؟ واجاب بهدوء:

– أنا؟ ابدا.. لقد كنت دائما ذا أعصاب متينة.

ثم عاد يقول فجأة بعد سكوت قصير:

– ألعلك تشير الى حركة يدي وهي تتشنج كلما هممت بتناول شيء ما؟ ان سبب ذلك انفعال فظيع عانيته. تصور ان هذه الفتاة كانت قد دفنت حيةا وأخذني العجب والتأثر، وتابع الرجل حديثه:

– هذه هي القصة. انها بسيطة. لقد كانت ابنتي «جوليت» مصابة باضطراب في قلبها. وكنا نعتقد بأن علة قلبها قد تودي بها في أية لحظة.

وذات يوم سقطت على أرض الحديقة، وقد حملت الينا باردة الاطراف لا تند عنها حركة كأنها جثة هامدة. وفحصها الطبيب وأكد أنها توفيت، وقد قضيت

الى جانب جثتها يوما وليلتين ووضعتها بنفسي في التابوت ورافقتها حتى قبرها حيث دفنت في قبو العائلة بقصرنا الريفي في منطقة «اللورين». وقد أبيت الا أن تدفن معها حليها من عقود وأساور وخواتم، وجميع الهدايا التي كنت قدمتها اليها.

وتستطيع أن تتصور حالي ومبلغ حزني وأسى روحي وقلبي لدى عودتي من تشييع جثمانها. لم يكن لي احد غيرها بعد أن توفيت زوجي منذ أمد بعيد. عدت اذن وحيدا، شبه مجنون، منهوك القوى ودخلت غرفتي وتهاويت على مقعدي لا أفكر ولا أقوى على حركة، لقد كنت آلة صماء للحزن والالم، وكأنما قد سلخ أديم جسدي، وأضحت روحي أشبه ما تكون بجرح عميق فظيع.

وأتى خادمي «بروسبير»، انه خادم قديم، وكان قد ساعدني في وضع جوليت في مرقدها الاخير وفي تزيينها بحليها. دخل دون نأمة وقال:

هل يريد سيدي أن يتناول شيئا ما؟

فأشرت برأسي بأني لا أريد أي شيء.

وعاد هو يقول:

– ولكن سيدي مخطىء. سيصاب بما لا تحمد عقباه. هل يريد سيدي أن أضعه في سريره؟

وقلت:

– كلا ودعني وشأني.

وعندئذ غادر الغرفة.

كم ساعة انقضت بعد ذلك؟ لا أدري. يا لها من ليلة ليلاء! كان الجو باردا وقد انطفأت النار في الموقد الكبير وكانت الريح، ريحاً كئيبة رتيبة.

كم ساعة انقضت؟ لقد كنت ثمة ساهرا لا أنام، كنت واهن القوى، متخاذل الأعضاء، متزايل العزم، مفتوح العينين، ممدود الساقين ذاهل الفكر من شدة اليأس.

وعلى حين غرة قرع جرس الباب الخارجي، الجرس الكبير المعلق عند مدخل القصر، ولقد انتفضت بشدة حتى قضقض الكرسي تحتي. كان رنين الجرس يتموج رهيبا، ثقيلا في أرجاء القصر الخالي. والتفت لكي أرى الوقت في ساعة الحائط. فاذا هو الثانية بعد منتصف الليل. من عسى يمكن ان يأتي في مثل تلك الساعة؟

وفجأة قرع الجرس من جديد مرتين متتاليتين. لا شك في أن الخدم لم يكونوا ليجرؤوا على النهوض، فتناولت شمعة ونزلت وكدت أسأل: من الطارق؟ ولكنني خجلت ان أبدو ضعيفا، خائفا، وبهدوء أخذت أعالج فتح الباب بغتة فرأيت في العتمة شكلا أبيض مذهبا، شيئا كأنما هو شبح، وتراجعت وقد تملكني قلق عظيم ورحت أتمتم قائلا:

- من... من.. من انت؟

وسمعت صوتا يقول: أنا...

وكانت ابنتي هي التي تتكلم.

- وحسبتني مجنونا ولا ريب، وأخذت أرجع القهقرى أمام ذلك الطيف الوافد.. كنت أرجع القهقرى وأنا أشير اليها بيدي كأنما اريد ان اطردها، وآتي بتلك الحركة التي رأيتها انت منذ قليل. هذه الحركة لم تفارقني بعد ذلك قط.

وعـاد الشـبح يقـول: «لا تخف ياوالدي.. انني لم أمت. ولقـد جـاء من أراد أن يسرق بعض الحلي من خواتمي فقطع اصبعي وسال الدم فأعادني هنا الى الحياة.»

– وفي الواقع رأيتـهـا مـضـرجـة بالدم. عندئذ تهـاويت راكـعـا وأنا أبـكي وانتحب وأكاد أختنق.

ثم، وبعد ان عدت قليـلا الى وعيي وانا لا اكاد اصدق، من شدة ما انتابني من ذهول، مـبلغ سـعـادتي الـغـامرة، أخـذت بيـدها وصـعـدت بهـا الى غـرفـتي وأجلسـتها في مقعدي وقرعت الجرس أنادي خادمي «بروسبير» لكي يوقد النار، ويعد شرابا ساخنا ويحضر طبيبا. وجاء بروسبير، وما كادت عيناه تقعان على ابنتي حتى فغر فاه وانتفض من الذعر والهول ثم وقع جثة هامدة على الارض وقد فارق الحياة!

لقد كان هو الذي فتح القبر الذي دفنت فيـه جوليـيت، هو الذي قطع اصبعها وتركها. انه مـا كـان لـيـسـتطيع ان يمحو أثر فـعلتـه. ولقد نسي حتى أن يعيـد التـابوت الى مـوضـعـه واثقا من اني لن أشتبـه به بسـبب ثقتي التـامة التي اوليتـه اياها.

انك لترى يا سيدي اننا تعسـاء حقا.

وأمسك الرجل عن الكلام، وكان الليـل قد أرخى سـدولـه فـاكتـشـفت الوادي الموحش الحزين، وقـد تملكني خوف غـامض اعـتـصـر قلبي حيـال هذين المخلوقين الغـريبين: هذه الـفـتـاة التي مـاتت ثم ردت الى الحـيـاة، وهذا الاب صـاحـب تلك الحركة المرعبة. ولم اجد ما أقوله غير ان أهمس «يا لها من قصة رهيبة!»

ثم عدت أقول بعد هنيـهة: حبذا ان نعود، فان الجو مشـبع بالرطوبة هنا فيـما يبدو لي.. واخذنا نعود ادراجنا الى الفندق صامتين..

غي دي موبسان (فرنسا)

الحطبة المحترقة

كانت غرفة الاستقبال صغيرة ومزدانة بالسجف والابسطة الفاخرة، ينبعث منها أريج خفي. وكانت النار تضرم في موقدها الكبير، في حين كان مصباح وحيد موضوع فوق وكن الموقد يغمر الشخصين اللذين يتحدثان بنوره اللطيف، وقد أحاطت به ظلة من المخرمات القديمة. وكانت هي- سيدة البيت- امرأة عجوزا ذات شعر أشيب، ولكنها من هاتيك العجائز المعبودات اللواتي خلا اهابهن من التجاعيد، فغدا أملس ناعما كأنه من الورق الناصع الرقيق.. لقد كانت تنفخ طيبا حتى من اخفى انحاء بدنها لطول ما تعطرت بأثمن العطور وأرقها وأصفاها. وانك لا تقبل يدها الا ويثب اليك منه هذا الأريج الذي تجد مثله في علبة «البودرة» المصنوعة من سوسن فلورنسا.. وكان هو صديقا من أصدقاء الماضي بقي دون زواج، كان صديق كل وقت، ورفيق رحلة الحياة ولا شيء غير هذا.. وكانا قد أمسكا عن الحديث منذ نحو دقيقة، وجعلا يحدقان في لهب النار، ويحلمان مستغرقين في هذا الصمت الذي يعرفه اولئك الذين لا يحتاجون الى الحديث المستمر لكي يحظى بعضهم باعجاب البعض الآخر.

وعلى حين غرة انهارت حطبة كبيرة.. أرومة ذات جذور عالقة بها، وقد اشتعلت فيها النار ايما اشتعال.. وقفزت خارج مسند الحطب في الموقد، وانقذفت في غرفة الاستقبال، وراحت تتدحرج فوق السجاد وهي تتشظى شررا ونارا. ارسلت المرأة العجوز صيحة صغيرة، ونهضت كأنها تريد أن تهرب، في حين كان

هو يعيد الحطبة الكبيرة المتضرمة الى الموقد بضربات من جزمته، ويطفيء بنعله الجمر المتوقد المنتشر في أرجاء الحجرة.

ولما انتهى إصلاح كل شيء، انتشرت في الجو رائحة الاشياء المحترقة. وعاد هو فاتخذ مقعده قبالة صديقته العجوز، وراح ينظر اليها ويبتسم، ثم قال مشيرا الى الحطبة التي عادت فاستقرت في موقدها:

-.. وكان هذا هو سبب امتناعي عن الزواج اطلاقا!

وتأملته هي، مندهشة، بعين المرأة التي تريد ان تعرف كل شيء.. هذه العين التي خصت بها النساء اللواتي ولى شبابهن او كاد، انها نظرة متطلعة باتزان. نظرة معقدة، وأغلب ما تكون ماكرة، وسألته؟

- وكيف كان ذلك؟

فقال:

- اوه! انها قصة محزنة.. وبشعة... .

ثم مضى في حديثه يقول: «ما أكثر ما كان أصدقائي القدامى يعجبون لهذا الجفاء المفاجيء الذي حل بيني وبين واحد من أعز أصدقائي يدعى «جوليان» وكان اولئك الاصدقاء لا يدركون قط كيف ان صديقين- مثلي ومثله- خالصي الصداقة لا يكادان يفترقان قط: أمكن أن يغدوا، بين عشية وضحاها، متباعدين، ينكر احدهما الآخر.. واليك الآن يا سيدتي سر هذه الجفوة: كنا، هو وانا، نقيم معا، وكنا لا نفترق أبدا، وكانت الصداقة التي تربط بيننا تبدو من القوة بحيث لن يستطيع شيء من الاشياء ان يفصم عراها... .

وعاد، ذات مساء، فأنبأني بزواجه. وأحسست كأن هذا النبأ طعنة وجهت

الى صدري.. شعرت كأنه قد سرقني أو خانني وغدر بي.. ان الصديق اذا ما تزوج فقد انتهى الأمر.. انتهى تماما.. ان حب المرأة، حبها الغيور، القلق، المتوجس، الشهوي، لا يقبل ابدا العلاقة القوية، الصريحة، علاقة العقل والقلب والثقة التي تقوم بين صديقين من الرجال.

وأنت تدركين، يا سيدتي، انه كائناً ما يكون الحب الذي يربط بين الرجل والمرأة فانهما يظلان دائما غريبي الروح والعقل وما اشبههما بقوتين متحاربتين.. لانهما مختلفان جنسا ونوعا.. وابدا يجب ان يكون ثمة الرائض والمروض.. والسيد والعبد.. فحينا يكون هو السيد وهي جاريته.. وحينا يكون هو عبد رق لها وتكون هي سيدته. ولكنهما لا يكونان ابدا ندين متساويين. وان ايديهما لتعتنق وتتضاغط وترتعش من حرارة الشوق، ولكن هذه الايدي لا يضم بعضها بعضا قط بهذه القوة الصريحة، الصادقة، المبرأة من الغرض، التي تفتح القلوب وتعريها، في اندفاع الرجولة وصفائها ومودتها الخالصة. والحكيم الحكيم من الرجال هو الذي لا يتزوج ولا ينجب ابناء يتخلون عنه في شيخوخته، وانما يتخذ له صديقا طيبا، قوي الصداقة، فيشيخان معا في اتحاد فكري لا وجود له الا بين رجلين اثنين.. وأخيرا فقد تزوج صديقي جوليان، وكانت زوجته جميلة، فاتنة، وكانت شقراء، ذات شعر أجعد، كثيرة الحيوية، ممتلئة البدن، ويبدو عليها أنها تحبه الى حد العبادة.

وفي بادىء الامر كنت قليل التردد عليهما، وأخشى ان أضايقهما، وأحس أن وجودي فضول في حياتهما، ومع ذلك فقد كان يبدو انهما يريدان اجتذابي، واستبقائي معهما، وأنهما يحبانني حقا.. وتركت نفسي تدور، شيئا فشيئا، في فلك هذا السحر الذي تتميز به حياتهما المشتركة.. وكنت كثيرا ما اتناول طعام العشاء في بيتهما. ‎.جعلت أفكر أن أفضل ما أفعله هو أن اتزوج، وقد شعرت أن بيتي الخاوي قد أصبح، من بعد، كئيبا، موحشا..

وكانا، هما، يبدوان وقد أغرم أحدهما بالآخر فلا يفترقان أبدا... وحدث ذات مساء ان جوليان كتب الي يدعوني لتناول العشاء، فذهبت، فقال لي:

- اسمع يا صديقي. لقد طرأ من الاعمال ما اوجب ان اتغيب بعد انتهاء تناول طعام العشاء، ولن أعود قبل الساعة الحادية عشرة.. غير انني في تمام الحادية عشرة سأرجع حتما، لهذا فانني اعتمد عليك في ان تجالس زوجتي «برت» حتى أعود..

وابتسمت هي وقالت:

- كنت أنا التي خطر لها ذلك.. وأخذت يدها وضغطتها وقلت لها:

- ما أعذب لطفك يا سيدتي.. وأحسست على أصابع يدي ضغطة طويلة، ولكني لم أعرها التفاتا، وجلسنا الى مائدة الطعام، وفي الساعة الثامنة تركنا جوليان ومضى.

وما كاد يذهب حتى شعرت بالضيق يحل فجأة بيني وبين زوجته.. فما حدث من قبل ان خلا أحدنا بالآخر، وعلى الرغم من المودة التي كانت تنمو بيننا يوما بعد يوم، فان هذه الخلوة وضعتنا في موقف جديد.. وتحدثت في أول الامر عن أشياء مبهمة، أشياء تافهة يملأ بها المتحدثون اوقات الصمت المريك.. ولم تجب هي بشيء، وبقيت أمامي، من الناحية الاخرى لموقد النار، وقد خفضت رأسها، وسرحت نظرتها ومدت احدى قدميها نحو لهب النار، كأنها سادرة في تأمل طويل عسير. وقد لزمت الصمت بعد ان فرغت الافكار القليلة المبتذلة التي دفعتني الى الحديث.

ويا للعجب.. ما أشق أن نجد أسبابا للحديث في بعض الاحيان.. ثم ما لبثت أن أحسست بشيء جديد في الجو، احسست بما لا يرى.. بما لا يمكن

التعبير عنه.. انه نذير خفي يحذرنا ان نحترس من النوايا الغامضة التي يكنها شخص آخر لنا، طيبة كانت هذه النوايا أو سيئة.. دام هذا الصمت الثقيل بعض الوقت، ثم قالت «برت»:

- ضع حطبة في النار يا صديقي، الست تراها توشك أن تنطفىء؟

وفتحت صندوق الحطب الموضوع ثمة كهذا الصندوق هنا، وتناولت أكبر أرومة فوضعتها بشكل هرمي فوق قطع الحطب الاخرى التي أوشكت ان تحترق كلها. وخيم الصمت من جديد . وبعد دقائق اشتعلت الحطبة الكبيرة اشتعالا لفح وجهينا بلهيبه.. ورفعت المرأة الشابة عينيها الي، عينيها اللتين لاح لي انهما غريبتان حقا، ثم قالت:

- لقد اشتد الدفء الآن .. فلنذهب هناك.. الى تلك الاريكة الاخرى الكبيرة. وانتقلنا الى الاريكة الكبيرة وعلى حين غرة قالت وهي تحدق في وجهي:

- ماذا تراك تفعل لو ان امرأة قالت لك انها تحبك؟

وأجبت كالمشدوه:

- انها .. والله.. حالة لم اتوقعها.. ثم إن هذا يتوقف على المرأة نفسها

وعندئذ جعلت تضحك ضحكا جافا، عصبيا، راعشا، هو هذا الضحك الكاذب الذي كأنما يريد أن يحطم أدق الزجاج وأرقه. ثم اردفت تقول:

- ما كان الرجال بذوي جرأة ابدا.. وما هم بماكرين.

وسكتت لحظة، أحيانا يا سيد «بول»؟

واعترفت قائلا:

- أجل.. لقد أحببت أحيانا فقالت:

- حدثني اذن بهذا الحب. فرويت لها قصة ما، وكانت هي تصغي الي جيدا، وتبدي ملاحظات فيها الازدراء حينا، وعدم الموافقة حينا آخر. ثم قالت فجأة:- كلا. انك لا تفهم شيئا في الحب.. انه لكي يكون الحب صحيحا، يجب- فيما يبدو لي- أن يهز القلب، ان يكون شديدا، عاصفا، وان يمزق الاعصاب ويجتاح العقل، يجب ان يكون خطرا، بل هائلا، وقريبا من الجريمة.. يجب أن يحطم المقدسات.. ان يكون ضربا من الخيانة.. أعني ان الحب بحاجة إلى ان يحطم ما يقوم في سبيله من مقدسات.. ومن شرائع.. ومن روابط اخوية.. وأما حين يكون الحب هادئا، ساكنا، سهلا يسيرا.. شرعيا دون أخطار تحف به... فهل يكون حبا؟..

ولم أدر بما أجيب.. وقلت في نفسي: «يالعقل المرأة.. ها هو ذا عقلها اذن..» وكانت وهي تتحدث قد اتخذت هيئة من لا يهم ومن يخفي رذائله تحت ستار التقوى المصطنعة ثم تمددت، وهي مستندة الى الوسائد، وعادت فاضطجعت برأسها الى كتفي، وانحسر فستانها قليلا عن ساقها المتألقة في وهج اللهب..

وقالت بعد برهة:

- انني أخيفك.. اليس كذلك؟

وحاولت ان احتج.. غير انها استندت الى صدري تماما، وقالت دون ان تنظر الي:

- واذا قلت لك انني احبك.. فماذا تراك تفعل؟

وقبل ان أجد جوابا أقوله كانت ذراعاها قد التفتا حول عنقي وجذبتا رأسي

عنوة، وأطبقت شفتاها على شفتي..

آه يا صديقتي: ما كان هذا كله من بواعث السرور في نفسي.. ماذا؟ هل أخون صديقي جوليان؟ هل أغدو عشيق هذه الصغيرة المجنونة الخبيثة الفاسقة؟ هل أغدو عشيق هذه المرأة ذات الشهوة المخيفة العارمة والتي لم تعد تكتفي بزوجها؟

وهل سأظل أخون ابدا، وأغدِ دائما، وامثل قصة الحب في سبيل الثمرة المحرمة.. وتحدي الاخطار.. والعبث بالصداقة.. كلا.. ان هذا لن يكون.. ولكن ما العمل؟ هل أمثل دور يوسف بن يعقوب؟ انه لدور أخرق.. وشاق أيضا.. فلقد كانت تلك المرأة مشتعلة جنونا وهياما وفسقا.. وكانت تتلهب جرأة وشبقا.. وكانت تتنزى غراما.. ان الذي لم يحس بالقبلة العميقة من امرأة توشك أن تهب نفسها فليكن اول من يرميني بحجر.

وأخيرا.. فان دقيقة أخرى، كما لا بد انك تدركين يا سيدتي، أجل فان دقيقة اخرى وكنت خليقا ان.. بل كانت هي خليقة ان.. بل كان هو خليقا ان يصبح.. ولكن على حين غرة انبعث دوي هائل جعلنا نثب من مكانينا.

انها الحطبة.. أجل يا سيدتي هي الحطبة التي اندفعت في غرفة الاستقبال وقد قلبت مجرفة النار والحاجز الواقي، وراحت تتدحرج كأنها عاصفة من لهب احرقت بعض السجاد المفروش، ثم اندست تحت اريكة صغيرة كانت ستضرم فيها النار حتما.. وعندئذ قفزت كمجنون، ورحت أعيد الى الموقد ما تبقى من جذوة النار المتضرمة، وانفتح الباب فجأة، وظهر صديقي جوليان فائض السرور والمرح وهتف قائلا:

- ها قد عدت... وانتهى العمل قبل ساعتين من موعده..

أجل، أيتها الصديقة، فلولا الحطبة المشتعلة لوجدني جوليان متلبسا بالجريمة..وفي وسعك ان تتصوري ماذا كانت ستكون العواقب..

ومن ثم لم اتصرف في حياتي قط أي تصرف يضعني في مثل هذا الموقف.. ولاحظت بعد ذلك ان جوليان أخذ يتباعد عني في برود ظاهر كما يقولون.. ولا شك في أن امراته قد قوضت صداقتنا ثم اقصاني عن بيته شيئا فشيئا، وانتهى بنا الامر الى القطيعة وما عاد احدنا يرى الآخر.. أبدا..

وبالطبع فانه لا يدهشك الآن يا سيدتي اني لم اتزوج قط..

غي دي موبسان (فرنسا)

الشحاذ

لقد عرف فيما مضى اياما أحلى وأرغد رغم بؤسه وعاهته.

ويوم كان في الخامسة عشرة دهمته عربة على طريق «فارنيا» فحطمت ساقيه. ومنذ ذلك الحين جعل يتسول ويستعطي الناس وهو يتأرجح بين عكازيه اللذين جعلا كتفيه تعلوان حتى اذنيه. وكان رأسه يبدو وكأنه يقع بين جبلين.

ولم يكن أحد يدري عنه شيئا سوى ان كاهن «بليت» عثر عليه-وهو طفل-ملقى في قرارة أحد الخنادق ليلة عيد جميع القديسين، ولهذا السبب سماه الكاهن «نيقولا توسان». ونشأ بعد ذلك في ظل الاحسان، فلم يتلق تعليما ما، ولا عرفت قدماه طريقهما الى المدرسة. وذات يوم دعاه خباز القرية الى شرب كؤوس من الخمر، لا يريد من وراء ذلك غير أن يضحك ويرفه عن نفسه. غير ان المسكين دهمته العربة على الطريق وهو ثمل وحطمت ساقيه، وقد عاش من ثم مشردا لا يحسن غير ان يمد يده ويستجدي.

وفي الماضي كانت البارونة العجوز «افاري» قد أخذها العطف عليه فأذنت له بأن يأوي الى خندق مهجور مليء بالتبن، قرب خم الدجاج في مزرعتها الملاصقة للقصر. وكان واثقا دائما من أنه سيجد كسرة من الخبز وقدحا من شراب التفاح في مطبخ القصر اذ يلم به الجوع فلا يجد ما يتبلّغ به. ولكن البارونة العجوز ماتت ولم يعد أحد يجود عليه بشيء في قريته التي نشأ فيها والقرى

المجاورة. لقد سئمه القرويون منذ أربع سنوات وتعبوا من الحاحه، ومن رؤية هيئته الزرية وجسمه المشوه الذي يتأرجح دائما بين عكازيه، ومع ذلك فلم يفكر ابدا في مغادرة تلك النواحي، لانه لا يعرف في هذه الدنيا غير تلك القرى الثلاث أو الاربع المتجاورة التي أمضى فيها حياته البائسة. ولقد أقام حدودا لتسوله اعتصم فيها ولم يفكر قط في تجاوز هذه الحدود التي تعود أن لا يتخطاها أبدا، وكان يجهل ما اذا كانت تمتد بعيدا وراء تلك الاشجار التي كان يقف بصره عند حدودها. وكان الفلاحون بعد ان سئموا لقاءه الدائم حول حقولهم يهتفون به: «لماذا لا تغدو الى القرى الاخرى بدل ان تظل تتأرجح هكذا بين عكازيك هنا؟» ولم يكن هو يجيب بشيء، بل سرعان ما يبتعد وقد تولاه خوف غامض من شيء مجهول، وهو خوف الفقير المعدم الذي يرهب ألف أمر. يرهب الوجوه الجديدة والشتائم، والنظرات المريبة ممن لا يعرفه من الناس، ورجال الشرطة الذين يسيرون أزواجا على الطرق فيسارع الى الاختفاء عنهم بدافع الغريزة وراء سياج أو كوم مرتفع من الحجارة. انه لا يكاد يرى رجال الشرطة أولئك وقد راحت خوذهم تلمع تحت أشعة الشمس حتى تدب فيه خفة عجيبة كأنها خفة مارد جبار فينطلق نحو مخبأ ما ويتخلص من عكازيه ويلقي بنفسه على الارض، كأنه شلو ثم يتكور على نفسه فيصبح ضئيلا صغير الحجم كثعلب في حجره، والغريب أنه لم يشتبك قط مع رجال الشرطة في أمر من الامور. ولكن خوفه منهم كان شيئا في دمه، أو كأنه قد ورث هذا الخوف وهذا الكره عن والديه اللذين لم يعرفهما قط. أجل لم يكن له مأوى، ولا كوخ ولا سقف يستظل بظله. وكان في الصيف ينام في أي مكان، وفي الشتاء كان يندس ببراعة معجبة تحت اهراء القمح أو في زرائب الماشية. ولقد كان يختفي دائما قبل ان يتفطن أحد الى وجوده. كان يعرف جميع الاماكن التي ينفذ منها الى الدور، وكان قادرا على القفز فوق الجدران والاختباء في الخرائب المهجورة، وكان يعول في هذا على قوة ساعديه اللذين اكتسبا الشدة والعزم لفرط اعتماده على عكازيه، وكان في أحيان كثيرة يمكث ثمة أربعة أيام

أو خمسة دون أن يأتي بحركة، بعد ان يكون حصل على مؤونة كافية من الطعام، أجل كان يعيش بين الناس وكأنه من وحوش الغاب، لا يعرف أحدا، ولا يثير في نفوس الفلاحين غير الاحتقار والشعور بالعداء الصامت. لقد أطلقوا عليه لقب «الناقوس» لانه يتأرجح دائما بين عكازيه كما يتأرجح الناقوس بين حاملتيه.

وقد مضى يومان دون ان يأكل شيئا. لم يعد أحد يعطيه أي شيء على الاطلاق، انهم في النهاية لم يعودوا يطيقونه، والفلاحون، وهم وقوف عند ابواب منازلهم، كانوا يصرخون به من بعيد اذ يرونه مقبلا عليهم: «اليك عنا، لقد اعطيناك كسرة الخبز منذ ثلاثة أيام فقط» فيبتعد مندفعا الى بيت آخر حيث يتلقونه بالطريقة نفسها، وكانت النساء يتناقلن الحديث من باب الى آخر قائلات «اننا لا نستطيع ان نطعم هذا (الهامل) على مدار السنة» ومع ذلك فان هذا الهامل كان بحاجة الى الطعام كل يوم، ولقد ذرع القرى الثلاث: سانت هيلير وفارفيل وبليت دون أن يحصل على فلس واحد أو كسرة واحدة من الخبز، ولم يبق ما يعقد عليه أمله سوى قرية «تورنال» ولكنها كانت على بعد فرسخين، وكان هو يشعر بأنه تعب، ومنهوك القوى، ولا قدرة له على حمل نفسه، وقد خوت معدته كما خوى جيبه، وعلى الرغم من هذا فقد شرع يسير، وكان اليوم من أيام ديسمبر، وكانت الريح الباردة تركض في الحقول، وتصفر بين الاغصان الجرداء، والغيوم تنطلق في فجاج السماء القاتمة المسفة الى حيث لا يدري احد، وكان المشوه ينتقل على عكازيه ببطء، وكان يجلس من حين لآخر.. الى جانب الطريق ليستريح بضع دقائق، وقد أفعم الجوع نفسه تعاسة ثقيلة مبهمة، ولم تستحوذ عليه غير فكرة واحدة هي أن يأكل، ولكنه لا يدري بأية وسيلة يمكنه هذا، وظل ثلاث ساعات طوال يجهد نفسه على الطريق الطويلة الممتدة، ولما لاحت له أشجار القرية اسرع نحوها ملهوفا. وقد أجابه اول فلاح صادفه وسأله الاحسان قائلا: «هذا أنت مرة آخرى! ألا يمكن أن نتخلص منك ابدا؟» وابتعد المشوه وهو يتخبط في الثرى اللزج الموحل من المطر، وقد تملكه الاعياء فلا يستطيع ان يرفع

عكازيه، وطرده الفلاحون من كل مكان ذهب اليه. لقد كان هذا اليوم من الايام الباردة الكئيبة الذي تضيق فيه القلوب وتغتم الاذهان وتغدو فيه النفس مظلمة واليد كزّة لا تسمح بشيء . ولما انتهى من طرق جميع الابواب التي يعرفها ذهب واستلقى في ناحية من ساحة دار المعلم«شيكيه» ولبث مدة طويلة لا يتحرك وقد أخذ الجوع يفري معدته، الا انه بلغ من انحطاط آدميته حداً لم يحس معه بمبلغ بؤسه العميق. وكان ينتظر شيئا وكان انتظاره من نوع هذا الانتظار الغامض الذي يكمن فينا دائما. كان ينتظر في ذلك الركن من حوش المزرعة عونا مجهولا يرجوه الانسان من السماء أو من الانسان دون ان يدري أسبابه وبواعثه. ومرت في هذه الاثناء دجاجات سود من أمامه، كانت الدجاجات تصلح أن يأكلها مشوية على نار بعض عيدان الغاب. ولم يفزعه انه سيسرق ، فتناول حجرا ورمى به أقرب دجاجة منه فأرداها فارتمت تصفق بجناحيها، وهربت الدجاجات الاخريات رتناول «الناقوس» عكازيه ووضعها تحت ابطيه وتحرك ليلتقط الدجاجة الصريع ولم يكد يقترب من الدجاجة السوداء حتى حس بلكزة هائلةَ في ظهره بعثرت عكازيه ودفعته متدحرجا على بعد عشر خطوات، لقد كان المعلم «شيكيه» هو الذي فعل هذا، ثم راح، كأنه مجنون، ينهال عليه ضربا بقبضتيه وركبتيه وجسمه كله، والمشوه لا يستطيع الدفاع عن نفسه، وجاء رجال المزرعة وراحوا بدورهم يوسعون الشحاذ ضربا، ولكما، ولما تعبوا من ضربه حملوه وذهبوا به الى مخزن الحطب وانطلقوا يستدعون رجال الشرطة وبقي المشوه جائعا، تنزف الدماء من جراحه، وقد القي فوق الارض دون ما رحمة، ثم جاء المساء وأعقبه الليل وطلع الفجر دون أن يأكل شيئا.

وعند الظهر وصل رجال الشرطة وفتحوا عليه الباب في حذر شديد لانهم أوهموا انه شرس هاجم رجال المزرعة، فلم يسعهم ان يدافعوا عن أنفسهم الا بجهد جهيد. وصاح أحدهم هيا، قف، ولكن المشوه لم يستطع أن يتحرك، ثم حاول ان ينهض على عكازيه الا انه لم يقو على ذلك وظن رجال الشرطة أنه يتخابث

ويحتال عليهم ويتظاهر بالعجز، فهجموا عليه وأمسكوا به بقوة ثم أنهضوه راغما. وقد تملكه الخوف، هذا الخوف الذي يستحوذ على الطريدة أمام الصياد وعلى الفأر حيال القط.

وسار به رجال الشرطة أمام سكان المزرعة جميعا، وقد أخذ الرجال يهزأون به والنساء يهددنه بقبضات ايديهن.

لقد تخلصوا منه أخيرا. وكان الذين يمرون بهم في الطريق يقفون قليلا ليروه يتأرجح بين عكازيه ويتهامسون قائلين «لا بد انه أحد اللصوص.» ويلفوا به مركز الاقليم مع الليل. ولم يكن ليتصور ما يحدث ولا ما يمكن ان يقع. لقد كانت هذه الاشياء الرهيبة غير المنتظرة جميعا وهذه الوجوه، وهذه البيوت كأنما ترزح فوق صدره وتؤوده.

ولم ينبس بكلمة، فهو لا يجد ما يقول لانه لم يعد يفهم شيئا على الاطلاق، ثم أنه منذ سنوات طوال لم يكن يكلم أحدا، ففقد بذلك قدرته على استعمال اللغة. وفكره أيضا كان جد مضطرب ومشوش لا يمكنه من النطق، ولقد ألقوا به في سجن البلدة، ولم يفكر رجال الشرطة أنه يحتاج الى الطعام، فتركوه على هذه الحال حتى اليوم الثاني. ولكنهم عندما جاؤا لاستنطاقه مع الصباح الباكر وجدوه ميتا. فيا للمفاجأة!

غي دي موبسان (فرنسا)

الخوف

اسمحوا لي أن أعبر عن رأيي بوضوح. ليس الخوف أمرا بسيطا.. انه شيء رهيب، واحساس يبلغ من الضراوة حدا يشبه تفكك النفس وانحلالها. انه أشبه ما يكون بانتفاضة الفكر والقلب، ويكفي مجرد تذكره أن يثير القشعريرة في البدن. وفي مواقف الخوف المروعة لا تنفع الشجاعة ولا تعود البسالة تجدي شيئا. ويقع هذا الخوف في ظروف وأحوال شاذة وتحت إلحاح تأثير خفي أمام أخطار غامضة. أجل ان الخوف الخليق بهذا الاسم كأنما هو تذكر أهوال مرعبة تعود الى المخيلة منبعثة من اغوار الازمنة السحيقة في طفولة الانسانية. واضرب لكم مثلا على هذا الرجل، لا بد ان يحس بالخوف في اروع صوره وأشد معانيه هولا وضراوة.

واليكم هذه القصة التي وقعت لي:

كان ذلك في الشتاء الماضي، في احدى غابات الشمال. وكان الليل قد أرخى سدوله مبكرا، فأربد وجه السماء وأظلمت الدنيا. وكان معي دليل من الفلاحين يسير الى جانبي، خلال طريق ضيقة يظللها ستار كثيف من فروع الشجر لا تنفك الريح تضربها فتصدر عنها اصوات كأنها عواء الذئاب. وكنت أرى الغيوم من خلال ذؤابات الفروع الممتدة وهي تعدو في فجاج السماء مذعورة، كأنها هاربة مولهة أمام هول يطاردها ويكاد يمسك بتلابيبها. وكان يخيل الي أن الغابة كلها تنحني، من آن لآخر، في اتجاه الريح العاصفة وهي تعول وتولول،

وعندئذ كان البرد يغمرني وينفذ الى جسمي رغم ثيابي الثقيلة وخطوي السريع.

وكنا نقصد بيت حارس الغابة، حيث كنت سأتناول طعام العشاء وأجد سريرا دافئا أنام فيه. ولم يكن البيت بعيدا، وكان سعيي وراء الصيد هو الذي قادني الى تلك الغابة. وكان الدليل الذي يصحبني يرفع رأسه من حين لآخر ويقول: «ياله من جو محزن.» ثم حدثني عن الاشخاص الذين سنبيت عندهم. وقال: أن رب العائلة سبق له، منذ عامين، أن قتل أحد المتقحمين من الصيادين، كان يغشى أرضه للصيد، ومنذ ذلك الحين لازمه العبوس والتهجم كأن ذكرى مصرع الرجل لا تنفك تعايشه. وكان له ابنان متزوجان يقيمان معه.

وكان الظلام قد تكاثف، ولم أعد أرى أمامي وحولي شيئا. وكانت اعراف الاشجار لا تزال تصطرع وتملأ الليل دويا لا ينقطع. وأخيرا ترامى لي ضوء فحثثنا نحوه خطانا، ثم لم نلبث أن وجدنا أنفسنا أمام باب راح رفيقي يدقه بيده، فأجابتنا أصوات نسوة فيها حدة وفزع، ثم وصل الى مسمعينا صوت رجل، صوت متهالك مرتجف يقول: «من هناك؟» فسارع الدليل وأعلن اسمينا، ففتح لنا الباب ودخلنا. ولن أنسى ما حييت ذلك المشهد الذي وقعت عليه عيناي.

كان ثمة رجل أشيب، يبدو الجنون في عينيه، وفي يده بندقية معبأة، في حين وقف ابناه الشابان القويان يحرسان الباب وفي يد كل منهما بلطة كبيرة. واستطعت أن أرى في الزوايا المعتمة امرأتين جاثيتين ووجهاهما الى الحائط.

ولما اطمأن الرجل الي أنزل بندقيته وأسندها الى الحائط وأصدر أوامره بأن تعد المرأتان غرفة النوم. ولما رآهما لا تستجيبان له ولا تأتيان بحركة قال: «فلتعلم يا سيدي انني قتلت رجلا منذ عامين في مثل هذه الليلة. وفي السنة الماضية عاد شبحه يذكرني بمصرعه. وأنت ترى انني انتظره مرة أخرى في هذه الليلة. وهكذا فاننا كما تشاهد جد قلقين.»

وقد طمأنته ما وسعني ذلك، وقلت له أنني سعيد ان آتي لزيارته في هذا المساء نفسه لكي أشاهد هذا الخوف الذي لا بد أن يكون الوهم هو الباعث عليه. ثم رحت أروي للحاضرين قصصا مختلفة واستطعت في النهاية أن أردهم الى شيء من الطمأنينة والهدوء.

ولقد لفت نظري، قرب موقد النار، كلب أعشى العينين، من هذه الكلاب التي تبدو كأنها بعض من نعرف من الناس، وكان الكلب يرقد وقد دفن أنفه بين يديه المبسوطتين.

كانت العاصفة في الخارج لا تنفك تنقض على البيت الصغير، وكنت أرى من خلال كوة في باب الدخول حشدا من أعراف الشجر تعصف بها الريح الثائرة في حين تستضيء السماء ببروق عريضة متلاحقة. ورغم جهودي الخارقة كنت أحس بأن رعبا عميقا قد استولى على اولئك الناس. وكانت آذانهم تصغي الى بعيد كلما أمسكت عن الحديث. وفي النهاية سئمت مشهد هذه المخاوف الغبية، وفيما أنا أوشك أن أنسحب لانام اذا بالرجل الاشيب حارس الغابة ينهض بوثبة واحدة عن كرسيه فيتناول بندقيته وهو يتمتم بصوت مخبول: « هذا هو.. هذا هو..انني انتظره.. » وعادت المرأتان جاثيتين على ركبهما وهما تخفيان وجهيهما، وأمسك الشابان ببلطتيهما. وأخذت أنا أحاول تهدئة مخاوفهم جميعا، ولكن الكلب الراقد استيقظ فجأة، واشرأب برأسه ومد عنقه نحو النار الموقدة، ثم لم يلبث أن أرسل نباحا مرنسا، مفجعا، يخشاه المسافرون ليلا وترتعد لسماعه أوصالهم. واستدارت العيون جميعا نحو الكلب الذي بقي في موضعه دون ما حراك وقد استوى على قوائمه كالمشدوه بين يدي ما يتراءى له. وعاد يرسل عواءه نحو شيء غير مرئي، لان شعره كله قف وتصلب. وصاح حارس الغابة وقد امتقع لونه: «انه يحس بالشبح القادم. انه يحس به ولا ريب، فقد كان معي، هنا يوم قتلته.» وفي هذه الاثناء أخذت المرأتان تنبحان مع الكلب وقد فقدتا صوابهما.

وعلى الرغم مني فقد شاعت في أوصالي رعدة طاغية. ان منظر هذا الحيوان، في تلك الساعة من الليل، وبين أولئك الناس الذين فقدوا عقولهم، كان مثيرا للرعب حقا.

ومضت ساعة كان الكلب خلالها لا ينفك يعوي دون أن يتحرك. فداخلني خوف مروع. ولكن.. خوف من أي شيء؟ لست ادري. انما كان هو الخوف وحسب.

بقينا صامتين لا نبدي حراكا وقد امتقعت وجوهنا وأخذت تخفق قلوبنا ، في حين أرخينا آذاننا في انتظار ما سيحدث. ثم راح الكلب يدور في القاعة وهو يتشمم الجدران ولا يني يعول دائما. لقد أثار فينا الجنون ذلك الحيوان. وعندئذ ارتمى الدليل الذي كان يصحبني على الكلب في فورة من الرعب، وفتح الباب والقى به الى ساحة خارجية صغيرة.

وصمت الكلب في الخارج وبقينا نحن غائصين في لجة من الصمت أشد ترويعا من كل صوت. وعلى حين غرة ارتعشنا جميعا، فقد أحسسنا بانسان ينسل من الغابة لاتنا بالجوان الخارجي، ثم مر أمام الباب، وبدا كأنه يتحسسه بيد مترددة، ومرت دقيقتان لم نسمع خلالها شيئا، ثم عاد محاذيا للجدار دائما وأخذ يحك خشب الباب كما يمكن ان يفعل ذلك طفل بأظفاره. وعلى حين غرة ظهر صوت رأس أشيب تبرق فيه عينان متقدتان كأنهما عينا وحش ضار، وخرج من فمه صوت غير واضح، همس بشيء يشبه الانين الخافت.

وعندئذ انبعث من المطبخ دوي هائل، فقد أطلق صاحب البيت بندقيته ثم هرع ابناه ووضعنا في الكوة ما سدها ثم اتيا بخوان كبير وضعاه وراء الباب.

واؤكد لكم اني لدى سماعي دوي الطلقة التي انبعثت من البندقية احسست في أعماق قلبي وروحي بخوف لا يوصف كدت أنهار بسببه وأموت فورا.

وبقينا هكذا حتى مطلع الفجر لا نستطيع أن نتكلم ولا أن نأتي بحركة، وقد انكمشنا وتقبضت اعضاؤنا في رعب لا سبيل الى ذكره.

وعندما لاحت اولى شعاعات النهار وسعنا ان نخرج فوجدنا عند اسفل الجدار الخارجي الكلب الهرم وقد حطمت فمه رصاصة ما.. ذلك أنه كان قد خرج الى الغابة، من الساحة الضيقة التي كان فيها، من خلال ثغرة احدثها في الحاجز الخشبي.

أجل أيها السادة.. انني لم أتعرض في تلك الليلة لاي خطر. ولكنني أوثر أن أحيا مرة أخرى جميع ساعات الخطر التي واجهتها في حياتي.. على أن لا تمر بي دقيقة واحدة من ساعات الخوف المروع الذي الم بي في تلك الليلة.. ليلة الغابة..

الفونس دوديه (فرنسا)

بيت للبيع

انه باب من الخشب غير المحكم استطاع الطين وغبار الطريق أن يتسللا من شقوقه ويختلطا برمل البستان الصغير الى مسافة بعيدة. وقد علقت فوق هذا الباب لافتة مر عليها الزمن فهي ساكنة ثابتة في وهج شمس الصيف، ومتحركة مهتزة متخلخلة في رياح الخريف، وقد كتبت فيها هذه العبارة: «بيت للبيع»، وهي عبارة يبدو أنها تقول أيضا: «بيت مهجور...» لعميق الصمت الذي يكتنفه.

ومع ذلك فقد كان يقيم في هذا البيت شخص ما، وكان الدخان القليل الضارب الى الزرقة والمتصاعد من مدفأة برزت حجارتها القرميدية شيئا ما فوق الجدار ينبىء بوجود انسان قد توارى واعتكف كئيبا حتى أضحى انزواؤه أشبه بهذه النار القليلة الموقدة، التي لا يكاد يشي بها دخانها الرقيق الباهت.

وكانت العين تلمح من خلال ألواح الباب المتخلعة، وفيما وراء ذلك من ظواهر الاهمال والفراغ والوحشية التي تسبق التخلي أو البيع أو الرحيل، ممرات بديعة منسقة، وعرائش ملتفة، وممر شات قريبة من حوض الماء، وشتى ادوات العمل في البستان مركونة عند حوائط البيت.. انه ليس أكثر من بيت لاحد الفلاحين، ينهض متوازيا فوق قمة منحدر بسلم مصنوع بحيث يجعل الجانب الظليل من نصيب الطابق الارضي. وما أشبه رقعة البستان، في هذه الناحية،

بمستنبت من زجاج للنباتات في البلاد الحارة التي لا تتحمل البرد. فقد كان ثمة مقببات زجاجية للنباتات الضعيفة، وبعض أواني الازهار فارغة ومقلوبة، وغيرها قد امتلأت بأزهار «الجيرانيوم» في حين انتشرت الرياحين في مغارسها من الرمل الابيض الدافىء. وفيما عدا دوحتين أو ثلاثا من شجر الدلب فقد كان البستان كله ملعبا للريح ومسرحا لاشعة الشمس الدافقة التي تتخلّل بعض المعرشات والاشجار المثمرة، وقد تعرت من بعض أوراقها. وفي وسط هذا كله، وفيما كان يحيط به من نظام وهدوء، كان شيخ يعتمر بقبعة من قش يتجول النهار كله وينتقل في الممرات، ويسلسل الماء على مغارس الزهر، اذ يخف الحر ويبترد الجو، ولا ينفك يعمل مقصه بتقليم الاغصان ويشذب ما ند ونبا من كل سياج..

وقد كان هذا الرجل العجوز لا يعرف أحدا في تلك الناحية الا حوذي العربة التي تنقل الخبز وتقف عند كل باب في الشارع الوحيد في القرية. وما كان ليزور أو يزار. وكان يحدث أحيانا ان يقف أحد المارة بعد أن يقرأ اللافتة وتستحوذ على اعجابه قطع الارض الخصبة المعطاء التي تتصل بالبيت والبستان، ويقرع عابر السبيل جرس الباب مرة دون أن يستجيب له أحد. ثم يقرع ثانية فيسمع عندئذ وقع خطى ثقيلة تقترب آتية من أقصى البستان، ثم ينفتح الباب قليلا ويقول الرجل العجوز ساخطا:

- ماذا عساك تريد؟

- هل البيت معروض للبيع؟

ويجيب العجوز الطيب بصعوبة كمن يبذل جهدا:

- أجل، انه معروض للبيع.. ولكني أحب أن ألفت انتباهك فهو غالي الثمن...

وكانت عيناه كأنما تقولان لك: اذهب، ابتعد، لشدة ما يبدو فيهما من امارات الغضب والضيق، ويظل من ثم منتصبا وكأنه تنين رهيب يذودك عن مربعات أرضه المزروعة الخضراء، وعن الساحة البديعة المفروشة بالرمال. ويمضي عابرو السبيل وقد عقدت الدهشة السنتهم يسائلون انفسهم عن هذا المجنون: من أي نوع يكون، وأي ضرب من الخبال يغريه بعرض بيته للبيع وفي نفسه كل هذه الرغبة في الاحتفاظ به؟

واتضح لي هذا السر الخفي، فقد مررت ذات يوم بهذا البيت الصغير، وسمعت لغطا شديدا واصواتا محتدة تجادل وتناقش:

- ابتاه.. يجب ان تبيع البيت.. يجب ان تبيعه.. وانت قد وعدت بذلك.

ويقول الرجل العجوز بصوت مرتعش:

- ولكنني يا بنيتي سأبيعه.. ولست أطلب غير أن أبيعه.. بدليل اللافتة التي علقتها على بابه..

وعلمت، بعد ذلك، أن أولاده وزوجات اولئك الاولاد، وهم جميعا أصحاب دكاكين صغيرة في باريس، يضغطون عليه، ويعنفون به لكي يتخلى عن بيته.. وعن أرضه التي يحبها.. ولكن ما هي دوافعهم؟ لست أدرى. الا انهم، على وجه التأكيد، أخذوا يرون ان البيع المنشود قد تأخر جدا.. ومنذ ذلك اليوم جعلوا همهم أن يزوروا الرجل العجوز كل يوم أحد لكي يحثوه، ويعنفوا به، ويلحوا عليه الحاحا شديدا أن يفي بما وعد ويبيع البيت.. كنت أسمع جدلهم وتصايحهم، في أحد أيام الآحاد، يصلان الى أذني حيث كنت أقف من الطريق في ذلك الصمت العميق، والفراغ الذي تستريح فيه حتى الارض التي شبعت حرثا وتقليبا طيلة أيام الاسبوع.. وكانت كلمات «المال» ترن حادة، جافة، في حديثهم وتصايحهم. وفي المساء كانوا يبارحون البيت..ويسير معهم الرجل العجوز بضع خطوات في

الطريق، ثم سرعان ما يعود ويوصد الباب الكبير أسعد ما يكون ان يقضي اسبوعا آخر ينعم فيه بالراحة وهدوء البال.. أجل كان البيت كله يستغرق في صمت طويل ثمانية أيام كاملة لا يسمع خلالها، في البستان الذي تنسكب عليه الشمس الحامية، غير وقع أقدام الرجل العجوز تطأ الرمل وكأنما هي تسحقه سحقا تحت ضغطها الثقيل..

وانقضت الاسابيع، الواحد في أثر الآخر، واولاده وزوجاتهم يرهقونه بالحاحهم ويعذبونه بمختلف وسائل الحث والاستعجال.. ثم أتوا له بحفدته الصغار لكي يفتنوه عن نفسه:

– عندما تبيع البيت.. لا بد أن تأتي لتقيم معنا فنكون جميعا سعداء..

ويفترقون زمرا في كل ركن من البستان، يتحدثون، ويتهامسون، ويسيرون في الممرات، ويحسبون أرباحهم من ثمن البيت بأصوات جهيرة عالية، وسمعت مرة احدى الفتيات تهتف قائلة:

– هذا البيت المتداعي لا يساوي مئة فلس.. والافضل أن يهدم..

وكان الرجل العجوز يسمع هذا كله ولا يقول شيئا. كانوا يذكرونه وكأنه قد مات وأنتهى أمره، ويتحدثون عن بيته وكأنه قد تهدّم وأضحى أنقاضا مركومة. وكان هو يتنقل متقوس الظهر، وتسبح في عينيه الدموع، ويحاول –جريا على عادته – ان يقلم هذا الغصن، ويقيم اعوجاج تلك النبتة، أو يعني بنوع من الثمار، فكأن له في هذه الرقعة من الارض جذورا ضاربة في أعماقها لا يمكن اجتثاثها ابدا.. والواقع انه كان دائما يراوغ، ويؤجل بيع البيت كائنة ما كانت أقوالهم.. فكان في الصيف، عندما يرى الفاكهة وقد أخذت تنضج وتزول من الكرز حموضته ومن الاعناب البرية كزازتها، يقول: «لننتظر موعد القطاف، وبعد ذلك أبيع البيت والبستان، دون ونا»، وينتهي القطاف، ولكنه يعود فيتريث فقد

بدأ دور الخوخ، والكرمة، والزعرور، ويكون قد أقبل الشتاء وادلهم الجو في الريف وأصبح البستان خاويا الا من الريح تصفر في جنباته..وعندئذ ينقطع السابلة، ويتوارى كل ذي رغبة في الشراء، ولا يعود أبناؤه وزوجاتهم يزورونه في أيام الآحاد.. ويطمئن الرجل العجوز ويخلد الى الراحة ثلاثة أشهر كاملة يعد فيها العدة للبذار وتشذيب الاشجار المثمرة وتقليمها، في حين تستمر اللافتة التي لا جدوى منها تتأرجح على قارعة الطريق وتتلاعب بها الريح ويضربها المطر بسياطه... .

ونفد صبر الابناء والزوجات، ووثقوا ان الرجل العجوز يفعل كل ما من شأنه أن يبعد المشترين عن بيته وبستانه، فقرروا ان تذهب احدى الزوجات وتقيم معه، وهي امرأة صغيرة الجسم، وقد اعتادت البيع والشراء في دكان زوجها بباريس، وجعلت همها، كل صباح ان تتبرج وتضفي على ملامحها الرقة الكاذبة، واللطف المصطنع.. وتفتح الباب الكبير على مصراعيه، وتتحدث بصوت مرتفع جهير، وتبتسم للمارة.. كأن الطريق أصبحت ملكاً خاصاً بها، وكأنها بصورتها تلك تقول لكل عابر سبيل: تفضل ادخل.. وتفرج.. فالبيت معروض للبيع..

وما عاد الرجل العجوز يجد لحظة من راحة وهدوء. كان أحيانا يحاول ان ينسى وجودها فيروح يعمل في تقليب الارض والقاء البذور فيها من جديد.. شأنه في هذا شأن اولئك الذين يستشعرون دنو الاجل فيوهمون انفسهم ويدرأون مخاوفهم بالانهماك في مشروعات جديدة.. وكانت كنته، خلال هذا كله، لا تنفك تلاحقه وتتعقبه وتنغص عليه بقولها:

– وما جدوى ما تفعل؟ اتراك تعني نفسك هذا العناء في سبيل الآخرين الذين سيشرون البيت والبستان؟

ولكنه لا يجيب، ويمضي في عمله بعناد عجيب.. وكيف يسعه ان يهمل

بستانه؟ انه اذا ما أهمله يكون كأنما قد فقده حقا وانسلخ عنه..

ولم يتقدم أحد لشراء البيت وبستانه، فقد نشبت الحرب، ولم يعد ثمة من يفكر ببيع وشراء، وعبثا أبقت المرأة الباب الخشبي الكبير مفتوحا، وعبثا أرسلت نظراتها الرقيقة الى الطريق، فما كان يمر غير الذين ينقلون متاعهم من بيت كانوا فيه الى بيت جديد استأجروه.. وعلى الايام غدت المرأة حادة الطبع، وراحت مهام عملها في باريس تلح في عودتها.. وقد سمعتها تلقي بقوارص كلماتها في وجه الرجل العجوز، وتثور به، وتصفق الابواب من ورائها... وكان هو يحني ظهره، ولا يفوه بكلمة واحدة، وانما يروح يسري عن نفسه بمشاهدة ثمار أشجاره وأغصانها الوريقة، ولا تنفك اللافتة معلقة في مكانها تحمل عبارة: «بيت للبيع»..

ومضت الايام..وعدت، هذه السنة، الى الريف فوجدت البيت في مكانه، ولكن وآسفاه! فان اللافتة لم تكن معلقة هناك.. لقد باعوه اذن... وقد استبدل ببابه الخشبي الكبير باب أخضر اللون تم دهنه حديثا، وفي وسطه كوة تتيح للناظر أن يرى البستان.. انه ليس البستان..انه ليس البستان الذي اعهده، وانما هو خليط من أحواض كبيرة للزهر، ومنبسطات خضراء، وشلالات تنعكس صورها جميعا على كرة كبيرة من المعدن تتأرجح أمام الشرفة التي تعلو السلم المؤدي الى داخل البيت.. وكانت تبدو في تلك الكرة صفوف طويلة من أزهار متألقة، مزهوة، كما كانت الكرة تعكس وجهين لشخصين أحدهما وجه احمر لرجل بدين غارق في كرسيه الريفي، والثاني لامرأة ضخمة الجثة، مبهورة الانفاس، تصرخ متباهية وهي تقبض على مرش الماء وتلوح به:

- لقد رويت أحواض زهر الخيري أربع عشرة مرة!

وقد أضيف الى البيت القديم طابق جديد، وجددت الحواجز والوشائع، وكانت

انغام المعزف، في ذلك الركن الجديد الذي لا تزال تند عنه رائحة الدهان، تتصاعد وتملأ الجو بألحان «البولكا» والرقص الحديث.. كانت هذه الانغام الراقصة التي تقفز الى الطريق العامة نفسها وتبعث الدفء الى الآذان التي تسمعها وتختلط بعجاج وغبار شهر تموز، وكان هذا الصخب الذي تثيره وتوحي به الازهار الكبيرة المزدهية، والسيدات البدينات، وهذا المرح الفاتر التافه.. كان هذا كله يعتصر قلبي اعتصارا.. وجعلت أفكر في ذلك الرجل العجوز الذي كان يروح ويجيء هنا سعيدا، هادئا، مطمئن القلب.. ورحت اتخيله في باريس بقبعته المصنوعة من القش، وظهره المتقوس ككل بستاني قديم، يجوس الآن في أقصى القسم الخلفي لدكان ما.. وقد تملكه السأم، والوجل، وامتلأت عيناه بالدموع، في حين تنعم كنته بانتصارها وراء منضدة القبض والصرف، حيث يسمع رنين الدنانير الذهبية التي بيع بها ذلك البيت الريفي الصغير..

الفونس دوديه (فرنسا)

نجوم الليل

كان يرعى الماشية على قمة الجبل وفي سفوحه المونقة، وكان يعيش في عزلة تامة مع القطيع لا يرى انسانا ولا يسمع صوتا الا فيما ندر. فقد كان يمر من حين الى حين ناسك متعبد أو بعض عمال الفحم، وكان الراعي يشاهدهم من بعيد وهو موقن انهم منطوون على ذواتهم لفرط احساسهم بالوحدة، حتى لقد فقدوا الميل الى الكلام، وعادوا لا يعرفون شيئا عما يجرى في القرى والمدن في أسفل الجبل الشاهق تحتهم.

وكانت مؤونة الراعي تحمل اليه مرة كل خمسة عشر يوما، على ظهر دابة تنبئه الاجراس الصغيرة المعلقة بعنقها بمجيئها، وهي تتوقل الجبل وتضرب في شعابه، ولا ينفك صبي المزرعة يحثها على السير ويخزها لكي تظل مصعدة في الجبل دون تلكؤ او تريث. وفي احيان اخرى كانت العمة العجوز «نوراد» هي التي تسوق الدابة التي تحمل الى الراعي مؤونته المعتادة.

الا انه كان ثمة ما هو اهم من هذا كله، لقد كان الراعي يتلهف على معرفة ما يحدث للآنسة «ستيفانيت» ابنة اسياده اصحاب المزرعة الواسعة. لقد كانت معروفة بجمالها الباهر وحسنها الاخاذ في قريتها وفي القرى المجاورة جميعا، فكان يتسقط أخبارها وهو يداري اهتمامه بها، ويستنبيء صبي المزرعة أو العمة نوراد عما اذا كانت الآنسة «ستيفانيت» لا تزال تغشى محافل الاعياد والافراح

والسهرات، وكان يجيب عما يدعوه الى الاهتمام بها وهو الراعي البسيط بأنه شاب في العشرين من عمره وان الآنسة «ستيفانيت» أجمل من رأى في حياته.

وكان الراعي يجد السعادة في قنة الجبل، وكان يستشعر الغبطة اذ يحدثه صبي المزرعة أو العمه نوراد بما يقع في القرى المبعثرة حول الجبل. وهكذا كان يعرف كل خمسة عشر يوما انباء الاعراس او المآتم او العماد في تلك النواحي.

وذات يوم من أيام الآحاد تأخر وصول المؤونة الى الراعي، وعبثا أرخى أذنيه لعله يسمع من بعيد صلصة الاجراس المعلقة في عنق الدابة، وحسب ان صلاة الاحد هي التي أخرت وصول المؤونة اليه، اولعلها تقلبات الجو كانت هي السبب، وعند العصر كان الجو قد صفا وانقشعت الغيوم وانقطع المطر وبدت قمة الجبل مشرقة مزهوة بشجرها الوريق وخضرتها المتألقة. وعلى حين غرة سمع تلك الصلصلة المحببة. صلصلة الاجراس في عنق الدابة المقبلة، وشد ما كانت دهشته بعد قليل حين لم ير صبي المزرعة إن العمة نوراد هي التي تسوق الدابة وانما كانت الآنسة «ستيفانيت» نفسها هي التي تسوقها اليه في دروب الجبل ومراقيه الوعرة. وقالت الآنسة ستيفانيت إن صبي المزرعة مريض والعمة نوراد سافرت لترى أولادها، فاضطرت هي نفسها ان تأتي له بمونته، وقد تأخرت لانها ضلت طريقها الى الجبل. وكانت الدهشة قد عقدت لسان الراعي وهو يتأمل الحسناء في ثياب الاحد الجميلة المهفهفة والمخرمات الانيقة التي ازدانت بها ثيابها، كما ازدانت بالاناشيط الملونة الرائعة والازاهير الفواحة بالعطر.. .لقد كان يبدو عليها كأنها مقبلة من مرقص أنيق وليس على ظهر دابة في شعاب الجبل الأشم، وكانت عيناه لا تنفكان تتأملان حسنها، فانه لم يتح له أن يراها عن كثب حتى اليوم، وهو لا يذكر قبل هذه الساعة انه شاهدها الا خلسة في قاعة الطعام بالمزرعة في أيام الخريف والشتاء التي لا يذهب في أثنائها بقطيعه الى الجبل، كانت اذ ذاك تمر أمامه بسرعة خاطفة أنوفا عيوفا متأبية متبرجة لا تلقي اليه بنظرة.. أما الآن

فها هي أمامه، مزادنة بجمالها وحليها له.. وحده...

وبعد ان أفرغت المؤونة التي له بها، راحت تنظر من حولها في دهشة واستغراب، ثم ارادت ان ترى الحظيرة التي يأوي اليها وينام فيها فقادها اليها ورأت بأم عينها حشية القش التي يرقد عليها وجرة الماء التي يشرب منها وفراء الخروف المبسوط على الارض وبندقيته المعلقة.. وسرها ذلك وراحت تقول: «واذن فأنت تعيش هنا أيها الراعي الطيب، لا ريب ان الحياة على هذا النحو تثير سأمك.. فماذا تراك تفعل وفي أي شيء عساك تفكر؟» واشتهى الراعي ان يجيبها قائلا «انما أفكر فيك يا سيدتي» الا ان اضطرابه كان قد بلغ حدا لم يستطع معه ان ينبس بكلمة واحدة.

ثم عادت الفتاة الجميلة من حيث أتت، وظل الراعي يسمع وقع حوافر الدابة وصلصلة أجراسها الى أن ابتعدت وتوارت عن الانظار. وكان الراعي مبتهجا بلحظات السعادة التي أتاحها له القدر. ولما اختفى شعاع الشمس وأقبل المساء وغدت قيعان الاودية تبدو معتمة أو ضاربة الى الزرقة، وأخذت الانعام تلتصق بعضها ببعض، وقد ارتفع ثغاؤها في عودتها الى حظيرتها، في هذه اللحظة سمع الآنسة «ستيفانيت» تناديه عند سفح الجبل فخف اليها جازعا، فاذا هي قد ضلت طريق العودة الى المزرعة في غبشة الماء، وهالها كذلك عبور النهر الذي ارتفعت مياهه بعد هطول الامطار، ولم يكن في مقدور الراعي ان يترك قطيعه ليذهب بالآنسة ستيفانيت الى القرية، ولم يكن يسعها هي أن تعود وحدها، فما أسرع ما أعانها على الصعود الى قمة الجبل، حيث أوقد نارا من اعواد الشجر تدفأت بها الحسناء الغالية وجففت ملابسها.

وهبط الليل وبدت نجومه تتوامض في فجاج السماء، ولم تستطع الغانية الرائعة الحسن ان تنام فآثرت أن تجلس قرب الراعي وغير بعيد عن النار المرقدة. والقى هو على كتفيها فراءه وراح يؤرث النار، وساد الصمت، وسكن كل شيء

حولهما. ان لليل لسحرا، وجمالا لا يعرفهما الا من راح يسامر النجوم في ذروة الجبل العالي، ان عالما من الخفاء والسحر يستيقظ في مثل هذا الوقت من الوحدة والصمت، ولا تعود الاذن تسمع غير نشيد الكون المنبعث من خرير المياه وحفيف الشجر الوريق، ولا تعود العين ترى غير شعل صغيرة من النار، تطفو وتتألق فوق الغدران ومسايل الماء، وانه ليخيل للمرء عندئذ ان ارواح الجبل تذهب وتجيء حرة طليقة من كل قيد، ويقع في روعه ان همسا يسرى في الهواء واحتكاكا خفيفا يحدث في الفضاء، وان صوتا كئيبا بعيد المدى ينبعث من الغدير المتلألئ عند أسفل الجبل. وكانت «ستيفانيت» كلما احسست بشيء من هذا انتابتها القشعريرة فتزداد التصاقا بالراعي، وفي لحظة من تلكم اللحظات رأت نجما ينساب ثم ينحدر متقوسا من السماء. وسألته بصوت خفيض: «ما هذا؟» وأجابها وهو يرسم علامة الصليب فوق صدره: «انها نفس تدخل الفردوس يا سيدتي» فخشعت لحظة ثم قالت «أصحيح اذن انكم سحرة ايها الرعاة؟» وقال الراعي: ليس هذا صحيحا على الاطلاق أيتها الآنسة.. الا اننا فوق قنن الجبال نعيش اقرب الى النجوم من غيرنا، وعلمنا بما يحدث فيها اصح وافضل من علم سكان السهول».

واستمرت مشدودة النظر الى السماء، وقد اعتمدت رأسها في راحة يدها ثم راحت تهمس: «ما أجمل السماء.. وما اروع نجومها.. اتعرف اسماء هذه النجوم أيها الراعي» وقال الراعي: «أجل يا سيدتي ها هي المجرة- أمّ النجوم- تتلألأ فوق رأسينا ونحن نسميها في المنطقة (طريق القديس جاك) وعلى بعد منها عربة الارواح التي يعرفها الفلكيون باسم الدب الاكبر، أما الكواكب الثلاثة التي تتقدم الدب الاكبر، وتلك النثارة من النجوم الصغيرة المتلألئة حولها.. فهي الارواح التي يأبى الله عليها دخول ملكوته..أما الجوزاء فها هي، انها أكثر انحدارا من سابقاتها.. وهي التي تدلنا على الوقت، ويكفي الآن أن ألقي نظرة واحدة اليها لاعلم ان الليل قد انتصف.. أما أجمل هاتيك النجوم والكواكب يا

سيدتي فهي لمجمتنا نحن الرعاة. اننا ندعوها لمجمة الراعي فهي التي تضيء لنا سبيلنا ساعة نخرج مع الماشية عند الفجر او نعود بها مع المساء. ويبدو أن لمجمتنا مغرمة بزحل فتظل تلاحقه سبع سنوات كاملة لتقترن به.

وقالت ستيفانيت «وهل بين النجوم والكواكب زواج أيها الراعي؟» وقال الراعي: «اجل يا سيدتي»

وفيما كان الراعي يحاول أن يشرح لها كيف يكون الزواج بين الكواكب والنجوم أحس بشيء نضر لطيف يثقل كتفه قليلا، وكان هذا الشيء، هو رأس «ستيفانيت» الذي مال على كتفه مثقلا بالنعاس. وظلت كذلك دون حراك حتى اللحظة التي شحبت فيها لمجوم السماء وراحت تخبو مع الصباح الوليد. أما الراعي فلم ينفك يتأملها وهي نائمة على كتفه.

وقد هزه الاضطراب من أعماقه دون أن تساوره فكرة سوء، واستمرت النجوم من حولهما تحث خطوها الصامت نحو المغيب في اذعان ووداعة، كأنها قطيع الاغنام في حين كان يخيل الى الراعي أن إحدى لمجوم الليل، بل أجمل هاتيك النجوم وأروعها وأكثرها لألاء قد ضلت سبيلها فأتت تستريح وتنام فوق كتفه.

الفونس دوديه (فرنسا)

الغربان الثلاثة

انه مساء يوم المعركة. والطبيعة ما تزال، من تلاقي الجيشين ، محتدمة مضطربة في تلك الانحاء، وانفاس المدافع اللاهبة ما برحت تطفو على شكل سحب صهب فوق السهل الافيح، والهواء ما فتىء مليئا بالدوامات كالبحر بعد هدوء العاصفة. وقد كانت صعقات يوم المعركة لا تزال يحس بهولها هناك، والارض المغطاة بالثلج، الارض التي استثيرت من هدوئها واستجمامها في فصل الشتاء. كثرت فيها الحفر والاخاديد وشاع على سطحها الدمار تحت وطأة عجلات المدافع، وثقل الاقدام اليائسة، وتساقط الرجال، وارتماء الجياد.

ياله من حصاد مشؤوم! لقد نثرت المعركة في أخاديد الثلج الطويلة جثث الاموات. وكانت تنبعث من تلك المعاطف الرمادية التي تدثر بها الجنود أنات الالم وحشرجات الاحتضار، وكانت ترتفع سواعد مستجدية هنا هناك، وتمتد أرجل ثم تتيبس مستقيمة وقد دفعت طين الارض أمامها، وكانت الحفر قد امتلأت بالاشلاء.

وفي ميدان المعركة كان يرقد جندي مكشوف الوجه تحت السماء الرصاصية. وكانت يداه سوداوين من البارود، ورداؤه العسكري كان مثقوبا بفعل القذائف. لقد كان في معمعة القتال إبان احتدامها، وحَسِبه رفاقه قد مات، وهم يرونه يهوي على الارض. ومع ذلك فانه لا يزال حيا، وقد راح يهتف مناديا بكل ما

بقي فيه من قوة، ولكن ما من مجيب غير الانين وغصص الموت!

وفي النهاية وجد ان حسه يغريه اغراء بالراحة الكبرى والسكينة المطلقة التي تدعوه اليها الارض، وانه لوشيك ان يستسلم لسلطان النوم أو داعي الردى بعد أن تيبس من البرد والالم، وبعد أن نال منه الاعياء وأوهنه أزيز الرصاص وهزيم المدافع وبوارق قذائفها.

وعلى حين غرة ظهرت في الافق العريض الذي ما زال يتبدى بكامله لعينيه الكليلتين ثلاث نقاط سود من جهة الشمال، ثم اذا هي تلوح كالاجنحة، بل هي أجنحة سوداء متسارعة، ولم تلبث، من بعد، أن أصبحت فوق رأسه. انها ثلاثة غربان كفت اجنحتها عن الخفق، وأضحت في الفضاء الناصع الشفاف لا تأتي بنأمة او حركة، وقد نشرت أجنحتها رلزمت تلك السكينة الخاصة بالطيور الجارحة التي تظل عيونها الثاقبة ترقب فريستها... .

كانت هذه الغربان، في ذلك الجو الذي لا يزال مضطربا مدويا بآثار المعركة، تبدو برفيف أجنحتها الخفي التي لا تكاد تدركه العين وكأنها ثلاثة من أعلام القتال ارتسم على كل منها غراب أسود محلق... .

وتساءل الجندي الجريح مذعورا: « أتراها آتية نحوي؟» ثم ارتعش جسده الوهنان وهو يتطلع اليها تنحدر من سمائها ثم تجثم فوق تل صغير على بعد بضع خطوات منه..

تا الله انها لطيور حسان سمان وذات ريش صقيل جميل لا تنقص اجنحتها منه ريشة واحدة، ومع ذلك فان هذه الطيور تعيش وسط المعركة، بل لا تجد زادها الا من بقاياها وأشلائها! ولكنها لا تشاهد المعركة الا من بعيد دائما، من علو شاهق فلا تصيبها ولا تصل اليها نيران القتال. وهي لا تهبط ابدا الا اذا تهاوى الجنود على الارض واختلطوا على صعيد واحد بين قتيل وجريح!

والحق أن هذه الغربان الثلاثة تبدو ذات أبهة وأهمية، وهي تتبادل التحية بالمناقير، ويدرج الواحد منها أمام الآخر في زهوة وخيلاء، وتطبع جميعا مخالبها الحادة فوق الثلج المصبوغ بالدماء. ثم أنها بعد أن تفرغ من خيلاتها وتيهها تروح تنعق بصوت خفيض، خفيض، دون ان تصرف عيونها عن الجريح..

وقال أحد هذه الغربان السود مخاطبا رفيقيه: «يا ابني عمي. لقد أتيت بكما لاجل هذا الجندي الفرنسي الراقد هنا أمامكما. لقد كان جنديا صغيرا ولكنه ذو أباء وشمم، فيه بسالة غريبة نادرة المثال، ولكن لا يواكبها الحذر والتدبر، انظرا الى معطفه العسكري المخرق، واحسب كم من القذائف كان لا بد من اطلاقها لكي يقع مجندلا. انه فريسة طيبة، واذا شئتما تقاسمناها، بيد انه يجب ننتظر قليلا قبل ان نذهب اليه، فانه وان تحطم سلاحه وبدا كما تريانه حاسر الرأس، مشلول اليدين، ليخشى جانبه ويحسب حسابه اذا ما انبعث فيه نسمة حياة!

كان الغراب الذي تكلم أكبر الثلاثة، وكان الآخران، وهما يصغيان اليه، واقفين بعيدا عن منقاري الضاري المعقوف- ثم عاد الغراب الكبير يقول هاتفا: «مرحى! هيا بنا نتقاسمه.»

أتسمع أيها الجندي الصغير ما يقولون؟ أصحيح أن قلبك لم يعد يخفق بين الضلوع؟ الا تنطق؟ تكلم اذن، وصح بهذه الغربان عاليا انه لا تزال بقية تجري في عروقك من الدم الكثير الذي أرقته.

وي! لكأنه ميت حقا، فان الغربان الثلاثة ذات العيون المتوعدة والمناقير المفترسة لم تكد تنتهي من ائتمارها حتى جعلت تدنو منه وقد أرخت أجنحتها، غير أن الجندي لم يتحرك ولم يرتعش ....

يا لك من جندي صغير مسكين، ان الغربان توشك ان تشك بمناقيرها بدنك

وتخترق أهابك اختراقا ثم تنقض عليك نهشا وتمزيقا. ولسوف تخطف بمناقيرها الجارحة حتى زرار ردائك، فان هذه الطيور الناهبة لتلقط كل ما يبرق ويلمع، وان كان ممرغا في الدماء.

وعلى هينة ومهل طفقت الغربان تقترب، وجازف أشدها سفاهة ونقره في اصبعه.. الا ان الجندي، في هذه المرة، استفاق وارتعش جسمه كله.. وتناقلت الغربان الرعديدة الحديث قائلة: انه لم يمت.. انه لم يمت.. وسرعان ما عادت متوانية الى تلها الصغير..

أجل ! ان الجندي الصغير لم يمت. كلا انه لم يمت على التحقيق. ها هو قد رفع رأسه وقد أشاع الغضب فيه شيئا من انتعاش، ورفت عينه رفيف الحياة، وحمي أنفه، وأخذ يبدو له ان الهواء أقل ثقلا، وانه غدا أحسن حالا..

وكان شعاع وردي باهت من أشعة شمس الشتاء لا يزال ينسحب فوق الارض المدمرة، وفيما كان الجندي يتأمل هذا الغروب الحزين الذي خيل اليه انه يتخذ الوان الفجر واشعاعه، اذ به يشعر تحت يده الممدودة ان الثلج، وقد ذاب من حولها بسبب من دفئها، أتاح لرأس نبتة خضراء ان يبرز. انه رأس سنبلة صغيرة ضعيفة. فيا لمعجزة الحياة! لقد أحس الجريح انه يولد من جديد. واخذ يحاول ان يعتدل وهو يعتمد بيديه الاثنتين على أرض وطنه.. وكانت الغربان الثلاثة ترقبه من بعيد وهي على وشك ان تذهب، ولما رأته واقفا يبحث من حوله بحركة لا تزال ترتعش عن سلاحه الملقى، لاذت بالفرار طائرة نحو الشمال الذي كان قد لفه الظلام! وكان يسمع في عرض السماء صدام أجنحة رهيب، وقضقضة مناقير، انه فرار سريع، صاخب، فيه ذعر وفيه نقمة وغضب.. وما أشبه هاتيك الغربان بقطاع طرق قد أخفقوا في سطوهم فاقتتلوا وهم بفرارهم لائذون..

فكتور هيكو (فرنسا)

الربان هارفي

في ليلة اليوم السابع عشر من شهر آذار سنة ١٨٧٠ كان الربان (هارفي) يقود باخرته، كالمعتاد، الى رحلتها من (ساوثمبتون) الى (غرنسي). وكان الضباب قد تغشى البحر كله، ووقف هارفي في مكان القيادة، وراح يباشر مهمته بحذر شديد بسبب ظلام الليل وتكاثف الضباب. وكان المسافرون في تلك الآونة قد أووا الى مضاجعهم واستسلموا لسلطان النوم.

كانت (النورماندي) سفينة كبيرة، ولعلها كانت أجمل سفن النقل عبر بحر المانش، اذ كانت تتسع لستمئة برميل كبير، وكان طولها اكثر من مئتي قدم انجليزية، وعرضها خمسا وعشرين قدما، وكانت لا تزال في زهوة العمر وزهوة الشباب فيما يقول البحارة، ولم تكن قد قطعت من عمرها اكثر من سبع سنوات. ولقد صنعت سنة ١٨٦٣ .

أخذت السفينة تشق العباب حتى استوت فوق الغمر على بعد خمسة عشر ميلا من مكان رسوها، ثم جعلت تتقدم ببطء كلما ازدادت كثافة الضباب. وكانت الساعة اذ ذاك الرابعة صباحا.

وأربد الجو ثم أظلم تماما وامتد رواقه الحالك حتى طوى السفينة في تضاعيفه، وحتى غدت العين لا تكاد تميز غير رؤوس الصواري. ما من شيء يثير

الرهبة والرعب كتلك السفن العشواء تمخر العباب في غياهب الليل.

وعلى حين غرة بدت كتلة سوداء شقت ستار الضباب، كانت تترا ءى وكأنها شبح مخيف تارة، وتارة كأنها جبل كبير مقبل بتضاريسه الرهيبة يشق العباب المزبد شقا ويمزق حجب الظلام تمزيقا. تلك الكتلة السوداء كانت باخرة كبيرة اسمها «ماري» وكانت مقبلة من «أوديسا» ومتجهة الى «غرنسي» هي الاخرى وقد شحنت بخمسمئة طن من القمح. كانت بسرعتها الهائلة، وزنتها، وجرمها الكبير مندفعة كالسهم المارق نحو الباخرة «نورماندي».

ما من وسيلة ممكنة كانت لتحول دون صدام السفينتين لقد وقعت الكارثة بسرعة. ذلك ان تلك البواخر، التي تبدو في الضباب الكثيف كالاشباح الخاطفة، لا يحد من اندفاعها شيء ولا تكاد تترا ءى حتى تلتحم ولا تكاد العين تميزها حتى تصطدم.

وهكذا قدر للسفينة«نورماندي» أن تخترقها من أحد جانبيها السفينة «ماري» بما أخمد حركتها وأوقفها.

وكان على ظهر النورماندي ثمانية وعشرون رجلا هم بحارتها وامرأة كانت تقوم على خدمتهم، وواحد وثلاثون مسافرا بينهم اثنتا عشرة امرأة.

ولقد كانت الرجة رهيبة حقا، فلم تنقض لحظة حتى كان الجميع من رجال ونساء وأطفال، فوق سطح الباخرة، أنصاف عراة يتراكضون، ويتصايحون، ويبكون، وكانت مياه البحر تتدفق ثائرة غاضبة في جوف السفينة فأخمدت نيرانها الموقدة وعطلت حركة آلاتها. ولم تكن الباخرة مزودة بحواجز تحول دون تدفق المياه، وكانت أحزمة النجاة أقل من ان تفي بالحاجة الملحة.

ووقف هارفي ربان السفينة منتصب القامة، في مكان القيادة وصاح قائلا:

«الزموا الصمت جميعا. وكونوا حذرين يقظين، حتى اذا انزلت قوارب النجاة الى البحر فان النساء هن اللواتي يركبنها أولا ثم الرجال ثم بحارة الباخرة. ان ثمة ستين شخصا يجب انقاذهم.» وتناسى، متعمدا، ان يذكر نفسه.

وانزلت القوارب الى البحر،وتواثب الركاب نحوها الى البحر، وكان هذا خليقاً أن يؤدي الى غرق القوارب. ولكن «أوكلفورد» نائب الربان، ومساعديه احتجزوا المسافرين وحالوا دون اندفاعهم. انه لموقف مروع حقا: أن يهبوا هكذا من رقادهم فجأة ثم يلاقوا حتفهم مغرقين!

ومع ذلك فقد كان صوت الربان هارفي يسمع متميزا بين الصياح والضجيج وهو يخاطب المسؤول عن الآلات:

- اسمع يا «لوكس»

- ماذا تريد يا سيدي الربان؟

- نبئني ما حال مراكبك؟

- أغرقت...

- والنار؟

- انطفأت...

- والآلات؟

- تعطلت...

وصاح الربان مرة أخرى مخاطبا نائبه.

- وأنت يا «أوكلفورد»

- أنا هنا يا سيدي.

- كم دقيقة يمكن ان تتماسك الباخرة قبل ان تغرق؟

- ليس أكثر من عشرين دقيقة.

وقال الريان:

- انها لكافية. هل تحمل مسدساتك يا أوكلفورد؟

-أجل أيها الريان.

- أطلق رصاصاتها على راس أي من الرجال يريد ان يسبق النساء الى قوارب النجاة.

وصمت الجميع. ولم يحاول أحد أن يقاوم هذا الامر الصارم. لقد كان هذا الحشد من الخلق ساعتئذ يحسّ ان روح الريان، روحه الكبيرة، هي التي تسود الموقف وتسمو فوق الهامات.

وكانت السفينة ماري من ناحيتها قد انزلت هي الاخرى قوارب النجاة الى البحر لتساعد في حركة الانقاذ من الكارثة التي كانت هي سببها.

استمرت عملية الانقاذ بنظام وهدوء. ولقد حدث خلالها ما دل على أنانية بغيضة كما حدث ما دل على ايثار جميل وتضحية رائعة.

وفي أثناء هذا كله كان هارفي صامدا، راسخا، كالطود في مكان القيادة. يصدر أوامره ويهيمن على كل حركة ويوجه ويرشد ويهتم بكل شيء وبكل انسان،

ويتحكم ثابت الجنان، ساكن الطائر بموقف الهول وكأنما هو يأمر الكارثة نفسها ان تطيع فتصدع بأمره!

ولقد صاح في لحظة من اللحظات: انقذوا الفتى «كليمان» وكان كليمان هو البحار الصغير الذي لم يبلغ السادسة عشرة من عمره.

أخذت السفينة تغوص ببطء في مياه البحر. وازدادت حركة الانقاذ سرعة بين السفينتين. وكان الربان يهتف: «لا تتوانوا، اعملوا مسرعين...»

ولما انقضت الدقيقة العشرون غرقت السفينة. غاصت مقدمتها أولا ثم المؤخرة. ولم يأت الربان هارفي بحركة في موقفه بمكان القيادة. ولم يفه بكلمة. وغاص هو الاخر في هوة الماء بثبات وهدوء.

تلك كانت نهاية الربان هارفي. لم يكن له بين بحارة المانش من نديد. انه بعد ان أخذ نفسه، طيلة حياته، بالاضطلاع بواجبه كرجل فقد أختار لنفسه ان يموت ميتة بطل.

انطوان فرانس (فرنسا)

الارغفة السوداء

في ذلك الزمن كان «نيقولا نرلي» صاحب مصرف في مدينة فلورنسا الماجدة، ولم يكن يفارق مكتبه في أية ساعة من ساعات النهار، حيث يظل مستغرقا في حساباته وأرقامه. وكان يقرض الامبراطور مالا كما يقرض البابا، واذا كان لم يقرض الشيطان نفسه فلأنه كان يخشى أن يتورط في صفقات خاسرة مع ذلك «اللعين» الماكر، صاحب الحيل الكثيرة والمكايد العديدة. وقد كان نقولا نرلي جسورا جريئا، الا انه كان الى هذا حذرا حريصا متأبيا على الخداع، فاحتاز الاموال الطائلة وجرد الكثيرين مما يملكون. لهذا السبب كان مكرما في مدينة فلورنسا. وكان يقطن قصرا لا يدخله النور الذي خلقه الله الا من خلال كوى ضيقة، وكان هذا لحكمة واضحة: فان مساكن الاغنياء يجب ان تكون حصونا حصينة، وان اولئك الذين يملكون المتاع الكثير يحسنون صنعا اذ يذودون بالقوة عما اكتسبوه بالخداع والحيلة. واذن فقد كان قصر نقولا نرلي مزودا بالابواب الحديدية والسلاسل الضخمة. واما في الداخل فقد كانت جدرانه مزدانة بالرسوم الباهرة صنعها مهرة الفنانين الذين صوروا الفضائل السبع في أشكال نساء وبطارقة ورسل وأنبياء. وكانت الغرف مفروشة بالسجاد الثمين، وقد حيكت عليها نقوش تمثل قصصا وحكايات معروفة وكانت وسيلة نقولا نرلي لاظهار ثرائه العظيم في المدينة أن يقيم المنشآت الخيرية، فشاد خارج اسوار المدينة مستشفى جعل في واجهته افريزا منحوتا مموها، وقد نقش عليه ما يدل على أروع

مآثره وأجمل أعمال البر التي قام بها في حياته. واعترافا بجميله واقرارا بالمبالغ الكبيرة التي قدمها لانجاز كنيسة «سانت ماري نوفيل» فقد علقت صورته على جدران المكان المعد لجوقة المنشدين في الكنيسة. وكان يبدو في هذه الصورة جاثيا تحت قدمي العذراء المقدسة وقد ضم يديه خشوعا وورعا، وكان الناس يعرفونه على الفور من قلنسوته الصوفية الحمراء ولباسه المزدان بالفراء ووجهه المغرق بالشحم الاصفر وعينيه الصغيرتين المتوفزتين، أما امرأته «مونا بسما نتوفا» فانها تبدو في الصورة الى الجانب الآخر من العذراء وعليها سيماء الشرف والكآبة، وتلوح تقية ورعة في موقف الصلاة هنا، الى الحد الذي لا يمكن ان يخطر ببال انسان ان احدا وجد عندها حظوة او نال منها مأربا.

وكان الرجل من صفوة المواطنين ومن اشدهم حفاظا على القانون والنظام، وكان معروفا بتنكره للفقراء وانصرافه الى شؤونه الخاصة وعدم تدخله فيما لا يعنيه فاكتسب بذلك رضا اولي الامر وتقديرهم واحترامهم.

وحدث ذات مساء من أمسيات الشتاء ان عاد الى قصره متأخرا على غير عادته فأحاط به عند عتبة الباب جماعة من المتسولين اشباه العراة، وقد مدوا اليه أيديهم الهزيلة يسألونه ان يعطيهم مما اعطاه الله. الا انه راح ينحيهم ويغلظ لهم القول ولكن الجوع أحالهم أنفاطا جريئين متهورين كالذئاب فتحلقوا من حوله واخذوا يسألونه بأصوات نائحة مبحوحة ان يعطيهم خبزا، وكان هو في هذه الاثناء قد انحنى على الارض ليلتقط حجارة يرميهم بها، فلمح أحد خدمه مقبلا وعل رأسه سلة مليئة بالارغفة السوداء ملء راحتيه، ويلقي بها الى المتسولين البؤساء، ودخل بيته بعد هذا واوى الى فراشه ونام. وفي نومه اصيب بسكتة قلبية فمات على الفور، وبسرعة حسب نفسه معها انه لا يزال راقدا في سريره، اذ تراءى له في مكان مظلم القديس ميخائيل وقد استضاء بنور باهر ينبعث من جسده.

وكان رئيس الملائكة يحمل في يديه موازينه، فأخذ يضع في أرجح الكفتين حلي الارامل التي كان نقولا نرلي يحتفظ بها رهنا عنده، ومجموعة لا تعد ولا تحصى من دراهم ودوانق صغيرة كأنها قلامات أظفار كان قد احتازها دون حق، وقطعا ذهبية جميلة تخلب الالباب لم يكن أحد يملك مثلها غيره كان قد حصل عليها بالربا او الخداع والمخاتلة. وادرك نقولا نرلي ان حياته كلها هي التي يضعها الآن القديس ميخائيل في كفة الميزان، فزاد اهتمامه وانشغل باله وقال:

سيدي القديس ميخائيل اذا كنت تضع في احدى الكفتين كل ما كسبته في حياتي فضع اذا تكرمت في الكفة الاخرى المبرات والمنشئات الجميلة التي أظهرت بها في تمام الابهة ورعي وتقواي. ولا تنس قبة كنيسة «سانت ماري نوفيل» التي شاركت في نفقاتها بمقدار الثلث من تكاليفها، ولا يذهبن عن بالك المستشفى الذي أقمته خارج الاسوار وشيدته كاملا من حر مالي.

وأجابه رئيس الملائكة قائلا: «لا تخف يا نقولا نرلي سوف لا أنسى شيئا» وراح بيديه المجيدتين يضع في الكفة الاخرى الشائلة قبة الكنيسة والمستشفى بأفريزه المنحوت المموه، الا ان هذه الكفة لم تنخفض ولم تمل.

فأحس صاحب المصرف بالقلق وساوره الاضطراب وعاد يقول: «سيدي القديس ميخائيل، ابحث جيدا، فانك لم تضع بعد في هذه الكفة جرن الماء المقدس الذي أقمته في كنيسة «سان جان» ولا منبر كنيسة «سانتدريه» الذي حفرت عليه معمودية سيدنا يسوع المسيح بشكلها الطبيعي، لقد كلفني هذا الاثر الفني غاليا جدا» ووضع رئيس الملائكة المنبر وجرن الماء المقدس فوق المستشفى في الكفة الشائلة التي لم تنخفض ابدا. وبدأ نقولا نرلي يحس بجبينه يغمره العرق البارد، ثم راح يسأل «سيدي رئيس الملائكة: هل انت واثق من ان موازينك صحيحة؟» وأجاب القديس ميخائيل وهو يبتسم بأن موازينه وان لم تكن على غرار الموازين التي يصطنعها مرابو باريس وصيارفة البندقية فانها لا تعوزها

الدقة والاستقامة.»

وقال نقولا ندلي بصوت خافت وقد شحب وجهه، ان قبه الكنيسة ومنبر الخطابة وجرن الماء المقدس والمستشفى الكبير بأسرته العديدة لا تزن أكثر من تبن أو زغابة عصفور.

وأجاب رئيس الملائكة قائلا: «أنت ترى هذا بأم عينك، فان عبء سيئاتك أرجح بكثير من زنة حسناتك. وقال الرجل: «فسأحمل الى جهنم اذن؟» ثم ارتعدت فرائصه واصطكت اسنانه من شدة الخوف، الا ان صاحب الميزان السماوي استطرد يقول «صبرا يا نقولا نرلي، صبرا، اننا لم ننته بعد. فقد بقي هذا» وتناول القديس الارغفة السوداء التي ألقى بها الصيرفي الغني الى الفقراء في عشية اليوم السابق ووضعها في كفة الحسنات فمالت فوراً وشالت الاخرى حتى استوت الكفتان، لا ترجع احداهما على الاخرى، ولا تميل الى يمين او شمال، وقد اشارت ابرة الميزان الى التساوي التام بينهما.

ولم يصدق الصيرفي عينيه. وسمع رئيس الملائكة يقول له «انت ترى يا نقولا نرلي انك لا تصلح للجنة كما لا تصلح للنار، عد اذن الى فلورنسا واكثر في مدينتك من هذه الارغفة التي وهبتها الفقراء من يدك ليلا، وليكن ذلك دون ان يراك أحد. وعندئذ تنجو. وليس بكاف ان تفتح ابواب السماء للسارق الذي يتوب وللبغي التي تذرف الدمع. ان رحمة الله لا حد لها وهي تسع الجميع وتقبل حتى توبة غني مثلك. أجل أكثر من هذه الارغفة التي ترى زنتها في موازيني. هيا.. عد الى فلورنسا..

واستيقظ نقولا نرلي فوجد نفسه في فراشه فاعتزم ان يأخذ بنصح رئيس الملائكة، ويضاعف خبز الفقراء ليدخل ملكوت السماء.

وكان في أثناء السنوات الثلاث التي أمضاها على الارض بعد موته الاول رحيما بالفقراء حانيا على البؤساء ومتصدقا عظيم الاحسان..

اونوريه دي بلزاك (فرنسا)

مأساة في الصحراء

بعد أن سار الجندي بعض الوقت فوق الرمال بكل ما تبقى فيه من عزم وقوة، اضطر ان يقف، فان النهار كان قد انقضى. وعلى الرغم من جمال السماء في ليالي الشرق، فلم يكن ليجد في نفسه القوة على مواصلة السير. ولحسن الحظ استطاع ان يصل الى قمة تل مرتفع تناثرت فوقه بضع نخلات ذاهبات في السماء كانت سعفها تراءت له منذ زمن طويل فحث اليها خطاه وقد استيقظت في قلبه أعذب الاماني.

وكان الوهن والاعياء قد نالا من الجندي، فانطرح فوق حجر كبير من «الغرانيت» جوفته يد الطبيعة فغدا أشبه ما يكون بسرير مريح، ثم استغرق في نوم ثقيل دون ان يتخذ اية حيطة للدفاع عن نفسه في أثناء رقاده.

وفي الصباح ايقظته اشعة الشمس التي انصبت على «الغرانيت» فجعلته يتقد اتقادا. ودار ببصره هنا هناك ثم راح يحدق النظر في أشجار النخيل، وبعد أن فرغ من عدها وتأمل تيجانها الخضراء الوارفة عاد يدور ببصره في تلك الانحاء المترامية فهاله ما رأى، وأحس بأشد القنوط يتغلغل في أعماقه.

لقد شاهد بحرا خضما لا حدود له من رمال الصحراء الضاربة الى السواد تمتد في كل اتجاه، ويضل البصر في آفاقها ولا تنفك تتوهج تحت أشعة الشمس

الحامية كأنها حد سيف صقيل. وقد التبس عليه الامر، فلم يعد يدري هل هو بحر من جليد هذا الذي يراه أم هو عدة بحيرات تجمع بعضها الى بعض فبدت كأنها مرآة منبسطة. واشتعلت الارض والسماء نارا، وارتعدت فرائص الجندي حيال هذا الصمت المطبق الرهيب، وقد اشتدت ثمة وطأته وعظم سلطانه وجبروته. وقد كانت الآفاق الممتدة الى غير حد والى غير نهاية تعتصر القلب من جميع أقطاره. وما كانت العين لترى سحابة واحدة في فجاج السماء، وما كانت نسمة من هواء لتصافح الاذن. لا شيء غير تلك الرمال الملتهبة تتحرك حركتها الخفيفة الدائمة.

وضم الجندي الى صدره جذع احدى النخلات كأن ذلك الجذع صديق حميم، ثم طفق يبكي. وجلس بعد ذلك ولبث في مكانه يتأمل بأسى عميق ذلك المشهد الرهيب الذي علق به ناظراه، وبدا له ان يصرخ من أعماق حنجرته لكأنما يريد أن يؤنس وحشته، ولكن صوته ضاع في تلك الفجاج الهائلة ولم يكن له من رجع في غير صدره وحده.

وانحدر الجندي من ناحية التل الاخرى المقابلة للناحية التي صعد منها في مساء اليوم السابق. وعلى بعد خطوات شاهد نخلا مثقلا بقطوفه، فاستيقظت في قلبه تلك الغريزة التي تربط أسبابنا بأسباب الحياة.

وقد انعشه ما رأى، فهز اليه نخلة فتساقطت منها ثمارها الشهية وأدرك وهو يتذوقها ان الذي ألم قبله بهذا المكان قد تعهد ذلك النخيل وعني به، وآية ذلك هذه الرطب الجنية مبذولة له في كل حين. وانقلب حاله من يأس وقنوط الى أمل ورجاء عظيم، وعاد الى مقره فوق التل وتشاغل بقية يومه منهمكا في قطع نخلة عقيم من ذلك النخيل الذي أظله في ليلته الماضية.

لقد شغله هنيهة التفكير بوحوش الصحراء، وتوقع أن تأتي لترد الماء من

ذلك النبع الغائر في الرمال الذي لا يبدو جليا واضحا الا في أسفل تلك الصخور الجاثمة على صدر الصحراء فأزمع أن يتحصن منها باقامة سد على باب صومعته المنحوتة في الصخر. ثم نام داخل كهفه الرطب وقد أرهقه العمل وحر الشمس في يومه. وعندما انتصف الليل هب من نومه وقد أزعجه صوت غريب. وأتاح له الصمت العنيق ان يتبين ان ثمة كائنا يتنفس بقوة وحشية خارقه لا يمكن أن تصدر عن مخلوق من البشر، فجمد قلبه من الرعب الذي ضاعف من هوله الظلام الشامل والصمت المطبق وأخيلة اليقظة. ولقد قف شعر رأسه مما أحس به من ذعر وخوف. ومن شدة تحديقه في الظلام أمكنه أن يتبين بصيصا ضئيلا من نور أصفر، فعزا ذلك، في بادىء الامر، الى انعكسات من أحداق عينيه. وما هي الا ان سطع ضياء القمر فساعده على تمييز ما كان يحس بوجوده في الكهف. وعلى الفور شاهد وحشا ضخم الجثة راقدا على بعد خطوتين منه.

هل كان ذلك الوحش أسدا أم نمرا أم تمساحا؟ وراح الجندي يكابد عذاب الاستماع الى انفاس الوحش دون أن يجرؤ على الاتيان بحركة ما، وقد ملأت الجو رائحة غليظة كتلك التي تصدر عن الثعالب ولكنها أشد نفاذا وأعظم وطأة.

لم يلبث القمر، في تصعيده، أن اعتلى الافق فأضاء الكهف تماما وراحت أشعته تنير أديم ذلك الوحش. وأدرك الجندي أنه حيال انثى الفهد. والفهود من فصيلة القط الكبير. ورآها الجندي تفتح عينيها لحظة ثم تغمضهما، فجاشت في نفسه ألف فكرة مضطربة. اعتزم اولا ان يقتلها بطلقة من بندقيته ولكنه تبين انه لم تكن بينه وبينها مسافة كافية لتسديد البندقية واتقان تصويبها نحوها، ولقد وضع راحة يده مرتين على مقبض خنجره وفي نيته أن يحز رأسها. ولكن ماذا يحدث لو أخطاها؟ سيكون مصيره الموت دون ريب. وآثر في النهاية فرصة الصراع معها واعتزم أن يتفحص انثى الفهد، فرأى فمها ملطخا بالدم وقال في نفسه: لقد أكلت حتى شبعت من لحم انسان او حيوان. وسوف لا تحس بالجوع

عندما تنهض من نومها.

أجل لقد كانت انثى فهد لا ريب في ذلك البتة، وآية ذلك فراء بطنها وفخذيها. انه فراء أبيض ناصع جميل. وكانت بقع صغيرة شبيهة بالمخمل تستدير حول يديها وقدميها كالاساور والدمالج، وكان ذيلها ناصع البياض كذلك، وذا عضل قوي، غير أنه كان منتهيا بحلقات سود، أما سائر جسدها فكان أشقر ذهبي اللون ولكنه ناعم المجس رقيق الملمس وعليه زخارف من بقع خاصة على شكل ورود تتميز بها الفهود عن سواها من أصناف السباع.

أشرقت الشمس ففتحت الفهدة عينيها فجأة، ثم تمطت بعنف وتثاءبت فبانت أنيابها المخيفة وتبدى لسانها القوي كمبرد رهيب، ثم أخذت بهذا اللسان تنظف قوائمها وفمها، وراحت بعد هذا تحك رأسها بحركات كلها خفة ولطف. واستعاد الجندي مرحه وشجاعته وقال يخاطب الفهدة في نفسه: «نظفي نفسك اذن وتبرجي.. فلن نلبث ان نتبادل تحية الصباح. ثم أطبق بيده على مقبض خنجره.

في هذه اللحظة أدارت الفهدة رأسها نحو الجندي وحدقت فيه النظر طويلا دون ان تتقدم منه، فارتعدت فرائصه من شدة تحديقها ونفاذ نظرتها الفولاذية وتألق عينيها تألقا لم يكن من قبل قادراً على تحمله، وعلى الاخص عندما شرعت تخطو نحوه. غير أنه أخذ يتأملها بلطف ومودة، وادام اليها النظر كأنه يريد أن ينفذ السحر من عينيه الى قلبها وتركها تقترب منه، ثم مر براحة يده فوق جسمها كله، من رأسها الى ذيلها، وهو يحك لها ظهرها بأظفاره. وعندئذ رفعت ذيلها ملتذة بملاطفته المقصودة وند عنها ما يشبه هرير القط وهو في حال بهجة وسرور، غير أن هذا الهرير انبعث من حنجرة عظيمة القوة، خارقة القدرة عميقة الغور حتى لقد تردد صداه في الكهف هادرا مدويا باعثا على الذعر. ولقد ادرك الجندي ما لملاطفته من أثر في نفسها فراح يضاعفها ويكثر منها.

ولما أيقن انه طامن بحلاوة ملاطفته من ضراوتها نهض واراد أن يغادر الكهف مطمئنا الى انها لا تحس بجوع بعد ان ملأت عشية اليوم السابق معدتها من طعام. وتركته يخرج، ولكنه ما كاد يتسلق التل حتى وثبت بخفة عصفور ينتقل من غصن الى غصن، فاذا هي بجانبه تحك نفسها بساقيه وتقبب ظهرها كالقطط من شدة سرورها، ثم القت اليه بنظرة غدت أقل حدة ونفاذا ارسلت بعدها تلك الصرخة الوحشية الحادة التي يقارنها علماء الحيوان بالصوت المنشاري.

حاول الجندي ان يروح ويجيء. فتركته يفعل ذلك مكتفية ان تتبعه نظرتها، أشبه ما تكون بكلب أمين منها بوحش ضار مخيف. ولما التفت الى الخلف شاهد من ناحية ينبوع الماء بقايا جثة فريسة. كان اكثر من ثلثيها قد افترسته الفهدة بعد ان جرت الجثة الى ذلك المكان. واطمأن الجندي ووسعه ان يفسر كيف عافت الاقتراب منه ولم تصبه بأي سوء في أثناء نومه. وعندئذ جلس قريبا منها دون خوف او وجل، وشرعا يلعبان، فقبض على يدها مرة وتحسس فمها وانفها مرة اخرى، وداعب اذنيها، والقاها على ظهرها وحك بقوة خاصرتيها الدافئتين الحريريتين، ولما حاول ان يجس باطن يديها اخفت بعناية تامة مخالبها المعقوفة الحادة كالنصال المشحوذة.

كان الجندي لا يزال يفكر، ويده على مقبض خنجره، أن يغمد خنجره في بطنها وهي في هذا الحال من الثقة والاطمئنان، ولكنه خشي أن تصرعه فورا وهي تعاني آخر اختلاجة من اختلاجات الموت. ثم هو، الى هذا، أحس بان ضميره يزجره عن ذلك ويهيب به ان يعف عن ايذاء مخلوق مطمئن مسالم. ولقد خيل اليه انه قد وجد في تلك الصحراء المترامية الاطراف صديقة تؤنسه وتسري عنه همه.

أحس الجندي، في أواخر النهار، أنه قد ألف تلك الحالة الخطرة، وسكن الى مخاوفها ومواجعها، وفي النهاية اعتادت الفهدة أن تنظر اليه كلما سمعته يصرخ

بصوت مرتفع- منيون- اسم علم أطلقه عليها ومعناه ظريفة- وعند مغيب الشمس أرسلت من حنجرتها مرارا صوتا عميقا كله أسى وكآبة.

وكائنة ما كانت رغبة الجندي في أن يظل يقظا حذرا، مرهف السمع والبصر فقد تغلب عليه سلطان الكرى فنام، ولما استيقظ لم ير الفهدة، فصعد التل وارسل بصره الى بعيد فرآها تقفز وتتواثب، وما ان لمحته حتى أقبلت مسرعة اليه فتلقاها بالملاطفة والتربيت رقة وعذوبة وطفق هو يخاطبها رفيقا بها كأنها حيوان أليف.

مضت أيام على هذه الحال أتاحت للجندي ان يتأمل عظمة الطبيعة في الصحراء. وقد أطلعه الصمت المطبق على كل اسرارها وشمله بسحرها، واكتشف في طلوع الشمس وغيابها مناظر خلابة لم يعرفها قلب بشر. وكان اذ يمر عصفور يرف بجناحيه- وقد كان هذا نادر الحدوث- يرتعش بدنه لذة وسرورا، واذا شاهد السحب تتداخل وتتبدل الوانها ويتعاقب بعضها اثر بعض في رحلتها عبر الصحراء أحس ان قلبه يمتلىء غبطة وسرورا. وفي الليل كان يتأمل ما يفعله ضياء القمر المنسكب فوق محيط الرمال. ثم امتلأ فؤاده بمحبة الفهدة، اذ كان لا بد له من عاطفة جميلة يأنس بها قلبه في تلك الصحراء، وسواء كانت ارادته المصممة هي التي غيرت من طبع رفيقته، او كان الغذاء الوفير الذي تجده في أطراف الصحراء، وقد امتلأت بأشلاء القتلى من ضحايا المعارك الدائرة رحاها هنا، هو الذي فعل ذلك ، فان الفهدة أبقت على حياة الجندي وراعت حرمتها، وهو بدوره لم يعد يحذرها ويخشاها بعد الذي رأى من تآلفها.

وكان الجندي يمضي اكثر وقته نائما، ولكنه كان مرغما ان يكون منتبها شأن العنكبوت في نسيجها، لكي لا تفوته فرصة الخلاص اذا ما مر احد عند حدود الافق، وقد مزق قميصه وثبته فوق عودين اقامها في رأس نخلة باسقة ليكون كالراية يشاهدها من بعيد المسافر المأمول.

وكان في الساعات الطوال التي يتخلى عنه في أثنائها الامل والرجاء يتلهى بملاعبة الفهدة. وقد ادرك في النهاية كيف يميز بين مختلف نبرات صوتها ومعاني نظراتها، وغدت لا تزمجر ابدا وهو يمسك بخصلة الشعر في نهاية ذيلها الرهيب لكي يعد ما يزينه من دوائر بيض وسود. وكان يلذ له بصورة خاصة ان يشاهدها في حال لعبها ومرحها فكانت خفتها ورشاقة حركتها تدهشه دائما. وكانت تثير اعجابه بمرونتها ولينها حين تقفز او تزحف او تنزلق فوق الرمال او يتداخل بعضها في بعض او تتدحرج او تربض او تنطلق في كل اتجاه. وكائنة ما كانت سرعة انطلاقها، وكائنة ما كانت قوة الانزلاق فوق صخر «الغرانيت» فقد كانت تقف فجأة وبحركة واحدة اذ تسمعه يناديها «منيون».

ولكن كيف انتهى امر هذين المخلوقين المتآلفين؟ لقد حدث هذا على نحو من سوء التفاهم وقد رواه لي ذلك الجندي القديم فقال: لا أدري، ذات يوم، أي ألم سببته لها، فالتفتت الي وقد استشاطت غضبا وخدشت ساقي بأنيابها، فتوهمت عندئذ انها تهم ان تفترسني فأغمدت خنجري في عنقها، فهوت تتقلب وقد اطلقت صرخة جمد لها قلبي، ثم رأيتها تتخبط وهي ترسل نحوي نظرة خالية من الغضب. وشد ما تمنيت آنئذ لو استطيع ان اردها الى الحياة بأي ثمن.. واستقر في روعي انني انما قتلت في الواقع انسانا حيا.. ولقد وجدني الجنود الذين هرعوا الي عندما شاهدوا رايتي فوق ذؤابة النخلة الباسقة مبلل الوجه بالدموع.

اندريه موروا (فرنسا)

بعد عشر سنوات

-أتدري يا «برتران» من حدثني في الهاتف صباح اليوم؟

- ومن أين لي أن أعلم؟

- كان ينبغي ان تعلم ذلك بالغريزة.. انها امرأة أحببتها كثيرا..

- وهل في الدنيا امرأة سواك أحببتها كثيرا؟

- يا لك من جاحد يا برتران! وبياترس؟

- أية بياترس؟

- أية بياترس؟.. انك رائع التمثيل حقا.. الم تعد تذكر قط بياترس ده سولج؟

- آه.. بياترس هذه.. كنت أحسبها في الصين او اليابان او في أي مكان آخر يعلمه الله.. اليست تقوم برحلة حول العالم؟

- لقد فعلت ذلك.. وعادت مساء أمس الى «الهافر»

- ولماذا اتصلت بك هذا الصباح؟

- لكي تجدد الصلات.. بعد غياب طويل.. وانها لتريد ان تعود فترى أصدقاءها.. فهذا أمر طبيعي..

- لم أكن أدري اننا أصدقاؤها..

- برتران!.. اني لتعاودني الذكرى.. أما كنت اوشك ان اتركك بسبب تلك المرأة؟..

أجل.. كنت أقول لنفسي: «اذا لم يعد يريدني.. اذا كان بحاجة الى اخرى.. فلماذا تراني اتشبث به؟ ليس لنا أبناء.. واحسب ان من واجبي أن أتوارى..» ولقد ذهبت الى أبعد من هذا فرأيت صديقي «لانكريه» لأسأله كيف يمكن ان يجري الطلاق دون صخب او ضجيج، وقد أصغى لانكريه الى قصة شقائي ونصح لي بالصبر ثم بدت لي التضحية بالغة القسوة فبقيت..

- لحسن الحظ..

- أجل.. لحسن الحظ.. ولكن من كان في وسعه أن يتوقع، يا عزيزي، أن شفاءك سيكون سريعا هكذا؟.. هل نسيت أنك، قبل عشر سنوات، لم تكن لتستطيع ان تعيش ساعة واحدة بعيدا عن بياتريس، وانك كنت تترقب كل يوم نداءها الهاتفي لك، وانك بكلمة منها كنت تتخلى عن أهم مواعيدك، وتخلف اشد وعودك ضناً بها؟ آه.. يالرنين الهاتف الصباحي ذاك.. انني لا أزال اسمعه حتى الآن.. كان في كل مرة يخفق له قلبي.. وكانت خادمتنا اميلي، اذا ما جاءك نداء الهاتف وانت لا تزال في غرفة نومك، تحاول ان تجد عبارة الشعور بالذنب والمشاركة فيه فتقول لك في غير حذق: «هناك من.. يطلبك.. يا سيدي..» وعندئذ يبدو عليك الارتباك.. ويلوح عليك الزهو بسذاجة.. ما كان أفظع هذا كله!

- لا بد هذا كان، بصورة خاصة، مضحكا.

- دون شك. ولكني كنت أشد تعاسة من ان المح الجوانب المضحكة في الموقف.. اتذكر يا برتران؟ انك لم تكن لتهتم بشيء قط في الدنيا اهتمامك ببياتريس.. كان اسمها اذا جرى به حديث سرعان ما تتغير ملامحك. وكان هذا، لمن يراك، مؤثرا ومؤلما في آن واحد.. كنت تحب الاشخاص اذا كانوا يعرفونها، وتحب الاشياء لانها كانت تهواها.. ولقد رأيتك، وانت أعقل الرجال وأقلهم اعتقادا بالخرافات، تهتم فجأة ب «فقراء الهنود»، والعرافات والسواحر وصانعي المعجزات.. أجل كنت تهرع معها الى أماكن تلفيق الاكاذيب الغريبة.. ثم، وانت الرجل الذي حال بيني وبين اقتناء الحيوان، كنت تنفق الساعات لتختار لها قطا فارسيا تحب أن تقتنيه.. على كل فالامر بسيط: لقد كنت رهن اشارتها.. وكان في وسعها ان تومىء إليك فتهرع اليها ككلب.

- انك تبالغين..

- لست أبالغ.. كنت تبدل وتغير من مشروعاتك ثلاث مرات في اليوم الواحد وفقا لنزواتها.. ان اجازاتنا نفسها كانت تؤجل نزولا على أهوائها.. وذات صيف ذهبت بي حتى أعالي الشمال، وانا التي تخشى البرد أكثر من خشيتها الموت، وما كان ذلك الا لان بياتريس ارتحلت الى بلاد النرويج على باخرة آل «جيمس» وكنت أنت ترجو، على الاقل، ان تلمحها مصادفة عندما ترسو الباخرة في احدى الموانيء.. وشد ما بكيت وانتحبت في تلك الرحلة.. كنت مثلوجة الاطراف، مريضة، موهنة قانطة.. ولكنك لم تر ذلك.. بم تفكر؟

- أحاول أن استعيد مشاعري في ذلك الوقت.. لقد كنت مجنونا بحب هذه المرأة حقا.. واني لأتساءل عن السبب..

- لا تكن فظا يا برتران.. لقد كانت خلابة ولا تزال..

– ان في باريس الف امرأة أجمل منها.

– ربما.. ولكنها كانت ذات ملاحة حلوة.. تكاد تكون طفلية.. ملاحة خاصة بها وحدها.. وكانت راجحة العقل..

– اتعتقدين ذلك؟

– كنت انت الذي يؤكد لي ذلك..

– وهل كنت قاضيا منصفا؟ انني لو رأيتها الآن لما عرفت ما اقوله لها..وما أحسب الا انها تحيا على بضع حكايات استمدتها مني، وبضع قصص اقتبستها من «ذلك الرجل» سلفياتي هذا مزعج حقا..

– هل تذكر يا برتران يوم ان اجرى لها الطبيب «غودان» عملية جراحية؟

لقد كنت شاحب اللون من الاضطراب فأثرت اشفاقي.. وحاولت في ذلك اليوم ان اتسامى.. وتحدثت في الهاتف، انا نفسي، ثلاث مرات لأعلم انباءها في المستشفى.. وكانت تلك تبشر بالخير.. فنقلها اليك قائلة: «لا تجزع يا عزيزي.. ليس الامر خطيرا..»

– لقد نسيت..

– يا للخسارة.. فلم يبق اذن من أشرف عمل قمت به في حياتي حتى ذكرى واحدة؟..

وقل يا حبيبي.. هل نسيت ايضا انك اردت ان تنتحر يوم فرت مع «سلفياتي»؟

– ما اردت الانتحار.. بل لقد شرعت في كتابة رسالة تنبئني فيها بقرارك..

وقـد اعطيـتني هذه الرسـالة ذات يوم وانت تقـوم بتـرتيب اوراق لك.. اتريد ان تراها؟

- لا اريد...

- بل تريد.. وستراها. هاكها.. اقرأ: « يا عزيزي الصغيرة.. أنا أعرف أن ما سأقوله سيؤلمك أشد الالم..واني لارجو صفحك.. فما عدت بمستطيع ان اعيش.. الا اني اريد، قبل أن اسدل الستار، ان اشرح لك أشياء كثيرة ما كان ينبغي ان تفهميها.. ويبدو لي انني سأخفف من ألمك اذ أبدي لك ان زواجنا كان دائما غير ما كنت تتصورين. »

- ان هذا يؤذيني يا ايزابيل.

- اتعتقد ان هذا كان يلذ لي؟. ولكن اسمع ايضا ما كتبت في هذه الرسالة: «اليك سر موقف كان غالبا ما يبدو لك غريبا.. انني في لحظة لقائنا ، انت وانا، كنت أحب بياتريس ده سولاج. فلماذا جعلت يومئذ الاحمق واطارحك الغزل.. ثم تزوجتك؟ كان ذلك لان بياتريس نفسها كانت قد تزوجت، لأني كنت ارجو ان انساها، لاني كنت أجد فيك حنانا لم تعطني هي اياه قط، واخيرا فلأن الانسان ليس بسيطا، ولانني كنت أعتقد صادقا ان.. » حسبك يا ايزابيل..

- انني لا أحرق أي شيء اطلاقا.. ثم ان هذه الرسالة.. قراءة هذه الرسالة من أسباب السلامة لي ولك.. واكراما لك أترك منها صفحتين، ولكن اسمع ما يلي:

«ان خطيئتك الكبرى، يا ايزابيل،- ولقد كان لك انت ايضا في هذه المغامرة المؤسفة اخطاء- ان خطأك البالغ كان في تلك الزيارة الغريبة التي قمت بها لبياتريس لكي تتوسلين اليها ان تجعلني استيئس من حبها، فترد بذلك زوجك

اليك.. ويومذاك لجحت نجاحا باهرا يا ايزابيل المسكينة. ولقد القيت أشد الندم في قلب امرأة طيبة جدا في واقع الأمر.. وافلحت في فصم عراها مني، ولكنك في الوقت نفسه قطعت ما بيني وبينك.

مسعاك ذاك يا ايزابيل هو مسعى بقيت أجهله دائما، ولكني استطعت ان اتبينه من ألف دليل- أحسست ان بياتريس تنفلت مني وتنزلق نحو «سلفياتي وبسبب من مسعاك اريد ان اموت..»

– يالها من لهجة مسرحية كريهة...

– لم تكن هذه غير مسودة رسالتك.. يا برتران.. ولكني اريد ان تصغي الى الفقرة الاخيرة منها: «لا تأسفي على شيء. ان حياتي، على أي حال، كانت قد انتهت.. وما وددت ان ابلغ الشيخوخة ابدا.. فاستقبلي هذا الحادث بصدق استقبالي اياه.. وستجدين الحب ايضا، ياايزابيل، وانك لخليقة به، فاغفري لي اني لم أعرف كيف أجعلك سعيدة. انني ما خلقت للزواج بتاتا، غير اني انطويت لك على قيد الحياة، فاني كنت سأتعلق بك اكثر فأكثر. وكلمة أخيرة: عندما تعود بياتريس وحدها أو مع سلفياتي، ارجو ان تحسني استقبالها..»

– أين هذه الورقة، اتراني كتبت حقا هذه الحماقات؟

– أجل يا برتران.. خذ وشاهدها بأم عينك..

– ما أغرب هذا! أقسم لك انني لا استطيع حتى ان اجد ذكرى الرجل الذي فكر هذا التفكير.. «وما وددت ان ابلغ الشيخوخة ابدا» وهأنذا يا ايزابيل العزيزة، على عتبة هذه الشيخوخة..

– أتراك غير راض عن الحياة؟

– كلا. بل انا سعيد ان اشيخ بقربك..

– وهذا يدل، يا برتران، على أنه لا ينبغي ان نموت حبا، ولا ان نستيئس من ظفر..

– اترين، يا ايزابيل، ان الامثلة تصلح ان تكون ادلة وبراهين. في دنيا العواطف كل شيء كان ممكنا.. ان مسعاك عند بياتريس كتب له التوفيق.. وكان يمكن كذلك ان يكتب له الإخفاق.. وكان هذا المسعى يمكن ان يقتلني..

– يجب أن نجازف.. وانك الان لاتم وأقوى ما تكون حياة.. ولكنك لم تقل لي ما ينبغي ان اجيب تلك السيدة الجميلة..

– ماذا عساها تريد؟

– ان ترانا.. في دعوة منا للغذاء او العشاء.. او ما تريده انت..

– ستروي لنا قصة رحلتها حول العالم.. بالي .. آنغور.. هونولولو..سيكون هذا باعثا على ملل قاتل.. جدي عذرا ما..

– مستحيل يا برتران.. ستحسب انني حاقدة.. ثم ان رؤيتها ستبهجني..

– وأي سرور ستجدينه في لقاء امرأة تقولين انت انها عذبتك عذابا شديدا؟

– هو السرور الذي يجده المرء اذ يرى نفسه فوق الارض الثابتة بعد قلقلة السفر في البحر.. ان مرأى بياتريس– وهي تذكرني بهمومي الماضية– يجعلني أكثر تذوقا ومتاعا بطمأنينة حياتي الراهنة.. ثم انني اجدها غاية في اللطف.. صديقتك تلك..

– هل تكرهينها؟

- كنت أكرهها يوم كانت تجري وراءك.. يوم كانت تعصف بك..يوم كانت تحتل منزلتي.. أما الان فهي في نظري امرأة لذيذة.. واعترف انك كنت ذا ذوق سليم جدا.. وهذا يسرني حقا..

- انك تعلمين يا ايزابيل، انني في هذه اللحظة متعب جدا واخشى ما أخشاه هو تلك الاحاديث العقيمة.. فلا تفرضيها علي..

- سأجنبك اياها كلها.. ما خلا هذا اللقاء.

- لن تقولي، يا ايزابيل، انه يجب ان استقبل السيدة «سولج» لارضيك وابهجك...

- بل هذا ما أقوله يا برترانا

فيرونيك اليبه (فرنسا)

صديقة

من خلال النافذة غمرت الشمس سجادة الارض والاثاث وطاقة زهر الليلكى كما غمرت قلبي.. وكانت النار تشيع الدفء في هذا كله ايضا.. وجلست أنا بين أشعة الشمس ولهب النار.. ورحت استنشق اريج الزهر ورائحة الشمع البكر الذي صقلت به أرض البيت الخشبية. انه بيت «برنار».. هذا البيت الذي حلمت سنين طوالا بأن أسكنه..

في هذا المساء يعود «برنار» الى بيته. وثمة متسع من الوقت لكي أصبو، على هينة ومهل، الى الماضي..

..كنا - برنار وانا- في السنة الاولى من سنوات دراسة الطب. وكنا عائدين من السينما وجماعة من الاصدقاء، والليل أخذ يرخي سدوله، ورذاذ المطر يبلل وجهي.

وكنت صامتة أصغي لصوت برنار يعلو غيره من الاصوات. وكان في صوته رنة لم اكن قد تبينتها من قبل. وكان انفعالي اشد من ان ادرك، منذ ذلك المساء، انني كنت احبه.. كنا، هو وانا، نقيم في حي واحد. وما اكثر ما كان تنقلنا هناك يجمع بيننا. وكنا نحب الكتب نفسها واسطوانات الموسيقى ذاتها، كما كنا نحب الجبل والريف. وكنت انا أقرأ ما في نفسه، ويقرأ هو ما في نفسي.. يقرأ كل

شيء الا هذا الحب القوي العميق الذي كنت اكنه له، والذي كان- منذ سنوات- يملأ حياتي حتى اكسبها كل وزنها وكل قيمتها..

قبل الامتحان النهائي ببضعة أيام قال برنار بلهجة جد طبيعية:

- سوف أتزوج وشيكا يا كلير..

كنا نسير جنبا الى جنب في الشارع.. كذلك المساء القديم الذي شرعت أحبه فيه.. الا ان المطر- في هذا المساء- ما كان يهطل على الارض الصلبة.. وكان الليل دافئا.. وجعل برنار يحدثني عن «نيكول». وكان يقول انها جميلة، وذكية وطيبة.. وانني لا بد ان احبها حين أعرفها.. شد ما كان قاسيا لا يدرك ما يقول..

وبعد ذلك أصبحت اراها معه كل يوم.. وما استطعت ان اجدها جميلة ولا ذكية، ولا طيبة.

كانت فارعة القد، سمراء اللون، فائضة البشر والمرح.. وكانت تزعم أنها مخبرة صحفيّة غير اني لم أقرأ لها أي مقال. وكانت تحب المجتمع، والحفلات وأحدث أنواع التبرج.. وكانت تبتسم متسامحة، متساهلة، لملابس برنار المهملة، ونشاطه وتحمسه لعمله كطبيب ناشيء في الحي ولحبه.. وهذا ما لم أطقه منها..

وفي ليلة خطبتهما نفسها، سألتها:

- لماذا تراك تتزوجين برنار؟

ولم تجب على الفور. وانما اتخذ وجهها سمة الرصانة الجادة ثم راحت تهمس:

- انه أفضل مني كثيرا.. منذ ذلك اليوم بدت لي أقل غباء.. انها، عبر

انزعاجها، تعجب به.. وعساها تحبه أيضا..ولكنني كنت أحس ان برنار لم يكن سعيدا، وكان موعد الزواج يقترب.. فكيف يسعه ان يفهم أخيرا؟ وخلافا لكل منطق تزوجها.. تزوج «نيكول».. وعلق أحدهما الاخر.. وارتبطا للابد.. وفي ليلة زواجهما رحت اجوب شوارع المدينة وطرقاتها ناضبة الدمع. زائغة القلب.. كنت أتألم.. وكنت قد أصبحت طبيبة لمدارس الحي.. وسأرى برنار أكثر الوقت.. وكان هذا يفزعني..

وكان مرضاه لا يتركون له وقتا للراحة في ليل او نهار.. وسرعان ما تسرب الملل الى قلب نيكول.. وجعلت تخرج وحدها، وتتمادى في ذلك أكثر فأكثر.. ثم سافرت. لا ريب في أنها تذرعت بعملها الصحفي. كانت قد طلبت من برنار ان يصحبها، ولكنه أبى. ان مرضاه قبل كل شيء.. حتى قبل امرأته نفسها.. الا انه ظل يتلقى فتاتا من حنانها، هذا الحنان الذي أضحت تقدمه له بحساب.. وكان هو يدفع، دون ان يرتعش له هدب، ثمن فساتينها وترفها واسرافها دون حساب.. وكنت أنا أجدها مبذرة، تافهة.. وكان برنار يبدو حيالها وجلا ودون ما حماية ابدا.. وكان موقفه هذا، اكثر من أي شيء آخر يقصي عنه نيكول.

لقد عمل دائما متواريا.. تائها بين كتبه.. عائشا مع مرضاه وكانت له روح رسول من الرسل.. اما هي فلم تكن لها روح تابع من التابعين..

وفي يوم من أيام السبت وجدت في صندوق بريدي رسالة قصيرة منه: «تعالي فانني بحاجة اليك».

وذهبت اليه، في بيته، ووجدته ينتظرني في مكتبه ضائعا، منسحقا، ومد لي يده بكتاب من نيكول تقول له فيه:

«لماذا نستمر يا برنار، في هذا التمثيل الزائف؟ اننا ولا ريب نشقى كلانا.. لقد حسبنا ان احدنا يحب الاخر.. ولكنني اجد انني اعذبك بقدر ما تسئمني..

فالافضل ان نفترق.. ولهذا فأنا راحلة الى الهند هذه الرحلة التي ستدوم ثلاثة أشهر.. والتي لم توافق عليها.. ولكنك ستوافق عندما تملأ رئتيك أخيراً بالهواء الطلق، كما كنا، أنا وأنت، نملأ رئتينا بهذا الهواء قبل ان نلتقي.. وكما غدوت ولا سبيل الى ذلك وأنا معك على الرغم من أني كنت احبك.. فوداعا.. ولا تبغضني..»

وفي خلال شهرين كان برنار يأتي ليصطحبني لدى خروجي من عيادتي.. حتى لقد أهمل عمله، لا لشيء الا لكي يحدثني عنها.. واستعدت معه في كثير من الرقة والعذوبة صداقتنا القديمة.. ولكن عبثا انتظرت ان اجد في صوته ذلك السأم الذي لا يريد ان يأتي.. انه لا يزال يحبها دائما..

والان.. فقد اخفت الشمس سحابة.. وغدا الجو أقل دفئا.. فأرثت النار.. ولن يلبث برنار ان يكون هنا..

ومن جديد أحس بهذه الصدمة وبهذا الخوف وبهذا الالم.. كان قد مر على الحادث الذي وقع خمسة عشر يوما.. ولكن يبدو لي كأن ذلك كان في الأمس فقط:

كان برنار ينتظرني في وقت خروجي من عملي. وركبت معه السيارة.. فابتسم لي وانطلق بالسيارة صامتا. ثم قال:

– بعد شهر ستعود.. اتراها تأتي لتراني؟

وبدا لي صوته دافئا.. فهل أصبحت نيكول ذريعة للقاءاتنا؟ كان الجو لا يزال باردا، وقد تأخر الربيع.. وكنت قد سئمت تلك الايام المتشابهة التي كانت تطول وتتصرم الواحدة تلو الاخر دون ما خطوة زائغة.. دون ما جديد.. وما ادري الا انني ارسلت صرخة مدوية وسط قعقعة صدام محطم عنيف مروع.. وفتحت

عيني لارى برنار منكفئا لا حراك فيه فوق مقود السيارة.. وتجمعت حولنا جمهرة من المارة.. ثم أغمي علي..

وفهمت، فيما بعد، ان سيارة نقل تعطلت كوابحها فصدمتنا بعنف، ولم أصب انا بغير رضوض، أما برنار فقد نقل الى المستشفى وبقي فيه تحت المراقبة.. وانا أعلم الان انه بخير.. رفي هذا المساء يعيدونه الي.. ولكني، منذ خمسة عشر يوما، ما فتئت ارتجف خوفا عليه.. واني لارعاه واسهر عليه.. أحبه..كما أحببته في السابق.. اني ما عدت اخفي هذا.. لقد كان وجهه يستضيء كلما زرته في المستشفى.. وما كان هذا بداعي الصداقة وحسب.. انه لا يذكر «نيكول» الان، لا يذكرها في حديثه ابدا.. رلقد ابرقت لها بالحادث.. ولكنها لم تجب.. وبارکت صمتها في أعماق قلبي..

انني الان وحدي. وما عادت بي من قوة لاكافح ضد حبي.. انني اشعل المصباح واضع كوبين للشاي فوق نضد خفيض ووعاء السكر وتلك الباقة الصغيرة من ازاهير البنفسج التي اشتريتها منذ قليل.

وعلى حين غرة تصافح سمعي قرعة الجرس الصغير..ويخفق قلبي بشدة بالغة.. افتكون قد حانت الساعة.. وأهبط سلم البيت رافتح الباب..

ولكن من أرى؟ انها «نيكول».. واستند الى الباب.. ولا اجد ما أقوله لها.. ماذا تراها أتت تريد؟ لقد سبق وأخذت كل ما يخصها.. وانه ليبدو عليها انها تعبة.. وتدخل دون ان ادعوها الى الدخول.. ولكن.. صحيح.. انها في بيتها! وتجلس قريبا من النار.. وتنزع قفازيها.. ثم تقول في أسى:

- كيف حاله؟

- بخير.. وشكرا.. ولكنها لا تأتي بأي رد فعل.. بل تمضي قائلة:

- عدت في اول طائرة.. كنت أخشى ان اصل متأخرة جدا..

- ولكنك تأتين مبكرة جدا..

وترفع رأسها في دهشة.. انها لا تدرك.. ما فيها من سوء وانما هو ذهول مطلق عن كل اهتمام بما يتعلق بها.. وتابعت تقول وهي تنظر من حولها..

- اشكر لك ان قمت بتعهد البيت.. وبرعاية برنار.. متى ترى يعود من المستشفى؟

- بعد ربع ساعة..

فتنتفض.. وتنهض.. فتنظر في المرآة.. وتتزين.. ثم تنظر الي أنا.. محرجة.. أجل هو ذاك .. وتعود من جديد فتجلس قرب النار.. انها متعبة وحسب..

وأترك انا الحجرة.. واذهب في هذا الليل الذي يغمر الحديقة..

ماذ تراها تريد؟ انها امرأته.. وستظل كذلك.. ولهذا السبب عادت وفية، واقل سوءاً مما كنت ارجو.. ومع ذلك اذا كان برنار لا بد ان يختار الان..اترى اكون انا التي يحبها؟ سيجدني هنا انتظره عند باب حديقته.. وعندئذ سيأخذني في احضانه برفق.. واذهب انا به دون مشقة الى بيتي..

ولكن ايكون هذا سرقة.. كانت نيكول قد تركته.. نيكول زوجته التي تنتظره الان بمسرّة وراء النوافذ المغلقة، نيكول التي يسعها ان تظل- لو أردت أنا- الحب الوحيد في حياته.. الحب الوحيد كهذا الخاتم الذي وضعه في اصبعها ذات يوم..

انني خائفة.. خائفة من نفسي.. أفأكون شجاعة وابقى على حبهما بارادتي انا، اترى اكون شجاعة فلا أدمر هذا الحب؟ وفجأة أهرب.. وتمر سيارة اجرة فأستوقفها..

وانا ادرك الان انها بطولة ان اريد البقاء: «صديقة» وحسب.. لا ريب في أنهما الان في حجرة الاستقبال.. وبخار الشاي يتصاعد من كوبيهما.. وستكون هي رفيقة معه اذ انها قد رجعت اليه.. وهو.. انه سيأخذها في أحضانه..

فيرونيك اليبه (فرنسا)

أماه !

المرأة العجوز تتكلم وقد رفعت وجهها نحو «فلورانس»، انني لا اسمع كلماتها ولكنني اراها، ألمسها، وأجد ان لها عذوبة شعرها الاشيب الفضي، وزجاجة عمرها الطويل. وتصغي «فلورانس» الى هذه الكلمات، ويبدو في نظرتها التأثر العميق، تأثر اولئك الذين يتلقون الكلمات الطيبة. وأبي هو الاخر يلقي بسمعه الى المرأة العجوز وينظر الى فلورانس. ان وجهه هو وجه الحب نفسه، وخلفهما ينهض الوعاء الصيني النفيس الموضوع على حافة المدفأة ذات قطوف وأرج..

ان جماعة من الراقصين والراقصات ينقلون خطاهم الرشيقة وسط عبير الازهار، ودخان السكائر، والاحاديث المتبادلة، والنظرات المتألقة. ولقد ذهبت المرأة العجوز، ولم يبق أمام الوعاء الصيني الذي يضم باقة زهر العسل غير أبي.. أبي الذي ينحني الان نحو فلورانس ويحدق فيها النظر دون ان يتكلم، ثم يضع راحة يده على خصرها، ويمضي بها بين الراقصين..

ابن عمي «جاك» مال بقامته نحوي وراح ينظر الي، انه يوشك ان يدعوني الى الرقص من جديد. كلا.. ان قلبي لا يطاوعني... فأترك القاعة وأصعد الى غرفتي حيث انضو ثياب الرقص واخلع حذائي ذا الكعب العالي.. وعندئذ تزول

ارتعاشة الرقص التي كانت تخفي عني ألمي.. وسرعان ما أرتدي مبذلا، ثم انظر في مرآتي، وأعقص شعري اربعة أو خمسة دبابيس، عندئذ أحس انني اريد ان ابكي..

حقيبتي معدة، وتنورتي معلقة تنتظر، وأنا أهيء نفسي للسفر، فهل ثمة شيء من سوء تفاهم؟ هل أنا هي التي تزوجت منذ قليل؟ ولكن لا سبيل الى زواج بدون زوج.. ولا يمكن ان اكون عروسا وحدي.. وأنا أحس الليلة اني وحيدة.. ولقد غدوت امرأة وما أزال في الوقت نفسه طفلة.. ولكني امرأة لا زوج لها، وطفلة دون أب.. وأبي في القاعة، تحت، لا يدري انني وحيدة أبكي من قسوة الوحدة.. وفلورانس الفريدة، التي لا يملأ مكانها أحد، فلورانس التي اكتشفتها في قيعان الاودية وكأنها زهرة خرقت برأسها طبقة الثلج وطلعت.. فلورانس صديقتي: هي الاخرى لا تحس بوحدتي.. انها الان يهدهدها الحنان الذي فقدته ثم وجدته.. انها ترقص وأنا أبكي.. أجل فلورانس عروس هذا اليوم .. عروس ابي..

واظل قائمة وسط غرفتي. هل هي الموسيقى التي تجعلني اتماسك هكذا؟ ربما كان هو الحزن، وانني لاتشبث بالموسيقى مرة وبالاسى مرة تشبثي بهذين اللذين شد ما يخيفني ان اغادرهما او افقدهما اليوم! وأقترب من النافذة، واتكيء بجبيني على زجاجها، ومرة أخرى ارى بعين خيالي كيف بدأ كل شيء..وكيف يمكن ان ينتهي..

كان ذلك في يوم بارد ماطر في أواخر أيام الاجازة أيام الاجازة المدرسية، وكنت اتثاءب من الملل، فقد قرأت كثيرا، وتصفحت كتبا، وأغفيت، وحلمت حتى امتلأت عيناي وامتلأ رأسي بصور جميع الاودية والسفوح والتلال التي رواها المطر، وراحت تتراءى لعيني، من وراء زجاج النافذة، خضراء مزدهرة وصاعدة هابطة الى ما لا نهاية.. ثم علق نظري ببناء طاحون «بارو» القابع كعش

صغير بين العشب حيث يتلوى النهر كأنه حية تسعى..

وكان بناء الطاحون مسكونا، وكنت أنا أعلم هذا، فقد تحدثت به القرية كلها، وكانت تقيم فيه امرأة وحدها. كان زوجها قد قضى نحبه بعد بضعة شهور من زواجهما، وكنت أعلم أنها تؤلف كتبا، فأحببت أن أعرفها.. وعلى حين غرة تملكتني الرغبة في أن أقطع اليها هذا الوابل من المطر الذي يفصل بيننا.. فنهضت ورحت أهبط السلم ركضا، ووضعت على كتفي فراء الراعي على صدر سهول فيحاء. وانطلقت الى تلك الناحية التي يتلوى فيها النهر، واجتزت الجسر، ومررت تحت النوافذ المزدانة بستائر بيضاء نقية ناصعة وطرقت الباب، فانفتح على الفور، فأدهشني الامر حتى سمعت المرأة الشابة تقول:

- كنت انتظرك..

كانت جميلة، جميلة من قمة رأسها حتى أخمص قدميها.. جميلة كنور ساطع.. وقلت:

- انا ابنة ذلك البيت- هوتروك-

والقيت بنظرة الى بيتنا القائم في رأس ربوة عالية. وقالت هي:

- اعرف ذلك..

وأخذت عن كتفي فراء الراعي الذي يتقطر منه الماء، وعلقته قريبا من الباب، ثم فتحت بابا آخر، هو باب المطبخ القديم في بناء الطاحون، وكانت فيه مدفأة حجرته تحتل نصف الجدار وتتعالى فيها السنة اللهب، وكأنما ارادت ان تعتذر عن اشتعال مثل هذه النار في شهر أيلول فقالت:

- أشعلتها لكي تتجففي..

ثم ضحكت وعادت تكرر قولها:

- ما دمت كنت في انتظارك

وجلست أنا قبالة النار ولم أقل شيئا خشية ان ادمر هذا الانجذاب الذي تراءى لي أشبه ما يكون بوجود أمي التي لم يقدر لي ان اعرفها قط.. وقدمت لي المرأة الشابة حليبا ساخنا وشطائر من الخبز المقمر المدهون بالعسل الاشقر..

ولما خرجنا من بناء الطاحون كان الليل قد لف الوجود كله... والان فانني أبتعد عن النافذة، والموسيقى تعود فتحتويني وتهدهدني فأكاد أتهاوى.. ولكن ها هو سريري يرحب بي، فألوذ به كما كنت افعل في الماضي لكي أبكي... واتذكر..

وفي الغداة صعدت التل الى بيتنا.. وكان ابي قد انطلق يعود مرضاه، ولما فتح لها الباب تأدى الي صوتها الدافيء اللين، فهبطت درجات السلم اربعا أربعا للقائها، وقالت:

- انني أنا فلورانس..

لقد سحرني ان اعود فأراها بهذه السرعة، واجدها مماثلة تماما للصورة التي لم تفارق خاطري منذ يوم أمس..

وجعلت تنظر حولها، ووجدتني متلهفة على احساسي بالسعادة التي نعمت بها في مبنى الطاحون: الاعمدة الخشبية الواطئة، الجدران المبيضة بالكلس، النار التي كانت تتوقد في المدفأة.. أما هنا فان الجدران جد عالية بين طابق وآخر، والقاعة تمطى وتتسع طولا وعرضا بأرضيتها الخشبية المصقولة الملمعة ،حتى ليكاد المرء يرى صورته معكوسة عليها.. وعلى حين غرة شعرت بالوجل والتهيب

حيال صور أجداد أمي المعلقة على الجدار في اطاراتها المذهبة، وهذا الاثاث الفاخر الذي يرجع الى القرن الثامن عشر والذي اختاروه هم وظل محفوظا لي انا الى اليوم.. وانتظرت ان تتكلم فلورانس، واخيرا قالت:

- ما أحلى الحياة هنا.. انه ليخيل الي انني عدت الى بيت أمي وأبي..

فالتفت اليها فوجدت في عينيها هذه النظرة التي اعطتني اياها منذ لقائنا الاول يوم أمس. فزال ارتباكي تماما وعرضت عليها قائلة:

- أتريدين ان تشاهدي البيت؟

- أوه! أجل.. أجل.. ما اكثر ما رأيته في خيالي...

وابتسمت لي، فذهبت بها الى غرفتي..

يبدو بيتنا، من الجنوب، بناء متجهما رابضا فو ق ربوته، في غمر من أشعة الشمس، وأمامه الفضاء المترامي، وتنداح حديقته التي لا سور لها حتى تتصل بما ينبسط حوله من سهل مريع وأودية ذات قيعان مزدهرة... انه بيت أمي الذي ورثته عن آبائها.. أما من الشمال فهو بيت«برجوازي» هادىء مستكين يمارس فيه والدي مهنته كطبيب فتتجمع من حوله القرية كلها حتى تصبح معه وكأنهما جسد واحد... وأنا ابنة هاتيك الاودية والسفوح والتلال، وابنة هذا الرجل في آن واحد...

ودرت بفلورانس في غرف المنزل جميعا، ولما دخلنا حجرة ابي أريتها صورة شاحبة، باهتة هي صورة امي.. ولاول مرة في حياتي وجدت الجرأة لكي اتسا ءل قائلة:

- لماذا تراها ماتت.. وأنا ما أزال في أشد الحاجة اليها؟

وبعد فترة صمت أجابت فلورانس ببطء:

- لست ادري.. انا نفسي تساءلت أياما وأياما بعد وفاة زوجي: لماذا تراه مات؟ لماذا ولم اكن في غنى عنه؟ والان فانني تعلمت ان اعيش وحدي.. غير انني ما ازال لا أعرف الجواب عن هذا السؤال ابدا..

كان من صفاتها هذه الصراحة النادرة المثال، المطمئنة، التي لا نجدها كثيرا عند الكبار من الاشخاص، والتي لا تزعم ان لكل سؤال جوابا عندها..

كانت اجازتي المدرسية قد تقضت الا من ايام قليلة متبقية.. وقالت لي ذات مساء:

- لماذا تأخرت كثيرا قبل ان تأتي لزيارتي في مبنى الطاحون؟

وأجبتها:

- ولكن.. انت نفسك.. لماذا لم تصعدي من واديك السحيق لزيارتي؟

- كنت انتظرك..

وانه ليخيل الي انني أعيش مرة أخرى تلك الايام الاخيرة التي تصرمت. كنا ننطلق معا، وقد استبد بنا الجوع والظمأ الى الفضاء الرحيب والرياح الهوج، ولا يحول دون هذا حائل من مطر أو سحب حبلى مربدة.. وكنا نضرب في كل اتجاه، وكل مكان، فنحن فوق القمم الشامخة مرة، وفي احضان الاودية مرة اخرى، وعند مداخل الغابة حينا، وعلى الجسر الكبير حينا آخر.. هكذا دائما في الفضاء الرحيب، وتحت سماء عارية لا حدود لها، ولا نكاد نتلاقى، الا نادرا، في بيتها او في بيتنا.. فقد كانت هي تريد ان تنطلق هذا الانطلاق بعد عكوفها ساعات وساعات على تأليف كتبها... وانا كنت اريد، في اطواء نفسي وقرارة روحي، ان

احتفظ بها لي وحدي.. بعيدا عن أبي، وعن الناس أجمعين...

هل كنت جزعة خائفة؟ لست ادري. لقد كان هذا كله منبعثا من اللاشعور، ومن قوة غامضة لا ادركها، وما حاولت ان اتبينها الا في هذه الليلة.. ليلة زفافهما التي تركتني وحيدة.. مضعضعة..

وكانت قد اعطتني جميع مخطوطاتها فانطويت على نفسي ورحت أقرأها في غرفتي، ولقد وجدت فيها حقيقتها، والنور الطاغي المنبعث منها.. لقد وضعت نفسها كلها في مؤلفاتها في هذه المؤلفات كما رأيتها وعرفتها: جميلة، رائعة خلابة، في مبنى الطاحون.

وجاء يوم العودة الى المدرسة فغادرت الهواء الطلق، والسماء العريضة ومنزلنا، وفلورانس.. وعدت الى المدينة.. ومن المدينة جعلت ابعث الى فلورانس برسائل مطولة أصب فيها موجا من الذكريات، والمشروعات، والافكار، والآراء، التي لا نهاية لها.. وكأنها أشبه ما تكون بشلال الماء المنصب فوق دولاب الطاحون في بيتها .. وكانت هي تكتب الي رسائل مقتضبة، مركزة، ساحرة المضمون، منبثقة كلماتها من القلب كما تنبثق ازهار البرية من طباق الثلج المتراكم..

أعادني عيد الميلاد الى قريتي، ذات الشجر الذي تعرى اخيرا فتبدى في اشكال غريبة فاتنة متمايزة يحيط بها عشب الشتاء الوحشي.. وعدت فوجدت منزلنا، وأبي، وقد غمر قلبي سرور لا عهد لي به.. ومنذ اليوم الاول من وصولي تحرر والدي من مرضاه بأسرع ما وسعه ذلك، وجاء ليراني في مكتبة البيت وسألني عن عملي، وعن رفيقاتي، ثم تابع حديثه عن عمله هو، وعن القرية، وعن عيد الميلاد الذي كنا نستعد للاحتفال به في الغد، وقال فجأة:

- فكرت اني سأبعث السرور في نفسك بدعوة فلورانس لتقضي ليلة العيد

معنا..

فلورانس! انه يدعوها هكذا دون تكلف.. كنت في الصيف الماضي قدمتها له على عجل، وحدثته عنها قليلا جدا، وكنت جد مبتهجة ان يكون ابي لي وحدي طيلة ليالي اجازة الشتاء هذه.. وان انفرد بصديقتي فأجدها جالسة عند مدفأتها في مبنى الطاحون بعد ظهر كل يوم.. ولكن ابي شوش هذا كله، وأفسد عليّ مسرتي.. كنت لا أريد أن نكون ثلاثتنامعاً،وانماميتغاي أن أكون معه مرّة، ومعها هي... معها هي وحدنا مرة..ولمح أبي خيبة أملي فقال:

- ألست مسرورة؟

- بل انا ولا شك مسرورة..

غير ان ضوء النهار بدا لي كالحا من وراء زجاج النافذة.. ومن وراء اول يوم من أيام اجازتي..

وجاءت فلورانس فقبلتني بحنانها الذي أعهده فيها، وسلمت على أبي سلامها على صديق مألوف.. واذن فهما قد تعارفا جيدا.. راني لارى بينهما ما هو أكثر من لقاء سريع في فترة فراغ متاحة بين مريض ذاهب وآخر مقبل من زبائن والدي.. وأدركت أنه يحس حيال فلورانس من السحر والروعة ما أحس به أنا.. وتبينت ذلك من اضطرابه ازاءها، ومسرته التي يداخلها الارتباك .. وبما اكتشفته من عودة الشباب اليه.. فغدا هكذا متألقا، نشطا، خفيفا، نضر المحيا، حلو النظرة.. وعلى الفور أحسست بصدمة هزت كياني وابتردت لها اطرافي جميعا.. وما استطعت ان اوجه لهما أي سؤال.. ثم أي حق لي في ان اقتضيهما أي حساب؟.. واجتمعت بعد ذلك بفلورانس في مبنى الطاحون، وحدثتني عن والدي بمودة ظاهرة جرحت قلبي.. وردتني الى شعور بالوحدة ما عانيت مثله من قبل.

عدت الى مدرستي الداخلية مسكينة، يتيمة، وقد فقدت ايضا صديقتي.. وجعلت أحلم بلقاءاتهما.. وأسأل نفسي: أهو ابي يذهب الى مبنى الطاحون؟

ام ان فلورانس هي التي تصعد الى منزلنا؟ ولكن هذا كله ما كان ليكربني اكثر من نظراتهما التي تطفح حبا..

وكنت أرى في منامي، كل ليلة، حلما واحدا لا يتغير: نسير ثلاثتنا معا نحو الجسر الذي لا حواجز له. ولا يتسع لغير اثنين يسيران فيه متحاذيين.. ونتقدم ثلاثتنا، ثم لا يعود ثمة مكان لغير أبي وفلورانس فيمران معا واسقط أنا في مياه النهر لانه لا مكان لي بينهما.. ويستمر ابي وفلورانس في سيرهما دون ان يلتفتا الي.. وأظل انا أصرخ واستغيث.. ثم أصحو من نومي..

وساءت دراستي، وعدت لا أكاد اتناول شيئا من طعام.. وكتبت الى ابي انبئه بأنني لن ارجع الى البيت في اجازة اعياد «الكرنفال» متذرعة بتأخري الطارىء في الدراسة.. وأجابني والدي دون ابطاء وأصر ان أعود، وقال انهما- هو وفلورانس- يدخران لي نبأ عظيما سيملأ قلبي سعادة ومسرة.. وانفجرت باكية بعد أن قرأت هذا الجواب.. وانسابت الدموع على وجهي.. كما تنساب الآن.. في هذه الليلة. وها هي شهقات الاسى تعاودني. لقد انتهى كل شيء، ولن أكون قط روح هذا البيت.. ان شهقاتي تتضاعف.. سأرحل في القطار، يجب ان ارحل والا افلت مني موعد هذا القطار..

انني أوقت الزمن وأنا قابعة في سريري.. لا ازال اتشبث ببضع لحظات اخرى، هي الاخيرة بالطبع، وأنا لائذة في قرارة طفولتي، دون أن اتحرك، دون ان أفكر، دون أن أتألم.. وأنا مغمضة العينين..

الموسيقى صمتت... اصوات تتهامس من حولي.. وثمة خطوات تقترب.. ويد احدهم طامنت من حدة النور الساطع.. واني لاسمع صوت فلورانس تقول

لابي:

– دعها .. دعها.. لقد جرحناها جرحا بالغا هذه الليلة.. ولن تكون من بعد طفلة..

لقد ادركت.. اجل.. قد فهمت مرة اخرى..

أبي ينسحب، وتبقى هي لحظة اخرى بقربي.. اوه! ليتني كنت ما ازال في العاشرة من عمري ،اذن لارتميت في احضانها وهتفت: «أماه!».. ولكن لا.. لا استطيع.. وهي التي قالت: «لن تكون من بعد طفلة..» وانما يجب ان نبقى صديقتين.. قد يمكن هذا معها.. انه ممكن.. معها.. هي.. لقد أطفأت النور، وما يجب ان يقال أي شيء آخر.. سأنام هنا هذه الليلة.. وهنا كل شيء.. وغدا ارحل.. ربما من يدري؟!.

جنيت نوبلانش (فرنسا)

وداع المرأة المجهولة

بتؤدة وتمهل نزعت المرأة الشابة قفازيها فبانت يداها البديعتان، وأصابعها المستطيلة الدقيقة، وأظفارها المصقولة اللامعة. ثم وضعت القفازين الى جانبها على المقعد، وراحت تفك ازرار سترة «التنورة» التي ترتديها والمصنوعة من «التويد» وفيما هي تتغنى بلحن حديث اجالت المشط في شعرها فأعادت اليه ترتيبه وتناسقه، وكان لشعرها شفافة ولين يلائمان تماما الوجوه الشابة النضرة كوجهها هي. انه وجه امرأة في الثالثة والعشرين او الخامسة والعشرين، يعكس البراءة واللامبالاة معا ممتزجتين بشيء من الحيوية والانطلاق. واخيرا جلست مرتاحة في المقعد الذي احتلته وحدها في مقصورة القطار المنطلق بسرعة نحو مدينة «تولوز».

كان المسافرون قلة نادرة في ذلك الوقت من السنة وفي اواسط الاسبوع، فلا يكاد المرء يجد ظاهرة خاصة تلفت نظره، وهكذا فقد أصبح في وسعها ان تفيد من هذه الساعات القليلة التي تستغرقها الرحلة فتسترخي وترتاح تماما، ذلك ان السير المستمر في ممرات قطار «المترو» بباريس، والساعات العديدة التي قضتها في العاصمة وهي تتنقل بين المحلات الكبيرة لشراء ما تحتاج اليه قد أجهدتها حقا، وانها لمفتقرة جدا الى الراحة والاسترخاء.

بعد ان القت نظرة سريعة على ما يبدو لها من مناظر الضواحي الباريسية التي تعرفها جيدا، راحت «هيلين» تتأهب لاغماض عينيها، وعندئذ استرعت انتباهها ورقة بيضاء مطوية ومتروكة على المقعد المقابل. وقد يكون هذا امرا عاديا او مبتذلا، الا انها كلما حدقت النظر في الورقة ازدادت يقينا ان فيها شيئا خارقا، ومن هنا كانت شدة انجذابها اليها. واستوت هيلين في جلستها وتناولت الورقة وهي تفكر: «ربما.. ربما.. من يدري؟..» ثم بسطتها فوجدت ثلاث وريقات مخطوطة يبدو منها جميعا انها رسالة واحدة قد اضاعها او أنسيها أحد المسافرين. وبدافع غريزي عادت فطوت الوريقات الثلاث فقد كان الكتمان من طباعها وكانت تتحرج جدا ان تقرأ ما لا يخصها. ومضت لحظات عاودت خلالها التفكير وقالت في نفسها: «الافضل ان اطلع على ما في الرسالة، فربما اعانتني مطالعتها على اعادتها الى صاحبها» واجالت عينيها في اسطر الرسالة بتهيب، وارتباك كاد يبلغ حد الاضطراب وهذا ما قرأته في الرسالة:

«انت ايها الانسان الذي أجهل من هو، عندما تقرأ هذه الكلمات، فلن اكون-دون ريب- من هذا العالم الذي يدعى عالم الاحياء. انني منطلقة في هذه اللحظة نحو مصيري، ولكي أهدىء من جزعي فأنني أجد حاجة ملحة، في هذه اللحظة بالذات، ان أبوح لاي كان بما أحس به. وان هذا ليمدني بالعون ويخفف عني ما أعانيه ويريحني. انا امرأة مريضة مرضا موتسا لن ابرأ منه. وقال لي الاطباء ان حظي من الشفاء ضئيل جدا لا يعدو الواحد في المئة، اذا اجريت لي عملية جراحية. فلا بارقة لي من امل اذن، وما جدوى الاتكال على المصادفة، والمصادفة ما خدمتني طيلة حياتي مرة واحدة. وكان في وسعي ان لا احاول شيئا، وان أقبل ايامي الاخيرة الباقية لي في الحياة على علاتها ثم تنتهي أيامي نهايتها الخفية وانا في سريري وحولي وجوه احبائي المتشحة بالحزن رغم ابتساماتهم المغتصبة. ان زوجي وابنائي واحبائي كلهم يجهلون الحقيقة المروعة. لقد كانت رحلتي هذه في نظرهم ليست اكثر من رغبة مني في دخول احد

المستوصفات لكي اوضع تحت المراقبة الطبية لبضعة أيام وحسب، وعندما انتهى الفحص الطبي وعلمت الحقيقة فاني لاكذب اذا ما زعمت انني تلقيت النبأ بشجاعة.. كلا، فقد خفت، خفت خوفا شديدا، حتى لقد ارتعد بدني من الخوف.. ودام هذا لحظات طوالا.. ثم، وشيئا فشيئا، استبان لي ان آلامي يمكن اختزالها.. وفكرت في ذلك الحظ الضئيل المتاح لي، فتشبث املي فيه وكأنني شخص محكوم عليه بالاعدام،لكنه يظل موقنا بالعفو عنه حتى اللحظة الاخيرة التي تسبق اعدامه. وهذا، على التأكيد، من طبيعة الانسان، وانا لست اكثر من مخلوقة مسكينة شأن الاخرين، لا افضل منهم ولا أسوأ. ومع ذلك فاني اعتقد انني أفلحت في هذه الايام الاخيرة في التغلب على خوفي حتى اللحظة الراهنة، هذه اللحظة التي يحملني فيها هذا القطار عبر نفق لن اخرج منه حية... وعاودني الخوف من.. ان نظري لا يستطيع ان يثبت للمناظر التي يطويها القطار طيا اذ لحظات من حياتي تعلو هذه المناظر وتحجبها عن ناظري فلا ارى غير هذه اللحظات.. ويتراءى لي مولد ابني البكر، والفرح الذي غمرني بمجيئه الى الدنيا.. شد ما كنت اراه جميلا.. وبا لروعة الذكريات التي استشعرها الان، والتي كانت توهب لي في كل عيد ميلاد له.. انني كلما فكرت في هذا كله احس كأنني واقعة تحت تأثير مهدىء يغوص بي في لجة من حلاوة وتنغيم وتطريب.. ويعتريني الحنين الى تلك الاويقات الهانئة فأتمنى أن أعيشها ثانية.. واستشعر انني سأكون اكثر قدرة على تذوقها والمتاع بها، لان من خصائص بني الانسان جميعا انهم لا يتذوقون تذوقا كاملا مسرة اللحظة الراهنة، وانهم لا يتفطنون الى روعتها وشمولها الا بعد انقضائها وفوات الاوان.. وكنت اريد، قبل مغادرة البيت، ان اوصي اولادي بما ارى كما يفعل كل الذين يقومون برحلة طويلة، غير انني لم اجد الشجاعة فماذا تراهم كانوا يظنون؟ ان القلق والاسترابة كانا خليقين ان يملآ تفكيرهم، ومع ذلك فاني لاحب لهم ان يكونوا رجالا بواسل، أقوياء في الخصام، شرفاء في المعاملة، جادين في عملهم، وطيبي القلوب، فان والدهم وانا

قد نشأناهم وفق هذه المبادىء، واني لاعتقد اليوم، ان تنشئتنا هذه قد آتت اكلها ولا ريب. غير ان الحياة مليئة بالمكايد والفخاخ المنصوبة التي كنا نجهلها او نتجاهلها ونحن بعد في طراوة العمر رغم تحذير من هم اكبر منا سنا. وإني لاحب لهم- اذا ما ترددوا ذات يوم في سلوك الطريق التي يجب ان يسلكوها- ان يتكهنوا بما كنت انصح لهم به لو كنت على قيد الحياة. وانا لا أزعم انني بلغت حد الكمال.. لا.. وانما اعتقد ان في وسعي ان اقول انني بذلت الكثير من الارادة الطيبة في كل ما كنت انجزه.. وانت يا من سيقرأ هذه السطور: انني اجهل ما يكون حكمك علي.. فربما ضحكت.. وربما هززت كتفيك معتقدا ان التي كتبت هذه السطور قد فقدت توازنها.. اما اذا كنت رهيف الحس، رقيق القلب، او كنت قد بلوت الالم وعرفته فقد ترثي لحالي.. ولكن ما اهتمامي بما عسى ان تفكر؟ انني الآن أقل خوفا..»

رفعت هيلين رأسها، وكان الانفعال قد انعكس على محياها فشحب لونها مما قرأت، فأرسلت نظرة تائهة على مناظر الريف التي يمر بها القطار.. واذن فقد كانت هي التي اختارها القدر لكي تكون القارىء المجهول لرسالة تلك المرأة المنكودة الحظ.. كانت هيلين أشدّ اضطرابا من ان تستطيع تحليل عواطفها في هذه اللحظة.. وبدا انها عاشت، على الرغم منها، اللحظات المؤثرة التي يعيشها المحامون والكهنة الذين يتلقون الاعتراف. وفكرت دون ان تأتي بحركة:

«لقد عرت تلك المرأة المجهولة نفسها تعرية تامة..» وعلى حين غرة اشتهت ان تبكي.. وعندئذ نهضت وانزلت زجاج نافذة القطار فدخل تيار من الهواء في المقصورة فعبث بشعرها وارغمها ان تسبل جفنيها.. وبهدوء أخذت الوريقات وراحت تمزقها برفق وبما يكاد يكون تعظيما واجلالا.. ثم ارسلتها من نافذة القطار مزقا صغيرة تطايرت مع الريح بحركة بطيئة راقصة، وانيقة حزينة في آن واحد،كأنها ورق الشجر في الخريف ذهبت بها الريح، ثم حطت بهدوء فوق سياج

من الزعرور كان يمتد في تلك الناحية، على طول خط السكة الحديدية، فأتبعتها هيلين نظرها هنيهة وكأنها أشلاء ذلك البوح المؤثر، ثم بدت، من بعد، أشبه ما تكون بزهرات، زهرات صغيرة، دقيقة، بيضاء.

وعادت هيلين لرفعت زجاج نافذة القطار، ورتبت خصلة من شعرها كانت قد تهاوت فوق عينيها، وجلست وقد أمالت رأسها وأغمضت عينيها، وراحت تستعيد في ذاكرتها ما قرأته في تلك الرسالة.. حاولت ان تتصور شخصية المرأة المجهولة صاحبة الرسالة. وبدون أي سبب تراءت لها تلك المرأة سمراء ذات محيا رقيق وهي، ولا شك، زوجة وام عطوف خلقت لكي تشيع من حولها الحب والحنان، ولا ريب في أن وجهها الدقيق المعارف قد ترك المرض فيه ميسمه.. وماذا ترى كان مصيرها؟ هل هي أفادت من ذلك الحظ الضئيل الذي تبقى لها.. ام تراها..؟

وفكرت هيلين بالآلام والاوجاع التي لا تحصى، والتي لا بد انها منبثة في انحاء العالم خفية، مجهولة، لا يعلم بها احد.. وعندئذ أحست انها تقدمت في العمر بضع سنوات، وكأنها هي نفسها قد عاشت بعض مأساة تلك المرأة التاعسة!

وتراءى لها ان بلهنية شبابها قد غاضت وامحت.. فهل يكون هذا هو ما يسمونه تجارب الحياة!.. كانت السماء، في الخارج، صافية زرقاء الاديم، والشمس أخذت تميل الى المغيب ببطء والقطار يتابع رحلته الى مدينة «تولوز» بدقة ونظام وصلابة كأنه لعبة نموذجية للاطفال..

على حين غرة قرع باب المقصورة ثلاثا فانتفضت المرأة الشابة وثابت الى نفسها، فانفتح الباب وسمعت صوتا يقول: «تذاكر.. تذاكر..» وبدا لها مراقب التذاكر أنيقا، معتدل القامة في بزته وهو يقوم بمراجعة تذاكر المسافرين قبل وصول القطار الى المحطة المقبلة. ومدت له هيلين يدها بتذكرتها تائهة النظر.

غائبة الذهن، فشقبها الرجل ومضى واعادتها هي الى محفظة جلدية لم تعلقها.. وتلبثت نظرتها تتفحص صورة فوتوغرافية داخل المحفظة، انها صورة شاب جميل، بهي الطلعة، وابتسمت هيلين لهذه الصورة، وبدا لها «برنار» في بهرة خيالها.. لقد تعارفا منذ سنوات طوال، ودرسا الحقوق معا في الجامعة قبل ان تفرق بينهما الحياة.. وغدا الشاب من بعد محاميا لامعا، في حين استطاعت هي ان تشق لنفسها طريقا في دنيا الصحافة.. وقد اتاحت لهما هذه المصادفة ان يستعيدا ذكرياتهما المشتركة، وحوادث حياتهما الجامعية، وتولدت بينهما، على الاثر مودة عميقة. وقد التقيا كثيرا فيما بعد، وكان واضحا ان برنار انجذب الى هذه الفتاة الجميلة، الذكية، المثقفة.. وهيلين- من- ناحيتها- أحسّت بصداقة قوية لهذا الفتى، ولهذا السبب كانت كثيرا ما تقبل دعواته التي يوجهها اليها ، فكانا يذهبان معا الى المسرح او السينما او يجلسان يتحدثان في أحد المقاهي كلما اتاحت لهما ذلك ظروف عملها. وبكلمة موجزة فقد غدا برنار فارسها الذي لا يفارقها.. ويوم طلب منها ان تتزوجه لم يفجأها الامر اطلاقا. ولم تجبه هي بالرضى اجابة سريعة، عفوية، وانما سألته ان يمهلها مدة للتفكير.. كانت تنتظر هذه اللحظة منذ طويل.. وعندما جاءت تولتها الخشية، خشية ان ترتبط الى الابد.. فقد كانت تعتبر الزواج أمرا خطيرا جدا، بل أجل شأنا من ان تتقبله هكذا مستهينة به، ودون ان تكون واثقة من حقيقة عواطفها. ثم ان هيلين كانت تعيش حياة النساء العاملات المتحررات، وكانت مهنتها تدر عليها دخلا طيبا، يتيح لها هذا العيش المادي الرغد الذي تنعم به.. وقد كانت تخرج كثيرا برفقة العديد من المعجبين بها، وما كان اعجاب اولئك الرجال ليسوءها بل كان يرضي غريزتها النسوية. والواقع انه كان من العسير جدا ان تودع فجأة هذا كله في سبيل الزواج..

كان برنار قد تقدم بطلب يدها منذ ثلاثة شهور، ولم تعطه هي أي جواب. وكانا يلتقيان من حين الى آخر الا ان هذه اللقاءات لم تتعد قط حدود الصداقة،

وعلى ان برنار كان دائما حفيا بها، يحيطها بالرعاية والعناية دون وناء.

ولا شك في انه ينتظر وصول القطار هذا المساء، ويترقب ان تهل عليه منه، وهو سيصافح يدها الممتدة اليه، ويحمل حقيبتها، ويتأبط ذراعها بمودة وصداقة.. هذا ما كانت هيلين تتخيله وهي تتأمل صورة برنار في استقبالها فأن وجوده لخليق ان يزودها بما تحتاجه من قوة، وهي ستفضي له بما تجد.. وستروي له القصة التي عاشتها في رحلة عودتها هذه.. وهو سيفهمها على التأكيد،ذلك انه هو نفسه في ممارسته لمهنته، كل يوم، لا بد انه يطلع على الكثير من بؤس الناس.. وعلى الفور ادركت انه ما لم يكن الى جانبها في الحياة.. فستحس بفراغ عظيم من حولها.. وما أكثر ما تلاقى ذوقاهما وأفكارهما على وفاق في حكمهما على الحوادث والاشخاص.. وما خالفها ابدا الا مزاحا ودعابة.. ان الحياة قصيرة جدا.. فلماذا الانتظار؟واتضح لها ان السعادة قريبة منها، الى جانبها.. دائما.. ومنذ أمد طويل.. ولكنها لم تدر او لم ترد أن تقطف ثمرتها.. وعاودتها عبارة في رسالة المرأة المجهولة «لا يتذوقون تذوقا كاملا مسرة اللحظة الراهنة..» وراحت هذه الكلمات تتراقص أمامها مختلطة بصورة برنار.. واتضح لها كل شيء فقررت ما تريد في التو واللحظة: عندما تلتقي به هذا المساء. ستقول له انها قبلت أن تكون امرأته، وكانت تردد في نفسها هذه الكلمات التي ستقولها .

وأحست فجأة انها انكفأت قليلا الى أمام، فنظرت في ساعة يدها فوجدت على دهش منها، انها وصلت.. فما اسرع ما مر الوقت! ! فتهيأت على عجل، وتناولت حقائبها وهبطت من القطار.. وان قلبها ليخفق بشدة، والافكار المجنونة تتدافع في رأسها: ماذا لو لم يكن برنار في انتظارها؟.. ماذا لو ان صبره نفد؟.. ماذا لو أنه وجد امرأة اخرى؟.. وانه لا يزال حرا، وهي ما قيدت بشيء حياله.. وعندئذ داخلها الخوف.. وسارت مع المسافرين متجهة الى باب الخروج. وسرعان ما وجدت نفسها بين حشد من المستقبلين: هذا ينتظر قريبا له، وذاك

يترقب صديقا، وغيره يبحث عن وجه يعرفه.. ودارت نظرتها في وجوه ذلك الحشد من الخلق، ولم تر الوجه المرجو.. فأحسَّت بمنتهى القنوط.. وضغط الهم والضيق على قلبها.. وعلى حين غرة امتدت يد قوية فأمسكت بها، وهتفت: «برنارا»، ودون ان تفوه بكلمة اخرى ارتمت في أحضان الشاب.. لقد خطت يد القدر مصيرها: وانها لتدرك الآن أين هي سعادتها، ذلك انها عرفت شقاء امرأة غيرها...

جنيت نوبلانش (فرنسا)

يوم زفافها

بعد بضع ساعات يكون كل شيء قد انتهى، لقد كانت الشهور التي انقضت طويلة جدا. وأحس السيد «شارل دوسيو» بأن شيئا قد خف عن صدره لان هذا الامر يوشك ان ينتهي، وكان، هو، في هذه اللحظة يبدو في منتهى الاناقة، وقد رشق زهرة في عروته وأمسك بكأس في يده، وجلس في ركنه المفضل ينتظر صابرا .. الا انه، في الوقت نفسه، كان يشعر بشيء من الخجل حيال عواطفه واحاسيسه لان العروس التي توشك ان تزف كانت ابنته الوحيدة.

كان اول ما خطر على باله، بعدان انبأته بعزمها على الزواج، ان البيت بدونها سيكون موحشا، صامتا، وشد ما سيحس بالفراغ عندما لا يعود يسمع ضحكتها المغردة، صوتها الرقيق الحلو النبرات.. وسيفتقد خطوتها النشطة، المندفعة، وسيفتقد الثقة بأنها موجودة ثمة بكل مرحها، ودفء جمالها، وروعة شبابها الفينان.

لقد فوجيء بعزمها، وما كانت قد تخطت التاسعة عشرة من عمرها. وما فكر قط أنها ستتزوج بهذه السرعة المبكرة الا انها، شيئا فشيئا، ومع مرور الاشهر، تغيرت عواطفها تغيرا غير ملحوظ لم يتبينه هو الا بصعوبة. ليس في وسعه ان يذكر أمرا بعينه، ولا يستطيع ان يقول انه في لحظة من ذلك اليوم أخذ

يرى «اليزابيث» في ضوء جديد ،مفهوم جديد.. لقد أحبها دائما حبا عميقا، وكان يتمنى لها كل سعادة الدنيا.. ولسوف تترك فراغا في حياته وكان مجرد التفكير في هذا يؤذيه.. ومع ذلك سيكون مسرورا حقا عندما ينتهي كل شيء.. فما في مقدوره ان يفعل شيئا.. وانفتح باب الحجرة، ودخلت منه امرأته «هيلين» وفي عينيها الرماديتين بارقة قلق. وسألته وهي تغلق الباب:

- ماذا دهاك يا شارل.. ولماذا تراك تختبيء هنا؟

وقال شارل:

- بدأت أحس بالوحشة.. واني لانتظر بكل بساطة الذهاب الى الكنيسة. غير انه كان قليل الامل في ان تكتفي هيلين بهذا التعليل.. وهو ما استطاع قط ان يخفي عنها شيئا ذا بال..

جلست «هيلين» وخلعت حذاءها.. وقالت: «ان قدمي هاتين ستقتلانني.. ولكنني لا استطيع ان انقم عليهما، فقد بالغت في ارهاقهما منذ الساعة الخامسة صباحا.. أحضر لي ما أشربه يا شارل.. وحسبي جرعة واحدة..» ثم مالت الى الامام وراحت تدلك قدميها.. واردفت تقول: «هناك أمر يعذبك ويشقيك..أيكون ذلك لان «ليز» ستتركنا؟ قال شارل موافقا:

- ليس هذا هو الامر بالضبط، ان مثله يحدث لجميع الآباء.. ونحن لا نملك أبناءنا بصورة كاملة، وانما هم ودائع عندنا الى أجل.. هذا كل ما هنالك..

- وإذن.. ماذا دهاك؟ لم يكن يحب ان يتكلم، غير انه لا يملك الخيار.. وفكر: ربما كانت هيلين أقدر منه على فهم ما يجد.. وقال:

- انها اليزابيث.. فهي تشغل بالي.. فأما انها تغيرت في هذه الاشهر

الاخيرة.. واما انني لم أعد أراها كما كنت دائما أراها..

- بالطبع تغيرت! فقد كبرت.. وبعد ساعة تصبح امرأة متزوجة..

- ليس هذا وحسب.. ان فيها الآن قسوة لم الحظها في السابق قط.. وما ادري من اين اتت بهذه القسوة.. انها لم تأت بها منك انت على أي حال.. وكائنا ما كان الامر فان الارشد ان تتخلص منها والا فقدت احسن ما في الدنيا..

واحتجت هيلين قائلة:

- ولكن يا شارل.. ليس هذا هو الوقت المناسب..

غير ان شارل قاطعها قائلا:

- اسمعي الان.. منذ اللحظة التي انبأتنا فيها اليزابيث بأنها ستتزوج «غليوم» لم اكف عن ملاحظتها عن كثب.. ولاحظت «غليوم» كذلك.. واصدقاءهما.. واني لاجد ان فيهم جميعا شيئا من ادعاء ومباهاة.. واجد فيهم فتورا.. وثقة مطلقة بأنهم من جيل آخر اعلى وارفع.. واننا، نحن، لسنا اكثر من بقايا منهارة.. ان هذا يزعجني..

وقالت هيلين بهدوء:

- انك تبالغ.. على أي حال فنحن نتحدث عن ابنتنا ليز.. لا عن اصدقائها..

- حسن جدا.. سأتحدث عن ليز وحسب..

وشرب شارل جرعة من كأسه وعاد يقول وقد زوى ما بين عينيه:

- انت تعلمين انه كـان من رأيي ان تنتظر قليـلا هي وخطيـبـهـا مـا دام «غليوم» لم يتم دراسته.. وحتى لقد أبديت ملاحظتي- التي لا تزال قائمة- انه لمن الصعب ان يدرس المرء وله أولاد في البيت.. وليز تقول..

- قالت ليز انهما لن ينجبا اطفالا قبل ان يتم غليوم دراسته الجامعية.. وانا لا ارى في هذا كله الخطأ الذي تراه انت.. وانما هو عين الصواب.

وقال شارل:

- حسن جدا.. ربما كان هو الصواب.. الا انني لا استطيع ان اجده ملائما.. وانت لم تكوني تتكلمين هكذا قبل زواجنا.. وحتى بعده.. انك لم تتوقعي كل شيء.. ولم تكوني على صواب.. كنت مغرمة بي.. وكـان غرامك كأنه هالة مشعة تكتنفك.. وكانت سعادتك يطفح بها محياك.. وهذه السعادة لست اراها ظاهرة على محيا ابنتنا ليز.. كيف ترينها تستقبل غليوم عندما يأتي؟ انهما لا يتعانقان اذ يقبل احدهما الآخر كما كنا نفعل.. وكل ما يفعلانه انهما يتبادلان قبلة سريعة مبتذلة كما يفعل أبناء وبنات العمومة.. وأيديهما لا تكاد تتلامس.. وهذا كل شيء.. واني لاتساءل: هل هما حبيبان حقا؟

قالت هيلين:

- انهما متحابان جدا.. وانت تنسى انهما من جيل جديد له افكاره الجديدة.. وابناء هذا الجيل متحفظون، وهم لا يستخرجون مشاعرهم ليضعوها أمام العيون.. وربما كانوا قد تعبوا منا ايضا.. انهم...

وقاطعها شارل هاتفا:

- حذار.. لا تحاولي ان تقنعيني بأنهم متهيبون، وقلما يحبون التظاهر

والادلال بذواتهم.. انهم اكثر تظاهرا وادلالا بذواتهم، امام الناس، منا نحن في ايامنا.. وانت تعرفين هذا تماما.. فهم يسيرون في الشوارع وقد احاط الفتى كتفي فتاته بذراعه.. ويتبادلون.. الغزل في السيارة والسينما، وعلى مقاعد الحدائق العامة.. ولا يبالون ان يراهم الاخرون..

قالت هيلين:

- هذا كله سطحي.. وهو ما يراه الناس.. والواقع ان الكائنات البشرية لم تتغير كثيرا في هذه السنوات القليلة.. وهؤلاء الشبان والشابات لا يزالون يكتمون في أعماق نفوسهم مشاعر الخوف نفسها وأحاسيس التردد وعدم الثقة ذاتها التى كنا، نحن نكنّها في نفوسنا..

وقال شارل:

- اترين هذا حقا؟ ربما كنت على حق.. ولكن فلنعد الى ليز.. هل تعتقدين انها تدرك تماما ان زواجها يجب ان يدوم الحياة كلها.. اعني هل هي تريد حقا ان يدوم ابدا؟ يبدو لي كأنما هي تقوم بتجربة ما.. كأنما هي تود ان تلعب دورا سرعان ما تنبذه بعد ان تكون قد شبعت منه.. وبصراحة فقد خيبت ظني.. انه لا يبدو عليها انها تعي ذلك.. انها تتزوج.. فهي لا تأخذ الامر مأخذ الجد ابدا..

واجابته هيلين:

- انك تخطىء.. في ظنك.. فهي تأخذ الجد الخالص.. وهذا الزواج، من ناحيتها هي، هو زواج العمر.. وانا واثقة ان غليوم يفكر مثلها.

- أرجو ان تكوني على حق.. انما انا اصدر حكمي في ضوء ما ارى.. انه ليبدو لي ان اهتمامهما بزواجهما هو بقدر الاهتمام الذي يبذلانه لشراء شيء ما

من دكان ما، وربما كانا أكثر تحكماً لشراء آلة غاسلة منهما لهذا الزواج.. فهل كنت هكذا انت؟

فقالت هيلين وهي تبتسم:

- كلا.. لست أذكر انني كنت هكذا.. وقال هو كلا بالطبع. لم تكوني فاترة، ولا هادئة، ولا منطلقة دون ما قيد.. لقد كنت متوفزة الاعصاب لا يقر لك قرار كأنك قط صغير.. وانا ايضا كنت كذلك.. كان يتملكني خوف ازرق من ان تتركيني.. ولكن هذين الاثنين.. ما هي عواطفهما.. ما هي مشاعرهما؟ لسنا ندري عنها شيئا.. وهما لا يريدان ان ندري.. لقد وضعانا في الجانب الاخر.. واقاما بيننا وبينهما حاجزا.. وغدونا لا نستطيع الاقتراب منهما.. لقد جعلت ابنتنا ليز مسافة تفصلنا عنها كأنما هذا كله.. كأنما سعادتها.. ومستقبلها لا يعنينا منهما شيء.. وهذا لما يمض حقا.. اذ كنا- ليز رأنا- جد متحدين الى ان ظهر غليوم.. وها هي الان تنبذني خارج نطاقها.

وقالت هيلين:

- انها لا تتركك خارج نطاقها كما تتوهم.. ان بينكما من الحب ما لا يمكن ان يحدث هذا معه.. وهي لا تفعل اكثر من ان تحتفظ بعواطفها لنفسها. هذا كل ما في الامر. ان مشاعرها اعمق، واكثر شبها بما حلمت دائما ان تكون من ان تتقاسمها وأي انسان آخر..

وقال شارل موافقا:

- هذا كله غريب في نظري.. فأين اذن روعة الخيال.. والرقة.. والروعة.. والسحر.. وكل هذا الذي عرفناه وخبرناه انت وانا؟ ما كان أعظم اعتزازي وامتناني انك وعدت ان تكوني زوجتي.. ان التفكير بأني كنت سأمتلكك ما

فـارقني قط.. وفي بعض الاحيـان لم أكن لاصـدق ان هذا كله واقع ملمـوس.. وانني أنا الرجل الذي وقع عليه اختيارك.. وكنت أخشى ان اجيء ذات يوم لاراك فيستقبلني والدك ويقول لي انك غيرت رأيك ..

قالت هيلين:

– لم أغير رأيي أبدا.. ولا اعتقد ان ليز ستغير رأيها.. ثم انتعلت حذاءها ونهضت وهي تقول:

– سنذهب بعد دقائق.. فلا تعذب نفسك يا شارل.. وارجوك ان لا تبدي لابنتنا ليز شيئا مما تحس به.. ان هذا اليوم كله لها.. ولنحاول ان لا نفسده..

فقال شارل مكتئبا:

– لقد انتزعا كل ما فيه من سحر. فماذا بقي لهما؟

فطمأنته هيلين:

– بقي لهما كل شيء.. وبقيت لهما اشراقة كل لحظة.. ولكن من العسير رؤيتها.. وانما ينبغي ان نترصدها..

كان شارل وهو جالس قبالة زوجته يفكر في حلاوة الحياة معها، ويتصور ما فعلته لكي يكون عيشهما رغدا.. وعلى حين غرة ساوره اسف هو مزيج من مرارة وحلاوة، فهو يذكر الى أي حد كانا متوفزي الحس يوم زفافهما، والى أي حد كانا متهيبين لطيفين، في تلك الليلة.. وامتلأ صدره اسى وهو يفكر في ان ابنته ليز توشك ان تفقد تجربة من احلى تجارب الوجود.. اذ ان هذه القسوة، وهذا النضوب العاطفي– فيهما معا– قد يغلق دونهما ابواب المسرات جميعا.

وأنفتح الباب مّرة أخرى، وظهرت ليز، ممشوقة هيفاء رائعة الطلعة في ثوب الزفاف، ثم أغلقت الباب وبقيت مستندة إليه بظهرها وهتفت أبتاه... .

ونهض شارل ببطء وراح يحدق في ابنته.. رأى محياها وقد اخذت تعود اليه الرقة والعذوبة بصورة خفية، وشاهد فمها يختلج قليلا، وعينيها تصبحان اكثر عمقا، كأنما هي توشك ان تبكي.. وقفز قلبه في حنايا صدره.. أجل.. هل هي العلامة المنبئة التي طالما انتظرها.. هذه الخطيبة الجميلة عادت، من جديد، ابنته.. الحلوة، المستضعفة، الواثقة من حبه، التي هرعت اليه لتجد الحماية والمواساة.. انها، هكذا، ما اكثر ما كانت تتجه اليه حتى قبل بضعة أشهر فقط عندما تستنجد به ليغيثها.. وفكر شارل:

«شبان وشابات هذه الايام شد ما هم معرضون لاسباب الضعف.. ولكنهم يحاولون، يائسين، اخفاء لحظات الضعف هذه..»

وقال برقة:

- يا عزيزتي.. يا صغيرتي ليز المعبودة..

واقتربت منه، وسمع هو ما يشبه ان يكون انينا، هو في الواقع مزيج من شهقة وضحكة فأحاطها بساعديه، ووضع خده على خدها، فأحس أنها ترتعش..

وقال:

- ماذا بك... قولي ماذا بك يا ليز؟

ورآها بعين خياله اذ كانت طفلة تصاب بجرح في ركبتها فتفزع اليه، وترتمي في أحضانه وعندئذ يمتلىء قلبه حبا.. ورحمة بها، وتفهما لحالها.. حتى ليفيض هذا الحب.. ويطفح.. فيكاد يؤذيه.. ولم تكن لتحتاج ان تقول له شيئا..

وقالت ليز وهي تخفي وجهها في كتف والدها:

- انني خائفة.. الم تكن تدري اذن؟. الم تر؟. لقد كنت مذعورة..

فقال:

- مذعورة؟ لماذا؟.

وفكر في ذات نفسه: دعها تتكلم.. دعها تتكلم.. فهذه أحسن الوسائل..

وقالت هي:

- مذعورة من هذا كله.. الزواج.. مغادرة البيت.. الذهاب للاقامة مع رجل لا أكاد أعرفه.. اليس في هذا مخاطر وتبعات يا أبي؟. وافترض ان شيئا ما لن يأخذ مجراه الصحيح!. فماذا يحدث؟

وقال شارل:

- اؤكد لك ان كل شيء سيكون على ما يرام.. انك تحبين غليوم اليس كذلك؟ وانت تدركين انه هو الفتى الذي تريدينه؟ فأرسلت نفسا عميقا وقالت:

- اجل. انه هو الذي اريده. وسأحاول ان اكون المرأة التي يريد ان اكونها.. ولكنني مع ذلك لا ازال خائفة فقال شارل:

- وأمك ايضا كانت خائفة.. فيما مضى.. وظلت خائفة طيلة اسابيع قبل الزواج.. ولكي أكون صريحا، كنت انا ايضا خائفا..

وقالت ليز غير مصدقة:

- انت؟ كنت خائفا يا ابي؟..

- كنت أخشى أن يصيبها الملل مني.. وكنت أخشى ان لا تسير الامور كما كنا نشتهي.. ولكن هذا لن يلبث ان يمر وينقضي.. وحيثما يكون الحب لا يكون خوف ولا ريب.. وينفذ الانسان سيره في طريقه وهو يبني حياته للافضل.. وهذا الافضل يمكن ان يكون طيبا بصورة خارقة.. وهذا ما فعلناه أمك وأنا.. وما ستفعلينه انت..

وابتعد عنها قليلا ليملأ عينه منها وهو يبتسم.. فبادلته الابتسامة متألقة..وقال:

ستكونين موفورة السعادة.. لقد شغلت بالي هنيهة.. اما الان فلا.. انني كلي ثقة بك..

فتشبثت به، وقبلته وهي تقول:

- شكرا يا ابي.. شكرا لكل شيء..

وتراجعت خطوة، وسوت ثوب زفافها ووضعت ذراعها في ذراعه، وقالت بنبرة واضحة، واثقة «لقد آن لنا ان نذهب».

سارج ليفار (فرنسا)

الدموع الحلوة

كانت الرياح تصخب في الخارج وتدوي دويا يصم الآذان، والعاصفة الضارية تنقض على البيوت والاشجار فتوشك ان تقتلعها، وكانت مياه النهر تهدر تحت الجسر، وتتلاطم، وتريد ان تقوض الجسر وتنطلق في جنون فتكتسح القرية النائمة على سفح الجبل.

كان بيتنا منعزلا عن بيوت القرية يواجه العاصفة في تلك الناحية الموحشة قبل ان تواجهها البيوت الاخرى المتقاربة، التي كأنما يلوذ بعضها ببعض لتتقي هذا الهول المروع. وكانت الساعة قد جاوزت العاشرة ليلا، وزوجي يجلس أمامي صامتا صمته المطبق. لقد لزم هذا الصمت منذ طويل. وكان كل ما يقوله كلمات سريعة متقطعة، ثم يعود الى صمته. حتى آثار الحنان التي كنت المحها في عينيه أحيانا أصبحت أفتقدها في هذه الايام، وحل محلها ما يشبه السخرية والاستخفاف..

ما أقسى ان نعتاد سؤال عيون الآخرين ان تهبنا سعادة يوم من حياتنا.. ولا ريب في انه يأتي يوم لا تعود فيه هاتيك العيون ترضى ان تمن علينا بهذا الفتات من مائدتها الحافلة بزاد الحب والرحمة والتعاطف.

كنا قد غادرنا المدينة وجئنا الى هذا البيت الريفي لكي نمضي فيه اجازة

نهاية الاسبوع. وقد اردت انا هذا، على امل ان نجد هنا ما يثير ذكرياتنا الماضية ويحرك ما ركد من عواطفنا، فان الماء والشجر والظلال والأفياء وشروق الشمس وغروبها ورائحة الريف، والجبل المزدهر خليقة كلها ان تهز الحس وتوقظ المشاعر الهامدة وتبعث الاحلام الهاربة. وكنا في أواخر الخريف، وقد فاجأتنا العاصفة على غير ما كنا نتوقع، ومع ذلك فأن شيئا من هذا لم يحرك في زوجي، اللائذ في صمته الابدي وفي سخريته الجارحة، هذا الشعور الجميل الذي كنت أرجوه، ولم ينتزع من فمه المقفل تلك الكلمات العذبة التي كان يحن اليها قلبي المسكين.

وقلت لكي أمزق اسداف ذلك الصمت:

– ما كان ينبغي ان نأتي.. فألقى الي نظرة طويلة، متهكمة، صامتة، ثم انفرجت شفتاه عن هذه الكلمات المثقلة بمعاني السخرية والتأنيب والشماتة:

– انت اردت هذا..

وكتمت غيظي وقلت:

– ولكن الجسر يوشك ان ينهار تحت الحاح المياه الطاغية..

فقال وهو يتثاءب ويمد رجليه الى امام:

–أوه: في وسعنا ان نعود الى المدينة من طريق اخرى.. انني أحس بوضوح انه ما من شيء عاد يربط بين قلبينا. وغدا كل ما نفعله ان نأكل ونشرب وننام ونشعر بالبرد والحر.. لا شيء غير هذا.. فلا عواطف. ولا حب.. ولا مشاعر..

وبدا لي فجأة ان نسمة مقرورة نفذت من اسفل الباب، فجمعت حول عنقي وصدري اطراف الشال الابيض المصنوع من الصوف. وعاد زوجي الى كتابه

واستغرق في قراءته.

وفكرت ان انهض لاعداد فراش النوم وقدح الماء والدواء المنوم الذي اعتدت تناوله. وكان هدير المياه المتدفقة في الخارج يقرع اذني قرعا مزعجا لا يحتمل. وعلى حين غرة تملكني الخوف بدون سبب، فلا شك في ان جنون المياه الطاغية قد اثار ذعري.. واني لاحس بأن كارثة ما لا بد من ان تقع في هذه الليلة.

وفي هذه الاثناء طرق الباب. فتنفست الصعداء، فلقد أضناني عذاب الصمت والانتظار. وكنت اسمع اندفاع الماء وهجمومه على أنقاض الجسر، فيخيل الي ان آلة جهنمية هي التي تدوي في قاع الوادي الثائر المائج.

ولم يتحرك زوجي، فقد كان سادرا في قرارته. وشرعت انضو ثيابي لاندس في فراشي. وطرق الباب مرة اخرى. وعلى الفور تناول زوجي المصباح، ونهض دون ان يلقي الي نظرة واحدة. ودلف نحو الباب، وبقيت انا قرب مقعد الجلوس، دون أن أبدي أي اهتمام. ان ثمة لحظات ينطوي فيها الانسان على عذابه وشقائه الخاص، فلا يعود تهمه تعاسة الآخرين. ومع ذلك فقد كان الرجل الذي طرق الباب يقول:

- أهل القرية يريدون متطوعين.. فاذا استطعت ان تأتي فأحمل معك شيئا من أدوية الاسعاف.. فقد انهار الجسر وحمله السيل الجارف.. وبناء الطاحون في الجهة المرتفعة من البلد يوشك ان ينهار هو الاخر:

ومضى الرجل.. وبقي الباب مفتوحا.. فدخلت منه الريح وملأت البيت كله.. وتناول زوجي معطفه الواقي، وانتعل حذاءه، أما انا فقد أخفيت رأسي بالشال اتقي به عصف الرياح. وقال زوجي:

- أما أنت فلا يجب أن تخرجي

وقلت:

- بل اخرج.. فانا ممرضة.. وقد يحتاجون الي

وعاد هو يقول:

- اذن.. تدثري جيدا..

وتناولت حقيبة الاسعاف الصغيرة، وانا احس ان الهدوء قد اخذ يشيع في نفسي واحساسي. لقد آن لي اخيرا ان اواجه أمرا عظيما يوازي شقائي الكبير.

ورحنا نتلمس طريقنا في الدرب المؤدي الى السيل... وكان زوجي يساعدني وقد نسيت ان آتي بالمصباح الكهربائي ولم يعد في الامكان ان ارجع الى البيت. وسمعت من خلفنا اصوتا تقول:

- لقد بقي في بناء الطاحون الذي يوشك ان ينهار طفلان.. شيء عجيب.. فقد نسيهما ابواهما في ذهولهما.. فخرجا بابنيهما الكبيرين وتركا الصغيرين وقالت اصوات اخرى:

- احد الطفلين رضيع في الشهر الثامن عشر من عمره.. وما يزال حطام الجسر يحول دون اندفاع الماء الذي يتسرب شيئا فشيئا خلال بناء الطاحون الواهي الذي اصبح معزولا الان .. تحت رحمة المياه العاتية.. واحسست فجأة بذراع زوجي تنسحب من ذراعي، وخيل الي انه انطلق الى حيث لا ادري. وكان المطر يملأ عيني، واحاول عبثا ان اقوم بعمل ما. وراحت حقيبة الاسعاف التي احملها تحت ابطي ترهقني دون ان يكون لها نفع مرتقب، فلم يكن ثمة جرحى او مصابون غير طفلين سيقضيان نحبهما حتما اذا ما انهار بنا الطاحون.

وقال صوت قريب مني:

- يجب اخراج هذين الطفلين.. ثم سمعت عويلا يمزق نياط القلب.. لقد كان عويل الام الوالهة.. فهل يسعني أن أعنى بها؟ واقتربت منها، فاذا هي قد تقوس ظهرها كأنها تنوء تحت عبء ثقيل يكاد يسحقها .. فاحطتها بذراعي، وأراحت هي رأسها على كتفي، وطفقت تبكي بكاء غزيرا.. بكاء مرا.. موئسا ولم يكن ثمة انسان يشرف على عملية الانقاذ.. ولم يسمع صوت يأمر بشيء.. وكانت اشباح السكان تروح وتجيء وتتحرك في فوضى واضطراب عند حافة الماء الذي كان ما يزال يرتفع حتى بلغ الركب.. وكانت الدقائق تمر.. وحقيبة الاسعاف تحت ابطي دائما.. ورأس المرأة المولهة فوق صدري، ومع ذلك فقد سمعت صوتا يعلو جميع الاصوات فانتفض قلبي.. انه صوت زوجي يطلب من متطوعين اثنين ان يخوضا الماء المتدفق ويأتيا الى جانبه.

ولم اكن لادري الى أي حد سيدوم هذا الانتظار بعد ان سمعت صوت زوجي، ولم اكن اعرف ماذا ستكون افكاري، لو بقيت لي أفكار تعرف، في هذه الحال من الالم الممض الذي يكاد يكتم أنفاسي..

كان كل ما ادركته ان «الصمت الثقيل» قد ذهب وانقضى. واني عدت اسمع اصواتا تتكلم .. وتعلن عودة الرجال من الطاحون ومعهم الطفلان الصغيران.. وان ساعدي الايسر انتزع صيحات الالم من فمي لفرط ما آلمتني حقيبة الاسعاف، وفجأة تركتني المرأة التي كانت متكئة على كتفي كل هذا الوقت..وأحسست ان رجالا يتقدمون وهم يحملون المصابيح..

كان يمكن أن اظل كذلك ساعات طوالا وانا اعاني الالم في كتفي وساعدي، وكان صوت زوجي هو الذي أتاح لي ان اخرج من حالة الشلل التي كنت فيها، فقد سمعته يقول:

- انني جريح.. ساعديني.

وانقضت ساعات.. وخرج الطبيب من بيتنا.. والقيت في الموقد بعض الحطب والاعواد اليابسة.. فاشتعلت النار وتصاعد لهيبها المزغرد.. وفي نفس اللحظة انبثق في نفسي نور الامل.. وكان زوجي ممدداً فوق السرير وقد عقد النوم اجفانه، وزال عنه السوء بعناية الله ومهارة الطبيب وعودة عطفي وحناني، والتقطت عن الارض قطع القماش المبللة بالدم.. لم يكن زوجي قد أصيب بأكثر من جرح فوق عينه.. ولكن شد ما نزف من دمه.. ورحت أصغي الى تنفسه البطيء.. انني لا استطيع ان انتظر يقظته، فهو قد لا يحب ذلك.. وربما حسب انني اترقب نظرته الاولى.. واني أعد على اصابعي لحظات السعادة التي نلتها في تلك الليلة وقد تشبث هو بي بعد ان انهكه التعب وارهقه الدم النازف من جرحه. واني لا اكاد أجد الجرأة فأسائل نفسي:

– أترى ستدوم هذه السعادة.. وهل ستنقذ حياتنا من الشقاء الذي عانيناه وذقنا مره؟.. ان نداء خفيا يهمس في نفسي ان اطمئني بالا.. ولكن ترى ما عسى تكون الكلمات الاولى التي سينطق بها زوجي عندما يستيقظ ويفتح عينيه؟..

ثم باغتني النوم وانا لا ازال جالسة في مقعدي، ويبدو ان البرد قد اصابني عندما قفزت من المقعد وانا انتفض.. وحاولت ان اتذكر.. وخيل لي انني كنت أحلم.. احلم بأن زوجي كان يكلمني ويقول:

– ما أسخفنا.. لقد كنا نمزق حياتنا بأيدينا.. حياتي وحياتك.. هل في وسعك ان تفهمي؟ أما أنا فلا استطيع ان اشرح هذا لنفسي.. آه لو رأيت تلك النظرة البريئة التي صوبها الي الطفل الصغير وانا اتقدم لانقاذه.. ثم بعد ان لف ذراعه حول عنقي وتعلق بي.. انها نظرة الضعيف المسكين الذي يسأل العون.. وكنت أنا الذي يستطيع ان ينقذه ففعلت.. لقد فعلت ذلك.. اتفهمين يا حبيبتي؟ أجل لقد انقذته. فما أعظم سعادتي.

ولكن مـاذا! انني لا أحلم.. صـوت زوجي نفسـه يرتفع في ارجـاء الحـجـرة. صوته هو.. صوته الذي شد ما تمنيت ان اسمعه.. وان احبه.

وكان شعاع الفجر قد أضـاء النوافذ قليـلا.. وها هو زوجي يحدثني.. ولقد امضيت سنتين انتظر هذه اللحظة.. ها هو يسـتـمـر في حديثـه.. وسـأصـمت أنا لاشاهد تمام المعجزة.. سـأصـمت الى ان يشـتـهي هو ان اجيبه.. ان الدموع التي تسح فوق وجهي حلوة. حلوة جدا.. واني لابكي دون ان يسمع صوت بكائي..

للكاتب الياباني أتيدا اكيناري

أسماك الاحلام

حدث هذا منذ زمن طويل، بين سنتي (٩٢٣و٩٣٠). وكان يعيش في معبد «ميئي» كاهن اسمه «كوجي». ولقد طارت له شهرة في الآفاق بسبب موهبته الفنية في الرسم. ولم تكن صور بوذا هي التي يرسمها عادة، كما ينتظر من كاهن، ولا الجبال والمياه، ولا الازهار والعصافير. كان، في أيام فراغه من خدمة المعبد، يركب زورقه وينطلق مجذفا به فوق ماء البحيرة. وكان يهب الصيادين من ذوي الشباك، أو الذين يصيدون بالصنارة، دريهمات يشتري بها أسماكهم. ثم هو يروح يعيد هذه الاسماك الى مياهها التي ولدت فيها. وكان اذ يشهد هذه الاسماك تضطرب وتتخبط يشرع في رسمها.

وعلى هذه الحال انقضت الاعوام، وبلغ هو في فنه غاية الدقة.

وأغفى ذات يوم وهو يركز تفكيره في رسم يرسمه، فرأى، فيما يرى النائم، انه نزل في الماء وأخذ يلهو مع الاسماك كبيرها وصغيرها على السواء. وما كاد يثوب الى نفسه حتى سارع الى رسمها كما تراءت له في اغفاءته. ولما علق الرسم على الجدار هتف قائلا: «شبابيط الاحلام» وهكذا سمى لوحته تلك. والشبوط نوع من السمك معروف.

وأعجب الناس أي اعجاب بالطابع الفني الممتاز لذلك الرسم. وتمنوا ان

يحوزوه وان يستأثروا به دون غيرهم. غير أنه- وهو الذي كان يستجيب لالتماسهم ويخرج لهم طوعا واختيارا عن رسومه التي لم تجاوز الجبال والمياه والازهار والعصافير- احتفظ بلوحة شبابيطه هذه احتفاظ الحريص. وكان يمازح كلا منهم ويقول: «لا ريب في انني، وأنا معلم الشريعة ورجلها، لن أعطي من لا دين لهم، اولئك الذين يجهزون على المخلوقات الحية، اسماكا قمت أنا على تنشئتها» ولقد كانت تلك اللوحة الفنية وذلك التعلل الفكاهي البارع موضوع حديث الناس في الامبراطورية جميعا.

وأقبل عام مرض فيه «كوجي». وبعد أيام أغمض عينيه فجأة ولفظ أنفاسه وقضى نحبه. توافد أصدقاؤه ومريدوه فبكوه وانتحبوا. غير أنهم أحسوا انه بقي في منطقة قلبه وحدها شيء من حرارة، فتحلقوا حول جسده. وانقضت ايام ثلاثة وهم أيقاظ يحرسونه. ثم بدا لهم ان يديه وقدميه أخذت تتحرك حركة خفيفة. وعلى حين غرة أرسل نفسا مديدا، وفتح عينيه، واستوى جالسا فعل من يستيقظ من نومه، ثم استدار نحو الحضور وقال: «لقد فقدت الوعي وادراك أشياء هذه الدنيا، لا بد ان اياما انقضت وأنا على تلك الحال» وأجابه مريدوه: «لفظ المعلم انفاسه منذ أيام ثلاثة. وقد توافد جماعة المعبد للدفن. غير أننا أحسسنا ببقاء حرارة في قلب المعلم فلم نضعه في النعش، وقمنا على حراسته، وها هوالان قد عاد الى الحياة. وانه ليبهجنا أننا كنا حكماء فلم ندفنه». وأمن كوجي على كلامهم بايماءة من رأسه وقال: «فليذهب احدكم الى مقر السيد الماجد تيرا، نائب الحاكم، وليعلن له ما يلي «ان معلم الشريعة حي يرزق، وانكم أيها السيد الماجد مع صحبكم لتتساقون الان خمر الارز، وتعدون لطعامكم سمكا نيئا. فلتتكرموا في هذه اللحظة بايقاف وليمتكم والذهاب الى المعبد، وسوف تروى لكم هناك قصة نادرة المثال» ثم سأل الرسول ان يراقب حال القوم هناك وهو يفضي اليهم بهذا القول. ولا شك في ان حالهم ستكون مطابقة لما أقول.

انطلق الرسول مشغول البال الى المقر المذكور، وبلغ ما قيل له وهو يراقب نائب الحاكم وشقيقه الاصغر «جورو» و«كاموري» صديقهما، وغيرهم، فرآهم وقد جلسوا متحلقين وراحوا يتساقون خمر الارز، كل شيء كان كما وصف المعلم. وتأكد الرسول مما رأى وقد تملكته الدهشة. وعلم جماعة نائب الحاكم بما حدث فذهلوا، ووضع كل منهم عصويه (وقد قاما مقام الملعقة) وهرعوا جميعا الى المعبد بما فيهم «جورو» و «كاموري».

رفع «كوجي» رأسه عن وسادته، وهي من قش، وشكر لهم ان تحملوا مشقة المجيء، وعندئذ هنأه نائب الحاكم بعودته الى الحياة، غير ان «كوجي» طفق يقول: «أرجو ان تتكرم أيها السيد الماجد بالاستماع الى ما سأقوله لكي تتأكد من صحته. ألم توص «بونشبي» الصياد بأن يأتيك بسمك؟» فانتفض نائب الحاكم وقال: «لقد حدث هذا فعلا. فكيف علمت به؟»

وقال «كوجي»: «ودخل هذا الصياد باب بيتك وهو يحمل سلة فيها سمكة طولها أكثر من ثلاثة اقدام. وكنت أنت، أيها السيد الماجد، مع شقيقك الاصغر الحكيم في الحجرة الجنوبية وقد جلس كل منكما الى منضدة الشطرنج الخفيضة. وكان «كاموري» الى جانبك يراقب سير اللعب وهو يقضم خوخة بأسنانه. ولقد أبهجك ان جاءك هذا الصياد بتلك السمكة الكبيرة فأعطيته ملء طبق خوخا، ثم مددت له يدك بكأس من خمر الارز، وزينت له أن يشرب الخمر مرات ثلاثا. وقد أخرج الطاهي السمكة مزهوا بها واعدها نيئة. هل من خطأ فيما قلته حتى الان؟»

عندئذ أخذ جماعة نائب الحاكم يلحون على كوجي، وقد تملكهم الذهول والاضطراب، ان يذكر لهم ما دعاه الى الافضاء لهم بهذا الوصف الدقيق. وهذا ما رواه كوجي لهم:

في هذه الايام الاخيرة ابتلاني المرض بآلام مبرحة. ولم أتبين اني قد مت ولكي أهدىء من شرة الحمى التي انتابتني استعنت بعصاي، وخرجت، ولاح لي ساعتئذ كأنني أنسيت علتي، وخامرني شعور العصفور المحبوس في قفصه وقد أفلت منه وراح يضرب في عرض السماء. ولا أدري أية جبال ولا أية قرى مررت بها، ثم وجدت منفذا الى ضفاف الماء. ولدى رؤيتي مياه البحيرة الخضراء خطرت في ذهني، الذي لم يعد يعي حقائق الاشياء، فكرة السباحة في تلك المياه. فخلعت ملابسي وتركتها هناك، وبوثبة واحدة غصت في الاعماق، ثم أخذت أسبح هنا وهناك، أنا الذي لم يألف الماء منذ عهد الطفولة. ومع ذلك فقد كنت الهو فيه واضطرب على هواي. واني اذ افكر في هذا الامر ليخيل الي ان ذلك كان وهما في حلم غير معقول. وعلى أي حال فما من شبه بين سباحة المرء على سطح الماء وبين رشاقة وخفة السمك. وقد وجدت قريبا مني سمكة كبيرة جعلت تقول: « ان ما يتمناه المعلم يسير هين. تفضل وانتظر قليلا» ورأيت السمكة تنطلق في الاعماق. وما هي الا ان أقبل على رأس حاشية كبيرة من الاسماك شخص يمتطي ظهر السمكة الكبيرة آنفه الذكر، وقد ارتدى ثياب الحفلات، ووضع على رأسه قبعة، وجعل يعمل مجاذيفه على سطح الماء حتى اقترب مني، فالتفت الي وقال: «ان الكاهن المحترم، بأمر من آله البحر، كان قد حاز فيما مضى فضائل عديدة، بسبب تحريره الكائنات الحية، وهو الان يود ان يلج الماء ويضطرب مع الاسماك فيه. فليمنح، وقتا ما، رداء شبوط مذهب، وليذق لذائذ امبراطورية المياه. بيد ان عليه ان يحترس من ان تدير رأسه رائحة الطعم الشهية فيفقد حياته معلقا بصنارة الصياد! »

«وبعد ان قال هذا مضى واختفى. وتطلعت أنا الى بدني فبهت وتولاني الذهول. فقد تبينت ان جسدي اكتسى بقشر سمك ذي بريق ذهبي واستحلت الى سمكة شبوط».

«وجعلت، حتى دون ان يعتريني العجب، احرك ذنبي وزعانفي واضطرب في الماء كما أشاء. وفي بادىء الامر تركت الامواج التي تثيرها الريح المنحدرة من جبل «ناغازا» تحملني. وفيما كنت اعبث على شواطىء ماء «شيغا» عدت فغصت في أعماق المياه التي تنعكس على صفحتها صورة جبل «هيرا» فزعا من ذهاب المارة ومجيئهم، اذ يبلون فيها ذيول ثيابهم. الا انه كان عسيرا علي أن اختفي في تلك المياه لان نيرانا اوقدها صيادو «كاتادا» كانت تجتذبني اجتذابا ودون وعي مني. وكان القمر يسير متمهلا في قبة السماء العالية يغمر بضيائه الصافي كل منعطف من عديد منعطفات المرافىء التي لا حصر لها!!

«وشد ما بهرت ناظري جزيرة «اوكي» الصغيرة، واختها جزيرة «شيكوبو» اذ كانت الامواج لا تنفك تعكس ظل سورهما الاحمر.»

«وما زال ذاك دأبي حتى خرجت من ذهولي، وانا بين أعواد القصب، وهبت الريح الاتية من «ايبوكي» وخرج زورق «آسازوما» للتجذيف فوق الغمر من الماء. وكنت لا اكاد اتجنب مجذاف «ياباژيه» المستطيل الذي يدفع به عابرته الا لاقع تحت رحمة حراس جسر «سيتا» ومطاردتهم الدائبة، مرات لا أعلم عددها».

«وجعلت، اذا اشتد حر الشمس، أسبح على سطح الماء. واذا هبت الريح عنيفة مروعة أغوص في الماء الى أعماق سحيقة».

«وعلى حين غرة أخذ الجوع يفري أحشائي، فرحت أبحث عن طعام هنا وهناك، فلا أجد شيئا. وفيما كنت مندفعا في بحثي كمن مسه عارض من جنون، وقعت فجأة على الصياد «بونشي» وقد ألقى بقصبة صيده الى الماء، وكان الطعم في صنارته تنبعث منه رائحة طيبة. غير ان تحذير آله البحار كان لا يزال عالقا بذهني، فقلت في نفسي: «انني أحد مريدي بوذا. واذا كنت لن اجد ما ابتلع به برهة من زمن، فما بالي أذل نفسي فابتلع طعما للاسماك؟» ثم ابتعدت. واستبد

بي الجوع واخذ يتعاظم ويشتد، وعبثا حاولت اقناع نفسي والتماس وجوه الصواب. ولم يعد في مقدوري ان اصبر. وافترضت انني سأزدرد ذلك الطعم، فهل معنى هذا انني لا بد ان أقع، وبكل غباء وجهل، فريسة صنارة الصياد؟ ثم انني اعرف هذا الرجل الصياد ويعرفني، فماذا ثمة ما يمكن ان أخشاه؟ ووضعت حدا لهذا كله فابتلعت الطعم. وعلى الفور سحب الصياد «بونشي» خيط صنارته وأمسك بي. وهتفت أنا قائلا: «حسبك يا هذا! ماذا تراك تفعل؟» الا انه مضى في عمله وكأنه لم يسمع شيئا. ولقد لف حباه حول خياشيمي، وربط زورقه بأعواد القصب، ودسني في سلة وعاد اليكم. وكنت انت أيها السيد الماجد على وشك ان تلعب الشطرنج مع أخيك الاصغر في الحجرة الجنوبية. وكان «كاموري» الى جانبك يأكل فاكهة. ولما رأيتم السمكة الكبيرة التي أتى بها «بونشي» اعجبتم بها كل الاعجاب. وفي تلك اللحظة رفعت عقيرتي أخاطبكم: «هل نسيتم أنتم جميعا (كوجي)؟ فكوا عني اساري ودعوني أرجع الى المعبد!» وجعلت اردد قولي هذا دون انقطاع. ومع ذلك لم تلقوا الي بالا. وكنتم لا تنفكون تصفقون فرحين مغتبطين. وراح الطاهي يعصر عيني الاثنتين بين اصابع يده اليسرى، ثم تناول بيمناه سكينا مشحوذة الحد جيدا، ووضعني على الوضم وشرع يقطع لحمي. وصرخت من الالم صرخة مدوية. واعولت وقلت: «هل رُئيت قط يد ترفع على مريد لبوذا؟ الغوث! الغوث!» ولكنكم لم تصغوا الي أبدا. وأخيرا خامرني الشعور بأنني قد قطعت. ثم صحوت من حلمي.»

قال الحاضرون وقد بهتوا وبلغ منهم التأثر مبلغا عظيما: «واننا بعد التفكير والتروي في ما رواه المعلم، لا ريب في اننا شاهدنا، اذ ذاك، فم السمكة يتحرك عدة مرات، ولكن دون ان يخرج منه أي صوت.»

وعلى الفور ارسلوا، على وجه السرعة، خادما الى البيت، وأمروه ان يلقي في ماء البحيرة ما تبقى من لحم السمكة النيئة.

ويرى، «كوجي» فيما بعد، من علته، وتوفاه الله بعد عمر طويل. وعندما أحس بدنو اجله تناول عددا كبيرا من اللوحات التي رسم عليها شبابيطه وجعل يبعثرها في ماء البحيرة، وكانت سرعان ما تنفصل عن ورقها او حريرها الذي رسمت عليه، وتعود اليها الحياة وتروح تضطرب في الماء. ولهذا السبب لم يبق للاجيال شيء من تراث «كوجي» الفني. غير ان مريده وتلميذه «ناريستو» ورث عنه موهبته الممتازة وطارت له شهرة في ذلك العهد. وقد جاء في قصة قديمة أن «باريستو» رسم ديكا على حائط قصر «كان اين» فشاهد الرسم ديك حي، فما كان منه الا ان سدد اليه ضربة غاضبة من احدى رجليه!

للكاتبة اليوغسلافية ياراربنكار

جدي والعصافير

كنا كلنا، نحب العصافير، وكانت امي تحفظ أغنية حول مجيء طير السنونو فتنشدها في الشتاء بلوعة وأسى، رتنشدها في الخريف وفي حلقها غصة، وتنشدها في الربيع رخيمة الصوت كأنه الماء يتحدر برقة وعذوبة. وجدتي العجوز شد ما ابغضت جارتنا، فأبغضناها معها. لان تلك المرأة كانت تتصيد العصافير، عصافير الدويري بفخ منصوب بحذق ثم تروح تحمرها وتتناولها. وزيادة في النكاية كانت لا تفتأ تتباهى بحذقها ومهارتها. ولا تنفك تفتن في وصف ما تجد من لذة في تذوق لحم هاتيك العصافير الصغيرة. ولكننا كنا نشيح عنها ونصم آذاننا دون ما تقول.

ولقد ألحت مرة واحدة في التحدث إليّ حديثها ذاك ونحن في الحديقة. ولقد كان جدي نفسه اشبه ما يكون بعصفور، فقد كان منيف القامة، هزيلا، اقنى الانف، منحرف العينين. وكانت كتفاه وذراعاه المرتقة بقفص صدره تشكل قوسا، ولكأنما هو يستطيع ان يبسطها جميعا كطير خرافي ضخم من الكوندر. أجل فقد كان هو افضلنا حبا للعصافير. وكان له منها نحو خمسين عصفورا في غرفته: بعضها حر طليق، وبعضها محبوس في أقفاصه. ولست مستطيعة، الى اليوم ان ادرك كيف امكن ان يموت وتلك الطيور تنتظره وتترقب قدومه، لقد كان في حجرته خمسون قلبا مضطربا لا يكف عن خفقان، حتى بعد ان نقلت جثته الى

مقرها الاخير.

كان الشحرور والقرقف يغردان بمرح ومسرة، اما صيحة الكناري فقد كانت عنيدة مصرة وواعشة مهتزة، تهدر في حلقه كالماء المتدفق لا ينفك يثب من حجر الى حجر، وكان طير السماني يلزم الصمت الا ان عينه وطيرانه كانا اكثر مرحا من صفيره وان كان رقيقا حلوا. ولكني لن اجد العزاء قط عن موت امي. فقد تخطفتها المنية في الربيع، يوم كانت تستطيع ان تنشد اغنيتها ملء حنجرتها ،ومن صميم فؤادها ابتهاجا بعودة السنونو. أترى قد تحطمت حقا، بمثل هذه الفجاءة، سلسلة الآلام والافراح التي صاحب نشيدها اولى خطوات عمري؟، كنت ما أزال صغيرة السن يوم فارقتني. كنت في الحادية عشرة وربما كان هذا هو السبب في انني لا استطيع التسليم بموتها. لا.. ما كان يجب قط ان تقضي نحبها ابان الربيع.

كنا، اختي وأخي وانا، ننفق الايام والليالي في حجرة جدي. وكان هو الذي فتح عيوننا على اوليات الحقائق والاوهام جميعا. ذلك انه كان يريد ان نكون شرفاء، وكان يروي لنا قصص الحب بين رجال ونساء، وكان اولئك الرجال والنساء يظفرون بالسعادة، السعادة دائما بعد المصائب والمحن.. كانت النساء في قصصه اميرات يهرب بهن لصوص شرفاء من حماة المساكين والمستضعفين.. او هن قد كن من الرقيق فاستطاع النجاة بهن فرسان ذوو شوارب مفتولة. وكان جدي يحب المسرح حبا جما. ولن انسى ابد الدهر صوته العاطفي وهو يحدثنا عن بداية ممارسته لفن التمثيل. وفيما بين فواصل المسرح، وفي ذلك الجو الخلاب كان كل منا يتصوره على هواه في لحظة لقائه- معها- وقد تزيا بزي الفرسان، حسبما يقتضيه دوره، وقال لها: كوني امرأتي!» فأسر قلبها بتفخيم لهجته- ويا لروعة نطقه تلك الكلمات امامنا!- واستحوذ عليها بطلاء وجهه بالمساحيق وبشاربيه الكبيرين المستعارين.. ثم عاد فقال: «ولقد شحبت تماما وتزوجتني..» وكنا لا

نستطيع ان نجد صلة ما بين الوجه الشاحب وراء فواصل المسرح، وبين ما يبدو على جدتنا من اعياء، الا اننا فيما بعد، استطعنا ان ندرك ان مثل هذه الامور قد تكون وقعت له حقا... .

وكانت اجمل العصافير هي التي وضعت في الاقفاص: عصافير الكناري، وببغاء زرقاء اللون، وشحرور ذو ريش لامع السواد، وحساسين، ولقالق، ودوريات وسماني. وكان ذلك الشحرور وقحا، فيحدث ان يحبس كما لو كان هو الاخر عصفورا نبيلا.. وكان جدي لا يتناول طعام غدائه الا مع طير السماني. وكان هذا الطير مرحا اليفا، محببا فيروح ينقر كل ما يقدم له وهو يرسل صفيرا حادا دلالة على عرفان الجميل.. وكانت سائر العصافير لا تأكل اللحم، وانما هي اشد ما تقبل على الشحم. وكان جدنا يمقت لحم العصافير ويشمئز منه ويقول مراراً: «ان لحم العصافير لا يهب المرء غير القلق والاضطراب، اليس حسبنا اننا نرى السنونو واللقالق، وذكور البط ترحل الى الجنوب في الخريف؟»

ونساء الدار ما كن يحببن ممارسة اعمالهن البيتية في تلك الحجرة، فقد كانت الرائحة التي تنبعث منها جد كريهة، كأنها حديقة كاملة من حدائق الحيوان.. وكان هو يحمل دائما في جيبه ملبسا يفوح منه اريج البنفسج والصابون، ويروح يوزعه علينا، وكنت استشعر ان شذا ذلك الملبس اللزج ينبعث من كيانه كله. وكان جدي في الماضي يحسن صنع احذية الفلاحين، اما في ذلك العهد والى ابعد ما يسعنا ان نتذكر، فقد كان لا يمارس أي عمل. وكان يفكر ان يعيش من غلة بستانه. وكان يذبح خنزيرا مرة في السنة فيبيع من لحمه، ومن أمعائه المحشوة باللحم والافاويه وكان يستقدم غيرنا من الاطفال، فنكون جميعا حوله، عشرة او اكثر. وفي هذا القطيع من الاولاد والبنات كان اختياره لا يقع الا على شقيقتي «تساركا» وكان لا يبالغ في تدليلها حتى لم يعد للحسد والغيرة وزن عندنا. كانت «تساركا» في نظره مخلوقا أعلى، وكان لطفه الفائق، والمستديم، نحوها

هو الدليل القاطع على ذلك.

كانت عصافير القرقف الصغيرة لا تني تصفر دائما قائلة: تشين.. تشين.. دوديش.. تشين.. دوديش.. اما الكناري فيغرد قائلا: كالي، كالي، كالي.. لين.. كالي، كالي، كالي لين.. لين.. لين.. غير ان الببغاء كانت أعقل عصافير الحجرة جميعا وقلما تصيح، ولكنها كانت اذا صاحت أخرست الاصوات الاخرى.. وما كانت تعيد شيئا ما او تكرره، وكان هذا هو البرهان على ذكائها.. وكان في وسع الشحرور ان يتغنى مئات المرات بلحنه القصير المبتذل، ذلك اللحن الذي يصفر به الصبية وهم يتنادون.. وما يدري أحد اذا كانوا قد سمعوه من الشحرور نفسه، ام ان الشحرور هو الذي تعلمه منهم!

وكانت عصافير الدّوري لا تفتأ تردد بمناسبة وبدون مناسبة زقزقتها المرحة: تشيك تساب.. تساب.. بمسرة دائما، وبنهم مستمر يجعلها على استعداد ان تخطف شيئا ما من أي طبق تراه.. تلك الدوريات.. انها والله لعصافير بحق.. وكانت نساء الدار يقلن بغضب: «ولقد يحسب المتشككون اننا نوشك ان نلتهم هاتيك العصافير.. ولذلك ما كان ينبغي له ان يحتفظ بها في حجرته.. وما اكثر ما تراه منها في الساحات هنا وهناك..»

ولست اذكر الان ما اذا كانت فصول الصيف حارة في طفولتي.. غير أننا كنا نذهب للسباحة في نهر «المورافا». وهناك، في ماء النهر، كانت أختي «تساركا» محور كل انتباه.. وكان جدي قد بدأ يعلمها السباحة هي اولا. وكان هذا كله سرا مكتوما، لان آباءنا وأمهاتنا كانوا لا يدعوننا نذهب الى حيث تطيب السباحة، أما جدنا فكان قد قرر ان يعلمنا هذا الفن.. ويعلمنا كيف نخرج ظافرين منتصرين من مهالك الدوامات، وكان يقول: «ليست دوامة الماء بذات خطر على من يحسن السباحة.. وانت اذا ما اخذت بها فما عليك الا ان تعوم على ظهرك فتهزك شيئا ما ثم سرعان ما تلفظك.. وما اعظم ما كنت اجد من

مشقة في التدرب على السباحة، وكنت لا اكاد ارفع قدمي حتى يطير صوابي فرقا.. وما زال الى اليوم يتولاني هذا الخوف نفسه كلما هممت اسبح.. ولا اكاد اتصور ان خمسة او ستة امتار تفصلني عن القاع حتى يعصف بي الخوف، فألوذ بالفرار واخرج من الماء الى ضفة النهر لاهثة مبهورة الانفاس.. وانه ليخامرني مثل هذا الاحساس وأنا في الطائرة.

ولذلك فاني أفضل السفر بالطائرة ليلا فأشعر كأنما انا في سيارة ركاب كبيرة، فالطائرة تحدث الضجيج نفسه، وترتج ارتجاج السيارة الكبيرة، واكون فيها فلا ارى شيئا، سوى انني اتحرك وانزلق هنا وهناك..

كانت تساركا، اشجعنا، وكانت تجازف بدخول الدوامات مع جدنا، وكذلك كان يفعل الفتيان، ولكنها هي التي كان يسعها أن تتلبث في الماء مدة أطول، وما اكثر ما كانا، هي وجدي، يخرجان راغمين من الماء معا وقد هدهما الاعياء، وخارت قواهما فيرتميان على الارض مغيظين محنقين.. ومع ذلك فقد كانت «تساركا» لا تفارق جدنا، فهي في النهر معه ابدا، وكانت مياه النهر لا تكاد تصيبها بالبرد بسبب من بدانتها، اما جدنا فما كان بحاجة الى الحركة وبذل الجهد الا قليلا، اذ ان مياه النهر كانت طيعة ذلولا حياله، وكأنما كان لا يغادر الماء الا لارضائنا، ولا يخرج منه الا بعد أن يكون آخر واحد منا قد بلغ ضفة النهر.. وتساركا كانت هي الاخيرة في معظم الاحيان.

كنا تزداد جرأة يوما بعد يوم، فالصبية يغوصون، وتساركا مع جدها يعبثان ويتظاهران بالغرق، ويغوصان كليا في اعماق الماء، وكان لا بد للذي يخسر في هذه اللعبة ان يختفي تحت سطح الماء ولا يظهر للعيان غير أصابعه على شكل مروحة، فعل الغريق الذي يبحث عما يتكىء عليه لينجو... .

في أصيل ذلك اليوم أخذت الامور مجراها على هذا النحو. وكانت الشمس

قد غربت، وأصبت انا بالبرد، فأخذت ارتدي ملابسي، وانطلق الصبية يتراكضون في السهل. وبقيت تساركا في الماء مع جدي، وكانت الدوامات والموجات القصار المتقاطعة تنتشر حولها، وكانا هما مندفعين في عبثهما، ولعبهما، بعنف وجنون..

وكان يبدو عليهما كأنما هما يتصارعان حقا. وربما ابتلعا قدرا كافيا من الماء في أثناء صراعهما ومحاولة كل منهما ان يدفع رأس الاخر ويدسه في الاعماق.. وكنت انا واقفة اشاهدهما، وقد عادا لا يضحكان، وانما طفق كل منهما يهزأ بالاخر ويسخر منه بحركات وجهه، ورأيت تساركا تخرج لسانها له.. وعلى حين غرة امتدت اليها كف جدنا الضخمة واطبقت عليها، وراحت بقوة تدفع بها الى ناحية معتمة كأنما تريد ان تدسها في اعماق النهر. واستمر اللعب على هذا النحو وبدا ان تساركا قد غضبت حقا، وكانت قد عادت تطفو فوق الماء، وأحاطت بعينيها دوائر زرق.. وخيل الي أنها شبعت لعبا.. وكان الصبية لا ينفكون يتراكضون ويلاحق بعضهم بعضا، وبقيت انا وحدي كأنما قد تسمرت في الارض، مسحورة بلعبهما في الماء، وان حركاتهما قد تباطأت وتراخت، وكان رأساهما يختفيان بالتناوب ثم سرعان ما يلوح انهما يتأرجحان على نمط واحد كأنهما صبيان في أرجوحة، فيكون هو فوق مرة وهي تحت، وتكون هي فوق تارة وهو تحت تارة.. وانتهى هذا التأرجح فجأة، ورحت أشاهد- مفغورة الفم- دوائر الماء وقد هدأت وامحت وعادت صفحة النهر ملساء، ناعمة، وما ثمة من شيء غير رأسها هي، رأسها وحده..

ورأيت تساركا تدفع الماء من حولها بذراعيها، وتخفض من ثم رأسها وتتفحص الاعماق.. وكان هو، جدي، قد اختفى.. حدث هذا في غمضة عين.. وصحت: «تساركا!» وتدافع الصبية واخذوا يصرخون هم أيضا: «تساركا»، وانطلقوا يغوصون في الماء.. في حين كانت تساركا تتجه الى ضفة النهر، ولم

تخرج من الماء الا بجهد ومشقة. وبعد قليل استطاع الصبية بمعونة احد الرجال ان ينتشلوا جثة جدنا العجوز من الماء. وقد حاول الرجل الغريب ان يعيد الحركة الى رئتي جدي، وان يفرغ جسده المنهوك من الماء، ولكن جدي ظل بيننا، في السهل، ازرق اللون زرقة ضاربة الى السواد، ولا حياة فيه.. وراحت تساركا تتمتم موجهة كلامها الى الرجل: «لقد أخذته من شعره.. أخذته من شعره..» ولكنه أغلق فمها براحته وقال لها بلطف: «اسكتي.. وهيا الى البيت..»

لم يكن الصبية يعلمون كيف حدث هذا كله.. ولا كان الرجل يعلم كذلك.. ولم نفه، تساركا وانا، بكلمة واحدة عن ذلك اللعب الوبيل في الماء، كأنما كان ذلك اتفاقا قام بيننا. وصرخت أمي تقول- وكانت ما تزال على قيد الحياة:- «كيف أمكن ان يحدث هذا.. قولوا..» كلا. ما كان الصبية ليعلموا شيئا.. أما نحن، اختي وانا، فلم يسألنا أحد أي سؤال.. وعادت أمي تسأل:

- لماذا لم تصيحوا فورا؟

واجاب الصبية:

- لقد صحنا.. لقد صحنا

وجاءت العصافير فحطت على الجثة المسجاة

ولم أقل لاحد كيف لاقى جدي حتفه.. وكنت، على الارجح، خليقة ان اروي، ذات يوم، ما حدث لامي.. ولكن الله توفاها بعد ذلك بقليل.

دافني دي موربيه (انكلترا)

قبلة أخرى

لما تركت الجيش تعطلت عن العمل قليلا، ثم عملت على طريق «همبستد»، في «كراج» بأسفل عقبة «هافر ستوك» قرب مزرعة «تشالك»، وكان هذا العمل يلائمني، وما اكثر ما أحببت ان تدور يدي بالمحركات، وأظل اتشمم رائحة البنزين وانا مستلق تحت السيارة احاول اصلاحها، ولا ينى المفك في يدي أديره هنا وهاهنا، وقد ازدادت ملابس العمل التي ارتديها اتساخا وتراكمت عليها بقع الشحم والزيت.

وكان صاحب الكراج رجلا طيباً، يطيب العيش معه، وكان يودني ويعلم أني حاذق وأنه يدانيني مهارة وقدرة، ولهذا كان يدع لي معالجة السيارات المعطوبة واصلاحها.

ما كنت اقيم عند امي، فقد كانت تقيم في مكان بعيد لا يسعني الذهاب اليه والعودة منه كل يوم.. فاستأجرت غرفة عند اسرة «تومبسون» وكانت دار تلك الاسرة لا تبعد اكثر من عشر دقائق مشيا على الاقدام عن مكان عملي. أما هو- السيد تومبسون- فقد كان يصنع الاحذية في تلك الناحية، وكانت زوجته تهتم بشؤون البيت وتطهو الطعام فوق دكان زوجها.. وكنت اتناول معهما وجبتي الغذاء والعشاء، ولما كنت الوحيد الذي يقيم معهما، فقد أصبحت وكأنني بعض

هذه الاسرة الصغيرة.

واني لاحب عملي وانصرف اليه ولا اجد بعد ذلك امتع من الجلوس في مقعد مريح ادخن سيكارتي واقرأ في صحيفة يومية او استمع الى قطع الموسيقى من المذياع. وكنت آوي الى فراشي مبكرا. ولا احسبني شغفت يوما بالنساء ولا احببت اللحاق بهن. وقد كان هذا شأني حتى يوم كنت في الجيش بمدينة بور سعيد..

أجل كنت أجد مسرتي في تلك الدار، دار تومبسون، وتنقضي الايام على وتيرة واحدة فلا ينتابني الملل أبدا.. حتى كانت تلك الليلة الفذة.. ومنذ تلك الليلة لم تعد الامور سواء. فيا للعجب..

في مساء تلك الليلة ذهب تومبسون وزوجته في زيارة لابنتهما المتزوجة في ناحية «هايغيت» وعرضا علي ان ارافقهما فأبيت لكي لا ازعجهما، وفي ذلك المساء ذهبت الى السينما بعد انتهاء عملي.. وتطلعت الى الاعلانات الكبيرة في الخارج فوجدت فتى شديد المراس قد دفع خنجره في بطن أحد الهنود الحمر.. انه من أفلام الرعاة التي احبها، فدفعت ثمن التذكرة ودخلت.

هناك قاعات للسينما تعمل فيها فتيات وكأنهن قد تخفين بقبعة مخملية وزي غريب.. أما تلك الفتاة فلم يبد عليها انها متخفية بشيء. وقد كانت نحاسية الشعر، زرقاء العينين، عابسة الاسارير وكأنها لن تبتسم الا اذا استنزلنا لها القمر من عليائه.. ولم يكن بدنها ناصع البياض كالحليب، وانما كان اهابها أملس، حار المجس، رائع الملمس كأنه اهاب خوخة نضرة.. ولم تكن متزوجة.. فتاة هيفاء حقا، صغيرة القد، وكانت سترتها المخملية الزرقاء مقدودة عليها بصورة تدعو الى الاعجاب، وسألتها عن الفيلم فقالت انه من النوع الذي تستعمل فيه المدي والخناجر، وفي وسعك، اذا برمت به، ان تغفو قليلا: فضحكت

غير انني تبينت انها رزان.. وذات جد خالص..

وحدقت في عينيها، فرأيت فيهما ما لم اكن قد رأيته من قبل وما لن اراه من بعد.. رأيت ما يشبه ان يكون كسلا وخمولا، وكأنها قد أفاقت من حلم طويل وسرها أن تراك.. ان للقطط مثل هذه النظرة عندما تمسح لها ظهرها براحة يدك، فتروح تهرهر لك وتلتصق بك، وتدعك تفعل ما تشاء.. القت الي نظرة كهذه.. وخيل الي انني ارى ابتسامة ما مختفية وراء فمها.. وتنتظر فرصتها..

واضاءت لي الطريق بمصباحها اليدوي، ثم اجلستني في مقعد خلفي.. وانا امرؤ لا يحب العطور ولا يطيقها، ومن ورائي، في العتمة، تأدى الي أرج حلو خفيف- لا كهذه العطور الثقيلة الكريهة- كأنه ينبعث من هاتيك الازهار التي تباع في الاحياء الرفيعة المترفة.. وادرت رأسي ابحث عن مصدر العطر..ولقد كان شذاها هي.. أجل هي وقد جلست خلفي تماما.. وسمعتها تهمس في الظلام:

- اذا تماديت في التلفت فلن تفهم قصة الفيلم... وتضيع عليك نقودك. ولما انتهى عرض الفيلم تأخرت وكنت آخر من خرج. وبحثت عنها حتى رأيتها تخرج من باب خلفي، فبقيت في الشارع انتظرها وانا احسب أنها ستكون في زمرة من الرفاق والرفيقات... ولكنني ما لبثت ان رأيتها تغذ السير وحدها، وقد ارتدت معطفا واقيا من المطر ودست يديها في جيبيه. دون ما قبعة على رأسها، وتبعتها حتى احدى محطات (الأوتوبيس) فركبت احدى السيارات وصعدت انا وراءها، وجلست على مقعد واغمضت عينيها، رأتني فابتسمت وقالت:

- مرحبا ايها الرجل المجهول، وأخرجت انا سيكارة لازيل قلقي.. وقدمت لها سيكارة اخرى فرفضتها، وعادت فأغمضت عينيها.. ولما لم يكن ثمة احد يرقبنا غير شاب قوي الملامح من الطيارين، وكان عاكفا على صحيفته اليومية يقرأها في مقعد أمامي، فقد مددت يدي فأمسكت برأسها واملته على كتفي، ثم

أحطت خصرها بساعدي، وأنا أحسب انها ستتملص وتغلظ لي القول، ولكن لا.. فقد ندت عن حنجرتها ضحكة صغيرة، والتصقت بي مرتاحة في جلستها وقالت:

- انه لا يقع لي كل ليلة ان يصحبني أحد في رحلتي.. وفوق هذا يجعل من نفسه وسادة لرأسي.. ارجو ان توقظني عند اسفل العقبة، قبيل الوصول الى المقبرة..

ولم اكن لادري عن أي عقبة تتحدث.. والى أي مقبرة تشير.. ومضت لحظات، وازددت انا جرأة فشددت على خصرها، وادنيتها مني، واسندت رأسي الى رأسها.. حتى لكأننا عاشقان والهان..

وطالت الرحلة.. وحدثتني نفسي ان اقبلها.. وتهيبت في بادىء الامر.. ثم قلت: لا تكن سخيفا.. واخذت رأسها، من فوري، فأدرته نحوي، ورفعت ذقنها بيدي، وقبلتها قبلة مستغرقة، وقد شاركتني التقبيل في كثير من الرضى والرغبة.. وبلغت السيارة العامة نهاية رحلتها فنزلنا معا، وكان المطر يساقط رذاذا وكان الشارع واسعا، عريضا، ودكاكينه مغلقة، وسألتها اذا كان هذا هو المكان الذي تريده فقالت وهي ترسل نظرة شاردة من فوق كتفها:

- ربما كان هو..

ثم تأبطت ذراعي وعادت تقول:

- ليتنا نتناول قهوة بالحليب أولا..

أولا! ماذا تراها تعني؟ وعلى أي حال لا بأس ببعض القهوة الساخنة، ولا ضير كذلك في بعض الشطائر مع القهوة، وحثثنا خطونا إلى مقهى صغير لم يكن

أغلق ابوابه بعد.. وكان في المقهى سائق السيارة العامة، وقاطع التذاكر، وذلك الشاب الطيار الذي كان يجلس امامنا في السيارة... .

ولاحظت ان صغيرتي كانت تحدق النظر في الشاب، الطيار مفكرة متأملة كأنها كانت تعرفه سابقا، وكان هو ايضا ينظر اليها وما كان هذا ليسوءني، وإنه لمن بواعث السرور أن تلفت فتاتي الأنظار، ثم أدارت له ظهرها وتشاغلت بشرب قهوتها الساخنة.. وفعلت أنا مثلها.. مزهوا.. وقلت انهم سيعتقدون اننا زوج وامرأته.. وجعلوا يتحدثون، وقال قاطع التذاكر للفتى الطيار:

- عليك ان تكون حذرا منتبها وانت في بزتك الرسمية هذه.. والا انتهيت كما انتهى الاخرون، وليس من الحكمة في شيء ان تسير مختالا وحدك هكذا في مثل هذه الساعة المتأخرة..

وتضاحكوا جميعا، ولم افهم انا شيئا.. كنت أحسبهم يتمازحون.. وقال الشاب الطيار

- لست فتى غريرا.. فأنا اعرف الناس.. والمريبين منهم خاصة.

فقال سائق السيارة:

- هذا على الارجح ما كان يقوله الاخرون.. ولكن انظر ما حدث لهم.. ان ثمة ما يدعو الى التفكير والتحسب.. ولكن لماذا تراها لا تختار غير الطيارين؟ واجاب الاخر.

- انه بسبب من لون بزتهم العسكرية.. فانه يرى في الظلام.

واشعلت انا سيكارة، وقال صاحب المقهى الصغير وهو يمسح فنجانا فارغا ويعلقه وراء ظهره:

– في رأيي ان الحرب هي التي افسدت النساء.. حتى ان الكثيرات قد اختبلن او جنن.. حتى عدن لا يعرفن الشر من الخير..

فقال قاطع التذاكر:

– بل هي الرياضة البدنية التي أفسدت كل شيء، فقد نمت عضلاتهن حتى أصبح في وسع الفتاة ان تلقي الفتى ارضا وكأنها وحش صغير.

وقال السائق:

– هذا صحيح.. والشر يأتي من مساواة الجنسين.. ومن حق التصويت للمرأة خاصة.. وما كان ينبغي لهن..

وقال الشاب الطيار مستخفا:

– ليس حق التصويت هو الذي أحال النساء شرسات متمردات.. فهذه هي طبيعتهن، وانما في الشرق وحده يعرفون كيف يروضون النساء.. انهم يحتجزونهن..وهذه هي الطريقة الصحيحة لكي نأمن شرهن..

وشدتني فتاتي من كمي، وكانت قد انتهت من شرب القهوة، ثم اشارت برأسها الى الشارع، فخرجنا معا فرأيت الشاب الطيار يتبعها نظرة وسرنا في الشارع، ولا ينفك المطر ينهمر، ثم أصبحنا امام المقبرة.. فتوقفت ونظرت الي وابتسمت وقلت انا:

– وماذا ترانا سنفعل؟

وأجابت:

– ان القبور تكون احيانا مسطحة

فقلت جازعا:

- ثم؟

فأجابت:

- نستطيع ان ننام فوقها. ودخلنا المقبرة.. وجعلت تسير بي بين القبور.. وما لبثت ان تمددت فوق أحدها.. وقد وضعت ذراعيها تحت رأسها واغمضت عينيها.

لم اكن اتوقع شيئا من هذا.. وانما كنت احب ان نسير معا حتى باب بيتها ثم نتواعد على اللقاء.. وقلت لها:

-سيبللك ماء المطر اذا بقيت مستلقية هكذا.

واجابتني:

- لقد اعتدت هذا.

وفتحت عينيها وصوبت نظرها اليّ فرأيت حدقتيها تبرقان في ضوء مصباح يتأدى الينا نوره باهتا من بعيد.. انهما لم تعودا عيني القطة الخاملة.. كان فيهما حنان، لطف، وأسى.. وقلت:

- هل تعودت ان تنامي تحت المطر؟

وأجابتني:

-هكذا نشأت.. كانوا في الملاجيء يسموننا: أطفال الحرب الضائعين.

- الم يرحلوكم؟

- كنت انااعود دائما

- اليس لك أهل؟

- كلا. ان القنبلة التي دمرت بيتنا قتلت أمي وأبي أيضا.

- وهل أنت تعملين في السينما منذ زمن طويل؟

- منذ ثلاثة أسابيع فقط.. ولكنني سأستبدل به عملا آخر.

- ولم؟

- انها اعصابي.. فما عادت تتحمل..

وعلى حين غرة رفعت يديها واخذت وجهي بلطف ورقة وقالت:

- ان لك وجها جميلا.. وحدثتها عن نشأتي، وعن عملي، وعن دار أسرة تومبسون وعن حياتي اليومية، وعن وحدتي، ومما ارجوه من حبها.. وعن حياتنا الزوجية المقبلة.. وسعادتنا.. ولست ادري: هل هي أصغت الى ما قلت أم لا.. غير انها سألتني فجأة:

- الم تعمل في الطيران أثناء الحرب؟

- كلا.. وانما كنت اعمل في غرفة الآليات.. انهم جنود عقلاء.. موزونون..

فقالت:

- هذا يسرّني حقا.. وانك؛ لرجل طيب..

وتساءلت: اتراها عرفت أحد اولئك الطيارين المتهورين.. فكان هو سبب

ضياعها؟ وتذكرت صورتها وهي تنظر الى الشاب الطيار في المقهى الصغير.. كانت كأنها تفكر.. كأنها تتذكر.. وسألتها:

– لماذا تراك ناقمة عليهم؟ وماذا دهاك من الطيران؟

– لقد دمر بيتي..

– انهم الالمان.. أما طيارونا فلا..

– جميعهم سواء.. جميعهم قتلة..

وقررت في ذهني ان اجعل منها حبيبتي وزوجتي.. احميها.. وادرأ الشر عنها.. وانحنيت وأخذتها بين ذراعيّ.. ورفعتها الى صدري..وقلت:

– اسمعي.. لقد اشتد هطول المطر.. سأذهب بك الى غرفتي.. والا قضيت نحبك من البرد وانت ممددة هكذا..

ولكنها ابت.. وقالت يجب ان تعود وحدك.. وستغضبني اذا رفضت. وكانت عيناها تبرقان.. ثم اردفت:

– يجب ان تعود.. وتتركني هنا.. ولا تلتفت وراءك ابدا.. ولا تهتم بي ..

ولما قلت لها انني سأبحث عنها مساء الغد في دار السينما لم تجب بشيء.. وانما هي ابتسمت فقط، وكانت قد اعتدلت جالسة دون ان تتحرك، وراحت تنظر الي، ثم أغمضت عينيها.. والقت برأسها الى الخلف وقالت: «أعطني قبلة أخرى..»

وتركتها كما ارادت.. وعدت ماشيا الى غرفتي في دار اسرة تومبسون.. وفي الغداة اشتريت لها حلية صغيرة جميلة بكل ما ادخرته من مال.. ولما ذهبت

مـسـا ء الى دار الـسـينمـا اذهلني انني لم اجدها.. ولما سألت عنهـا قـبل لي ان البوليس جاء فاقتادها.. وقد استدعى مدير الدار ايضا.. للتحقيق معه..

وحسبت انها حاولت الانتحار بالموت بردا حيث تركتها في المقبرة، ولكنهم ادركوها.. وهم الان يحققون معها.. وامضيت يومي مهموما مغتما، وصورتها لا تزال في مخيلتي.. وقلبي يخفق بحبها..

وقبيل انتهاء وقت العمل جعلت اتجاذب الحديث مع صاحب «الكراج»

وسمعته يقول:

- وهذا شيطان آخر مسكين قد قتلوه.. انه الثالث في ثلاثة اسابيع.. وجدوه كما وجدوا الاخرين وقد اخترقت المدية أحشاءه فقضى نحبه في المستشفى.. لكأنما المقصودون هم الطيارون انفسهم.. اجل ان ثلاثتهم من الطيارين.. وفي كل مرة وجد الطيار القتيل قريبا من المقبرة.. ويزعم البوليس ان القاتلة امرأة.. وهم جادون في إلقاء القبض عليها قبل أن ترتكب جريمة رابعة.. واذن فليس الرجال وحدهم قد أصيبوا بالجنون الجنسي، فالنساء أيضاً مصابات بهذا الجنون فيما يبدو..

وانطلقت انا الى الشارع.. واشتريت صحيفة يومية وقرأت فيها أن الطيار أفاد، قبل وفاته، ان احداهن.. تحككت به فتبعها.. وكان قد رآها قبل ذلك في مقهى صغير تشرب القهوة مع رجل آخر. وحسب انها تخلصت من رفيقها لانها مالت اليه هو.. ولكنها ما ان سار معها خطوتين حتى استلت مدية مشحوذة واغمدتها في صميم بطنه.. وقالت الصحيفة ان الطيار ذكر اوصافا مفصلة للقاتلة، وان البوليس يرجو الرجل الذي كان معها في المقهى ان يظهر نفسه ليساعد في التحقيق.

والقيت الصحيفة.. ورحت أسير هائما على وجهي في الشوارع حتى خارت قواي.. ولما عدت الى غرفتي وجدت السيدة تومبسون قد وضعت قرب السرير زجاجة «تيرموس» مليئة بالشاي والى جانبها آخر طبعة من احدى صحف المساء..

كانوا قد القوا القبض عليها.. ولم أقرأ المقال.. ولا الاسم.. ولا أي شيء آخر.. وانما جلست على سريري، وفتحت الصحيفة.. ورأيت في وسط الصفحة الاولى رأيت صغيرتي، فتاتي.. تنظر الي بعينيها.

وأخرجت من جيبي العلبة الصغيرة.. الهدية التي اعددتها لها.. وفتحت العلبة.. وتناولت الحلية الذهبية.. انها قلب صغير احسست كأنما هو يخفق باستمرار في راحة يدي.

سي. ب. دونيل (امريكا)

القاتلة

مثلما كانت (الفيلا) البديعة بأزهارها الصارخة لا تطابق ما كان يتوقعه فكذلك كانت صاحبتها قد ادخلت عنصرا جديدا في حسابها.. لقد كانت السيدة (شالون)- وهي في الاربعين من عمرها- لا تنتمي الى أي نوع من المجرمين.. وهي ما كانت (كليوباطر) ولا كانت ربة جحيم شرسة. وانما هي- فيما قال لنفسه- أشبه ما تكون بـ (مينيرفا) ربة الحكمة والجمال فعيناها واسعتان، صافيتان، ازهى قليلا من زرقة البحر الابيض المتوسط الذي يبدو متألقا من نوافذ غرفة الاستقبال العريضة التي اجتمعا فيها. ثم قال في نفسه بعد تفحص أعمق لشخصها، انها ليست بالتمام والكمال كربة الحكمة مينيرفا.. فان مخمل خديها المتوردين الناعمين يجعل من يرنو اليها يحسبها فتاة في الثامنة عشرة من عمرها.. واكتمال تكوينها ورقتها وحلاوتها تدعو الى اشتهائها، وهي لو كانت كغيرها امرأة فظة غليظة، ولها وزنها نفسه لحسب من يراها انها تخطو حثيثا نحو البدانة، اما السيدة «شالون» كما تبين بغريزته، فان جسمها لراسخ حقا كتلة وقدا، وستكون حين تبلغ الستين من عمرها مثلما هي الان دون زيادة أو نقصان..

وقالت له:

- أتحب كأسا من كونياك ديبونيه أيها المفتش ميرون؟

وفيما كان هو يتحدث تهيأت هي لتصب له كأسا من الخمر. وكان رد الفعل الذي ادى به الى التردد قد اضاء عينيه ببريق عابث، غير ان تربيته الحسنة حالت دون ظهور ابتسامة الاستخفاف على شفتيه وقال:

- وشكرا..

وعلى الفور استاء من نفسه، فقد وضع في كلمته من قوة العزم اكثر مما يجب.

وبقصد لا يكاد يبين فان السيدة «شالون» شربت هي أولاوكأنها تريد ان تقول: «انت ترى يا سيد ميرون انك لا تجازف بشيء» وكان هذا منها دهاء، بل مزيدا من الدهاء.. ثم قالت بابتسامة صغيرة ودون مواربة على الاطلاق:

- جئت تراني لانني قتلت زوجي الاثنين بالسم.. أليس كذلك؟

وقال هو:

- سيدتي..

ثم تردد من جديد وعاد يقول مندهشا:

- سيدتي... انني

الا انها أجابته بهدوء:

- لا شك في انك مررت بالمحافظة قبل مجيئك.. ان «فيلفرانش» كلها واثقة من انني انا القاتلة..

- سيدتي.. لقد أتيت لاسألك السماح باستخراج جثة السيد «تشارلزوبسر»

المتوفى في شهر يناير سنة ١٩٣٩، وجثة السيد «اتيان شالون» المتوفى في شهر مايس سنة ١٩٤٦ لكي يجري الخبراء تحليل احشائهما، ولقد سبق ورفضت هذا الاستئذان للرئيس «لوشار» من مركز بوليس منطقة سكنك.. فلماذا؟

- ان «لوشار» لا يتصف باللباقة والكياسة.. فاعتراني الاشمئزاز منه.. على نقيضك انت.. وانا انا ارفض موقف الرجل ولا اتأبى على القانون.

وحملت الكأس الصغيرة الى شفتيها المكتنزتين.. ثم قالت:

- هذا الاستئذان لن ارفضه لك انت ايها المفتش ميرون..

وبدا في نظرتها اليه ما يشبه الاعجاب فقال مفتش البوليس:

- انك تطرينني يا سيدتي:

ولكنها اردفت تقول بلطف:

- ذلك انني واثقة كل الثقة ان الجثتين قد نبش عنهما واستخرجتا سرا..

فأنا اكثر الناس معرفة بوسائل وأساليب البوليس الباريسي..

وانتظرت ان ترى الاحمرار يعلو خديه، وهي تتظاهر بأنها لا تلاحظ شيئا من هذا القبيل. وتابعت كلامها كأن لم يقطعه شيء:- وقد اتم الخبراء تحاليلهم فازدادت حيرتكم لانكم لم تجدوا شيئا.. وانت، انت الذي لم يهتم بهذا الموضوع، فأنك تريد ان تزورني.. وان تعرف طباعي وانت تعلم الى أي حد استطيع ان اتمالك نفسي.. وان تتبين مدى ما يمكن ان يتاح لك من فرص لتجرني الى حديث يعطيك أدلة ارتكابي الجريمة..

وقد أصابت ملاحظتها الهدف الذي ارادته بدقة عظيمة، ظن معها انه

سيكون أغبى الاغبياء لو تجاهل انه قد تأثر حقا.. ولذلك فقد رأى ان الصرامة اولى واحق فقال:

- ان ما تقولينه صحيح تماما.. صحيح بالحرف الواحد.. ولكن..

ونظر اليها بانتباه وعاد يقول:

- ان المرأة حين تفقد زوجين بلغا سنا معينة، دون ان يكونا هرمين مع ذلك، على أثر اضطرابات معوية، وقبل ان يمضي عامان على زواجها من كل منهما، في حين لا وارث لثروة كل من الزوجين غير ارملته.. انك تدركين ما أقول بالطبع..

- أجل ..

ودلفت السيدة «شالون» الى النافذة مما اتاح لاستدارات جسمها ان تبدو في منتهى روعتها واغرائها، وقالت:

- أتحب أيها المفتش ميرون، ان ادلي لك بالاعتراف الذي تريده؟ كاملا؟

وبدت مثيرة كل الاثارة.. وذات انوثة قاهرة، وكان لرنة صوتها ما يشبه الملاطفة، او المداعبة الآسرة.. فأدرك ميرون ان عليه ان يكون شديد الحذر والاحتراس. فقال بكل ما استطاع اصطناعه من قلة الاهتمام:

- هذا اذا اردت انت يا سيدة «شالون»

لقد كانت امرأة خطرة.. خطرة الى أقصى حد.. وقالت

- واذن.. فاني سأمنحك هذه المتعة..

ولم تكن السيدة شالون تبتسم، ومن النافذة المفتوحة تصاعدت اليه نفحة من

الهواء محملة بالاريج.. ربما كان أريج الحديقة، وزيادة في الحيطة والحذر لم يتأهب لتسجيل اية ملاحظة وهو لو فعل ذلك لما وافقت ان تتحدث بما يريد من طلاقة وحرية، وسمعها تقول:

– اتراك قليل المعرفة بفن الطهو يا سيد ميرون؟

– انني من باريس كما تعلمين واهل باريس اصحاب فن في طهو وطبخ.

– وانت كذلك في الحب ايضا؟

– قلت لك انني من باريس.

– واذن...

ثم استنشقت هواء ملأ صدرها وعادت تقول:

– أستطيع ان أقول لك انني أنا «هورتانس اوجيني فيلوروا» زوجة «ويسر» ثم زوجة «شالون» قد قتلت ببطء عامدة متعمدة وباختياري التام زوجي الاول «ويسر» البالغ السابعة والخمسين من عمره، كما قتلت فيما بعد زوجي الثاني «شالون» البالغ من العمر الخامسة والستين.

– لسبب ما دون شك..؟

اكان هذا حلما يحلمه.. ام تراها قد جنت جنونا مطبقا؟ ومضت هي تقول:

– لقد تزوجت. السيد «ويسر» خنزير.. خنزير لا حد لرغباته الجائعة.. كان فظا غليظا، ايها المفتش، وكان دعيا، غائصا في قمامة رذائله، وكان يسرق الفقراء ويجردهم من كل شيء، وكان يخدع الابرياء.. وكان شديد النهم والشراهة.. وكان رجلا حقيرا وله عادات تشمئز منها النفس.. وباقتضاب كانت

فيه جميع العيوب القبيحة المثيرة، دون ان يتصف بشيء من حنان او رقة او حرص على كرامة سنه.. وبسبب من هذا كله كانت معدته في حال سيئة..

وكان مفتش البوليس قد درس قضية السيد «ويسر» ووضعه في مدينة باريس واستطاع ان يكون لنفسه صورة مشابهة عنه، فأمن على ما تقول ثم سألها:

- والسيد شالون؟

- كان أكبر منه سنا.. كما كنت انا اكبر سنا لما تزوجته..

وسألها مرة اخرى في شيء من السخرية؟

- وهو أيضا كان ذا معدة سيئة؟

- بكل تأكيد.. وربما كان الاصح ان تقول انه ضعيف الارادة.. وربما كان اقل حيوانية من ويسر.. بل ربما كان اسوأ.. في الواقع.. كان يعرف عددا كبيرا من الالمان.. والا فلماذا كانوا- في عنفوان احتلالهم فرنسا في أثناء الحرب- يجهدون لكي يقدموا لنا اطيب الطعام وافخر الشراب مما لا سبيل الى الحصول عليه، في حين كان يغمى على الاطفال جوعا كل يوم وهم في الشوارع؟ ربما اكون مجرمة ايها المفتش، غير اني ايضا فرنسية.. وقد قررت- دون ما رحمة- ان شالون يجب ان يموت كما مات ويسر..

وقال لها بصوت هادىء لكي لا يزعجها في اعترافها:

- وكيف كان ذلك يا سيدتي؟

فالتفتت اليه وقد استضاء وجهها بابتسامة حلوة:

- لعلك تعرف تلك الاطباق الشهية مما يقلى، او يحمر، ومما يحشى على الطريقة التركية، وربما ذقت الدجاج المطهو على الطريقة الهندية، وديك الحبش المحشو بالكستناء، والعجة النابولتانية والطواجن ذات البهارات والافاويه، والرقائق الدسمة، والمعجنات اللذيذة و..

- حسبك ايتهاالسيدة شالون.. لقد اثرت في شهية مجنونة..

- لقد سألتني عن وسائلي في قتل ذينك الرجلين.. ايها المفتش ميرون.. وانني استخدمت هذه الاطباق الشهية ومئة اخرى غيرها.. وفي كل من هذه الأطباق كنت أخفي قطعة من..

وأمسكت عن الكلام فجأة، وبذل المفتش ميرون جهدا خارقا ليظل ساكنا هادئا وهو يشرب آخر جرعة من كأس، وحال بقوة خارقة دون ارتجاف يده، وهو يسألها:

- كنت تخفين قطعة من أي شيء ايتها السيدة شارلون؟

- لقد تحريت كل ما تريده عني.. فأنت تعلم اذن من كان ابي..

- أجل.. انه جان ماري فيلوروا.. من سادة العارفين في فنون ما يؤكل وما يقدم على الموائد..

- وكان رحمه الله يعتبرني، وانا بعد في الثانية والعشرين من عمري، نظيرته في فنون المائدة..

-عظيم جدا.. واني لانحني أمامك يا سيدتي.

وادارت له السيدة شالون ظهرها.. فأذهلته كتفاها، ولم يستطيع ان يمتنع عن

تأمل قدها.. وردفيها.. وسمعها تقول وهي تطل على البحر:

- كنت ادس لهما قطعة من فني.. ولا شيء غير هذا.. لا شيء غير هذا ايها المفتش.. قطعة من فن الطعام الجيد.. الذي لا يعرفه غيرمشاهير السادة من الطهاة.. واي رجل من طراز «ويسر» او شالون كان يسعه ان يقاوم؟ كنت اقدم لهما ثلاث او اربع مرات في اليوم هذه الاطباق الشهية الغنية بما لذ وطاب من بين الالذ والاطيب، وكنت أنوع هذه الاطباق تنويعا مدهشا.. وكنت ارغمهما ان يأكلا حتى يتخما.. وحتى يستغرقا في النوم استغراقا.. وان يحتسيا من النبيذ ما يدفعهما الى مزيد من النهم.. فكيف استطاعا، في مثل سنهما، ان يعيشا مدة اطول مما قدرت لهما؟

وساد الحجرة صمت ثقيل. ثم قال مفتش البوليس:

- والحب يا سيدتي.. واني لارجو معذرتك.. فانك انت اشرت اليه في حديثك..

- أما بشأن الحب.. فان غذاء غنيا جدا كالذي ذكرته لك يهيء الامر لممارسة الحب.. او لشيء شبيه به.. كانا هما يسميانه حبا. وكنت انا طوع ارادتهما.. وما كنت لاثبط عزيمتهما ان يبحثا ايضا عن بعض الصديقات الصغيرات، وهكذا قضى كل منهما نحبه: السيد ويسر في السابعة والخمسين من عمره، والسيد شالون في الخامسة والستين. وهذا كل شيء.

وساد الصمت مرة اخرى، صمت مليء بالترقب. ونهض المفتش ميرون على حين غرة، وبشدة جعلتها تنتفض وتستدير وقد شحب وجهها.. ثم قال:

-ستتبعينني الى مدينة نيس هذا المساء..

- الى مركز البوليس ايها المفتش؟

- بل الى «الكازينو» هناك لنشرب الشمبانيا على أصداء الموسيقى. وسنواصل حديثنا..

- ولكن، أيها المفتش ميرون!

- أصغي لي يا سيدتي. انا غير متزوج.. وفي الاربعين من عمري.. وقد قيل لي انه لا بأس بشخصي.. واستطعت ان ادخر بعض المال.. ولن اكون زوجا مرموقاً، ولكن لن اكون زوجا تزدرينه على كل حال..

وحدق في عينيها وقال:

- اشتهي ان اموت انا ايضا. ثم اعتدل جيدا ليظهر جمال قامته في حين كانت السيدة شالون ترمقه معجبة به ومستصوبه رأيه باخلاص.. ثم قالت:

- ان الطعام الجيد اذا ما تناوله المرء باعتدال لا يمكن ان يكون بالضرورة وخيم العاقبة، والان.. اترى ان تقبل يدي ايها المفتش ميرون؟..

وانحنى على يدها يقبلها بشغف عظيم..

ف. غراي (امريكا)

الحقيبة

– الم يصل بعد مسجل العقود؟

كان هذا هو السؤال الذي وجهه «ر. س. راندولف»، ملك الفولاذ الى الممرضة الجالسة الى جانب سريره.

واجابت وهي تمهد وسائد هذا الرجل المريض:

– لا بد ان يحضر السيد «كنوكس» في لحظة او اخرى.

وبعد مضي بضع دقائق كان السيد كنوكس ينقر على باب الغرفة مستأذنا بالدخول، فهز السيد راندولف رأسه راضيا وهو يرسل نظرة خاطفة الى ساعة الحائط.

قال المليونير للسيد كنوكس مسجل العقود وقد ارتسمت على شفتيه ابتسامة خفيفة:

– لم يبق لي متسع من الوقت، والوقت كما تعلم ذلك جيدا، هو الشيء الوحيد الذي لم امتلكه على وجه التقريب، وانا – لهذا السبب – لا زوجة لي ولا ولد.. فما كان في الوقت سعة لزواج.. ولقد استدعيتك لان الأطباء هم الان

الذين لا يريدون ان يدعوا لي وقتا لاعيش.. وانا قد نظمت كل الامور المتعلقة بمعظم ثروتي ومصانعي.. واليوم بقي علي الوفاء بدين شخصي.. واني لشديد الاهتمام به اهتمامي بمصانعي. اترى تلك الحقيبة الجلدية المعلقة على الحائط هناك؟ وبهت مسجل العقود ثم قال:

- أهي تلك الحقيبة العتيقة البالية؟

ثم اردف يقول بلا نباهة:

- حسبتها تخص الممرضة..

وأجابت الممرضة ممتعضة:

-أرجوك يا سيدي.. من تراه تطاوعه نفسه على استعمال مثل هذه الحقيبة؟

ثم غادرت الغرفة باشارة من المريض.

وقال المليونير بابتسامة رقيقة:

- أجل. ان هذه الحقيبة قديمة وبالية.. الا انها لعبت في حياتي دورا خطيرا.. وانت تعلم يا صديقي المكان الذي هاجرت منه الى الولايات المتحدة، ولقد استحوذ الصحفيون على تاريخ حياتي كله.. ونبشوه نبشا.. بل هم قلبوه ظهرا لبطن.. باحثين مدققين.. الا ان ثمة امرا واحدا لم يتحدثوا عنه.. هو.. تلك الحقيبة. وحقيبتي تلك وقعت عليها ملقاة على مقعد في «هوبوكن ستيشن» التي تبحر منها البواخر العابرة.. وفي ذلك العهد كانت الحقيبة جديدة.. وكانت نموذجا متقنا للحقائب التي يستعملها أولئك التافهون أبداً، عارضو السلع ونماذج المصنوعات من التجار الجوالين. وانا نفسي عند وصولي الى نيويورك، كنت احد اولئك المرهقين الذين لا يجدون الى الراحة سبيلا.. وكان في هذه الحقيبة بعض

النماذج. اتراك تدري ما هي؟.. كلا، اذن فاعلم انها كانت المثال الاول لآلة حلاقة اتوماتيكية ومعها عدة رزم صغيرة ملأى بالشفرات.. وبعد لحظات تأدت الي صيحات تقول ان جثة غريق قد انتشلت من نهر الهيدسن.. وسمعت لغطا تبينت منه ان الغريق يمثل مصنع وعرضت نفسي لاكون ممثلا له.. فقبل عرضي.. أرجو ان لا تسيء الحكم عليّ يا سيد كنوكس.. فقد بحثت حتى عرفت عنوان اسرة الغريق المتوفى، وبقيت طيلة حياتي شديد العناية والاهتمام بأفراد تلك الاسرة.. وبالطبع فانه لم يسعني الاخذ بأيديهم ورعايتهم الا بعد انقضاء بضعة أشهر.. ولقد كانت البداية عسيرة، فقد كان الحلاقون- ومنذ ذلك الحين- يمتلكون، بالاضافة الى اعمال مهنتهم، وكالات لمصانع مشابهة. ولهذا السبب كان العمل شاقا وقاسيا في وجه الجّوالين الذين يمثلون ذلك المصنع بالذات.. حتى كتب له الفوز على منافسيه..

ولقد حملت الي تلك الحقيبة اليمن والخير.. فازدهرت أعمالي واتسعت، وبعد وقت ما استطعت ان تكون لي حصة في ذلك المصنع.. ثم اصبحت، فيما بعد، مدبرا عاما له، وما انقضت بضع سنوات حتى غدوت رئيسا لمصانع آلات الحلاقة مجتمعة. غير ان الحقيبة لم تفارقني قط.. بل ظلت تصحبني في حلي وترحالي دون انقطاع..

وقال مسجل العقود:

- والآن.. ماذا ترانا سنفعل؟

- لقد قررت في وصيتي ان هذه الحقيبة يجب ان توضع ليلا- يوم وفاتي- على المقعد نفسه الذي وجدتها فوقه فيما مضى بـ «هوبوكن ستيشن» وستكون بكل ما فيها من نصيب من يجدها سواء قدمها للبوليس او احتفظ بها..

وبعد اسبوع قضى المليونير السيد راندولف نحبه، ونفذ السيد كنوكس

مسجل العقود وصيته الاخيرة: ففي حوالي منتصف الليل وضع الحقيبة على المقعد الموجود في الناحية الشمالية من مرفأ البواخر العابرة..

وقد وجد الحقيبة سائق سيارة عائد الى بيته بخطى ثقيلة بعد انتهاء عمله، ففتحها واستخرج منها آلة حلاقة عتيقة صدئه وراح يتفحصها في ضوء مصباح العمود الكهربائي، ثم اعادها الى الحقيبة.. ولما كانت هذه الحقيبة رثة مهلهلة فقد تركها حيث كانت ومضى وكان الذي لمحها بعد ذلك نادلأيعمل في بار مجاور، ففتحهاوأخرج، منها مرآة صغيرة ثم القاها.

ومر زنجي يأتيه رزقه من عمله ليلا في أحواض السفن فرفع الحقيبة، ونظر في محتوياتها فأخذها وألقاها على الارض، ودس في الحقيبة قميصه الملطخ ببقع الزيت الذي يرتديه في أثناء عمله، ومضى بها تحت ابطه ثم ركب قطار «المترو» الذي حمله الى حي «هارلم» حيث يقيم- مع زوجته واولاده الثلاثة- في شقة صغيرة مؤلفة من حجرتين.. وفي الغداة باعها لقاء بضعة سنتات لأحد تجار الاشياء القديمة، فأخذها هذا ونظفها ولمع جلدها بمادة خاصة ثم عرضها، ظاهرة للعيون، في واجهة دكانه..

واشترى الحقيبة بحار فوضع فيها اشياءه القليلة وذهب بها الى باخرته التي أبحرت في المساء نفسه الى مدينة جنوا..

وعندما أبحرت الباخرة عائدة من جنوا الى أميركا كان على ظهرها اكثر من الف مهاجر بينهم اسرة ايطالية اصلها من «ليفورن»، وكانت هذه الاسرة مؤلفة من الزوج وامرأته ووالد هذه المرأة وابنائهما الستة الذين تتراوح اعمارهم بين السنة الثانية والخامسة عشرة..

ولما اقتربت الباخرة من ميناء نيويورك قدم البحار حقيبته هدية لاصغر الذكور من ابناء رب الاسرة الايطالية، وهو أسود العينين وفي الثامنة من عمره..

ووضع «غابريلو» الصغير في الحقيبة قميص نومه المرقع وزوجين من الجوارب ثم مضى مزهوا والحقيبة تحت ابطه، وغادر الباخرة مع اسرته الى محجر في «ايليس آيلاند»، وبعد مرور خمسة عشر يوما من الحجر الصحي سمح للمهاجرين بالاتجاه الى نيويورك: وقد دبرت شركة الملاحة أمر ايوائهم الايام الثلاثة الاولى. وفي هذه الاثناء جعل «غابريلو» الصغير يتفحص حقيبته بفضول شأنه في هذا شأن جميع الاطفال، ولقد تفحصها بدقة من هنا وها هنا حتى انشقت بطانتها البالية من اولها الى آخرها.. وعلى الفور انزلقت من البطانة المشقوقة ورقة خضراء، سقطت على الارض.. فانحنى غابريلو والتقط الورقة فـ' ! هي «شيك» مدعوك تماما.. فذهب الصبي من فوره حاملا ما وجده الى والده.. وقرأ الوالد في الورقة التي مد الصبي بها يده ما يلي: «على بنك نيومور شانت ان يدفع لحامل هذا الشيك مبلغا وقدره اربعمئة وثمانون ألف دولار»..

وأخفى والد غابريلو في جيبه الورقة الثمينة.. وهو يدير بصره بحذر واحتراس فيما حوله..

ولكن ما من احد لاحظ أنه دس في جيبه شيئا.. ولم يجد الايطالي بعد ذلك الجرأة ليتقدم بالشيك الى البنك.. وما استطاع ان يمتنع عن التفكير بأن هذا الشيك بالمبلغ الهائل المذكور فيه لا بد ان يكون مسروقا، او على الاقل قد فقده صاحبه واعتقد، دون اي ريب، ان كل من يتقدم بهذا الشيك ليقبض قيمته سيلقى عليه القبض حتما.

وغادر غابريلو وابواه مدينة نيويورك الى «غولدن ويست» حيث وجد الاب عملا له..

وانقضت سنوات ثلاث لم يجد احد خلالها الجرأة ليتقدم بالشيك الى البنك. وروى الايطالي قصة الشيك ذات يوم لاحد زملائه في العمل، فقال الرجل:

- ان امرك مضحك حقا، فما عليك الا ان تقول انك وجدته، فاذا كانت قيمة الشيك لا تزال قائمة- وهو ما لا اعتقده- فان لك الحق بمكأفأة قدرها خمسة في المئة على الاقل..

ولقد يحدث في الحياة ما قد يبدو غير ممكن.. فان البنك الذي تقدم اليه الايطالي بالشيك اتصل على الفور ببنك «نيومور شانت» بمدينة نيويورك مستوضحا الامر، فعلم أن هذا الشيك بموجب وصية لا غبار عليها قابل للدفع لحامله فورا ودون اي تحفظ..

وهكذا هبطت في الايدي الخشنة القاسية لافراد تلك الاسرة الايطالية البائسة ثروة مقدارها (٤٨٠,٠٠٠) دولار، أو على الاصح في يدي غابريلو الصغيرتين، وهو الذي التقط الشيك الذي سقط من «حقيبته» ولقد اقتسم، بأمانة، المبلغ الجسيم مع افراد اسرته.. وكانت الحقيبة قد اتمت شوطها المقدور لها.

واليوم فان هذه الحقيبة ترى معلقة على جدار غرفة المدير العام لمصنع من أهم مصانع السيارات الاميركية.. أجل.. المدير العام الذي ليس سوى غابريلو الصغير ذي العينين السوداوين وكان قد جاء منذ سنوات الى الولايات المتحدة دون ان يكون في جيبه «سنت» واحد. وما دام غابريلو على قيد الحياة فان «الحقيبة» لن تغادر مكانها.

ف. ويستون (امريكا)

اللقاء الرهيب

كان الأفريز اد ´تيء، في واجهة الطابق السادس والعشرين من العمارة الضخمة الشاهقة، ضيـ لا يتجاوز عرضه الاربعين سنتمترا وكان الرجل واقفا فوقه بين نافذتين، ووجهه يطل على الفراغ تحته. وكان يتأمل- من علو سبعين مترا- المارة الذين الهبتهم الشمس بحرارتها، وبسط راحتيه معتمدا بهما على الحائط. وكانت وجوه الناس ترتفع الى السماء مشرئبة نحو تلك البقعة البيضاء، المسمرة على شكل صليب، الى واجهة العمارة المغبرة، فتبدو تلك الوجوه وكأنها بحر مائج متلاطم. وكان هذا البحر يتضخم ويتعاظم، وينداح موجه على الطرقات، وكلما توافدت جماعات جديدة كانت تضطر ان تغير مواقفها، وتنتقل بعنف هنا هناك، كفراش مذعور تطارده ايدي المتجمهرين. كان هذا كله يبدو غاية في الضآلة، وكأنه أمر لا حقيقة لوجوده. وكان الرجل قليل الاهتمام بالوجوه المروعة التي تتراءى له كل لحظة من النافذتين، عن يمينه مرة وعن شماله مرة اخرى: لقد أطل اولا عامل الكهرباء وقد زوى ما بين عينيه فتأمله بنظرة غير مصدقة ما ترى في بادىء الامر، ثم استحالت الى نظرة منكرة، قبل ان يهرول منذرا بالخطر.. ثم جاء بعده عامل المصعد، فهتف بصوت أجش:

- أتريد ان تثب؟ انك لن تنجو ابدا من وثبة كهذه..

وبعد لحظة أطل رأس وكيل المدير بدوره، فأخذت الستائر تتطاير في وجهه الحليق النظيف وبدت عليه امارات الحنق وقال:

- عفوك يا سيدي..

غير ان الرجل، الذي رشح نفسه للانتحار، محا وجود وكيل المدير من عالمه بحركة من يده.. الا ان الوكيل عاد يقول واثقا من نفسه، معتدا بمبادئه:

- ان مشروعك جنون مطبق..

واخيرا ظهر مدير الفندق نفسه، بوجهه المستدير الاحمر. وجعل يراقب الرجل بضع ثوان قبل ان يسأله؟

- ماذا تراك تفعل ثمة؟

وأجابه الرجل:

- اريد ان اثب..

فقال:

- من انت، وما اسمك؟

فأجاب:

- اسمي كارل آدمز..

واردف مدير الفندق يقول:

- فكر قليلا يا صديقي..

وكان ذقنه السمين المزدوج يرتعش وهو يتكلم، ووجهه يحتقن بسبب الجهد الذي يبذله لكي ينحني فوق النافذة. ورد الرجل قائلا:

- لقد فكرت جيدا.. فدعني وشأني..

وتعاقب على النافذتين طبيب، وكثيرون من اعضاء ادارة الفندق، وقس. وقال القس مترددا:

- ارجع فسوف ندرس المشكلة معا. واجاب آدمز:

- ليس ثمة ما يقال. وعاد القس يقول:

- اتريد ان اساعدك لتعبر النافذة؟وقال آدمز:

- اذا حاولت انت الاقتراب أو أي شخص آخر، فاني سأقفز فورا..

ومضت برهة دون ان يزعجه احد.. ثم بدا في اطار النافذة وجه عسكري المرور، وراح يتأمل آدمز، لحظه بنظرة لا تخلو من قحة، ثم قال:

- وبعد.. ماذا دهاك.. يا صديقي؟..

فالتفت اليه آدمز، وتفحص وجهه وسأله:

- ماذا تريد؟

فقال عسكري المرور:

- كنت تحت.. فنوديت.. ويقال انك تريد ان تثب. ان هذا غير صحيح.. اليس كذلك؟ فأجاب آدمز:

– بل هو صحيح.. وعندئذ دفع عسكري المرور غطاء رأسه الى الخلف بحركة سريعة من يده، ثم جلس على حافة النافذة، وقال:

– انك تعجبني.. هل لك بسيكارة تدخنها ؟ واجاب آدمز:

– كلا..

وأخرج عسكري المرور سيكارة واشعلها، ثم استل منها نفسا عميقا، وعاد فأرسله في ضوء الشمس وقال:

– يا له من يوم جميل..

وأجاب آدمز وهو ينظر اليه:

– يوم جميل.. يصلح للموت. وسأله العسكري:

– الك اسرة.. وامرأة؟.. فقال الرجل:

– لا.. ليس أحد..

غير انه فكر في قرارة نفسه: «لقد كان لي زوجة.. منذ امد بعيد..» وفي الواقع لقد غادر بيته في الصباح ذاهبا الى عمله. وعند الباب قالت له «كيرين» الى اللقاء.. انها لم تقبله.. فقد عادا لا يقبل احدهما الاخر اطلاقا. الا انها كانت لا تزال امرأته، ولم يكن هو يحب غيرها. وقد احتمل صابرا ان تتحدث بحرية عن عشيقها «ستيف».. وكان هو على علم بكل شيء منذ امد طويل.. ودون ان يلتقي به، كان يعرف عن ذلك الرجل كل شيء. يعرف وجهه، وعاداته، مهنته، وساعات عمله. ولقد عاش ظل «ستيف» شهورا طويلة في عقر داره.. وبالامس عاد الى بيته في الساعة السادسة، فلم يجد فيه زوجة ولا أثرا لحب..

لا شيء على الاطلاق سوى زجاجة (غاردنيال) فارغة ورسالة، ويتا صامتا وجثة امرأته كيرين مسجاة فوق الاريكة. لقد تركت على الوسادة رسالة مكتوبة بعناية وتفكير وتوضيح. وكان فحوى الرسالة ان خليلها «ستيف» قال لها انه لن يستطيع ان يهرب معها. وهكذا فقد ذاقت مرارة الخيانة بدورها.. الا انها لم تصبر، ولم تطق الغدر فانتحرت. وغادر هو البيت ثانية وراح يذرع الشوارع حتى موهن من الليل.. وعلى مهل بزغ في ذهنه مشروع هو هذا الذي يوشك ان ينجزه الان. وكان قد أم هذا الحي من المدينة، واختار فندق «الامباسدر» ولم يكن يهمه ما فيه من ترف واسباب راحة. وانما الح ان تكون الغرفة، التي يريدها، في طابق عال. وكان يدرك ان الحوادث ستجري آخذا بعضها برقاب بعض على النحو الذي وضع له خطته. وقد انتظر هذه الساعة من النهار ان تكون حركة مرور السيارات على أشدها أمام الفندق، ويكون عسكري المرور قد نهض ثمة يؤدي واجبه في مراقبة حركة المرور.. وعندئذ قفز من نافذة غرفته الى هذا الافريز الناتىء الذي يقف عليه في هذه اللحظة.

لقد غدا الشارع الان مظلما من كثرة الذين احتشدوا فيه. وكان رجل البوليس يرد تدفق الجماهير لكي يفسح مجالا يقع بالضبط تحت الافريز الذي اعتلاه آدمز.. وكان في وسعه ان يرى رجال المطافىء وهم يمدون شبكتهم تحته، في حين يبدو هو اشبه شيء بموقد اسود اللون مما يستعمل لتحمير اللحم، وقد صبغ من وسطه بدائرة حمراء تحيط به.. وكان آدمز يدرك ان شبكة رجال المطافىء لن تكون ذات مفعول بالنسبة لجسم يهوي من الطابق السادس والعشرين، كما كان يعلم ان أحداً ما لن يستطيع الوصول اليه. وحتى سلالم رجال المطافىء كانت أقصر بكثير من ان تبلغه، كما ان افريز الطابق السابع والعشرين- الذي يعلوه مباشرة- كان يحول دون اية محاولة انقاذ تأتيه من أعلى. وراح آدمز يحدق النظر حوله بنهم.. ولم يعد يحس بالدوار كما احس به لحظة ان قفز من حافة النافذة الى الافريز الناتىء تحتها. وكان يقع في وهمه انه

قريب من العمائر الاخرى القائمة حوله. ومن جديد عاد عسكري المرور الى الظهور.. وكان آدمز يعلم انه لا بد ان يعود. وقال العسكري وهو يعود الى الجلوس على حافة النافذة:

- انك في الواقع تقدم لي، بتصرفك هذا، خدمة ما.

وسأله آدمز.

- وكيف كان ذلك؟

واجاب عسكري المرور:

- كان ينبغي في مثل هذا الوقت ان اكون عادة تحت، في الشارع، انظم حركة المرور، واذا كنت الان هنا في هذا الوضع المريح فان الفضل في هذا يعود اليك..

فقال آدمز.

- أصحيح هذا؟ ورد العسكري قائلا:

- أجل..

فقال آدمز.

- الافضل اذن ان تكون هنا، لانه ما من حركة مرور من أي نوع الان في الشارع وضحك عسكري المرور وقال:

- ان كل اولئك الناس تحتنا ينتظرون ان تثب. انهم يتمنون ذلك. وهم مقتنعون انك واثب لا محالة. ولذلك فهم لا يريدون ان يفوتهم هذا المنظر. وانك

ستخيب املهم ولا ريب.

وعندئذ ارسل آدمز بصره الى اسفل نحو الجماهير المتلاصقة المتراصة وقال له عسكري المرور.

- انك لا تستطيع سماع أصواتهم من هنا.. الا انهم يهيبون بك ان تثب..

وسأله آدمز.

- اتظن ذلك؟ فأجابه:

- أجل. انهم يحسبون انك مدين لهم بذلك ما دمت قد جعلتهم ينتظرون طيلة بعد الظهر.

وقال آدمز.

- لكأنهم حشد من الذئاب الجائعة..

وأجاب العسكري..

- وما من موجب لان تقفز غير ان تشيع في ابدانهم القشعريرة التي يتوقعونها..

ونظر عسكري المرور الى وجه آدمز وحسب انه يلمح فيه اماضة ارتياب، فعاد يقول له ببطء وبصوت مقنع.

- هيا.. تعال.. وليذهب هؤلاء الناس الى الشيطان.. وأجاب آدمز:

- لعلك على حق.. فقال العسكري.

- لا ريب في اني على حق.. وترنح آدمز قليلا، ثم استند الى الجدار، وغطى عينيه براحة يده.

وسأله العسكري. ما بك؟ فأجابه آدمز:

- انه شيء من دوار. أتستطيع ان تعطيني يدك؟

وتطلع عسكري المرور الى العمارة المقابلة، فوجد عددا من مصوري الصحف واقفين على سطحها، وآلات التصوير بين ايديهم استعدادا للعمل في الوقت المناسب.. فيا لها اذن من صور رائعة ستظهر في صحف الصباح.

وعندئذ قال:

- انني آت اليك، فتماسك ريثما اصل.

وانطلقت من حناجر الجماهير صرخة فزع، فقد تفز العسكري من فوق حاجز النافذة الى الافريز الناتىء، حيث وقف على بعد خطوات من الرجل. وكانت الجماهير تراقب عسكري المرور وهو يقترب منه بحذر، ويمد اليه يده. ومد آدمز هو الاخر يده نحوه. وقال:

- كنت أعلم أنك ستأتي. ولهذا السبب اخترت هذا المكان.

وسأله العسكري، وهو يحرص على حفظ توازنه فوق الافريز الرهيب:

- ماذا تقول؟

وقال آدمز:

- أيها العسكري انني أعلم من أنت.. انك «ستيف».. وانا ادعى آدمز،

ولقد كانت كيرين زوجتي.. انها انتحرت في الليلة الماضية.

وعندئذ امتقع لون العسكري وحاول ان يتراجع، الا ان الاخر كان قد أمسك بيده واطبق عليها.. ثم.. ثم.. لم يحدث اكثر من دفعة واحدة مفاجأة أعقبها التواء يائس للمقاومة..

ثم فقدا - معا - توازنهما وهويا من حالق نحو الجماهير الصاخبة.. ولقد كان آخر ما وعاه العسكري «ستيف» هو احساسه بيد صلبة قاسية، مطبقة على يده كماشة... .

جون آيدايك (امريكا)

عزيزي الكندروس

هذه ترجمة رسالة كتبها «الكندروس كوندوريوتيس» وهو صبي معوز، محتاج، يحمل رقم ٢٦٥١١ في حركه إشاعة الأمل وهي منظمة خيرية دولية رئاستها في مدينة نيورك.

تموز سنة ١٩٥٩

عزيزي: مستر ومسز بينتلي

يا أبوي الاميركيين، إنني أبدأ كتابي بالسؤال عن أخباركما وصحتكما، ثم انبئكما انني بخير وصحة طيبة، فحمدا لله وشكرا، واني لارجو مثل هذا لكما. حفظكما الله، وأسبغ عليكما الصحة والعافية ووهبكما السرور والبهجة والسعادة. في هذا الشهر انتظرت بفارغ الصبر أن أتلقى منكما رسالة، ولكن هذا لم يحدث لسوء الحظ، فقلقت واضطربت، وما أشد اشتياقي الى أخباركما أيها الابوان الاميركيان العزيزان. انكما تهتمان حقا بأمري، وأنا أتلقى مساعدتكما كل شهر، الحَر هنا شديد في هذه الفترة من السنة، إذ إننا في قلب الصيف. ان الكبار البالغين من الناس يقولون ان العمل في الحقول متعب وشاق.. أما أنا، عندما لا يكون علي ما أعمله في البيت، فاني أهرع الى شاطىء البحر لكي أسبح وألهو في الماء مع رفاقي.. وان البحر في هذا الوقت رائع حقا.. وهذه هي

الاخبار: العطلة المدرسية مستمرة الى ان نعود الى مدارسنا، ويومئذ نعكف على دروسنا بحرارة ونشاط جديدين. وفي هذا اليوم الذي اكتب لكما فيه رسالتي هذه تسلمت «الدولارات الثمانية» التي بعثتما بها الي عن شهر تموز فشكرا كثيرا.. وسأشتري بهذا المبلغ كل ما يلزمني، وسأشتري كذلك دقيقا لخبزنا اليوم. وقبل ان انهي رسالتي فانني ارسل اليكما تحية جدتي وشقيقتي، وانتظر ان اتلقى جوابا منكما، واطلع على أخباركما، وأعلم كيف تقضيان فصل الصيف، ولكما سلامي ووافر محبتي.

ابنكما، الكسندروس.

جواب «كنيث بينتلي» والد أميركي يحمل رقم ١٠٦٣٨

٢٥ أيلول عزيزي الكسندروس.

نحن جميعا آسفون لانزعاجك اذ لم تتلق منا رسالة لك. وبالطبع نحن لا نكتب بصورة منتظمة كما تفعل أنت. الا ان المنظمة- ذات الاسم الطنان التي تتولى ايصال الرسائل الى اصحابها- تبدو لنا بطيئة غاية البطء. وانه ليلوح لي أن عملها يستغرق ثلاثة أشهر على الاقل. ربما ان بريد المنظمة يمر بالصين أولا!

انك تصف ببراعة صيف بلادكم اليونان. أما في نيويورك فالفصل خريف. ان شجيرات الشارع الصغير الكئيب الذي أسكن فيه منذ اليوم أخذت أوراقها التي لم تمت بعد تشحب ويعتريها الاصفرار، والفتيات الجميلات اللواتي تزدان بهن الشوارع الكبيرة اخذن يضعن من جديد القبعات على رؤوسهن. الشوارع الرئيسية في نيويورك تتجه من الشمال الى الجنوب بحيث يكون ثمة جانب تضيئه أشعة الشمس وجانب في الظل، وفي هذه اللحظة فان المارة يقطعون الشارع ليكونوا في ضوء الشمس، اذ لم يعد الجو حارا جدا في هذا الفصل من السنة. السماء زرقاء صافية شديدة الزرقة. وفي بعض الامسيات- بعد ان اكون

قد تناولت عشائي في «السنيك بار» أو في أحد المطاعم- أسير بضع خطوات حتى «ايست ريفر» لكي أرى السفن تمر وأشاهد «بروكلين» التي هي آخر حي من هذه المدينة العظيمة..

المسز بينتلي وأنا لم نعد نقيم معا. وما كنت أحسب أني سأقول لك هذا، الا ان العبارة كأنما جاءت عفو الخاطر على أصابعي فدققتها بالآلة الكاتبة، ولست ارى في هذا أي سوء. وربما تتساءل لماذا تراني اكتب اليك من نيويورك وليس من «غرينوتش». ان زوجتي السيدة بينتلي مع رتشارد والصغيرة «آمندا» يقيمون في بيتنا الجميل في غرينوتش، وآخر مرة رأيتهم فيها كانوا على أحسن ما يرام. ستدخل آمندا، هذه السنة، بستان الاطفال: كانت ثائرة مهتاجة لانها لا تريد ان ترتدي البنطال، وانما هي تصر على لبس الفساتين، لان هذا في رأيها هو الذي يجعل البنيات الصغيرات ظريفات جدا. وامها غير راضية، وعلى الاخص في يومي السبت والاحد، وفيهما تلعب آمندا كل الوقت في سحابة من الغبار مع اولاد الجيران. ورتشارد يحسن السير جدا الان وهو لا يحب ان تهزأ به اخته. وهذا أمر لا غبار عليه بالطبع. وانا اذهب لأراهما مّرة في الأسبوع وأتسلم بريدي، وكانت رسالتك الأخيرة إحدى هذه الرسائل التي وجدتها هناك، وقد سررت بقراءتها كل السرور. وطلبت مني السيدة بينتلي ان اكتب اليك آخر مرة. وفي الواقع لست اعتقد انها هي التي كتبت اليك فان الكتابة تشق عليها، مع انها هي التي خطرت لها فكرة الاشتراك في منظمة «الامل» هذه، وهذا لا يمنع ابدا انها تحبك كثيرا، وانها، بصورة خاصة، كانت جد سعيدة ان تعلم انك تنوي العودة الى المدرسة بحرارة ونشاط جديدين... .

تحدث الناس كثيرا في الولايات المتحدة عن رئيس حكومة روسيا السوفياتية، السيد خروتشيف، انه رجل فصيح وخطيب مفوه، وممتلىء ثقة بنفسه. وهو في لقاءاته مع رجال السياسة عندنا- اولئك الرجال الذين يماثلونه

فصاحة وقوة عارضة وامتلاء بالشفقة- وجد «حكا ودعكا».. وعلى الاخص فوق شاشة التلفزيون حيث كان في وسع الجميع ان يروه. وقد كان همي الوحيد أن يجد مصرعه، غير اني اعتقد ان هذا لا يمكن ان يحدث. ان وجوده هنا احدث رد فعل يبعث على الضحك.. كأنما قد ابتلع كل منا قطعة من النقود. ولكن الاميركيين في رغبتهم الملحة في تحقيق السلام مستعدون ان يتحملوا بعض هذه المحن الصغيرة.. فقد يكون هذا مما يمكن ان يجدي قليلا.. وستعرف- كما سيعلمونك في المدرسة- ان الولايات المتحدة عاشت طيلة اعوام عديدة في عزلة تامة. وعلى الرغم من اننا دولة كبرى وذات نفوذ عظيم فاننا ما نزال نحتفظ بأمنيتنا. التي ربما كانت صبيانية، ان تدعنا الامم الاخرى وشأننا، ويومئذ تشرق الشمس..

الفقرة السابقة ليست ممتعة، ولا هي ذات نفع، وربما تلطف الشخص الذي سيترجم لك رسالتي هذه الى لغتك اليونانية فحذفها ولم يذكرها لك، انني مصاب بزكام حاد تضاف اليه جميع هذه السكائر الكثيرة التي ادخنها، وهذا من شأنه أن يشوش أفكاري وعلى الاخص وانا جالس هكذا دون أن آتي بحركة... .

ويضايقني انك ربما تسائل نفسك: «أهكذا اذن أن السيد بينتلي والسيدة زوجته وهما اللذان يرسلان اليّ من أميركا الرسائل اللطيفة والهدايا الجميلة انما يرويان لي الاكاذيب؟» غير أني لا اريد ان تقلق وتضطرب، وربما كان في قريتك ازواج وزوجات لا ينفكون يتخاصمون، ولكنهم مع ذلك يستمرون في الاقامة مع بعضهم البعض.. ولكن في اميركا حيث نجد أحدث المؤسسات الصحية وأعظمها كمالا، واشد السيارات سرعة، واجمل الطرق، لم نعد ندري كيف نعيش في اوضاع لا تلائمنا، علما بأن وضعي الجديد في الحياة غير مريح وغير ملائم، وانني لاعترف بهذا ولا أخفيه. وعسى، في سياق دراستك التي ارجو ان لا تنقطع، ان يدعوك الكهنة والراهبات الى قراءة الالياذة، تلك الملحمة الشعرية الاغريقية العظيمة، وستجد الشاعر «هوميروس» يروي فيها قصة «هيلانة»

التي هربت من زوجها وذهبت مع حبيبها «باريس» لتقيم مع الطروادين.. ان شيئا من هذا قد حدث في أسرة «بينتلي» مع فارق واحد هو انني، أنا الرجل، قد غادرت بيت الزوجية وذهبت لاقيم مع الطروادين.. وتركت زوجتي في البيت مع ولدي الاثنين.. انني لا ادري اذا كانت الالياذة مما تتضمنه مناهجكم الدراسية، وانه ليدهشني ان اعلم ذلك.. ولا بد ان موطنك، اليونان، شديد الاعتزاز ان أخرج للدنيا هذه الرائعة الادبية التي لا ينفك الناس جميعا يقرأونها ويعجبون بها. أما في الولايات المتحدة فان كبار الكتاب ينتجون آثارهم الادبية فلا يعجب بها أحد لانها تشعرك بالاسفاف والانحطاط..

غير اننا لا نروي لك الاكاذيب: فالسيدة بينتلي زوجتي وأمندا ابنتي ورتشارد ابني وأنا كنا جد سعداء، وما نزال اليوم، الى حد ما، سعداء.. ارجو أن تستمر في ارسال خطاباتك الرائعة الينا فيحملها البريد الى «غرينوتش» ويتاح لنا جميعا ان نستمتع بها.. وسنظل نرسل اليك بانتظام هذا المبلغ من المال الذي يدعوك الى شكرنا بهذا اللطف الجميل، الا أن هذا المبلغ الذي نهبك اياه لا يمثل حتى ربع ما تنفقه في استهلاك مختلف المشروبات الكحولية.. وان لنا لكثرة من الاصدقاء الذين يساعدوننا في احتسائها.. وهم، في الأعم والأغلب، اناس مملون، ولقد يكونون مناط اعجابك انت، أما أنا فما عدت أطيقهم.. وعلى أي حال فانك أنت ستنال اعجابهم اكثر مني... .

أنا مسرور غاية السرور أن تقيم قريبا من البحر فيسعك ان تسبح وتنعم بالإرتخاء بعد جهدك الشاق الذي تبذله في الحقول.. واذا سألت عني فأنا قد ولدت في أرض أميركية بعيدة جدا في الداخل تقع على مسافة الف وخمسمئة كيلو متر من أقرب شاطىء او تزيد.. ولم يداخلني حب البحر الا بعد ان كبرت وتزوجت. ومن هذه الناحية فان حظك أفضل من حظي، وانها لنعمة كبرى من نعم السماء ان يكون الانسان قريبا من البحر. وما أكثر ما يهزني السرور كلما

فكرت بهـذه المسـرة التي يجدها اولادي اذ يتـراكضـون على رمـال شـاطيء غرينوتش- وهو شاطيء جميل وان لم يكن فسيحا جدا- ويجدون امامهم ذلك الافق العريض الهادىء...

ويجب ان امسك عن الكتـابة الان اذ ينبـغي ان اذهب لتناول العـشـاء في الخارج مع امرأة شابة، وانه ليسرك ان تعلم، دون ريب، أنها من أصـل يوناني وان تكن قد ولدت في اميركا.. وانها ذات جمـال باهر هو من جمـال أصلها الاغريقي ولا شك.. وانني لاشعر انني قد أثقلت جدا على الشخص الذي سيترجم لك هذا الخطاب الى اليونانية. أطيب تمنياتي الى جدتك التي رعتك واهتمت بك منذ وفاة امك، والى شقيقتك التي تحمل في قلبك حبها والاهتمام بسعادتها وعافيتها. المخلص «كنيث بينتلي».

ملحوظة: عندما أعدت قراءة هذه الرسالة تبين لي، مع الاسف، انني كنت سيء الظن بهذه المنظمة الممتازة التي تتيح لنا هذا الرباط من الصداقة معك، والتي توصل الينا رسائلك الممتعة التي يسعدنا ان نتلقاها ونقرأها ونعيد قراءتها. واذا كنا لا نكتب اليك بمثل ما نود من موالاة الكتابة فالذنب ذنبنا نحن واننا لنسألك الصفح..

(قصص مترجمة)

ملامح من الغرب

المقدمة

لست كثير الرحلات، على خلاف ما يعتقد الكثيرون، ولقد اوثر ان ابقى حيث انا. وانه ليعز علي أن افارق بيتي وعاداتي والوجوه التي الفتها والحي الذي اقيم فيه، ولا يكاد يغريني شيء إلا أن أعود ارى من احب من ولد وزوج وصديق، ولو فترة يسيرة واياما معدودة، فما بالك بالشهرين والثلاثة؟ وما أكثر ما اقول في نفسي: ان الدنيا مبسوطة امامك، وهذه المكتبة عامرة بكل كتاب يحدثك عن الدنيا وأهلها، واحوالها واطوارها، واناسها، وتقاليد اولئك الناس، وعجائب طباعهم، ومختلف الوان فنونهم وثقافاتهم. ترحل وتجوب الآفاق، وقد تهبط على القمر ايضا، وانت جالس في قعر بيتك، وفي هذا الركن من مكتبتك، فلا تنفق مالا، ولا تتعرض لمتاعب السفر، ولا تضطر الى تغير ما اعتدت من امرك، ولا تقيم في الفنادق، ولا تنام في غير فراشك، ولا تفارق من تحب... .

ومع ذلك فقد خرج الزمام من يدي وقمت برحلات طويلة، وأخرى قصيرة في شرق وغرب. وشاهدت ملامح من هذه الدنيا التي يقع في وهم ابنائها انهم مختلفون شكلا، لونا، وطراز حياة، واسلوب ثقافة وفن.. وهم لو عقلوا لأدركوا أن فيما هو دون ذلك مما لا تعظم زنته في معايير النفس الانسانية واهوائها وغرائزها وخيرها وشرها على السواء.

وفي رحلتي الى بعض اقطار الغرب كانت لي وقفات طويلات كثر فيها القول، واتخذ مما كانت تقع عليه العين سببا لفكرة في الادب أو رأي في الفن او

خاطر اوحت بها آحوال في الحياة الاجتماعية في هذه العاصمة او تلك.

وما قيمة ما ترى، إن لم يثر فكرك ويحرك خاطرك ويفتح لخيالك افقا جديدا للتأمل واستشراف ابعاد للحياة والوجود والقيم العليا، التي آمن بها الانسان في مسيرته الجاهدة نحو الافضل والاكرم لانسانيته؟

ثم كانت لي وقفات اخرى قصار فلا اكاد اتلبث عند شيء من الاشياء، فكانت الصورة العابرة تكفيني، والنظرة الخاطفة تغنيني عن كثير، ولذلك جاء ما كتبته في هاتيك الوقفات ايماءات واشارات، وما كان في الوسع ان افعل غير ذلك، والا ثقلت وطأة هذا الكتاب على قارئه في عصر اميز مميزاته السرعة، ويوم زار «اندريه جيد» شيخ كتاب فرنسا وسيد الكلمة المضيئة فيها، يوم زار بلاد المغرب اصدر حول رحلته كتابا كان معظم مادته ايماءات واشارات. ولقد سماه كذلك، لا لأنه كان يؤثر السرعة ويأخذ، فيما يكتب، مأخذها، بل لانه كان يعتقد ان الايماءة ربما كانت ذات دلالات اوقع في النفس واشد تأثيرا وابلغ تعبيرا.

وهذا الكتاب، في مجمله، ملامح لا اكثر ولا اقل. وكل رجائي ان يجد فيه القارىء متعة ساعة من زمن يرى فيها الاشياء من خلال نظرتي اليها، ويشاركني التفكير احيانا، او يخالفني في نظرة وفكر، وان له لمزاجا آخر، وثقافة اخرى تغنيانه عما يقوله الآخرون، وان كان لا يضيره ان يسمع اصداء غير ما الف من نفسه، وغير ما اعتاد من سواه... .

«م. س»

ملامح من لندن

حين تصطغ لك لندن

-١-

أصبحت الدنيا صغيرة الرقعة. ووصفها الكاتب الانجليزي «هـ. ج. ويلز» بعبارة موجزة فقال انها قريتنا الكبرى.

وهو لو عاش وشاهد الطائرات النفاثة والصواريخ وكوكبات الفضاء والهبوط على القمر لوصف الدنيا بأنها حارتنا أو بيتنا الكبير... .

وما ركبت طائرة الا تبادرت الى ذهني عبارة لخالد الذكر خليل السكاكيني: فقد ركب الطائرة في الثلاثينات من هذا العصر، ولما ارتفعت به، وحلقت، صغرت الدنيا في نظره، ثم علت وضربت في أجواز الفضاء حتى لم يكد يبين من الدنيا شيء لناظريه، وعندئذ قال:«فتحت نافذة الطائرة وبصقت على الدنيا»

وفي العبارة مغالطة واضحة فما في الامكان فتح نافذة في طائرة وهي في كبد السماء.. ولكننا نقبل هذه المغالطة لما في عبارة السكاكيني من سخرية رائعة بهذا الكوكب الذي ركبه وركب أهله الغرور، وهو، مع ذلك، من الهوان بحيث لا يكاد يبدو للعين شيء من معالمه اذ تنظر اليه من ارتفاع يسير.

ومن عادتي وانا في الطائرة، اني الصق عيني بزجاج احدى نوافذها لأرى كيف تبدو الدنيا وأهلها والطائرة آخذة في الهبوط رويدا رويدا.. مدن وشوارع

ودروب أشبه بلعب الاطفال. ويترا ءى لك الانسان بحجم الاصبع أو حبة البندق، وتلوح لك السيارات المنطلقة على شريط رفيع من الارض المعبدة كأنها نمال تدب في كل اتجاه... .

وفي رحلتي الاخيرة كانت لندن عاصمة بلاد الانكليز هي وجهتي. وأقبلنا على الريف الانجليزي، ودانت الطائرة حتى انكشف لنا هذا الريف بشجره وغاباته وأرضه الخضراء وبيوته الريفية ذات الآجر الأحمر وكأنها جميعا صور بحجم الكف الواحد..

وحتى لندن نفسها بعمائرها، وابراجها ومداخن مصانعها، وطرقها وناسها، وسياراتها، كأنما مستها يد ساحر فتداخل بعضها في بعض، وتضاءلت عاصمة الملايين التسعة حتى خيل الي أن في الامكان جمعها في قبضة اليد الواحدة، أو رفعها على راحة اليد كأنها نموذج مصغر لمدينة... .

بضع ساعات فقط كانت كافية لانقل قدمي من عمان وأعود فأحطها في قلب لندن. وفي المستقبل قد يكفي بعض ساعة ليحملك بساط الريح من أطراف قارة الى أقاصي قارة أخرى، فالدنيا ليست قريتنا وحسب وانما هي حارتنا الصغيرة، أو زقاق في حارة اذا شئت.

لا ريب في أن الانجليز في بلادهم قوم مهذبون جدا، ورقيقو الحاشية، وهم على استعداد للتعاون معك الى أبعد حد ممكن باعتبارك سائحا يؤم بلادهم، ولا بد أن يخرج منها وقد احتقب الكثير من متاجرها، وانفق الكثير كذلك في فنادقها ومطاعمها وملاهيها، هل كانت هذه هي حالهم قبل أن تضمر الامبراطورية التي لم تكن تغيب عن أطرافها الشمس؟ أم ترى أن فقدان العز القديم قد بدل حالا بحال؟

ومهما يكن من أمر فما تزال لندن هي تلك العاصمة الضخمة التي يحدثك

كل شيء فيها عن عظمة سابقة. كل ما تراه كبير، وضخم، وراسخ، وقد لا يستدعي اعجابك شيء كمنازلها الحمراء ذات الحواشي البيضاء والنوافذ والشرفات الانيقة. لقد استغل الانجليز الآجر الاحمر فصنعوا منه هذه المنازل البديعة.. وما أكثر ولعهم بالحدائق كبيرة وصغيرة، في الشارع، والحي، وحول المنازل.

لا بد من شجرة في مكان ما، وفي زاوية ما، وعند النواصي، ومفارق الطرق.. هذا اللون الاخضر يهواه الانجليز، وتزدان به بيوتهم.. ومن قال لك ان لندن مدينة عابسة، متجهمة ربداء فقد أخفى عنك الحقيقة.. انها من فرط انتشار خضرتها وشجرها الوريق تكاد تصفق لك ضاحكة، مشرقة الاسارير. وقد لا يكون هذا شأنها في الشتاء، مع الضباب والمطر، والثلج والبرد.. ولكن أرني في أوروبا مدينة لا تعاني من مثل هذا في فصل الصواعق والرعود والبروق؟

وما كنت في يوم كاتب رحلات وانما انا أختزن صورا مما أشاهد، وانطباعات مما ينعكس على الحس والشعور، ليكون مادة لقصة أكتبها أو عمل روائي أعد له العدة. ولذلك لم أفعل ما يفعله غيري من تدوين الملحوظات والمذكرات في كل مكان يزوره.. حديقة «هايد بارك»الشهيرة دخلتها وجست خلال أشجارها، وغاباتها، ورأيت ماءها وبحيراتها بل واستلقيت على عشبها، واستمعت الى بعض الخطباء في طرف منها. ولكني لم أدون شيئا في مفكرة أو نحوها.. وما جدوى ذلك ان لم استطع اختزان هذه الصور في مطاوي النفس؟ لقد أعجبني خطيب هندي، كان يتحدث عن التمييز العنصري، والتمييز الطبقي، باعتبارهما سبة العصر، ولطخة سواد في جبينه.. كان يتدفق في حديثه تدفقا، ويجتمع من حوله الرواد، ويصغون اليه، وتتسع رقعة المتجمهرين، وهو لا ينفك يتحدث بطلاقة، وقوة، عميق الحجة والبرهان، وكان يناقش، ويجيب على الاسئلة، ويلقى الكثير من المودة والاعجاب..

وفي جانب آخر كان يتحدث بهودي اسرائيلي على الارجح. كان يذكر الاساطير، والخرافات، وكان في حديثه كأنه يساوم ويماكس، اجتمع حوله عدد قليل، وكان يبدو أن الفضول هو الذي دفع بهم الى استماع هذيانه.. وكان كلما ارتج عليه يشد أزره مخلوق آخر من بني جلدته.. وانطلقت في أرجاء الحديقة العظيمة، وغبت ساعتين ، وعدت ادراجي، فاذا الهندي الاسمر المثقف لا ينفك يتحدث، وقد اتسعت الحلقة حوله حتى شملت المئات.. وكان الآخر، الاسرائيلي، لا يزال يبحث عن عباراته وكلمات المساومة والمماكسة وقد انفض من حوله المستمعون.. لا يتلبث أحدهم الا لحظة، ثم يمضي غير عابىء وغير مهتم.. صورة ما أصدقها لباطل يترنح على شفتي متحدث صفيق، ثقيل الدم، تقابلها صورة لحق لا مراء فيه، يجتذب الناس من بعيد، ويستبقيهم حول خطيب بارع القول ، قوي الحجة واضح الثقافة لا يكاد يجد عسرا في تأييد ما يقول بشعر ونثر وكلمات لكبار أدباء العالم، وشعرائه، وحكمائه الذين أحبوا الانسان ووجدوا في أي تمييز عنصري أو طبقي لعنة الاجيال.

...وجانب آخر في حياة لندن

-٢-

تستطيع أن تسير في شوارع لندن وميادينها وساحاتها ساعات طوالا دون أن تعلق بحذائك ذرة غبار واحدة. النظافة، هناك، تدعو الى الاعجاب، على خلاف ما تجده في باريس مثلا، واستثني من شوراع لندن وميادينها حي «بيكاديللي» وما يتفرع منه من أزقة، ومعابر، بما في ذلك أزقة «سوهو» ولقد يكون العذر أن هذه كلها أحياء الملاهي والفجور.. انها في الليل كتلة من أضواء وألوان وتماثيل وتشكيلات واعلانات وأنباء داخلية وخارجية تجري في أشرطة من الكهرباء على واجهات العمائر.

وما من عاصمة كبيرة تخلو من دور الملاهي، ولكنهم في لندن يكمنون لك عند أفواه الازقة فتمتد نحوك يد متلطفة، أو باسم مترفق يدعوك الى الدخول في هذا الملهى، أو ذاك في الازقة والدروب: (سيدي تفضل) (لا تفوت عليك هذه المتعة أيها السيد)-(تعال.. أنظر.. وأمرح) وهكذا تتوالى النداءات الخافتة لتريك أنواع التعري والافتنان به، والاغراء المتمادي في عرض الاجساد بأوضاع وتشكيلات تذهب الى أبعد من حد الاثارة.. مصحوبة بالكلمات والعبارات الفاضحة.. والموسيقى العربيدة هي الاخرى تزيد النار ضراما... .

انه خروج بعيد المدى حتى في مجال اللهو.. لا يقابله الا جنوح طائفة كبيرة

من الفتيان والفتيات تلتقي بها في كل درب ومتجه، بل هي تصدمك حيثما ذهبت وفي أي مقهى جلست، ان شبان لندن وصباياها يحملون الراية عاليا، راية «الهركلة» المزرية، وراية الملابس الممسوخة، وراية الازياء الغريبة، والشعور القذرة المسترسلة.. هذا كله أشبه بأعياد المرافع أو- المساخر- تقليعات من كل صنف وطراز... .

وتتساءل: لماذا تراهم يفعلون كل هذا بأنفسهم؟ وقد لا يعنيك كثيرا ان تبحث عما يختفي وراء هذه الظواهر من انحلال لا حدود له ولا سدود.. ولكنك سرعان ما تذكر أن قصة التعهر «عشيق اللادي تشاترلي» لمؤلفها الانجليزي «د. هـ. لورنس»- وهو غير لورنس العرب بالطبع- قد منعت وحرمت طيلة أربعين عاما، ثم أبيحت منذ سنوات.. ويعود السؤال يلح الحاحه على ذهنك: بلاد التقاليد.. وبلاد البيوريتانزم والتشدد في المحافظة.. ماذا دهاها؟.

غير أن الكثيرين، من الانجليز أنفسهم، يرون رأيك ويبتسمون، وقد يقول لك بعضهم: هذا كله لا نقر شيئا منه.. اننا ندينه.. ثم ان هو الا جانب من حياتنا، وليس هو كل الجوانب.. الجانب السيء.. كما عند جميع الامم.

وثمة من يقول لك: أولئك الشبان بشذوذهم، وعرامهم هذا، وعنفهم، يحسن أن نتغاضى عما يفعلون.. فلنتركهم ينفسون عن أنفسهم.. والا كان الانفجار.. انهم مجرمون أصلا.. وهذا الذي يظهرون به يكسر شوكة اجرامهم.. وهو أجدى على المجتمع.. وتريد أنت أن تصدق، وتميل الى الاقتناع.. لولا أن ما تقع عليه عينك يتعدى هذه الفئة من الشبان والصبايا الآبقين.. الى الحياة الفنية نفسها، والى المسرح والى الكتاب، والى الزاد الثقافي كله..ولكن لهذا حديثا آخر.. ثم ان الجريمة موجودة كما ان المجرمين العتاة موجودون، وهذا يضعف من حجة القائلين ان لاولئك الشبان والصبايا في خروجهم وشذوذهم منصرفا عن الاجرام.

وصحيح أننا شاهدنا في أربع عواصم أخرى، صورا من هذا الشذوذ ولكن شتان بين لندن وباريس الغانية اللعوب التي تبدو محتشمة بالنسبة لما رأيناه في لندن.

مهما يكن من أمر فان هذه التقاليع التي أخذ الشبان بها أنفسهم، وهذا التعري الفاضح الذي تتظاهر به الصبايا في أوضاع وصور وأشكال يراد بها أن تكون مثيرة غاية الاثارة لا تلبث أن يكون لها رد فعل مناقض، إنها تثير فيك القرف، والاشمئزاز، وتوحي لك بأن المرأة قد ترخصت في كل شيء، وأنزلت بدنها في سوق النخاسة.. ورحم الله زمانا كانت المرأة فيه، باحتشامها وحيائها وملابسها الانيقة الكاسية، تحملك على أجنحة الخيال الجميل، وتشعرك بأن الجمال غال ونفيس ومصون، وان دون الوصول الى مفاتنها أهوالا ومشاق، مما يجيش عاطفتك ويدفع بك الى قراءة الشعر والنثر الجميل والاستمتاع بآيات الفن على اختلاف شكوله وأنماطه، لانك موقن في قرارة نفسك أن الشعر والفن وحي رفيع من وحي المرأة أولا وآخرا... .

وهل يكون ما نرى من انحطاط القيم الفنية، والثقافية أيضا، بسبب من ترخص المرأة وتبذلها، وشذوذ الشبان، حتى لم تعد هناك فضائل خلقية وجمالية يعتد بها؟ وقد تطالبني بالدليل والبرهان.. فاذهب اذن الى معارض الفن الحديث وهو سخف وتخليط لا أول له ولا آخر.. ثم شاهد المسرحيات الساقطة حيث يمارس العمل الجنسي كاملا على خشبة المسرح، واسمع سعار موسيقى الادغال الافريقية.. انها جميعا تحدثك عن انحطاط القيم وضياع ما جهد الإنسان، على الأيام، في تركيز قواعده وأصوله في فن وفكر..

اذا تركنا هذا الجانب في حياة لندن، فان كل شيء فيها يبهرك، وينال اعجابك.. نوافيرها، تماثيلها، عمائرها التاريخية، شوارعها وميادينها العريضة، والمحتشمات من نسائها: والجادون من شبانها، وبصورة خاصة بيوتها الحمراء

ذات الحواشي البيضاء، والشرفات الفنية التي تبلغ البراعة في هندستها، وتشكيلاتها مبلغها.. هذا كله يقتضيك الوقوف، والتلبث، والتمتع بمشاهدته واستجلاء جماله.

حديقة «كيو غاردن» في أطراف لندن- قد لا تجد ما يماثلها اتساع رقعة واحتشاد شجر وعشب وزهر، وكثرة برك وبحيرات وانتشار تماثيل... وربما كانت هذه الحديقة الوحيدة من نوعها بوجود النباتات الاستوائية فيها.

لقد جعلوا لهذه النباتات بيوتا كبيرة من زجاج، واحتفظوا لها بحرارة معينة تشبه الى حد بعيد حرارة ومناخ منابتها الاصلية.. انها وحدها، متعة نادرة في بلاد البرد الشديد، والثلوج، والضباب.. أمضينا فيها يوما كاملا ما كان أقصره على الرغم من أن الشمس لم تكن تغيب عن سماء لندن- في شهر تموز- قبل التاسعة والنصف ليلا..

عجيب أمر أولئك الانجليز: انهم ينقلونك، وأنت في قلب لندن العاصمة التي تعيش فيها كل هاتيك الملايين، الى أفياء الريف، وظلاله الوارفة، وعشبه ومائه وضيائه ومراح غيده وحسانه، ومغدى طيره وانسامه..

في متحف وبرلمان

-٣-

بدا لي، وأنا في لندن، أنني لم أعن في قليل أو كثير بحياتها الادبية، أو اذا شئت الثقافية بمعناها الواسع. غير أن هاجسا في نفسي ردني عن التفكير بشيء من هذا، فقد كنت عاهدت نفسي، وأنا في الطائرة، أن لا أقرأ ولا أكتب طيلة هذه الرحلة. وقلت انني في اجازة حتى من الكتاب والقلم، أو قل أنه هروب من كل ما يقرأ القارئون ويكتب الكاتبون، وأنا أحدهم. وهل كثير على من قضى من عمره أكثر من ثلاثين عاما وهو يقرأ، ولا يكاد يضع القلم من يده، أن ينسى هذا العناء أو يتناساه أياما مهما تطل فهي قليلة، قصيرة في عمر انقضى أكثره في الكد والتعب؟ ثم هل يجب أن أكون في لندن نفسها لكي أقرأ أدب الانجليز وألم بما ينبغي أن ألم به من ثقافتهم؟ انني أفعل ذلك، وأنا في عمان، فليس في الدنيا بضاعة توزع بسرعة، وتنتقل من قطر الى قطر بدقة ونظام كالكتاب، والمجلة والصحيفة، وفي عمان قرأت الكثير من هذا الادب الانجليزي، فما حاجتي أن أعكف عليه وأنا في عاصمتهم؟

تلك والله تعلات. وليس أسهل من أن يجد المرء لنفسه المعاذير اذا أراد أن يتخفف من أعباء ومسؤوليات وواجبات.

ثم قلت لنفسي، هناك مالا يصح تجاهله وتناسيه على أي حال وهو، بعد، لا

يقتضيني العكوف ساعات طوالا على كتاب. وربما كان فيه متاع للحس ونزهة للخاطر.. وهذه هي متاحف لندن الفنية، وعمائرها التاريخية، وأنت كنت تحب أن تشاهد برلمانهم العتيد، وتتمنى أن تحضر اجتماعا، او اذا شئت جلسة لمجلس العموم.

ودخلنا المتحف.. انه ردهات واسعة، وأنيقة، ونظيفة ككل شيء هناك. ولكنه لا يبلغ ضخامة اللوفر في باريس، وليس له هيبته، ووقاره، وازدحام الآثار الفنية من مختلف الحضارات فيه.. ان الانجليز وان شاركوا في فن الرسم، وأبدعوا.. غير أنهم لم يبلغوا من هذا مبلغ الامم اللاتينية كالفرنسيين والايطاليين. وقد أكون مخطئا، ولكن هذا هو الذي قام في ذهني منذ طويل. ولهذا السبب بدا لي أن أحسن المعروضات من روائع الفن، في ذلك المتحف، هو من المقتنيات غير الانجليزية الاصل. وصحيح، بالطبع، ان معروضات المتاحف خليط من شكول الفن وانماطه في مختلف العصور وشتى الامم، ولا تقتصر على روائع البلد الذي يقوم فيه المتحف، ولكن صحيح أيضا ان هذا البلد يملك أجمل ما أبدعه أصحاب الفن فيه. ومع ذلك فقد كانت لوحات «رنوار» الفرنسي هي التي استوقفتني قبل غيرها، كما استوقفت أكثر الزائرين. احدى هذه اللوحات اسمها الراقصة ذات الصناجات - الفقاشات - واخرى أيضا، تقع الى جانبها، اسمها الراقصة ذات الدف. وواضح أن احداها تكملة للاخرى، وجو اللوحتين شرقي خالص ربما استوحاه رنوار من بلاد المغرب، في نهايات القرن التاسع عشر. أهم ما في اللوحتين أنهما تشعان على قاعة المتحف التي عرضتا فيها ضربا من الضياء الباهر، وتملآن الجو كله بالمسرة، وتقدمان انطباعا لاوضاع راقصة غاية في دقة الالتفات نحو مواضع الفتنة والجمال... ودرنا في المتحف طويلا دون أن نلبث الا برهة هنا هناك، ثم تعود أقدامنا تتجه الى لوحتي رنوار، ولوحة أخرى لفنان فرنسي هو «اينغر» من القرن التاسع عشر أيضا، واسم لوحته « السيدة الجالسة» .

هي كلمات عابرة، في هذا المجال، ولا يدخل في طوقي أن أقارن، وأفاضل بين فن وفن، فما أنا من أصحاب الاختصاص، وان كنت أتذوق ما أرى في ضوء معلومات قليلة، ومعرفة يسيرة لا تتعدى مدارس فن الرسم واتجاهاتها.

واذا كان الانجليز لم يبرعوا تلك البراعة المميزة في الرسم، فقد تفوقوا في بعض منجزات النحت، وأبدعوا في الشعر ايما ابداع، وفي فنون المسرح لهم مبتكرات في الاخراج، والكثيرون من مؤلفيهم المسرحيين اتوا بما يستدعي أعظم الاعجاب منذ شاعرهم الكبير شكسبير، الا في هذه الايام..فقد استجاب المسرح الى غوغائية الجنس، وجنون الخروج على كل القواعد والاصول دفعة واحدة.. وما أهمية ان أذكر لك هنا أسماء المسرحيات وأسماء أصحابها. وما أراني أكتب بحثا في هذا أو غيره، وانما قد ترسبت في ذهني صورة عن المسرح الانجليزي الحديث تغم البال حقا. وان بعضها بين يدي وأنا أكتب هذا الخطرات. انها ليست فنا، ولا شيئا يمت الى الفن الاصيل بصلة، وانما هي، في أكثرها، سعار جنسي، وتخليط عجيب، وجنون مطبق. وهذا القول ينسحب أيضا على المسرح الفرنسي، والمسرح الايطالي، والمسرح الامريكي، انسحابه على الرواية، والقصة. والفنون التشكيلية.

قال لي أحدهم: اننا نعاني من الافلاس في هذا كله.. ولذلك ترك الحبل على غاربه لكل رقيع أو عديم الثقافة، أو مريض النفس ان يكتب ما يتراءى له، أو ينتج من أسباب الفن الاخرى ما يلوح في أفق نفسه بعد أن يكون قد القي جانبا، بركلة من قدمه، كل القواعد والاصول متجاوزا كل الحدود.

ونسير متجهين الى البرلمان القديم، وكنا نعلم انه أبو البرلمانات.. بعد نكبتنا ببلادنا فلسطين، لم أعد أنظر الى هذه المؤسسات نظرة من يترقب منها الانصاف، وكلمة الحق. وان للسياسة ورجال السياسة لمداخل ومخارج موئسة حقا. والجلسة التي حضرناها زادتني يقينا، وربما أعجبك الاطار دون الصورة. وقد كان الاطار

هو قاعة مجلس العموم، كنت أحدق النظر فيها من احدى الشرفات العالية المحيطة بها، وهي شرفات للزوار، والصحفيين، ومراسلي وكالات الانباء.. خيل الي أنني في القرن الخامس عشر، يوحي لك بهذا جو البناء القديم، وأثاث القاعة.. أما النواب، على قلة عددهم يومئذ، فقد أحسست حقا كأنما هم في غرف نومهم الخاصة، أو على الاقل في مكاتب أعمالهم.. يستطيع أحدهم أن يرفع قدميه على طاولة وسط قديمة، ويستطيع أن يستلقي، ويتكيء، ويتخذ أي وضع يشاء، وقد أمضيت نصف ساعة وانسحبت بهدوء من بين حشد من الزوار يملأون الشرفات، ورحت أنحدر من حيث اتيت، وفي الخارج تنفست الصعداء، وجعلت أدير عيني من جديد بالبناء الكبير القديم وباحاته وأبراجه المشوقة، وطابع القدم الذي يتميز به... إنه حقا أبو البرلمانات، ولكن عندما يناقش القضايا الخاصة ببلاده.. وربما كان خيرا من هذا كله أن نقف نسرح النظر بتلك التماثيل والنوافير التي تنفجر مياهها عاليا في الفضاء.. تلك النحوتات الرائعة أمرت بصنعها الملكة فكتوريا تخليدا لذكرى زوجها الذي انطوت له على أعظم الحب.. منحوتات جديرة حقا بمثل ذلك العظيم.. وقد ذهبت فكتوريا، وبقيت صور هذا الفن قائمة تتحدى غدرات الزمان.. التاريخ، وآثارا تتحدث عن عز زائل. لا تزال نظرية مؤرخنا الفيلسوف ابن خلدون في نشوء الامم وارتقائها ثم زوالها صادقة كل الصدق. اننا بحاجة ان نرجع اليها أحيانا فنجد فيها عزاء وسلوى.

في رحاب سفارتنا

- ٤ -

كنت حريصا على زيارة سفارتنا في لندن لاكثر من سبب، فهي منزلنا الاردني في بلاد الانجليز. ثم أني سأشعر كأني في عمان وأنا في سفارتنا. وقد صح هذا تماما. كان جوها هو هذا الجو السمح الذي نعرفه في بلادنا. وشد ما كان اشتياقي الى تلك الوجوه الاردنية المحببة والى الكلمات الحلوة ترحب بك بحرارة رائعة تخرج من القلب بعفوية أصيلة لا ريب فيها. وتناولت بلهفة فنجان القهوة - سكر قليل- الذي قدم الي. كان قد طال العهد بيني وبين قهوتنا اللذيذة. وكانت عيون الاصدقاء الاردنيين تتطلع الي بهذه المودة الجميلة الصادقة التي تجدها في المقهى، والشارع، وحيثما سرت في أرجاء أردننا الغالي.

وكنت واثقا اني سأجد سفيرنا الاستاذ صلاح أبو زيد، وسأسمع منه هذه الطلاقة في الحديث. ان أبا عماد يعرف كيف يضع الكثير من روحه ومشاعره في الكلمة التي يقولها.. ولكن هيهات، وما من سبيل الى رؤيته، فقد كان مريضا، وأجريت له عملية جراحية، ومنع المستشفى زيارته. هكذا اذن أكون في لندن ولا أستطيع لقاء أبي عماد!

مكثت في سفارتنا أكثر من ساعة، ثم ودعت الاخوان وخرجت أجوس خلال ذلك الحي السكني الذي تتخلله وتحف به حدائق صغيرة مونقة الزهر، تهفو منها

نسائم رخية محملة بالعطر والشذا.. ثم انتقلت الى الطريق العام حيث تهدر السيارات، وعلى الاخص الباصات الحمراء ذوات الطابقين. يبدو أن الانجليز يحبون هذا الطراز من السيارات التي تصعد الى الطابق الثاني منها على سلم صغير ضيق يقتضيك جهدا ومشقة. وفي أكثر العواصم الكبرى التي زرتها لم أجد هذا النوع من السيارات. ربما كانت لها مزية واحدة هي أنها قليلة الطول، وكأنما قد استعاضوا عنه بهذا الطابق الثاني. انها فكرة حسنة أن يشغل الفضاء حيز كان يشغل به الارض.

وركبت احدى سيارات الاجرة أو التاكسيات. انها من أجمل وأفخم أنواع السيارات، أما أدب سائقيها فما وجدت شبيها له في أية عاصمة أخرى. ثم أنت واثق تماما انهم لن يغشوك، ولن يستلبوا من مالك ما لا حق لهم فيه.. وقد رأيت من غش ولصوصية بعض سائقي سيارات الاجرة في غير العاصمة الانجليزية ما أدهشني.. ركبت احدى هذه السيارات الى محطة فكتوريا، وأردت قطع تذكرتين الى باريس ولم يقع في حسباني أني سأجد طابوراً من السياح يقطع عليّ الطريق ويضطرني الى الانتظار ساعات.. وفتقت لي الحيلة أمرا تقدمت به للمسؤولين فسهلوا لي ما كان صعبا، واستطعت الحصول على التذكرتين في أقل من ربع ساعة. أم تراك تعتقد انني كنت سأنفق ثلاث ساعات أو أربعا حتى يأتي دوري، وأنا الحريص على دقيقة أن لا تذهب سدى لا في لندن وحسب، بل في كل بلد آخر أزوره؟.

وفي ذلك اليوم دعاني القسم العربي في اذاعة لندن الى شرب الشاي، والتحدث من وراء الميكروفون بضع دقائق، وقد سعدت حقا بوجود اخوان لنا هناك منهم الاستاذ الشاعر سعيد العيسى، والاديب الرقيق الحاشية الاستاذ سامي حداد، والقصصي السوداني الاستاذ الطيب صالح وغيرهم، وكانت جلسة ممتعة على قصرها، وسئلت أن أقول شيئا عن زيارتي، وانطباعاتي عن لندن

والعمل الاعلامي في بلادنا، فسجل هذا الذي قلته وأذيع فيما بعد. وأبى الاستاذ سامي حداد الا أن نكون ضيوفه حتى موهن من الليل، فدار بنا في سيارته في كثير من أرجاء لندن، ودعانا الى الغداء، ثم الى سهرة التقيت فيها بفتاة على جانب كبير من الثقافة. وتحدثنا طويلا، ولا أدري كيف دار الحديث حتى شمل قضيتنا.. وذهلت اذ رأيت الفتاة تسألني لماذا لا تريد أن نعيش مع الاسرائيليين في محبة وصفاء ونسيان للعدوان والأحقاد وحقن للدماء، لقد استطاعوا في أوروبا، أن يرسخوا هذه الصورة في الاذهان.

وجدت مثل هذا في باريس، وفي ميونخ، وفي مدن ايطالية زرتها، انهم يحدثونك بضرورة هذا التعايش ببساطة، كأن المسألة من البدهيات المفروغ منها.. وأمضيت ساعة كاملة أشرح للفتاة المثقفة بالانجليزية مرة وبالفرنسية مرة حقيقة الاوضاع.. وبطلان المزاعم الصهيونية، وتغريرها الاعلامي.

وقد قام في نفسي انها ليست براعة الاعلام وحسب. إن الامر أبعد من هذا. اليهود موجودون في كل مدينة أوروبية. لا في العواصم وحدها. ووجودهم في تلك المدن قديم جدا. ولهم فيها تجارات واسعة، وصلات، ونفوذ، وما أسهل أن يبث المؤمنون بالصهيونية أفكارهم بين أصدقائهم، وجيرانهم، وكل من لهم به صلة. والناس في أكثر الاحيان بسطاء يصدقون ما يسمعون، ويتأثرون به، لا سيما بعد أن اضطهدت الفاشية والنازية اليهود قبيل الحرب العالمية الثانية، وفي أثنائها، ثم ان فكرة الناس عن قضيتنا شاحبة، أو هي معدومة. وهم يعطفون على اليهود هذا العطف الخاص الناجم عن هاتيك الاضطهادات، ولا يدركون ان للعرب وطنا قد استلب ونهب، وتشرد أهلوه تحت كل كوكب. بل ربما اعتقدوا نقيض ذلك، ولاح في خيالهم أن العرب انما يريدون أن يأخذوا وطن اسرائيل عنوة واقتدارا، وماذا تفعل اسرائيل غير أن تتحصن وتتقوي لكي ترد العدوان المرتقب؟.. هذا ما تجده في عامة الناس، أما مثقفوهم، والمهتمون بالقضايا

الدولية فاولئك قد لعب الاعلام الاسرائيلي بعقولهم بما يصطنع من وسائل، ودهاء، وقلب للحقائق، ونفوذ في دوائر الاعلام الكبرى كالصحافة، ووكالات الانباء، والاذاعات والتلفزيون، ومختلف دور النشر، ودوائر المال والاعمال.. وحيال هذا كله، ومهما فعل الاعلام العربي فان تأثيره، وفعاليته، سيظلان محدودين، فما بالك اذا قصر، أو أهمل، أو بهظه العبء؟ ثم كيف يسعك أن تقتلع، أو على الاقل تخلخل تلك الجذور المغروسة في التربة الاوروبية منذ قرون؟ أذكر اني كنت في مدينة بشمال ايطاليا.

وسألت:

- هل عندكم يهود ؟

قالوا:

- بل عندنا كبار التجار من اليهود.. الى جانب صغارهم.

وذهبوا بي الى بعض المتاجر الكبيرة، وقالوا انها نموذج من تجارة اليهود ومحلاتهم.

قام هذا كله في نفسي بما في التخيل والتفكير من سرعة. والتفت الى الفتاة الانجليزية المثقفة، وقلت في ابتسامة مرة:

- سيطول الامر جدا.

- يطول.. ماذا تعني؟

- هذا الصراع..

وآن لنا أن نغادر لندن وأمضينا اليومين الاخيرين في معاودة استجلاء جمال

حدائقها، ونوافيرها، ورياضها المونقة.. وعدنا الى شوارع متاجرها الكبيرة وبصورة خاصة شارع اكسفورد.

وكانت التنزيلات تصخب صخبها هناك، وقد تدفقت الانجليزيات وغيرهن يشترين منها أصنافا وشكولا من الملبوسات الانيقة، بأسعار منخفضة مقبولة

..غير أن الحيرة تعتريك.. لا ريب في أن بعض هذه المتاجر الضخمة يملكها يهود، وبعضها الآخر يشاركون فيها، فكيف السبيل أن تعرف هذا من ذاك، ثم تجد المتاجر الاخرى التي لا ترى بأسا في انفاق بعض مالك على مشتريات منها !.

قلت لك لقد آن لنا أن نغادر لندن، فودعنا بعض الاصدقاء، ومنهم الشاعرة سلمى الخضراء الجيوسي، وقد كانت ولا تزال عاكفة على اعداد رسالة الدكتوراة في الشعر العربي الحديث وشقيقها فيصل الخضرا الذي يعمل في بنك الكويت بلندن، والصديق المهندس السيد فؤاد الحديدي، وكنا قد التقينا به في الفندق فأكرم وفادتنا، اننا لن ننسى حفاوة أولئك الاصدقاء بنا في لندن، وهي حفاوة ومودة وصداقة خالصة أبقت في نفوسنا أثرا لا يزول.

وركبنا أحد هذه التكسيات الانيقة المريحة الى محطة فكتوريا، وكانت الساعة قد تجاوزت الثالثة بعد الظهر، ووقفنا على الرصيف الكبير ننتظر القطار الذي سيقلنا الى الشاطىء الانجليزي، ومنه نقطع المانش الى باريس.

حرب فيتنام في قطار لندن !

- ٥ -

في الساعة الثالثة والربع من بعد ظهر اليوم الثاني من شهر تموز تحرك القطار بنا من محطة فكتوريا بلندن متجها الى الشاطئ الانكليزي عبر مسافات كبيرة من الريف. والقطار مريح ونظيف، ولا تلقى فيه غير المودة والعون من الركاب. كل واحد مستعد أن يقدم لك المعلومات التي تريدها، وكل رجل يتطوع أن يساعدك في حمل هذه الحقيبة أو تلك، ويتحدث اليك في كثير من الأدب والاحترام، والابتسامة الجميلة لا تفارق شفتيه. والسيدة تصغي اليك باهتمام ملحوظ، وتشرح لك ما قد ترى انه يحتاج الى شرح مما تقع عليه عينك هنا وهناك على امتداد الخط الحديدي من مناظر، وقرى، وسهول، وتلال وغابات.

كان، الى جانبنا في المقصورة، فتى اميركي، لعله في الخامسة والعشرين أو تزيد قليلا، شاب فارع الطول، عريض الالواح، نشط الحركة، خفيف الظل والروح، وجلس، مقابلا له، رجل انكليزي في نحو الاربعين حسن السمت، فيه وقار ظاهر، يتحدث اليك بلغته الانكليزية اذا شئت، أو بالفرنسية، فهو يتقنها ويتأنق في التحدث بها، وقد علمنا أنه رجل أعمال تكثر تنقلاته بين انكلترا وفرنسا، ولكن أعماله الكثيرة تستدعي اقامته في باريس، وكان عائدا اليها بعد رحلة قصيرة الى لندن. أما الشاب الاميركي فكان قد غادر بلاده لكي لا يعود اليها أبدا.. كان يتدفق في الحديث، وفي نبرته غضب هادىء، ونقمة عميقة.. انه

لا يريد هذه الحرب، حرب فيتنام، وقد تمرد عليها وعلى القتال في صفوف المحاربين هناك، ولقي من ذلك عنتا شديدا، وسجن، لكنه ظل مقيما على رأيه، بل هو قد ازداد ايمانا به ورغبة عن هذه الحرب.

وقال انه اختار باريس ليقيم فيها، وهو ان لم يعرفها من قبل فهو واثق انه سيجد في رحابها الحرية أولا، ومجالا للعمل والعيش الكريم، ثانيا... واذن فهذا الفتى حريص على حريته، وحريص على أن يمارس هذه الحرية المنشودة، فهي أم الحريات كما علمه التاريخ.. وهو فتى قد نال حظا طيبا من العلم في الجامعة، ويقول ان أمثاله كثيرون لا يريدون هذه الحرب، ويجدون فيها مضيعة للمال والارواح والافتئات على حريات الآخرين...

وقد استمعت اليه يهضب بمثل هذا الحديث، متحمسا غاضبا، مؤمنا أشد ايمان بما يقول. وأحببت أن أتسلل الى نفسه، عبر حديثه الطويل، الى موقفه أو على الأقل رأيه في هذا الذي تلقاه منطقة الشرق الاوسط من وزر واثم. فقال.

- تلك قضية أخرى.

- كيف والوزر في هذه... وتلك... واحد؟

- افسحوا لاسرائيل مجالا.

- نفسح لها مجالا... وقد أخذت بلادنا كلها؟

- بلادكم؟ من قال هذا؟ انهم يدافعون عن بلادهم ووجودهم... وانتم تريدون أن تلقوا بهم في البحر...

وضربت كفا بكف، وقلت في نفسي لا حول ولا قوة الا بالله. ورحت أشرح الاوضاع كما هي، وعلى حقيقتها المعروفة، وقد حز في نفسي أن يكون الشاب

الذكي، الناقم، الغاضب، مخدوعا بدعايات السوء التي تملأ بلاده، وتؤخذ على علاتها دون أن يكلف أحد نفسه حتى مجرد النظر فيها، والاسترابة بصحة مضمونها، ما دامت صادرة من جانب واحد على الأقل. وهل يصح أن لا نسمع الصوت الآخر..؟ اليست تقضي بذلك الأساليب العلمية؟ وهو شاب جامعي قد عوده أساتذته أصول البحث، ونشدان الحقيقة في حيطة وحذر وحياد دقيق، والمام كامل بجوانب الموضوع كله ما أتيحت له أسباب ذلك؟

وفكر الشاب قليلا ثم قال:

-أعدك أن أفعل بعد أن أستقر... إنني مقبل على ما أجهل كما ترى...

وعدت أسرح النظر، من خلال نافذة القطار، في هذه الصورة الباهرة من الريف الانكليزي. إنه حقا متعة للنظر والحس لا تدانيها متعة، في مثل هذا الفصل من السنة، وربما في كل الفصول.

كل شيء أخضر متألق ريان إلى أقصى ما يمكن أن يمتد إليه بصرك. لا يأخذ طرفك إلا بمطارف موشاة تغطي الأرض كلها: سهولها ووهادها ورباها، وحدائقها وغاباتها.

ما أجمل وأبهى عناية أولئك الانكليز بالشجر المثمر وغير المثمر. وإنه ليختلب لبك هذا النظام الدقيق في الغرس الرائع المقدرة أبعاده تقديرا متناسقا بديعا في أشكال هندسية روعيت فيها المسافات والأبعاد، فلا يجور فيها جانب على جانب أو صف من الشجر على صف. وللشجر غير المثمر قيمة ووزن كبيران.

وهو مورد رزق ومادة لصناعة مربحة هي صناعة الأخشاب. غير أن شجرة واحدة لا يمكن أن تقتلع أو تنشر الا وتكون أخت لها نمت الى جانبها، واستطالت، وملأت الفراغ.

ثم ان عينك تحتار حقا في أي من هذه البيوت الريفية أجمل وأوقع أثرا في النفس. انها تقوم وسط المزارع والغابات، كأنما قد غرست هي الأخرى ونمت وترعرعت وكانت لها هذه الألوان الزاهية، وفي هذه البيوت ما بني، من طابقين، من قطع الآجر الأحمر، أو من الخشب الصقيل. وقد افتنوا افتنانا معجبا في صنع الشرفات، والأجنحة، والأفاريز، والحواجز، وجعلوا من النوافذ بأشكالها الهندسية المختلفة حدائق صغيرة تطل منها عيون زهر وورد قائم أو مائل على فروعه الخضر. وانه ليقع في روعك انه لا يمكن أن يكون أجمل وأبدع وأكثر نظافة من هذه البيوت، وربما لا يضاهيها غير البيوت الريفية الالمانية.

مر نحو من أربع ساعات والقطار منطلق بنا على حافة هذا الريف المزدهر، فلا تكاد عينك تقع على صخر أو حجر عار لا تكسوه الخضرة المخملية.

تركنا القطار الى سفينة صغيرة ستعبر بنا المانش الى الشاطيء الفرنسي. وكانت قد انقضت عشرون عاما أو تزيد دون أن يتاح لي ركوب البحار، وأنا ابن المدينة التي ترسو على شواطئها السفن من كل نوع وحجم. في فصل الشتاء كانت تجتمع على سواحل يافا عشرون سفينة كل يوم، وربما أكثر أو أقل، غير ان البحر كان يغص دائما بهذه السفن لنقل الملايين من صناديق البرتقال، ولا أذكر، منذ وعيت على الدنيا، الا أن هذه السفن كانت تملأ بحر يافا. وتملأ تصوري أخيلة ورؤى وأساطير.. وشببت عن الطوق، وركبت هذه السفن وعرفت قصة البحر في جميع أطواره وأحواله، والهمني من قصصه وحكاياته واساطيره ما أثرى قلمي.

ولهذا كله كان ركوبنا تلك السفينة الصغيرة مغامرة صغيرة ما كان أعظم شوقنا اليها، ومتاعنا بها. قطعت بنا السفينة بحر المانش في نحو ساعة ونصف الساعة ، ونحن لا ننفك نصعد الى سطح الباخرة مرة فتلطمنا الريح، ويتصاعد الينا الرذاذ، ونرسل نحن النفس على سجيتها فلا نجد في الريح والرذاذ وقطع

الغيم السابحة في السماء غير ما يثير المسرة في نفوسنا، والفرحة في قلوبنا، ومرة نهبط الى صالونات الباخرة فنشرب القهوة المعصورة، والشاي، وندخن، ولكن أنظارنا تظل، مع ذلك، عالقة بتلك الكوى في جدران السفينة نشاهد من خلال زجاجها البحر وهو يرغي ويزبد، وينشق أمام الباخرة فائرا محتدما يتكسر موجه بعضه فوق بعض...

ونزلنا أخيرا على الشاطيء الفرنسي، وركبنا القطار ثانية، من محطة «كاليه» لكي ننفق أكثر من ثلاث ساعات على حافة الريف الفرنسي. وهو على خصبه، وجماله، وشجره وعشبه ومياه بحيراته وانهاره لا يضاهي الريف الانكليزي اناقة، وثراء وعناية، وتبدو بيوته متواضعة اذا ما قورنت بالبيوت الريفية الانكليزية... ومع ذلك فهو أقرب الى القلب، وانك لتهش له وتلقاه لقاء الصديق القديم... اترى كان ذلك لأن في هذا الريف مشابه بعيدة أو قريبة من ريفنا؟ قد تكون المبالغة في نشدان الكمال مما يبهر الخاطر ويثير الاعجاب دون أن يعلق بالقلب. ولذلك أحببنا هذا الريف الذي لا تعدم العين، في هذا الجانب منه أو ذاك، مظهرا ان لمْ يدل على آثار النعمة والجاه والثراء، فهو يحدثك عن جهد انساني، وكد يد صادقة العزم في استنداء الأرض الطيبة المعطاء، دون ازدهاء أو ادعاء... ومع ذلك فان فيه لرقاعا ممتدة، وآفاقا عريضة، وسهولا ممرعة لا يبلغ الطرف مداها، وهي جميعا تنبض بالحياة، وتنبيء بهذا الحب للارض، والتعلق بها، والمتاع بعطائها. وقد قيل ان كل فرنسي، بعد الستين من عمره، ينسحب الى الريف فيقيم في بيت هادىء في قرية أو مزرعة، وذلك بسبب من الحب العميق في قلب الفرنسي لأرضه وريفه وأربعه.

وأرسل القطار صفيرا طويلا ادركنا معه أنه أشرف على نهاية رحلته.. ثم لم يلبث أن دخل باريس من محطة الشمال وقد تجاوزت الساعة الحادية عشرة ليلا.

ملامح من باريس

وغدت باريس ملكنا

-٦-

ما أن ركبنا السيارة ووضعنا فيها حقائبنا الكثيرة، وما أن انطلقت قليلا حتى خفق قلبي، كما يمكن أن يحدث عندما نلتقي وجها لوجه بصديق عزيز قديم. وتذكرت ما أنا مدين به اليها، حتى قبل أن أعرفها. أنا مدين لها بهذه اللغة التي تعلمتها طفلا، ومدين لادبها وفكرها وحياتها العقلية الفنية، ولفنها وذوقها. ولما عرفتها وعشت في ربوعها ازددت دينا لها. ما أحببت لغة قط- بعد لغتنا العربية- حبي لغة باريس. لست أجهل السر، فان فيها مشابه وملامح وسمات من فصاحة لغتنا العربية وجمالها وروعة ادائها. لغة أصول، وقواعد، وعقل، يحدثك عن هذا كله المستعربون من المستشرقين. وانهم ليعشقون لغتنا عشقهم للغتهم.

وهأنذا أعود اليها من جديد. وألقاها من جديد. ويخفق مني القلب. وتحدثني زوجتي فما أكاد أعي ما تقول. وكانت عيني تقع على معالم منها والسيارة تخطف بنا خطفا. ميدان الكونكورد شعلة أنوار، ثم هذا هو «الانفيلد» بقبته العالية، وفيه يرقد نابليون، وبعض من كبار قادة فرنسا وعظمائها. ثم تنعطف السيارة قليلا وتدخل حي «لاموت بيكيه» الذي حجزت فيه، من لندن، غرفا لنا، ورأيت بعين خيالي تلك الـ[illegible] عجوز، مديرة الفندق، وهي تلقانا مرحبة بنا. كنت قد عرفتها وكانت قد تجاوزت السبعين، أتراها ما تزال نشطة، قوية،

عصبية المزاج، نافذة الكلمة كعهدي بها ؟

ولم يخب ظني، كأنني لم أفارقها ولم أفارق فندقها الا يوم أمس، فلم يحدودب لها ظهر، ولم تتعقد لها عظام، ولم تعر يدها ارتعاشه، وان استحال شعر رأسها كبة من شيب ناصع البياض.

لا أدري لماذا جعلت أقارن بين مديرة فندقنا في باريس وقد تجاوزت الثمانين، وما تزال مع ذلك قوية البنية، شديدة الاسر منتصبة العود، عصبية المزاج، عنيفة القول اذا أرادت، رقيقة الحاشية حلوة الحديث حين تعنف بها وتعلو نبرتك على طبقة صوتها لكي تضع حدا لفورة غضبها الذي لا تعلم له سببا، أقول لا أدري لماذا جعلت أقارن بينها وبين مديرة النزل الذي حللنا فيه بلندن، فقد كانت رقيقة، مهذبة، عطوفا، تلبي رغباتنا بمجرد اشارة أو ايماءة، وكانت اذا حدثتنا أمطرتنا بوابل من كلامها المتداخل السريع، فكأن كلماتها انصاف أو أرباع كلمات وعباراتها رموز عبارات أو أطيافها، ومع ذلك نفهم عنها، ونبادلها الحديث، ونضحك ملء أشداقنا لانهماكها في العمل وصعودها وهبوطها السريعين بين طوابق نزلها الخمسة... .

والمقارنة بين مدام كلير الفرنسية العجوز، وبين جوسي الانجليزية الشابة ليست سهلةً أو يسيرة، الا اذا صح ان لقاء شتاء العمر بربيعه من هينات الأمور..وهيهات، فان «جوسي» في السادسة والثلاثين لفاء، مقدودة، وسط بين طول وقصر، مرمرية الاهاب، يضرب شعرها الى حمرة داكنة اذا انعكست عليه أشعة الشمس سطع وتألق. وهي ذات بدوات ونزوات ولكنها تستطيع أن تكظم غيظها، ولا تريك من محياها غير ما تحب من بشاشة ومودة. وكان أمرها مع زوجها عجبا: يغادر النزل مبكراً، ولا يلم به الا هنيهات في أثناء النهار، ولا ينفك يعمل من أجل فندقه في الخارج، وقد ألقى العبء كله على زوجته في ادارة شؤون الفندق، وخدمة النزلاء، واعداد الفطور لهم، لا يساعدها في ذلك غير

بنتين من الخدم ساعات معدودات، احداهما اسبانية شوهاء بلهاء، وأخرى ايطالية، فيما أحسب، نشطة، ذكية، خفيفة الحركة، ولا تكاد تنتهي من عملها ضحى حتى تبادر الى مغادرة الفندق للعمل في غيره، بخفة وحيوية ظاهرة كأنها لم تعمل، ولم تتعب الى درجة الارهاق الشديد.

وذات يوم وسوس لي الشيطان أن أوقع بين جوسي وزوجها فقلت لها:

- أراك تقتلين نفسك في العمل من الصباح الى المساء. انك تنتحرين يا هذه. وزوجك يروح ويجيء لا يكاد يلقي اليك بالا، بل أراه يغلظ لك القول أحيانا. فهلا رحمت نفسك؟

وارتعشت أهداب جوسي وعقدت ما بين حاجبيها وقالت:

- أترى الامر كذلك؟

- هذا واضح لكل ذي عينين.

ومضت وهي تهمهم وتغمغم، وبدا لي كأنما هي قد دبرت أمرا. وفي عصر اليوم التالي رأيتها وقد اتخذت كل زينتها، وصفت شعرها، وتبرجت، وأتت بامرأة عجوز أعطتها أجرا وعلبتين من السجائر الفاخرة، وسلمتها زمام الفندق وانطلقت وهي تسحب كلبهاوراءها، ولم تعد الا بعيد العاشرة مساء.. وظل هذا شأنها طيلة الايام التي تبقت لنا في لندن، وأدركت أنا أن كلامي قد فعل في نفسها فعله، ولم أدر أن صديقنا المهندس السيد فؤاد الحديدي قد وسوس له الشيطان بمثل ما وسوس لي فرثى لحالها هو الآخر وقال لها، قبلي، مثل قولي، فطفح كيل الصبر عندها، ورأت أن خير دواء هو أن تمنح نفسها هذه الاجازة اليومية.. وهي في أتم زينتها.. وليذهب زوجها الى جهنم، كما يقول الانجليز. ومن يدري، فلعلها قد استمرأت هذا الكيد، وتمادت فيه، وأسرفت حتى لا يكاد

زوجها اليوم يمسك بزمامها أو يردها الى القصد والاعتدال.. ووزر ذلك وإثمه عليه هو، ولولا غلظته، وانفاقه يومه خارج الفندق لما خطر لنا أن نحدث زوجته الجميلة بما حدثناها.. وما كان حديثنا الا رثاء لامرها ورحمة بها.. أي واللهً..

وبعد فهل تصح المقارنة بين عجوز دردريس في باريس، وبين هيفاء غيداء، متوقدة الاحاسيس في بلاد الانجليز؟

واستطعنا، في النهاية، أن نطامن من حدة مدام كير، حتى اسلست قيادها، وخففت من غلوائها، وخصصت لي ولأسرتي غرفتين، وهي موقنة انها تفعل ذلك اكراما لزبون قديم، كانت لا تفتأ - في الايام الخالية - تحدثه عن ابن وحيد لها يوم ترملت وهي بعد في الثلاثين من عمرها، وقامت على تربيته وتنشئته حتى أصبح ضابطا كبيراً وجدته في نحو الخامسة والاربعين من عمره وليس على كتفه غير نجمة يتيمة.. ولكن تزينه دماثة محببة ولطف وايناس لا تجد مثلهما عند امه التي ربته... .

في اليوم التالي من وصولنا الى باريس ذهبت وزوجتي لاستقبال ابنتينا في مطار أورلي، وقد استقلتا الطائرة من عمان برفقة شقيقهما. كان المطار قد تم تجديده في سنة١٩٦١، وفي تلك السنة ركبت الطائرة من أحد مدارجه الى عمان. وفي هذه المرة اتسع الوقت أمامي لالم بمختلف مبانيه وعمائره وباحاته وصالوناته ومتاجره ومدارجه . قد لا يضاهيه سعة وابهة ونظاما غير مطار روما. وفي مثل هذه المطارات الكبيرة يأخذ بلبك اقلاع طائرات وهبوط غيرها بصورة متوالية تدير رأسك، ويخيل اليك أن ثمة أسرابا من طيور لا تنفك تحط وتشيل باستمرار مذهل. وصحيح انني شاهدت مثل هذا في مطار أورلي أشد، والاقلاع والهبوط أكثر أخذا بلبك من أي مطار سواه.. انه مطار يليق حقا بمدينة النور، وعاصمة السياحة، والمؤتمرات الدولية وغير الدولية من كل نوع وطراز.

وقد امضينا سهرة جميلة ومتواضعة في مقهى بحي «لا موت بيكيه » وابى ولدنا «سري» الا ان تكون السهرة بما فيها من عشاء ونزهة على نفقته.. وهو لايقيم في باريس، عادة، غير ليلة، ثم يعود في اليوم التالي الى عمان مع «عالية » الخير، الميمونة الغدوات والروحات.

وغدت باريس ملكنا، وهي تلقى كل سائح وعابر بشباب دائم، خالد، وتفتح له أحضانها، وتكشف لعينه المتطلعة عن كل مفاتنها، على أن يكون جيبك عامرا أبدا، والويل لك اذا نضب منك الجيب، أو كنت شحيحا تقبض يدك، فانها عندئذ تشيح عنك، وتصد، ولا تمنحك من نفسها الا بقدر ما تمنحها من جيبك. وقد راعنا، في أول الامر، ان باريس تبدو محتشمة شديدة الاحتشام والحياء بالنسبة الى لندن.. وها هن غيدها وحسانها رائحات غاديات ومقبلات مدبرات وقد لامست فساتينهن وتنانيرهن الركب أو انحدرت عنها قليلا.. وبدت على وجه باريس مسحة من كآبة.. ان الابتسامات الحلوة هي الابتسامات، والرشاقة والخفة والظرف طابع كل ما تقع عليه العين.. ولكن احساسا خفيا يوحي اليك ان وراء هذا كله ما يشبه أن يكون هما مكتوما.. فهل غادرها الى المصايف والشواطىء أصحاب الترف، والمرح، وذوات الخفة والدلال، في هذا الوقت من الصيف؟.

وقيل لي بل انها تنطوي على جراحات لما تندمل، ولقد عانت الكثير في سنة ١٩٦٨ من اضراب، وتمرد، وغوغائية شوارع، وميادين وصلت الى حي جامعتها (السوربون) وطلابها وطالباتها، وقد اضطرب اقتصادها، بسبب من هذا، بعض اضطراب، وتعطلت الاعمال.. والفرنسي ذو حساسية خاصة في كل ما له علاقة باقتصاده وأعماله ومصدر رزقه.. فكيف تريده مرحا، منطلقا وقد كابد من هذا كله وعانى منه ما عانى؟.

وسرنا في بعض أسواقها متمهلين نلقي نظرة هنا ونظرة هناك، واذا كنت تزهد في مشاهدة واجهات الازياء في أي بلد تزوره، فان هذه الواجهات، في

باريس، تستوقفك، وتشدك اليها لترى ما فيها من ذوق وجمال واغراء وفن في العرض لا تحس مثله مدينة كباريس.. وفيما نحن كذلك استوقفتنا سيدة عجوز، وقد فتحت ذراعيها وراحت تهضب بكلام مثير، فيما ترقرقت الدموع في عينيها، وما من أحد غيري في الاسرة يتكلم الفرنسية، ولما استطلعت أمر السيدة أدركت أنها أخذت بعيون من معي وقالت: هذه عيون من الجزائر ولا ريب.. أجل من الجزائر.. وبكت السيدة التي أنفقت عمرها هناك.. وطيبت خاطرها بكلمات سريعة، وقلت لها نحن من الاردن يا سيدتي.. أما الجزائر فبورك لاهلها بها. ولا يحزنك انها تحررت، ودفعت ثمن حريتها دماء مليون شهيد. وما قيمة ما فقدت هناك اذا قيس أو وزن بقطرة واحدة من هذه الدماء الغالية. ثم مضينا وقد عقدت الدهشة السنتنا.. وفي الوقت نفسه أدركت وجها آخر من تلك الكآبه التي أحسست بها منذ وطئت أقدامنا أرض باريس.

قبر نابليون

-٧-

كان الانفليد، وفيه قبر نابليون، أقرب ما يمكن أن نراه، فهو في طريقنا، وبينه وبين فندقنا مسيرة دقائق معدودات، ولولا أفراد أسرتي لما فكرت في زيارته، فقد شبعت من مشاهدته في السابق، ثم أنا رجل سيء الظن بالفاتح الكبير، والعجيب أن عددا من كبار المؤرخين الفرنسيين قد تناولوا نابليون، بمناسبة مرور مئتي سنة على مولده، بالنقد اللاذع، وكشفوا في مقالات مستفيضة عن جملة عيوب ونقائص في خلقه لا محل لها هنا، غير اني أذكر اني قرأت قبل بضع سنوات قولا لكاتب فرنسي مرموق جاء فيه أن نابليون، يوم كان ضابطا صغيرا، توسل بخليلته جوزفين- وكان لما يتزوجها بعد- لتسعى له عند بعض ذوي النفوذ لكي يجعلوا منه ضابطا ذا رتبة عالية وقد حدث هذا، أي أنهم رقوه الى تلك الرتبة، غير أن جوزفين دفعت الثمن.. ولم يخجل نابليون.

ينهض قبر نابليون البني على قاعدة خضراء، ومن فوق هذا كله ترتفع قبة عالية تراها، من مسافات بعيدة في باريس، منحوتة، مزخرفة، مرصعة بالالوان، وفي الليل تكون شعلة من الاضواء الباهرة.

ولكي تشاهد القبر لا بد أن تطل عليه من فوق دائرة واسعة من منحوت الرخام لانه يجثم في قاع من الارض .وفي وسعك أن تسير مع جمهرة السائحين حتى تنحدر الى هذا القاع فيكون القبر بقاعدته وناووسه البني المنحوت على

مرمى ذراع منك. وعندما تعود صاعدا تواجهك كنيسة تتلألأ بالانوار المنسكبة على ذهب الصلبان، وشمعدانات المذبح، واطارات اللوحات الفنية التي تمثل قديسين وأصحاب مآثر في الدين. وفي أرجاء المكان قبور من منحوتات رخامية غاية في الدقة والبراعة لقادة جيوش وحرب، في تاريخ فرنسا القديم والحديث.

والانفليد بعد هذا قصر قديم واسع الارجاء، مترامي الاطراف متعدد البنايات والاجنحة، وقد اختص كل منها بعرض هذه الناحية أو تلك من تاريخ فرنسا الحربي، ومخلفات لحروب وغنائم المعارك الشهيرة من أسلحة واعلام، وحتى في الفناء الواسع، وعند مدخل الانفليد، تجد دبابة ضخمة من غنائم الحرب العالمية الثانية، ولا أدري ما جدواها هناك، وقد أكلها الصدأ وبدت كلعب الاطفال بالقياس الى أسلحة هذا الزمان.

وفي الطابق الارضي، في مدخل من حنايا وأقواس، كنيسة أخرى رحيبة أجري فيها، يوم زرنا الانفليد، أكثر من زفاف ديني.. وفي رحاب الفناء المفروش بالعشب وقفنا مع الواقفين لنشاهد عروسين تم اكليلهما في الكنيسة، وقد وقفا مع الاهل والاصدقاء يتلقيان التهاني، فيما يصورهما المصورون، وقد سمعت همسات ضاحكة تذكر جمال ما ارتدت العروس في يوم زفافها.. كأنما براعة تفصيل فستانها الابيض وطرحتها المناسبة أعلق بالعين من نضرة جمالها هي، ولين أهابها.. وكانت الهامسات المرحات صبايا ونساء في أواسط العمر، وقلت متضاحكا: لماذا لا يفعل مثل هذا الرجال؟ وبدا لي أن هم الرجل أن يجتلي محاسن المرأة، ومواطن حسنها، ومكامن فتنتها في وجه صبيح، وقد رشيق، ولا يأتي جمال فستانها أو تنورتها أو وشاحها الا في المكان الثاني، وبقدر ما تستطيع هذه الثياب ابراز خصائص الجمال.

ونعود الى نابليون، فقد كان زير نساء وكانت فتوحاته في هذا الميدان أعظم من فتوحاته في المعارك والحروب، هذا في تقديري أنا، وربما في تقدير بعض

المؤرخين والادباء.. وأنت اذ تقرأ تاريخه يتصاعد الى أنفك، باستمرار، عطر هاتيك الغراميات، فكأن نابليون لم يكن له من شاغل غير ايقاع الغيد الحسان في شراك حبه.

كان لا يستطيع أن يجد مخدعا لاحداهن موصدا دونه. والمرأة، في كل زمان ومكان، تهز العظمة كيانها، وتستلب لبها. وتستهويها، بصورة خاصة، بزة القائد الكبير. أما أن يكون نابليون هو ذلك القائد، واما أن تكون الحسناء الغيداء هي المرأة الفرنسية التي جعلت من الحب قوام حياتها، وأبدعت منه - وفيه - البدع والفنون، فتلك والله، هي قصص الغرام التي لا تفوتها ولا تدانيها قصص أو أساطير.

ومع ذلك لا تملك الا أن تتساءل: لو لم يكن نابليون هو ذلك القائد الفاتح، وهو ذلك الامبراطور الذي جعل شغله الشاغل تحطيم عروش أوروبا وتيجان ملوكها وافناء زهرة شباب فرنسا في حروبه، أكان يجد سبيله الى قلوب أجمل نساء زمانه، وأكثرهن فتنه وأرفعهن منزلة؟

ثم.. ما من واحدة منهن اقامت على حبه والوفاء له. كن يخنه، ويبحثن بين جنوده وضباطه عن الفتيان الاشداء ليلقين بأنفسهن في أحضانهم... .

حتى جوزفين التي - قيل - انها أخلصت له، لم تقم له على ود، ولم ترع لحبه حرمة، فخانته.. وكانت تغتنم فرص وجوده مع جيشه في المعارك وتدخل الى مخدعها المعطر عشاقا معاميد.. وكان قلبه يحدثه بما تفعل في غيبته فيكتب لها رسائل ملتهبة لا تخلو من شك يفري قلبه..

ولما ركبه الطموح طلق جوزفين وتزوج سنة ١٨١٠ ماري لويز ارشيدوقة النمسا وابنة امبراطور المانيا فرنسوا الثاني.. في وسعك أن تزور في ضواحي باريس بيت جوزفين المعروف باسم - مالميزون - فكله ذكريات وحكايات غرام،

وتصعد اليك من مخدعها بقايا من عطر هاتيك الغراميات..

وماري لويز التي أنجبت له ابنه نابليون الثاني - النسر الصغير - ماذا فعلت عندما أسر نابليون ونفي الى جزيرة القديسة هيلانا؟ تزوجت مرة وثانية من ضابطين من أصحاب الالقاب النمسوية وكان أحدهما أعور، ولا يصلان، كلاهما، الى حذاء نابليون.. وزيادة في النكاية رفضت أن تتسلم قلبه الذي أوصى بوضعه في وعاء فضي وتقديمه لها.. وأكثر من هذا: أهملت ابنها منه، أهملت النسر الصغير، فكأنما ليست أمه، وقد نشأ الفتى في البلاط النمسوي مهينا، مستباح الكرامة، مهيض الجناح، لا ينفك كل من حوله يبث في نفسه بعض والده.. الى أن توفي بقصر شومبرون وهو في الحادية والعشرين من عمره، وكان داء السل قد مزق رئتيه، وهو الذي أطلق عليه والده لقب النسر الصغير منذ ولادته، وسماه ملك روما، ونودي به امبراطورا بعد سقوط أبيه.. ولعلك، اذا زرت فيينا، أن تعرج على قصر شومبرون وتقضي بعض وقتك في حدائقه المترامية، وتصعد الى غرفه وابهائه وقاعاته، فتطالعك منه ذكريات شجية، وربما تمثل لك وكأنه نموذج مصغر لقصر ملوك فرنسا-فرسايل-. أجل هكذا بدا لي، بل أن فيينا نفسها ما أشبهها بباريس، وربما أحسست انها، الى اليوم، لا تنفك تحاكي باريس رقة وعذوبة واغراء.. ولكن هيهات.. وشتان..

وقلت، ونحن نغادر الانفليد، ما ينبغي لنا أن نغمط نابليون حقه. ومع أنه ليس بحاجة الى مثلي ينصفه، فلا بد أن أقول أنه كان ذا عبقرية عسكرية قل مثالها، وكان على جانب عظيم من الذكاء المتوقد، وصاحب مقدرة على العمل تبعث على الذهول. شهد له بذلك خصومه قبل محبيه.. ولكن أترى ذلك الكورسيكي كان فرنسياً حقا؟ هناك من المؤرخين الايطاليين من يدعيه لايطاليا.. وهي ليست دعوى، وانما حقيقة فقد ولد في اجاكسيو وهي محافظة في جزيرة كورسيكا، الايطالية، وان عدها الفرنسيون من أملاكهم..

وفي هذه الاثناء مررنا بـ «القصر الكبير» بقبابه وواجهاته الزجاجية، فوجدنا العمل فيه قائما على قدم وساق، كما يقولون ليكون معرضا من معارض الاحتفال بمرور مئتي سنة على مولد نابليون.. وقلت لزوجتي: نمضي الى «الشانزليزيه» نشاهد متاجره وواجهاته الانيقة ومقاهيه الباذخة ثم نصل الى قوس النصر، وهو مأثرة من مآثر نابليون.. وحثثنا خطانا بين ممرات ودروب يحفها الشجر الوريق، والنوافير التي تفرش من مائها المنبثق مظلات بعضها فوق بعض، ثم انعطفنا شمالا فاذا نحن في وسط الشانزليزيه الذي يموج بالخلق فكأنه معرض كل جميل وأنيق في باريس.. وسرنا في اتجاه قوس النصر. وأبيات من شعر فكتور هوغو تتردد في خاطري، وهي من قصيدة يخاطب فيها نابليون بعد أن ولد له النسر الصغير وقال أن المستقبل لي:

مولاي!..

ليس المستقبل لأحد.

انما المستقبل لله وحده..

قوس النصر

-٨-

عندما بلغنا قوس النصر في «الاتوال» بباريس جلسنا نستريح على مصاطبه العريضة، وأمامنا شعلة اللهب التي تعلو قبر الجندي المجهول، شعلة لم تنطفىء أبدا منذ انتهاء الحرب العالمية الأولى الى اليوم والى ما شاء الله. انها رمز للخلود، والتكريم، وهدية مضيئة ومتوقدة من الوطن الى كل جندي بذل حياته وجاد بنفسه دفاعا عن ثراه.

كان السياح يتوافدون أفواجا وينتشرون في أرجاء القوس الفخم، الضخم، وبأيديهم آلات التصوير يلتقطون صورا من هذه الزاوية أو تلك، ثم يعودون فيعلقون آلاتهم في أعناقهم. أكثرهم أمريكيون وألمان، وما من شيء يدل على السائح هذه الايام كملابسه البسيطة وحذائه الصيفي المفتوح من كل جانب، ولحيته النامية، وآلة التصوير المعلقة في عنقه. والسائحة صبية كانت أو عجوزا فانها قد تخففت، هي الأخرى، من وقر الملابس الانيقة، كما تخففت من أسباب الزينة والتبرج، ولا تأخذ عينك منها غير فستان بسيط، صغير، قصير، يكشف عن الذراعين والصدر والساقين الى ما فوق الركبة، وقد يكشف أيضا عن معظم الفخذين، وتحمل هي الاخرى آلة التصوير معلقة في عنقها، حتى لو كان معها صديق أو حبيب.

لقد غدت السياحة شيئا متاحاً للجميع لكل الطبقات ولكل انسان، وقد كانت في السابق حلما عزيز المنال لا يستطيع تحويله الى حقيقة غير القادرين من الاثرياء. ولهذا أسباب كثيرة ربما كان أقربها سهولة النقل والسفر، فالطائرة تنقلك اليوم الى أي مكان في الدنيا في ساعات قليلة، ومعنى هذا ان اجازتك القصيرة لا يضيع منها شيء في حل وترحال كما يقولون.. ثم أن دخل الفرد في الغرب قد ارتفع كثيرا بعد الحرب العالمية الثانية حتى أصبح في وسعه أن يقوم برحلة سياحية طويلة أو قصيرة وفقا لامكاناته المادية، حتى أن بعضهم من غير القادرين، يسافر ويسيح ويصل الى أقطار بعيدة بالمجان أو ما يشبه المجان.. انهم أولئك الذين تراهم في الطرقات ينتظرون سيارة يرضى صاحبها أن ينقلهم الى بلد ما أو مدينة ما مشكورا، وثوابه ابتسامة، وعبارة لطيفة..وقد صغر العالم وتقاربت أجزاؤه وأقطاره ايما تقارب، حتى غدت السياحة ميسورة الى أبعد حد ممكن، أي أن عشرات الملايين من رجال ونساء أصبحوا يمارسونها. أقول عشرات الملايين، وربما كان الاصح أن أقول مئات الملايين، اذا أدخلنا في الاعتبار الاحصاءات في كل من الاقطار الاوروبية السياحية كايطاليا، وفرنسا واسبانيا في الدرجة الاولى، ثم تأتي بعدها أقطار سياحية أخرى ولكنها أقل نسبة، كالمانيا، واليونان والبلاد الاسكندنافية، والاقطار الاوروبية الشرقية، والشرق الاوسط، بما فيه الاردن.

وبقدر ما تكون البراعة قوية وحاذقة ومفتنة في الترغيب والاغراء بقدر ما يكون الاقبال السياحي على بلد من البلدان، ويضاف الى هذا، بالطبع ايجاد جو سياحي ملائم ومريح كوفرة الفنادق السياحية، وأسباب الترفيه. وسهولة التنقل، وحسن الاستضافة، حتى لقد اعتبرت السياحة صناعة ذات أصول وقواعد واختصاصات.

وربما أثار دهشتك أن تشاهد جمعا غفيرا من السياح المتنافس من الجنسين،

بظهرهم ومظهرهن المزري والشعور القذرة المسدلة على الوجه والكتفين، واللحى العريضة في وجوه أصحابها كأنها (المخالي) في رقاب الخيل أو الحمير، أضف الى هذا كله ما يلبس السائحون والسائحات من المرقعات: ومن أزياء الازمنة الغابرة، أو حتى ما يتوهمون من أزياء القبائل البدائية التي ما تزال تعيش في متاهات الغابات والادغال.. هذا فريق من السياح لا يبعث على العجب وحسب بل أنه يثير التساؤل في كثير من القضايا السياسية، والاجتماعية، والحياتية. ولقد نحب أن نقول مع القائلين انهم صنف من الناس يحتجون على مآسي عصرهم، ومظالمه، ولا أخلاقيته السياسية والا جتماعية، ويتخذ احتجاجهم أو رفضهم لروح العصر، ظهورهم بهذه التقليعات.. ولكن ماذا نقول في انحلالهم الخلقي، واختلاط بعضهم ببعض على شريعة الغاب، وإقبالهم العجيب على المخدرات والمغيبات؟ ألا يضيفون- بهذا كله- مأساة جديدة مروعة الى مآسي عصرهم؟.

مالنا ولهذا.. لقد جئنا سائحين ومتفرجين، وهذه احدى صور سياحتنا، لا نستطيع أن نقف عندها أكثر من لحظة، ونقول فيها كلمة عابرة ربما أغنت عن الاطالة، ثم غضي، ولكن الى أين؟ ان قوس النصر ما يزال أمامنا، بنقوشه، ولوحاته الحربية المنحوته في جدرانه، تاريخ حروب فرنسا في عهد الجمهورية ثم الامبراطورية من خلال ثلاثمئة وستة وثمانين قائدا خاضوا هاتيك الحروب مع ذكر أهم الانتصارات.

كان نابليون هو الذي أمر بتشييد هذا القوس العظيم في سنة ١٨٠٦ واستمر العمل فيه زمنا طويلا، ويبلغ ارتفاعه نحوا من خمسين مترا وعرضه قريبا من ٤٥، أما سمكه فأكثر من اثنين وعشرين مترا. وهو بنقوشه وزخارفه تحفة فنية وهندسية لا مثيل لها في العالم على كثرة ما نشاهد من أقواس النصر في بعض العواصم الاوروبية ومدنها الكبيرة. في ميونيخ مثلا تجد قوس النصر، وفي لندن

كذلك، وفي غيرهما، الا أنها جميعا تبدو كالاقزام حيال ذلك القوس العملاق الذي يتوسط ساحة الاتوال بباريس حيث يتفرغ اثنا عشر شارعا كبيرا في دائرة هندسية تمتلك اعجابك، اذا ما نظرت اليها بصورة خاصة، من خلال زجاج كوى طائرة محلقة.

لم يكتب لنابليون أن يرى هذا القوس الذي أمر بتشييده، وان كتب لجثته أن تمرّ من تحته محمولة في تابوت بعد أن جيء بها من منفاه في جزيرة القديسة هيلانة، وقد مرت أعوام طويلة على دفنها في تلك الجزيرة الى أن وافق الانجليز في النهاية على نقل نابليون الى وطنه. ويومئذ احتفلت فرنسا احتفالا مهيبا بعودة رفات القائد العظيم والامبراطور الذي ما أكثر ما قوض من عروش، وقد اتشح قوس النصر بالسواد، ومر النعش والموكب من تحته، ثم دفن نابليون في الانفليد، وأقيمت من فوقه قبة عظيمة.

أمضينا ساعتين مع قوس النصر، وشاهدنا أكثر ما فيه من نقوش ومنحوتات لاشهر الفنانين، وتأملنا طويلا الشعلة الخالدة فوق قبر الجندي المجهول وقد وضعت فوقه أكاليل من الزهر، في ذلك اليوم، قدمتها بعثة دبلوماسية أو عسكرية. ثم ابترد الجو، وأحسسنا أن دفء الصيف قد أخذ يتحول الى ما عهدته منذ طويل من برد الشتاء في باريس، فغادرنا قوس النصر ونحن لا ننفك نلتفت اليه بين خطوة وأخرى، وغابت الشمس، وسطعت أنوار الشانزليزه وتلألأت واجهات متاجره الانيقة، وانتثرت في كل مكان،كاللؤلؤ حسان باريس الخفيفات، الرشيقات، ذوات القدود الهيفاء، وغصت المقاهي بهن وبمن معهن من شبان، وبينهم جميعا عجائز من الجنسين، ونساء ورجال في أواسط العمر.

مقاهي باريس لا تضاهيها مقاهي أية عاصمة أخرى جمالا واناقة وكثرة، حتى ليلتصق المقهى بالمقهى وقد ازدان بالانوار والمرايا والمقاعد الوثيرة، وشاع الذوق الجميل في كل ما تقع عليه العين، وربما كان أجمل ما في تلك المقاهي أن

لكل منها «تراس» أو فسحة مظللة أمامه تمتلىء هي الاخرى بالرواد، ولا ينبغي لك أن تعجب من جلوس المرأة في المقهى وحدها، تدخن وتشرب القهوة أو قدحا من جعة أو كونياك، فالمساواة بين الجنسين تبيح ذلك، وأكثر منه.. ولا تأخذك الدهشه اذا وجدت شابا يقبل فتاته وتعاطيه هي التقبيل في المقهى، وفي الطريق أو في قطار المترو، أو عند الحواجز المطلة على نهر السين، وفي كل مكان، انه أكرم للحب، ولما بين المرأة والرجل، ان لا يكون مثل هذا الابتذال هكذا على قارعة الطريق..ولكنك في بلاد الحرية، وللحرية فيها مفاهيم غير ما ألفت واعتدت، فلتغض من بصرك اذن، وان هي الا أيام تألف بعدها هذه المناظر، ولا تعود تثير فيك دهشة أو عجبا أو استهجانا..

واتجهنا الى فندقنا، وأخذت سماء باريس ترسل، رذاذها، ولن يلبث أن يغدو وابلا لا تدري كيف تتقيه، فالارشد اذن أن نهبط الى احدى محطات قطار المترو فنركبه الى حي لاموت بيكيه، حيث يقع فندقنا وحيث تتلقانا مدام كلير مديرته الحيزبون، فلا ندري أهي غاضبة ساخطة، أم ساكنة راضية، أم منطوية على نفسها تجتر أحلام ثمانين عاما تقضّت فيما تعلم ولا تعلم من أمرها.

بين برج وقصر

-٩-

الشتاء في قلب الصيف: هذا ما اهدتنا اياه باريس في شهر تموز. ولكنها كانت هدية مزعجة لم نرحب بها كما لم يرحب بها احد، ولا الفرنسيون انفسهم. كان المطر غزيرا متدفقا كانما السماء ما أمطرت قط في العاصمة الفرنسية، ثم جادت أخيراً بهذا الوابل لم ينقطع في ليل أو نهار ثلاثة أيام كاملة. جادت بها بعد طول انحباس وبعد جفاف هدد الزرع والضرع كما يقال.. كأنما هذا الماء المنصب بقوة وشدة بأس: سهام أو رماح لا تدري كيف تتقي طعنها اذا غامرت وخرجت لامر لك..

وهكذا حبسنا مطر باريس، في عز الصيف، فلم نكد نفارق الفندق الا هنيهة هنا وهناك. ثم صفا الجو وتبدد الغيم وان أبقى المطر لذعة من برد شاعت في الجو كله، حتى لقد اضطررت أن أتدثر بملابس الشتاء الثقيلة، وقلنا نذهب لنرى برج ايفل، ونركب بعض مصاعده الى احدى طباقه الثلاث.

في البطاقات الملونة وغير الملونة يرمز برج ايفل الى باريس. ويرمز اليها في اعلانات السياحة وشتى وسائل الدعاية لها، وهو كذلك يرمز اليها في الرقاع الملصقة فوق قوارير العطر، وفي الكثير مما تنتجه فرنسا وتصدره الى الخارج. وفي أذهان البعض، اذا ما ذكرت باريس، تتمثل مدينة النور بهذا البرج الذي

يبدأ - من قاعدته أو سيقانه الاربع الجبارة - عريضا، ضخما، جاثما كالطود، ثم يعتريه النحول شيئا فشيئا كلما أمعن في الارتفاع حتى ينتهي برأس مدبب كرأس الدبوس- فيما يقع في روعك- وعندئذ تتذكر أن هذه القمة الدقيقة ترتفع عن سطح الأرض ثلاثمائة متر كاملة غير منقوصة، وهي التي تريك باريس مبسوطة كالكف تحتك، أو تحت البرج اذا شئت.. حتى قصر شايو الفخم المقابل له لا يبدو لك- من هذا العلو الشاهق- الا كبطاقة البريد أو أصغر. أما نهر السين فلا يتراءى لعينك الا كشريط فضي عرضه بضعة سنتيمترات تسبح فيه بواخر كالذبابات، والسيارات المنطلقة، والخلق وهم يغذون السير ما أكثر ما يقع في وهمك أنك تستطيع أن تمد يدك وتتناول حفنة من هذا كله تملأ بها راحة يدك. ثم تبسطها وتروح تتفرج كيف يدب الخلق كالنمال وتروح السيارات وتجيء كأنها خرزات صغيرة ذات ألوان وشيات..

أمضينا في البرج ساعة من زمن، وجلسنا في مقاهيه ومطاعمه، وتنقلنا في أرجائه الواسعة، ومن خلال مناظيره المثبتة في الاركان شاهدنا باريس كلها من جهاتها الاربع. كانت كنيسة «السكريه كور»- أو كنيسة القلب المقدس- تلوح عالية متطاولة في «مونمارتر»، وتتميز بأبراجها وقبابها، وكأنما هي تهيمن على المنطقة كلها. ولا غرابة في ذلك، فهي قائمة فوق جبل ولا سبيل للوصول اليها الا بالقطار الهوائي.

ولم نستطع أن نمكث زمنا أطول لشدة البرد، فغادرنا البرج العنيد، ثم سرنا طويلا في أرجاء- شان دي مارس- الذي ينهض فيه هذا البرج وقد اتخذ اسم مهندسه البارع- غستاف ايفل- وكان قد فرغ من صنعه سنة ١٨٨٩، وأكثر الناس في أنحاء الدنيا نسوا المهندس واسمه وعادوا لا يذكرون غير البرج وهذا الاسم الذي لصق به كأنه، منه، قطعة حديد.

وجلسنا عند بركة من برك الشان دي مارس فالمقاعد ميسرة هناك لكل غاد

ورائع، وتذكرت مواقف لادباء مشاهير من هذا البرج. أكثرهم استقبحه في حفلة افتتاحه، وأنحى باللائمة على المسؤولين الذين أمروا باقامته، وكان منهم الكاتب القصصي الشهير «غي دء موبسان» فما أن وقعت عينه عليه، وهو ما يزال في العربة التي أقلته، حتى قفل راجعا وهو يلعن البرج ومن أقامه وأشار بصنعه، فما هو الا حديد متشابك بلا ذوق أو فن أو حتى مسحة من جمال مهما تكن ضئيلة.. ربما كان هذا هو احساسي أنا أول مرة شاهدت فيها هذا البرج في السابق. وكنت أوثر لو أقاموا بدلا منه احدى عمائر الفن والتاريخ الضخمة كتلك التي أمر بتشييدها الملك عمانئيل في روما، فضمت من التارخ القديم والحديث أنصع صفحاته محفورة في الرخام، أو ناطقة في تماثيل ذات شكول وألوان.

في غمرة هذا الاحساس نسيت ألف موطن من مواطن ذكريات التاريخ التي أقيمت في باريس، فما بال الادباء، بل ما بالي أنا أضيق ذرعا بهذا البرج العجيب؟ انه، مع كا ما قيل فيه ووجه اليه من نقد، ما يزال يرمز الى باريس، وما يزال ملايين السياح يتوافدون لمشاهدته، والصعود اليه، وانفاق الوقت في رحابه الواسعة..

كان ما يزل أمامنا الكثير الذي لا بد أن نشاهد أو نشاهد بعضه في باريس. ووجدتني أحن الى قصر «اليونسكو». كنت قد أمضيت بضعة شهور فيه أعمل وأتدرب من الصباح الى المساء. فلي ثمة أصدقاء، ومعارف، وذكريات. الدنيا كلها تجتمع في اليونسكو، أعني أن موظفيه وموظفاته خليط من كل الجنسيات والبلدان. وهو منظمة عالمية، تابعة للامم المتحدة، ترعى العلوم والفنون والاداب والتربية والتعليم، ولها مشاريع عديدة أفادت منها الاقطار النامية خاصة.

ولما زرناه كان أكثر الاصدقاء من موظفيه قد غادروه معتزلي الخدمة، أو منتقلين الى بلاد اخرى لليونسكو. عرفت السيد «ماهو»- مديره الحالي- عن كثب.. وكان يومئذ أحد مساعدي المدير العام السيد «فيرونيزه» ولما استقال

انتخب المسيو ماهو مديرا مكانه. وهو على جانب كبير من الحيوية والذكاء.

كان من الاصدقاء الذين زرتهم، هذه المرة، الدكتور خلدون الكناني وهو يشغل منصبا هاما في اليونسكو، بقينا في مكتبه ساعة استعدنا فيها الذكريات، وتحدثنا في أكثر من موضوع، والرجل لبق، ومخلص لعمله، وعلى جانب كبير من الثقافة والالمام بشؤون اليونسكو. .سألته عن الصديق الاستاذ جلال زريق، وكان مديرا لدائرة الترجمة إلى اللغة العربية في المنظمة فقال لي انه اعتزل الخدمة منذ زمن طويل، وهو يقيم الآن في بيروت.. جلال زريق: انك اذا عرفته مرة فلن تنساه أبدا. كنت، في اليونسكو، أهرع اليه في مكتبه كلما أحسست بالغربة، فنتحدث طويلا، وأروي له صورا من حياتي في باريس فيضحك ويقول: زدني.. زدني..

وقد كان أديبا، وشاعرا، يوم التقيت به في القدس أيام الشباب، وكان خدين ابراهيم طوقان وصديقه وكنا نتذكر ابراهيم ونستحضر صورته، واحاديثه ومفاكهاته وشعره. وكان جلال يمسك عن الحديث بين لحظة واخرى فتشجيه الذكريات ويطرق برأسه، فأصمت أنا حتى يعود فيثوب الى نفسه.. رحم الله شاعرنا وبلل ثرى قبره بأنداء الخلد.

ودعنا الدكتور خلدون الكناني، ورحنا نطوف بأرجاء قصر اليونسكو، وقاعاته. وحضرنا جانبا من مؤتمر دولي لبحث شؤون الاسرة ومشكلاتها في هذه الايام، ثم وقفنا طويلا عند اللوحة الجدارية الكبيرة التي رسمها «بيكاسو» لليونسكو ولم يضع عليها توقيعه.. انه يوقع منجزاته الفنية أحيانا، وأحيانا لا يوقعها، ولا سبب لذلك فيما نحسب وتظن، الا أن يكون شذوذ الفنانين وغرابة أطوارهم.

لوحته الجدارية هذه من الفن التجريدي. فيها الاصفر والبني والاسود

والابيض. ألوان لا تسر العين اذا استغلق عليك فهم اللوحة. وقد قيل- تبريرا لفن الرسم الحديث- ان الالوان وجمالها وتآلفها وبراعة تظليلها واشاعة التوازن بين الاشكال تطرب العين كما تطرب الانغام الموسيقية الاذن. ربما كان هذا صحيحا، وعسى أن تكتفي به ولا يعود موضوع الاثر الفني يهمك في كثير أو قليل. وفي لوحة بيكاسو لا تجد حتى هذا الذي يسر العين ويبهجها... ومع ذلك فان ألوفا قد شاهدوها، وحاولوا عبثا أن يفسروها لانفسهم ولغيرهم.. انها لوحة بيكاسو والسلام. وربما كان هو نفسه أول من لا يفهم منها شيئا..

وفي حدائق اليونسكو شاهدنا بعض التماثيل والمنحوتات الفنية.

انها كتل من الصخر، ولكنها في أشكالها الحديثة تعبر عن شيء ما، عن جلسة لانسان، عن قوام في وضع معين، وأنت لا تخطىء ذلك في أكثرها. وفي بعض الطباق السبع من مباني اليونسكو تجد لوحات جدارية أخرى لغير بيكاسو. انها من الفن الحديث، ولكنها بألوانها الزاهية وبظلالها وأشعتها، تبهر العين حقا، وتحب أن تقف عندها طويلا تتأملها وتشعر بمثل هذه الهزة التي تعتريك اذ تسمع نغما جميلا أو تقرأ قصيدة من هذا الشعر الذي وصفه ابن قتيبة الدينوري في كتابه الشعر والشعراء فقال:- وَضَرْبٌ منه- أي الشعر- حسن لفظه وحلا. فاذا أنت فتشته لم تجد هناك طائلا كقول القائل:

ولما قضينا من منى كل حاجة

ومسَّحَ بالأركان من هو ماسحُ

وشُدَّتْ على حدب المهاري رحالنا

ولم ينظرْ الغادي الذي هو رائحُ

أخذنا بأطراف الاحاديث بيننا

وسالت بأعناق المطي الاباطح

وذكرتنا هذه الفنون التي رأيناها في اليونسكو أن علينا أن نزور متحف اللوفر، قبل أن نغادر باريس، ولقد تفوتنا أشياء، ولكن لا ينبغي أن نغفل أعظم متحف للفنون في العالم.

في هرم الموناليزا.. ووقفة عند المصابين بالطاعون في يافا

-١٠-

توقعت كل شيء الا أن يبلغ الازدحام في قصر اللوفر هذا الحد المذهل حقا. كان يجب أن أتوقع توافد السياح والسائحات على متحف الفن العالمي في مثل هذا الوقت من فصل الصيف والسياحة.

لقد ضاقت بهم قاعاته وابهاؤه وممراته على رحبها. حتى الطابق الارضي، حيث احتشدت تماثيل الرخام والبرونز من مختلف العصور لربات فتنة وجمال، قد غص بالرواد.

أما القاعات المخصصة للاثار المصرية فما كان يمكن أن تجد فيها موطئا لقدمك الا بصعوبة بالغة.. ما أعجب هذه الفنون المصرية الفرعونية، بل قل ما كان أعجب صبر الفنان المصري الذي استطاعت انامله الشاعرة ان تنحت التمثال الكبير بمثل هذا الاتقان البارع، كما استطاعت أن تصنع التمثال الصغير الدقيق المعبر باعجاز فني يستوقفك رغما عنك، ويدعوك الى تأمله والافتتان به والاعجاب بالفنان العبقري الذي صنعه غاية الأعجاب.

كيف تسربت كل هذه الكنوز التي لا يكاد يأخذها حصر الى هذا المتحف العريق؟.

وينثني فكرك، عندئذ، الى المسلة المصرية التي تتوسط ساحة الكونكورد. وتتساءل : أترى الذي جاء بها هنا، هو الذي جاء بكل تلك الاثار الباهرة في متحف اللوفر؟.

حتى رأس نفرتيتي أخذ من مصر في يوم من الايام. ومعذورون أولئك الذين استولوا عليه وهربوه الى أوروبا انه رائعة فنية لا شبيه لها أو مثيل، لو استطعت أنا ان أتناوله وأخفيه دون أن يلحظني أحد لفعلت.. ولما أحسست بحرج أو اثم، فكيف بأولئك الذين كانت تلك الكنوز بين أيديهم، وفي متناولهم، بل كيف بأولئك الذين وجدوها مخبوءة في قبور، ودهاليز حفروا عنها، وكشفوا ما فيها؟.

ويزداد الازدحام ويتعاظم، ويجرفنا تياره فلا نستطيع أن نقف حيث يطيب لنا الوقوف، ولا أن نتأمل ما نحب تأمله على مهل وبهدوء.

وعلى أني أطلت الوقوف مرات عند هذه الاثار في غير هذه الزيارة، فقد كنت أتمنى لو أتيح لي ولاسرتي أن نقضي يومنا مع هذه الاثار نتذوق التمتع بها على هينة من أمرنا. ولكن هيهات، وهذا الموج من البشر يحول بتدفقه بيننا وما نريد.

ولنصعد، اذن، هذا السلم الرخامي العريض، ولندخل هذه القاعات الباهرة وهذه الابهاء الباذخة لكي نشاهد آيات من تراث الرسم منذ عهد النهضة الاوروبية الى هذا العصر الحديث. ويلقاها في القاعات والأبهاء هذا الموج الهادر نفسه من الخلق، انه، مثلنا، يتحرك، ،ينساح، ويتسلق هذه الطباق، ثم ينداح في كل مكان فلنقتنع اذن باختلاس النظر الى هذا الرسم وذاك. ،ولنكتف باللمح، ولنحث خطانا دائما مرغمين غير مخيرين، فهذا الموج من الادميين يدفعنا دفعا لا هوادة فيه.

وماذا تراك تستطيع أن تفعل غير أن تلقي مثلا نظرة عجلى على لوحة

تتويج نابليون للرسام العبقري «دافيد» وحسبك انك استطعت أن ترى هذا الحشد العظيم- في الرسم- من أمراء ونبلاء وقواد وشخصيات وجميلات حتى لتعلق عينك بمطرزات ثيابهم، وشفوف ما ترتدي السيدات. وحسبك ان شاهدت نابليون يتناول التاج من البابا لكي يتوج به نفسه، بمثل تلك العظمة وبمثل ذاك الشموخ.

والا يكفيك أن ترى في ناحية اخرى «مدام ركامييه» على متكئها في جلسة الدلال والفتنة؟ انها هي الاخرى لوحة فنية نادرة من ريشة الرسام «دافيد». كان رسام نابليون في عهد الامبراطورية غير أن ريشته بلغت من نقاء المذهب الكلاسيكي ما لم يكن فيه مطمع لطامع، لقد خلص هذا المذهب من افتعال القرن الثامن عشر. وقد مات سنة ١٨٢٥ عن سبعة وسبعين عاما. لوحته هذه- مدام ركامييه- خلدت جمال تلك المرأة التي انعقد على مفرقها، في عصرها، تاج الجمال والحب، وكان صالونها الشهير ملتقى العظماء ورجال الفكر والفن. لا أعلم ان رسما استطاع أن يثبت على القماش مثل هذا الجمال ومثل هذا الدلال، ومثل هذه الانوثة، الا أن يكون منافستها أمنا حواء في سقف كنيسة السستين بالفاتيكان.

وكانت وقفة قصيرة أيضا عند لوحة المصابين بالطاعون في يافا..

وثمة نابليون بونابرت ومعه قواده يشاهدون ما حل بأولئك المصابين. انها للرسام «غرو» الذي تتميز لوحاته الفنية بالحرارة وروعة الحركة، كما كانت إرهاصا بالفن الرومانسي حتى دون أن يدرك هو ذلك أو يسعى اليه..

المصابون بالطاعون في يافا: كأن مدينتنا الجميلة، عروس البحر الابيض، ليست الآن مصابة بما هو أشد هولا وفتكا من الطاعون. الى متى تبقين أيتها الجميلة، بل يا أجمل الجميلات، في ذل الاسر والهوان؟ لقد نكأت تلك اللوحة

جراحات في قلوبنا.. انه لليل الطغيان وعذاب كل القيم الانسانية على أيدي الطغاة في عصر الامم المتحدة، ونشدان أسباب الامن والسلام في ربوع العالم، إنها خرافة الأقوياء يأخذون بها الأمم والشعوب. الليل، ليل الظلم والاستبداد والتسلط والتحكم بمصاير الناس والاوطان، طويل ولكنه سيزول. في التاريخ حتى القريب منه، دروس وعبر. ولكن حين يعمى القلب لا ينفع درس ولا تجدي عبرة... .

لو أردت أن ترجع الى الشروح لاقتضاك الامر أسابيع وربما شهورا. وهل يسعك أن تقرأ قصة الانسان في يوم أو يومين؟

فلنمض وأيدينا على قلوبنا من شدة الألم ووقع الذكرى. ولكننا واثقون ان الطاعون الحديث في يافا وفي كل أرضنا المحتلة سيزول، سيمحى، يغتاله النسيان يوم نسترد الوطن، كل الوطن، وان كره طغاة القرن العشرين وزبانية اذلال الشعوب الطامعون في ثرواتها وكنوزها وأوطانها.

ونمضي عبر التاريخ فالفن تاريخ مرسوم بألوان وظلال وأفياء: ملوك، وأمراء، وفرسان، وقديسون، وملائكة، وشياطين، وجميلات من كل العصور، ومعارك طاحنة. قصة طويلة يروي الفن فصولها، وأحيانا جزئياتها، ولا يغفل الشحاذين والرعاع، والثائرين، وقصص الحب، والفروسية، والخيانة والغدر، والاسطورة. وقصص الارباب، وكل ما امتلأ به خيال الانسان. كل أوهامه، وأساطيره، وحكاية حياته ،تحدثك به هذه الالوان القاتمة المريده حينا، والزاهية المتألقة حينا آخر. مهما تزر من متاحف الفن سيظل «اللوفر» أعظمها، وأغناها، لن تستطيع أن تقضي منه وطرك في يوم أو اثنين، لو أردت أن تتمهل، وتدقق.

وها هم أفراد أسرتي يلحون بأصوات خافتة: انهم لم يروا، بعد، لوحة الموناليزا، أو الجوكوندا. قالوا: ما همنا من اللوفر الا أن نراها، ونقف عندها. كل

ما شاهدنا، من قبل، كان صورا منسوخة عنها. ولكننا نريدها هي، بلحمها وشحمها.. وضحكت طويلا.. تلك المرأة التي تجاوزت العصور، وسخرت بفعل الزمن وغدراته ما تزال ريانة الاهاب، نضرة المحيا، رائعة الجمال. خلأبة الابتسامة انها معجزة الفن، وآية «دافنشي» الفنان العالم، المشرح، ولدته أمه سفاحا، فأهدى الانسانية صورة أجمل امرأة. أو تريدونها بشحمها ولحمها حقا؟ انها ليست أكثر من ألوان على خيش أو قماش، أما هي نفسها فربما عاشت حلما في رأس كبير رسامي عصر النهضة. ولكن هيا بنا اليها. انها هناك حيث يزداد ازدحام الوافدين. حتى الخنافس والهيبيون قد وقفوا عندها، لوحة صغيرة اذا قيست بتلك اللوحات العملاقة التي تلتهم جدران القاعات في اللوفر. ربما كانت أصغر لوحة هناك. ولكنها أكبر أثر فني يزهى به اللوفر. هاتان هما عيناها.

ما أشبهها بربة بيت ترحب بك، في دارها، بهذه الابتسامة الخفيفة المحيرة، وهذه النظرة العطوف المتحفظة، الضاحكة في آن واحد، وقد عقدت يديها الطريتين فوق صدرها في دعة، وسكون، وثقة... .

هل يستطيع الحب أن يفعل هذا كله؟ الحب الذي ملأ قلب ليوناردو دافنشي لهذه المخلوقة.. لقد صنع شيئا أجمل من الحب، وأجمل من الجمال نفسه. ولماذا نذهب في التفسير الى أبعد من هذا؟ حسبنا منها الجمال، والوداعة، وسكينة النفس، والابتسامة أو على الاصح طيف هذه الابتسامة، التي خلبت الالباب. لا نريد أكثر من هذا. لا نريد أن نفسر، لا نريد أن نذهب الى أبعد مما يقع في النفس أول وهلة..

وقالت زوجتي: مساكين الرجال.. ألوان على قماش ذهبت بألبابكم.

قلت: ولكنها الموناليزا.

قالت: ليست أكثر من أمرأة، كما ترى. وانما هي اوهامكم أضفت عليها

هذه الهالة العجيبة.. أتدري؟ مدام ركاميبه أجمل منها، وأحلى، وأروع فنا..

قلت: لا.. لا.. انت واهمة.. أهكذا تفجعينني بها؟ اتقي الله.. ألم تستعجلي رؤيتها؟.

قالت: أردت أن أرى فيها الاسطورة التي صنعتها أوهامكم.. أيها الرجال..

ولوت قدمها ومضت عن الجوكوندا ولكنها عادت تتلفت اليها مرة كل خطوة. وضحكت وقلت: أراك تتلفتين اليها قالت: لأزداد يقينا بأنكم راهمون.. تعال نرى هناك تلك المطرزة.. وسرت ذاهلا الى لوحة «فرمير».. الى تلك المرأة التي أكبت على خيوط ذات ألوان تصنع منها ما تحب النساء أن يصنعنه من مطرزات. انها- كما سماها صاحبها- صانعة الدانتيلا، تخرج المخرمات من بين أناملها تنطق بالجمال، والجهد المبذول والصناعة المتقنة. ما أشبهها، في جلستها واكبابها وأناتها، بشاعر يستلهم الوحي، ويفرغ جهده في تحكيك شعره، وصقله، والعناية به، ليخرج للناس مروقا، صافيا، لا تشوبه شوائب العجلة والاهمال.

أنامل ماهرة يتقطر منها الفن. وجلسة توحي بالكد، والجهد، والهدوء وارادة صنع شيء يمتع ويسر ويفيد.

ألست تراها أجمل من تلك.. وأعمق تعبيرا عن الجهد، في طمأنينة وعزم، ودأب، شأن كل من يريد أن يصنع شيئا متقنا وجميلا.. اما الموناليزا..

ولم أستمع الى بقية حديث زوجتي وذكرت قول احداهن، بعد أن رأيت الجوكوندا أول مرة قبل بضع سنوات: امرأة عادية.. لا يميزها شيء عن سائر النساء..

لا شك في أن الرجال وحدهم هم المعجبون برائعة دافنشي.

أما المرأة.. فقد ترى فيها منافسة خطيرة وان كانت صورة، وان كانت ألوانا على قماش..

فما أعجب طبائع النساء!

في وداع باريس

-١١-

بقيت أشياء ومعالم لم نرها في باريس. وقد غدت أيام بقائنا في مدينة النور قليلة. شرعنا نفكر بالرحيل، ونتخذ له الترتيبات اللازمة. ان اثني عشر يوما في العاصمة الفرنسية لا تكفي..أحسست أن في موقفي شيئا من الانانية فاذا كنت قد عرفت باريس ومعالمها ومسارحها ودار الاوبرا فيها، ومتاحفها وقاعاتها الموسيقية، وحدائقها الشهيرة، وقصورها، وحياتها الفكرية والادبية في غير هذه الزيارة، وخلال اقامة طويلة، فان من حق أسرتي أن ترى أكثر مما رأيت وأنا أيضا بحاجة الى تجديد صور قد أخذت تبهت في ذاكرتي. ولكن ما العمل وبرنامج رحلتنا لا يبيح لنا أن نبقى في باريس مدة أطول؟ ربما كانت الايام القليلة المتبقية كافية لالقاء نظرات سريعة هنا هناك: الحي اللاتيني، بوليفار سان ميشيل، البانتيون- مدفن العظماء- والصوربون الجامعة القديمة العتيدة. وهناك حدائق فرسايل والتويلري، واللوكسمبورغ، ومونمارتر والطاحونة الحمراء، وسان جرمين دي بري. وهذه السفن النهرية التي تشق عباب «السين» وتريك الكثير من قصور باريس القديمة، وقناطرها، وجسورها الضخمة. انها رحلة جميلة، وهادئة، وفيها ترويح عن النفس، ومتعة للعين وراحة..

وتساءلت: لماذا لا نأكل الفول والحمص والبصل في مطعم «رشيد»؟ رشيد اللبناني يقع مطعمه الصغير في شارع صغير الى يمين البانتيون.. من هناك تستطيع أن تذهب الى معهد «أولم» العريق، انه دماغ فرنسا المفكر في شؤون

التربية والتعليم، وهم الذين يعدلونها اذا ما احتاجت الى تعديل، وهم الذين يجددونها، وفقا لروح العصر، اذا كان لا بد من تجديد. تلك الاحياء القديمة في باريس لها روعة خاصة حتى الحي اللاتيني بأزقته، ودروبه، وحاراته- اذا صح التعبير- يأخذ بلبك، عرفت هناك مكتبة مفتوحة ليل نهار، انها لا تغلق أبوابها أبدا، اسمها «مسرة القراءة» كنت أرتادها وأشتري منها كتبا قديمة وجديدة، حتى أصبحت صديقا للمكتبة التي لا تعرف النوم أبدا.

وها هي لا تزال كالعهد بها، نمر بها خلال الازقة والدروب في الحي اللاتيني، كأن شيئا لم يتغير، كأن السنين لم تمض. تستوي اللحظتان: الحاضرة والغابرة، وتلك التي ما تزال في عالم الغيب. وكذلك الانسان ، انه هو نفسه دائما وتزاحم الاقدام لا ينقطع. كل ما يحدث أن واحدا يذهب وواحدا يجيء. والركب مستمر، يغذ السير.

* * *

قبل شهور شهدت هذه الاحياء، وشهد الشارع الكبير-بوليفار سان ميشيل- جموع الثائرين من طلاب وطالبات، هنا حبهم، وهنا مراح شبابهم، وفيه مقاهيهم، لقد حولوه الى جبهة قتال، في قضية خاسرة كانت الايدي الغادرة وراءها اثارة وتحريضا. وتريد أن تأسف، تريد أن يفهم الطلاب أنهم أكرم من أن يتخذوا اداة في خدمة الحاقدين، وان علمهم وأساتذتهم أعز من أن يكونوا ذريعة في الايدي المثيرة، الايدي الغوغائية. ولكن ما جدوى الاسف وقد حدث ما حدث؟.. قيل انها ثورة على المناهج والاساليب. قيل ان الغرض من كل ذلك التمرد، والخروج حتى عن حدود المنطق والعقل، كان رغبة في التجديد، وطلب قيم جديدة.. هذا في الظاهر فقط. ولكن الحقيقة كانت للاحراج، لخلق البلبة، ووضع العصي في الدواليب كما يقال... .

لم أعرف مكانا كالبانتيون تجهماً واربدادا. انه لا يثير فيك غير مشاعر ربداء: رسومه، لوحاته، ممراته، مدافن العظماء، والصمت، والسكون، والاضواء الخافته تضطرك الى السير على رؤوس أصابعك. قد تقضي فترة تقصر تطول، ولكنك ترتاح حين تخرج وتستقبل المرح والبهجة، وضوضاء الحياة، وتزاحم الناس، وانتشار المقاهي والبارات، هنا يلتقي الموت والحياة، وليس بينهما الا خطوة كما في عيش الانسان: خطوة فقط بين حياة وموت.

نحن لسنا بحاجة الى فولك وحمصك وبصلك يا رشيد. سنمر بمطعمك دون أن نتلبث. ما جئنا باريس لناكل حمصا وفولا. ذات ليلة، فيما مضى، أكلنا عندك حتى أتخمنا. وقال أحد الرفاق: نعود الى سكننا سيرا على الاقدام لكي ننشط عملية الهضم. وسرنا ساعتين، حتى وصلنا الى حي لاموت بيكيه. ساحفظ لك انك، يا رشيد، عرفتني بجورج شحادة. في تلك الايام كان مسرح فرنسا- الاوديون- يمثل مسرحية «الرحلة» ، وكانت الاعلانات الضخمة تتحدث عن هذه المسرحية. وسألتك: من يكون جورج شحاده؟ وقلت أنت انه لبناني.. وعدت أسالك: لبناني مقيم في باريس؟ كلا مقيم في لبنان ويزور باريس بين حين وحين.. هكذا اذن: المسرح العريق يعرض مسرحية لاديب عربي يكتب بالفرنسية. لا بد من مشاهدة «الرحلة». شيء عظيم. أسلوب جديد في التمثيل. وشعر يتقطر من كل عبارة. شعر خافت الجرس، يأتي من الاعماق، ومن دنيا الاحلام، وينسكب في النفوس كقطر الندى. لهذا كله كانت المسرحية تناقش كل يوم خميس في المسرح نفسه. باب النقاش مفتوح للجميع. هذا مجد أدبي رائع، مسارح انجلترا، وألمانيا، وسائر العواصم الكبيرة تعرف شحادة، وفنه المسرحي الجميل. ما كان أعظم اعجابي واغتباطي. وتساءلت: ماذا نفعل نحن؟ قصارانا أن نكتب مقالا، أو ننشر كتابا لا يحس به أحد.. وتكون بعد هذا، ادعاءات طويلة عريضة تضيق بها وبالآداب والفكر.

وقد يبعث الاسى في نفسك انك اذ تنفر من كل هذا الادعاء تجد واحدا من مشاهير القصة والرواية ينهض من يتهمه بالسرقة والسطو على قصص الاخرين، وهو لا يكاد يعرف كيف ينفي التهمة.. اقرأ صحف القاهرة لتجد هذا الذي يحزن ويمضّ.. هل يظل بعضنا يعيش عالة على الانتاج العالمي.. ثم يريد أن ننفخ له في الابواق وندق الطبول؟ لا أحب أن أذكر الاسماء لانني لا أريد، ولا أهوى التشهير. حسبه انهم هناك، قد ضبطوه.. والعجيب أن صحف القاهرة ومجلاتها كانت تطالب لذلك الكاتب بجائزة نوبل.. فيا للسخرية!.

***

يجب أن نمضي. ليست قضايا الادب هي التي تهمني وتشغل بالي. أنا هارب من الادب، والكتابة، ومن الفارغين الذين يطبلون لانفسهم ويزمرون، وينشرون لذواتهم ضروب الدعايات. ما أشبه ذلك بالاعلان عن الاحذية، وشوربة ماجي، وويسكي الحصان الابيض.. فلندع كل هذا. لا يمكن أن يبقى الا الجدير بالبقاء. اناس يلهون ويعبثون. فلنتركهم لشأنهم، أليس كذلك يا رشيد، يا بائع الحمص والفول والكفتة والكباب في باريس، وبجوار الباتيون؟ ربما كانت بضاعتك أفضل مما يكتبون..

***

من حدائق فرساي، الى حدائق التويلري، الى حدائق اللوكسمبورغ، أحببنا هذه الاخيرة. انها تقع في صميم حي الطلاب. هي صديقتهم، ببركها، وبحيراتها، وشجرها، وتماثيلها، ودروب النزهة فيها. لله أولئك الناس في باريس. كأن الذوق موقوف عليهم. حدائق لندن، وميونيخ، وفيينا، وروما عظيمة حقا، وباهرة، ولكن الذوق في حدائق باريس هو الذي يستوقفك، هو الذي يثير اعجابك ويملأ قلبك بالمسرة. ليس الذوق الا لمسة اخيرة من يد فنانة تضفي على الحديقة وعلى

واجهات الدكاكين، وعلى المقهى، والشارع، والبناء، وعلى ما ترتدي المرأة، وما يلبس الرجل، وما يقدم من طعام، وما تشاهد العين من منجزات الفنون، شيئا هو غير الجمال وغير الابداع. ربما كان أعز منالا من هذا وذاك. هذا الشيء لا تستطيع أن تفهمه الا اذا قارنت بين المرأة هنا، والمرأة في أية عاصمة أخرى. قد لا تكون الباريسية هي الاجمل. ولكنها هي الاكثر ذوقا. أتكون هي اذن مصدر الذوق في الحياة هناك؟.

هو ذاك.. انها مصدر هذا الاشعاع. وكان الحب فيها هو مادة هذا الاشعاع. انها ترضعه مع حليب أمها، وعندما تكبر تكبر معها الفتنة، ويكبر الحب، ويتبلور الذوق، ويصبح هو سمة الحياة..

وتذهب الى «مونمارتر»، الى أحياء الرسامين، وأزقتهم والدكاكين التي اتخذوها محترفا لهم: كل شيء قديم: الدروب. الحارات، الابنية، الارض المبلطة، المخارج والمداخل، ومع ذلك فالذوق الجميل شائع هناك، بل هو مادة العيش نفسها. ثم هذا التوافق العجيب بين الفنان بلحيته، وهندامه المهمل، وغليونه أو سيكارته وابتسامته وأحيانا ضحكته العالية، وألوانه، واللوحة التي يجلس أمامها مستمرا في الرسم، وجماعات السياح الذين يقفون ثمة مشدوهين. أجل انه توافق عجيب بين هذا الفنان وبين كل ما يحيط به لا تستطيع ان تتصوره في غير هذه الازقة والدروب. ان الحياة تمور هنالك، ويقف الفنان فيها كملك في عالم مسحور، قد يتخذ مقعده حتى على الرصيف ولا تنفك الالوان تتقطر من فرشاته ذوبا من فن، ونبضا من حياة... .

***

لا نستطيع أن نمضي يومنا هناك. يجب أن نغادر تلك الاحياء المحببة، فالوقت ضيق.. ونشرع ننحدر، ونجتاز الدروب وتتراءى لي صورة الاديب

الصامت، القصصي الممتاز، «مارسيل ايميه». أقام حياته كلها في موغمارتر، ومنذ أكثر من عام توفي هناك، وخرج سكان الحي يشيعونه. شخوص قصصه كانت منهم: الخباز، والبقال، ونادل المقهى، والخواجات، والموظفون، وبنات موغمارتر. كان لا يحسن الحديث كأن في لسانه حبسة. ولكنه اذا كتب تدفق. هو، في رأيي أبو اللامعقول في القصة والرواية، سبق كل الذين مارسوا هذا المذهب. قالوا انه ذو شطحات في الخيال والابتكار. بعض شخوصه يشق الجدران ويعبر منها والبعض الاخر يموت نهارا ويحيا ليلا، وهناك امرأة من شخوصه تتكاثر بالانقسام. ان لم يكن هذا هو اللامعقول فماذا يمكن أن يكون؟ كان يحسن كل شيء الا دق الطبول لنفسه. ومع ذلك فقد استوى على القمة، لان وراء كل قصة «لا معقولة» من قصصه: عقلا راجحا، وهدفا واضحا، وفلسفة ذات أبعاد مدهشة. انه يرقد في مقبرة موغمارتر غير بعيد عن المقبرة القديمة ذات القبور والصوى الفنية التي تضم رفات أبناء العصور الغابرة. هذه المقبرة الفريدة من معالم ذلك الحي، يهرع السياح الى مشاهدتها كأي أثر آخر ذي قيمة فنية وأثرية..

لسنا من رواد الملاهي، وحسبنا من الطاحونة الحمراء أن نشاهدها ونقف عندها قليلا. برج أحمر ينهض في باريس العتيقة، وله هذه الاجنحة الحمراء هي الاخرى. تكفي نظرة عابرة اليها. وقد آن لنا أن نستريح في أحد هذه المقاهي الظريفة التي اختصت بها باريس، ونشرب القهوة المعصورة، وتظل الطاحونة الحمراء مقابل المقهى، أمامنا يدور من حولها الخلق في ذلك الميدان الرحيب، وهي تنفرد بلونها وشكلها، وتجتذب الانظار داعية الى الملهى الذي يحمل اسمها. وما أكثر الملاهي في باريس لمن لا يبحثون عن غيرها... .

بقي لنا يوم آخر لا يكاد يتسع لتدبير أمورنا والاستعداد للرحيل الى ميونيخ، وها هم أولئك السياح الالمان يرحبون بنا ويقولون انهم سعداء ان نكون

معهم عبر هذه الرحلة الطويلة في سيارتهم السياحية المريحة.

ولجيبهم شاكرين، ونكون على موعد معهم في البكرة المطلوبة لنقطع ٨٠٠ كيلو متر عبر «اللورين»، وما يحيط به من قرى ومدن وحدائق وغابات وأنهر وبحيرات..

ووداعا يا باريس الجميلة.

ملامح ألمانية

في الطريق الى ميونيخ

-١٢-

كانت النية أن نركب القطار من باريس الى ميونيخ، فندخل ألمانيا من أقصى جنوبها ونقطع نحوا من ألف كيلو متر.

ولعبت المصادفة الطيّبة دورها فهدتنا الى «باص» سياحي ألماني مريح أشبه ما يكون، من الداخل، باحدى هاتيك الطائرات التي تقطع القارات والمحيطات. كان جماعة من السياح الالمان ومعهم بعض الأميركيين هم ركاب هذه السيارة السياحية الفخمة ،وكانوا قد قضوا أياما في باريس وزاروا بعض المعالم الاثرية والتاريخية فيها وفي بعض المدن الفرنسية، وعينوا يوما للعودة الى ميونيخ، وتعرفنا، في ساحة متحف اللوفر، بالمشرفين على هذه الرحلة السياحية، وشاءت المصادفة أن يكون في هذه السيارة أربعة مقاعد خالية فاتفقنا معهم أن يحجزوها لنا، فقبلوا مسرورين، وكنا نحن أشد سرورا بمرافقتهم.

وهكذا طافت بنا السيارة في قسم كبير من العاصمة الفرنسية وعبرت بنا الشوارع والميادين ساعة أو بعض ساعة ليستطيع السياح الالمان أن يلقوا نظرة وداع أخيرة على مدينة النور، ثم انطلقت من قلب باريس، ولما أصبحت في بعض ضواحيها، أمسك المسؤول عن الرحلة بمكبر الصوت ورحب بنا بلغته الالمانية وقدمنا الى رفاق ورفيقات السفر.

وترجمت كلامه الى الانجليزية احدى السيدات فقوبل ترحيبه وشكرنا اياه وما أبديناه من سرور في صحبتهم بالتصفيق الحار. وكانت بالفعل، مناسبة متاحة لكي نحدث رفاق السفر عن الاردن، ونهضته وازدهاره، ثم ما يلقي من آثام الاعتداء الغادر، وما يواجه به هذا الاعتداء وهذا الاحتلال البغيض لبعض أرضه ولجزء عزيز من الوطن من صمود. ومرة أخرى أيقنت ان الكثيرين يجهلون قضيتنا على حقيقتها، وان الباطل قد أسدل على البصائر والابصار حجابا كثيفا دون هذه الحقيقة الناطقة. ولكني لمست الى جانب هذا استعداد طيبا لفهم هذه الحقيقة والاقتناع بها اذا ما استطاع المتحدث أن ينفذ الى قلوب سامعيه بهدوء، وصدق، وقوة حجة ومنطق. ولست أزعم اني استطعت أن أظفر بطائفة من ركاب السيارة الى جانب قضيتنا، وانما استطعت، على الاقل، أن أشعرهم بأن للقضية وجها آخر يجهلونه، وان الاكتفاء بالنظر الى وجه واحد من قطعة العملة لا يكفي، ولا يغني عن تقليبها والنظر الى الوجه الاخر.

ان في الناس استعداداً جميلا لمعرفة الحقيقة، وهم لا يتعصبون لجانب دون الاخر، وانما هم يأخذون الامور أخذا هينا، وقد يصدقون ما يقال لهم ما داموا لا يسمعون غير صوت واحد يرتفع الى آذانهم. ولماذا تراهم يبحثون عن الوجه الآخر، أو الصوت الآخر، اذا كان صاحب الحق صامتا، أو غير مهتم بايصال صوته اليهم واظهار الجانب الثاني من الصورة وهو الجانب الأهم، والأحق بالنظر، والأجدر بأن يلتفت اليه؟ وقد لا يكفي ان يرتفع الصوت ليثير، ويسترعي الانظار الى جانب الحق. وانما يتوقف شيء كثير من اثارة الاهتمام والتسلل الى العقول والنفوس على الاسلوب، وطريقة التناول، والحذق في العرض، وتقديم البرهان ببساطة، وتلطف.

وقد يعجب القارىء اني اتخذت من شاعر ألمانيا العظيم - غوته - جسرا أعبر عليه الى أذهان رفاق السفر، وتحدثت قليلا عن رائعته - فاوست - ثم عن

- الديوان الشرقي - ومنه تشقق الحديث عن بلاد المشرق، والبلاد العربية، ثم قضيتنا بالذات. وقد كان الاصغاء تاما، وأحسست اني أثرت الاهتمام لمجرد أني قارىء لشاعرهم الكبير غوته، وما كتب عنه دارسو شعره وأدبه في أكثر من لغة.

طيلة الرحلة التي ابتدأت من السابعة صباحا، وانتهت في قلب ميونيخ عند منتصف الليل كنا، أنا وأفراد أسرتي، موضع العناية الفائقة، من أولئك السياح جميعا. أشعرونا كأننا أسرة واحدة، وكان الكثير منهم يتطوع لشرح ما نرى من غابات، وبحيرات، وأنهر، وجبال، بل أن بعضهم أبى أن يفارقنا في زيارتنا لبعض المدن التاريخية على طريقنا، كمدينتي «نانسي» و «ستراسبورغ» الفرنسيتين، حيث توقفت السيارة ساعة في كل منهما لنشاهد ما فيهما من معالم. كانت كنسية ستراسبورغ الاثرية أهم ما لفت أنظارنا قبيل عبورنا الاراضي الالمانية، دخلناها تحت وابل من أمطار الصيف وشاهدنا مبانيها وطرازها الهندسي القديم، وصورها وتماثيلها العتيقة، وخرجنا منها ولا ينفك المطر يهطل وينصب انصبابا لا هوادة فيه.

كبار وصغار

-١٣-

وعلى ذكر كنيسة ستراسبرغ الاثرية الشهيرة لا يستطيع المسافر، عبر القرى الاوروبية جميعا، الا أن يعجب للدور الذي تلعبه الكنيسة في كل قرية مهما تكن صغيرة ولا شأن لها. اذا أقبلت على القرية في فرنسا، أو انكلترا، أو ألمانيا، أو النمسا أو ايطاليا كانت الكنيسة ببنائها وجرسيتها المستطيلة ذات الرأس المدبب هي أول ما تراه.. وقد أدركت قول شاعر فرنسا- لامرتين- في القرن التاسع عشر، عندما وصف برج الكنيسة هذا المرتفع فقال كأنه اصبع تشير الى السماء. قول رومانسي جميل، من شاعر رومانسي عريق. ولكن الذهن يلتفت الى غير هذا من مدلولات: المنازل والبيوت أو معظمها تلوذ بالكنيسة ولا تبتعد عنها الا بمقدار اتساع العمران في القرية. وقصة الحياة في كل قرية تلخصها الكنيسة تلخيصا دقيقا. ان الانسان الاوروبي تتصل أسبابه بأسباب الكنيسة منذ الساعة التي يولد فيها، حتى يوم وفاته مرورا بعماده، وأعياده، وأفراحه، وأتراحه، وأزماته النفسية، والروحية، وما يعتمل في ضميره. لا يجد سبيلا للتخفف من خطاياه وشكوكه غير أن يلوذ بركن يصلي فيه ويستغفر ويعترف للكاهن بما يثقل على قلبه من خطايا ومآثم اجترحها، طمعا بمغفرة الله. والكنيسة التي استقبلته وليدا وتلقت اول صرخه يدخل بها الحياة، هي التي تودعه، يوم يموت، وتكفنه، وتستمطر على روحه شآبيب الرحمة، وتقوم على دفنه، وقبل ذلك كانت هي التي زوجته واجرت في حرمها مراسيم زفافه، وربطت

بينه وبين عروسه رباطها المقدس الذي تلعبه في حياة الناس. فتوجه، وترشد، وتدخل البيوت معزية، ومؤاسية، وهي تعلم ايضا، وتنشيء المدارس، وترعى شؤون الرعية، ويسدي رجالها النصح في امور العيش جميعا. وما اكثر الكنائس التي كانت، في المدن والقرى، موئلا لرجال المقاومة السرية أبان الحرب العالمية الثانية، وفي احلك سنوات الاحتلال النازي للاقطار الاوروبية.

ولا تنفك الكنيسة تستقبل ثورة الثائرين، ونقمة الناقمين، بمثل ما تستقبل به ايمان المؤمنين من هدوء وسكينة وثقة برسالتها، وتعاليمها. والذين يزورون أوروبا ويحسبون ان الدين أصبح فيها أثرا بعد عين، يخطئون، فما تزال الكنائس الكبيرة في العواصم الاوروبية تقوم كالقلاع وتحمل الميادين الكبيرة أسماءها. واذا اختلط الناقمون المتمردون بالمؤمنين المحافظين المتمسكين باهداب الدين في المدن الكبيرة، ففي المدن الصغيرة، وقرى الريف لا يزال الناس يلوذون بالكنيسة، ويضعون حياتهم، وقلوبهم، وضمائرهم وايمانهم في ظل من ظلالها، يبتغون رضاها، وتعنو جباههم لها،ويأتمرون بأوامرها. ولهذا تشاهدها، في القرية الغنية الآهلة، والقرية الفقيرة الصغيرة، هكذا ناهضة مشرئبة: لها سطوة من يطاع ولا ترد له كلمة، والبيوت من حولها يلاصقنها ما استطاعت، وكأنما هي تأخذ بأهدابها، ولا تتباعد عنها الا مكرهة.

وكانت الشمس قد مالت الى المغيب، وأمسكت السماء ماءها، وانداح الغيم، وتفرق مزقا مبعثرة في فجاج الفضاء، وتخضب الافق، ودخلنا الارض الالمانية، وقد اختلطت في خيالنا صور من هاتيك البحيرات، والانهر،. والسهول المونقة، والجبال المريعة والقرى الجاثمة في بطن جبل أو حضن سهل.

وفيما كانت سيارتنا السياحية تدرج على أرض وطنها- ألمانيا- مستأنية مرة، مندفعة، نزقة، مرة أخرى، لاح في أفق نفسي ذلك الصراع الطويل، على منطقتي الالزاس واللورين، بين فرنسا وألمانيا. هذا العداء المستحكم الذي تولدت

عنه حروب، وما أكثر ما انتقلت المنطقتان إلى هذه الدولة مرة والى تلك مرة أخرى، نتيجة هذه الحروب الطاحنة، نصرا لهذه وهزيمة لتلك.. وأصبح السكان على الايام لا يدرون أهم فرنسيون حقا، أم ألمان حقا. الا أنهم، على أي حال، أصبحوا يتكلمون اللغتين معا. بل كان منهم أدباء اتخذوا اللغة الفرنسية، مثلا، اداة لادبهم، بل قد أضيفت آثارهم الى الادب الفرنسي، واذا ما استقرأت أسماءهم وجدتها أسماء ألمانية خالصة. انتهى ذلك الزمان فيما أعتقد. الالزاس واللورين الان في حوزة فرنسا، أرض فرنسية. ومع ذلك تلتقي اللغتان على هذه الارض. تحدثت الى مأمور الجوازات الاماني فأجابني بلغة فرنسية أصيلة. وتحدث الى غيري بالالمانية.. وأحببت لو أعلم شعوره الداخلي، احساسه الشخصي في قرارة نفسه: هل هو يعتبر نفسه فرنسيا أم ألمانيا، أم تراه يجد أن جانبا منه ألماني والجانب الآخر فرنسي. انهم مهما يكن من أمر، أناس مؤدبون، لا يستريبون فيك ولا يخطر لهم أن يفتشوك ويتحسسوك، وينبشوا حقائبك ومتاعك كأنك لص عريق أو مهرب خطير.

كانت ميونيخ ما تزال بعيدة. لا بد من ثلاث ساعات طوال على الاقل لكي نصل اليها. قيل لنا سنكون فيها في الحادية عشرة مساء، ولكننا دخلناها قبيل أن ينتصف الليل. وأنت اذ تدخل ميونيخ العتيقة هذه لا بد أن تذكر اتفاقيتها الشهيرة، في أيلول سنة ١٩٣٨، كانت الاتفاقية بين ألمانيا وبريطانيا وفرنسا وايطاليا. وقد ارتضت بريطانيا وفرنسا ضم الاجزاء التي تقيم فيها كثرة المانية من السكان في اقليم «السوديت» الى الرايخ الالماني الهتلري. كانت هذه بداية التراخي مع هتلر. بعدها بقليل اجتاحت جيوش الفوهرر الحدود التشيكوسلوفاكية. وأطلت الآلة الحربية الرهيبة برأس كرأس التنين لتشعل نار الحرب العالمية الثانية وتلتهم الاقطار الاوروبية واحدا بعد الاخر..

لم تكن تلك الحرب صراعا بين معسكرين، ونظامين، وحسب. كانت هنا

الاطماع الاستعمارية، كما كان الشأن دائما في حروب العصر الحديث. هتلر يريد تحقيق ما كان يسميه «المجال الحيوي» لألمانيا. كان كأنه يريد أن يدخل شريكا في المائدة الدسمة، العامرة بخيرات الاستعمار.. حاولوا أن يسترضوه بشيء ما، ببعض فتات المائدة الشهية، كان هو ما بدا تراخيا منهم، غير أن هتلر كان قد خطط لما يريد منذ بعيد. انه يريد المائدة كلها، أو معظمها على الاقل، بكل ما في ذلك من لذائذ وأطايب، لا مجرد أن يكون شريكا، بحظ ما، فيها.. كان قد صمم أن يترك لهم الفتات، ولألف سنة مقبلة لو صحت الاحلام.

هذا كله أصبح الان بعض ذكريات التاريخ. وتغيرت الدنيا الى ما هو أشد ايغالا في التسلط، واملاء ارادة الكبار على الصغار. حتى ظلال القيم الانسانية والخلقية لم يبق منها شيء سوى اتخاذها شعارا كاذبا لا تكاد تمد يدك تنحيه قليلا حتى تبدو لك الحقيقة الذميمة. تلك القيم الرفيعة أبقاها الكبار الهيابات يتلهى بها أولئك الصغار: لا بد للصغير من لعبة جميلة تنسيه حاله وواقعه.. تماما كما يكون الامر في عالم الاطفال. يقف الكبار الراشدون من بعيد يحثون الصغار على اللعب، ويقدمون لهم المزيد من أدوات العبث واللهو.. ولكن الكبار ينسون أهم ما في الموضوع، ينسون الحقيقة البيولوجية: سيكبر الصغير ويصبح له ظفر وناب وعضل متين... .

بهذه الخواطر دخلنا مدينة ميونخ قبيل منتصف الليل.

قبل أن تنفرج زاوية الانحراف

-١٤-

حتى بعد منتصف الليل تستطيع في ميونيخ أن تجد ما تريد.

هل تدعوك الحاجة ان تستبدل بعملتك عملة اخرى، المارك مثلا؟ هذا ميسور ولا ريب. في المحطة بنك يقدم لك هذه الخدمة لقاء عمولة بسيطة. وفي كثير من المودة واللطف والابتسام، فأنت زائر، أو سائح، وستنفق هذه الماركات وكثيرا غيرها، هناك.

وأنت أهل لكي تيسّر لك الأمور، حتى ما كان صعباً منها، سيارات الأجرة تنتظر إشارة منك، البريد مستعد أن يتلقى رسالتك أو برقيتك، كل الليل او كل النهار، وفي أيام السبت والآحاد التى تتعطل فيها الأعمال وتغلق المتاجر والدوائر والمكاتب، عليك بـ «المحطة دائماً»، المكان رحيب ونظيف ومنظم، والكل في خدمتك بأدب ولطف.

لا بد للبلد السياحي أن يفعل هذا، البلد السياحي كالتاجر الناجح الذي يعرف كيف يرضي زبائنه. الكثير ينبغى أن نتعلمه في هذا المجال..أصبحت السياحة فنا وصناعة لانها تدر الارباح بالملايين. وبلاد الله واسعة، وقد يفضل السائح بلداً، يجد فيه الراحة واليسر والعناية إنه إنسان مثلي ومثلك، وبالاضافة الى هذا فهو «ذو مال» كما يقال في المدارس عند شرح الاسماء الخمسة. أم ترى

قد أنسيتها.. أنستك اياها الاعيب الحياة.. وأفانينها..؟ المهم أن لا ننسى ما للسائح من حقوق في اعناقنا، حقوق يشتريها بحر ماله.. نحن بحاجة الى تفهم البدهيات أحيانا..

***

كان ابني، طالب الطب، في انتظارنا ببيته. مر زمن طويل دون أن نلقاه. أصبح أبا في وقت مبكر، وقد عدنا بطفله معنا الى الاردن. لو تركناه هناك لأصبح المانيا: أمه، والبيئة، والوسط، والمدرسة، ورفاق الطفولة، والحياة كلها هناك كانت ستجعل منه غريبا عنا. في بضعة شهور استطاع أن يكتسب اللغة العربية. ثم العادات والتقاليد والحس والانتماء العميق الى تربة الوطن، هذه كلها أخذت تتأصل في كيانه الصغير على مهل. يقف اليوم شامخا، مندفع الصدر،ويهتف: «أنا عربي» هذا هو الوضع الصحيح.

وتصحيح الاوضاع ذو أهمية خاصة في حياتنا، وازالة الخطأ، وربما أخطاء كثيرة، واعادة الاشياء الى أوضاعها الصحيحة مما يجب أن يكون مثار اهتمام الفرد والجماعة على حد سواء. الانحراف يحدث رويدا، دون أن ننتبه أحيانا، على الأيام بتسلل الى كل شيء. ولكن لا بد أن يظهر، أو تظهر مغبته، أو على الأقل اثاره. المهم هو المبادرة الى تصحيح الوضع الطبيعي، الوضع الطبيعي الصحيح والآخر غير الصحيح. قد يحتاج الامر الى جرأة. ولم لا؟ ولكن قبل الجرأة الارادة وقبل الارادة معرفة ما نريد على وجه الصحة. غيرنا نهض من بين الركام وعاد فأنشا الحياة. كان الأمر أكثر وأبعد من مجرد تصحيح خطأ.

* * *

المانيا هذه التي نزورها نهضت وهي تحت أكفان الموت، من بين الخراب والدمار قامت، وشرعت في عملية الازالة، والغسل والتنظيف، والبناء من بعد،

بسرعة، بقوة وعزيمة. وأشق من هذا اعادة بناء الانسان الالماني الجديد. التراث العريق وحده لا يكفي. هناك آفاق المستقبل. حسب الالتفات الى الماضي أن يشعر المرء أن له جذورا عميقة في أرضه. وانه شارك، ذات يوم، في بناء الحضارة الانسانية. من هذا يستمد دافعا وحافزا. ثم الآفاق العريضة بعد ذلك. للتطلع من خلال الحاضر وآلامه ومحنه، بل وكوارثه أيضا، الى المستقبل. والدنيا وأهلوها يغذون السير، دون وناء أبدا، الى أمام. التسارع غدا سمة العصر. الانجازات الرائعة التي تتم في أيام لم يكن يتم بعضها- فيما سبق- في السنين الطوال.

والدنيا لا تقف في انتظار أحد، ولا تعبأ بالمتلكئين، واللاهين، أو الهاجعين، والنائمين سعداء بغطيط مستديم.. كل شيء بحساب في هذا البلد الأوروبي الذي نزوره، خصوصا الزمن. للدقيقة وأجزائها حساب، ما ثمة متسع للتسكع، ما ثمة مجال لاضاعة أيسر الوقت. أسبوع العمل الجاد، الدائب، المنتج الى أبعد حد: خمسة أيام لا وناء فيها أبدا. ثم لك يومان لكي تستريح. والراحة ليست نوما في أحضان الكسل والفراش طيلة النهار. انها راحة ناشطة هي الأخرى. انهم يغادرون منازلهم بل والمدينة، الى أحضان الريف، الى البحيرات، وضفاف الانهر ربما الى مدن أخرى. المهم هو تغير الجو، وتغيير المناظر المألوفة وممارسة الحياة بشكل آخر جميل، وممتع، ومنطلق، وهم ينصبون خيامهم في رحاب الريف، ويقيمونها قريبة من انهر وبحيرات. دخل الفرد يتيح له ذلك. ويتيح له أن تكون له سيارة، في أحيان كثيرة تكون معها، ومرتبطة بها ناقلة فيها كل ما تطيب به الحياة من مكان للنوم، ولاعداد الطعام، والاستحمام أيضا، ودخل الفرد يبيح له أيضا أن ينفق عن سعة في يومي عطلته الاسبوعية- السبت والاحد- وفي اجازته السنوية التي ربما قضاها سائحا متنقلا في غير بلاده، انها سعادة وهي حق للفرد في عنق المجتمع.

الست ترى كيف هيئت له جميع الاسباب ليكون سعيدا ؟ هذه الطرقات الحديثة التي تمتد مئات الكليو مترات، وآلافها في البلد نفسه، ثم عبره الى أقطار أخرى. هذه «الاوتوسترادات» الهائلة. كم كلفت من الملايين؟ شبكة ضخمة يرتبط بها قطر بعد قطر. وفي سبيل انشائها شقت الجبال، وشيدت الانفاق، وأقيمت الجسور الضخمة من فوق الوديان، والمهاوي السحيقة.

ذرعنا الوف الكيلو مترات عبر هذه الطرقات العجيبة وهرعنا الى الريف، والقرى الجميلة، والأنهر والبحيرات. ولكن لهذا حديثاً آخر.

بحيرات ميونيخ والبجع الابيض

-١٥-

بدأت اقامتنا في أواسط شهر تموز. ومع ذلك فقد أربدت الافاق وانتشر الغيم الاسود في فجاج السماء، وابترد الجو، ثم هطل المطر، غزيرا ثقيلا، متواصلا، وكان يصقع نوافذ شقتنا العالية بمثل السياط، وكانت الرعود تنفجر وتدوي وتهدر، وتومض البروق كأنها ألسنة الشياطين، ثم يزداد المطر انصبابا وتزداد الريح عصفا، وقلنا: هذا في إبان الصيف، فكيف يكون الأمر في الشتاء؟

وقد لزمنا شقة سكننا أياما ثلاثة، ثم صفا الجو، واعتدل، وانداح الغيم، واقلعت السماء، وضحكت الشمس، وخرجت ميونيخ وقد اغتسلت وتالقت، ورف ورق الشجر أخضر مزهوا تلاعبه النسمات، وتنفح من خلاله أنفاسا لا تلبث أن تنشر محملة بالطيب.

« الحديقة الانجليزية » في ميونيخ تدخلها مبهورا بجمالها، ولكنك اذا أوغلت فيها ضعت، واختلطت عليك السبل، فلا يخرجك منها الا خبير. وهكذا، في كل عاصمة أوروبية، أمثال لهذه الحديقة تنقلك الى الريف ساعة أو ساعات. وفي وسعك أن تنسى فيها صخب البلد الكبير، وضجيجه واندفاع الناس في ارجائه فلا يكاد أحدهم يتلكأ أو يتمهل، أو يقف برهة ليلتقط أنفاسه.

وميونخ مدينة قديمة ككل مدن المانيا وأوروبا، وقد أصابها من خراب ودمار

الحرب الشيء الكثير ولكنّها استطاعت أن تنهض، وتحول الانقاض بناء عاليا. هذه التي تحدثك عن الارادة، والنهوض السريع، وتضميد الجراح العميقة بيد، والبناء والتعمير وانشاء الحياة بيد أخرى.

اصبحت تحت تصرفنا الآن سيارة ولدنا طالب الطب. سيارة واسعة تتسع لنا جميعا، وما كانت رؤية العواصم والمدن الكبيرة هي التي تهمنا في الدرجة الاولى. وانما نحن نريد أن نرى الطبيعة وسهولها وجبالها وحقولها وانهارها وبحيراتها، وهذه السيارة ستسهل لنا هذا كله، فلنتخذها اذن مطية لنا ولنذرع بها الآفاق.

وأنت اذا لم تجد في ميونخ العتيقة أكثر أو أفضل أو أدعى الى اثارة الفضول مما وجدته في العواصم والمدن الكبيرة الاخرى، فانك واجد حولها وعلى مسافات تتفاوت بين الخمسين كيلو مترا أو الستين أو حتى الثلاثين والعشرين عددا من البحيرات لا يكاد يكون له شبيه في غير سويسرا، وانك لتقطع المسافة بين المدينة وموقع البحيرة، فلا تمر الا بقرى زاهية كأنها باقات الزهور، ولا تجد غير الورد والشجر والارض الخضراء المونقة والسفوح التي يكسوها مخمل العشب ومطارف الزهر.

يخيل الي ان الارض كلها فيما بين الاقطار الاوروبية حديقة واحدة متصلة الاسباب، عينك لا تقع ابدا على جبل قاحل أجرد أو حجر أصم لا يكسوه عشب ولم تزدهر فوقه نبتة، والشجر بقاماته الرشيقة العالية حشد من صفوف لا يكاد يحيط بها النظر، تملأ الجبل والسهل وتحف بالانهر والبحيرات.

ترددنا على البحيرات حول ميونخ مرات. كانت القرى تبهر نفوسنا. الريف، هناك، سعيد حقا، يتمنى المرء أن يقيم في هاتيك القرى لا يبرحها أبدا. كل شيء يضحك لك: المنازل الصغيرة وشرفاتها، ونوافذها، وعيون الزهر المطلة منها،

وجمال النساء، ورشاقتهن، وأدب الرجال، والنظافة الباهرة حيثما درت ببصرك، كل ذلك يريح اعصابك، ويغمرك بالسعادة.. وينعقد لسانك من الاعجاب والانبهار اذ تقف قريبا من شاطىء بحيرة وترسل بصرك فوق صفحة مائها فلا يرده غير كتلة جبل بعيد يلفه الضباب ويحتضن البحيرة، وكثيرا ما كان يختلط علينا الامر ونتساءل: أتلك طيور رشيقة تسبح فوق الماء، أم زوارق من كل لون وطراز هي التي تحملها الريح في كل متجه، أو تسيرها آلاتها الى حيث نريد ركابها من نساء ورجال وصبية صغار يجدون فوق صفحة الماء أكبر السعادة، وأجمل الانطلاق من أسر المدينة الكبيرة وصخبها وضوضائها والسعي المستمر الذي يأكل عمر الانسان ويغتال حياته..

كنا نسير الساعات الطوال فوق ضفاف البحيرات.. أو نجلس في مقهى قريب من الماء، نرقب البجع الابيض باعناقه الطويلة ذات الانحناءات والالتواءات. ما أشبه البجعة بزورق يشق الماء. رجلاها مجذافان بارعان ربما صنعت المجاذيف على مثالها، والبجعة مزهوة بنفسها، وتبدو لك ذات كبرياء. جماعتها لا تخشى الانسان هناك، لأن الانسان يرعاها، ويترك لها كامل حريتها.

وكذلك بط الماء ما أكثره على ضفاف البحيرات، لا يفكر أحد في اصطياده. حدثني صديق عن زائر- من بلاد الله- شاهد البط على ضفة بحيرة سويسرية، فخلع حذاءه، نزل في الماء، واحتال حتى قبض على بطة هرع بها الى الفندق الانيق باعتزاز الصياد المغوار وقال: اطبخوها لي. اطبخوها لي... .

ذكّرتني البجعات برقصة البجع الشهيرة. انها من نوع الباليه الجميل. شاهدت شيئا يشبهها في باريس ذات يوم. ولكن رقصة البجع للراقصة العظيمة «ايزادورا دونكان» كانت هي آية هذا الفن الرفيع. ومأساة هذه الراقصة العالمية ماتزال عالقة في الاذهان علوق رقصتها في التصور والافكار: كان ذلك في العشرينات من هذا القرن وكانت في سيارتها المنطلقة، وقد لفت عنقها بوشاح

حريري، ومرت سيارة أخرى في الاتجاه المضاد فعلق بها الوشاح، واختفت الراقصة بلحظة واحدة.. ما اشبه موتها بموت البجعة التي كانت تصورها في رقصتها الشهيرة. ماتت وهي في قمة مجدها الفني. لم تشخ، ولم يقعدها العجز وأوصاب الشيخوخة. ولم تتح لها غدرات الأيام أن تأسى على ما فات.. ايماضة خاطفة تألقت في سماء غائمة ثم انطفأت. اشعاعة شقت اسداف الظلام ثم خبت.. ربما كان الاكرم للفنان أن يختفي في الوقت الملائم، أو يعتزل. لا أقصد أن يموت. وانما أقصد أن يبقي عطره، وأشعاعه، وصورة من فنه في القلوب. هذا ما فعلته غريتا غاربو أعظم ممثلات السينما. في أوائل الاربعينات، اعتزلت السينما، واختفت، واسدلت على وجهها حجابا. لا تريد أن يراها أحد. أبقت ملامح جمالها الاخاذ، وفنها الرفيع في مخيلات الملايين. انهم الآن لا يعرفونها الا جميلة ساحرة الجمال، والا ممثلة عظيمة القدر والافتنان.. وماذا كان يفيدها ان تشيخ وتملأ التجاعيد وجهها، الا أن تضيف صورة الشيخوخة العاجزة، الشائهة، الى صورة جمالها المتضويء، فتختلط الصورتان، ولا يعود لها في الاذهان والمخيلات ذلك الائتلاق اذ هي حسناء، غيداء، ذات سحر وافتتان؟

وما دمنا في سبيل الحديث عن الفن فان الالمان، في رأيي، أرباب ابداع عبقري في الموسيقى. أما النحت، والرسم، فما هما من مميزاتهم أو خصائص عبقريتهم. كل ما شاهدته في ميونخ يؤكد هذا الرأي. فما على تمثال، مما رأيت،مسحة من فن عريق، وما في لوحة رسم اشعاعة أصالة تنطق بالتفرد والالهام العفوي الباهر الذي تجده في منجزات الفرنسيين مثلا.

حتى العمارة، فيما شاهدت من قصور قديمة، لا تحمل غير طابع التجهم، وانها لتبدو لك كتلة رابضة، راسخة، مكينة، تلقي في قلبك الرهبة أكثر مما تثير مشاعر الفن الأنيق.

وهذا لا يضيرهم، بالطبع، فهم ذوو نبوغ في العلوم، وذوو اقتدار في

الفلسفة، وباعهم في هذين المجالين طويل، بل ربما كانوا، فيهما، اساتذة أوروبا نفسها.

هذه خواطر شخصية، وقد يكون لغيري نظرات أصدق وأصح. الا اني، في هذا السياق، لا انسى أنهم، أيضا، أصحاب فن عسكري وعناد، وعزيمة، وتصميم، وكبرياء، وتربية صارمة. وقد كان لهذا كله، في العالم دوي أي دوي.. كما تعلم.

فيلسوف مجنون يحلم بالانسان الاعلى

-١٦-

وفيما كانت السيارة منطلقة بنا الى مدينة نورنبرغ التي جرت فيها محاكمات زعماء النازي في أعقاب الحرب العالمية الثانية كنت لا أكاد أفرق بين عبقرية ألمانيا العسكرية، وبين ملامح من الفلسفة الالمانية.

أترى أن احداهما قامت على أساس الاخرى؟

وظل السؤال يلح على خاطري، وهو سؤال طرحه، قبلي الكثيرون. وأجابوا عنه مختلف الاجابات. بل كان ثمة من قال ان بين الموسيقي الالماني «فاغنر» والفلسفة الالمانية أسبابا ووشائج.

وأحب أن أكون واضحا فأقول، ان أقرب فلسفات القوة والدعوة اليها انما تتمثل في فلسفة «نيتشه» صاحب كتابي « هكذا تحدث زرادسترا » و «هذا رجل» وغيرهما. وأنا قارىء فلسفة أحيانا، ولا شيء غير هذا، ولا أدري كيف أغرمت بفلسفة نيتشه في صدر شبابي، حتى بلغ اقبالي عليها اني رحت أتلمس هنا وهناك، ما كتبه الكاتبون عن حياته وفلسفته، ومن جملة ما قرأت كتاب لكاتب السير والتراجم النمساوي المعروف «ستيفن زفايغ».

كتاب صغير ولكنه متفجر الاسلوب، مدوي العبارة كأنما قد كتبه نيتشه نفسه..

في نيتشه جانب من الشعر كبير ولا ريب. أسلوبه يشهد بذلك. على الاخص في «هذا رجل» فهو يكاد يكون شعرا خالصا، ولست هنا بسبيل أن أكتب مقالا في الفلسفة، ولكن نيتشه هو صاحب الدعوة الى «الانسان الاعلى»، والانسان الاعلى لنيتشه عجيب غريب. فهو قوي في بدنه، وفي عقله، وفي ارادته، وهو يرى عواطف الرحمة، والشفقة، والحنان والرقة، والدماثة، والوداعة، وكل هذه المشاعر الانسانية اللطيفة لا تليق بالانسان الاعلى لانها ترمز الى الضعف، والاستكانة، وتميت العزيمة، وتقضي على الطموح، وتوهن الارادة.. والانسان الاعلى الذي يحلم به نيتشه انما يعيش دائما في خطر، وتدفعه ارادة القوة الى التفوق حتى على ذاته. أليس هو القائل:« ابنوا بيوتكم على حافات البراكين»؟ فكيف يمكن أن يكون ثمة توفيق بين هذه الدعوة الهادرة المخيفة وبين مختلف عواطف الانسان الرقيقة، وبمعنى آخر: هل من سبيل الى الجمع بين الشيء ونقيضه، بين القوة- في أعلى ما يتصورها- وبين الضعف في أدنى ما يراه؟ كلا، فما ثمة من سبيل، وليذهب الى الشيطان كل ما ينم على ضعف في الانسان.. والارجح أنها دعوة موجهة الى الانسان الالماني، ودعوة ملحة، طاغية، الى ضرورة تفوقه واستعلائه بالجسم والعقل معا.. ولهذا قيل إن هذه الدعوة المغلفة بغلاف الفلسفة قد اتخذت سبيلا الى عقول العسكريين، فافتتنوا بها وأرادوا أن يحققوا مضمونها في أكثر من حرب واحدة، انتهت بالحرب العالمية الثانية وبمفهوم هتلر لفلسفة نيتشه. وربما كان نيتشه بريئا من التفسير العسكري لفلسفته. غير أن البذرة اذا ألقيت في التربة المؤاتية عاشت، ونمت، واستقوت واستطالت وآتت أكلها، وهذا ما كان، بغض النظر عن النتائج والغايات..

على أي حال ربما كان الانسان الاعلى الذي دعا اليه وتنبأ به نيتشه هو انسان المستقبل. وربما بدت مقدماته في أيامنا. انه عقل وفكر وارادة قبل كل شيء. علوم العصر وتكنولوجيته تبشر به. أهو انسان نيتشه حقا؟ ربما، من يدري؟ غير أنه سيكون، على الارجح، صورة معدلة عنه،مصقولة، وأكثر اشراقا،

وبعيدة عن أية نزعة عنصرية، وغير مجردة من أبهى ما في الانسان من العواطف والمشاعر الكريمة.

اننا في طريقنا الى نورنبرغ، مدينة محاكمة زعماء النازي في أعقاب الحرب العالمية الثانية.. وهذه الخواطر تدور في ذهني، وتختلط بغيرها، وتبدو لي المرأة الالمانية في غير الصورة التي استقرت في خاطري عنها قبل الحرب الثانية. انها منطلقة الآن. أتراها لم تعد ربة البيت المثالية التي عرفناها من خلال ما قرأنا وسمعنا يبدو أن التيار جرفها. تيار القلق الذي يسيطر على النفوس في أوروبا. وربما كانت أحق من غيرها ان تتنكر لعالم ما قبل الحرب. وهل ترى اكتوت امرأة بنار هذه الحرب بما اكتوت به المرأة الألمانية؟ وعندما تهتز القيم وترتج كيف تنجو هي، بل كيف لا تكون الاشد تعرضا لهذا الارتجاج؟ والمستقبل؟ انه أشد هولا من كل ما مضى. في هذا عذر كبير لكل ما تراه العين في أوروبا من شذوذ وانحراف وتحطيم لقيم سابقة، ربما قامت على الكذب، والنفاق، واستغفال الناس زمنا طويلا..

وتعود الصور والخواطر يتداخل بعضها في بعض في ذهني. وأرى نيتشه في بهرة خيالي مسكينا، تاعسا، مريضا، محطم الاعصاب، يبحث عن أيسر السعادة في ركن من مقهى يشرب فيه كوبا من جعة، ويستمع الى لحن موسيقى جميل. واراه يحسب نفسه أسعد الناس أن تتاح له فرصة الارتحال الى مناطق الدفء والشمس في ايطاليا أو جنوب فرنسا. وأراه أخيرا قد جن ومات مجنونا مخلفا وراءه مخطوطات كثيرة لم يقدر لها النشر إلا بعد وفاته: هذا الانسان المريض المجنون، هو صاحب فلسفة القوة والحالم بالانسان الأعلى... وابتسم. انه مع ذلك ، عندما يصنفونه في قائمة الفلاسفة المتشائمين. وهو في حقيقة امره تشده أقوى الاسباب الى أستاذه، ومواطنه الفيلسوف «شوبنهور»، شيخ المتشائمين وأكثر الفلاسفة اربداد تفكير.

ولكن لا بد أن ندع فلسفة القوة والانسان الاعلى، والعالم ارادة، وقد قلت لك أنني قارىء فلسفة أحيانا لا أكثر ولا أقل، وقد أخطىء وأصيب. وهذه هي نورنبرغ تبدو لنا ملامحها، وقبل أن ألتفت بانظاري اليها أحس في نفسي بما يشبه الهمس، في تساؤل لا أدري مؤداه، أهو استنكار، أهو تعجب، أم تراه هو السؤال والجواب معا: ألم يكن شوبنهور عدو المرأة اللدود، حتى كان الكلب أفضل منزلة منها في نفسه، ألم يكن مريده نيتشه عدوا للمرأة كذلك؟ ومن ترى يبلغ به بغض المرأة والزراية بها هذا الحد؟ الاسوياء، الاصحاء بدنا وعقلا لا يفعلون ذلك، وويل للناس من فلسفة غير الاسوياء، وغير الاصحاء..

وأخيرا هذه هي نورنبرغ. هنا حوكم زعماء النازي وحكم عليهم بالاعدام فانتحر من استطاع الى الانتحار سبيلا، ونفذ حكم الاعدام بآخرين، وسجن سجنا مؤبدا واحد فقط، لا يزال الى اليوم رهين المحابس: رودلف هس. قلعة بأسرها وجيش من الحرس، والجند يقومون على حراسة رجل يسير الى قبره، وقد علت به السن حتى غدا حطاما بشريا لا يثير غير مشاعر الرثاء، والعجب أن تحشد لحراسته كل هذه الحشود.

المدينة عتيقة، ورحيبة، ونظيفة، وأناسها مهذبون. مظاهرة طلاب وشبان كانت أول ما رأينا، تغلب عليها البوليس، واستطاع أن يحصر المتظاهرين، ويضرب من حولهم نطاقا. لم نعلم السبب، ولكن عندما غادرنا المدينة، عصر ذلك اليوم، كان البوليس قد استراح وفرق المظاهرة. في نورنبرغ قد تجد من يدلك على أماكن قيل أن اليهود عذبوا فيها أيام الحكم النازي، وان اثار التعذيب باقية حتى اليوم.. غير أنك تشيح بوجهك مترفعا، وتتساءل: لو امكن أن يزور الزائر محابس اسرائيل ويرى المعذبين من ابنائنا واخواننا هناك: الف جدار وألف زنزانة وألف نافذة ستحدثه عن آثار تعذيبهم والتنكيل بهم.

استطعنا أن نتجول في المدينة ساعات، ورأينا قديمها وحديثها، وابراجا

وكنائس أثرية فيها، وحدائقها المنسقة، انها كأية مدينة أوروبية، لولا شهرتها بسبب المحاكمات التي جرت فيها. ليت الضمير الغربي يستفيق ويدرك أن مثل هذه المحاكمات أولى بها زعماء العصابات الذين يستولون على أوطان الآخرين، ويشردون أهلها، ويغتصبون ثرواتها وخيراتها، ويجترحون من المظالم ويصطنعون ثرواتها وخيراتها، ويجترحون من المظالم ويصطنعون من ألوان التعذيب وضروبه ما لا يكاد ما اجترحه النازيون أن يكون شيئا مذكورا.

ملامح من فينا

من مفاتن «فيينا» الى رحلة الهبوط على القمر

-١٧-

لا بد من زيارة النمسا، يجب أن نعيش أياما في «فيينا» واذا أمكن بعض المدن الاخرى. ستكون هذه هي المرة الثانية التي أزور فيها العاصمة النمسوية. بضعة أيام فقط ثم نعود الى ميونخ، والمسافة الى فيينا ليست طويلة. والسفر على تلك الطرق نزهة ومتعة. وقد وصلنا الى فيينا في يوم قائظ، وفي الوقت الذي يخرج فيه الموظفون من مكاتبهم، ويغلق أصحاب المتاجر دكاكينهم، ويهرعون الى بيوتهم أو الى المقاهي والبارات. وهكذا أعطتنا فيينا من نفسها صورة مزعجة: الزحام شديد. والناس يتدافعون بالمناكب والسيارات صفوف بعضها وراء بعض لا تكاد تجد بينها فرجة تمر منها. والعَرَق يتفصد من الجباه غزيرا، ولا تكاد نسمة هواء واحدة ترطب الجو.

تعلمنا من أسفارنا أن نلجأ الى فنادق خارج عاصمة البلد الذي نزوره، وانك لتجد الفندق المريح النظيف والخدمة الممتازة في قرى الريف القريبة التي تبعد عن العاصمة ستة أو سبعة كيلو مترات، وانت الرابح، لأن هذا يوفر عليك ٥٠في المئة، على الاقل، من أجور فنادق العاصمة، وأنت الرابح مرة أخرى أن تخلد الى الراحة والنوم الهنيء في احضان الغابات أو على ضفاف البحيرات.

في الايام القليلة التي أنفقناها في فيينا استطعنا أن نشاهد حدائقها

الانيقة، وتماثيل أباطرة، وملوك، وعباقرة موسيقى تنهض في قلب هذه الحدائق الجميلة. والكاتدرائية هناك ذات فن معماري رائع بأبراجها وجرسياتها وأقواسها وحناياها، هي في بعض ذلك كأنها من المخرمات الدقيقة التي تفنن بصنعها أمهر المطرزات. وانك لترى مشابه من هذا حتى في دار الاوبرا. ولفيينا، في الموسيقى ودنيا الانغام والالحان، تاريخ فذ لا يكاد يكون له من نديد. واذا استمعت يوما الى أعذب وأبدع الحان الفالس فاعلم انها ان لم تكن آتية من فيينا، فهي على الاقل متأثرة بها وآخذة من نبعها ومنهلها. وهل تراك نسيت «الفالس الكبير» لشتراوس؟ كانت الدنيا، دنيا ما قبل الحرب العالمية الاولى، اذا ما رقصت كان ذلك على أنغام فيينا. تلك كانت أيام عز باذخ وامبراطورية شامخة، وصالونات وأبهاء وقصور كأنما هي صنع جن لا إنس.. يضيئها جمال الاميرات والغواني المترفات، يرقصن على أصداء هاتيك الانغام في أحضان قواد وضباط الامبراطورية وشبانها المفتونين.. لم يبق من هاتيك الايام الخوالي غير عطرها، غدت النمسا، اليوم، دولة صغيرة. ليس وراءها غير امجاد الماضي. والمستقبل؟ بيد الله كما قال فكتور هوغو لنابليون. حسبها انها ضمدت جراحاتها، وحسبها هذا الهدوء الذي تنعم، في ظلاله، بحياة لا عسر فيها. الملايين من السياح الذين غصت بهم ارجاؤها يحملون اليها ما يزيد حياتها رغدا، وفي مطعم قصر «شامبرون» الفاخر لم نجد مائدة لنا الا بشقة. السياح الاميركان والالمان احتلوا كل شبر. وجبة الغداء هذه كلفتنا مبلغا طائلا. ثم جسنا خلال القصر وابهائه. هنا عاش ابن نابليون، النسر الصغير. وهنا ذاق مذلة اليتم. جده امبراطور النمسا رغم حبه اياه وحدبه عليه، لم يستطيع، مع الآخرين، الا أن يعمل على محو كل شيء في نفسه يتعلق بوالده. وانصرفت أمه الغادرة الى أحضان عاشقيها. فترة مؤسية حقا في تاريخ الفاتح الكورسيكي. وما أكثر النصال التي تكسر بعضها فوق بعض في قلبه بعد أن هوى من قمة مجده، وأفل نجمه.

شامبرون بحدائقه، وتماثيله، وبركه، صورة مصغرة وأنيقة عن «فرسايل»

قرب باريس. كانت فيينا، وربما لا تزال، تقلد باريس، حتى رقة نسائها وغانياتها ما أشبهها برقة الباريسيات، وأناقتهن ونزقهن.

في وسعك أن تزور حديقة الحيوان قرب قصر شامبرون. زرافات ثلاث اعجبت بهن.. ذوات أعناق جميلة. لا أدري لماذا لم يخطر لأحد أن يشبه المرأة الجميلة ذات العنق المنصوص بالزرافة الرشيقة.. أوصيك اذا زرت تلك الحديقة أن تدخل قسم الأحياء المائية. ستجد نفسك أمام لوحات باهرة من الوان هاتيك الاحياء ما دق منها وما كبر. الطبيعة فنانة مبدعة ولا ريب. والا فكيف تأتيّ لها أن تصبغ هاتيك الاحياء بكل هذه الاصابيغ والشيات، وكيف تأتى لها أن تبدع كل هذه الاشكال الهندسية من مخلوقات المياه حتى أدق الدقيق منها. لم يفعل الانسان شيئا غير أنه أوجد لها مستقرا يماثل بيئاتها الاصلية. فرق ما بين الانسان الفنان، والطبيعة الفنانة: انها لا تنفك تكرر ذاتها الى مالا نهاية، أما هو- الانسان الفنان- فأنه متجدد أبدا، وفنه يتجدد معه. نادرا ما يكرر صورة من فنه.

كانت المدينة الثانية التي زرناها هي «غرادس»، هنا تخف وطأة الزحام، وتتخذ الحياة لونا أقرب الى السكينة والهدوء. لا يزورها السياح الا العدد القليل منهم. ومع ذلك فهي مدينة رحيبة، تلقى فيها ما لقيته في فيينا من رقة، ودماثة، وأدب، الطبيعة منحولها تأخذ بلبك. في ضواحيها وجدنا فندقا في منتهى النظافة والخدمة الطيبة، في هذه المدينة انفقنا أياما ثلاثة، ارتاحت فيها أعصابنا من زحام فيينا وضوضائها وتدفق السياح في كل مكان فيها. في اليوم الثاني تناولنا طعام الغذاء في مطعم على ربوة عالية في احدى ضواحيها. استغرقت جلستنا نحوا من ساعتين، وكان ما شاهدناه من قمة تلك الربوة شيئا نادرا. كانت الطبيعة المحسنة قد زينت الافاق بكل مباهجها ومفاتنها، بكل عشبها، وزهرها، وشجرها، وأغدقت الماء فوق النبات، وضحك الزهر، وغرد

الطير، واهتز الشجر من نضرة ورواء. الكثير من الصور، في هذه الرحلة، وأمحى من اذهاننا، الا هذه الصورة فما تزال عالقة بقلوبنا الى اليوم.

وكان قد آن أن نعود الى المانيا، الى ميونخ. ليلة وصولنا كانت المانيا مشغولة بأنباء نزول رجال الفضاء الاميركان على القمر لأول مرة. كل محطة تلفزيون اتخذت للأمر عدته. عدد من العلماء استدعوا الى كل محطة لكي يحدثوا الناس عن هذا الانجاز العظيم. كنا، في ميونخ، حائرين أي المحطتين نشاهد برنامجها. هنا علماء، وهناك علماء، وهنا أجهزة وهناك أجهزة، وبيد كل عالم مؤشر وحوله رسومات وخرائط فضاء، ويستمر العرض، والشرح والتفسير، ومتابعة الرحلة الفضائية الجبارة لحظة بعد لحظة. ويلي ذلك نقاش قصير بين العلماء، ثم يعود الشرح والتفسير. المهم أن تعيش الساعات الأخيرة وكأنك مع رجال الفضاء أنفسهم. وقد استطاع العلماء، في كل محطة، أن يوجدوا ملايين المشاهدين في جو هذه الرحلة ، حتى لحظاتها الاخيرة، بأسلوب علمي رائع.

لا ادري الى أي حد يبلغ الاهتمام، في بلادنا العربية، بامثال هذه المنجزات العلمية، لا أدري الا اننا نسمع بأنبائها من الاذاعات، وعلى شاشات المحطات التلفزيونية نشاهد ما يكون حدث، بعد حدوثه، بأيام أو اسابيع. مجرد عرض بلا شرح، أو تبسيط المعلومات، أو إثارة الاهتمام بهذا الذي يحدث مما قد يكون له أكبر الأثر على حياة الانسان في مستقبل غير بعيد.

الواقع ان اهتماماتنا العلمية شاحبة، مهزوزة، وبعيد عن فكري أن يكون عندنا رجال فضاء، أو نقوم بانجازات علمية في أي مجال، ولكن في الواسع أن تكون لنا اهتمامات علمية، ومتابعة للتطورات العلمية، وتفهم حسن لما يحدث. ان الطابع العام للثقافة، في هذا العصر، علمي. حتى الادب يتخذ صبغة علمية. لم يعد مجرد كلام جميل. الكثير من تخلفنا يعود الى هذا النقص المروّع، وتنعكس منه بعد ذلك ظلال قاتمة ... وكئيبة حتى على أخص خصائص حياتنا

ووجودنا.

كنت أعتقد ان الجامعة، أية جامعة في أي بلد عربي، هي التي تنهض بهذا العبء، هي التي تخلق الجو العلمي، والثقافة العلمية، وهي التي تضفي هذه السمة على المجتمع، وكما انها حارسة الفكر والرأي، فهي التي تطور الثقافة العامة، بحيث تواكب روح العصر لا تتخلف عنه أبدا ان لم تسبقه الى آفاق جديدة .

بكل اخلاص اقول ان ميولي واتجاهاتي الشخصية كانت، في مراحل الدراسة، تسير في خط علمي لا ريب فيه، ثم لا ادري كيف انحرف الاتجاه الى الأدب. أنا واثق ان الذنب ليس ذنبي: البيئة، والوسط، والمدرسة، والثقافة السائدة هي المسؤولة. وما آسف لشيء أسفي لهذا التحول.

يخيل الي اننا ما نزال «متقوقعين» داخل كهوف ضيقة ومظلمة، وما أشد حاجتنا الى ان نفتح نوافذ عريضة على الدنيا المتطورة من حولنا بتسارع عجيب. أما من نسمة هواء وشعاعة شمس تنير هذه الكهوف؟..

ملامح إيطالية

في الطريق الى المدينة التي أحرقت

«سافونارولا»

-١٨-

كنا نود أن نزور مدنا وأماكن أخرى في ألمانيا، فرانكفورت مثلا، وبون، وحتى برلين الغربية. غير أنه لم يبق أمامنا متسع من الوقت وفي برنامج رحلتنا أن نزور ايطاليا، فلا بد، اذن، من الرحيل.

أعددنا كل شيء لكي نغادر ميونخ مع بزوغ الشمس. حتى وقود السيارة لرحلتنا كلها في ايطاليا استطعنا أن نؤمنه بـ «كوبونات» نحصل بموجبها على الوقود بأسعار مخفضة في أي مكان من ايطاليا.

هذه المئات من الكيلومترات التي ستقطعها لتدخل البلاد الايطالية من شمالها لن تشق علينا. فالطرق رحيبة والسيارات تنطلق في اتجاه واحد ذهابا وايابا. انها «الاتوسترادات» التي أنفقت مئات الملايين في صنعها. والواقع أن الرحلة فوق هذه الطرق متعة قائمة بذاتها. وانت، طيلة القوت، مشتبك بحوار مستمر مع الطريق.. لها لغة خاصة تحدثك بها هذا الحديث الصامت الجميل. كأنما هي تأخذ بيدك برفق ومودة. هل أنت تحتاج الى الهاتف لامر ما؟ انه أمامك على بعد بضعة كيلومترات. إشارات الطريق تنبهك اليه وكذلك على مكانه. وانك لواجده باستمرار بعد كل عشرين كيلومترا. ولعلك تريد أن تعرف أين أنت، والمسافة التي قطعتها، والمدن أو القرى التي ستمر بها. في الطريق من الاشارات

واللوحات ما يقدم لك هذه المعلومات بطرفة عين. أم تراك قد تعبت قليلا فأنت بحاجة الى بعض الراحة. حسن. هذه هي الطريق تقول لك ان امامك مكانا في وسعك أن تميل اليه لتجد مقاعد وماء، وقطعة من العشب الاخضر. هذه الحديقة تجد مثلها بعد كل ثلاثين كيلومترا،.وتريد أن تتزود من الوقود وان تجلس في مقهى أنيق. الطريق تنبئك بما تريد، وترشدك الى محطة الوقود، والى المقهى المريح، هذا الحوار بينك وبين الطريق لا ينقطع أبدا. انك لا تشعر بالوحدة. ولا يخامرك الاحساس بأنك ربما انقطعت، أو اختلطت عليك السبل.

وتداخل في حوار الطريق حوار من داخل النفس. وتساءلت أكثر من مرة: ماذا تراني قرأت من الادب الالماني الحديث؟ القليل الذي لا يغني. أدب ما بعد الحرب العالمية الثانية لم أقرا منه الا أوشالا. أكان ذلك اهمالا مني؟ أكان خطأ؟ اترى أن هذا الادب لم يبلغ من القوة والخصب بحيث يفرض نفسه على قارىء من غير الالمان؟ حتى «برتولت برخت» الكاتب المسرحي الكبير أديب ألماني مخضرم، انه ممن فروا من وجه النازية، اني أذكر له مسرحية «الجاسوس» صورة رهيبة في ظل الحكم النازي. حتى الابن الصغير كان يتجسس على أمه وأبيه وينقل أخبارهما الى الغستابو.

كنا في صدر الشباب، أنا وأبناء جيلي نحب شعر «غيته» ونعجب براثعته «فاوست» ونفهمهما على نحو ما، وكنا نقرأ شعر هاينه، وشيلر، غير أننا كنا في الوقت نفسه نقرأ شكسبير، ونقرأ راسين، وكورنيل، وموليير، كنا منصرفين الى الكلاسيكيين، والرمانسيين، ولما آن لنا أن نقرأ الادب الحديث، قرأنا لهذا الرعيل من الادباء الالمان الذين كان يتزعمهم «توماس مان». وأين اليوم، في الادب الالماني بعد الحرب العالمية الثانية، عمل أو أثر أدبي شامخ كـ «الجبل السحري» لتوماس مان؟ وأين في كتاب التراجم والسير من يشبه أو يداني «اميل لودفيغ» الذي كتب سيرة النيل، والبحر الابيض المتوسط، وكليوبترة؟ لم

يكفه أن يعيد الى الحياة أشخاصا من التاريخ، فأعاد اليها حضارات ومدنيات،من النغمة التي لا تنفك تتردد في ثناياه. «الجبل السحري» فلسفة من الدرجة الاولى، فلسفة الذين يعيشون في الاعالي. عالم المصدورين، هو عالم التأمل في حياتهم وحياة الاخرين، معهم في الاعالي، أو تحتهم حيث يدب سائر الناس.

ومن التأمل تنبثق الفلسفة. على كثرة ما ترجم الى العربية لم يجرؤ قلم على نقل الجبل السحري الى لغتنا. كان أديبنا الكبير المرحوم عادل زعيتر خليقا بمثل هذه الترجمة، وقادرا عليها ولكن الآجال بيد الله.

صور كثيرة من هذا الادب الالماني في فترة ما بين الحربين العالميتين، تترا ءى لي، ولكن الطريق تلهيني، وحوارها لا ينفك يشغلني، هذه المروج، وتلك الجبال، والانهر، والبحيرات تتبدى لنا قريبة دانية حينا، وبعيدة قاصية حينا آخر وما أعجب تلاعب الظلال عليها ومن حولها فهي مضيئة متألقة من ناحية ومن أخرى تنتشر الظلال وتمتد الافياء، ويترا ءى لك العشب خضيلا، قاتما ، وتأخذك الحيرة بين اشراق وعبوس، وترفع بصرك الى السماء فاذا حشود من السحب تزحف في فجاجها على هينة ومهل. وانك لتدرك من اربدادها وسواد حواشيها انها حبلى لن تلبث أن تريق ما ءها، والطريق تنحدر الآن انحداراً مروعا الى السهول الايطالية، وهي تحاذي جبال الالب الشاهقة، والنهر من تحتك لا ينفك يسير معك أو تسير أنت معه مسافة طويلة، ثم يختفي ليعود فيظهر مرة أخرى مثبتا وجوده، وما تزال السيارة تنحدر وتنحدر، رتضيق الطريق، ويتجّهم وجه السماء، وتهولك جبال الالب، وتلوح لك، من بعض نواحيها، انها لفرط استقامتها جدار أملس أخضر اللون، ذاهب في السماء الى مالا نهاية.

ويقول ولدنا طالب الطب وهو يسوق السيارة حذرا متأنيا: عسى أن نبلغ السهل قبل أن تمطرنا هذه السحب الدكناء وينتهي هذا الانحدار المخيف، وتدرج

السيارة في سهل أفيح، ويبدأ المطر رذاذا ثم ينهمر. ماذا؟ بل هو ينصب انصبابا، ما رأيت في حياتي قط مثل هذا الانفجار الغاضب. وقال ولدنا: لا خوف علينا ما دمنا في رحاب هذا السهل، وقلت أنا: بل هناك كل الخوف. ألست ترى السماء لا تمطر بل تضرب بمائها وترشق بسهامها، وتصب وابلها حتى لتكاد تغرقنا؟ مل بنا الى تلك السقيفة نلوذ بها الى أن تهدأ ثورة الطبيعة. ومال بنا الى سقيفة مصنع للسيارات فاحتمينا بها ساعة كاملة، ووجدنا من دماثة أصحابها ومودتهم ما أنسانا ذلك الخوف الذي ملأ قلوبنا. وعاد المطر فأصبح رذاذا، وانطلقت بناالسيارة ثانية، وعلى الرغم من شدة المطر وتدفق المياه، فقد كان الجو دافئا وما هي الا أن ابتلعت الارض هذه المياه جميعا، وتفرّق الغيم وذهب أباديد ممزقة، وسطعت الشمس ضاحكة مشرقة، كأنما كانت في حفل من زينتها وبهرجها.

نحن الآن في الارض الايطالية. وقفنا عند الحدود هنيهة. كان السؤال الوحيد الذي وجه الينا هو: «هل معكم سجائر أجنبية؟» قلنا: «لا» قالوا: «سيروا اذن». وانطلقنا دون أن يفتشنا أو يستريب بنا أحد. هذا يشعرك بأن لك كرامة، وبين أن تكون مشبوها وغير مشبوه بعد كبير ليس من السهل تجاوزه. ورحم الله بلادا كل من يمر بها أو يزورها مشبوه، وكاذب، ومحتال، وموضع ريبة على كل حال.

القرى والمدن الايطالية الصغيرة التي يمر بها السائح نظيفة وجميلة، وأهلها يتكلمون الالمانية الى جانب لغتهم. أما دورهم ومبانيهم ففيها مشابه واضحة من الاسلوب االماني. حتى اذا ابتعدت عن هذا الشمال الايطالي ، اختلف الأمر فأخذت تطالعك ملامح الحياة الإيطالية اللاتينية الخالصة. ربما كانت أقرب الى مزاجك وأوثق صلة بعادات لك وتقاليد. كانت وجهتنا مدينة «فرارة» القديمة. ولدنا طالب الصيدلة هناك في انتظارنا. وكل ما في خاطري من تلك المدينة

العتيقة هو أنها مسقط رأس الواعظ الراهب الديني «جيروم سافونا رولا». كان في زمانه- القرن الخامس عشر- أحد دعاة الديمقراطية في مصالحة بين الحق الالهي في الحكم والحق الديمقراطي وان له لمواعظ وخطبا يحفظها التاريخ، أحنقت عليه حكام عصره في فلورنسا فاتهموه بالهرطقة وحكموا عليه بالحرق فأحرق.

لما دخلنا فراره وقعت عيني أول ما وقعت علي؛ تمثال لهذا الراهب الدومنكاني المصلح الثائر، في أحد ميادين المدينة: في عصر أحرقوه، وفي غيره أقاموا له تمثالا كأنما هو تكفير إثم.

من القصر الماسي الى شواطىء الادرياتيك

-١٩-

قرارة مدينة عتيقة جدا، ربما لا يزيد عدد سكانها على مئة وخمسين الفا. غير أن لها جامعة عريقة، ومتاجر وصناعة، وفيها اثار ما تزال باقية من عصر الاقطاع. وسكانها أناس طيبون، فيهم دماثة، ورقة، ولطف، ومبادرة جميلة الى تقديم العون والمساعدة.

زرنا قصر الحاكم الاقطاعي، لا تزال على ما كان عليه تلك الايام الخوالي. حتى الخندق الذي يحف به ويظل ممتلئا بالمياه لكي يعزله عن المهاجمين، اذا وقع هجوم، موجودهو الآخر كما كان في العهود الغابرة.

انه قصر كبير وله ساحة واسعة، وأروقة، وطباق عليا وابراج، ولا تعدم أن تقع عينك هنا وهناك على أدوات التعذيب ووسائلها التي كانت معروفة في عصر الاقطاع، وهناك متحف أيضا يحدثك كل ما فيه عن ذلك العصر. حسبك ساعة من زمن لتزوره وتجوس خلاله.

وثمة قصر آخر عجيب، يسميه بعضهم القصر الماسي، والسبب أن حجارته كلها منحوته على شكل من قطع الماس.

وتقف حياله ذاهلا متسائلا، ثم لا تلبث أن تجد من يحدثك حديث اسطورة شائعة هي ان الذين شيدوا هذا القصر وضعوا في أحد حجراته ماسة كبيرة

الحجم، وكان هذا هو سبب بنائه بحجارة على شكل قطع الماس، ولكن أحدا لا يدري في أي حجر ترقد هذه الماسة الاسطورية النفيسة.

كاتدرائية فرارة آية في فن العمارة، وما يزينها من لوحات وصور وآثار فنية، وثمة أداة تشبه سماعة الهاتف اذا اسقطت في ثقب فيها قطعة من النقد أخذت تهمس لك على الفور بتاريخ هذه الكاتدرائية وبما فيها من نفائس الرسم والنحت ومخلفاتها الاثرية. وهمسها يتأدى اليك باللغة الاوروبية التي تفهمها أو تتقنها، ومعنى هذا ان ثمة عددا من هذه الهواتف خصص كل منها لاحدى اللغات الشائعة.

وقد ذكرني هذا بمتحف اللوفر بباريس. هناك تستطيع أن تشتري بثلاثة فرنكات اداة تسجيل، على شكل سماعة الهاتف أيضا، وتذهب بها لتقف قبالة لوحة الجوكندة فتحدثك هذه الآلة، اذ تضعها على أذنك، عن اللوحة الشهيرة وتاريخها، وحياة- دافنشي- الفنان العبقري الذي رسمها وما وقع لهذه اللوحة من مغامرات ومؤامرات سرقت فيها مرة وثانية ثم استردت. ثم حديث شهي وطلي عن هذه المرأة المحيرة ليس بابتسامتها الغامضة فقط، بل بجمالها أيضا، وحب دافنشي لها، وما قاله عنها كبار الكتاب، والفنانين ومشاهير الرجال.. انها رحلة جميلة مع الجوكندة عبر العصور.

وكنت أحسب ان البرج الايطالي المائل لا يوجد في غير «بيزا» وهو برج يهولك منه أنه يوشك أن يقع أو ينهار بين لحظة واخرى، ولكنه لا ينفك ثابتا راسخا، فلا تدري: أتكذب ما تراه عينك أم تؤمن ان هذا البرج المائل اسطورة من الاساطير، ولقد وجدت في فراره برجا آخر مائلا. انه برج احدى الكنائس هناك، عاليا في الفضاء نحوا من عشرين مترا أو تزيد. ان نظرة واحدة تنبئك بأن البرج مائل حقا، وسرعان ما تروح تقارن، ولو بالفكر والخيال بين البرجين المائلين، في بيزا وفي فرارة، وتسأل عن السر، ولماذا اختصت ايطاليا بالبروج المائلة: أهو

خطأ في البناء. أم أنها طبيعة الارض، أم ترى هي مصادفة ليس من حسناتها الا أن تثير العجب وتجذب الزوار والسياح؟

وعلى ما في فرارة من آثار الماضي ومخلفاته، وعلى ما فيها من حدائق صغيرة ولكنها جميلة ومنسقة، فليس ثمة ما يغريك بالبقاء فيها الا أنك قريب من مدن السواحل وشواطىء بحر الادرياتيك. ثم انك تستطيع أن تغادرها صباحا لكي تزور مدنا أخرى شهيرة كفلورنسا والبندقية وغيرهما.

وأنا رجل مولع بالبحر، والشاطىء، وأنسامه الرخية، ولا أعدل بمنظر الموج يتلوى ويتداخل بعضه ببعض ثم يتكسر مرغيا مزبدا، فائرا، منظرا آخر في الدنيا. ومرجع هذا اني ولدت ونشأت في مدينتنا الجميلة- يافا- المكبلة بقيود الأسر والاحتلال، رد الله غربتها، وفك عنها قيودها واغلالها بعزائم أبنائها الغر الميامين. ولا أدري- حتى في صدر الشباب وزهرة العمر- الا اني خدين البحر، ونجيه، المأخوذ بسحر آفاقه واصطفاق موجه، وامتداد صفحته الزرقاء حتى تلامس طرف الافق البعيد فيما يقع في الحس ويتراءى للعين الواهمة.. وما أكثر الصداقات التي عقدتها مع الصيادين ذوي الشباك، والمراكبية الاشداء، ولا حديث لنا غير البحر وجماله وأهواله أيضا ومغامراته.

وهكذا كان همنا، خلال الاسبوعين اللذين انفقناهما في مدينة فرارة العتيقة، أن نغادرها صباحا لنهرع الى شواطيء الادرياتيك فننفق يومنا فوق رمالها، أو سابحين متخبطين في المياه الادرياتيكية وأمواجها الفائرة المتقلبة تطوينا وتنشرنا وتقذف بنا وكأن الواحد منا ليس أثقل وزنا من ريشة في مهب الرياح الهوج..

وكان يقع في وهمي اني عدت الى عهد الشباب، وان هذه المياه، وهذه الرمال انما هي بحر يافا ورمال شواطئه، ثم سرعان ما أثوب الى الحقيقة المرة وأتساءل: أين نحن من يافا الحبيبة، الماجدة، ذات النضال والكفاح، واين نحن من شاطئها

وبحرها وسمائها وعبق زهر البرتقال تنفحه من مغارس الطيب في أرضها أم الخير والبركات؟ ترى أنعود يوما الى هاتيك الجنات؟ ان زقزقة عصفور في سماء بلادي، أو على فنن من شجرها الوريق، لاجمل وأعز من كل هذا الذي تقع عليه عيني في بلاد الناس، بلاد الغرباء..

وعلى بحر الادرياتيك تقع مدينة البندقية، المدينة التي كأنما قد انبتها «نابتون» اله البحر عند الاغريق القدامى، فخرجت من بين زبده واشداق موجه واستقرت على حافة من مصطخب مائه فلا تنفك، على الدهر، تعتصم منه بقنوات وأزقة ودروب من ماء تعبرها «الغوندولات» رشيقة، خفيفة، منسابة كالعهد بها منذ أقدم العصور. ان رحلتنا اليها لن تستغرق أكثر من ساعتين في السيارة، أفلا نزورها ونقضي فيها يوما على الاقل؟ الى اللقاء اذن في البندقية، وبصورة خاصة عند منعطف جسر التنهدات هناك.

مدينة الغندولات الكسولة وجسر التنهدات

-٢٠-

قطعنا المسافة بين «فرارة» والبندقية في ساعتين. ومررنا ببضع مدن، لم تلبث فيها سوى دقائق، ثم كان علينا بعد ذلك، أن نقطع البحر لكي ندخلها. الزورق البخاري الكبير يتسع لحشد من الناس قاعدين أو واقفين. في نحو عشر دقائق ينقلك المركب البخاري الى البندقية، لقاء أجر معقول. ولكن قبل هذا كله عليك أن تجد مكانا لسيارتك. لن تدخل المدينة قبل أن تجد هذا المكان، بين ألوف السيارات التي ضاقت بها الساحات، والباحات، والمواقف وكلها سيارات السياح الذين يتوافدون إلى المدينة التي أنبتت نفسها هكذا فوق العديد من الجزر الصغيرة وسط مياه الادرياتيك.

أمضينا أكثر من ساعة حتى استطعنا أن نركن سيارتنا بين حشود السيارات المتراصة ثم ركبنا الزورق الكبير إلى البندقية. هل كان في البندقية، يومئذ، مئة ألف سائح وسائحة؟ كان هذا هو تقديري أنا، وليس من طباعي أن أميل الى المبالغة: الطرقات، والدروب، والازقة والساحات، والجسور مزدحمة كلها بالرواد، هذا اذا استثنيت الموجودين داخل الكنائس، والمتاحف، والمقاهي والبارات وراكبي الغندولات..

أصبح ركوب الغندولات تجارة. أولئك النوتية بملابسهم وقبعاتهم التقليدية

يغرونك بالركوب. كلماتهم واشاراتهم وحركاتهم تعافها نفسك، فقد اكتسبت الصبغة التجارية المفتعلة. هذا الغندول بحيزومه المشرئب المستدق المزخرف، وهذه المجاذيف المنقوشة الرأس، المصنوعة على مثال المجاذيف القديمة التي افتن بنحتها وصقلها فنانو البندقية في العصور الخوالي، ما تزال هي نفسها التي يستعملها النوتية في هذه الايام. صناعات يدوية متوارثة عبر الاجيال. في وسعك كسائح أن تشتري نماذج صغيرة لهذه الغندولات في دكاكين البندقية. ولكنك اذا أردت أن تركب الغندول ليعبر بك بعض الازقة والدروب المائية فانك لا تفعل ذلك الا على مضض.. تشعر، على الفور، ان الغندول الشهير، الرومانسي، المقترن في ذهنك بالليالي المقمرة، والغناء الشجي والموسيقى الحالمة، قد انقضت أيامه، وفقد شاعريته، وغدا شيئا تجاريا مهجورا.

مهما يكن من أمر فان لك منصرفا عنه الى قصور المدينة، قصور حكامها وامرائهاو (دوجاتها) السابقين، وكاتدرائياتها، وباحاتها، وطابع القرون الوسطى الذي لا ينفك ماثلا في كل مكان.

وفيما كنا نحث خطانا الى ساحة كاتدرائية «سان مارك» كانت ألحان «الغندوليير الكسولة» تتردد في خاطري للموسيقار «منتوفاني»، انها ألحان جميلة تصور النوتي وقد استند الى حافة الغندول وأخذ يعمل مجذافه يشق به الماء لمركبه في كثير من البطء، في كثير من الأناة والتراخي- صورة رائعة للكسل المتمادي، فقدت هي الاخرى سحرها.. ربما بقيت أوبريت «ليلة في البندقية» للفنان العبقري (شتراوس) أجمل ما قدمته الموسيقى عن البندقية.. هذه الالحان تبرق في نفسك لحظة ثم تختفي أمام الواقع التجاري الشائع لغندول العواطف والشعر والاحلام..

وندخل ساحة الكاتدرائية العتيدة (سان مارك) أو القديس مرقص. انها تلك

الساحة التي لا بد أنك رأيت صورها مع الكنيسة في البطاقات. بقدر ما كان يزدحم ألوف السياح فيها يزدحم الحمام الاليف على أرضها. وقد تحط حمامة على كتفك، وربما حطت على يدك لتلتقط بعض الحب في راحتك. بكل الثقة المكنة، بكل الاطمئنان، يفعل الحمام هذا. يا لهذا الطائر العزيز ما أجمله، ما أحلى هديله،ما أقربه الى القلب. وانها لسبة في جبين الانسانية أن تمتد اليه أو الى صغاره يد تذبحه للاكل. أما رأيت غزله وحبه الرائع لانثاه انه الطير العاشق حقا. انه أكثر وفاء حتى من الانسان نفسه. وما أعمق حبه لصغاره وحنوه وعطفه. ما رأيت طيرا مثله يدأب بمثل صبره ومعاناته على تعليم صغاره كيف تلقط الحب.. وفي كل عاصمة زرتها وجدت ساحات وباحات يختلط فيها الحمام بالخلق وهو آمن مطمئن.. الا في البلاد التي تذبح الحمام وتأكله، والعياذ بالله..

كاثدرائية سان مارك هي أكبر وأضخم كاتدرائيات البندقية. قبابها أبراجها، جرسياتها، مداخلها ومعابرها أبوابها، جدرانها، كل ما فيها فن خالص من فنون العمارة التي تزخرف، وتنقش، وتجدل الرخام، وتصنع الاقواس والحنايا، مما لا قبل لفناني العصر الحديث به. كل ما في المدينة، القائمة على المياه، بني وشيد وفق هذا الطراز الفني، وقد امتلأت الكاتدرائيات، والقصور بتحف نفيسة من رسم ونحت، لا يكاد يأخذها حصر، ولا تكاد تضاهيها في هذه الموروثات الفنية غير فلورنسا..

أردنا أن نستريح قليلا فلم نجد مقعدا واحدا خاليا في المقاهي القائمة على أطراف الساحة، لقد احتلها السياح الامريكيون والألمان، فاضطررنا أن نجلس على بعض المصاطب.. انني أرجع الى صورنا في تلك الجلسة فأضحك طويلا.. أن خلقا كثيرا غيرنا افترش تلك المصاطب، دون أن يكون ذلك ملفتا للنظر.

جسنا خلال الازقة والدروب، ما أشبهها بأزقة ودروب القدس القديمة، بل لقد

حسبتني لحظة اني في قدسنا، غير أن أهل البندقية جعلوا من بعض المحلات مطاعم أنيقة، وضعوا موائد طعام خارجها، وزينوها بالزهر، والشمع الاحمر، انها براعه في جذب السياح الذين امتلأت بهم هذه المطاعم. مرة أخرى أقول هنا ان السياحة صناعة يجب أن تكون ذكية وقادرة على الابتكار. أمامنا الكثير نتعلمه من الآخرين. ومن جملة ذلك هذه الاشياء التي تباع للذكرى هناك وتحمل طابع المدينة وملامحها ومعالمها. كثيرة هي هذه الاشياء، ومتعددة الانواع والنماذج والزائرون يقبلون على شرائها ايما اقبال. ويغري بشرائها انها رخيصة زهيدة الثمن. حتى نماذج الغوندولات يجد منها كل حسب قدرته الشرائية. وهذا كله يفسر لنا دخل ايطاليا من السياحة دخل ضخم يحسب بمئات الملايين من الدولارات.

وينقضي معظم النهار ونحن نتنقل بين الازقة والدروب والقصور والكاتدرائيات والساحات، ثم نأخذ أهبتنا للعودة، ونمر عند جسر، انه جسر التنهدات.. وما كان هذا الجسر للعاشقين كما قد يتوهم الكثيرون .. انه جسر الظلم، والقهر، والتعذيب، جسر المضطهدين والمحكومين بالاعدام، والتنهدات هي تنهداتهم، وهذه السجون التي نطل عليها من فوق الجسر هي سجونهم، وهذه النوافذ والقضبان الحديدية الغليظة التي تسدها هي نوافذهم وتنهداتهم، في ظلام العصور..

وقفنا طويلا على هذا الجسر، والتقطنا صورا له. وفي هذه الاثناء تزاحمت الرؤى في بهرة خيالي.. المخاطرات، والمغامرات، والدسائس، والمؤامرات، وصراع الحريات، وتناحر الاسر العريقة على الحكم والجاه، والتنكيل بالانسان اذا ما اشرأب لنسمة هواء نقي.. حتى الفنان في هاتيك الايام لم ينج من المطاردة، والاشتباه، والتعذيب، ولو كان هذا الفنان هو (ميكل آنجلو) نفسه، أو (رفائيل) أو دافنشي.

قلت في نفسي وقد أخذت طريق العودة: «واذا كانت هذه السجون قد أصبحت اليوم مجرد آثار تتحدث عن الماضي والغابر من العصور، فان أشباها لها ما تزال قائمة وتفعل فعلها في بلاد لا تنفك تتطلع الى بصيص ضئيل من النور، النور الذي كان إنسان العصور الوسطى يتلمسه ويتطلع اليه..»

وما أكثر جسور التنهدات في دنيا الله.

هناك ترك العرب بصمات شخصيتهم

وجيناتهم الوراثية

-٢١-

لم يبق من الايام المخصصة لهذه الرحلة الا القليل. يجب أن نودع فراره، وشواطيء الادرياتيك، والمدن القريبة: البندقية، بادوا، بروجيا، فلورنسا ... وفي النفس مشاعر مختلفة أثارها القديم والحديث من مظاهر العمران في هاتيك المدن العتيقة التي ينبض في عروقها دم الحياة المعاصرة أعنف وأشد ما يكون.

تمنينا لو أن في الوقت سعة لنزور الجنوب الايطالي. كنت أحب أن أزور نابولي، فما زالت في النفس رواسب من قصة « غرازيلا » للشاعر الفرنسي الرومانسي «لامرتين». كانت نابولي، وكان بحرها، وكان صيادوها ومراكبهم، هذا كله كان جو تلك القصة الجميلة. ثم الحب الساذج، الصادق الرومانسي الحالم. كنا نقرأ لمارتين في مطالع الشباب. ثم بقيت هذه الصور البهية عالقة بالقلب الى اليوم..

وكنت أحب أن أعيش ساعات في كابري. قصة الطبيب السويدي «أكسيل مونتي» الذي وصف ذلك الجو بما لم يستطع أي كاتب- محترف- ان يفعله. انها قصة «سان ميكيله» أو القديس ميخائيل. لقد مزج فيها الواقع بالحلم، والحقيقة بالاسطورة. وترجمت قصته الفذة الى أربعين لغة.

ولكن هيهات. لم تبق الا أيام، لا تكاد تكفي لروما وحدها. لا بد أن تقطع، في السيارة الى روما، خمسمئة كيلو متر. وقد غادرنا فرارة مع أول خيوط الفجر، اننا في أواخر تموز، ومع ذلك فان المطر لم ينقطع الا قبيل ان نصل الى روما. كانت السماء كأنما تريد أن تفرغ ما معها. وكانت بروق. ورعود، وكان ضباب كأنما نحن في قلب فصل الشتاء. انبعثت من راديو السيارة أغنية ايطالية وألحان موسيقية، كلها رقة، وعذوبة. قالت زوجة ابني الالمانية:أولئك الايطاليون.. يا لهم من عاطفيين.. هذه موسيقى ما أحببتها قط..

وسألتها:

- وكيف تكون الموسيقى أذن؟

هل سمعت موسيقى «فاغنر» الالماني؟

-أجل

- هكذا تكون الموسيقى.

ذهلت لحظة. انها الموسيقى الهادرة، المدوية. موسيقى الابطال، تماما كفلسفة نيتشة فيلسوف الالمان. القوة، ودائما القوة حيث لا محل للعاطفة. تلك ملامح أمة ولا ريب.

وقلت:

- ولكني أحب هذه الالحان الحلوة، الرقيقة، انها لا تبكي، ولا تندب، ولكنها تجعلني أحلم هنيهة.. في أحيان أخرى موسيقى فاغنر.. لست أكره البتة شيئا. الآداب، الفنون، تراث انساني مشاع، وهذا التراث متعدد الشكول، والالوان، والسمات. وجمالها نابع من تعددها..وهذا التعدد يحمل لمحات

وأقباسا من عبقرية كل أمة، ومن خصائصها، ومميزاتها. وانقطع الحديث فقد دخلت السيارة نفقا طويلا. ثم توالت الانفاق. انها طرق «الاوتوستـرادت» ولقد شقوا لها الجبال. وأقاموا في المهاوي السحيقة اعمدة ودعائم عملاقة نصبت فوقها الجسور الكبيرة. وهكذا من طريق على جسر جبار، الى طريق في نفق بقلب جبل، حتى لا تكاد تحصيها الى أن تطل على مشارف روما.

من عاداتي السيئة انني اذهل، في كثير من الاحيان، حتى عن نفسي. وفي فترات الذهول هذه لا ارى، ولا اسمع شيئا حتى لو دوت الرعود وهدرت المدافع، لشدة استغراقي في عالمي الداخلي.انها عادة سيئة كما قلت، ولكن الان، وفي مثل سني، لا املك تغيير عاداتي مع الاسف. وهكذا انصرفت الى التفكير في الادب الايطالي، والفن الايطالي. وقد كنت مولعا، في ايام الشباب، بقراءة «الكوميديا الالهية» للشاعر العبقري دانتي الليغيري. وقد احببت فردوسه، ومظهره وجحيمه، وصوره الشعرية الخالبة حينا، الرهيبة حينا اخر، وعلى الاخص في الجحيم. وما أكثر ما قيل حول رحلة دانتي هذه الى العالم الآخر، ولكن الثابت فيما قرره دارسو الكوميديا الالهية انه اقتبس صورا، في جحيمه، عن القرآن الكريم، وربما أيضا عن شاعرنا المعري، صاحب رسالة الغفران، ولقد سبقه الى مثل هذه الرحلة. الايطاليون قوم فنانون عباقرة في النحت، والرسم، والموسيقى، وليسوا كذلك في الادب، اعني انهم لا يحتلون المنزلة الاولى.ومع ذلك فقد لمعت في سماء الادب الايطالي أسماء عالمية. دانتزيو مثلا الشاعر، القصصي، الطيار، المحارب والقارئ الذي وضع موسوليني في يديه قيودا من ذهب، وأسكنه قصرا باذخا، واحاطه بكل ألوان البذخ والترف، لكي يبعده عن طريقه..

الجانب السياسي في حياة دانتزيو يبهت كثيرا، وان كان ذا ألوان صارخة هو الآخر، ليظل الشاعر، والقصصي المبدع هو الذي يستدعي الاعجاب.

وينعطف تفكيري، والسيارة لا تنفك منطلقة تخطف خطفا في طريقنا الى روما، الى الاديب العظيم «لويجي بيراندللو». ليس المهم أنه نال جائزة نوبل في الثلاثينات من هذا القرن .المهم هو أدبه: قصصه القصار، ومسرحياته.

بيراندللو جدد، حقا، في القصة القصيرة، غير أن تجديده في القصص التمثيلي هو الاهم، هو الذي بهر أوروبا كلها. كان هذا التجديد في المضمون أكثر منه في الشكل. وكان ازدواج الشخصية وغرائب هذا الازدواج هوالذي أغرم بيراندللو في وصفه، وتحليله وتقديم صور غريبة منه، في تمثيلياته الباهرة كـ «ستة أشخاص يبحثون عن مؤلف» و «ايفلين» وغيرها. ربما من عالم الجنون قد استمد صوره وموضوعاته، وقد عايش الجنون جنبا الى جنب، وكان يشاهد أفاعيله كل يوم في زوجته التي كان يأبى دائما ادخالها المصحات العقلية. لقد كان هذا الاديب الصقلي طرازا وحده في الادب الايطالي. ويقال ... أجل يقال انه من أصل عربي، أو على الاقل يجري في عروقه دم عربي. وقد استدل بعض الكتاب والنقاد على ذلك من هيئته وسحنته المستطيلة المنتهية بلحية صغيرة تستدير حول ذقن عربي مدبب، كأنه بدوي أصيل. ولا غرابة في هذا فقد احتل العرب صقلية، وكان فاتحها زيادة الله الاغلبي، ولا يزال الكثير من الآثار العربية ماثلا فيها.. ذلك مجد عربي قديم من أمجادنا الكثيرة، والامجاد في تاريخ الامم والشعوب حوافز ودوافع، فما بالنا نتغنى بها، ولا يكون أمرنا معها الا كما يفعل وارث سفينة بدد ثروته الطائلة ثم قعد يذكر العزّ الذاهب، ويتحسر على ما فات؟ أذكر أنني مشترك بمجلة شهرية أوروبية مخصصة للتاريخ، ان ثمانين في المئة من أبحاثها ودراساتها تتناول تاريخ ذلك البلد الاوروبي منذ أقدم العصور، لا للمباهاة والازدهاء، ولكن لكي يظل القارىء موصول الاسباب بتاريخ أمته، مرتبطا به، متلاحما بأحداثه، ومتخذا، من هذا كله، حافزا للحاضر والمستقبل.

وقـد لا يكون بيـراندللو وحـده هو الذي تصله بالعـرب والعـروبة وشـائج الاسباب..هناك الكاتب القصـصي الكبيـر «جيوفاني فيـرغا» مؤلف تلك القصـة العظيـمة «المعلم دون جيزوالدو» انه من الجنوب أيضـا وتعد قصـتـه من عيـون الادب الايطالي. انها لا تصور صـعود رجل شـعبي الى قـمة الثروة والجاه بكده، وعـرق جبينه، وفطنتـه وحسب، بل انهـا تعرض لوحة مـتعـددة الالوان لتـقـاليـد وعـادات الجنوب الايطالي، ومـا أشبه الكثيـر منهـا بتـقـاليد وعـادات عندنا في البلاد العربية. ولا يؤخذ على مؤلفها جيوفـاني فيـرغا غير تأثره الواضح بقصـة «أوجيني غرانديه» لطيب الذكر «هونوريه دي بلزاك» أعظم قـصـصي فرنسـا في كل العصور، وصاحب سلسة روايات «المهزلة الانسـانية».

وربما كان آخر من قرأت له من أدباء الجنوب الايطالي «جوزبي توماسـي دي لامبدوزا» وأرجو أن تغتفر لهذا الاسـم طوله الظاهر فهو مؤلف تلك القصة الفريدة «القط البرّي» وأقول فريدة لانه كتبـها وبقيت عنده كمخطوطة، و لم تنشـر الا بعد وفاته. ،قيل أنه لم يكتب غيرها، غير أنها أحدثت دويا عظيماً وترجمت الى جميع اللغات الحية ورفعت اسم مؤلفها الى القمة. وقد قرأتها في طبعتها الاولى المترجمة وأنا بـاريس قـبل تسع سنوات. وبين «فيـرغـا» و «لامبيـدوزا» مـواطن كثيرة للمقارنه بين أثريهما القصصيين. لا مجال لذكرها الآن، غير أن لامبـيدوزا قدم لنا هو الآخر صـورا أخاذة من الجنوب الايطالي من أخلاق وتقاليد وموروثات تنبض بالحياة، وتجد مشـابه منها في دنيانا نحن. على أي حال لقد ترك العرب، هناك، بصـمات شخصيتهم، وحتى «جيناتهم» الوراثية، فكان من ذلك، أولئك الادباء الذين يرى البـعض أنهم من أصل عـربي، وكـانت أثارهم الادبيـة التي تذكرنا بتقاليد لنا وموروثات.

وخطر لي «البيرتو مورافيا» من المتأخرين المعاصرين، ولكنني لا أحب أدبه، وربما مال الى مـجاراة الســوق الأدبيـة الرائجة في قـصصــه الجنسيـة، لعله تاجر

أدب وقصص قبل أن يكون فنانا أصيلا.. وأصحو من ذهولي فاذا بالسيارة تصعد بنا الطريق الى روما الخالدة..

وكانت نهاية المطاف

-٢٢-

للمرة الثانية أرى روما. من أسمائها « المدينة الخالدة » ومن الأمثلة الشائعة « كل الطرق تؤدي الى روما » عشت زمنا في جوها القديم، جو الدسائس، ومؤامرات الاسر العريقة حول الحكم، ما أكثر ضحايا نهر التيبر في هاتيك الأيام. يومئذ، في مطلع الثلاثينات من هذا القرن، كنت أضع كتابا عن كبير فناني النهضة « مايكل آنجلو »، وقد أنهيت هذا الكتاب ونشرته فصولا في مجلة عربية شهرية، وضاعت مجموعة هذه المجلة، فضاع الكتاب معها..

وهكذا فترت همتي عن مواصلة الكتابة، فقد كنت أنوي اصدار كتب ثلاثة، أحدها عن انجلو، وآخر عن « رفائيل » الفنان الكبير والثالث دراسة مستفيضة عن عصر النهضة نفسه. ولذلك حشدت لهذه الكتب الثلاثة، المصادر الضرورية وعشت حقبة في جو روما، وفلورنسا، والبندقية وغيرها. لم نعد نملك، في هذه الأيام، عزيمة وتصميم عهد الشباب. تلك أيام تقضت، ما كان أحلاها وأشهاها كما يقول الشاعر. وهي أيضا لم تترك لنا سوى أن نتمناها، ولكن هيهات.. هيهات..

كان « موسوليني » قدرا من أقدار روما. وقد غير، وبدل، وركب صهوة جواد مدة، ومدفعا مرة أخرى، ملوحا بأمجاد قديمة، وفتوحات.

بدء نهايته كان يوم احتل الحبشة، ويوم أراد أن يمد سلطان روما بعيدا جدا وراء الحدود، لقد خيل اليه ان التاريخ يعيد نفسه حقا.. مع الحرب العالمية الثانية انهارت أحلامه، وكل شعاراته الزائفة، ومعها القمصان السوداء، والأشداق المنفوخة، والتعاظم، والصدر المتقبب، وخطب الصراخ، والزعيق، والتهويش. بدا مخلوقا صغيرا، هلوعا، ساعة اقتيد الى حتفه، فعلق من أسفل الى أعلى، وبصق على جثته الباصقون.. نهاية دراماتيكية حقا. وكان بعد ذلك كل ما كتبه الكاتبون وما يزالون يكتبونه الى اليوم. على الاخص معاشقه وغرامياته، ومقتل خليلته «كلارا» معه، في اليوم نفسه والساعة نفسها.. كان هذا وفاء منها.. وفاء حتى الموت..

انها روما الخالدة.. تعصف في ارجائها الاحداث تقصر أو تطول، ويذهب الحالمون بالعظمة، والفتوحات، وتبقى هي وعلى فمها ابتسامتها الساخرة، ما أشبهها بابتسامة المرأة ذات الجمال الباهر التي تعرف أن لها من حسنها ومن حليها ومطارفها، ما يزري بكل ثمين ونفيس. وما هذه الحلي والمطارف غير مخلفات فنونها في متاحف، وكاتدرائيات وكنائس وقصور.

ذهب الطغاة، وذهب موسوليني. وبقيت الآثار الفنية التي ولدتها أنامل ميكل انجلوا في رسوم وتماثيل، والتي أبدعتها عبقرية رفائيل، وهذا الرهط الكبير من فناني عصر النهضة. العديد من سياح الدنيا يستلقون على أرض الكنيسة «السستينية» لكي يشاهدوا الخليقة في سقفها، يوم الحشر والحساب في جدرانها. وأية عبقرية كانت تستطيع غير عبقرية انجلو أن تصور أمنا حواء بمثل هذا الجمال، بمثل هذه الروعة، بمثل هذه الانوثة الطاغية؟.. سعداء هم البشر الذين ولدتهم هذه الأم العارية، المضطجعة هكذا على أحد جانبيها. وماذا تكون الجو كندا، تحفة اللوفر، اذا قورنت بهذه الأم التي خرجت من أحلام وألوان انجلولتكون عزاء عن كل القبح والدمامة في الدنيا؟ هذا الحشد من الخليقة -

السعداء منهم في جنات الخلود والاشقياء الذين سيكونون طعاما وزقوما للجحيم - عراة كلهم، فلا جلابيب، ولا طيلسانات، ولا حتى الغلالات الرقيقة الشفافة.. هكذا أردتهم يا أنجلو، هكذا جردتهم وعريتهم ليكون الجمال هو مطلق التكوين، مطلق الشكل غير المستور، أردتهم كما خلقهم الله، على غير ما فعل مواطنك ومعاصرك «روفائيل»، كان مولعاً بالتناسق والتوازن واللطف والرقة الماثلة في العديد من العذارى في لوحاته الشهيرة. ربما كانت «البستانية» من أروع آثاره. إنها ملك متحف اللوفر، وليست الشقة بين روما وباريس بطويلة. نساء وعذارى روفائيل كاسيات كلهن، وفي جوهن ذلك الاشعاع الخلاب. ومن خلال جلابيبهن تستطيع عيناك أن تستشف كمال الأجسام.. وما أعجب أمرك يا انجلو، حتى تماثيلك أبيت إلا أن تكون عارية، مجردة، وحتى «الليل والنهار» في تمثالك الرمزي عاريان.. عند «موسى» تراجعت قليلاً وأحسبك كنت تريد نحته عارياً هو الآخر، ولكنك أحجمت ولم تعر منه إلا ساقاً والساعدين.. ومن أجله، لكي أقف عنده طويلاً، دخلت كنيسة القديس بطرس في الفاتيكان، تلك التي صنعت أنت قبتها المدهشة، فكنت فناناً، ومهندساً، كما أنت شاعر، ومحب للحرية في أيام التنكيل بها وبدعاتها.. وهل عبثاً نشاهد شخوصك تشرئب أبصارهم وأبدانهم في توتر شديد إلى بعيد، وأحياناً إلى أعلى؟ أكان هذا من فرط احساسك بالأغلال في داخلك، فعبرت عن ارادة التمرد في أعماق شخوصك بارادة الانعتاق التي كأنما تومض في حدقات عيونهم. أتذكر ذلك الحوار الطويل بيني وبينك، في مطالع الشباب. أتذكر اني عشت في صحبتك، وفي عصرك، ومعك حتى وأنت فوق «الصقالات» العالية ترسم لوحات الخليقة، ولم تستطع ارادة السيد الكبير الرهيب أن تثنيك عن أن يخرج كل هؤلاء البشر، من شفافية أحلامك، عراة كما هي الشمس عارية، كما هو الضياء عار، كما هي الطبيعة في سهل وجبل وبحر عارية في تمام كمالها..

ولا بد أن نمضي يا انجلو، أن نودعك، نودع فاتيكانك، ونلقي إليك

بالتحية، ومع التحية ابتسامة الرجاء في أن نعود فنلقاك.. أم تراك لا تريدنا أن نرى «الكوليزيوم» وآثاره الشاخصة ومدرجه الذي كان يتسع لمئة ألف مشاهد في صراع الأبطال فيما بينهم، أو من ضواري الوحش، إلى أن جاء زمن كان يلقى فيه بالمسيحيين الأوائل لتلتهمهم هاتيك الضواري، ولا بد أن ترى أطلال «الفوروم» وآثار المعابد الوثنية والقصور العتيقة، والأقواس الباقية التي جاء قوس النصر في باريس على مثالها..

معذرة إليك، فنحن نريد أيضاً أن نشاهد ذلك الأثر الفني الحديث الذي ينهض غير بعيد عن الكوليزيوم، وفيه قبر الجندي المجهول، ومنحوتات ضخمة لبعض أمجاد روما، سنستريح هناك ساعة، ثم نمضي إلى ينبوع الأماني، في تلك الحارة القديمة. ما أعجب ما تحف بهذا الينبوع من تهاويل ومنحوتات، المهم أن نلقي ببعض القطع الفضية أو حتى النحاسية في البركة الكبيرة، ونتمنى الأمنيات كما تفعل حشود السياح، ونضحك من أنفسنا، ومن غيرنا، وتؤخذ لنا الصور للذكرى، فالذكريات كما قال أمير شعرائنا: «صدى السنين الحاكي» ولن ننسى أن نشاهد تلك المنحوتة الهائلة التي تجسد اسطورة تأسيس روما.. كان، فيما تروي الاسطورة، رومولوس هو مؤسسها، وأول ملك عليها (٧٥٣ ٩-٧١٥) قبل الميلاد. وقد أرضعته مع أخيه أو توأمه رِعوس ذئبة، ومن ثم تبناه وأواه راع من الرعاة فشب والبطولة ملء برديه وأخذ الملك قوة واقتداراً.. والمنحوتة الضخمة تمثل الذئبة وهي ترضع الشقيقين التوأمين..

وهاتيك الملاعب الرياضية، في أطراف روما بتماثيلها وساحاتها ومدرجاتها، ألا ترى يا أنجلو أنها تستحق نظرة؟ يقال أن موسوليني هو الذي أنشأها في هذه الرقعة الرحيبة.. أصحيح هذا؟ ستوضع، اذن في ميزان حسناته عسى أن يخف شيء مما يثقل كفة السيئات..

ما أكثر ما يتداخل قديم وحديث في روما. وما ينفك نهر التيبر فيها يجري

كما يجري الزمان عبر قرون وعصور وأجيال وعبر وأحداث جسام أو غير جسام، ولا يبقى من غبار السنين إلا ما صنعته يد فنان، أو أبدعته عبقرية أديب، شهادة على ما كان وما قد يكون.

... وكل الطرق تؤدي إلى روما، وحتى هذه الطريق الطويلة التي تفضي، آخر الأمر إلى المطار الدولي الكبير.. وها هي طائرتنا الميمونة الغدوات والروحات جاثمة في الانتظار.. ثم ها هي تحلق بنا وتشق الفضاء، ونعيش معها في رحاب السماء ساعات ثم تطامن من ارتفاعها، ويبدأ الهبوط رويداً، ونعود نرى الناس كالنمال، والمنازل كخلايا النحل، ثم يكبر كل شيء ويعظم، وتحط سفينة الفضاء في مطار عمان.. أمحى من القلب والفكر كل شيء، ولم يبق إلا هذا الحنين إلى الوطن، واننا لنذلف على ثراه، ونعانق الأهل، ونسعد بنسمات الغروب تهفو على وجوهنا وتملأ قلوبنا غبطة ورضى.

قصص مترجمة منشورة في
جريدة الدفاع على حلقات

أبي راسبوتين

كتبتها ابنته ماريا راسبوتين

من كان «راسبوتين» الذي قتله، قبل خمسين عاما الأمير الروسي «فليكس يوسوبوف»؟

التاريخ يقدمه لنا ، حتى اليوم، بملامح سكير، عربيد، فاجر، فاسق، خالع العذار. وأحيانا بملامح جاسوس، في جميع الأحوال يصفه بأنه«روح الشر» التي كانت تسيطر على أسرة امبراطور روسيا، وتفرض نفوذها على الامبراطور والامبراطورة التاعسين.

غير أن «ماريا» ابنته تجابه حكم التاريخ وتقول. كان والدي رجل خير وقداسة! وإنما كانت المعجبات الآبقات يتهافتن عليه ويبذلن كل ما في وسعهن لكي يفتنه عن نفسه.

وكان راسبوتين قد اكتشف في نفسه وهو ما يزال شابا، مواهب القدرة على الشفاء.. ثم أصبح، من بعد، أحد أولئك الرهبان المشردين.

وقد بسط عليه الغراندوق «نيكولا» والغراندوقة « أناسطاسيا» جناح حمايتهما ، وسمحا له أن يقيم ، مع أفراد أسرته، في «سانبيترسبورغ» ثم قدماه إلى القيصرة وكانت فريسة لليأس والألم بسبب إصابة ولي العهد بنوبة نزيف

كانت تهدد حياته. ويبدو أن راسبوتين استطاع أن يزيل مخاوف القيصرة ويشفي الكسيس ولي العهد. وهكذا بسط القيصر والقيصرة بدورهما جناح حمايتهما عليه.. والآن تعالَ معي لنرى ما تقوله ابنته «ماريا» «المعرب»

-١-

كان يحتشد ، كل يوم ، جمع من الخلق في شقتنا التي كنا نقيم فيها بمدينة «سانبيتر سبورغ».وكان النظر يقع في هذا الجمع، على الكثيرين من المعجبين بقدس «الأب» والكثيرين من أصحاب الحاجات الذين كانوا يتوافدون طلبا للعطاء والصلات، أوللإحسان، أو للتوصيات يحملونها إلى ذوي النفوذ من كبار الشخصيات.

وكان بعضهم يريد الترفيع في سلك الجيش، وكان البعض الآخر يسعى إلى الحصول على حماية سياسية، وغيرهم كان يجهد لكي ينال عقود التعهدات من الحكومة.

غير أن الأكثرين كانوا يأتون ليسألوا قدس «الأب» أن يمنحهم الشفاء والعافية لهم ولمن يحبونهم من أقرباء أو أصدقاء أعزاء..

وهؤلاء جميعا من أغنياء أو فقراء، من شبان أو شيوخ، كانوا يخرون جاثين على ركبهم أمامه، ويروحون ينادونه بلقب «الأب المقدس»، يضرعون إليه أن يشفع لهم عند الله.

وكان «الأب» يأخذ بأيديهم وينهضهم، وهو مدرك لمدى تعاستهم وبؤسهم، ويقول لهم أنه ليس قديسا من القديسين، وإنما هو رجل مبارك، قد خصه الله ببركته فهو يحاول أن يعمل بمشيئته... ثم يبسط يديه فوق رؤوسهم، ويباركهم، ويتلو صلاة قصيرة على نية شفائهم. أما إذا كان من المعوزين المحتاجين فإنه كان

يمد يده إلى جيب مسوحه ويخرج منه بعض المال فيدسه في أيديهم!

وكان يأتي، بعد هؤلاء، أشخاص يسألونه هبة أو صلة أو قرضا من مال.. وكان «الأب» يصغي إليهم بهدوء، وفي أغلب الأحيان كان يحدق النظر في وجوههم وعيونهم فيما هم يتحدثون.. وكان إذا ما وجد في جيوبه بقية من مال يعطيهم إياها دون أن يوجه إليهم أي سؤال، أو يأخذ منهم أي إيصال... وإلا فإنه كان يكتب على ورقة بضع كلمات لصديق ثري من أصدقائه يرجوه فيه أن يرى ما عسى أن يستطيع تقديمه لصاحب الحاجة.

وما كان يحال أبدا دون أي إنسان ومقابلة «الأب» على الرغم من أن الانتظار كان في أكثر الأحيان طويلا واحتشاد الخلق كثيرا بل متدفقا.

وما أكثر ما كان يحدث أن يضطر الوافدون إلى الوقوف صفوفا متراصة في سلم البيت، فيضيق السلم بهم، وعندئذ تمتد صفوفهم حتى تصل إلى الشارع العام.. وكانت شقتنا تقع في الطابق الثاني من إحدى العمارات وتطل على فنائها. وكان أحد رجال البوليس يقف ثمة دائما مستظلا بالمدخل المسقوف لكي يحفظ النظام في الصفوف المتراصة لأولئك الوافدين.

وكنا :أختي «فرفارا» وأنا ننطلق إلى مدرستنا من سلم آخر مزوي عن الأنظار لكي نتجنب أن يستوقفنا المنتظرون من أصحاب الحاجات ويتوسلوا إلينا أن نتيح لهم مقابلة «الأب» قبل غيرهم..

وكان الكثيرون من تلاميذ الأب ومريديه لا يحتاجون إلى أي شيء سوى تقوية معنوياتهم الروحية في الدين بالاستماع إلى ما يقدمه «الأب» من شرح وتفسير. وكان بعضهم يقضي ساعات عديدة كل يوم في شقتنا لحضور المقابلات ومساعدة «الأب» فيما يريد، في حين أكون أنا وأختي فرفارا في المدرسة..

-٢-

ويحسن أن أذكر هنا اسم السيدة «غولوفين» زوجة المستشار القومي «غولوفين» وابنتها الجميلة الرقيقة «مونا» فقد كانتا في الطليعة من تلاميذ «الأب» ومريديه ومريداته.

وقد كانت «مونا» عريقة المولد وتنتمي إلى أسرة من علية القوم. وكانت خطيبة الأمير «نيكولا يوسوبوف». وقبل قليل من موعد زفافها إليه أصيبت بصدمة مروعة فقد قتل خطيبها الأمير في مبارزة سببها امرأة أخرى! وعندئذ راحت تلك الفتاة الباهرة الحسن تنشد العزاء في رحاب الدين عند قدس الأب!

وكانت «مونا» ووالدتها تزوراننا يوميا، وكنا نحن نحلها من قلوبنا منزلة الأعزاز والأكرام.

وكانت «مونا» الجميلة الساحرة هي التي وجهت إلى الأب الأمير«فليكس يوسوبوف» الأخ الأصغر لخطيبها القتيل، فكانت بهذا، ودون أن تدري، هي التي أدت إلى تلك المكيدة الرهيبة التي قتل فيها والدي.

وقد كان من بين مريدي ومريدات « الأب» كذلك : الكونتيسة«اغناتييف» التي كان لها«صالون» شهير يتردد عليه الكثيرون وتجري فيه أحاديثهم الكثيرة حول السياسة والدين.

ومن الزائرات المواظبات أذكر الأميرة«تيتيانا شاكوفكايا» والسيدة «سولوفييف» وكذلك أسرة بيستركور والراهبة القديمة «اكولينا نيليشكانا» وكانت الراهبة «اكولينا» في طليعة السيدات اللواتي عني بهن الأب وعالجهن.. وفيما بعد طلبت إعفاءها من مواثيق الرهبنة لكي تنصرف إلى العناية بالمرضى وقد أجيب طلبها، وذهبت إلى مدينة «سانبيتر سبورغ»، وكانت فتاة جميلة،

متزنة، أوقفت نفسها على مهمتها كممرضة فنجحت فيها نجاحا كبيرا. وكانت تعرف اسم «الأب» وعندما سمعت أنه موجود في المدينة هرعت إليه لكي تكتحل عيناها برؤيته ثانية. وكانت تفرغ من عملها بعد ظهر كل يوم تهرع دائما إلى زيارتنا. ومع أنها كانت باهرة الجمال رائعة الوداعة فقد كانت مشتعلة الغيرة وذات طبع يحب الامتلاك قبل الآخرين. ولذلك كانت ترى أنها أحق من أي إنسان بصداقة «الأب» والمنزلة الأولى الأثيرة عنده..

وفي ساعة شرب الشاي كانت تجلس عند قدميه وتسند رأسها على ركبتيه.. وكانت تبذل جهد المجاهيد لكي تبعد عن «الأب» كل من يريدون أن يظلوا قريبين منه متدانين إليه.. ولما كانت تهم عائدة إلى منزلها كانت تأخذ دائما بعض الملابس المتسخة وتعيدها في الغداة نظيفة مكوية..

وما ظل من ريب على الإطلاق في أنها قد أحبت «الأب» حب هوى مبرح قائم على الحيازة التامة! غير أن «الأب» لم يصدر منه قط ما يمكن أن يترك مجالا للتفكير في أنه كان يبادلها هذا الحب.. وإنما هو كان يعاملها تماما معاملته لجميع أعضاء «بلاطه»، باستثناء «آنا فيروبوفا» التي كان يبدي لها دائما أعمق المودة والحنان..!!

وما أسرع ما غدت هذه الراهبة السابقة «اكولينا» والقيصرة صديقتين حميمتين، وكانت «اكولينا»، نزولا على رغبة القيصرة، هي التي قامت بمراسم تنظيف جثة الأب، بعد اغتياله وتشويه جسده، وإلباسه ملابسه وسائر ما يجب للميت تمهيدا لدفنه..

-٣-

كل هاتيك النساء، وبما فيهن الغراندوقات «انسطاسيا» و«ماليتسا» وآنا فيروبوفا، والأمير «دولغو روكايا» ومدام «بيستولكور» وفتاة أخرى غريبة

الأطوار شاحبة الوجه اسمها «ماشا»، هاتيك النسوة جميعا هن اللواتي كن يؤلفن النواة لما كان يسمى «بلاط النبي».

وكن يأتين، كل يوم، إلى شقة سكننا محملات باللفائف والسلال المليئة بالهدايا وبما لذ وطاب من الأكال وصنوف الحلوى والخمر واللطائف.. ويجلسن في حجرة الطعام حيث يحرصن دائما أن يكون «السموفار» الكبير مليئا بالماء الساخن ليستطعن أن يقدمن إلى «الأب» أكواب الشاي كلما أتاحت له مقابلاته بعض لحظات الراحة والفراغ.

وكانت «آنا فيروبوفا» كلما منعتها شواغلها أن تجيء إلى شقتنا، تتصل هاتفيا مرتين في اليوم، مرة باسم القيصرة ومرة باسمها هي شخصيا.

وكانت الغرفة الخاصة بـ «الأب» وهي في الوقت نفسه غرفة عمله ومكتبه، تؤدي إلى حجرة الطعام. وكان «الأب» ينام فوق سرير صغير ضيق. وفي «بروكوفسكويه» كان ينام دائما على الأرض كما تفعل أمنا. والسرير الضيق المذكور كان هبة لـ «آنا» من صاحبي الجلالة القيصر والقيصرة، وقد رأت أن تقدمه للأب صديق صاحبي الجلالة لكي يتخذه لنومه، إذ كان من غير السائغ اللائق أن ينام على الأرض مباشرة.

وقد كان الأب، رجل أخلاق وروحانيات في الدرجة الأولى- إلا أنه كان قويا، شديد الألواح، عظيم المنة والبأس، وقد بلغ من العمر أشده.. وما كان ليكون رجلا لو لم يقع، تحت سحر الغواية، في غرام بعضهن. وهو الذي كان يحيط به ويكتنفه أبدا هذا «البلاط» من المعجبات الفاتنات.. ولكنني أستطيع أن أؤكد أن شيئا من هذا..لم يقع قط..في البيت..

وكنا نحن، ابنتيه، نعود من المدرسة لتناول طعام الغداء الذي كانت تعده نسوة ذلك البلاط الأنيق، العطر، وكان «الأب» لا يتناول غير السمك، والبيض

والفاكهة، والخبز الأسمر، وفي بعض المناسبات كان يرحب بكأس خمر، إلا أنه كان يشرب مقادير هائلة من الشاي.

وإذا كنت أصر، هنا، على ذكر عاداته الشخصية فما ذلك إلا بغية أن أدحض تبجحات وأكاذيب قاتل والدي الأمير «فليكس يوسوبوف» الذي كان يدعي أن «الأب» تناول الحلوى المسمومة في الليلة التي اغتاله فيها هو وأشياعه..

وكان «الأب» يبدأ نهاره مبكرا جدا، فينهض في الساعة السادسة، ويحضر قداسا صباحيا، ثم يتناول فطورا دسما وسخيا فيما أقرأ أنا له فصلا من التوراة.وعلى الرغم من أنه كان قد تعلم القراءة إذ ذاك.. فإنه لم يصبح أبدا قارئا سريعا.. وبعد هذا كان يستقبل الوافدين الجالسين منهم في غرفة الاستقبال.

وفي الساعة العاشرة كان يتلقى المحادثة الهاتفية المعتادة يوميا مع (تزار سكويه سيلو) مقر القيصر وأسرته، ثم يرتاح بضع دقائق، يتناول بيضة مسلوقة، ويشرب الشاي مع أفراد بلاطه من النساء، ويعود من ثم إلى مقابلاته.

وفي الثانية بعد الظهر كان ينهي تلك المقابلات، ويشارك في تناول طعام الغداء ثم يذهب إلى الحمامات التركية. فقد كان الحمام التركي هو شهوته الوحيدة.. ولم يكن ليمضي يوم واحد على الطريقة التركية، ويعقب ذلك عملية فرك وتدليك سريعة ثم الماء البارد من الرشاش.

-٤-

كان النمامون يشيعون عن «الأب» أنه كان رجلا قذرا تتراكم الأوساخ على جسده. وليس ثمة ما هو أشد بهتانا من هذه الإشاعات والأقاويل. والصحيح أن

«الأب» لم تكن لتأخذه رحمة في كل ما يتعلق بنظافة الجسد. وكان يرى أن صحة الإنسان تتوقف على نظافته.

ودليل على ذلك أن «الفراندوقتين» الرقيقتين «انساطسيا» و« ماليتزا» وهما كريمتا ملك، ما كانتا لتضفيا عليه حمايتهما» وما كانتا لتتيحا له الدخول في أشد الأوساط الرفيعة المغلقة دون أكثر الناس لو لم يكن «الأب» متصفا بنظافة دقيقة صارمة.

ثم يجب أن لا ننسى أن صاحبي الجلالة القيصرية قد ارتضياه صديقا ! وأنه كان من المقربين جدا إلى القصر، وكان «الأب» يتناول عشاءه على مائدة القيصر، وكان يحتضن ولي العهد أو يجلس على سريره، وبالطبع فإن القيصرة، وهي امبراطورة روسيا كلها وحفيدة الملكة فكتوريا ملكة الانكليز، ما كان لها على التأكيد، أن تسمح بوجود إنسان قذر تشمئز منه النفوس إلى جانبها.

كان الأب، بعد عودته من الحمام التركي، يغير ملابسه. وقد استمر يرتدي طراز زي الفلاحين، غير أن ملابسه أصبحت تفصل من أقمشة أقل خشونة وأكثر جودة ونفاسة.

وكان بعد أن يفرغ من ارتداء ملابسه ينطلق إلى دار صديق أو قصر آخر من أصدقائه: حيث يشرب الشاي، ويتناول طعام العشاء من بعد، ويشارك في نقاش حول الأمور الدينية، وكانت هذه الاجتماعات ذات أثر بالغ في العاصمة وكانت أنباؤها سرعان ما تنتشر، ذلك أن وجود «الأب» في هاتيك الاجتماعات ومشاركته في المناقشات التي تدور فيها كانت مما يصبو إليه الكثيرون.

وكان «الأب»، مرات عديدة في الأسبوع، يقضي عصر اليوم في « تسادكويه سولو» مع «آنافيروبوفا» ثم لا تلبث القيصرة أن توافيهما، وعندئذ تجري مناقشات قوية ذلك أن «الكسندرا» القيصرة كانت على صلة عميقة بجميع

القضايا الدينية.

وذات يوم جعلت القيصرة تتشكى من حالة ولدها الصحية. وكانت صحته في الواقع، قد تحسنت، غير أنه لم يكن قد نال الشفاء النهائي رغم عميق إيمان القيصرة وصلواتها الكثيرة، وهتفت تقول:

-لقد سبرت غور قلبي ونفسي، أيها الأب المقدس، ولكني لم أستطع أن أجد الخطأ الذي يحدث كل هذا الألم وكل هذا العذاب لولدي المسكين البريء. فلماذا يشيح الله عني بوجهه في حين أقوم على خدمته بكل صدق نية وطوية؟

عندئذ رفع الأب إصبعه الضخم الأسمر وربت به على ظاهر يد القيصرة وغاص بنظره في عينيها الاثنتين ثم قال:

-إننا نخدم الله بصورة أفضل إذا قمنا على خدمة أبنائه البشر. فهل فعلت كل ما يدخل في وسعك أن تفعليه لخدمة شعبك؟ وماذا ترى قد حدث لأقرباء القيصر والدنا ولشقيقه ولعمه الوحيد الذي بقي له؟ ألم ينفوا من وطنهم الذي يحبونه بناء على إصرارك وإلحاحك أيتها الأم الصغيرة؟

وعلى الأثر ظهرت في وجه القيصرة الجميل بقع النمش الصغيرة الحمراء البشعة التي تشوهها كلما غلبت على أمرها أو تملكها الغضب. وقد اعتدلت قليلا في جلستها، ثم تهاوى جسدها على الأريكة وراحت تقول:

-إنك تحدثني عن أولئك الناس! لقد أساؤوا إلى اللياقة والكرامة إذ تزوجوا نساء مطلقات رغم أوامر صاحب الجلالة القيصر. ويجب أن ينالوا العقاب على معصيتهم وسلوكهم الشائن.

-٥-

غير أن «الأب» أجاب القيصرة بهدوء:

–وهل خصك الله بانتقامه أيتها الأم الصغيرة؟ إنه وحده هو الذي يعاقب العصاة والمذنبين من عباده. واذكري أيتها الأم، أن الله قال: «اصفح واغتفر سبعا وسبعين مرة.. وإذا لم تكن رحيما فـ..

غير أن القيصرة قاطعته قائلة:

إن الرحمة تعني أنه يجب أن نحسن إلى الفقراء ونساعد المصابين، ولكنها لا تعني أن علينا أن نغفر للخطاة الآبقين، وعلى الأخص إذا كانوا من عائلتنا.

وكان وجه القيصرة قد اشتعل احمرارا، وصوتها ارتعش من الغضب. وعندئذ نهض «الأب علامة على انتهاء الحديث.. وكان هو وحده، في الامبراطورية جميعا، الذي يجرؤ أن يبيح لنفسه أن يفعل ذلك: لقد فعل ما يفعله القيصر وما يفعله الملوك المتوجون حين ينهضون معلنين بذلك انتهاء المقابلة أو الحديث مع الآخرين.

وعاد الأب إلى بيته، وبعد قليل سمعنا رنين الهاتف، وكانت المتكلمة هي «آنا فيروبوفا» غير أننا، نزولا على أوامر الأب، أجبناها أننا لا ندري أين هو. واستمرت «آنا» تتصل بنا هاتفيا طيلة الليلة كلها على أمل أن تجد الأب... وكانت جلالة القيصرة قد اضطربت أشد الاضطراب بسبب العبارات التي سمعتها منه، وكان هذا هو ما قالته «آنا». وقد طلبت منا أن نخبره بأن عليه، فور عودته إلى البيت «أن يذهب إلى القصر» ولكن الأب لم يلب هذا الطلب إلا في ساعة متأخرة جدا من الغداة، وبعد أن ألحت «آنا» في ضرورة حضوره مرارا كثيرة.

وكان القيصر نفسه هو الذي تلقاه، وصافحه بحرارة وقال له:

– شكرا لك، أيها الصديق، شكرا. إن جلالة القيصرة هي التي تقدر لك صراحتك وتشددك.. وإننا لسعداء كل السعادة أن نجد واحدا مثلك... لا يشق ثياب الكهنوت لكي يجري في أذيال ثياب الملوك... واحدا يفعل ما يرى أنه يجب أن يفعله حتى لو كانت أعماله التي تصدر عنه ستجر عليه ذهاب الحظوة أو النفي..

وقد ابتهج «الأب» كثيرا بكلمات القيصر هذه.

والواقع فإنه على الرغم من امتنان القيصر للعون الذي قدمه الأب برعاية ولي العهد والعمل على شفائه من أمراضه فقد ظل على نقيض القيصرة، بعيدا عن أن يتخذ من الأب مستشارا أو موضعا لسره...

وقد أحدثت كلمات الأب أثرها، وآتت أكلها. فلم تمض أيام حتى عفا القيصر عن شقيقه الغراندوق «ميشل» وزوجته، فظهرا في «سانت سبورغ» واتخذاها مقرا لهما، ثم لم تلبث العلاقة القديمة بين الأخوين أن عادت إلى ما كانت عليه من قوة وعمق. وقد يحسن هنا أن أقول أن الغراندوق ميشيل قد قتله الشيوعيون بعد الثورة البلشفية..

وكان ميشيل فيما سبق أكثر أعضاء الأسرة القيصرية شعبية، وكان ضباطه ورجاله يعبدونه، ولما عفا عنه القيصر عاد على رأس فرقته العسكرية التي احتفت به احتفاء عظيما بلغ حد الهذيان.

ومع ذلك فما أندر ما كان الغراندوق وزوجته يذهبان إلى القصر، وفي حدود علمي فإنهما لم يستقبلا في البلاط إلا في مناسبات قليلة نادرة هي اجتماعات العائلة المالكة التي لم يكن ثمة مناص من حضورها.

ونزولا على إرادة «الأب» كذلك فقد عاد إلى روسيا من المنفى عم القيصر الغراندوق «بول» وزوجته الأدنى منه نسبا الكونتيسة «هوهانفيلسن»

وقد خلع القيصر على الكونتيسة لقب «الأميرة بالي» وهو لقب قديم وذو شرف رفيع. وشيد الزوجان لهما قصرا بديعا فأقاما فيه مع أولادهما الثلاثة، ثم سرعان ما أصبحا من أفضل وأقرب الأصدقاء إلى «الأب»

إلا أن القيصرة لم تستقبل أحدا من أولئك المنفيين العائدين إلى وطنهم الاستقبال الحسن المرجو. كانت لا تزال حاقدة ناقمة، وكانت ترى أنها ذهبت بعيدا جدا بالموافقة على عودتهم، ولذلك فإن الموجدة التي كانت تنطوي عليها ضدهم لم ينقص منها شيء قط. وفيما عدا الغراندوق «بول» عم القيصر، فقد كان العائدون من المنفى جميعا يجهلون أنهم مدينون للأب بعودتهم.. وكانت آنافيروبوفا هي التي أعلمت بذلك الغراندوق «بول»، غير أنها كانت من كراهة الآخرين ومقتها إياهم بحيث لم تبح لهم بكلمة واحدة. وبالطبع فلم يكن واردا على الإطلاق أن يعلمهم «الأب» نفسه بذلك...

ولا بد أن أذكر هنا أنه تحت تأثير الامبراطورة الوالدة انضم إلى أعداء الأب كل من الغراندوقين: «نيكولا» و«بطرس» وكان موقفهما العدائي هذا يثير غضبي أنا، إلا أنه كان يضحك الأب فيقول:

-إنهم أناس طيبون. وهم لو كانوا يدركون ما هم مدينون به إلي لأخذهم الارتباك وإنه ليضحكني أن أراهم يعنفون بي وينطوون على الغيرة من الصداقة التي يولينى إياها صاحبا الجلالة القيصر والقيصرة...

كان صاحب الغبطة «هيرموجين» أسقف «سارتور» شخصية كبيرة مرموقة، وقد كان هذا الأسقف مرحا باستمرار، ضاحك السن أبدا. إلا أنه كان إلى هذا رجل كنيسة عظيم الطموح. وكان يحب «الأب» وتسره صحبته.وكان يجله

باعتباره من رجال الله، ولكنه عاد فانطوى له على حقد قاتل عندما لم يستطع أن يقنعه أو يرغمه على إطاعته في بذل نفوذه لدى القيصر فيما يتعلق بالشؤون المالية للكنيسة وكان هذا الأسقف نفسه هو الذي، بتوجيهات اللجنة المركزية للاتحاد الحق للشعب الروسي، عرض مبلغ خمسمئة ألف روبل على «الأب» لكي يترك اللجنة المذكورة ويغادر «سانبيترسبورغ» ولا يعود إليها قط، ولا يحاول على الإطلاق أن يتصل بالقيصر والقيصرة.

ولتوضيح ذلك أقول أن «الأب» في عمله مع هذه اللجنة استطاع أن ينفذ إلى أسرار كثيرة منها بيع الأراضي التي تخص الكنيسة، وسوء استعمال الأموال والممتلكات الكنسية، وكل ما كان يرتكب من تزوير وفساد حول تعيينات رجال الكنيسة الأرثوذكسية..

وقد كان المبلغ الذي عرض على «الأب» جسيما، غير أن المال لم يكن ليعني شيئا في عين الأب.. ولذلك فقد رمى بالمبلغ الكبير في أكثر ما يسعه من احتقار وازدراء. وعندئذ أخذت الضغوط في أعنف صورها الممكنة تتوالى عليه إلى حد التآمر على قتله.

-٧-

وقد دعي «الأب» ليشترك في اجتماع للجنة المركزية عقد في قصر الاسقف وكان قد اجتمع ثمة نحو من اثني عشر عضوا من أرفع رجال الكنيسة منزلة ومعهم بالطبع، الاسقف «هيرموجين» وفي حجرة خلفية بعيدة عن حجرات القصر وغرفه وقاعاته انقضوا فجأة على «الأب المقدس» وقد شمروا عن سواعدهم وراحوا ينهالون عليه ضربا وركلا وسبا ولعنا..

وقد دافع عن نفسه ما وسعه ذلك غير أنه كان وحيدا وكان أعداؤه من الكثرة بحيث استطاعوا أن يبطحوه ويواصلوا ضربه بوحشية خارقة، وقد أمروه

أن يغادر المدينة من توه، وأن يقطع علاقته بأسرة القيصر ويستقيل من اللجنة، ثم عرضوا عليه مرة ثانية مبلغ الخمسمئة ألف روبل، وهددوا بضروب من العقاب الرهيب الذي يمكن أن يصل إلى حد القتل إذا هو لم يخضع لما يريدونه..

غير أن الأب المقدس.. استطاع أن يصل إلى الشارع وينادي حوذيا دون أن يحس بعنف الضرب الذي تلقاه.. ولحسن الحظ فإن «آنافيروبوفا» كانت عندنا في البيت عندما عاد الأب وآثار الضرب المبرح والدماء ظاهرة عليه. وعلى الرغم من تمنعه واحتجاجه فقد أبت «آنا» إلا أن تستدعي له طبيبها الخاص الذي غسل جروح «الأب» وضمدها، ثم اضطر أن يقطب له جرحا غائرا في جبينه أحدثه صليب الأسقف.. وقد ظل أثر هذا الجرح ظاهرا حتى آخر أيام حياته.

وكان الأب لا يريد أن يصل الحادث إلى علم صاحبي الجلالة لكي لا تقلق القيصرة أو تضطرب غير أن «آنا» أخبرتهما بما حدث للأب بصورة مفصلة، ولم يلبث القيصر أن اهتم بالأمر كل الاهتمام، وأمر بإجراء التحقيق الذي أسفر عن إبعاد الأسقف «هيرموجين» إلى ابرشية صغيرة في أقاصي «سيبيريا» كما أبعد غيره إلى ناحية أخرى من سيبيريا، ونال الآخرون جزاء ما فعلت أيديهم عقوبات مختلفة.

وفي أثناء هذه السنة نفسها ١٩١٢-١٩١٣ حل بالأب شقاء آخر. فقد اندلعت نار الحرب في البلقان، وهي حرب بدأتها ضد تركيا: بلغاريا، والصرب، ومونتينيغرو، واليونان.

وقد كانت الغراندوقتان«انسطاسيا» و«ماليتسا» كريمتي ملك «مونتنيغرو» تريدان هما وزوجاهما الغراندوقان «نيكولا» و«بطرس» أن تلقي روسيا بنفسها في أتون هذه الحرب كائنا ما كان الأمر. ولم يكن أحد ليتوقع أن حرب البلقان سنة١٩١٢ستفضي إلى قيام الحرب العالمية الأولى.

وكان القيصر على وشك إعلان الحرب على تركيا بتأثير ضغوط مستمرة ملحة من قبل العسكريين، وأسرته ورجال السياسةالذين كانوا جميعا يأملون أن يستوثقوا من وضع «الدردنيل» تحت المراقبة. وهو حلم قديم شد ما داعب خيالهم.وكان الاب المقدس.. يمقت الحرب بكل قلبه، وكل عصب من كيانه، ومن أعماق نفسه وفكره.. ولم تكن الحرب في نظره غير مذبحة وحشية لا تغتفر إلا إذا كانت ضرورة الدفاع في وجه المغتصبين هي التي تدعو إليها.

ودون أن يسأله أحد رأيه فإن الأب خف إلى القصر وطلب أن يقابل القيصر، وما أن سمح له بذلك حتى دخل الأب، في الموضوع مباشرة.

ومن عادته أنه كان يرفع عقيرته عندما يدخل في نقاش أثير لديه، بل كان صوته يعلو ويرتفع حتى ليغدو دويا. وفي تلك اللحظة جعل يروح ويجيء في مكتب القيصربخطوات واسعة وهو يضرب راحة يده اليسرى بقبضة يده اليمنى، وهو يلقي بالأسباب التي تدعوه أن يعارض في دخول روسيا الحرب...

-٨-

كان الأب يصر قائلا للقيصر:

-إن الحرب إساءة بالغة نحو الله. وهي نكال لشعبه! إنها مذبحة للأبرياء في سبيل مصلحة عظماء هذا العالم، إن الناس العقلاء ينبغي أن يسووا خلافاتهم بطريقة مسيحية ولن يكون في الحرب غالب، ولكن يكسب منها الأفراد. إن روسيا لم تنفض يديها من حرب مدمرة إلا منذ قليل. ولقد وصل رفاه الشعب وازدهاره الآن إلى أعلى قمة عرفها التاريخ فلا تدمر ما أمكن أن يكسبه جدك بالعناء، ولم يؤت أكله إلا منذ وقت قريب انس هذا الهول المفزع وأعلن بجرأة أنه لن يكون ثمة دخول في حرب. ولقد جاء في وصايا الله قوله: «لا تقتل» فحاذر وأطع أمر الله وإلا عرضت عرشك للضياع. إن الحرب تأتي بالثورة دائما.

وعلت شفتي القيصر ابتسامة خفيفة، وأصغى للأب بانتباه ورقة تعبير على ملامحه. وبعد برهة نهض ومد له يده وقال:

سأضع براهينك موضع التقدير والاعتبار، وسأفصح عن قراري في هذا الموضوع عندما أنتهي من بحثه. والآن فهل ترى أن تذهب وترى الكسيس ولي العهد؟ لقد طلب أن يراك. وبعد ثلاثة أيام من هذا الاجتماع بين القيصر والأب ظهرت صحف الصباح معلنة أن القيصر قد أعلم «الدوما» -البرلمان- أن روسيا لن تتدخل في حرب البلقان.

ولما انتهى هذا النبأ إلى علم الغراندوق نيكولا كاد يختنق من السخط والغضب. وعلى حين غرة اقتحم علينا حجرة الطعام وراح يشتم الأب.. وكان شعره الأشيب ولحيته البديعة ووجهه الجليل تكسبه ملامح زعيم.

وعلى الرغم من الإعجاب الذي كنت أحمله له، فقد كنت أخشاه قليلا. ولم يكن هذا هو موقف الأب الذي حاول أن يشرح له الموضوع، كما فعل أمام القيصر غير أن الغراندوق راح يصيح ويسب ويلعن دون أن يصغي لما يقوله الأب، وفي النهاية اضطر الأب وقد تملكه الغضب هو الآخر من موقف الغراندوق الذي لا يليق برجل مسيحي، أن يبادله صياحا بصياح.

وبادرت أمي، وقد ذعرت أيما ذعر فذهبت بي إلى غرفة الأب وتركت الباب مواربا... وكان الغراندوق لا ينفك يصرخ ويزأر قائلا للأب وهو يخاطبه باسمه المجرد:- يا غريغوار ايفموفيتش لست أكثر من خنزيرا إنك ناكر قذر للجميل، وبدوني وبدون الغراندوقة«انسطاسيا» لما كنت شيئا مذكورا، لما كنت غير راهب حقير شريد طريد... إنني أنا الذي حمل إليك الثروة والنفوذ والشهرة. إن «انسطاسيا» توسلت راكعة أمام القيصر لكي يستقبلك. وبماذا كافأتني أيها الخنزير؟ كافأتني بأن حرمتني أن أنهي حياتي كجندي نهاية مجد وفخار بتأثيرك

على القيصر أن لا يعلن الحرب... أجل... هكذا كانت مكافأتك لي!

ومن الباب الموارب رأيت الأب يتهاوى على الكرسي أمام المنضدة، ثم جلس الغراندوق في مقابلته. وقال الأب:

-إننا جميعا نذكر فضلك. إن آل راسبوتين جميعا يعرفون جميلك يا غراندوق بكل تواضع، إن حياة متفانية بأسرها لا يمكن أن تكافئك أنت والغراندوقة انسطاسيا لما طوقتما به عنق راسبوتين الذي أنقذتما حياته.. غير أنك تطلب مني أن أسير في الاتجاه الذي يناقض أخص معتقداتي وأعزها على نفسي، وأن أتجاهل وصايا الله الذي قال: «لا تقتل». وإنك لتسألني أن أعصي الله!»

-٩-

بذل الغراندوق «نيكولا» جهدا واضحا لكي يضبط نفسه ثم أجاب قائلا بصوت أكثر هدوءا:

-أنا الابن الأصغر للقيصر نيكولا الأول، وكان اسكندر الثاني أخي، واسكندر الثالث ابن عمي، والآن أنا عم القيصر الحالي. فمن يهمه أكثر مني مستقبل روسيا وسمعتها؟ لقد كانت تركيا عدوتنا دائما، وقد أبت علينا مدخلا إلى البحر الأبيض المتوسط ومنه إلى سائر المياه الدافئة. وتركيا ليست أمة مسيحية، إنها أمة كفار عصاة غير مؤمنين يكرهها الله، وقد كان في إمكاننا أن نخرج ظافرين من حرب القرم لو لم تنضم إلى تركيا انكلترا وفرنسا ضدنا، وكان أبي هو الذي يقود الجيوش الروسية التي حلت بها الهزيمة يومئذ. وهكذا فإن شرفه ظل إلى اليوم بلا انتقام له...

ثم قفز الغراندوق واقفا على قدميه وصاح بصوت مثقل بالانفعال:

-إنني سأنتقم لتلك الهزيمة، وسأرد المارقين إلى الدين... هذا ما كان يريده الشعب الروسي دائما، وسأكون أنا الذي ينتقم له وعلى يدي يكون خلاصه...

ونهض الاب بدوره وقال بهدوء: وتصبح قيصره. أليس كذلك؟ إن هذا هو ما تريده: أن تصبح بطلا شعبيا، وتخلع قيصرنا وقيصرتنا، وتغدو امبراطورا، لأنك تدرك أن الحرب تحمل الثورة دائما في أطوائها، وتحدث الانقلابات.

فقال الغراندوق نيكولا:

القيصرة مجنونة، ويجب أن تحبس في دير. والقيصر يحبها حبا مبرحا. إن روسيا بحاجة إلى زعيم وإلى سيد.

وأجابه الأب حاسما مقاطعا:

-ولن يكون هذا بمعاونتي أنا. إنني أحب أبانا القيصر وأمنا القيصرة، أحبهما ما دمت على قيد الحياة.

وقاطعه الغراندوق ملمحا:

-تماما.. تماما.. ما دمت على قيد الحياة.. وقد لا يكون هذا طويلا.. إن غراندوقا مثلي لا يقبل الإهانة من فلاح مثلك.

ثم خرج صاخبا مرغيا مزبدا من بيتنا.

وأقبل علينا الأب في غرفته، وجعلنا هو وأمي وأنا نبكي وننتحب طويلا.. كان الأب في الواقع قد أحب الغراندوق نيكولا حبا عميقا، وكان الغراندوق يستقبله دائما بالبشاشة والمرح وبقبلة مدوية على الخدين. وكنا أمي وأنا نحب زوجته الغراندوقة انسطاسيا وننزلها من قلبينا منزلة عزيزة.. وكان هذا كله لا

يكاد يترك لنا مجال التغلب على ألمنا.

وبعد هذا بقليل جرت أول محاولة لاغتيال الأب! كان عائدا من قداس الصباح وقد اتخذ الطريق الذي اعتاد سلوكه دائما في مثل ذلك الوقت وسمع خلفه عربة يعدو بها خيلها بسرعة جنونية، وما كاد يلقي بنظرة سريعة من فوق كتفه حتى كان الحوذي قد أرخى أعنة الخيل لتدهم الأب، ولم يجد متسعا من الوقت لأكثر من أن يلقي بنفسه على باب كبير في الطريق من الأبواب التي تدخلها العربات وكادت الخيل والعربة الثقيلة أن تدهمه وتطويه تحت عجلاتها. وقد خرج من هذه المكيدة بقطعة سلخت من رأسه ومعها بعض شعره، وربما حدثت له هذه الإصابة بضربة من حذوة حصان، أو من الحافة الحديدية لإحدى العجلات...

ولما علمنا بما وقع له وبأنه قد نجا سالما معافى قلنا إنها إحدى المعجزات الربانية، غير أن الأب ابتسم وأجاب قائلا:

-لقد كانت هذه أفضل مناسبة رائعة لموتي. إذ كنت ساعتئذ قد حاولت قربان الرب وأصبحت في حالة النعمة الإلهية التي يحلو معها الموت...

-١٠-

كان ولي العهد، وهو في العاشرة من عمره إذ ذاك، يصحب والده القيصر إلى رحلات الصيد، عندما لا تكون الرحلات شاقة أو مجهدة. وفي أثناء إحدى هذه الرحلات سقط الطفل عن جواده وأصيب بجرح بالغ في عانته. وكان هذا أول حادث يفعله منذ سنتين ونتج عن الجرح دمل متقيح. وكان الطبيب الدكتور«بودكين» لا يفارق القيصر أبدا، وقد استنجد بكبار الأطباء المختصين من الألمان والبولونيين فلم يستطيعوا أن يفعلوا شيئا ووقفوا عاجزين حيال هذه الإصابة المروعة. وارتفعت حمى الطفل، وغاب عن وعيه، وبقي في غيبوبة تامة

ثلاثة أيام متوالية وكان الجميع يتوقعون موته في لحظة أو أخرى.

وكنا نحن في «بوكروفسكويي» وهي قريتنا بسيبيريا. وقد وصلت برقية القيصرة إلينا متأخرة. وجاءت في البرقية هذه الكلمات فقط: «الأطباء عاجزون يائسون، صلواتك وحدها هي مناط أملنا»

قرأت البرقية للأب، فطلب أن أصحبه إلى غرفة الاستقبال حيث تهيمن ايقونات المسيح والعذراء وصور القديسين. وكان ثمة مصباح صغير، وهو من هدايا القيصر والقيصرة، دائم الاشتعال أمام هاتيك الصور والايقونات المقدسة.

وقد كتب لي أن أشاهد ثمة منظرا مروعا بلغ من رهبته في نفسي أنني لا أذكره إلى اليوم، ألا ويقشعر بدني وتنتابني رعدة باردة تسري في بدني كله. وقد قال لي «الأب»

- ماريا، يا حمامتي، سأحاول الآن أن أقوم بأصعب الشعائر وأشدها خفاء.. وينبغي أن أهجع فيها، فلا تخافي ولا تدعي أحدا يدخل، وإذا ما فقدت وعيي فأرسلي «ديمتري» إلى دائرة البريد لكي يرسل بالبرقية التالية إلى صاحبي الجلالة: «لقد سمع الله دعاءكما، وسينجو ولدكما ويظل على قيد الحياة»، ثم تنفس الأب عميقا وقال: «في وسعك أن تبقى إذا أردت، ولكن لا تكلميني ولا تلمسيني، ولا تأتي بأية حركة. عليك بالصلاة فقط»

ثم خر على ركبتيه أمام الايقونة وشرع يتلو صلاة الشفاء ويقول:

- إذا كانت هذه إرادتك يا الله فدعني آخذ عن ابنك الكسيس ولي عهد القيصر أوجاعه وآلامه. وهبه قوتي يارب، لكي ينال بها الشفاء.

وقد بدا على «الأب» ما لم أعهده فيه قبلا من غرابة الأطوار، وتراءى لي

أنه مريض واهن شديد الإعياء حتى تملكني الخوف، فوضعت راحة يدي تحت ذقني وضغطت بشدة لكي تصطك أسناني، وغدا مستحيلا أن أركز تفكيري في الصلاة.

وأخذ صوت «الأب» يضعف، واضطر أن يكف عن النطق، وغدا وجهه أبيض كقطعة من الثلج، ثم تغضن وتلوى وتعوج وتشوه تحت تأثير ما يعاني من ألم، وغداتنفسه لهاثا متقطعا، وتقطر العرق من جبهته وسال على خديه، وأضحت عيناه كقطعتي زجاج جامدتين لا تريان شيئا. ثم انقلب على ظهره فوق الأرض. وبقيت ساقه اليسرى منطوية تحته، وبدا كأنه يتخبط فيما يشبه احتضارا رهيبا مخوفا. وألقي في روعي أنه سيموت فورا، غير أنني تحاملت على نفسي وذهبت إلى المطبخ وطلبت من ديمتري أن يذهب إلى دائرة البريد لإرسال البرقية، ثم حضرت الشاي وحملته إلى «الأب» وكان ما يزال فاقدا وعيه، وجثوت إلى جانبه وحاولت أن أصلي.

وبعد مرور وقت طويل فتح عينيه وابتسم.

-١١-

قدمت للأب الشاي وكان قد ابترد، فشربه بنهم. وما هي إلا أن عاد إلى حالته الطبيعية، وقد أبى أن يذكر شيئا عن كل ما وقع واكتفى بأن يقول:

- إن الله هو الذي أذن بشفاء الطفل وبعد سنتين من هذا كتب لي أن أرى الأب مرة أخرى وهو يستفيق من غيبوبة تشبه الموت كادت تودي بحياته، وفي هذه المرة أيضا لم أستطع أن أنفذ إلى ذلك السر الخفي الرهيب...

وفيما بعد شرح لي «بادامبير»، وهو عطار وخبير بالأعشاب من « التبت»، كيف أن «اللما » في زمانه كانوا يأخذون في صميم أبدانهم أدواء،

المرضى الذين يقومون على علاجهم. وكانت أجسامهم القوية المتينة تتغلب على الداء مهما يكن، وكان هذا يتيح للمرضى أن يدخلوا دور النقاهة ويستعيدوا عافيتهم.

على الرغم من تحذير الأب فقد أعلن القيصر الحرب على ألمانيا. وقد ضاقت عائلة القيصر ذرعا بإنذاراته وتحذيراته المتتالية فلم يعد القيصر يستدعيه إلى القصر.

وقد ظل «الأب» في أثناء خريف سنة ١٩١٤ ملتزما جانب الصمت، غارقا في تأملاته، محزونا، واهن النفس، ذلك أن العواطف العارمة التي أثارها إعلان الحرب، والمشاهد الحماسية الملتهبة التي تبدت بها الجيوش الروسية المنطلقة لخوض غمرات القتال، ومرأى الرايات والأعلام وهي تتقدم الجيوش أثرت كلها في «الأب» وأفقدته الأمل وثبطت عزيمته وأوهنت قواه... وكان يعلم أن القليلين هم الذين سيعودون أحياء من كل أولئك الذاهبين إلى الحرب. غير أن الملتفين حوله من المريدين القدماء ازداد عددهم بوجود وجوه جديدة بينهم، وقد ظلوا جميعا أوفياء له، وبلغ عدد المراجعين وطالبي مقابلته من الكثرة بحيث اضطر الأب أن يستخدم اثنين من الموظفين..

ولما سمح للأب، أخيرا، بدخول القصر، استقبله القيصر بمثل الحرارة التي كان يستقبل بها في السابق، ثم أجلسه إلى منضدة انتشرت عليها شتى الخرائط والوثائق وهتف يقول له:

– أيها الأب المقدس! لقد أتيت في الوقت المناسب لكي تشاهد معي أمرا عظيما، فقد حققت جيوشنا نصرا عظيما، ففي «غاليسيا» غدونا ننتقل من ظفر إلى ظفر، ولقد احتللنا «برودي» و«باش» و«تارنوبول» و«برزيذاني» و«جاروسلو». واستولينا على «لمبرغ» وآبار بترولها العظيمة وقد كانت هذه

الآبار تزود ألمانيا بالبترول. أفلا تهنئني أيها «الأب»؟

ولكن الأب ابتسم بأسى، ثم قال:

- ما هي خسائرنا في الرجال من قتلى وجرحى، وأسرى؟ وكأنما أزال هذا السؤال سكرة القيصر:

- كانت خسائرنا فادحة، فادحة جدا، ولكن.. غير أن وجهه عاد فاستضاء من جديد وراح يقول:

- لقد عاني النمساويون مما هو أشد وأنكى، ففي «راوويا روسكا» فقط أفنينا منهم مئتي ألف رجل وأسرنا مئة وعشرين ألفا.

وأجابه «الأب» قائلا:

- إنهم جميعا أبناء الله. إن أرقامك التي ذكرتها لا تملأ قلبي سرورا أيها الأب الصغير، فمتى سيوضع حد لهذا الخنق العظيم ولهذه المذبحة المروعة؟ نحن اليوم في قمة مجدنا، وعما قريب ستدور الريح على غير ما نحب.

-١٢-

ابتسم القيصر ابتسامة المتسامح وقال:

- لا شك في أنك استمعت إلى تلك الأحاديث التي يدلي بها ذلك الجبان «ويت» ولكن يحسن أن تعلم أن كل شيء يجري وفقا لخططنا. ولذلك وبعد أن وثقنا من النصر العظيم، فإننا شرعنا أنا و«بوليولوغ» في وضع مشروعات خاصة تتعلق بالتعويضات التي سيكون على الأعداء أن يقدموها لنا، فاسمع، أو على الأصح دعني أبين لك.. ونشر القيصر نيكولا خرائطه وأوراقه وراح يضع

بقلم من رصاص، خطوطا ويرسم صلبانا صغيرة.. وكانت عيناه تتألقان حماسة في وجهه الملتهب احمرارا.. وطفق يقول:

– لقد وعدنا إيطاليا أن نعطيها «فالونا» مكافأة لها على دخول الحرب وسنقتطع من النمسا حتى نحصرها في حدود «اليترول» الألماني و«سالزبورغ» فقط. أما أراضي بولونيا التي كانت ألمانيا قد وضعت يدها عليها فستصبح لنا، وكذلك بروسيا الشرقية، وستنال فرنسا الالزاس واللورين، ويجب أن نعطيها أيضا جميع الأقاليم الألمانية الأخرى، وستكون هناك تعديلات أخرى غير هذه...

وكان الأب قد استشاط غضبا ولم يستطع أن يكبح جماح سخطه أكثر مما فعل فقاطع القيصر قائلا:

– إنك تبيع جلد الدب قبل أن تقتله، أيها الأب الصغير!

وقال القيصر:

– علنا أن نقبض عليه ونسحقه. إن الله معنا!

ونهض وراح يذرع الحجرة، وهو لا ينفك يضرب راحة يده اليسرى بقبضة يده اليمنى على عادته في مثل هذه المواقف الشديدة الحرج. ثم صرخ بصوت هادر:

– لا تحدثني عن الله! إن روسيا دخلت هذه الحرب ضد مشيئتها! والويل لمن لا يريدون أن يروا هذا. هذه الحرب ليست حربا مقدسة. إنها حرب تجارية، أشعلت نارها على أمل اجتلاب المنافع والمكاسب. وكلماتك نفسها أثبتت لي ذلك. وأنت تعرف حدودنا وإمكاناتنا فليس ثمة من ذخيرة، والبنادق قليلة، وما من أطباء، وجنودنا غير مدربين... وإن إرسال رجال من غير سلاح إلى القتال يشكل جريمة قتل. قتل أبنائك! أنت والدنا، وقيصرنا، وإن الاستمرار في هذه الحرب المخيفة

سيؤدي إلى دمارنا، ودمارك أنت، ودمار روسيا كلها. وإني لعلى علم بهذا كله، بقدرة الله! وأمسك الأب قليلا، ثم عاد يقول:

- أصغ إلي، أيها الأب الصغير، إن الأقوياء قد انتفخوا غرورا وكبرياء. وإن اليوم الذي ينزل فيه غضب الله كأنه وميض الرعد قريب. إن المسيح لا يستطيع أن يتحمل صراخ الظلم الذي يرتفع إليه من هذه الأرض الروسية. وأنا أمينا لك بأن انتقام الرب سيكون رهيبا. وإني لأتوسل إليك باسمه أن لا تواصل هذه الحرب وأن لا تعرض مستقبل روسيا لأخطار لا يعلمها إلا الله.

وعندما أنهى الأب كلامه ظل القيصر جالسا، وقد أضحى وجهه كقطعة من مرمر وخوت عيناه وتجمدت أطرافه وبدا كأنه عاد لا يفقه شيئا..

بعد هذا تجافى صاحبا الجلالة عن الأب. غير أن «آنا فيروبوفا» ظلت تتصل بنا هاتفيا كل صباح وتزورنا عدة مرات في الأسبوع. وكنا نتناول طعام العشاء أسبوعيا معها، ولا شك في أنها كانت تنقل أحاديثنا كلها إلى القيصرة.

وكان الأب لا ينفك أبدا يحدثها عن ضرورة إنهاء الحرب وإحلال السلام، وإذا لم يكن ذلك ممكنا فيجب الحصول على أسلحة فعالة لمواصلة القتال. وعندما ساءت الأوضاع العسكرية قرر القيصر أن يعفي عمه الغراندوق نيكولا من منصبه ويحتل مكانه رئيسا للعمليات الحربية. وهكذا تبوأت القيصرة كرسي القيصر على رأس الحكومة.

-١٣-

عينت القيصرة حاكم «نيجني نوفغورود» السابق- الكسيس خروستوف- وزيرا للداخلية. وكان «الأب» يكره خروستوف، فامتنع عن العودة إلى القصر حين عدنا من سيبيريا. وكان الأب يجهل أن وزير الداخلية كان يبادله الكراهية

مثة ضعفها، كما كان يخشى جانبه أيضا.. فحاول أن يغتاله خشية أن يميط الأب اللثام عن أعماله الإجرامية أمام عيني القيصرة وقد استعمل لذلك قاتلا مأجورا اسمه «بوريس رزيتسكي»، غير أن امرأته وشت به. وكان لهذا القاتل المأجور سوابق قضائية كثيرة فألقي في غياهب السجن على ذمة إدانة سابقة. وعندئذ قرر «خروستوف» أن يقضي على الأب عن طريق بعض أعوانه، فدعا الأب لتناول العشاء على مائدته، وكان بيته منزويا عن الأنظار لوقوعه في شارع هادئ تظلله الأشجار.

وكان المتفق عليه أن يقوم القتلة بمهاجمة الأب في لحظة خروجه من بيت «خروستوف». وبعد أن يقتلوه فإن عليهم أن يلقوا بجثته في نهر«نيفا» غير أن غريزة الأب نبهته إلى الخطر الذي سيعرض له فلم يذهب إلى مكان تلك الدعوة.

ولكن خروستوف لم يتوان، عن اصطناع وسيلة أخرى لقتل الأب، فرشا «كوميساروف»، وهو رجل بوليس قديم ومن هيئة حرس الأب لكي يدس له السم في النبيذ، غير أن هذا الرجل لم يجد نبيذا بسبب حظره في تلك الأيام فدس لنا السم في الحليب! وقبل أن تقدم الطاهية «كاتيا» فطور الصباح قدمت لقطط البيت بعض هذا الحليب، وقبل أن يتاح لنا الوقت الكافي لشرب الحليب نفقت القطط جميعا بفعل السم. وهكذا أنقذت حياة خمسة أشخاص هم: الأب و«فارفارا» و«كاتيا» و«دونيا» وأنا..

وكانت المؤامرات المدبرة لخلع القيصرة من الكثرة بحيث لا أستطيع تعدادها. ومن هذه المؤامرات كان تدبير القبض عليها لدى قيامها بالتفتيش في مقر القيادة العامة، ثم حبسها في أحد الأديرة أو نفيها إلى «ليفادا» حتى نهاية الحرب. وبناء على هذا كان القيصر سيرغم على النزول عن العرش.

فلم يكن إذن مما يبعث على الدهشة أن يشعر القيصر والقيصرة، أنهما

أصبحا منعزلين منبوذين.. وقد بدا لهما أن «الأب» هو الرجل الوحيد الذي يستطيعان أن يتجها إليه في تمام الثقة... وقد أطلقا عليه منذ ذلك اليوم لقب «الصديق» وازدادت مودتهما له في شهر كانون الأول من سنة ١٩١٥ عندما وقع لولي العهد حادث جديد..

-١٤-

كان الطفل ولي العهد في القطار الذي يقل والده نحو أركان حربه. وكان مطلا يتطلع من النافذة. وعلى حين غرة استعمل السائق كوابح القطار لأمر ما، فارتج ولي العهد، ثم ارتطم بأحد الأعمدة الحديدية التي يستعين بها الركاب على الصعود إلى القطار، فجرح في أنفه، وتبع ذلك نزيف دموي حاد. وقد اتصل القيصر هاتفيا من إحدى المحطات بالقيصرة لينبئها بما حدث ويهيئها لما هو أسوأ. واستدعت القيصرة الأب هاتفيا على الفور. وقد سمعت رنين الهاتف المتواصل في بيتنا حوالي الساعة الواحدة بعد منتصف الليل. وقالت له القيصرة عبر أسلاك الهاتف:

- يجب أن تنقذه أيها الأب المقدس، إني أرجوك، بل أتوسل إليك، لقد أنقذت حياته في مرتين سابقتين، فأنقذه مرة أخرى.

وجثا الأب أمام الايقونات والصور المقدسة وصلى طويلا وبحرارة عظيمة.

وبعد مرور وقت خيل إلينا أنه لا نهاية له خرج الأب من غرفته وهو يترنح، وكان شاحب الوجه، غائر العينين وكأنه صورة معبرة للموت نفسه. ومد يده فتناول سماعة الهاتف، فقد كان الخط مفتوحا بيننا وبين القيصرة باستمرار كما أنها هي نفسها لم تترك السماعة لحظة واحدة، وقال الأب:

- سيعيش ولدك!

وقد اضطررنا إلى مساندته قبل أن يقع على الأرض، لأنه كان قد أغمي عليه.

وعندما وصل القطار مع ضحى ذلك النهار كانت الحمى التي انتابت ولي العهد قد زايلته، وعاد إلى القلب خفقانه الطبيعي، واسترجع الطفل وعيه وفارقته غيبوبته..

وقد أعلن الأطباء وأعلن القيصر نفسه أن التحسن الذي طرأ على صحة ولي العهد بدأ يتضح في نحو الساعة الواحدة والنصف بعد منتصف الليلة السابقة.. أي اللحظة التي شرع الأب فيها يصلي..

وفي عيد الفصح سنة ١٩١٦ ألقى الأب في نفوسنا الذعر الشديد... وكنا، مع أسرة القيصر، قد استمعنا إلى القداس، وكان «الأب» معنا، وكذلك فرفارا، وآنا فيروبوفا، وفيما كانت جماعتنا تمر أمام الكنيسة المفضلة عند القيصرة أرسل الأب فجأة صيحة مكتومة، وهرب الدم من وجهه، وأطبق أجفانه، ثم انزلق إلى أمام كأنما قد أغمي عليه»... فهرعنا إليه جازعات، ونحن نصرخ ونصيح، ثم ساعدناه على النهوض. وبعد انقضاء بضع ثوان همس قائلا:

- لا تخفن يا حماماتي.. لقد تكشفت لي الرؤيا، بكل بساطة، عن مشهد رهيب..فقد رأيت جثتي ممددة في هذه الكنيسة نفسها، وأحسست-في مدى دقيقة واحدة- إحساسا ملموسا بالاحتضار وكأنني في النزع الأخير فصلين من أجلي..ويا ما أشد لحظة الاحتضار هذه التي عانيتها! أجل. صلين لأجلي، أيتها الصديقات، فقد دنت ساعتي..

إلى هنا ينتهي ما كتبته ماريا عن والدها الراهب المخيف راسبوتين. إنها صورة من خلال مشاعر الابنة. فهل هي الحقيقة نفسها أم أن ثمة وجها آخر للحقيقة؟ ثم كيف قتل ذلك الراهب ولاقى حتفه بصورة مروعة؟ هذا ما ستروبه هذه المسلسلة في حلقات قصيرة ابتداء من غد.

يذكر الأمير «فيلكس يوسوبوف» قاتل راسبوتين، في مذكراته، رحلة له إلى الولايات المتحدة في سنوات الثلاثين من هذا القرن. ولأسباب مختلفة فإنه يبدو أن الأمير لا يحتفظ، من هذه الرحلة بذكرى جلية واضحة، غير أنه لا يزال يذكر بصورة خاصة، تلك الصدمة المؤلمة التي أحدثتها في نفسه نساء أمريكا بفضولهن الجامح نحوه.

ومن أمثلة ما تعرض له أن سيدة أميركية هرعت إلى زوجته الأميرة «ايرينا» وألحت كل الإلحاح أن تغرس رأس أصبعها المدبب في ركبتها.. وقالت الأميركية تعتذر عن عملها هذا:«إنني فعلت ما فعلت لأنه لم تتح لي قط، في السابق، أية فرصة للاقتراب من أميرة وصاحبة سمو حقيقية من لحم وعظم».

وفي مرة أخرى وجد الأمير يوسوبوف وزوجته في حفلة استقبال كبيرة من حفلات المجتمع في نيويورك وقد ضاق الأمير بفضول المدعوين وتجمعهم حوله وحول زوجته وتوجيه نظراتهم الشديدة إليهما فتهيأ للانصراف هربا من هذا الإزعاج عندما خيل للسيدة الأميركية صاحبة الدعوة أنها تستطيع أن تسوي الأمور بتقديم الأمير وزوجته إلى حشد المدعوين والمدعوات بصوت رنان فقالت وقد رفعت عقيرتها: «أقدم لكم الأمير والأميرة راسبوتين..»

وكانت هذه زلة كبرى وخطأ فاحشا. وكيف يمكن أن يكون الأمير يوسوبوف هو راسبوتين نفسه؟ ولكن من ترى يستطيع أن يذكر يوسوبوف دون أن يذكر راسبوتين؟ إن ارتفاع منزلة راسبوتين بصورة لا يكاد يصدقها العقل لا يمكن أن تكون منفصلة، في الذهن عن نهايته المفجعة وعن الشخص الذي صنع هذه النهاية.

وفي هذه الأسابيع الأخيرة مرت خمسون عاما على ارتباط اسمي راسبوتين والأمير يوسوبوف ارتباطا وثيقا ودخولهما التاريخ معا، كما كان يحدث أيام السفن الشراعية حيث كان يربط القاتل والقتيل معا بحبل شديد ويلقيان إلى قاع البحر.

كان راسبوتين فلاحا غليظا، أميا، غير مثقف، وسكيرا عربيدا داعرا، وقد تزوج فلاحة مثله من قريته «بروكوسكوبي» فولدت له: ثلاث بنات. وكان الأمير يوسوبوف خارق الجمال كما يمكن أن يكون في النادر جمال رجل. وكان يصغر راسبوتين باثنين وعشرين عاما، وقد بلغ ذروة المجد عندما تزوج إحدى الغراندوقات فجعل منه هذا الزواج صهرا للقيصر.

وقد قيل إن راسبوتين كان راهبا داعرا. ربما كان الصحيح أنه داعر، ولكنه لم يكن راهبا بالمعنى المفهوم في هذه الكلمة، وربما كان لقبه هو «خادم الله»... أو المتزهد التائه. وقد كتب القصصي الروسي العظيم يصف هذا النوع من خدام الله فقال: إنه رجل يمتص روحك ونفسك وإرادتك. إنك تتخلى عن آرائك بين يديه بطاعة مطلقة واختيار تام، وأنت إذ تعمل ذلك إنما تريد أن تصل إلى طاعة عميقة تقود خطاك إلى كمال الطمأنينة والسلام إلى خالص الحرية والصحة والعافية».

وقد كان ضعف القيصر. وكانت طيرة القيصرة وإيمانها بالخرافات. كانت هذه كلها هي التي جعلتهما يتخليان عن إرادتهما ويضعان مصيرهما بين يدي فلاح سيبيريا الخبيث الماكر...

-١٦-

ترك راسبوتين أسرته وانطلق زاعما أنه إنما يستجيب لنداء الله، فراح يجوب

أنحاء بلاده روسيا سنة بعد سنة، وينتقل من دير إلى دير ومن صومعة إلى صومعة وهو لا ينفك يحفظ التوراة والأناجيل عن ظهر قلب، ويصطنع مواهبه في الاستهواء والتنويم المغناطيسي وشفاء الأمراض. وكان راسبوتين ذكيا، عارفا بأسرار النفس البشرية، وكان محدثا، وراوية، ومستطلعا للغيب، وصانع معجزات.. وباختصار الكلمة كان يملك كل ما يؤهله لينال إعجاب بلاط القيصر الذي كان يعج يومئذ بالدجالين والأدعياء والمشعوذين وأذكياء المحتالين الذين بوسعهم أن يبلغوا مآربهم ويستغلوا غفلة الامبراطور وزوجته الامبراطورة!

وقد انقضت أعوام طوال ما أكثرهم توالت خلالها الشكايات، وضروب التذمر والنقد والتجريح على راسبوتين، غير أن القيصر والقيصرة لم يصغيا لشيء من هذا كله اعتقادا منهما إلى أن الحسد البغيض هو الباعث، كما قد تكون الدسائس السياسية هي الباعث أيضا.

وكان نصيب كل الذين تعرضوا لراسبوتين وأرادوا أن يقاوموه أو يصدوه ويقفوا في وجه نفوذه العظيم في بلاط الامبراطور كان نصيبهم النفي، والتشريد والتنكيل، أجل لقد حطم مناوئيه جميعا دون رحمة ولم يستثن من ذلك حتى أعضاء أسرة القيصر..

كان بيت راسبوتين لا يخلو إطلاقا من حشود الوافدين صباح مساء. وكان رجال البوليس يقفون على بابه ويسجلون بدقة أسماء الوافدين والوافدات، وبصورة خاصة النساء، الكثرة الكاثرة من النساء، منهن العواهر والبغايا.. ومنهن الممثلات والراقصات.. وبينهن كذلك الكثيرات من نساء المجتمع ممن كان هو يأتي بهن، أو يأتين من تلقاء أنفسهن لكي يأخذن عنه أسباب العلم من «دين راسبوتين» الذي كان ينعي على البدن شهواته ونزواته.. أو كن يأتين ليبذلن له أنفسهن و يذقنه المتعة كما يشبعن نهمهن مما كان يبذله لهن.. وأعجب، بعد هذا

لتناقضه وادعائه الفضيلة، وهو الشهوي الشبق الداعر الفاجر..

وكان من الوافدين عليه، كذلك أصحاب المطالب والتوسلات والوساطات. كانوا سيلا من الخلق. من الأصاغر والأكابر على حد سواء...وكان راسبوتين يتبدى سخيا كريما حيياً، هازئا ساخرا حينا آخر.. وكان شيطانا يعرف كيف يبتز من الأثرياء ليعطي الفقراء والمعوزين ليذلوا له ويكونوا من «محاسيبه»... وكان الكثيرون يخرجون من حضرته... فإذا هذا قد نال ترقية إلى رتبة أعلى في الجيش، وذاك تقدم غيره في سلك القضاء، وثالث غدا وزيرا، وتلك غدت خادمة في قصر الخ،

كان الهاتف في ممكنه يعمل دائما وفي كل يوم وكل ساعة ولا يكون الاتصال إلا مع قصر الامبراطور، وإذا كان في قريته يقضي فترة رياضة روحية... كان البرق يقوم مقام الهاتف.. وكانت الرياضة الروحية ذريعة يتخذها عندما يكون مهددا بفضيحة ما أو عندما يكون في حالة حرد على «البابا» و «الماما» وهما القيصر والقيصرة...

وكانت «الماما» بصورة خاصة هي التي لا تطيق بعاد الصديق الكبير الذي هو راسبوتين.. أما القيصر فقد كان يبدو مذعنا، راضخا، قابلا للأمر الواقع..

-١٧-

وإنصافا لراسبوتين نقول أنه عارض معارضة شديدة في دخول روسيا الحرب العالمية الأولى. وقد ناشد القيصر أن لا ينساق مع دعاة الحرب، وأنذره بالمحن والويلات، ولكن معارضته لم تنفع. والكل يعرف ما حدث بعد ذلك. ففي سنة ١٩١٦، أي بعد مضي سنتين على اشتعال نار تلك الحرب المدمرة المميتة، استطاعت الجيوش الروسية أن تنقض على «بروسيا» وعلى «النمسا» ثلاث مرات، وثلاث مرات ارتدت عن مواقعها، ومع ذلك فقد كانت البلاغات تشيد

بالنصر المؤزر فيعقبها ما يشبه الهذيان من الحماسة والبهجة.. وكانت خسائر روسيا في سنة ١٩١٤ ثلاثمئة ألف قتيل، وفي سنة ١٩١٥ كان عدد القتلى والجرحى مليوني جندي ومليونا وثلاثمئة ألف أسير، وفي سنة ١٩١٦ فقدت روسيا مليوني رجل أيضا.

في هذه الفترة الحرجة من تاريخ روسيا التقى الطريقان: طريق راسبوتين وطريق الأمير فيلكس يوسوبوف، وقرر يوسوبوف أن يقهر تحدي راسبوتين، أن يمرغ أنف ذلك الفلاح الغليظ الماجن الداعر الذي مكنته جرأته ووقاحته أن يقف موقف المعارضة في دخول الحرب والإنذار بالويل والثبور وعظائم الأمور..

وتظاهر الأمير يوسوبوف أنه بحاجة إلى مواهب راسبوتين في الشفاء.. فدخل في زمرة مريديه، وأصبح مقربا من الرجل التقي الورع.. وصبر على تحمل تلك الجلسات الطويلة التي كان يحس في أثنائها أن راسبوتين يريد أن يستولي على إرادته ويذيب روحه بنظرات عينيه الزرقاوين الرهيبتين.. ولكنه كان قد قرر اغتياله، وقبل أن يساعده في ذلك: الغراندوق ديمتري، و«بوريشكيفتش» والكابتن «سوخوتين» والطبيب «لازوفير».

وذات ليلة دعاه الأمير يوسوبوف إلى قصره، وكان يجذبه إلى ذلك القصر وجود الأميرة «إيرينا» الجميلة زوجة يوسوبوف.. وشرب راسبوتين كثيرا وتناول الحلوى مع النبيذ، وكانت هذه الحلوى وكان النبيذ مسمومين.. ولاح ليوسوبوف أن السم لم يفعل فعله في راسبوتين فطار صوابه واعتزم أن يلجأ في القضاء عليه إلى العنف، فتناول مسدسه وأطلق عليه رصاصة في القلب مباشرة، فتهاوى راسبوتين على السجادة المفروشة، وراح المتآمرون يهنئ بعضهم بعضا، وصعد يوسوبوف إلى الطابق العلوي، وبقيت جثة راسبوتين متروكة حيث هي.. وانقضى بعض الوقت، وعاد الأمير يوسوبوف فهبط إلى الطابق السفلي.. وما كاد يلقي نظرة سريعة على الجثة الكبيرة المسجاة حتى انتفض جسمه كله، لقد أخذت الجثة

تتحرك، ثم نهضت واقفة، وهجمت عليه وتناولته من مخنقه.. ثم حاولت أن تهرب، ففتحت باب الحديقة على الرغم من أنه كان مغلقا بالمفتاح، وراحت الجثة تترنح، وتلهث، ثم انطلقت تعدو وهي تصرخ وتصيح..

-١٨-

وجعل الأمير «يوسوبوف» يصيح ويطلب النجدة، وهرع «بوريشكيفتش» فلحق بالجثة وعاجلها برصاصة في الرأس.. وكان يوسوبوف قد جن جنونه فأخذ يضرب الجثة بقدميه ولما تعب تناول عصا غليظة وانهال بها على الجثة.. وتجمع زملاؤه المتآمرون وفيما كانوا يرفعون الجثة لإلقائها في نهر«نيفا» تطرح يوسوبوف على أرض القبو تحت القصر وراح في سبات عميق..

مرت جريمة قتل راسبوتين بهدوء، ولم ينل الجناة أي عقاب صارم، فقد أرسل الفراندوق «ديمتري» إلى الجبهة الفارسية، ونفي الأمير يوسوبوف إلى أملاكه في القرم. أجل لقد كان الذين قتلوا راسبوتين من علو المنزلة بحيث لم يستطع من بيدهم الأمر أن يذهبوا في العقاب إلى أبعد من هذا.

أما من الناحية السياسية فقد قضي الأمر، وكأنما كان مقتل راسبوتين احتجاجا صامتا ولكنه بليغ. حتى الأوساط الأكثر تعلقا بالتقاليد وبالقيصر لم يعودوا يعترفون بالسلطة العليا. ورسخ الاعتقاد العميق في جميع الأوساط بأن راسبوتين كان يضاجع القيصرة حقا.

والعجيب أن جماهير الشعب اعتقدت، بكل بساطة، أن طبقة النبلاء قد قضت على الفلاح الوحيد الذي استطاع أن يكون مقربا من القيصر... إلا أن راسبوتين لو قدر له أن يعيش أكثر مما عاش لكان هذا الشعب الجاهل نفسه هو الذي قضى عليه- والأعجب من هذا أن يكون راسبوتين قد قتل بيد رجل ما كان شيء في حياته السابقة وفيما بعد ذلك يشير إلى أنه سيقوم بعمل رهيب

كهذا...

وإلى اليوم، بل إلى تاريخ نشر هذه الحلقة الأخيرة من سلسلة راسبوتين، فإن الأمير فيلكس يوسوبوف لا يزال على قيد الحياة، ولكنه يعيش في شبه عزلة وقد أدركته الشيخوخة وحطت عليه الأمراض. إنه اليوم في «باريس» التي اتخذ منها مقرا لمنفاه.

ومنذ مقتل راسبوتين وإلى هذه الأيام أخرجت عشرات الأفلام السينمائية التي تروي حياته وتصور قصة مقتله. ويعد اليوم المخرج والممثل السينمائي الفرنسي الشهير فيلما جديدا عن حياة راسبوتين.

والجدير بالذكر أن الأمير يوسوبوف أقام بعض القضايا ضد بعض الذين حاولوا أن يشوهوا حقيقة مقتل راسبوتين، وفي كل مرة كان يوسوبوف يربح هذه القضايا.

وفي أحيان أخرى كانت الشركات السينمائية تتخذ منه مستشارا فنيا، ويعود الفضل إليه إذ استطاع الممثلون أن يمثلوا أدوارهم في الأفلام أو المسرحيات بصورة أفضل وأقرب إلى الحقيقة، وبصورة خاصة ما فعله يوسوبوف في ليلة السابع عشر من كانون الأول سنة ١٩١٦ وهي الليلة التي قتل فيها راسبوتين وما أنكر الأمير يوسوبوف جريمته أبدا. وهو يجد مبررا لجريمته ليس على المستوى السياسي وحسب، بل على المستوى الإنساني نفسه وهو يقول أنه بقتله راسبوتين قد خلص نفس هذا الراهب المتزهد من القوى الشيطانية التي استحوذت عليه.. ويقول أيضا أن روح ذلك الراهب قد هدأت وذاقت طعم السكينة، ولذلك فهي لا تنفك تسهر عليه وتحميه منذ خمسين عاما حتى هذه الأيام.. ويقول كذلك: لقد شفيت ذلك الراهب... وأنا فخور بذلك..

جواسيس في خدمة الكرملين

-١-

انضم الرجل ذو «الكسكيت» الرياضي إلى ذلك الحشد من الناس الذين كانوا يتفحصون اللوحة الكبيرة التي تشير إلى مواعيد وصول القطارات في محطة «واترلو» بلندن. ولم تمض لحظات حتى أعلن مكبر الصوت ما كان ذلك الرجل يبحث عنه:

– إن القطار الآتي من «ساليسبوري» والمنتظر وصوله في الساعة الثانية والدقيقة الخامسة عشرة سيتأخر ثلاثين دقيقة أخرى، فيدخل رصيف المحطة في الساعة الثانية والدقيقة الخامسة والأربعين.

فاستدار الرجل عندئذ، ثم اتجه نحو شاب قوي الملامح يضع على رأسه قبعة مستطيلة الشكل ويستند إلى ستمسينة أمام مدخل الرصيف رقم ١٤.

وهكذا فإن ما أذاعه مكبر الصوت وصل إلى أسماع خمسة عشر شخصا كانوا يتظاهرون باللامبالاة، غير أن حواسهم جميعا كانت متيقظة وتترصد كل حركة ونأمة، وإن كانوا متفرقين، فيما يبدو وقد اختلطوا بجمهرة المسافرين بعد ظهر ذلك اليوم الكئيب، وهو يوم السبت السابع من شهر كانون الثاني سنة ١٩٦١.

ولما علم أولئك اللندنيون، الذين جاؤوا لاستقبال أصدقائهم أو أقاربهم، تأخر

القطار عن موعده أذعنوا للأمر الواقع، وعبروا عن إذعانهم بنفس طويل خافت أرسلوه من صدورهم.

ولكن أولئك الأشخاص - الخمسة عشر- اهتاجت أعصابهم قليلا لنبأ تأخر القطار.. ذلك أن العملية التي كانت على وشك الكشف عن أخطر شبكة تجسس منظمة على مستوى عال: قد قدر لها أن تتأخر هي أيضاً نصف ساعة بتمامها..

وفي الواقع كان أولئك الأشخاص من رجال المخابرات الذين يقومون بمهمة الكشف عن عمليات التجسس وقد أتوا ليشاركوا، في ضوضاء المحطة وصخبها، في الفصل الأخير من ملاحقة قضية تجسس كبرى دامت أكثر من عشرة أشهر..

وكان كل من أولئك الرجال قد احتل مكانا استراتيجيا على أرصفة المحطة وفي قاعاتها الواسعة، ومداخلها المتعددة لكي يستقبلوا، كما يجب أن يكون الاستقبال، اثنين من المسافرين تائهين بين خمسمئة مسافر يقلهم ذلك القطار المنطلق نحو مدينة لندن آتيا من «ساليسبوري»..

وقد انتشر نبأ تأخر القطار من شخص قريب إلى آخر غير بعيد: فالرجل ذو «الكسكيت» الرياضي همس به لزميله الذي يعتمر القبعة المستطيلة، وهذا نقله، بدوره إلى بائع صحف عند المدخل الرئيسي المؤدي إلى شارع «واترلو» وقام هذا بدوره فوصل الخبر إلى شخص آخر من أولئك العمال. ثم تأدى النبأ أخيرا إلى مفتش التحري والاستخبارات ذي الشعر الأشيب الذي كان يدير حركة المطاردة، وهو يدخن غليونه في سيارة واقفة قباله الـ«أولد فيك»، وهو مسرح شكسبير الشهير في لندن.

غير أن مفتش «سكوتلاند يارد» هذا لم تطرف له عين. فإن تأخر القطار لم يأخذه على غرة من أمره.. بل راح يتساءل هو ورجاله من الحيلة التي سيلجأ إليها الشخصان المشبوهان المقبلان مع القطار المتأخر عن موعده.

-٢-

دخل القطار المحطة في الساعة الثانية والدقيقة الخامسة والأربعين، وفيه الشخصان المنتظران، يتبعهما اثنان من رجال الاستخبارات لم يفارقاهما قط منذ بدء رحلتهما...

كان الشخصان المذكوران موظفين محترمين من المدنيين في البحرية، وهما يعملان في شؤون الدراسات السرية في قاعدة «بورتلاند» البحرية على بحر المانش...

وكانت هذه الحركات والنشاطات الغريبة لهذين الشخصين هي سبب تنظيم عملية استقبالهما على هذه الصورة في محطة «واترلو»، وقد جاءا إلى لندن ليقضيا فيها، خفية، إجازة نهاية الأسبوع.. وهما رجل وآنسة، أما الرجل فيدعى «هاري هوغتون»، وأما الآنسة فتدعى «إيثل غي» وقد هبطا على رصيف المحطة دون أن يساورهما أي شك في الفخ الذي نصب لهما...

وقد قاما فور وصولهما بما يقوم به عادة أي اثنين في الدنيا بعد رحلة طويلة شاقة، فذهبت الآنسة «غي» لتقضي حاجة.. في منافع المحطة، واشترى «هوغتون» صحيفة يومية راح يطالع عناوينها في انتظار رفيقته «غي»، ولما عادت إلى قاعة المحطة خرجا معا صاعدين السلم المؤدي إلى طريق «واترلو» وفي إثرهما رجلا الاستخبارات اللذان تبعاهما منذ ابتداء رحلتهما..

وعلى الفور ترك بائع الجرائد زبائنه فجأة، وعلق الرجل الذي يعتمر القبعة المستطيلة شمسيته في ذراعه، وراح الرجل الذي يضع «الكاسكيت» الرياضي يسير متمهلا أمام الشخصين المشبوهين.. أما سائر الرجال، الخمسة عشر، فقد تأهبوا للعمل.

وعلى حين غرة وقعت المفاجأة المذهلة، ذلك أن «هوغتون» و«غي» اللذين لم ينحرف سلوكهما قيد أنملة واحدة خلال الأشهر العشرة التي كان يقتفي أثرهما خلالها.. قد اختلف موقفهما فجأة.. فربما قد أحسا بالخطر، وربما أرادا أن يتخذا إجراء احتياطيا إضافيا بصورة مرتجلة، بل ربما رغبا فقط في أن يقتلا الوقت في انتظار الساعة المتفق عليها للقائهما وجها لوجه مع: الخيانة..

وعلى أي حال فقد كان الذي قاما به فورا ودون سابق إنذار أنهما اندفعا بقوة إلى السيارة العامة التي تسير على الخط رقم(٦٨) والتي أخذت تتحرك بهدوء من مكان وقوفها قبالة المحطة، ولم يكن ثمة غير رجل واحد من الخمسة عشر رجلا.. فلو أخفق في ركوب السيارة العامة فإن الشخصين المشبوهين سيفلتان حتما من شبكة الملاحقة المضروبة حولهما.. وكان هذا الرجل رياضيا بارعا فقفز، بل كاد يطير، لكي يلحق بالسيارة التي بدأت تنطلق بسرعة متزايدة.. وقد أفلح فوثب إلى درجة الركوب في السيارة..

وهكذا بقي «هوغتون» والآنسة «غي» تحت حراسة عين يقظة.

وبعد انقضاء عشرين دقيقة هبطا من السيارة قريبا من سوق صغيرة صاخبة في الحي الواقع على طريق «وولورث» وراحا يتنقلان، دون هدف معين، بين الدكاكين والحوانيت، ولكن عين رجل «سكوتلانديارد» الوحيد كانت لا تنفك تتبعهما في ثقة واطمئنان إلى نجاح عملية القبض عليهما..

-٣-

وفي ميدان واترلو، كان قد انضم رجلا الاستخبارات اللذان رافقا «هوغتون» ورفيقته «غي» منذ ابتداء رحلتهما في القطار، إلى الأربعة عشر شخصا الآخرين، وقد أذهلهم جميعا ما قام به الشخصان المشبوهان من ركوبهما السيارة العامة فجأة وهي تتحرك لتنطلق في الخط الذي تسير عليه. ولم يجرؤا مع ذلك

على الابتعاد عن أماكنهم ليلحقوا بـ«هوغتون» و«غي» لأن المعلومات المعطاة لهم تقول أن البرهان القاطع الذي يفتقر إليه المسؤولون والذي يثبت اشتراك الشخصين المشبوهين في أكبر عملية تجسس: سيجدونه قرب المحطة لا في مكان غيره..

وفي هذه الأثناء كان المشبوهان يسيران في سوق الحي الذي نزلا فيه، وقد أنفقا خمسا وعشرين دقيقة وهما يُحاذيان ربات البيوت اللواتي كن يشترين ما هن في حاجة إليه من السوق المذكورة. وقد انحدرا على هذا النحو، حتى وصلا إلى «إيست ستريت» وتوقفا قليلا لكي يستمعا إلى هذر أحد الحمالين، ثم عادا إلى شارع «وولورث» ليركبا السيارة العامة، وكانت هي نفسها سيارة الخط (٦٨)فعادت بهما إلى حيث ركباها من قبل قرب المحطة، أي إلى المكان نفسه الذي دبر فيه أمر استقبالهما من قبل دوائر الاستخبارات المقاومة للتجسس..

هبطا من السيارة العامة إذن في ميدان واترلو، واجتازا الشارع في اتجاه مسرح شكسبير، وكانت الآنسة «غي» تحمل في ذراعها سلة من خيزران فتبدو كأنها تقوم بمشترياتها بكل بساطة ربة بيت نشيطة وحريصة على أن تقوم بمهمتها على وجه الدقة... غير أن هذه السلة كانت تخفي البراهين والأدلة القاطعة على تواطئها مع جاسوس روسي خطير...

في هذه الأثناء كان «جورج سميث» مفتش الاستخبارات الأشيب الشعر، ومنظم ومدير العملية كلها، يقف على الرصيف المقابل. حيث يراقب المشهد جميعه. وقد تملكه الشعور بأنه يقبض على الانتصار في هذه العملية الدقيقة بيديه الاثنتين.

وفي الواقع كان ثمة شخص آخر جديد. هو الممثل الثالث والأخير في المسرحية التي توشك أن يرفع عنها الستار.. كان هذا الشخص واقفا وكأنه قد

غرس غرسا أمام مسرح شكسبير.. إنه رجل أسمر اللون، قد التف بمعطفه القاتم، وقد حملته إلى هذا المكان سيارة.. دون أن يشعر بأن ثمة عيونا يقظة كانت لا تنفك ترقب حركاته وسكناته هو الآخر، في الوقت الذي كان فيه زميلاه المشبوهان يتجولان في سوق «وواورث».. لقد كان ينتظر أمام المسرح، ويتأمل الإعلانات التي تتحدث عن قرب عرض مسرحية «حلم ليلة صيف» لشكسبير، ولم يخالجه أي شك بأن رجال سكوتلاند يارد واقفون له بالمرصاد..

واقترب «هوغتون» والآنسة «غي» من الرجل، وتبادلا معه، في مرورهما، نظرة سريعة دون أن يتوقفا.. فسارع وتبعهما.. فبادر مفتش المخابرات وسار في إثرهم بدوره.. فتحرك رجاله في إثره.. وظل الموكب سائرا على هذه الصورة حتى قطع نحو خمسين مترا.. ثم غذ الرجل الذي يرتدي المعطف القاتم السير ليلحق بـ«هوغتون» والآنسة «غي».. ولم يكن هذا الرجل ذو المعطف سوى الجاسوس الروسي الخطير: «غوردون لونسدال»

-٤-

أبعد «غوردون لونسدال»، ذو المعطف القاتم، ذراعيه ومسك بكتفي «هوغتون والآنسة (غي) بحركة ودية.. فانبعثت منهما معا صيحة دهشة.. غير أن الرجل تقدم بأدب جم وتناول السلة من الآنسة «غي» كما يمكن أن يفعل رجل مؤدب شهم تأبى عليه شهامته أن يدع سيدة تحمل شيئا ما وهو موجود.. ثم توسط الاثنين وسار بينهما وهو يعلم تماما أن رزمتي أسرار الأميرالية البحرية البريطانية موجودتان في قاع تلك السلة البريئة المظهر.

وفي هذه الأثناء كان مفتش (سكوتلانديارد) قد قدر أن بينات الاشتراك في جريمة التجسس بين الأشخاص الثلاثة غدت كافية.. فحث خطاه، بدوره حتى تجاوز الأشخاص الثلاثة ثم استدار معترضا سبيلهم وقال لهم:

- لحظة من فضلكم.. إنني أوقفكم باسم القانون.. ولم يكد الأشخاص الثلاثة يثوبون من دهشتهم التي عقدت ألسنتهم حتى كان رجال مقاومة التجسس الآخرون قد أحاطوا بهم... وأقبلت إحدى سيارات سكوتلاند يارد- وكانت قبل هذا واقفة تنتظر في نقطة استراتيجية ملائمة- فوقفت قريبا منهم...

وبدا التضعضع على «هوغتون» والآنسة «غي» ولكن «لونسدال» عاش حياته منذ طويل في ظل رهبة مثل هذه اللحظة لم يضطرب ولم يوجل... وكان مفتش سكوتلانديارد قد دأب على عمله بصبر وأناة وإصرار عشرة شهور كاملة لكي يصل إلى هذه النتيجة، ولذلك كان يعرف أي واحد من هؤلاء الأشخاص الثلاثة هو الأكثر أهمية وخطرا.. فبادر إلى الإمساك بذراع «لونسدال» ودفع به إلى داخل سيارة البوليس، وقال له بلهجة ظافرة:

- بالنسبة لك أيها الفتى.. فإنني سأذهب بك إلى سكوتلانديارد.. أعني سنكون معا.

أما «هوغتون» و«غي» فقد دفعا إلى سيارة أخرى دون احتفال بأمرهما، وبعد ربع ساعة من هذه الحوادث كان المشبوهون الثلاثة قد أغلقت عليهم أبواب سجن سكوتلانديارد، ووضع كل منهم في غرفة منفصلة خاصة به..

وما هي إلا أن دخل المفتش سميث غرفة مع لونسدال الروسي، ثم اقتاده إلى أحدى غرف المكاتب وشرع يحادثه فورا. وقد كان يعرف كل شيء عنه دون أن يراه من قبل.. وقد جرى هذا الاجتماع الأول بينهما في حجرة مكتب تطل على نهر «التيمز»، وكان ما دار بينهما حوارا سريعا خاطفا أكثر منه حديثا.. وقد حذر المفتش سميث سجينه مما قد يقوله أو يفضي به، ثم راح يستجوبه عن هويته.. وما لبث لونسدال أن قدم له بكل سكينة وهدوء، جوابا لم يكف عن ترديده، من وقت لآخر، في المرات الكثيرة التي استجوب فيها فيما بعد.. إذ

صرح قائلا في منتهى الاطمئنان والارتياح:

- في وسعك أن توجه إلي جميع الأسئلة التي تريدها، وسأجيب دائما بـ«لا».. وإذن فليس في الأمر ما يدعو إلى أن تتعب نفسك.

-٥-

غير أن المفتش سميث استمر يوجه إلى لونسدال أسئلته بصبر لا مزيد عليه وهو يشير إلى الأوراق المالية التي كانت في جيوبه لدى تفتيشه:-

لماذا تحمل ١٢٥ جنيها استرلينيا من فئة خمسة الجنيهات، موضوعة في مغلف دون أن يكتب عليه عنوان ما؟

غير أن الجاسوس الروسي لزم الصمت المطبق، ولما كان أمام المفتش سميث كثير من العمل والمهام، فقد تركه وذهب ليستجوب «هوغتون» والانسة «غي» في غرفتين اخريين. وقد كان «هوغتون» وكيل ضابط في البحرية البريطانية، وكان المفروض، في ذلك اليوم، ان يتسلم من لونسدال مبلغاً قدره ١٢٥ جنيها استرلينيا، ولدى اول سؤال من المفتش سميث قال هوغتون عبارة ذات دلالة بعيدة والارجح انه قالها منساقا مع صدمة الانفعال عند القاء القبض عليه. هذه العبارة كانت قوله، «لقد كنت غبياً ولا ريب».. ثم سأل نفسه الى اي حد تراه قد تورط واتهم نفسه بهذه العبارة.. ثم حاول أن يتبين ذلك فقال:

- الا قل أيها المفتش.. هل كان «أليكس» يحمل معه مالا؟

وكان هوغتون يسير باسم أليكس الى لونسدال، والواقع انه زعم، فيما بعد انه عندما التقى لاول مرة بالجاسوس الروسي قدم هذا نفسه اليه باسم «الكسندر جونسون» ضابط مدرعة في البحرية الاميركية، ومرتبط بمكتب الملحق البحري

في سفارة الولايات المتحدة بلندن.

اما الانسة «غي» فقد اظهرت سذاجتها العجيبة منذ اللحظة التي تقدم فيها المفتش سميث لكي يستجوبها، فقد قالت:

- انا لم آت بسوء..

وقد وصف تصريحها هذا، فيما بعد، بانه مثير للدهشة العظيمة..

كل هذه المقابلات والاستجوابات لم تفد المفتش سميث شيئا ذا بال. الا انه لم يلبث ان انطلق دون ابطاء الى «رويسليب» في الضواحي اللندنية، يرافقه سميه المفتش الرئيس «فيرغسون سميث» والجندي النائب «ونتربوتوم» من قسم البوليس النسائي..

وقد كان المفتش سميث يعلم ان لونسدال، وقدغدا الان في مأمن داخل زنزانته، كان يتردد بانتظام على بيت في تلك البلدة من ضواحي لندن،، ولذلك اراد ان يقف على أسباب تلك الزيارات.. وبد ا له الوقت طويلا جدا وهو في السيارة التي تنهب الارض نهبا نحو «رويسليب» ومنها الى حي السكن الهادي، «غريتلي درايف».

ولما وصلت السيارة الى المكان المقصود اتضح ان الدار التي كان لونسدال يتردد عليها بصورة منتظمة ليست الا بيتا ريفيا منعزلا، اقيم وحده في طرف بعيد من الشارع ويحمل رقم (٤٥).

قرع المفتش سميث الباب وهو لا يدري ان في زوايا هذا البيت العادي البسيط وحناياه وممراته ومخابئه مجموعة هائلة من ادلة التجسس المادية المؤيدة.

-٦-

كان الذي فتح الباب هو «بيتر كروجر»، وهو صاحب مكتبة ميسور الحال يتمتع باحترام الجميع.. واقبلت، كذلك، زوجته «هيلين» الا انها بقيت صامتة الى ان سأل المفتش سميث عن اسماء الاشخاص الذين كانوا يترددون على هذا البيت لقضاء اجازة آخر الاسبوع.. عندئذ تكلمت هيلين وذكرت قائمة كبيرة من الاسماء لم يكن من بينها اسم «لونسدال».. فاستراب المفتش سميث بالامر، وأيقن انها تكذب، وان المصلحة تقضي بان يبحث عن كثب... وعندئذ انبأ المرأة وزوجها ان القبض سيلقى عليهما... وعلى الفورأتت هيلين بمعطف ارتدته على عجل، وتناولت حقيبة يدها، وقالت:

- احسب اننا سنتغيب مدة طويلة، فهل تأذن يا سيدي بأن احشو بالحطب موقد تسخين التدفئة المركزية؟ واجاب المفتش سميث قائلا بأدب.

- بالطبع يا سيدتي، فاني اسمح بذلك... ولكن دعيني اولا انظر في ما تحتويه حقيبة يدك هذه...

ولكن هيلين رفضت.. فاضطر المفتش، عندئذ، ان يضم قوته الى قوة الجندي النائب «ونتر بوتوم» لكي ينتزعا الحقيبة المصنوعة من الجلد الاسود من بين يدي صاحبتها..

وشرع المفتش يبحث في داخلها فاكتشف ما اثار اهتمامه، فقد كان الجيب الداخلي من الحقيبة يحتوي مغلف ابيض اللون لم يكتب عليه اي عنوان.. وفي داخله رسالة من ست صفحات باللغة الروسية، وزجاجة تصوير موجبة مطبوعة عليها ثلاث صور دقيقة جدا لا ترى بالعين المجردة، وورقة رموز سرية مكتوبة بالالة الكاتبة..

وما ان رأت السيدة هيلين ان المغلف قد فتح وبان ما في داخله حتى عادت لا تهتم بحشو الحطب في موقد تسخين التدفئة المركزية.. وسرعان ما اقتيد الزوجان- كروجر وهيلين- الى مركز البوليس في «هايس».. وكانت الساعة وقتئذ قد جاوزت السابعة مساء بقليل.

وقد أمر المفتش الرئيس «فيرغسون سميث» ان تفتح جميع الابواب لرجاله المختصين بالبحث والتنقيب.. وهم الذين سيكشفون ما لا يخطر على بال او خيال من ادوات التجسس وادلة الخيانة متراكمة بكثرة غريبة في هذا البيت الريفي الذي تصفه وكالات تأجير البيوت بانه ملائم ومريح.

وكان اول ما فعله الرجال المختصون انهم صوروا جميع حجرات البيت في ضوء «الماغنيزيوم»، وكان لا بد من مرور ساعة كاملة لاخذ هذه الصور الضرورية.

ثم كان اول ما لفت نظر المفتش الرئيس وانتباهه «قداحة» كبيرة الحجم نوعاً ما، وهي من القداحات التي تستعمل في البيوت، وكانت موضوعة في مكان ظاهر في غرفة الاستقبال..

وكان «فرغسون سميث» قد شاهد قداحة مماثلة في حقيبة اودعها لونسدال في البنك الذي يتعامل معه دون ان يدري ان البوليس قد فتش هذه الحقيبة خفية واطلع على ما في داخلها.

كانت القداحة، في الظاهر، نموذجا عاديا جداً من نماذج قداحات «رونسون» المعروفة، وكانت تشكل دائرة من خشب ملمّع قام في وسطها الجسم المعدني الذي تتكون منه القداحة الحقيقية، وضغط المفتش الرئيس على الراقصة فاشتعلت النار وتركها فانطفأت ثم اخذ يسحب على مهل، الجسم المعدني من قاعدته الخشبية حتى انفصلا دون صعوبة، وتتطلع الى داخل الجسم المعدني فلم يجد شيئا غير

عادي على الاطلاق..

ولكن الامر كان على خلاف ما بدا في الظاهر...

-٧-

وضع المفتش الرئيس القسم الالي من القداحة فوق المنضدة، وادخل خنصره في الكرة فلم يجد اية صعوبة في اخراج الانبوب المعدني، وبدلا من ان يجد، وراء الانبوب المعدني، قطعة ممتلئة من الخشب فقد لمح، عندئذ، ان الجزء الكروي من القداحة محفور ومجوف حتى غدا كأنه قوقعة تخفي مخبئاً عرضه اثناعشر سنتمترا... ووجد المفتش الرئيس في هذا المخبأ اوراقا مدسوسة تحتوي على خطة ارسال والساعات التي لا يكون فيها ارسال وبث واشارات النداء، كما كانت تحتوي ايضا على تعليمات باللغة الروسية، وغيرها كانت مخصصة للشفرة المتفق عليها.

***

بعد ان تم اكتشاف المفتش الرئيس لما في داخل القداحة اتجه انتباهه الى جهاز الراديو الفاخر الذي كان يحتل معظم عرض احد جدران قاعة الاستقبال، وقد اتصل بالجهاز سماعتان، كما كان ثمة سلك لدن يصل بين الراديو وجهاز تسجيل لتسجيل اتصالات الاستقبال. وكان ثمة محول يعطل بموجبه مكبر الصوت لكي لا تلتقط الاصوات الا عن طريق السماعتين اللتين توضعان فوق الاذن.

وكان في حوزة الجواسيس كذلك وسيلة اخرى للاتصال، وقد وجد رجال مقاومة التجسس البريطانيون الدلائل الاولى عليها في حجرة النوم: فقد شاهدوا، فعلا مجهراً وخمس صُفيحات زجاجية في علبة جميلة زرقاء، قرب خزانة علبة

افلام من قياس ٣٥ ملمتراً، وقد كانت هذه العلبة ملفوفة في رداء للبحر. كما وجدوا سلكاً كهربائيا طوله خمسة عشر متراً. وقد زود احد طرفيه بمصباح كهربائي، كما زود الطرف الاخر بـ «بريز» للتيار...

كان هذا المصباح المتنقل بريئاً في الظاهر، ويجد المرء اشباهاً له في الف بيت من بيوت السكان، الا ان رجال المباحث الانكليز استطاعوا به ان يهتدوا الى اهم اكتشاف بين اكتشافاتهم الغريبة جميعاً.

راح رجال مقاومة التجسس يتفحصون كتب المكتبة واحدا بعد الاخر، كانوا يتصفحون الكتاب الواحد ورقة ورقة، وينفضونه، ويدققون النظر في كل غلاف قبل ان يعهدوا به الى ذي خبرة اوسع واحذق.

***

وعلى حين غرة جاءهم برهان ساحق على شكل قطعة من (السيلوفان) طليت بمادة بيضاء وقد سقطت من نسخة توراة مطبوعة على ورق الارز الرقيق جدا.

ومن اول نظرة ادرك الخبراء سر هذه القطعة، فقد كانت هي وسيلة استخبارات التجسس الروسية المستعملة لتمويه الورق الحساس الضروري لاعداد الصور الفوتغرافية الدقيقة جدا التي لا تشاهد بالعين المجردة..

انهمك رجال مقاومة التجسس البريطانيون طيلة ليلتهم في ذلك البيت المضاء، وراحت البراهين والادلة التي تدين اصحاب هذا البيت تتكشف لهم ويتراكم بعضها فوق بعض. فماذا وجدوا ايضاً من مذهلات وسائل التجسس؟

-٨-

وجدوا احدى مناضد الليل الصغيرة التي توضع عند رأس السرير، ولما

فتحوها وقعت انظارهم على قارورة ويسكي مجزأة الى ثلاثة اقسام داخلية: القسم الاوسط كان مليئا بنوع من الويسكي الاسكتلاندي، وكان القسم الايسر خاليا، ولكن القسم الثالث وجدوا فيه السيلوفان الابيض للصور الفوتغرافية الدقيقة التي لا ترى بالعين المجردة.

ومن أحد ادراج هذه المنضدة أخرج أحد الرجال مصباحا كهربائيا يدويا ولكنه لا يعمل لسبب واضح هو أن احدى البطاريات الجافة كانت مزيفة وتحتوي على اوراق مليئة بتعليمات التجسس...

ومما لا ريب فيه ان مما يتزود به اي جاسوس ان يكون في حوزته مواد تصويرية فوتوغرافية. وهذا امر لم يحاول «كروجر» وزوجته «هيلين» ان يخفوه، بل على نقيض هذا كانت هيلين تعلن لكل من يريد ان يعلم انها تحب التصوير الفوتوغرافي. ولذلك فان رجال مقاومه التجسس لم يدهشهم ان يجدوا في «ستديو» وحجرة الحمام كل ما يلزم لغسل الافلام، كما وجدوا آلة تصوير ملتفة بكم مما يستعمله المصورون وهو مصنوع من القماش الاسود، وعثروا ايضا على مربعات من خشب تتحول بها حجرة الحمام الى غرفة مظلمة لشؤون غسل الافلام وتحميضها.

وقد اتاحت هذه الاكتشافات، لاولئك الرجال. ان يكتشفوا ايضاً علبة من مسحوق «التوليك» ماركة «الزهرات الثلاث».. ولقد كانت هذه العلبة تحتوي، بالفعل، بعض هذا المسحوق، الا انه كان مخبأ فيها جهاز صغير يقرأ مسجلات الافلام الدقيقة.

وتم كذلك اكتشاف المطمور الذي تملكه اسرة «كروجر» هذه، في مخبأ قد لا يخطر ببال الكثيرون- ذلك ان ثمة اناساً من ذوي الحذر والاحتراس قد يخطر لهم ان يخفوا اموالهم من البنكنوت في سلة الملابس القذرة المعدة للغسل. غير أن

القليلين جداً من الناس، والحق يقال يذهبون إلى حد إخفاء مبلغ مئتي جنيه استرليني في طوايا الملابس القذرة، وقد جعلوا منها رزماً من فئات الخمسة الجنيهات.

وبعد هذا الحصاد الطيب من الاكتشافات المذهلة، لم يدهش رجال مقاومة التجسس ان يجدوا في المطبخ، عند بزوغ الفجر، بلاطة على حفرة مخبأة تفضي الى ما يشبه ان يكون مكاناً تحت الارض.

وقد كان المفتش الرئيس رجلا واسع الخيال، فلما عثر على البلاطة المذكورة خطر له فوراً السلك الكهربائي البالغ طوله خمسة عشر متراً وبطرفه المصباح المتنقل، وعلى الفور وصل هذا السلك بتيار الكهرباء من اقرب ثقب، وراح يهبط في الحفرة الواقعة تحت الارض والتي يصل عنقها الى مئة وعشرة سنتمترات تقريباً. ثم انحنى نصفين وسار خطوات حتى انبسط السلك الكهربائي وتوتر في يده، وعندئذ وجد نفسه تحت الخط العمودي للاستديو، امام كوم من الحجارة غير المنحوته التي ستتكشف عن اعجب مخبأ وجدوا فيه اشياء قد اذهلتهم حقاً.

-٩-

جلس المفتش الرئيس-فرغسون سميث- متربعاً وقد مس شعره سقف الحفرة، ثم نادى اثنين من اتباعه فأخذا ينقلان الحجارة واحداً بعد الاخر. وقد أثار الدهشة ان هذه الحجارة لم يكن يعلوها شيء من الغبار. ثم سرعان ما شاهد الرجلان تحت هذه الحجارة قطعة مربعة من الاسمنت فرفعاها دون مشقة.

وعندئذ وجدا غطاء من خشب مغلقا على حفرة مكعبة قياسها ٥٠×٤٥×١٥ سنتم.. فاستخرجا منها اكياسا وعلبا شتى في بعضها ورق اسود، وفي البعض الاخر انسجه مشمعة وفي غيرها صفائح من البلاستيك الاخضر اللون وقد وجد رجال مقاومة التحري في علبة معدنية بحجم حقيبة يد من الجلد جهاز راديو

للارسال فائق الطاقة والقوة يستطيع ان يبث رسائله مباشرة الى موسكو.

ووجدا في بعض الاكياس الاخرى بطارية اخرى مزودة لمصباح يد وعدسات بلورية مخصصة للصور الدقيقة التي لا ترى بالعين المجردة، وآلة تصوير مع ادواتها وستة الاف دولار من فئة العشرين دولاراً ووجدا كذلك آلة ارسال تلغرافي تعمل بصورة آلية وتستطيع ارسال رسائل برقية طويلة بسرعة فائقة.

***

وفيما كان المفتش الرئيس لا يزال يتفحص هذه الفجوة تحت الارض راح أحد رجاله وهو البريغادير «الليس» يجد في البحث تحت سقف تلك الفجوة، وشرع اولا في ازالة المادة العازلة الموضوعة بين قطع الخشب المستطيلة في السقف، الا انه ما لبث أن اكتشف ثمة رزمة من ورق قاتم ولما فتحها وجدها تحتوي على ٢٥٦٣ دولارا وشيكات سياحية بمبلغ ٢٣٠ دولاراً وعشرة جنيهات استرلينية. وكانت هذه الشيكات جميعا موقعة بتوقيع «كروجر» نفسه.. وقد وجدوا في اعلى السقف ايضاً السلك الهوائي لجهاز الارسال الذي عثروا عليه في غرفة الاستقبال من قبل. وكان طول هذا الهوائي ٢٢ متراً وهو طول لا ضرورة له على الاطلاق لاستقبال ما تبثه، بصورة طبيعية، محطة الاذاعة البريطانية، غير انه لا بد منه لكي يستطيع جواسيس الكرملين التقاط اوامر موسكو التي ترسل اليهم مباشرة عن طريق هذا الجهاز ذى الهوائي الطويل جداً.

***

كانت هذه الادلة المؤيدة جميعاً توضع اولا باول في علب من الكرتون، وصناديق من الخشب الخفيف، ثم تذهب بها سيارات سكوتلانديارد الى متخصصين اكثر خبرة وحنكة لفحصها.

وقد كان جهاز الارسال الذي وجد في الحفرة الواقعة تحت الارض من الادلة الساحقة التي لا سبيل الى المراء فيها، ذلك انه كان لا يحمل اية علامة تجارية تدل على المصنع الذي خرج منه، وكان تركيبه يختلف كل الاختلاف عن طراز تركيب مثل هذه الاجهزة في بريطانيا. وكان مزوداً بسماعة واحدة، ولم يكن فيه مكبر للصوت، كما كانت طريقة وصله بالتيار الكهربائي مختلفة تماماً عما هو معروف ومتداول في انكلترا، وكان يعمل بطاقة عظيمة من ١٥٠ وات، وهي كافية لكي يصل ارساله الى الاتحاد السوفياتي.

وكان الجهاز التلغرافي الآلي الذي وجد في حجرة الحمام يتيح ارسال رسائل طويلة دون موانع تحول دون ذلك، ودون الاستدلال على مكان وجوده بواسطة اجهزة مقاييس الزوايا.

-١٠-

كان جهاز الارسال هذا هو الذي اذهل الجمهور في الجلسات الاولى لمحاكمة اولئك الجواسيس اكثر من غيره. ولقد تأكدت نشاطات تجسس اسرة «كروجر» وعلاقاتها بالجاسوس السوفياتي «لونسدال» بصورة اوسع عندما عثر رجال سكوتلانديارد على اكتشافات اخرى لها اهميتها وان لم تكن مثيرة مثلها.

وقد اتضح من فحص محتويات القداحة التي وجدت في غرفة استقبال اسرة كروجر انها تحتوي على خطة محكمة لكيفية الاتصال بموسكو ونقل الاسرار اليها ومواعيد الارسال ومواعيد الالتقاط والرصد واطوال الموجات المستخدمة واشارات النداء للارسال وكانت هذه كلمات روسية هي اسماء لانهر وازهار ونباتات.

***

كان «المكتب الثاني» في موسكو مقتنعاً تمام الاقتناع بان شبكة التجسس

التي اكتشفت في «رويسلب» ببريطانيا، والتي نحيت بعيدا عن السفارة السوفياتية بلندن، ما كان يمكن ان تكتشف ابدا لو ان اولئك الجواسيس في دار كروجر لم يترددوا في استعمال اللغة الروسية في مختلف وسائل اتصالهم بموسكو..

واما فيما يتعلق بمختلف المعلومات التي كانت تصل الى اسرة كروجر وكيفية خروجها عن طريقهم من انكلترا الى روسيا، فقد كانت ادوات التصوير التي اكتشفت في «رويسلب» بدار كروجر تفصح عن ذلك بوضوح، ذلك ان أشد هواة التصوير شغفاً بهوايته ما كان ليسعه ان يشتري كل تلك الاجهزة والالات التصويرية الممتازة الدقيقة الصنع النادرة المثال جودة صنف واتقان اداء.

***

ومما لا شك فيه ان وثائق القاعدة البحرية في «بورتلاند» والتي كان ينقلها «هوغتون» والانسة «غي» اللذان القي عليهما القبض في مستهل هذه القصة، مما لا شك فيه ان هذه الوثائق كانت تسرق ثم تصور بآلة تصوير من ذوات ٣٥ ملمتراً، ويجري بعد هذا تصويرها مرة اخرى تصويراً دقيقاً لا يرى بالعين المجردة حتى ان الصورة منها لا تزيد عن حجم نقطة صغيرة في صفحة مطبوعة.. ثم كانت هذه الصور البالغة الصغر ترسل الى الخارج تحت طابع بريد ملصق على مغلف رسالة، او بين صفحات كتاب.

وبالفعل كان كروجر يلجأ الى هذه الحيلة الاخيرة اي انه كان يدس صوره، التي لا يزيد حجمها عن حجم رأس دبوس صغير، بين صفحات الكتب ذلك ان تجارته كانت تتيح له جميع الفرص الممكنة لارسال رزم بريدية الى جميع انحاء العالم. وفي معظم الاحيان كان الذين ترسل اليهم هذه الرزم ليسوا غير «صناديق بريد» لعملاء صغار من الروس كان عملهم ان يحلوا تلك الرزم ويعيدوا صرها

ورزمها ويغيروا العناوين، ثم تتكرر هذه العملية من بلد الى بلد حتى تصل رزم كروجر في النهاية الى روسيا نفسها حيث يتسلمها من هم في انتظارها...

كانت اذن آلات التصوير وادواته المختلفة تستخدم لاعداد وسائل خروج المعلومات السرية، التي تجمعها شبكة الجواسيس، من بريطانيا اما جهاز الارسال اللاسلكي فقد كان يتاح لهم، عن طريقه وفي حالات الضرورة السريعة الملحة، الاتصال المباشر بموسكو لنقل رسائل مقتضبة ومتعلقة بامور منظمة التجسس نفسها.

وقد بينت مجموعة وسائل وآلات التصوير واجهزة الارسال واللاسلكي، بصورة قاطعة، ان دار كروجر التي تحمل رقم ٤٥ في «رويسلب» كانت تقوم بدور خطير رهيب هو دور المركز الرئيسي لنقل المعلومات والاسرار وبثها او ارسالها بشتى الطرق الى موسكو.

-١١-

وقد اظهرت المبالغ الطائلة، من العملة الاميركية والانكليزية التي اكتشفت في تلك الدار، ان كروجر وزوجته كانا يقومان بدور اصحاب «بنك» لشبكة التجسس، فان منظمة من هذا النوع لا شك في انها تحتاج الى مكان يكون في متناول اليد ويجد الجواسيس فيه المال النقدي الذي قد يحتاجون اليه في حالة اضطرارهم الى الاختفاء او الهرب السريع اذا ما حاقت بهم الاخطار.. وهذا المكان..بل هذا «البنك» كان دار كروجر نفسها في «رويسلب»..

***

واذا كانت هذه المكتشفات الخطيرة التي تحققت في دار اسرة كروجر قد كشفت النقاب عن الدور الذي كان يقوم به كروجر وَ زوجته وبصورة خاصة

علاقتهما بالجاسوس السوفياتي «لونسدال» فانها، بالمقابل، لم تلق اي ضوء على ماضي هذين الزوجين...

ولم يجد المحققّون، في بحثهم الدقيق،اية شهادة ميلاد، ولا اية وثيقة زواج، ولا أية بطاقة عسكرية، او اي دليل من هذه الادلة التي تروي الحوادث الكبرى في حياة كل انسان. ان بيت اسرة كروجر لم يبح بأي شيء، ولم يقدم لرجال سكوتلانديارد اية قصاصة من ورق ما عدا أربعة جوازات سفر (منجزة حسب الاصول ومعدة للاستعمال، وكان اثنان من هذه الجوازات قد وجدا في داخل احدى حقائب اليد التي تستعملها زوجة كروجر وكانت الحقيبة مخبأة في غرفة النوم، وكان هذان الجوازان مستخرجين باسم « بيتر » و « هيلين » كروجر، وكانا يحملان طوابع زيلاند الجديدة كما كانا صادرين عن سفارة نيوزيلاندا في باريس. الا انه اتضح، فيما بعد، ان الجوازين قد تم حصول الزوجين عليهما بناء على شهادتي ولادة مزورتين ...

اما الجوازان الآخران فقد كانا صحيحين ورسميين حقا، ويخصان المدعوّين: موريس ولينا كوهين.. وقد أصدرا بصورة صحيحة وحسب الاصول من الولايات المتحدة واستخدمهما الجاسوسان كروجر وزوجته للهرب من اميركا في سنة ١٩٥٠ عندما اكتشفت دوائر الاستخبارات الامريكية علاقتهما بحركة تجسس اسرة «روزنبرغ» المعروفة في الولايات المتحدة اذ ذاك.. وراحت تجد في اثرهما.

والواقع انه في شهر تشرين الثاني سنة ١٩٥٧، قد تم في نيويورك اكتشاف الجاسوس المدعو « اميل غولدفوس » وهو مصور في المدينة المذكورة وحكم عليه بالسجن ثلاثين عاما. وكان «غولدفوس » المزعوم هذا هو في الواقع الكولونيل الروسي « رودولف ايفانوفتش آيل » رئيس شبكة التجسس السوفياتية في اميركا في ذلك العهد. غير ان دوائر الاستخبارات الاميركية المعروفة بـ «أف.بي.آي.» وجدت في حوزة ذلك الجاسوس الخطير مسروقات من صور سرية

ذات قيمة عالية لموريس ولينا كوهين.. وكانت موضوع اشتباه قوي منذ «قضية روزنبرغ» التي مر ذكرها.

وهكذا فان اليهوديين موريس ولينا كوهين تخفيا تحت اسم: بيتر وهيلين كروجر ونجحا في الهرب من اميركا، والاقامة باسميهما الجديدين، في بريطانيا مدة خمس سنوات طوال مارسا خلالها مهمتهما في التجسس في الارض البريطانية دون ان ينكشف امرهما حتى كانت هذه القضية التي فضحتهما وكشفت وأثبتت جاسوسيتهما الخطيرة سابقا ولاحقا..

-١٢-

كان الطابع الاشد اثارة للدهشة والعجب من غيره،في قضية التجسس هذه، هو وفرة أدلة الادانة والاثبات التي اكتشفت في بيوت مختلف المشتبهين وليس في دار اسرة كروجر وحدها.. وصحيح ان الزوجين لم يكن في وسعهما ان يتحاشيا الاحتفاظ بالكثير من رسائل وادوات التجسس كآلات التصوير، واجهزة الارسال الخاصة بالاتصال بموسكو. غير ان رجال سكوتلانديارد لم يخدعهم التفكير بان الشركاء الاخرين قد يحجمون عن ان يبقوا في حوزتهم اشياء يمكن ان تؤدي الى كشفهم وتشي باعمال التجسس التي يمارسونها.. ولذلك فان رجال مقاومة التجسس الانكليز داهموا منازل الشركاء الاخرين دون وناء، فأظهرت تحرياتهم في كل منزل ادلة وبراهين ثابته على الخيانة..

ولقد كشف اولئك الرجال في بيت «لونسدال» نفسه، وهو الجاسوس السوفياتي الذي كان يمارس التجسس مهنة واحترافاً والذي كان يقيم حتى يوم القاء القبض عليه في شقة مؤلفة من ست طبقات في عمارة تدعى «البيت الابيض» وتقع قرب «ريجانتس بار» وكانت هذه الشقة مؤلفة من «ستديو»

وحجرة حمام، ومطبخ ومؤجرة لقاء تسعة جنيهات استرلينية في الاسبوع. وكانت تأتي، كل يوم، خادمة من العمارة تمهد السرير، وتنجز الاعمال المنزلية، ولكن هذا كله يمنع مستأجرها ان يحتفظ في شقته هذه باشياء وادلة مؤيدة شبيهة بتلك التي وجدت في دار كروجر، وبعد ان القى المفتش «سميث» القبض على كروجر وزوجته.. خف الى عمارة البيت الابيض وراح يفتش فيها ويتحرى، وما لبث ان انجذب نظره فوراً الى قطعة رسم صيني مصنوعة من قماش على شكل مستطيل ومعلقة فوق السرير. وكان الرائي يشاهد في القطعة المذكورة قطاً في حالة وثوب وقد رسم باللون الاسود على ارضية من ورق... وقد اثبت في اعلى هذه القطعة من الرسم وفي اسفلها قطعتان من خشب لبسطها جيدا حسب الطريقة المألوفة في الخرائط التي تعلق على الجدران، غير ان احد طرفي هاتين القطعتين الخشبيتين كانت سرعان ما تنفتح بفعل نابض داخلي لدى الضغط على رأس دبوس كان يبدو بين نقطتين في لفافة القماش التي كسيت بها قطعتا الخشب...

وكان لقطعة القماش الصينية المرسومة على هذا النحو انبوب من ورق مقوى-كرتون- تلف وتوضع فيه. فوجد رجال سكوتلانديارد في خزانة الغرفة هذا الانبوب الكرتوني وغطاءه، ولدى البحث تبين ان احد قسمي الانبوب خال، اما الاخر فقد كان يحتوى على مبلغ الف وثمانمئة درلار في رزمتين كتبت على احداهما عبارة «الف دولار» وكان فيها هذا المبلغ فعلا، أما الرزمة الاخرى فقد كتبت عليها هذه الاشارة: «٥٠×٢٠» التي قد تعني خمسين ورقة نقد من ذوات العشرين دولاراً.. الا ان الرزمة لم تكن تحتوي على أكثر من ٨٠٠ دولاراً.

وبعد هذا وجد سميث قداحة مماثلة للتي سبق ووجدها في بيت كروجر، وقد كان تجويفها السري يحتوي على مفاتيح للرموز في اوراق صغيرة مطبوعة للاستعمال مرة واحدة فقط في فك رموز الرسائل السرية، وقد كانت تلك الاوراق الصغيرة مصنوعة من قشارة خاصة سريعة الاحتراق. وقد عرفها رجال مقاومة

التجسس الانكليز فورا، اذ ان المكتب الروسي الثاني يزود بها جميع عملائه الى الخارج.

-١٣-

بعد ذلك فحص المفتش «سميث» جهاز الاستقبال، فوجده جهازاً عاديا مما يباع في الاسواق، الا انه كان ذا طاقة عظيمة ومزوداً بكل التحسينات وفيه محول شبيه بما وجده المفتش سميث في الجهاز الذي اكتشفه في مسكن اسرة «كروجر » وكان من مزاياه ان فيه مجزئا كهربائيا لكي لا يستقبل الصوت الا على السماعتين المثبتتين على ظهر صندوق الجهاز.

وكان من الاكتشافات اكتشاف له فائدة كبرى وإن كان في ظاهره بريئا لا يثير استرابه، إنه مجموعة من ورق الرسائل المستعمل في البريد الجوي. وكان بين هذه الأوراق مسودات رسائل مكتوبة بخط اليد وموقعة باسم « غوردن » مرة أو «لونسدال » مرة أخرى.

وقد كانت الفائدة من مسودات الرسائل هذه أنها أتاحت لخبراء الخطوط أن يؤكدوا أن الرسالة المؤلفة من ست صفحات والمكتوبة باللغة الروسية التي وجدت في حقيبة يد زوجة « كروجر » لدى تفتيش منزل هذه الأسرة كانت بخط لونسدال نفسه.

ووجد المفتش سميث شيئا آخر بريئا في مظهره هو الآخر. إلا أنه ساعد العدالة على إفحام الجاسوس الروسي الكبير لونسدال وزميليه اليهوديين - كروجر وزوجته - وقد كان هذه الشيء آلة كاتبة من نوع « روبال »

والمعروف أن حروف أية آلة كاتبة تتمثل فيها دائما بعض العيوب الصغيرة التي يمكن ان تظهر لدى الفحص المجهري. والتي يتضح منها نوع العمل الذي

انجز بها. وعن طريق اكتشاف هذه الآلة اقام الخبراء الدليل على أن لونسدال قد استعملها في كتابة رسالة «الشفرة» التي وجدت ايضا في حقيبة زوجة كروجر لدى تفتيشها.

***

وقد وجد المفتش سميث، بعد هذا، علبة من مسحوق «التولك» ماركة «ياردلي» شبيهة بتلك التي فحصها المحققون في منزل «رويسلب» وكانت هذه العلبة ذات اقسام ثلاثة داخلية، فكان احدها يحتوي مسحوق «التولك» فعلا، اما الثاني فقد اختبأ فيه جهاز قارىء، للاقلام الدقيقة المعروفة، باسم «ميكروفيلم»وهو عبارة عن منظار مكبر صغير الحجم، اما القسم الثالث فقد كان يشتمل على خطط ثلاث للارسال اللاسلكي تبين مواعيد الارسال باليوم والساعة وكل التفاصيل والتعليمات اللازمة.

ووجد سميث كذلك مصباح يد كهربائيا اثبت ولع الروس بتزويد جواسيسهم بجميع الوسائل والادوات وفيما عدا ان هذا المصباح كان اسود اللون فقد كان مماثلا للمصباح الذي وجد في غرفة نوم كروجر لدى تفتيشها، وكانت احدى بطاريات المصباح محفورة لكي تستعمل كمخبأ...

-١٤-

وقد كان مما عثر عليه المفتش سميث ايضاً حزام مبطن اسود اللون، استعمل لاخفاء أوراق مالية كان مجموعها ثلاثمئة دولار، واسفر التفتيش في شقة لانسدال عن وجود أسلاك لهوائي اجهزة الارسال والاستقبال، وآلة تصوير ممتازة، وساعتين معدتين كقطعتي غبار اذا ما حدث وأصيبت بعض الساعات الاخرى بالعطب.

وقد اثار الدهشة والذهول وجود علبة صغيرة خضراء اللون في خزانة ملابس لونسدال. وكانت هذه العلبة تحتوي على وثيقتين اتاحتا لرجال مقاومة التجسس ان يتعرفوا الى هوية لونسدال الحقيقيه، ويكتشفوا كيف استطاع ان يستولي على اسم رجل شريف من سكان كندا.

وكانت الوثيقتان عبارة عن: جواز سفر رشهادة ولادة للرجل الذي يحمل اسم لونسدال حقاً، وقد كانت هاتان الوثيقتان صالحتين، غير ان رجال البوليس الكندي استطاعوا بتحقيقاتهم ان يظهروا ان الجاسوس الروسي قد استحوذ على الوثيقتين بصورة غير مشروعة بقصد استعمالها كهوية جديدة له... وكان اخر الاكتشافات هو ما اعترفت زوجة كروجر به، فيما بعد وهوان لونسدال قدقابلها في يوم القاء القبض عليها وعلى زوجها نفسه. وقد تبين ذلك من ايصال صادر عن محلات «سلفريدجز» بخصوص مبيعات منزلية باسم المستر كروجر ومؤرخ في ٧ كانون الثاني.. وقد اكتشف هذا الايصال في زجاجة دواء كانت موضوعة فوق احد رفوف المطبخ.. واذن فان لونسدال قد قابل كروجر وزوجته في هذا المحل بالذات وسلمهما مُغلفاً للرسائل المكتوبة باللغة الروسية وَرسالة الشفرة الاخرى. وذلك قبيل القاء القبض عليهما في منزلهما...

***

ومامن ريب ابدا في ان الطابع العجيب الذي اتسم به اولئك الجواسيس، فيما كان يرى رجال مقاومة التجسس على الاقل، هو انهم كانوا حريصين ان لا يلقوا بأي شيء ولا يتخلصوا من اي شيء مهما يكن يسيرا او تافهاً،كما كانوا مغرمين بتكديس كثير من الاشياء والادوات التي كانت هي نفسها هي الادلة التي تفقأ عين من يراها وتثبت اتهامهم الصريح بالجاسوسية، هذا الاتهام الذي ادى الى ادانتهم...

ومع ذلك فقد كانت محتويات حقيبة هيلين كروجر هي التي أسفرت عن اكثر المعلومات عن لونسدال. وقد سبق واشرنا الى ان المفتش سميث عندما اراد الذهاب بكروجر وزوجته الى مركز البوليس، حاولت هيلين ان تتخلص من مغلف ابيض اللون لم يكتب عليه اي عنوان على الاطلاق. وكان هذا المغلف يحتوى على لوحة صغيرة موجبة لثلاث صور دقيقة مما لا يرى بالعين المجردة، وعلى رسالة اخرى مؤلفة من ست صفحات ومكتوبة باللغة الروسية.

-١٥-

وقد تبين لدى التدقيق والدراسة ان الصور الدقيقة التي لا ترى بالعين المجردة كانت رسائل موجهه الى لونسدال. اما رسالة الشفرة فقد كانت موجهة الى موسكو وكان يجب ارسالها عن طريق جهاز الارسال. اما غير ذلك فقد كان من الاشياء التي تملكها الجاسوسة شخصياً.. ذلك ان للجواسيس، كسائر الخلق، حياتهم الخاصة. فلا غرابة في ان تكون لهم ايضاً اشياؤهم الخصوصية..

ومما لا بد من قوله هنا ان جميع الجواسيس في هذه القضية، باستثناء لونسدال، لم تكن لهم علاقة ما بحقيقة المهام الملقاة على عاتق الجاسوس الروسي أو رؤسائه في الكرملين فيما عدا انهم كانوا ينفذون ما يؤمرون به، او يُمليهم عليهم لونسدال. باختصار الكلمة كانوا اداة طيعة في يد لونسدال وحسب.

ولقد كانت الصور الدقيقة الثلاث التي لا ترى بالعين المجردة موجهة الى اونسدال كما قلنا. وكانت الرسالة المؤلفة من ست صفحات بالروسية جوابه عليها منه.

وقد اعاد لونسدال تلك الصور الثلاث الى اسرة كروجر لكي يتم اتلافها في منزل الاسرة نفسه لان الاسهل دائما التخلص من مثل هذه الاشياء التي لم يعد لها لزوم في بيت سكن مستقل منه في شقة مستأجرة في عمارة كبيرة. غير ان

كروجر لم يتلفها لسبب ما، ربما كان الأرجح أنه لم يجد الوقت الكافي لاتلافها، او لانه هو وزوجته لم يتوقعا مداهمتهما هكذا وعلى حين غرة ودون اي سابق علم.

وهكذا اظهر مجموع هذه الرسائل الثلاث، دون اي خطأ ممكن على الاطلاق ان لونسدال كان روسياً، وله زوجة وأولاد في روسيا، وله زوجة واولاد في روسيا، وبيت خاص به في ناحية ما وراء الستار الحديدي، وانه كان يمارس مهنة التجسس بحذق ومهارة منذ سنوات عديدة.

وقد اكتشف امر لونسدال قطعاً بسبب حماقات وقلة ذكاء اولئك الذين كانوا يعملون معه. اما هو فقد قام بدوره بمهارة فائقة لا مثيل لها الى حد يستدعي الاعجاب، وقد انجز اعمالا باهرة وبالغة الصعوبة والمشقة كلما كان ذلك ممكنا.

وكان وحده، بين سائر اولئك الذين كانوا يعملون معه، في قضية التجسس هذه، الذي كان يعمل لبلاده ويضحي بنفسه في سبيلها. اما «هوغتون» وخطيبته الانسة «غي» فلم يكن يهمهما غير الاستيلاء على المكاسب المالية. ويبقى كروجر وزوجته- او على الاصح موريس كوهين ولينا كوهين زوجته وهما يهوديان كما سبق القول- فقد كان دافعهما الى التجسس الادعاء المريب بانهما يخدمان قضية عادلة وان كان الارجح انهما كانا ايضا يجريان وراء المنافع الخاصة.

غرام جورنغ نائب هتلر

للمؤرخ:برناربورنغ

اولئك الذين خاضوا حرباً مروعة سالت فيها دماء الملايين ودمرت مدن وازهقت انفس ما كان ارحم قلوبهم! فقد كان «هيملر» رب عائلة كله طيبة ومودة ورحمة وكان هتلر يحب الاطفال حباً جماً، وكان غورنغ زوجا مثاليا قل انداده من الازواج... وما اكثر ما تثير فضولنا هاتيك النساء اللواتي شاركن اولئك الرجال حياتهم، فمن هن؟ وكيف كانت حياتهن، وماذا كن يخفين في طوايا قلوبهن؟ وسبق للدفاع ان قدمت لك في مسلسلاتها ايفا بروان وحياتها المؤسية المروعة مع الزعيم النازي «غوبلز» وتقدم لك اليوم ملامح اثنتين اخريين من هاتيك النساء، هما زوجتا «غورنغ»... وانها لاكثر من قصة غرام، واكثر من حكاية حب... انها تباريح قلوب ثلاثة لا تجد ما يماثلها في غير أشهر قصص الحب التي صاغتها اقلام كبار الكتاب في العالم.

-١-

في عصر ذلك اليوم من ايام الشتاء كانت الريح تهب وتصفر بشدة خلال شبه الجزيرة الاسكندنافية، وقد جاء الى مطار ستكهولم شاب سويدي، هو الكونت «اريك فون روزن»، يسأل اذا كان ثمة طيار يسعه ان ينقله بالطائرة الى قصره وممتلكاته في «روكلستا» القريبة من «سباريكولم».

وعلى الرغم من سوء الاحوال الجوية فان أحد الطيارين كان على اتم الاستعداد للمجازفة والقيام بهذه الرحلة الجوية، وكان هذا الطيار ضابطاً المانيا استقر في السويد بعد انتهاء الحرب العالمية الاولى ولم تمض ايام حتى التحق كطيار بشركة الطيران السويدية «سفانسك لوفترافيك»، وقد كان اسم هذا الطيار الشاب الجري، «هيرمن غورنغ».

وبادر الرجلان فقفزا الى قلب الطائرة، وكان لا بد من الانطلاق في غاية ما يمكن من السرعة ليكون الوصول قبل الغروب. وقد كانت هذه العاصفة لا تنفك ترج الطائرة وتهز راكبيها هزاً عنيفاً، وتصيبهما بالدوار.

واخطأ غورنغ الطريق، ودار بالطائرة بعض الوقت فوق مساحة كبيرة من الارض المكسوة بالثلج، ثم انتهى بالهبوط، دون ضرر، فوق بحيرة «باقن» السويدية المتجمدة .

***

كان الليل قد ارخى سدوله، واصبح من قلة التبصر، والتعرض للخطر ان يعود غورنغ بطائرته الى مطار ستكهولم. وقد بادر الكونت (فون روزن) فعرض على الضابط الطيار ان يستضيفه في قصره القديم من قصور العصور الوسطى ذات الحجارة الحمراء، وقبل غورنغ الدعوة، وما هي الا دقائق حتى وجد نفسه جالساً في مقعد وثير، وبيده كأس خمر، قرب مدفأة تتوقد فيها شعاليل النار، وجعل غورنغ يدير عينيه فيما حوله، وكانت القاعة الكبيرة التي يجلس فيها مزدانة الجدران بصنوف الاسلحة القديمة وغنائم الصيد المحنطة، وكان يقوم على رأس السلم الفاخر العريض حارس ضخم الجثة هو دب محشو بالقش كان الكونت «روزن» نفسه قد اصطاده ونصبه هكذا على رأس السلم وكأنه ديدبان مخيف.

وفيما كان غورنغ يتأمل هذا الوحش الضاري المحشوّ قشاً كانت امرأة نحيلة

الجسم دقيقة التكوين تخطو مقبلة نحوه، انها شقيقة زوجة صاحب هذا القصر، وكانت تدعى «كارين» وهي ابنة البارون «كارل فون فوك» ولعلها قد ورثت شعرها الاسود الحالك وعينيها الواسعتين الدعجاوين عن امها المنحدرة من اصل ايرلاندي. وكانت هذه السيدة في سنة ١٩١٠ اي قبل هذه الليلة باثنتي عشرة سنة، قد تزوجت ضابطاً في الجيش السويدي اسمه «نيلزفون كانتزو» ثم انجبت منه ولداً يدعى توماس.

وبدت «كارين» لعيني غرونغ رقيقة عطوفا، عاطفية المزاج والواقع انها كانت واهنة الصحة، وتتألم بصمت من كثرة غياب زوجها.

وما ان وقعت عينا هيرمن غورنغ عليها حتى احس انه منجذب اليها بقوة خارقة. وكانت «كارين» من ناحيتها تنطوي على اكبر الاعجاب بالمانيا الكبرى. وقد صدمتها هزيمة المانيا سنة ١٩١٨، وكان مجرد ان ترى بطلا من أبطال الجو في هذه الحرب كافيا للتأثير على روحها العاطفية الرومانتيكية. وبدا لها هذا الطيار الذي حط بطائرته، قبل قليل، فوق بحيرة «بافن» المتجمدة، كأنه ملاك.

-٢-

ترددت «كارين» في اعطاء غورنغ الجواب على طلبه الزواج منها. وعلى الرغم من مزاجها العاطفي فقد كانت ترى ان هذا الضابط الالماني، الذي تكبره بخمس سنوات، لما يزل بلا ثروة وبلا مركز. وهي حتى لو اغفلت هذه الناحية، فكيف يسعها ان تطلب الطلاق من زوجها؟!

غير ان كل شيء لم يلبث ان تم على احسن مايرام، فقد كان الضابط «نيلز فون كانتزو»- زوج كارين- رجلا شجاعاً وكريما. ولما علم من زوجته انها ترغب في الطلاق فانه لم يكتف بان يعيد اليها حريتها وحسب ولكنه، اضافة الى هذا، وهبها مبلغاً كبيراً من المال يمثل قيمة جزء من املاكه، ثم تعهد ان يدفع لها نفقة

تكفيها.. فبرهن بهذا كله على انه رجل حصيف بعيد الادراك.

اما «كارين» فكانت قد ذهبت الى المانيا لكي تتعرف الى اسرة هيرمن غورنغ، وهناك انشرح قلبها لوالدة غورنغ، حَماتها المقبلة وأحبتها حباً جماً. لم تعد هناك اية عقبة تقوم في طريق زواجها، وعين ليوم الزفاف اليوم الثالث من شهر شباط سنة ١٩٢٣ وبعد مراسم الزواج اقيمت مأدبة زفاف حافلة في فندق «بارك هوتيل» بمدينة ميونخ جمعت زملاء غورنغ القدماء في الحرب، لا سيما وقد كان يعتبر بطلا من أبطال الطيران الالماني.. وانطلق الزوجان من ثم، لقضاء شهر العسل في «بيريشزيل» في جبال الالب البافارية.

***

ومرت الايام هادئة، حلوة، لا جديد فيها، وانما هي شهر عسل متصل... وبعد انقضاء بضعة اسابيع عاد غورنغ الى مدينة ميونخ لكي يشترك في مظاهر احتجاج ضد مشروع محاكمة الزعماء العسكريين الالمان، وفي هذا الاجتماع كان الكثيرون من الضباط موجودين بأرديتهم الرسمية. وقد رقف في ركن من القاعة رجل ضئيل يرتدي معطفاً قصيراً عتيقاً، وله شارب كث، وتتهدل على جبينه خصلة من شعره... وقف غورنغ يتحدث مع هذا الرجل، وافقه على النقمة على معاهدة «فرسايل» الجائرة، ثم انتهى الحديث بينهما وقد اصبح غورنغ أسير شخصية هذا الرجل المجهول وشديد الاعجاب به.. اجل لقد وجد الطيار الشاب الجريء: سيده.. ولقد احس، منذ ذلك اليوم وكما قال فيما بعد، احس بالغريزة بان هذا الرجل «هو الزعيم الذي تفتقر اليه المانيا..» ولما عاد غورنغ الى جبال الالب البافارية حيث كانت تنتظره كارين زوجته حدثها عن لقائه بذلك الرجل المجهول: ادولف هتلر، وانهى حديثه قائلاً :

–انا، منذ اليوم، لهذا الرجل ومعه قلبا وقالباً.

وهكذا دخل غورنغ المعترك الحزبي وغدا شيئا فشيئا رئيس فريق من الانصار الهتلريين. وفي هذه الاثناء كان الزوجان قد غادرا عشهما في جبال الالب البافارية واقاما في منزل قريب من مدينة ميونخ. وقد اصبح هذا المنزل الذي قامت كارين على ترتيبه والعناية به قدر استطاعتها مركزا لاجتماعات رجال النازي.

وفي شهر كانون الثاني التالي، قدمت تلك المرأة الجميلة الشابة الى هتلر الذي كان له تأثير عميق عليها... وهكذا فان كارين المولعة بالغيبيات سرعان ما ابدت اشد الاهتمام بقضية الاشتراكية الوطنية.

ولا شك في ان كارين كانت زوجة مخلصة ،ومتفانية الى ابعد حد، ولماوقعت اضطرابات ميونخ في شهر تشرين الثاني سنة ١٩٢٣ علمت ان زوجها اصيب بجرح بالغ في رأس فخذه، وعلى الرغم من انها كانت مريضة في فراشها فانها سارعت الى عيادة الطبيب التي نقل اليها غورنغ خفية وراحت تساعد اعوانه لكي يجتاز الحدود الى «اينسبروك» بالنمسا حيث وقفت نفسها على العناية به. وكان غورنغ يتألم من جرحه الماً فظيعاً، فكانت ترأمه وتهدىء من ... نوبات المه وهذيانه، وعندما تماثل للشفاء جعلت تعينه على محاولة السير على قدميه معتمداً على عكازين.

وفي تلك الاثناء ذاق الزوجان مرارة ايام عسيرة شديدة العسر، من مصاعب مالية وهموم اخرى عديدة، ثم لم تلبث السلطات في النمسا ان رأت وجوده غير مرغوب فيه، فاضطر ان يلجأ الى ايطاليا، وتبعته كارين في منفاه الاختياري الجديد.

-٣-

اخيراً وفي ربيع سنة ١٩٢٥ تسلم هيرمن غورنغ وزوجته مبلغاً كافياً من

المال مكنهما من الارتحال من ايطاليا الى ستوكهلم عاصمة السويد، وقد كان في مرجوهما يومئذ ان يجدا امامهما باباً جديداً للسعادة، غير ان غورنغ كان قد تعود تعاطي المورفين لتهدئة آلامه ثم غدا لا يستطيع التخلي عنه. وقد ذهلت اسرة زوجته امام وجهه الشاحب، وبدانته البادية، وانحطاط قواه...

اما زوجته كارين فقد كانت مضطرة ان تبقى نائمة في سريرها معظم الوقت بسبب اصابتها بداء السل من ناحية وبالقلب من ناحية اخرى. وقد روي ايضا انها كانت ذات استعداد للصرع...

ولم يكن هذا نهاية هموم المرأة الرقيقة، العطوف، فقد كانت تريد أن تأتي بأبنها «توماس» الى بيتها. ولكن طلبها عندها لم يصادف غير الرفض بالطبع، وعلى الاخص ان زوجها الذي اصبح مدمن مورفين اخذ يزداد احتياجاً يوماً بعد يوم. وكان، اذا افتقر الى هذا المخدر ، يصاب بنوبات تفزع كل من حوله وتملأ قلوبهم ألماً له واشفاقاً عليه...

وجاء يوم اضطر فيه الطبيب ان يدخله مستشفى المجانين في «لانغيرو» بالسويد. وقد بلغ به عنف نوباته الجنونية ان القائمين على خدمة المستشفى كانوا يلبسونه قميصه بالقوة. ثم بدأت معالجته، وازالة تسمم المورفين من جهازه، وكان شفاؤه بطيئاً غير انه تم له الشفاء في النهاية، وما كاد يغادر المستشفى حتى علم بان الحكومة الالمانية قد اصدرت عفوها عنه. واذن فقد استطاع ان يذهب الى برلين، غير انه اضطر، والاسف يملأ قلبه، ان يترك زوجته كارين مريضة في ستكهولم ومع ذلك فانها لم تستطع الا ان تكون الى جانبه عندما انتخب عضواًفي «الرايخستاغ»- البرلمان- الالماني- في شهر حزيران سنة ١٩٢٨، وفي شهر كانون الاول استطاعت كارين ان تهيء منزلا لها ولزوجها يستقبلان فيه كبار اعضاء الحزب النازي..

وقد ابهجها وملأ قلبها مسرة تألق نجم الاشتراكية الوطنية. غير ان اضطرارها الى الانهماك في حياة المجتمع اتعبها وانهك قواها. وعلى الرغم من انها امضت بضعة اسابيع للراحة في احد المصحات فقد ظلت صحتها تتردى يوماً بعد يوم. فقلق غورنغ واضطرب، واستدعى لها امهر الاطباء، ولكن كل شهر يمر كان يزيدها ضعفاً ووهناً وانحطاط قوى وعافية..

وفي ربيع سنة ١٩٣١ استقدم غورنغ احد كبار الاختصاصيين لمعالجة زوجته. وذات يوم اغمي عليها، وفيما بدا انها كانت غائبة عن وعيها تأدى اليها صوت الطبيب الاختصاصي الكبير وهو يشرح لزوجها، بصوت خافت، سوء حالتها.. وادرك غورنغ مما قاله الطبيب ان زوجته لن تعيش طويلا. ولما ثاب اليها وعيها كانت قد أدركت ان مرضها قد قضى عليها قضاء الرهيب.

وبعد ايام هتفت تقول لشقيقها: انني ادرك الان ما معنى الموت.. لقد سمعت كل شيء عندما قال الطبيب لهيرمن ان لا أمل لي في الحياة.. غير انني لم اكن استطيع ان اتكلم او اتحرك ساعتئذ.. ثم سمعت بعد هذا صوت هيرمن، وادركت انه لا ينبغي ان اتركه بعد».

-٤-

كان هذا أشبه ما يكون بهدنة غير طويلة الاجل- وفي شهر ايلول اضطرت «كارين» وزوجها الى الذهاب بسرعة الى السويد على اثر النبأ الفاجع الذي تلقته بوفاة امها السيدة «فوك». ولقد حزنت عليها حزناً عظيماً ولكنها كانت تدرك، في صميم قلبها، انها لن تلبث ان توافيها في قبرها... وفي هذه الاثناء اضطر غورنغ، آسفا، ان يغادر السويد بناء على استدعائه الى برلين.

وبعد مضي اسبوعين، وكان ذلك بتاريخ ١٦ تشرين الاول سنة ١٩٣١ تلقى

برقية جاء فيها ان زوجته تعاني غصص الموت... وهرع من فوره الى السويد. الا أن الامر، في هذه الاثناء، كان قد انتهى لقد قضت «كارين» نحبها ليلا على أثر نوبة من نوبات القلب.

***

وانقضت سنتان، بلغ حزن غورنغ على زوجته الحبيبة في خلالهما مبلغاً عظيما مشهوداً. وكان أصدقاؤه، اذ يرونه جاثياً عند قبرها في مقبرة «لافو» السويدية، يداخلهم الشعور بالاعتقاد ان شيئا ما قد تحطم في نفسه. وقد احترم الاشخاص الذين يحيطون به المه المبرح... غير ان الحياة استمرت تغذ السير في مجراها الابدي. وفي شهر كانون الثاني سنة ١٩٣٣ عين هتلر مستشارا، وشارك غورنغ في الاحتفال بهذا النصر الباهر الذي احرزه الزعيم.

وكان غورنغ في هذه الاثناء قد بلغ الاربعين من عمره، فتعاظم طموحه، وازدادت رغبته في البذخ والترف في الوقت نفسه الذي نما فيه وتعاظم شأن الحزب الاشتراكي الوطني ونجاحه الكبير.

وفي تلك الايام لم يكن احد ليشك او يجهل بأن غورنغ قد ارتبط برباط صداقة متينة ودافئة بالممثلة الساحرة الجمال «ايمي صونمان»، وكان قد التقى بها مصادفة في مدينة «ويمار» في اعقاب اجتماع سياسي عقد هناك.

في ذلك اليوم طلب زعماء النازي ان يشاهدوا بعض مشاهد التمثيليات الكلاسيكية الشهيرة المانية وغير المانية، مما يمثله افضل فناني المنطقة. وكانت «ايمي صونمان» من الممثلات المعروفات، وقد لفتت الانظار بتمثيلها الفني الجميل في تلك الحفلات ونالت الكثير من الإعجاب والتصفيق..

وكانت «ايمي» مثل غورنغ، في نحو الاربعين من عمرها، وكانت المانية

شقراء رائعة، وجميلة فاتنة، سمحة التقاطيع، حلوة النظرة، ناصعة اللون وكان المعروف عنها انها مثلت في مقدرة فنية معجبة الادوار الشهيرة في المسرحيات الكلاسيكية الخالدة كدور «مرغريت» في مسرحية فاوست لشاعر المانيا الكبير «غيته» وديدمونة في مسرحية عطيل لشكسبير. وكانت ايمي ابنة احد تجار مدينة «هامبورغ» وسبق لها ان تزوجت احد زملائها الفنانين، كارل كوستلين، سنة ١٩١٦ ثم افترقا بالطلاق.

وقد اعجب بهاغورنغ ايما اعجاب. ولم يكن اعجابه بجمالها، ورقتها، وثقافتها الادبية والفنية وحسب، بل هو قد اعجب بها، وبصورة خاصة، بعدم اهتمامها المطلق بالشؤون السياسية!

والواقع ان «ايمي» كانت جاهلة جهلا مطبقاً في هذا الميدان. ويروى انها يوم رأت غورنغ، ماريشال الجو، لاول مرة التبس عليها الامر، وحارت بين ان يكون هو غورنغ او غوبلز..

ومع ذلك فسرعان ما تعلقت اسبابها باسباب هذا الرجل الارمل منذ اللحظة التي حدثها فيها عن زوجته الحبيبة المتوفاة.

-٥-

وبالغة ما بلغت حياة غورنغ من التألق والسطوع كرئيس الـ «رايخستاغ» ورئيس للوزراء، ووزير لطيران الرايخ فانه ما استطاع ان ينسى زوجته المتوفاة «كارين».

وفي شهر حزيران سنة ١٩٣٣ ذهب الى السويد لكي يحضر حفلة زفاف ابنة اخت زوجته كارين، غير انه لم يلبث ان غادر الحفل وانطلق الى قبر زوجته فجثا امامه خاشعاً ملهوف الحس والقلب دامع العين، ثم وضع فوق قبرها اكليلا من

الزهر على شكل صليب معقوف، وهو شعار النازي ورمز الهتلرية.

في تلك السنة نفسها استملك قطعة كبيرة من ارض الريف في شمال براين قرب بحيرة «ويكرسي» وبدأ فيما بين البحيرة والغابة ببناء دار سكن مدهشة سماها بعد الفراغ من تشييدها باسم زوجته الراحلة «كارينهال» رعلى الايام اتخذت تلك الدار، بروعة بنائها، وبحدائقها الملتفة، وبأثاثها ورياشها، مظهر منازل الامراء.. وكان الذاهب اليها يدخلها عبر مم عريض طويل محفوف بالاشجار، ثم ينفذ الى متنزه بديع التنسيق يواجه ثلاث عمائر متقاربة .

وقد جعل في العمارة الوسطى قاعة طولها ٤٥ متراً، حولها فيما بعد الى ما يشبه ان يكون متحفاً فنياً عرض فيه ماريشال الجو الالماني اجمل لوحات الرسم الفنية التي وقعت في حوزته من مختلف البلدان التي خضعت لحكم النازي.. ولم تلبث تلك الدار العظيمة ان اكتسبت شهرة كبيرة في مختلف انحاء العالم بسبب قاعات الاستقبال الضخمة الباذخة فيها، وسلالها الرخامية العريضة المنحوته الجوانب والافاريز، ومكتبتها التي تغض بانفس الكتب واثمنها، وبكل ما كانت تزدان به من مذهبات ومفضضات ومن سجاد نادر المثال، ومن تحف ولطائف لا تقدر بثمن..

اما جمال الحدائق زخارفها واحواضها الهندسية التي احتشد فيها الزهر صنوفاً واشكالا، فقد كان يضاهي ابهة حجرات القصر وقاعاته ،نفائسه..

وقد دعا غورنغ الى حفلة استقبال باهرة في داره تلك، وكانت الحفلة اشبه ما تكون بمأتم، ولكن اضفيت عليه جميع مظاهر الابهة والترف...

وكان ذلك بمناسبة نقل رفات زوجته الراحلة «كارين» وفي هذا السبيل كان قد اوصى على صنع نعش خاص مصنوع لشخصين. والواقع انه كان يريد ان يدفن، فيما بعد، جنباً الى جنب مع زوجته التي بلغ حبه اياها حد العبادة..

ونقلت بقايا «كارين» من مقبرة «لافو» بالسويد في النعش المذكور وقد وشح بعلم ذي صليب معقوف، واجتاز بحر البلطيق، ثم وضع في قطار ملأته الازهار وقد بان في وسطها اكليل من من الورد الابيض ارسله غورنغ نفسه وعلق به بطاقة كبيرة كتبت عليها هذه العبارة المؤسية: «الى حبيبتي الوحيدة كارين»

وفي يوم دفن الرفات اجتمع حشد من الاصدقاء، بينهم هتلر نفسه، في دار غورنغ «كارينهال» وكان قد أقيم في حدائق الدار قبر فخم البناء حفرت على جوانبه شعارات اسرتي غورنغ وفوك، ولدى وصول النعش الذي يضم رفات الزوجة الراحلة بادر كبار اعضاء حزب النازي وتحلقوا حوله في مظهر من مظاهر التكريم في حين كانت الموسيقى العسكرية تعزف اللحن الجنائزي المعروف باسم «غروب الالهة».

ثم قام احد كبار القساوسة فأبن الراحلة ووصفها بانها انبل امرأة في المانيا.

واخيراً وفي غمرة من قرع الطبول والموسيقى الهادرة انزل النعش في اعظم مظاهر الابهة في القبر الفخم الذي كانت تنيره المشاعل.

وعندما انتهت مظاهر هذا الاحتفال المهيب بقي هتلر وغورنغ معاً بعض الوقت وهما واقفان صامتين خاشعين امام ذياك القبر.

-٦-

في الوقت الذي كان غورنغ يقوم بهذا الواجب الزوجي الرائع كانت صلته بـ «ايمي صونمان» قد بدأت تشيع بين الجماهير الالمانية..

وذات يوم كان غورنغ جالساً في مقصورته بمسرح «ويمار» وكان يصغي الى صديقته ايمي وهي تمثل دور «كليرا» في مسرحية «ايغمونت». وفي اثناء

التمثيل، وفيما كان المفروض بايمي ان تتحدث قائلة مشيرة الى من تحب:

- ليتني اعلم فقط اذا كان يحبني اولا: أترى قد حيل بيني وبين ان استفسر منه عن حقيقة هذا الحب؟

وما ان نطقت ايمي بهذه العبارة على المسرح حتى قابلها المتفرجون بالابتسام، والهمس في القاعة الواسعة كلها.. لانهم احسوا في هذه العبارة ما يعتمل في نفسها نحو غورنغ.. كأنما هي قد اعلنت فيها، حبها العميق له..

وبعد ايام لم يدهش رواد مسرح مدينة «ويمار» حين علموا ان ايمي صونمان قد استقرت في برلين، واضفي عليها لقب «ممثلة الدولة» وخصص لها راتب محترم.. واقامت يومئذ في حي «كايزر دام» بشقة اشرف غورنغ نفسه على فرشها..

ولم تمض بضعة شهور حتى قدمت ايمي الى هتلر فنالت اعجابه، حتى لقد دعاها ودعا غورنغ معها الى قضاء بضعة ايام في عش النسر الذي كان قد خصصه لنفسه. وقد قيل ان هتلر نفسه هو الذي دفع نائبه غورنغ ان يتزوج ايمي صونمان لتكتسب صلته بها الصورة الشرعية.

وقد تردد غورنغ بعض الوقت. وكان سبب تردده انه كان يريد ان يظل وفياً لذكرى «كارين» زوجته الراحلة. غير انه، في النهاية، تغلب على وساوسه، وقد روت ايمي نفسها كيف تقدم غورنغ يطلب يدها زوجة له. وقد كان ذلك في يوم من ايام شهر شباط ١٩٣٥.. وكان هيرمن غورنغ قد عاد يومئذ من «برختسغادن»في الوقت الذي كانت ايمي تتأهب فيه للذهاب الى المسرح لمواصلة «بروفات» احدى التمثيليات.. واحس غورنغ انه لن يستطيع ان يحدثها في موضوع الزواج دون حرج، فسلم سائق السيارة التي كانت ستحملها الى المسرح ورقة مطوية في مغلف مغلق واوصاه ان يسلمها اياه في اثناء الطريق.. غير ان ايمي بادرت فاختطفت المغلف وفتحته فورا فقرأت فيه هذه الكلمات البسيطة:

«اتريدين ان تتزوجيني في عيد الفصح؟ سيكون الفوهرر شاهد زواجنا».
ولقد طغى الفرح على قلب ايمي فهبطت من السيارة الى الارض بسرعة وارتمت في احضان غورنغ..وفي هذه اللحظة ذاتها تقرر عقد زواجهما في شهر نيسان المقبل.

وفي خلال الاسبوعين اللذين سبقا حفلة الزفاف انهالت على غورنغ وايمي الهدايا من كل صوب. وكانت هدية هتلر لهما لوحة فنية رائعة تمثل السياسي الالماني بسمارك بريشة الفنان الكبير «لامباخ»... غير ان عدداً كبيراً من المعجبين المجهولين اظهروا اعجابهم وتعلقهم بمارشال الجو الالماني بأن ارسلوا اليه مختلف الهدايا ابتداء من نماذج طائرات صغيرة مصنوعة من الذهب الخالص او الفضّة وانتهاء بـ «كعكة» هائلة الحجم مصنوعة من الشوكلاته على شكل قلب ومزدانة باسم «هيرمن» باحرف بارعة من سكر..

وقيل ان غورنغ قد عرض فيما بعد هذه الهدايا التي لا تعد ولا تحصى امام انظار الصحفيين الاجانب مدللا بذلك على ما يتمتع به من شعبية على نطاق واسع في المانيا..

-٧-

كان الاحتفال بزفاف غورنغ بالغا حد الروعة ففي ليلة التاسع من شهر نيسان ازدانت شوراع برلين بأكاليل الزهر واعراف الشجرو الرايات والاعلام التي تحمل شعار النازية «الصليب المعقوف» وقدمت دار الاوبر حفلة رائعة مثلت فيها اوبرا «لوهنغرين»، وحلقت في سماء العاصمة الالمانية طائرات غورنغ الجديدة وقامت بتشكيلات لفتت الانظار بجمالها وجرأتها وضجيجها

وانتهت تلك السهرة الباهرة بركض حملة المشاعل.

وفي الغداة، عند الظهر، ذهب غورنغ ليصحب ايمي صونمان لاتمام الزواج

المدني فركب سيارة تزينها ازهار النرجس والقرنفل، واصطحب ايمي الى دار بلدية برلين ماراً بدار المستشارية. وكان هتلر نفسه شاهد الزواج، وقد قدم لايمي صونمان باقة جميلة من زهر الاوشبده.

ومن جديد حلقت اسراب من الطائرات المطاردة، في سماء برلين، وقامت بتشكيلات جديدة ومظاهرة جوية خلابة على شرف العروسين. اما البركة الدينية فقد وهبهما اياها رئيس الاساقفة «مولر»في كاتدرائية برلين، وذلك بعد الانتهاء من العقد المدني.

وكانت العروس التي بلغت الاربعين من عمرها، ترتدي ثوب الزفاف الناصع البياض، واعتمرت بطرحة شبكت على رأسها باكليل من الماس.

وفيما بعد تحدثت عن خيبة أمل وحيدة في ذلك الاحتفال الرائع ذلك ان زهر البرتقال الموصى عليه وصل ذابلا من ايطاليا.. فاضطرت عندئذ ان تكتفي ببعض الازهار البيضاء اختارتها من باقة زهر الاوشيدة التي قدمها لها هتلر !

وبعد الانتهاء من الاحتفال الديني اقيمت مأدبة لثلاثمئة وستين مدعواً في فندق «كيزرهوف» وقد حضر المأدبة كبار اعضاء الحزب النازي، وبدا هتلر، في تلك المأدبة، على أحسن ما يكون صفاء مزاج..

وعلى حين غرة توجه هتلر الى ايمي صونمان بهذا السؤال المفاجيء:

- لو كان في نفسك امنية تتمنينها اليوم فماذا تراها تكون يامدام غورنغ؟ وقالت ايمي دون تفكير:

- ان يصبح زوجي مثلا... ودهش هتلر لهذا الجواب وسألها:

- ولكن... لماذا هذه الامنية؟ فقالت:

– لاننا سنكون سعيدين هو وانا ليس في حياتنا الخاصة وحسب، بل وفي المهنة التي نمارسها.. ولا شك في انه يجب ان يكون في القلب كثير من الحب لكي اتزوج رجلا في اهمية هيرمن غورنغ.. وبحكم عملي، وعمله، فاننا لن نرى بعضنا البعض كثيراً.. وعاد هتلر يقول:

– عجيبا كنت احسب دائما ان مركز الزوج يحظى باهتمام الزوجة قبل كل شيء وفوق كل شيء. ولهذا السبب لا اريد، انا، ان اتزوج .. اذ لن اعرف ابداً اذا كانت المرأة التي ستتزوجني تفعل ذلك بدافع الحب او بسبب من مركزي..

وقالت ايمي:

– كيف يمكن ان تفكر على هذا النحو؟ ان المرأة التي ستتزوجك لابد أن تنطوي لك على اعظم الحب، اذمن هي تلك التي تقبل، طائعة مختارة، ان تصبح المرأة الاولى في الرايخ؟

وانهى هتلر حديثه معها قائلا:

–انك انت، منذ الان، المرأة الاولى في الرايخ، يامدام غورنغ. وفي انتظار ان تتسلم مدام غورنغ مسؤولياتها الجديدة كزوجة فقد تبعت زوجها الى داره الفخمة «كارينهال» حيث عقد اجتماع لبعض الخاصة من اصدقاء غورنغ وفيما كان اولئك الاصدقاء يرفعون كؤوسهم شاربين على صحة العروسين، فان هيرمن غورنغ اختفى بضع لحظات ذهب خلالها الى قبر زوجته الاولى «كارين» حيث جثا عند قبرها خاشعا مستعبرا.

-٨-

امضى العروسان شهر العسل في مدينة «ويسبادن» حيث طلب من السكان

ان يظهروا محبتهم ومودتهم لمارشال الجو.. وذلك بأن يتجاهلوا وجوده، وبأن يمنعوا على اطفالهم ان يلتفتوا اليه او يذكروه... وبعد قضاء فترة راحة في «راغوز» عاد الزوجان ليستقرا في برلين.

وقد انفتحت امام ايمي ابواب حياة باذخة متألقة، وهي التي يتعارض ذوقها البسيط وميولها الساذجة مع ذوق وميول زوجها الذي كان لا ينفك يزداد نهماً لمظاهر الترف والتكريم العريض وقد كان غورنغ يملك الى جانب قصره في برلين وداره التي تحمل اسم زوجته الاولى «كارينهال» فانه كان يملك ايضاً استراحة صيد في «رومنتين» ببروسيا الشرقية، ومنزلا اقل تواضعاً في «برخنسفادن» ثم ورث، خلاف هذا، قصورا في «موثر ندورف» وفي «فالدنشتاين».

وكانت ايمي في هذه المنازل والمساكن والقصور جميعاً تساعده فوق ما تستطيع في استقبال الضيوف والزوار والاصدقاء والزملاء..

وكانت قد اعتزمت ان لا تتدخل في الشؤون السياسية اطلاقاً، ولذلك فقد جعلت تعيش من اجل زوجها فقط ومنذ سنة ١٩٣٨ وقفت حياتها على الطفلة التي انجبتها منه، وهي الصغيرة «ايدا».

لقد كانت زوجة كاملة الصفات، ابت ان تلتفت بنظرها الى اي شيء آخر من الشؤون التي كانت تهم زوجها وتستغرق جهده ووقته وعلى الاخص طموحه الكبير، ومعاونته لهتلر الى ابعد الحدود.

وتحدثنا مذكرات مدام غورنغ عن زوجها، وهذه المذكرات التي نشرت بعد موته كلها ثناء عليه واطراء لمزاياه، وتؤكد ايمي ان غورنغ لا يمكن ان يتحمل اية مسؤولية مهما تكن صغيرة من حريق الرايخستاغ، اي البرلمان الالماني، وهي تؤكد انه لم يقبل باشعال نار الحرب، ولم يرض عن اضطهاد الشعوب المقهورة المغلوبة، وهي تصر كذلك على انه لم يكن يعلم شيئا عن معتقلات الحرب..

ويروي التاريخ كذلك انه كان لها عليه تأثير قوي، ولقد سمعته، ذات يوم في كرينهال، يوجه نقداً مريراً الى المسيحية فاعترضت تقول على الفور:

- ولكن، يا هيرمن، ماذا تراك تقول؟ ان سماع مثل هذه الاقوال لا يطاق. انك لست كما اعرفك في مألوف عادتك. ان هذه الحرب اللعينة اذا لم تنته وشيكا فانها ستحيلكم، انتم الرجال مخلوقات لا تطاق حقا. انكم، في بيوتكم، غدوتم جد مختلفين عنكم عندما تنفردون بانفسكم.

وكان القلق يتعاظم كلما مر الزمن. وكانت ترى اندفاع هتلر وتهوره فتأسى، غير انها كانت شديدة الاعجاب بوفاء زوجها لصداقة الفوهرر. ومع ذلك فقد كانت تعلم ان نجم زوجها قد بدأ يشحب منذ ان توالى فشل الطائرات الالمانية.

وفي سنة ١٩٤٤ لم تعد مدام غورنغ تجهل ان المانيا تسير نهائياً نحو الضياع... وفي آخر عيد ميلاد شهدته في الحرب كانت في دار زوجها «كرينهال» ومعها ابنتها الصغيرة. غير انها شعرت ان بقاءها في هذه الدار لم يعد باعثاً على الامان والاطمئنان لزوجة الرجل الثاني في الرايخ..

وفي شهر كانون الثاني جاء صف من سيارات النقل لتنقل المجموعات الفنية التي تخص غورنغ. وهي كلها لوحات حملتها هاتيك السيارات واتجهت بها جنوباً.

-٩-

في اليوم الثلاثين من شهر كانون الثاني نفسه غادرت ايمي نفسها تلك الدار التي احبتها والتي كانت تعلم انها لن تراها من بعد. والواقع ان غورنغ أصدر أوامره ببث الالغام في بنايات تلك الدار، واوصى بعملية النسف الفورية قبل وصول الروس اليها.

وذهبت ايمي وابنتها الصغيرة الى «اوبرسالزبورغ» حيث انضم اليهما غورنغ بعد ذلك، وهناك تعرض الى نقمة هتلر الذي اتهمه بالخيانة والعمل وسرعان ما داهم جنود الصاعقة بيت غورنغ، ووضعوا الماريشال تحت مراقبتهم اليقظة وكثيراً ما كان غورنغ يخشى، اذ ذاك، ان يطلق اولئك الجنود النار عليه وعلى زوجته وابنته ويردونهم قتلى في عقر بيتهم..

وازداد قصف القنابل واشتد ضرب برلين، وفي النهاية حصل غورنغ على اذن بالذهاب مع زوجته وابنته الى قصره في «موترندورف» وعندما وصل اليه نبأ موت هتلر خطر له ان يفاوض ايزنهاور في موضوع احلال السلام.. ولقد كان هذا منه وهماً غريباً.. وكان كل ما فعله الجنرال الاميركي عندما التقى به قرب «زيلام سي» انه ارسل به الى السجن.

وعندئذ بدأ عذاب زوجته ايمي وبدأت اوقات المحن العصيبة. وقد اوشكت محاكمات «نورمبرغ» العمل وهي لا تستطيع ان تلحق بزوجها. بل ما لبثت هي ان وجدت نفسها محتجزة، ودام احتجازها شهور اطوالا عانت خلالها من الجوع والبرد وشتى ضروب الحرمان والالام. واطلق سراحها في شهر شباط سنة ١٩٤٦، واستطاعت، هي وابنتها، ان تستقر في مكان غير بعيد عن «نورمبرغ» على امل ان تتاح لها رؤية زوجها السجين..

ولما تمت اول مقابلة بينها وبينه بعد هذا الفراق الطويل فان ايمي لم تستطع ان تشاهد زوجها الا من خلال القضبان الحديدية تحت مراقبة حارس مدجج بالسلاح.

وقد تشبثت بحبال الامل طويلا، ان ينال زوجها رحمة المحكمة. وفي اليوم الاول من شهر تشرين الاول اضطرت ان تترك اوهام الامل هذه فقد صدر الحكم باعدام غورنغ شنقاً..

وقد طلب الماريشال السابق من قضاته ان يعدم رمياً بالرصاص. ولكن طلبه

هذا رفض. غير انه نجا من حبل المشنقة بالتجائه الى السم.. ولكن احداً لم يدر ابداً كيف استطاع الحصول على حبة السم هذه التي ابتلعها قبل لحظات من الموعد الذي تقرر فيه شنقه.

-١٠-

كانت امي، قبل ان يقضي غورنغ نحبه بالسم باسبوع، قد ذهبت لزيارته الزيارة الاخيرة. وقد سألته مستعملة كلمة سرية متفقاً عليها عما اذا كان قد تسلم السم.. فاشار «لا» برأسه، ولكنه قال بصوت عال:

- لا تخشي ان يشنقوني. انهم يحتفظون لي برصاصة قاتلة. ثم احب ان اقول لك: ان اولئك الغرباء في وسعهم ان يقتلوني، ولكنهم لا يملكون حق محاكمتي..

وقالت له:

- أتعتقد حقا انهم سيعدمونك رمياً بالرصاص؟

واجابها هو بلهجة قوية عامة:

- تستطيعين ان تثقي بشيء واحد هو انهم: لن يشنقوني.

ولما خرجت امي من السجن كانت زمرة من الاميركان تنتظرها وبأيدي افرادها آلات التصوير.. غير ان كاهن السجن الذي كان يرافقها استطاع ان يجد باباً اخر أخرجها منه.

وعادت مدام غورنغ الى جانب ابنتها وعندئذ بدأ انتظارها المرير. وذات صباح صافحت اذنيها الكلمات الرهيبة.. جاءت من فم غريب لا تعرف صاحبه

- لقدا اعلن الراديو ان محمومي نورمبرغ قد شنقوا اليوم فيما عدا ماريشال الرابخ الذي تناول السم فقضى نحبه به.

وكان ذلك يوم ١٦ تشرين الاول وقد انهارت رعي باكية شاهقة.. وكانت ترى ان اكرم الرجال وأفضلهم قد حُكم عليه وقضى نحبه ظلماً وعدواناً..

وهي تتساءل في مذكراتها: كيف امكن لرجل مثله ان يموت هذه الميتة وهو الذي ما اكثر ما وهب من نفسه للاخرين وهو الذي كان يتضوأ فهما وادراكا ورحمة ومحبة للاخرين؟

غير ان آلامها المبرحة لم تقف عند هذا الحد فقد كان عليها بعد بضعة اشهر ان تفارق ابنتها وتدخل السجن بدورها قبل ان تمثل امام محكمة «غارميش» لتميز النازيين من غير النازيين.. غير انها برئت وعادت الى ابنتها «ايدا» وانصرفت الى تربيتها والعناية بها...

وبعد بضعة اسابيع من انتهاء الحرب ذهبت جماعة من الفضوليين تزور دار غورنغ التي كانت تحمل اسم زوجته الاولى «كارينهال»، فوجدوا تلك الدار الفخمة اكواماً من انقاض. وكانت الحدائق الواسعة المنسقة قد صوحت.. كما ان الروس قتلوا جميع الحيوانات النادرة المثال التي جمعها غورنغ هناك وافسح لها المجال لكي تعدو حرة طليقة ضمن الغابة الواسعة التي تقع فيها الدار.. وان اللصوص قد جاءوا وسرقوا تابوت زوجته الثمين. والضريح نفسه كان قد تهدم وانتشرت هنا وهناك بقايا عظام تلك المرأة التي كان غورنغ قد احبها ذلك الحب العظيم النادر المثال.. انها زوجته الاولى السويدية «كارين».

غرام غوبلز

التاريخ مليء بمغامرات هاتيك الخليلات والمخطيات اللواتي احببهن عظماء تركوا طابعهم، ان شراً وان خيراً، على جبين زمانهم، ونحن لم نعد نجهل شيئاً من غراميات الملك فرنسوا الاول، ولويس الرابع عشر، ولويس الخامس عشر، وهتلر، موسوليني الخ...

ولكن لماذا ترانا يجب ان نهمل، الزوجات الشرعيات لامثال اولئك العظماء؟

وما اكثر ما حام التساؤل حول هاتيك الزوجات اللواتي ارتبطت مصايرهن بشخصيات التاريخ، وحول الدور الذي قمن به، وكيف كانت اخلاقهن، والى اي حد وصل نفوذهن الخ...

لقد كان لهن دائماً مكانهن في كنف الرجال الذين احتلوا موضع الصدارة...

وهكذا فان لنا ان نتساءل عما كانت عليه زوجة «غوبلز»، وهي قد عاشت الى جانبه، وماتت معه، بعد ان اعطت «الموت» لاولادها بعدها؟

ربما استطاعت هذه القصة التاريخية ان تقدم لنا الجواب.

-١-

في سنة ١٩٢٩ خطر ذات يوم لامرأة باهرة الجمال، في الخامسة والعشرين من عمرها، ان تذهب لتحضر اجتماعا لذوي القمصان السود في قصر الالعاب

الرياضية ببرلين، ولا ريب في ان دافعها الى ذلك كان التبطل وفراغ الوقت.

كانت هذه المرأة قلية التردد على الاجتماعات السياسية، كما انها لم تتعود الا قليلا مشاهدة التظاهرات الحزبية الضخمة. ولذلك شد ما كانت دهشتها اذ دخلت القاعة الكبيرة المزدانة برايات الصلبان المعقوفة، واذ راحت تشاهد حماسه خمسة آلاف شخص تجمعوا في حلبة قصر الرياضة.

وقد رأت، في هذا المساء، رجلا قميئاً، ضئيلاً، معروقاً ويظلع بشدة اذ يسير، يعتلي المنصة، وقد بهرها منه وجهه الصارم المقدود وعيناه المتقدتان. هذا الرجل كان الدكتور «غوبلز» نفسه، وكان هتلر قد عينه، حديثا، رئيساً «للدعاية» في الرابع الالماني.. وكان غوبلز مسعر رجال، وشاهدته تلك المرأة الجميلة وهو يخطب فيهز منبر الخطابة، ويكهرب سامعيه بعباراته الملتهبة التي تتخللها كلمات المدح والثناء المتدفق على «.هتلر» العبقري العظيم، والخارق الذكاء، ومنقذ المانيا، كما تتخللها اللعنات الشداد يصبها صباً على اعداء النازي وخصومه ومناوئيه..

وما اكثر ما قوطع خطاب غوبلز بالتصفيق الحاد، والبالغ حد الهذيان.

واصغت المرأة الجميلة بدهشة وفضول في اول الامر، ثم بتأثر وانفعال واضحين. ولا ريب في ان الخطيب المفوه قد استولى على لبها ببلاغته وذلاقة لسانه.. اذ انها، منذ الغداة سجلت نفسها عضواً في الحزب الاشتراكي الوطني ومنذ ان تم هذا التسجيل فان زوجة غوبلز- المقبلة- قد وضعت يدها مع الايدي الاخرى في تلك الآلة الطاحنة التي ساقتها، بعد سنوات من الهول العاصف الى ان تقتل اولادها الستة وتنتحر هي نفسها...

وينبغي الان ان نعود الى عشية الحرب العالمية الاولى، حيث نرى فتاة المانية صغيرة جاثية في رحبة كنيسة دير «الاورسولين» في مدينة بروكسل.. ولقد كانت

هذه الفتاة الغريرة الجميلة من انجب طالبات راهبات ذلك الدير. وكان اسمها «ماريا مجدلينا ريتشل»، الا ان الجميع كانوا ينادونها عادة باسم «ماغدا».. وقد كانت، اذ ذاك، في الثانية عشرة من عمرها، وطالبة داخلية في الدير المذكور، وكانت قدمرت خمس سنوات منذ قبلتها راهبات «الاورسلين» في معهدهن.

وانه لما يدعو الى الدهشة حقا ان يكون قد عهد بـ «ماغدا» الى هاتيك المربيات: ذلك ان والدها، الكاثوليكي المذهب، في حين كانت أمها بروتستانية..وقد انفصلت بالطلاق عن السيد ريتشل وتزوجت غيره رجلا اسرائيليا من جماعة «الفكر الحر» هو «فرايدلاندر» الثري الطائل الثراء. وقد كفلها زوج امها وعني بها. غير انه كان يستشير والدها، كلما كان لا بد من اتخاذ قرار بشأنها، وكان والدها، السيد ريتشل، مهندسا، يقيم هو الاخر في بروكسل عاصمة بلجيكا.

-٢-

كانت حياة «ماغدا» حتى ذلك الوقت تمر دون شيء يميزها. فتذهب يوم الاحد، الى بيت امها وزوج هذه الام في بيتها الفخم ببروكسل. وفي اجازاتها المدرسية كانت تجعل من نفسها نصيباً لوالدها ونصيباً لوالدتها.. مما يدل على انها تحب الاسرتين جميعاً حباً متساوياً.

وفي شهر اب من سنة ١٩١٤ كان على جميع الالمان المقيمين في بلجيكا ان يرحلوا الى وطنهم المانيا. وهكذا عادت «ماغدا» الى برلين مع امها وزوج هذه الام، واطلقت على نفسها إذْ ذاك اسم «ماغدا فريد لاندر» وراحت تتابع دراستها. وكانت ترى والدها في احيان كثيرة وكان والدها يستولي على مشاعرها عن طريق تأثيره عليه.

وعلى الرغم من صغر سنها جعل والدها يعرفها بالمبادىء الكبرى الرئيسية للبوذية.. والواقع ان «ماغدا» ظلت، طيلة حياتها، متأثرة الى حد بعيد بقصائد الشرق..

وفي هذه الاثناء، وقعت لها مأساة عائلية، اذ ان امها انفصلت عن زوجها الثاني، وراحت تعيش وحدها مع ابنتها. وكانت ماغدا قد بلغت السابعة عشرة من عمرها، وقررت ان تكمل دراستها في مدرسة داخلية نسوية في «غوسلار».

وكانت قد غدت صبية رائعة الحسن ولها من الثقافة ورصانة الخلق ما كان يثير اعجاب وانبهار الجميع...

ومع ذلك فان هذه الفتاة العاقلة عرفت اول مغامرة عاطفية لها. كانت، ذات يوم في القطار الذاهب من برلين الى غوسلار. فلحظ جمالها جار لها في القطار كان متكئاً على نافذة الممر قريباً منها...

وعلى الفور اخذ يجاذبها الحديث، ثم قدم نفسه لها: «غونتر كاندت» من رجال الصناعة. وكان هذا الرجل اصلع قليلا، ويبدو في الاربعين من عمره..

كان الدخول في حديث مباشر هكذا مع فتاة في قطار يمكن ان تكون له مسحة من غرابة في تلك الفترة..، غير ان السيد غونتر كاندت تبدى لها في مظهر من التأدب الكبير الى حد لم تجد معه ما يسوؤها من مبادرته الحديث معها. ثم تبينت تماما هذا التأثير الذي أحدثته في نفس هذا الرجل المجهول. وتتابع الحديث بينهما طيلة الرحلة.

واستثار السيد «كاندت» اهتمام الفتاة الرصينة بحديثه عن مصانع النسيج التي يملكها.. وهي نفسها قالت له انها تتابع دراستها في معهد بـ «غوسلار»

وفي نهاية الحديث لم يكتفيا بالتواعد على اللقاء وحسب، بل اتفقا على ان غونتر كاندت سيزورها في معهدها الداخلي ويقدم نفسه لادارة ذلك المعهد على اعتبار انه عمها..

وهذا ما فعله حقاً.

فجاء، ذات يوم، وهو في سيارة فخمة م نوع «مارسيدس بنز» يسوقها رجل في بزة خاصة. وحمل الخادم علباً شتى، وباقات كثيرة من الزهر، لا لماغدا وحدها، بل لها ولزميلاتها ومعلماتها.

في ذلك الوقت من الضنك والعوز والمجاعة كان مثل هذه الهدايا نعمة من النعم الكبرى، وكان نسق العيش الرفيع مما ينال الاعجاب والتقدير.

وغدت مديرة المعهد، بصورة خاصة، لا تقسم، اذا ما أقسمت، الا برأس السيد غونتر كاندت.

وعاد هذا الرجل الى المعهد مرات ومرات.. ثم طلب ان يخرج بماغدا وصديقاتها.

-٣-

وحدث، ذات يوم، ان «العم» غونتر كاندت خرج بماغدا وحدها في سيارته المرسيدس. وتبدى لها جم الاحترام والتأدب كشأنه دائما، دون ان يخرج قيد انمله واحدة عن سلوكه الرفيع معها استطاع ان يفهمها مدى شغفة بها.. ثم شرح احواله ووضعه: فهو قد فقد زوجته منذ سنة، وله منها صبيان احدهما في التاسعة من عمره، والاخر في الثانية عشرة، ويرغب ان يتزوج ثانية.و.. أترى ماغدا تقبله زوجاً لها؟!

تلقت ماغدا هذا التصريح بهدوء، ويبدو انها كانت تتوقعه منه. الا انها طلبت ان يمنحها مهلة تستطيع خلالها ان تفكر.. وقد كان هذا من حقها على التأكيد.. وعاد بها السيد كاندت الى معهدها، وقال لها انه سيعود بعد ثلاثة ايام ليتلقى جوابها.

وفي اثناء هذه الايام الثلاثة عكفت ماغدا على التفكير، وجعلت تزن امر هذا الزواج المعروض عليها وتقلب نظرها فيما له وفيما عليه..

وعلى الرغم من انها لم تكد تبلغ الثامنة عشرة من عمرها فانها لم تر ان تستشير احداً..

وبعد انقضاء ايام الامهال الثلاثة جاء غونتر كاندت وتلقى منها الجواب «بالايجاب»

وذهلت اسرة ماغدا ايما ذهول عندما علمت هذا النبأ..ورأى ذووها ان ابنتهم اصغر بكثير من ان تتزوج رجلا ارمل يكبرها باحدى وعشرين سنة.

اما في «غوسلار» فقد بلغ تحمس جميع من في المعهد حد الغليان من شدة الاعجاب والانبهار.. واضحت المعلمات والطالبات والمسؤولات لا يتحدثن الا حديث الاعجاب بهذا الخطيب الثري الانيق، الجم الادب والاحترام... ولم تبق غير مديرة المعهد وحدها من تجهمت للأمر.. الذي جرى تحت بصرها وراء الستر والاستخفاء واتخاذ السيد غونتر صفة «العم» للوصول الى بغيته..

ومع ذلك فان السيد «ريتشل»والد ماغدا قام بالاستفسار وجمع المعلومات عن خطيب ابنته، فلم يسمع غير الثناء عليه والاشارة بنزاهته وشرفه وفي النهاية اعطى موافقته مشترطا ان تتريث ابنته سنة واحدة قبل ان تعقد زواجها.

واعرب غونتر، هو الاخر، عن رغبتين له: ان تترك ماغدا لقبها- فرايد لاندر- الذي تحمله عن زوج امها السابق وتعود الى لقب والدها «ريتشل» وان تعتنق البروتستانتية. ووافقت ماغدا.

وفي شهر كانون الثاني سنة ١٩١٢ احتفل بزفافها الى غونتر كاندت...

***

كانت بدايات هذا الزواج خالصة السعادة، فأقامت ما غدا في دار باذخة مؤلفة من اثنتين وعشرين حجرة تقع في ضواحي برلين... وحنت على طفلي زوجها ومنحتهما من عطفها ومحبتها ما جعلهما يتعلقان بها وما ملأ قلبيهما حباً لها.

وفي نهاية ١٩٢١ وضعت تلك المرأة الشابة طفلا سمته «هارالد».. وقد آوت، كذلك، ثلاثة أيتام- هما صبيان وفتاة- كان ابواهم شديدي الصلة بزوجها. وقد قبلت رعاية اولئك الايتام في كثير من التفاني..

ومع ذلك فان علاقة الزوجين سرعان ما أخذ يعتريها الفتور.

-٤-

وقد كان السيد كاندت رجلاً واقعياً جداً، ورجل عمل ذا هيبة وسلطان، وكان منهمكاً في عمله دائماً. وقد ركز عالمه كله حول معامله ومصانعه واهمل زوجته قليلا..

ثم كان، على الرغم من ثروته الضخمة، لا يعطيها من المال الا اللازم الضروري لادارة البيت. وكانت «ماغدا» تريد مزيداً من الحرية. وكانت لحيتها، التي تطلعها على اسرارها، وتبوح لها بما في صدرها هي «الينور كاندت» امرأة

الاخ الاصغر لزوجها، ولا ريب انها افضت لها بخيبة آمالها..

في سنة ١٩٢٧ توفي اكبر ولدي زوجها على اثر عملية جراحية فقرب هذا المصاب بين الزوجين. ولقد حزنت ماغدا وابتأست كثيرا دونما ريب فقد كان الابن مثار اهتمامها ومحبتها اما شقيقه الاصغر منه، فقد كانت أقل اهتماماً به فوضعه والده في مدرسة داخلية.

واعتباراً من هذا التاريخ غدت اكثر رغبة في ان تنفصل عن هذا الزوج الذي يسئمها.. ولكي يرفه عنها، اخذها معه في رحلة الى اميركا، غيران فترة هذه الرحلة لم تفعل اكثر من ان تؤخر ما كان لا بد ان يقع. ولدى عودتهما الى المانيا بادرت ماغدا وتوسلت الى زوجها ان يعيد اليها حريتها.

وقد اذهلت هذه الفكرة زوجها السيد كاندت وهو الذي لم يفكر قبل ذلك انه سيواجه يوماً هذا الاحتمال.. فرفض طلبها بحزم، واضطرت ماغدا ان تنحني لارادته، وعلى الاخص انها لم تكن لتملك اي سبب من الاسباب الموجبة للطلاق.

وفي هذه الاثناء وضعت المصادفات او المقادير في طريق هذه المرأة الشابة طالبا عطوف النظرة شجي الفؤاد والعجيب ان ماغدا الجادة المتزنة القوية تركت نفسها تنجذب بملامح هذا العاشق الالماني الشاب الشبيه بعشاق الاساطير ومحبي قصص الفروسية.

ومن السهل بعد هذا ان نتصور ما حدث: فقد علم زوجها بطيشها هذا فكتم ثورته، وكظم غيظه، ورجاها ان تعد حقائبها.واصبح هو الذي لا يطلب الطلاق فورا، الا انه اصر على الاحتفاظ بطفله «هارالد» الذي وضعته سنة ١٩٢١، فكان إصراره هذا طعنة مزقت شغاف قلبها.

وقد فكرت طويلا ثم زينت لها نفسها الامارة ان تقوم بعمل لم يكن من

الشرف والنزاهة في شيء، فقد عادت خفية ذات يوم الى البيت بعد ان غادرته، ودخلت مكتب زوجها واستولت على رزمة من رسائل غرام كانت موجهة اليه من احدى النساء قبل ان يتزوج ما غدا، ثم ذهبت بها جميعاً الى محاميها...

ولسنا ندري ما حدث بعد هذا، فليس لدينا من الوثائق والمستندات التاريخية ما يلقي ضياء على هذا الحادث ولم يبق الا ان يتساءل المرء: اترى المحامي هدد الزوج باثارة فضيحة ما ؟ ام تراه كان بارعاً فوصل إلى تسوية مقبولة من الطرفين.

على اي حال فان الذي حدث هو انه عندما نطقت المحكمة بالطلاق خصص السيد كاندت لمطلقته ماغدا نفقه ضخمه واعطاها حق الاحتفاظ بابنها هارالد.. على ان يكون من حق والده ان يستعيده اذا ما عادت فتزوجت غيره..

فماذا فعل الشاب العاشق الولهان؟

-٥-

تقدم ذلك الشاب العاشق مدفوعا بشاعر الفروسية والشهامة.. وطلب من المطلقة الجميلة الشابة ان يتزوجها.. الا انه اصطدم بالرفض، ولم تثنها عن عزمها توسلاته ودموعه المسفوحة.. فمضى وفي قلبه غصة، وفي عينيه دموع.. ذلك ان ماغدا كانت سعيدة غاية السعادة ان عادت فوجدت حريتها.

***

بعد ان سجلت ماغدا نفسها في الحزب الاشتراكي الوطني انقطعت الى كتاب «كفاحي» الذي الفه هتلر وبسط فيه سياسته فغرقت في مطالعته، وقد استحوذت عليها مشاعر الاعجاب به و الهيام بمحتوياته. ثم عكفت على دراسة

نظريات الفيلسوف النازي «روزنبرغ» واخذت تصغي بحماسه فائقة لخطب هتلر.. ثم عهد اليها الحزب بادارة خلية نسوية نازية.

والتقت ذات يوم، وهي تصعد السلم، بالدكتور غوبلز.. فحياها غوبلز ومضى مسرعاً.. الا انه لم يفته ان يلاحظ جمالها الخلاب. ولما وصل الى مكتبه سأل سكرتيرة خاصة عمن تكون.. ثم ما لبث ان وجد ذريعة ما فاستدعاها .

ولما مثلت امامه وشرح يحدثها كانت اولى كلماتها لذلك الخطيب المفوه الذي شد ما أعجبت به انها تريد ان تعمل وان تكون ذات فعالية في الحزب النازي. فعرض عليها عندئذ ان يتخذها سكرتيرة خاصة له.. بالاضافة الى مهمة ترتيب وتنظيم محفوظات الحزب من وثائق ومستندات. وهي مهمة تدل على ثقة عظيمة بها. وقد ادركت ما غدا ما لهذه الثقة من ثمن غال.

جعل غوبلز،منذ ذلك اليوم. يخرج كثيراً مع هذه المرأة الجميلة الشابة، وقد عرفها على اصدقائه، واصطحبها الى اجتماعات الحزب. وكان لا ينفك يجهد جهده في سبيل ان يتألق ويزدهي امامها لينال اعجابها. ولقد بهرها ذكاؤه النافذ، وخلب لبها ما يتصف به من مواهب الاقناع... وغدت لا تجد اسماً تقسم به غير اسمه هو... ولقد أيأس هذا الهوى الوليد ذلك الطالب الجميل الذي كانت ما تزال تراه وتلقاه بين حين وآخر. ثم أرهقتها عبارات احتجاجه وتشكيه فقالت له ذات يوم انها لن تعود تراه ابداً.. فافقده الغضب صوابه فاخرج الفتى من جيبه مسدساً وأطلق عياراً ناريا في الهواء.. وعندئذ قالت ما غدا ساخرة:

-لو انك احسنت تصويبه الي واطلقت النار لكنت خليقة ان اثأر.. اما الان فأني اجد هذا المسدس سخيفاً ومضحكاً..

ثم انسحبت الى حجرة مجاورة وطلبت البوليس هاتفياً وهكذا مضى هذا الفتى من حياتها وقد اقتاده بينهما اثنان من رجال الامن..

وبعد انقضاء بضعة شهور اعلنت ماغدا خطبتها الى الدكتور غوبلز.. وقد حز هذا النبأ في قلوب افراد اسرتها جميعاً.. وارسل اليها والدها كتاباً قاسياً، شديد اللهجة جداً مما حدا بها ان تقطع علاقتها به.. وحاول زوجها السابق ان يحذرها من الاشتراكية الوطنية، وبصورة خاصة من غوبلز الخطيب السياسي الذي يثير الجماهير، والمغامر الذي لا يردعه رادع والذي تريد هي ان تربط مصيرها بمصيره.. ولكن هذا كله كان عبثا وبدون جدوى.. فقد كانت ماغدا قد وقعت فريسة لسحر غوبلز..

-٦-

ولقد ازداد سحر غوبلز في نفس ماغدا قوة وتسلطا عندما قدمها الى ادولف هتلر. حدث هذا اللقاء في فندق «كايزرهوف» وكانت ماغدا شديدة الانفعال وهي تدنو من الزعيم العظيم.. ثم راحت تحدثه عن كتابه «كفاحي» بلهجة مشتعلة حماسة ففتنته عن نفسه حتى لقد صرح، فيما بعد، لمن حوله بان زوجة غوبلز المقبلة امرأة ممتازة وذات شخصية استثنائية حقا.. وعلى اي حال فقد كانت ماغدا كلها ثقة وطمأنينة وايمان بمستقبل الحزب النازي..

وعبثا حاولت امها ايضا، ان تصرفها عن هذا الزواج مبينة لها جسامة ما تفقده عندما تفلت من يديها النفقة الطائلة التي خصصها لها زوجها السابق السيد كاندت. غير ان تلك المرأة الجميلة الشابة راحت توازن، وتقارن وتصدر حكمها في كثير من الهدوء الواقعي فقالت: من الناحية السياسية فان ثمة مكانين مفتوحين للوطن، فاما ان تجتاحنا الشيوعية وعندئذ لن يكون وجود للرأسمالية. واما ان يصل هتلر الى الحكم، ويومئذ اغدو المرأة الاولى في المانيا » كانت ماغدا تؤمن، اذن، بطالع هتلر وصعود نجمه... وكان يبدو ان الحوادث تقرها على ما كانت ترى.:.

وفي سنة ١٩٣٠ قام جهاز الدعاية الذي يديره غوبلز بعمل باهر حقاً، فأسفرت انتخابات تلك السنة عن فوز الفوهرر بمئة وسبعة نواب في الرايشتاغ ولن تمضي سنتان بعد هذا حتى يكون فوز هتلر اشد سطوعاً وتوهجاً...

وفي هذه الاثناء كانت ماغدا قد تزوجت ذلك الدكتور القميء الضئيل «غوبلز»... ويومئذ قال لها انه يريد ان يجعلها «ملكة حياته»... الا انه اضاف قائلا بكل تبجح انه لا يستطيع ان يعدها بأن يظل وفياً لها!

ان هذا التحفظ الذي ذكره غوبلز لم يقلق هذه المرأة الجميلة ولم يفقدها هدوءها ومن اغرب ما في هذه القصة، ويدعو الى الدهشة حقا ان الاحتفال بزواج ما غدا وغوبلز قد تم في قصر زوجها السابق السيد «كواندت» بميكلانبورغ، وكانت غدت تتردد على هذا القصر مع ولدها هارالد الذي كان في حضانتها.

وكانت قد زارت القصر كذلك بصحبة غوبلز نفسه.. الذي لم يجد حرجا في اصطحاب اصدقائه الهتلريين اليه، على الرغم من امتعاض «كواندت» الشديد واشمئزازه، حتى لقد عاد قليل الاهتمام بان يصبح بيته مجمع الخلان.. من فتيان الحزب الاشتراكي الوطني..

والاعجب من هذا كله ان ماغدالم تجد اي حرج او خروج على اللياقة ان تجري حفلة زفافها الى زوجها الثاني في مسكن زوجها الاول...

ان حبها لغوبلز قد اعمى بصيرتها حقا وجردها من كل حس..

-٧-

تم الاحتفال بزفاف غوبلز وماغدا يوم ١٢ كانون الاول سنة ١٩٣١، وفقاً للمراسم الدينية، وكانت المانيا كلها كأنها في يوم عيد، بل هي كانت في يوم

عيد على التأكيد. وقد ازدانت الكنسية نفسها براية ذات صليب معقوف. وقد ابى السيد ريتشل، والد ماغدا، حضور هذا الاحتفال، غير ان والدتها كانت موجودة، ولم تعد تحمل- بطلب من غوبلز- اسم زوجها الثاني اليهودي «فرايد لاندر»... وحضر الاحتفال، كذلك، الصبي «هارالد». «هو ابن ماغدا من زوجها الاول السيد «كاندت»

وكان هتلر نفسه شاهد الزوج.. وكان الجنرال فون «ايب» شاهد الزوجة.

وفي مأدبة الغذاء شرب المدعوون الشمبانيا الفاخرة دون حساب، وتبادلوا الأنخاب على صحة العروسين، في كؤوس من البلور الصافي التي يملكها السيد «كاندت» زوج ماغدا الاول.

***

ملأ السرور قلب ماغدا، بعد زواجها ان ترى بيتها وقد اصبح مركزا مهما من مراكز اجتماعات اعضاء حزب النازي.. وكان هتلر كثيرا ما يأتي الى بيتها حيث يمضي سهراته، ويظل يتحدث حديث الزعيم المتحمس ساعات وساعات.. وكانت تلك المرأة البارعة الجمال تصغي اليه بكل جوانحها، وكأنها ملهوفة الى سماع كل كلمة وكل عبارة تخرج من فم ذلك الزعيم العظيم.

كان هذا الاعجاب الشبيه بالعبادة الذي تبديه ماغدا نحو الفوهرر لا ينفك يزداد ويتعاظم لكي يصبح في النهاية وسيلة من كبرى الوسائل في خدمة زوجها الدكتور غوبلز وزير الدعاية.

كان الزوجان ما يزالان يعيشان شهر عسل مستمرا بكل توقده وشدته. وكان غوبلز يبدو الى جانب زوجته الجميلة الآسرة كثير الرعاية لها والاعجاب بها. وكانت ماغدا لا تنفك تنادي زوجها بحنان: «ملاكي الصغير»..

في نهاية سنة ١٩٣٢ وضعت مدام غوبلز بنتا سمتها «هيلغا».. ثم راحت تضع بسرعة وعلى التوالي: ابنتها «هيلد» في سنة ١٩٣٤، ثم طفلها «هيلموث» سنة ١٩٣٥، ثم ثلاث بنات اخريات هن «هولد» سنة ١٩٣٧و«هواد»سنة ١٩٣٨ واخيرا «هايد» سنة ١٩٤٠ .. وقد كان غوبلز اباً ممتازا، مزهوا بابنه وبناته الجميلات.

كان «كاندت» زوج ماغدا الاول قد اخذ ابنه «هارالد» بموجب اتفاق الطلاق الذي تم بينه وبين ماغدا ولدى زواجها بغوبلز... غير ان هارالد ظل يتردد على امه باستمرار، فسارعت الى تسجيله ضمن الشبيبة الهتلرية... وقد حاول والده «كاندت» ان يعترض، ويحتج على تأثير النازيين على ولده، ولكن دون جدوى...

وماذا كانت تستطيع نصائح وارشادات الاب ان تفعل امام جمال ابواق الموسيقى الهتلرية، والاستعراضات الباهرة ذات خطوات الاوزة المعروفة، والبزات المتلالئه، وتلك الحماسه الشعلة المتبدية في اولئك الشبان المبهورين بعظمة هتلر...

ثم لم يلبث الموقف، بالنسبة للصبي، ان تبدل كلياً.. ففي ربيع سنة ١٩٣٤ استدعى غوبلز والد الصبي، السيد كاندت واخذ عليه بعبارات شديدة هذه التربية السيئة .. التي فرضها على ابنه فأملى عليه مبادىء.. ونظريات مناقضة للافكار والمبادىء الاشتراكية الوطنية..

ثم اعلمه ان الصبي،منذ اليوم، سيكون في كنف امه فتتم هي تربيته.

-٨-

عندما احتج السيد «كاندت» وقال انه انما اخذ ابنه بموجب قرار رسمي اصدرته المحكمة.. لم يحاول غوبلز حتى ان يناقشه، بل قال بلهجة جادة قا لمعة

انه سيأخذ هارالد ليقيم في بيته وفي كنف امه بامر من الفوهرر..

واذا كان هذا القرار لا يعجبه فستتخذ الاجراءات اللازمة لتدبير اعماله ومصنوعاته.

واستسلم السيد كاندت واستجاب لما اراده غوبلز حيال هذا التهديد المروع.

في هذا التاريخ كان هتلر قد اصبح سيد المانيا.. واعترافا منه بفضل غوبلز في انتصاره ووصوله الى كرسي الحكم بادر فعينه: وزيراً للدعاية.

وعندئذ اقام الوزير الجديد في دار رائعة باذخة تقع في الحديقة الزراعية في ستريسمنستراسه الذي اصبح، فيما بعد، ميدان «هيرمنغورنغ ستراسه»..

وقد كانت ماغدا هي سيدة هذه الدار. وبعد ولادة ابنتها الثانية فتحت صالونها لاصدقاء زوجها.

غير ان استقبالاتها كانت بعيدة عن البذخ لان راتب زوجها لم يكن، بعد، ضخماً... وكان وزير الدعاية، اذا ما وجد في احد هذه الاجتماعات الصغيرة في بيته، يبدو مرحاً وودوداً عطوفاً على اصدقائه والمقربين اليه.. وكان احياناً يجلس الى المعزف ويروح يعزف ويغني في الوقت نفسه، منشداً بعض الاغنيات الشعبية أو الاناشيد النازية..

وفي احيان اخرى كثيرة كان يعرض امام ضيوفه افلاما اجنبية او، افلاماً ممنوعة، او بكل بساطة افلامامسلية.

وكان تأثير غوبلز على الجماهير لا ينفك يعظم ويزداد يوما بعد يوم. وفي سنة ١٩٣٤ اشترى داراً بديعة دفع بعض ثمنها ودفع هتلر بعضه الاخر لصاحبها اليهودي المليونير . وكانت هذه الدار تقع في «سكوانويردر» باحدى جزر بحيرة

سوانيسه» قرب برلين.. وقد وسع وزير الدعاية داره هذه واضاف اليها جناحاً خاصاً لم يكن يسمح حتى لـ «ماغدا» نفسها ان تدخله دائماً..

وقد جعل الزوجان يكثران من استقبال الشخصيات المرموقة كدوق ودوقة «وندسور»، واللورد فانسيتارد، وملك بلغاريا الخ... وفي شهر اب سنة ١٩٣٦ اقاما حفلة استقبال باهرة، فكانت ماغدا تستقبل المدعوين وقدبدت جميلة بصورة خارقة وهي في ثوب السهرة المصنوع من «الاورغاندي» الابيض، كما كان غوبلز يتألق في حلة من «الغباردين» الناصع بسترة ذات صفين من الازرار.. واقيمت في حديقة المنزل المتلألئة بالانوار خيام جهزت لهذه المناسبة، وكانت مأدبة العشاء فاخرة حقاً الهجت السنة المدعوين بالاعجاب والثناء، كما اخذت بالبابهم صورايخ النار التي كانت تطلق في السماء فتبدو في تشكيلات جد رائعة..

ولكن سرعان ما بدا للوزير الخطير.. ان هذه الدار لم تعد كافية ولا لائقة بمقامه الرفيع فماذا يفعل اذن؟

-٩-

في سنة ١٩٣٩ اشترى قصراً اسمه قصر «سكلوس لانك» يقع عند بحيرة اخرى هي بحيرة «بوجانسيه»، وببعد ستين كيلومترا الى الشرق من برلين..

وكان هذا القصر قد بني عند حافة غابة من غابات الصنوبر، ورأى غوبلز ان يضيف اليه، بناء حديثا مريحا مزودا بالتدفئة المركزية، وقاعة لعرض الافلام الخ..

بل ذهب وزير الدعاية الى ابعد من هذا، فاحتاز قصراً بالغ الروعة في برلين نفسها، وقد عني بفرشه وتأثيثه وتزيينه حتى غدا من ابهى القصور واجملها.

وكان على ماغدا أن تتدبر الامر بحكمتها، ما دام دخل زوجها لا يزال متواضعا نسبيا... فكانت تبذل جهدها وتفعل ما يسعها ان تفعله دون ان يحالفها النجاح دائماً، ودون ان تستطيع ارضاء زوجها الذي كانت تثور ثائرته احيانا فيلومها علنا، وعلى رؤوس الاشهاد دون رحمة...

والواقع ان «الملاك الجديد» قد تطور في تصرفه مع زوجته تطوراً كبيراً... وكان من بوادر هذا التطور ان ذلك الحب الباهر قد طار وتبخر..واصبح قلما يرجو ماغدا أن تصحبه الى «اللوج» المخصص له رسمياً في المسارح الكبيرة او دار الاوبرا...

وفي بادىء الامر كانت علاقاته الشهيرة بالصبايا من سكرتيراته اللواتي كن يصحبنه الى جناحه الذي شيدة خصيصاً له في داره الاولى.. كانت هذه العلاقات لا تكاد تستثير الزوجة الشرعية.. غير انها راحت تضيق ذرعاً بالطريقة العلنية التي كان يصطنعها ليردها عن جناحه الخاص ويحظر عليها دخوله.. ،

وفي سنة ١٩٣٦ ظهر غوبلز علناً مع ممثلة تشيكية رائعة الجمال اسمها «ليدا باروفا»، وكانت هذه الممثلة تعيش مع ممثل زميل لها اسمه «فروليخ» له دار بجوار دار غوبلز وكان يقال ان الممثل والممثلة قد قررا الزواج.. غير ان غوبلز، على ما ظهر، وقع في هواها..

وقد بقيت ماغدا مدة طويلة وهي لا تعلم عن هذه العلاقة، ثم اطلعت عليها اخيراً بعد ان لم يبق احد في برلين كلها لا يعلمها..وقد تحملت ماغدا بعض الوقت وفي صمت مطبق، جميع ضروب القهر والاذلال والشعور بالمهانة ثم انفجر غضبها وهددت غوبلز بطلب الطلاق.

وقابلها غوبلز بما هو اسوأ وأشد، ونشب بين الزوجين صراع رهيب.. ولما وجدت ماغدا ان زوجها سادر في غيه.. حزمت امرها وهرعت الى «هتلر» في

«برختسفادن» واخطرته ان ما بينها وبين غوبلز قد انتهى..

حاول الفوهرر ان يهدىء من اضطرابها ويفيء بها الى السكينة، وقال لها انه لا يسمح بالفضائح ابدا، وان وزير الدعاية الذي عليه، في خطبه، ان يتغنى ويشيد بنظام وجمال الاسرة الالمانية لا يمكنه ان يقبل بالطلاق..

غير ان هذا الذي قاله هتلر ومحاولته تهدئتها واقرار السكينة في نفسها لم يغير شيئاً من افكارها واصرارها على طلب الطلاق.

وفكر هتلر.. وسائل نفسه: ماذا عساه ان يفعل؟

-١٠-

ترك هتلر برختسفادن وجاء الى برلين، وما لبث ان استدعى غوبلز وفاتحه في امر ماغدا واصرارها على طلب الطلاق، فأجاب غوبلز بانه، هو ايضا، يتمنى هذا الطلاق، وقيل انه عرض على هتلر، زيادة على ذلك، ان يتخلى عن منصبه كوزير للدعاية.

في هذه الاثناء استطاعت ماغدا، بفضل معاونة «هانك» مساعد غوبلز وبدافع من غرامه بامرأة رئيسه، ان تحصل على رسائل غرام عديدة تقيم الدليل على خيانات زوجها المتكررة لها.

وقد اتخذت من هذه الرسائل ذريعة لكي تنسحب وتقيم وحدها هي واولادها في بيت آخر، وابت ان تدع غوبلز يرى اولاده الا على عتبة الباب الخارجي لتلك الدار، دون ان تأذن له بخطوة واحدة داخل الدار.

وقد كان هذا كله فضيحة كبيرة سرعان ما شاعت انباؤها في كل مكان. واصبحت حديث برلين كلها ومثار تعليقات وأقاويل واشاعات ولغط كثير.

وراح السكان يتهامسون بان ماغدا توشك ان تتزوج «هانك» الذي لم تعد عواطفه نحوها خافية على احد...

وعندئذ حزم هتلر امره وقرر ان يتدخل جديا ويضع حدا لهذا الوضع المعقد... فاستدعى غوبلز على عجل وعنفه واغلظ له القول ثم أمر بنفي الممثلة التشيكية «ليدا باروفا» التي اغرم بها غوبلز...

***

وبعد هذا عرض هتلر على ماغدا ان تستمر حياتها مع زوجها غوبلز سنة كاملة، وكأن لم يحدث بينها وبينه شيء، فتظهر معه في المجتمع وفي الحفلات الرسمية... وبعد انقضاء هذه المهلة اذا وجدت نفسها لا تزال مصرة على الطلاق فان هذا سيكون من حقها الذي لا مراء فيه... وعندئذ ستعين لها نفقة كبيرة كما يكون من حقها الاحتفاظ باولادها...

وقد نظم عقد بهذا الاتفاق وقعته ماغدا ووقعه غوبلز، كما وقعه هتلر نفسه بصفته شاهداً...

وفي اليوم التالي ظهرت في مجلة «برلينر ايلوستريرت زايتونغ» صورة زاهية تظهر الفوهرر وهو يبتسم مغتبطاً بين الزوجين اللذين تم اصلاح ما بينهما بفضل مساعيه الحميدة...

ومنذ ذلك اليوم اصبح غوبلز اشد حرصاً على اخفاء غواياته ومغامراته العاطفية... وكان قد شعر ايضاً ان نظرة هتلر اليه قد تغيرت واصبح يسيء الظن به.. فجعل يبذل جهده لكي يستعيد مكانته وينال صفح هتلر وغفرانه .

وقد عادت المياه الى مجاريها بين ماغدا وغوبلز. وحل الوفاق بينهما محل

الخصام، وكانت نتيجة ذلك ان حملت ماغدا ووضعت بنتاً هي اخر بناتها وكان ذلك في سنة ١٩٤٠، ولقد عرفت تلك الصغيرة بانها ابنة الصلح والوفاق بين الزوجين اللذين طال خصامهما..

***

وفي هذه الاثناء كانت الحرب العالمية الثانية قد نشبت، فلم تعد لقصة خصام غويلز وزوجته ماغدا تلك الاهمية التي اضفيت عليها من قبل. وكان هتلر قد اصبح في اشد حاجة الى وزير دعايته فتناسى قصة خصامه مع زوجته وقربه ولم يعد يتجهم له..

غير ان غويلز عاد من جديد يلقي بنفسه في احضان مغامرات عاطفية فاضحة، فهددته ماغدا بان تشكوه مره اخرى الى الفوهرر.. فاجابها غويلز هازئاً:

- لم يعد عنده متسع من الوقت لكي يصغي الى امرأة هيستيرية مخبولة مثلك..

-١١-

كان هتلر، في ذلك التاريخ، يستعد لاعلان الحرب على روسيا.. والواقع انه كان في ذهنه من الهـ [illegible] ما صرفه عن الاهتمام بشكوى امرأة يخونها زوجها، ويستر [illegible] ـويته ومغامراته العاطفية.. وقد ايأس هذا الموقف ماغدا وثبط عزيمتها، وقالت يوماً تفضي بأفكارها الى صديقتها العزيزة «الينور» شقيقة زوجها الاول «كاندت»:

- انني اراني اشيخ يوماً بعد يوم، ولقد نال مني التعب والاجهاد وليس ثمة

غير احتمالين فاما ان ننتصر في الحرب ويومئذ يصل غوبلز الى ذروة مجده فلا اعود اصلح الا للاهمال والانزوا ء، واما ان نمنى بالهزيمة فتنتهي حياتي اسوأ نهاية..

وكانت ماغدا تؤمن، حتى ذلك الحين، بامكانات نجاح النازيين وانتصارهم.. ولكنها سرعان ما فقدت هذا الايمان وهي تسمع خطب غوبلز النارية كلما ازداد الضغط على المانيا..

وكانت من ناحية اخرى قلقة معذبة لان «هارالد» اكبر ابنائها كان قد تطوع في فرقة مظلات الهبوط، وكان يحارب في «كريت» وافريقيا الشمالية، وايطاليا، قبل ان يقع اسيرا في ايدي الحلفا ء..

***

بعد الهزيمة التي مني بها الجيش الالماني في «ستالينغراد» غدا غوبلز وزير الدعاية ضرورة قوية لا بد منها لهتلر، وبالمقابل فقد ادركت ماغدا وازداد ادراكها هذا يوماً بعد يوم وضوحا ان المانيا توشك ان تخسر الحرب...

وكانت الطائرات لا تنفك تضرب بقنابلها المروعة المدن الالمانية، وتحيل الدور والعمائر والمنشآت ركاما وخرائب وقد وجدت اسرة غوبلز، في برلين ملجأ امينا ومزوداً بكل اسباب الراحة والترف... ثم ان ابنا ء ماغدا كانوا في اغلب الاحيان يقيمون، بعيدا عن برلين، في هذا او ذاك من القصور الصغيرة التي يملكها والدهم..

فماذا كانت تفعل ماغدا في هذا الجو العابس المكفهر؟ كانت تجد ما يعزيها ويلهيها في دراسات لم تهملها ابدا.. حتى غدت تؤمن بـ «التقمص»!.

ودليل هذا انها رأت، ذات يوم، احدى صديقاتها تبكي ولداً لها فقدته في معركة روسيا، فراحت تعزيها بهذه العبارات:

- ان ابنك لم يمت.. وانما هو، بكل بساطة، قد اختفى لكي يبدأ حياة جديدة اخرى..

وفي سنة ١٩٤٤ اضطربت ماغدا لحركة نزول الحلفاء على شواطيء نورماندیا، ومع ذلك وفي احد ايام شهر تشرين الاول استدعى هتلر وزير دعايته في حديث هاتفي، ثم احب ان يحادث ماغدا نفسها فهرعت الى جهاز الهاتف واستمعت الى حديث هتلر، ولما اعادت السماعة الى موضعها كان محياها يتألق بشراً وسعادة...

ذلك ان هتلر قال لها ان الجيش الالماني سيحرز قريبا نصرا مؤزرا.. وبعد هذا بقليل بدأ الهجوم على «الاردين»..

وفي ليلة عيد الميلاد اعدت ماغدا لابنائها حفلة رائعة، ولما آووا الى فراشهم واطفئت الشموع في شجرة العيد اسرت ماغدا لصديقة لها:

- في عيد الميلاد المقبل.. تكون الحرب قد انقضت تماماً وعاد السلام الى ربوع بلادنا..

-١٢-

غير ان هذه الاوهام لم تدم طويلا.. ومع ذلك فقد كانت ماغدا تبذل جهدا خارقا لكي تظهر هادئه صافية المزاج.

في اليوم الثاني عشر من شهر كانون الثاني سنة ١٩٤٥ حدث ما ملأ قلبها سرورا.. فقد دعا هتلر نفسه لشرب الشاي في بيتها.. وهذا أمر لم يفعله منذ

سنوات طويلة.. وقد جاء ومعه زجاجته الخاصة لحفظ الشاي «تيرموس» وعلبة من البسكوت.

وقد استقبله ابناء ماغدا في قاعة البيت وهم في اجمل ملابسهم.. فاحتضنهم هتلر وقبلهم ثم قدم لماغدا باقة من الزهر، معتذرا بانه لم يجد في برلين كلها افضل من هذه الازهار المتواضعة. ودام شرب الشاي.. ساعة ونصف الساعة، وجرى الحديث في اثناء ذلك صعباً ومتعثرا. ودهشت ماغدا لمارأت في وجه هتلر من توتر وارهاق بين ظاهر.. ومع ذلك فقد تظاهرت بانها عظيمة السعادة بزيارة هتلر هذه..

وقالت في نفسها بعد ذهابه:

- لقد فضل زيارتي على زيارة اسرة غورنغ..

وبعد بضعة ايام من هذه الزيارة اصدر هتلر أمره فعين «غوبلز»-مدافعا عن برلين- مما ملا قلب غوبلز بالزهو والخيلاء..

وفي هذه الاثناء كان الوفاق بين ماغدا وزوجها تاما لا تشوبه شائبة.. فما كان لاي شيء من اهمية حيال الاخطار المحيقة بالوطن.

وبخلاف معظم نساء رجالات النازي لم تعد الاوهام تملأ رأس ماغدا فيما يتعلق بسوء مصير اسرتها.. ففي شهر شباط طلبت من الدكتور «موريل» وهو طبيب هتلر، ان يعطيها سما لها ولابنائها.

وقد قالت لاحد الاصدقاء في تلك الاثناء:

- عندما اضع اولادي في اسرتهم واروح افكر انهم لن يكونوا على قيد الحياة بعد بضعة اسابيع احس انني اكاد اصبح مجنونة من الحزن والالم..

ومع ذلك فقد كانت تحاول ان تبدو هادئه امام اولادها.

وقد شرحت لهم ان الروس يقتربون حقاً.. ولكن هتلر يحتفظ بجيش رهيب سيجعلهم يفرون ناكصين على اعقابهم قبل ان يدخلوا برلين..

***

كان الالمان يتشبثون يائسين بفكرة هذا الجيش السري الرهيب... حتى ماغدا نفسها كان يلوح عليها انها تؤمن بوجود هذا الجيش..

ومع ذلك فقد كانت كأنها تمثل دوراً في ملهاة.. وهي تعلم انها لا بد ان تنتحر قريبا وتسوق اولادها معها الى الموت.

وقد كان آخر حديث جرى بينها وبين «الينور كاندت» اعز صديقاتها دليلا على ما كنت تنطوي عليه من مشاعر قبل وقوع الكارثة النهائية، فقد تقابلتا في مصح قرب «درسد» كانت الينور تستشفي فيه وقالت ماغدا:

- لقد خدعتك يا الينور عندما حدثتك عن جيشنا الالماني السري الرهيب.. هذا كله حماقة لا ريب فيها.. فليس لدينا شيء على الاطلاق.. ان هزيمة المانيا واقعة لا ريب فيها.. وما هي الا مسألة اسبوعين او ثلاثة على الاكثر..

-١٣-

قالت ماغدا لصديقتها الينور انه ليس ثمة من جيش الماني سري، وان هزيمة المانيا واقعة لا محالة بعد اسبوعين او ثلاثة على الاكثر وقالت الينور:

- وماذا سيحل بكم انت وزوجك واطفالك يا ماغدا؟

فأجابت ماغدا:

- سنموت جميعاً يا الينور، ولكن بايدينا لا بأيدي العدو.. وليس هناك من حل آخر.

وعادت الينور تقول

- ولكن.. لا بد من ان يكون ثمة حل.. لك .. وللاولاد على الاقل!

غير ان ماغدا هزت رأسها بعنف علامة النفي.. ثم اردفت تقول:

ان الحياة التي ستعيشونها كلكم بعد الهزيمة لن تستحق ان تعاش، فالشيوعية ستستولي على اوربا كلها ان عاجلا او آجلا.. لقد كنا، في المانيا، آخر حاجز يقوم في وجهها.. ولم يبق امام حكام الرايخ الثالث الا ان يتحملوا عواقب ذلك.

ثم راحت تحتج، وتجادل، وتحاول ان تثبت لصديقتها انها ليست هي ولا اولادها بمسؤولين عن هزيمة المانيا.. وعادت تقول:

- انك لا تدركين موقفي.. وافترضي اني سأبقى على قيد الحياة.. إنهم سيقبضون على يومئذ.. وسيحققون معي ويسألونني عن غوبلز.. فاذا اطلعتهم على الحقيقة.. اذا قلت لهم أي رجل كان زوجي في الحقيقة والواقع.. فلن يبقى احد لا يقول انني خنته وغدرت به ولوثت سمعة والد اطفالي..

ولقد عشت في نظر العالم جميعا - كما تعلمين - في هالة متألقة من امجاده..

وكنت إلى جانبه، اشاركه روعة هذه الامجاد الباذخة.. واذن فأنا باعتباري زوجته يجب ان ابقى معه حتى آخر لحظة.. واما الدفاع عن اعماله.. وتبريرها امام الاعداء.. فهذا مالا استطيعه ابدا.. لانه سيكون ضد ضميري.. فانت ترين،

يا اليـنور. انه من المستحيل ان اظل على قيد الحياة من بعد...

وسألتها اليـنور:

- والاولاد ؟ ماذا سيحل باولئك الصغار المساكين؟

وقالت ماغدا

-سيموتون معنا... لانهم اجمل واعز من ان يعيشوا في عالم ما بعد الحرب.. ذلك العالم الذي سيرى في غوبلز اكبر واخطر مجرم تمخضت عنه المانيا.. ولسوف يذيقون اولاده مر العذاب.. سينتقمون منه فيهم.. لا بد اذن من ان آخذهم..معي.. سيموتون معي.. نموت كلنا معا!..

كانت ماغدا، بالفعل، قد حزمت امرها.. واتخذت قرارها الذي لا رجوع عنه.. انها لم تفكر قط ان تفر وتلجأ الى جنوب المانيا..

وكان اولادها ما يزالون، في مستهل فصل الربيع، يقيمون في (شوانفوردر) ينعمون بجمال وصفو ايام الربيع الاولى.

وفي منتصف شهر نيسان ادرك غوبلز ان الروس لن يلبثوا ان يستولوا على برلين كلها.. فاتصل بماغدا هاتفيا ورجاها ان تاتي الى العاصمة مع اولاده الستة.

واعدت ماغدا العدة للرحيل... وكانت ابنتها الكبرى «هيلغا» فتاة عاقلة، وبعيدة النظر، فأدركت انها رحلة لا عودة منها.. فتشجعت، وودعت جدتها لأمها وهي تقول لها:

- سوف لا نعيش طويلا، ايها الجدة الطيبة...

فاحتضنت الجدة حفيدتها وقبلتها.. وبكت طويلا...

-١٤-

قالت ماغدا لاولادها في صباح ذلك اليوم الباكر.

- نحن ذاهبون اليوم لزيارة عمنا، «الفوهرر» في مقره.. الا يسركم هذا؟

فتواثبوا جميعاً وقالوا بصوت واحد:

- ما أجمل ان نرى العم هتلر يا اماه..

وقد سمحت لهم ماغدا ان يصطحب كل منهم لعبته المفضلة.. ثم جاءت سيارتان حملتهم جميعاً مع امهم.

***

كان مقر هتلر يتألف من ملجأين من هذه الملاجيء الكثيرة الواسعة التي حفرت تحت المستشارية وحدائقها المترامية.. وخصصت له ولأعوانه ولعائلاتهم وللموظفين من مدنيين وعسكريين.. كان مقره الخاص يتألف اذن من ملجأين او جناحين احدهما اوسع من الاخر.. وقد أمر ان تعد الحجرات الثلاث الصغيرة التي يشتمل عليها الملجأ الصغير لتكون تحت تصرف اسرة غوبلز..

وما ان وصلت ماغدا واولادها الستة حتى احتلت واياهم هذا الجناح الصغير بحجراته الثلاث.. وانهمكت من فورها في اعمال كثيرة شغلتها واستنفدت وقتها كله، وكانت لا تنفك، في بضعة الايام هذه، التي انفقتها تحت الارض، تحمم اولادها وتنظفهم، وتغسل ملابسهم وتصلحها. وترتب الحجرات وتعنى بشؤونهم..فكانوا، بسبب من هذه العناية الفائقة يسرون عين من يراهم نظافة

وجمالا، وكانت ابتساماتهم الرائعة التى تتألق على شفاههم تزيدهم جمالا واشراق طلعة..

اما هي.. فما اعجبها من امرأة بين النساء... كانت تبدو على جانب كبير من الهدوء والصفاء وسكينة النفس.. فلم تثر مرة واحدة.. ولم يتغيم محياها بادرة من غضب، او قلق، واضطراب كانت بهدوئها وصفاء روحها مثار الاعجاب والتقدير..

وقد قال «بولد» فيما بعد- وهو احد رفاق هتلر- «كانت السيدة زوجة غوبلز»، خلال اللحظة الحاسمة الاخيرة، هادئه ساكنة، لم تبد اي خوف او ذعر من الموت الوشيك.. وقد كنا نلتقي بها صاعدة او هابطة فوق سلالم الملاجىء، فلا نجدها الا انيقة غاية الاناقة، نشطة كل النشاط في حيوية باهرة.. وكانت تندفع صاعدة درجات السلم درجتين درجتين.. وكنا لا نراها إلاّ متوردةً، متضّوئة الأسارير ولا تفتأ تبتسم ابتسامتها الجميلة لكل من تلقاه..»

***

اما غوبلز نفسه فقد كان ينفق مع اولاده اوقاتا طويلة، يلاعبهم، ويغني لهم الاغنيات..

وكان الاولاد يذهبون ليروا «العم» هتلر مرة كل يوم يقرئونه تحية الصباح.. ويداعبون كلبته المعروفة باسم «بلوندي» ثم يعودون الى جناحهم.

وعندما كان يخف قصف برلين بالقنابل، كان يؤذن لهم ان يصعدوا على وجه الارض لكي ينعموا فترة يسيرة بالهواء الطلق والشمس المشرقة..

ونشاهد اولاد غوبلز ذات يوم وهم يستنشقون الهواء في فترة هدوء سادت المنطقة بعد قصف شديد طيلة الليل... شاهدوا طائرة تحلق في سماء المدينة.. فسألوا أمهم:

- لماذا لا تهبط هذه الطائرة فنركبها... وتذهب بنا من هنا؟

فقالت لهم ماغدا:

- الستم مسرورين... هنا... مع العم... هتلر؟...

غير ان هذه السكينة الظاهرة التي كانت ماغدا تتبدى بها... لم تحل دون ان تذوق مر الآلام...

وكانت تتساءل كلما اشرق صباح: افيكون هذا هو آخر صباح؟.. وهل آن الاوان لكي اقضي على اولادي بيدي؟..

وكان الروس لا ينفكون يتقدمون ويتقدمون.. وكانوا قد بلغوا «شوانوردر» التي دمرت.. وقلبت رأسا على عقب... وكان قصف المدفعية عنيفاً ومروعاً حتى كان انفجار القنابل المدوي يهز ملجأ هتلر نفسه ويرجه رجاً..

اجل: كان الخطر المحيق يتعاظم ساعة بعد اخرى.. وفي هذه الاثناء كان هتلر منهمكاً في كتابة وصيته، وفي الاجتماع باعوانه ومساعديه وسكرتيرتيه.

وفي مساء اليوم الثامن والعشرين من شهر نيسان حضرت ماغدا حفلة هتلر-زواجه ما قبل الموت بايفا بروان- وفي ذلك اليوم انتزع هتلر شارة حزب النازي الذهبية المعلقة في بزته العسكرية وشكها على صدر ماغدا زوجة غوبلز

وعندئذ بكت ماغدا ومسحت دموعها غزيزة، حارة حتى بللت وجهها..

وبعد ظهر اليوم الثاني كتبت ماغدا رساله طويلة لابنها البكر «هارالد» الذي كان الحلفاء قد أسروه في فرقة المظلات الالمانية، وشرحت له في الرسالة الدوافع التي حدت بها الى الانتحار مع سائر الاولاد.. وقد اعطت الرسالة الى المرأة الطيارة «هانا رايتش» التي استطاعت ان تفر من برلين على متن احدى الطائرات.

وبعد هذا سارت الحوادث بسرعة، ففي يوم ٣٠ نيسان انتحر هتلر نفسه.. وكان انتحاره مع زوجته ايفا براون علامة النهاية..

وقد امضى غوبلز وزوجته صباح اليوم الاول من شهر ايار مع اولادهما يلاعبانهم وينشدان لهم الاناشيد، ولما اقبل المساء وجد غوبلز وماغدا الجرأة الكافية لكي ينحنيا على الاسرة الصغيرة التي كانت البنات الصغيرات الخمس واخوهن الطفل مستغرقين فيها في نوم عميق بعد ان ابتلعوا حبوب المنوم..

وعندئذ، وهم في سباتهم العميق، اعطتهم امهم السم.. والارجح انها حقنتهم به حقناً في عروقهم.. نقول الأرجح لأنه لم يحضر هذا المشهد المروع احد ليحدثنا عن تفاصيل تلك اللحظات الفاجعة الرهيبة.

وكان قد مر بعض الوقت عندما شاهدت الآنسة «شواجرمن» سكرتيرة غوبلز امرأة قد هرب الدم من وجهها حتى غدا بلون قطعة من الرخام الابيض. وتغضنت ملامحه.. وهي تصعد سلم مقر هتلر...

تلك المرأة كانت هي نفسها «ماغدا»، كانت تسير وتترنح... وتحاول ان تستند الى ذراع زوجها.. ولا ريب في انها كانت قد تناولت السم هي الاخرى... اذ انها ما كادت تصل الى أعلى السلم حتى تهاوت على نفسها... وفي الوقت

نفسه تناول غوبلز مسدسه وأطلق منه رصاصة واحدة حطمت رأسه فارتمى يتخبط جثة هامده...

وجاء جنديان المانيان فاحرقا الجثتين معاً..

وبعد ذلك وجد الباحثون ست جثث صغيرة مصطفة احداها الى جانب الاخرى في اسرتها الصغيرة !!.

أشهر قضية تسميم

انقضت مئة وستة وعشرون عاما، ولاتزال قضية «لافادج» تثير النفوس والاذهان.

كانت «ماري لافادج» وهي في سجنها الرهيب، لا تنفك تعلن براءتها من تهمه قتل زوجها بالسم، وكانت تتلقى كل يوم كوما من الخطابات والرسائل، من جميع انحاء العالم، يشجعها اصحابها، ويبدون عطفهم عليها، واشفاقهم عليها ومودتهم لها..

فمن هي ماري هذه؟

كانت قبل زواجها تدعى «ماري كابيل»، وقد ولدت عهام ١٨١٦ في اسرة محترمة، ومعروفة، من طبقة البرجوازيه الكبيرة، ولها في تاريخها صلات قرابة ومصاهرة بالطبقة الفرنسية الارستوقراطية.

وقد تيتمت ماري وهي في سن مبكرة، ولما بلغت الثالثة والعشرين من العمر، سارعت عماتها الى تزويجها ولكن لماذا تراهن قبلن، في هذا الزواج، وساطة احد وسطاء الزواج؟ ولماذا تراهن اكتفين بالمعلومات التي قدمها السيد «لافارج» عن نفسه عندما تقدم يسأل يد ماري؟

ستة اشهر فقط!

لقد كان مؤكداً ان السيد لافارج قدم عن نفسه معلومات كاذبة، فقد كان بحاجة الى المال لكي يدعم به اعماله وقد دام هذا الزواج ستة اشهر فقط، توفي بعدها السيد لافارج، ودفع بزوجته الى «موت في الحياة» اشد وافظع من الموت الحقيقي نفسه.. كيف، ولماذا؟ ما لم تستطع القضية ان تفسره، وتميط عنه اللثام، ولهذا السبب اثار الحكم على ماري لافارج عاصفة عاتية من الغضب والاحتجاج.

فاذا كان السبب هو «السم» فان جثة لافارج لم يكن فيها، بعد التشريح، غبارة واحدة من هذا السم.

اما المرض، فالواقع ان السيد لافارج كان مصابا بالصرع على الارجح ذلك أن جميع الاطباء الذين استدعوا لفحصه تحدثوا عن اصابته بمرض عصبي.

بدأت بخيبة وانتهت برضى!

ولكن ما هي الدوافع التي دفعت بماري الى قتل زوجها؟ صحيح انها اصيبت في الايام الاولى من زواجها بخيبة امل كبيرة، الا انها راضت نفسها، بعد ذلك، وقابلت سوء الطالع بمشاعر قلب رضي.. وما اكثر الرسائل التي كتبتها وذكرت فيها طيبة زوجها ودماثته.

وقيل انها قدمت له الزرنيخ سماً.. وقال شهود الاثبات والاتهام انها كانت تضع فيما يشربه زوجها ذرارة بيضاء باستمرار.. . كانما هي كانت تختار لحظات وجودهم فتضع هذه الذرارة البيضاء في شرابه على مرأى منهم.

لقد كشف تحليل اكواب الشراب عن وجود مقدار كبير من الزرنيخ فيها.. ولكن، وفي الوقت نفسه، لم يقعوا في جثة لافارج على شيء من هذا الزرنيخ القاتل.. فلماذا لا يكون اعداء ماري لافارج هم الذين لوثوا اواني الشراب خفية فيما بعد؟

ومن هم الذين يتهمونها ؟

حماتها اولا، واخت زوجها ثانيا، والعميل «دنيس» ثالثا.. وقد كانوا يقولون لدائنيهم خلال ثلاثة اشهر كاملة: «بعد ان يصدر الحكم عليها فاننا سندفع لكم ديونكم بعد الفوائد.»

كان التآمر واضحاً عليها. وانا ما ازال من هذا الفريق الذي يؤمن ببراءة ماري لافارج.

«المؤلفة»

-١-

قال أحد أصدقاء الاسرة:

- اتراك تحبين، يا ماري، ان تتزوجي احد اصحاب البريد ؟

وبعد النقاش والجدل بدأ على ماري انها لا تفكر في مثل هذا الزواج.

ثم من يكون صاحب البريد هذا ؟

انه مزارع ضخم الجسم، وقد اغتنى اخيراً وغدا ماهراً في سياسة الخيل اكثر من سياسة النساء، وهو اكثر عناية بجياده التي تجر عربات المسافرين منه بالعناية بزوجة يتزوجها.

وفي الغداة جاء السيد «مارتان» وعاد يسألها:

- اتراك تفضلين ان تتزوجي احد اصحاب مصاهر الحديد؟ وضحك الحاضرون طويلا في بادىء الامر.. ثم طلبوا من ماري ان تدرس الموضوع.. فهي قد بلغت

الثالثة والعشرين من عمرها بالاضافة الى انها يتيمة.. ولا ريب في ان لها «بائنة» ولكن ليس لها ثروة ضخمة.. وهي، بلا ريب، مليحة جذابة، ولكنها ليست باهرة الجمال على كل حال.. ولقد آن الاوان ان تنفض يديها من الاحلام، وزواج الحب الرومانطيقي الشاعري العاطفي المتبادل بين الرجل والمرأة..

زواج العقل..

وماري تعرف انه لن تجد ابداً ذلك اللقاء الساحر برجل تحبه ويحبها ويكون اشبه بشقيق لها.. رجل تبادله كل شيء، وتحبه وتحب معه كل شيء..

ولذلك فقد قبلت بفكرة زواج العقل، او زواج المصلحة. قبلت ان تتزوج رجلا يملك مصنعاً لصهر الحديد.. اجل لم لا؟ الا تراها تخشى البعد و الغربة عن مدينتها؟ ان صاحب مصنع صهر الحديد يقيم في منطقة «ليموزان» النائية والتي تبعد عن باريس نحواً من خمسمئة كيلومتر..

ولكن هذا ليس من الموانع التي تقف في طريق ماري.. فقد عاشت اجمل ايام حياتها في «ستراسبورغ»، فهي اذن لا تفرق من الحياة في الاقاليم.. وعلى هذا فليستمر طلب الزواج هذا، ولا بد من ثم ان ترى صاحب معمل صهر الحديد.. ولا بد كذلك من جمع المعلومات عنه.. وهذا ما سيكون وشيكا..

- ٥ -

غير ان هناك شيئاً لم يقله احد لماري كابيل، وهو ان هذا الرجل الذي عرض عليها الزواج اولا من صاحب البريد، ثم من صاحب مصنع صهر الحديد، هو رجل يدخل المجتمعات الرفيعة، متسلحاً بسلاح الاناقة والثقافة، ولكنه في الواقع سمسار زواج.

ومما لا بد منه ان يكون، بعد اللقاء الاول، بين الخاطب والمخطوبة، فسحة من الوقت تتيح لكل منهما ان يعدل عن رغبته، دون ان يسيء الى الاخر... واذن فقد تقرر ان يكون اللقاء الاول بين ماري وصاحب مصنع صهر الحديد في دار الاوبرا بباريس.

وصففت ماري شعرها الاسود الجميل حول وجهها الصغير الذي تتألق فيه عيناها الواسعتان. وكان ذلك في احد ايام الاربعاء من شهر تموز، وكان الجو صحواً، والسماء صافية، والهواء عليلا..

أو ليس هذا كله عربونا على سعادة مقبلة، وتباشير حياة هانئة؟

جلست ماري الى جانب عمتها في المقصورة الخاصة بدار الاوبرا.. وسرعان ما قدم سمسار الزواج نظارة مكبرة لصاحب مصنع صهر الحديد، في القاعة، لكي يرى بها، من بعيد، هذه الفتاة التي خطبها له.. وقال له:

انها تلك الفتاة السمراء، في المقصورة القريبة من المسرح، اتراها تنال اعجابك؟

وما لبث شارل لافارج ان بهره ما رأى وبادر يقول- قدمني لها فوراً..

وفي فترة الاستراحة، بين الفصل الاول والفصل الثاني، كان شارل لافارج قد دخل مقصورة ماري وعمتها وانحنى محيياً انحناءة عميقة... وتلاعبت انامل ماري بمروحتها ووجدت السيد لافارج دميم الشكل، وراحت من ثم تصغي باحدى اذنيها الى الحان الفالس، وبالاخرى الى حديث شارل لافارج الذي تشوبه لهجة سكان الاقاليم.. ولكن القدر كان لها بالمرصاد لا يريم..

وفي الغداة وصلت الى عمة ماري رسالة من السيد لافارج، رسالة حارة

اعرب فيها عن لواعج قلبه.. وطلب في نهايتها الزواج بماري .. وقد ارفق السيد لافارج بهذه الرسالة رسائل اخرى من بعض رجال الصناعة والاعمال والمحاماة والذين يشهدون له فيها بالاستقامة والنزاهة، ويؤكدون انه رجل خير، وان ثروته ممتازة وراسخة الدعائم، وهي تقوم على اساس من مصنع الصهر، ومن ممتلكات عقارية في ناحية «غلانديبه»، وان اسرته على اتم الاستعداد لاستقبال العروس الجميلة التي ستحل مع افرادها على الرحب والسعة والمحبة.

فهل يكون ثمة سبيل امام مثل هذا التقديم وهذه الشهادة الطيبة؟

ولقد اقسمت ماري ان لا تصغي لغير العقل. وهذا العقل الا يحدثها بقيمة ما يقوله اولئك الرجال في رسائلهم؟ انهم ولا ريب ادرى الناس بما هي الفضيلة. وبما هو الحال.. وان ماري لا تريد ان ترى دمامة وجه السيد لافارج، ولا حركاته واساليبه النابية. وانما حسبها منه صدق عاطفته وجمال مواثيقه.. وانه لزواج سيتيح لها ان تقيم مع اسرة ممتازة، في قصر باذخ يجد اصدقاء لافارج كما يجد افراد اسرتها هي، في رحابه، حسن الوفادة والتكريم.. وسيكون لها من الخدم والطهاة عدد تختاره هي بما يلائم ذوقها ومزاجها.. وسيكون تحت امرتها جواد اصيل، وحمام رائع ومعزف تتنقل فوقه اناملها الجميلة

وتغلبت عليها نوازع الامال ومبتكرات الخيال..ولم تعد ماري تحلم بالزوج ذي المظهر الخلاب، انما هي غدت تحلم بحياة القصر و الترف، والاسرة العطوف، والعيش الرخي الذي ينعم في ظلاله القلب والفكر والروح جميعاً.

-٣-

راح شارل لافارج يلح في سرعة زواجه. هل ثروة ماري تستدعي التفكير والتريث؟ لا... انه لا يريد ان يسمع شيئاً من هذا كله، وهو الان يعرف ماري وهذا حَسْبه... إن الأمر لم يعد في نظره موضوع اجتماعية، وإنما هو يمت الى

القلب بأوثق صلة.. وها هي ماري قد أجابت بما يمكن ان يكون موافقة منها، واذن يجب أن تسرع، يجب ان لا تتريث، يجب ان تكون موافقتها نهائية، قاطعة، ولتطبع بطاقات الزفاف، ولتنشر ، ولتوزع على المدعوين.. وليتم هذا كله بعد اربعة ايام من اول لقاء بينه وبينها.

ويأتي السيد لافارج في هذا اليوم الرابع نفسه، وهو يوم احد، ويجلس في غرفة استقبال السيدة «غارا» عمة ماري، ويبسط رسمين بالالوان المائية لمتلكاته في «غلانديه» وكان احد الرسمين يمثل قصراً له اسطحة منبسطة ثم لا تلبث ان تستدق حتى تغدو صنوبرية الشكل تكسوها قطع «الاردواز» الضاربة الى الزرقة، وفي جنباته شرفات تستدير حولها الحواجز الانيقة، وتمتد تحتها منبسطات من العشب الزاهي قامت في وسطها اشجار الصنوبر الرشيقة. وفي الرسم الثاني كانت تبدو اطلال «غوتية» الشكل، وفي نهاية ممر شاعري تكتنفه الاشجار يقوم مصنع صهر الحديد الذي يملكه السيد لافارج.

وتأملت العيون هذين الرسمين اللذين يمثلان ممتلكات لافارج العقارية القاطعة المنتظرة بسرعة لم تملك معها وقتاً للندم.

وفي يوم الخميس يصحبها شارل لافارج إلى حيث اختارت لنفسها معزفا مربع الشكل، فاشتراه على الفور وامر بشحنه الى قصره في «غلانديه»، ليشارك بحفلات استقبال الزوجين الشابين عند عودتهما.. وفي الايام التالية تطوف ماري ومع عمتها بالخائطات ومحلات الازياء وبيع البياضات لشراء جهاز العرس.. وقد اراد السيد لافارج ان يكون الجهاز باذخا..

وكان شارل لافارج يمضي كل يوم، ساعتين قرب ماري يبثها غرامه.. ويعتذر لها عن استعجاله يوم السفر الى اقليمه ويقول:

– اغفري ما يبدو علي من لهفة.. ان سباق الخيل السنوي قد حدد له يوم

١٩ آب في مرابض ترويض الخيل بمنطقتنا.. فتصوري هذا.. وتصوري جمالك الاخاذ.. وانه لما يبعث الزهو في نفسي ان اقدمك يومئذ لاصدقائي ومعارفي.. واذن فلا بد ان ان يتم الزواج قبل يوم ١٥ آب..

***

وعين يوم السبت العاشر من آب موعداً لتوقيع عقد الزواج المدني.. وراحت ماري، في هذا الجو المحموم الذي اصطنعوه لها، تشتري والمسرة تملأ قلبها انواعاً من الهدايا لتقدمها لمن تحبهم.

وفي تلك الاثناء كتبت الى السيد «المور» وهو صديق قديم لاسرتها تقول، «انني انا التي تعرفها يا سيدي صعبة المراس، كثيرة التروى والنظر في الجوانب السيئة لكل شيء، اتزوج زواجاً سريعاً على هذا النحو: في يوم الاربعاء أرى رجلا فأعجبه ولكنه لا ينال اعجابي الكثير، وفي يوم الخميس يقدم نفسه الى عمتي فيظهر المعتني جداً بذاته، ويتبدى في غاية الطيبة فاضطر الى ان اغير رأيي فيه فأراه افضل مما بدا لي اول وهلة، وفي يوم الجمعة يطلب يدي رسمياً. وفي يوم السبت لا اجيب بالايجاب. ولكني ايضاً لا اجيب بالامتناع، وفي يوم الاحد، الذي اكتب لك فيه، توزع بطاقات الدعوة لحفلة الزفاف، ان الف عاطفة وشعور تقف في حلقي وتكاد تكتم انفاسي.. واليك كل التفاصيل التي استطيع ان اقدمها لك: السيد شارل لافارج في الثامنة والعشرين من عمره، دميم الوجه الى حد ما، وحركاته وسكناته غليظة جافية، غير ان اسنانه كانت بديعة وناصعة البياض، ويلوح ضرب من طيبة القلب على اساريره. وينعم بسمعة ممتازة، وهو صاحب مصهر للحديد، وله ممتلكات، وعقارات في اقليم «ليموسان» ويحتاز ثروة كبيرة، وقصراً بديعاً.. وهو يزور العاصمة باريس كل سنة لشؤون عمله.

وفيما عدا هذا فهو اقرب الى الاغمار من الناس، الا انه قد شغفه حبي، وهذا يبدو لي حلواً ورائعاً.. ثم انه يحب الخيول..»

-٤-

هكذا انساقت ماري نحو سعادة الاحساس بانها محبوبة، لانها ذاقت الم الشعور، في السابق، بأنها لم تجد كفايتها من الحب والرعاية، وهي التي كانت تعبد امها، ولكنها لم تغتفر لها. فيما مضى، انها تزوجت ثانية بعد وفاة زوجها الاول.. فما احلى، اذن، ان تكون محبوبة، وان تكون لها المنزلة الاولى في قلب احد الرجال، وهي التي تشبه نبتة انتزعت، تماماً من جنتها:.

ولكن ها هي عمتها السيدة «غارا» تستدعيها الى حجرة الاستقبال قبل بضعة ايام من توقيع عقد الزواج وتروح تقول لها لافارج ارمل..

وشحب وجه ماري. واحست كأنما قد انقضت عليها صاعقة مهيبة انها ليست اذن الاولى والوحيدة في قلب هذا الرجل وحسب، بل ها هي تعلم الان على وجه التأكيد التام انها ستتخذ قرب هذا الرجل المكان الذي تحتله امرأة اخرى، ترقد اليوم باردة الجثة في قبرها.. ووجدت ماري كأنما قد وقعت في فخ جهنمي.. وكان اول ما بدا لها ان تهرب.. ان تفصم علاقتها ان تحطم كل شيء.. فلا زواج.. ولا حفلات زفاف.. ولا شيء على الاطلاق ومع ذلك فقد راحت عمتاها تحثانها على التعقل.. وقالتا لها ان من الحماقة تدمير كل شيء ونبذ مثل هذا الزواج المفيد في سبيل مسألة تافهة...

وعملت العمتان على تهدئتها، وازالة قلقها، وبذلتا جهدهما في تبصيرها بعواقب الجموح، وتحدثتا عن ضرورة تحكيم العقل، والاخذ بأسباب الحكمة وعدم اثارة فضيحة اجتماعية.. وعندما دخلت ماري حجرة الطعام وهي ما تزال محمرة العينين، لاحظت شحوب وجهه، وقلقه، وآثار الالم المرتسمة على وجهه.. فصفحت..وبعد ثلاثة ايام تزوجت..

***

في يوم السبت، العاشر من آب، تم توقيع العقد عند مسجل العقود وتبعه الزواج في دار البلدية.. وعندما طلب منها ان تجيب بالموافقة احست كأنها توشك ان تنهار.. ان حياتها كلها في كفة ميزان في هذه اللحظة.. وان الخشية لتملأ قلبها.. غير أنها تغلبت على خوفها.. وتم الزواج.. وفي المساء رقصت مع الاصدقاء الذين توافدوا لتهنئتها..

وفي يوم الاحد راحت تتهيأ للرحيل في انتظار الاحتفال الديني بزواجها في يوم الاثنين. وكان يوماً مريدا، كئيباً وكانت الحقائب والصرر تملأ غرفتها.. وكانت تفكر بان خمسمئة كيلو متر توشك أن تفصل بينها وبين اولئك الذين تحدث نفسها انها لا تعلم الا القليل عن الرجل الذي تغادر كل شيء في سبيله..

ويأتي شارل لافارج بعد الظهر ويقرع باب غرفتها.. وكانت هي تود ان لا يرى هذه الفوضى في حجرتها الخاصة، فطلبت منه ان لا يدخل.. ومع ذلك فقد دخل معلناً بمرح انه لاول مرة يستعمل حقه الذي اعطاه اياه القانون.. وسارع فاحاط خصرها بذراعه، وحاول ان يقبلها.. وراحت ماري ترتعد فرحاً ثم دفعته عنها.. دون ان يفقه من امرها شيئاً... أجل، لم يفقه ان يوم الزفاف يوم مليء بالحوادث، مليء بالاحساسات والعواطف المنهكة، وهو أشبه ما يكون بمسيرة طويلة جداً تتخلل الطريق، في اثنائها، العقبات والمنزلقات..

وفيما كانت عمتاها تضعان فوق رأسها اكليلاً من زهر البرتقال كانت ماري لا تفكر الا بهذا الفراق الوشيك وفي هذه اللحظة الحرجة يدخل غرفتها السيد لافارج ويروح يقول لها وقد تملكه الاضطراب انه سيحبها، ويحميها باسم الذين ستفارقهم.

وتمضي ماري الى الكنيسة فيتم الاحتفال الديني بسرعة، وفي هذه الاثناء

كانت ماري تواري دموعها تحت خمارها المخرم على الطريقة الانكليزية..

تتبع الاحتفال الديني مأدبة غداء فاخرة، مرحة، واتفق جميع الحاضرين من أصدقائها وصديقاتها انها رائعة وجميلة وساحرة...

-٥-

بعد مأدبة الغداء، وفيما كان المدعوون من الرجال يشربون كؤوس الخمر الصغيرة في حجرة الاستقبال الكبرى، اختلت العمتان بماري في غرفة المكتبة الصغيرة. كانتا تقومان بما تتطلبه العادات والتقاليد من طقوس، وكانتا تنجزان ما يجب ان تنجزه الأم في هذه الحالة، فأخذتا تبصر انها بالواجبات الزوجية التي تنتظرها.. وتكشفان لها عما يكون بين الزوجين..

وكانت ماري تصغي ذاهلة، منهارة، ولكي تختصر هذا العذاب كذبت وقالت انها تدرك كل شيء وتعلم ما سيكون.. وعندئذ تقدمت بنتا عمتيها، وراحتا تساعدانها على رفع اكليل زهر البرتقال عن رأسها.. ولم تلبث ان نضت ثوب الزفاف الابيض والقت به على السرير.. ثم ارتدت ثياب السفر.

ولكي تبعد ليلة الدخلة.. قدر استطاعتها قررت ان تكون الرحلة الى بيت الزوجية متواصلة دون استراحة في الطريق. الا ان هذا لم يجر وفق رغبتها،، فقد كانت خيول البريد قد أوصى عليها لتكون متأهبة في الساعة الرابعة.

غير ان السيد لافارج الذي تغيب لملاحظة معدات للسفر لم يأت في الموعد المعين. وكانت ماري قد ارتدت ملابسها ووضعت قبعتها على رأسها على اتم الاستعداد للذهاب، وراحت تكثر من قبلات الوداع لمن تحبهم في حركات عصبية ظاهرة.. ومع ذلك فان السيد لافارج لم يأت.. ومضت ساعتان.. وقلق حوذي المركبة، وراح افراد الاسرة جميعاً يخفون عن ماري الاحساس بالكارثة من مثل

هذا التأخر في يوم كهذا اليوم.. وخارت قوى ماري فاضطجعت على سريرها، واعيدت الخيول والمركبة على ان تعود في الغداة..

وعندما عاد السيد لافارج قيل له ان زوجته قد داهمها التعب.. ونامت ماري وحدها تلك الليلة.

وفي فجر اليوم الثاني حلت ساعة الرحيل الحقيقية.. وقد اختلت ماري بزوجها في المركبة، وكانت تتمنى، لاول مرة. ان ترى منه بوادر الرقه والترفيه عنها.. ولكنه كان يغط في نومه.. وكانت هي وحدها تحلم.. وكانت تحسب انه سرعان ما يستيقظ ويروح يحيط خصرها بذراعه ويهمس في اذنها: «احبك.. احبك..» واستيقظ السيد لافارج فعلا.. وسارع فطبع على خدي ماري قبلتين مجلجلتين.

وهتف قائلا:

- هيا.. يا زوجتي.. لنتناول طعام الافطار.

ووضعا الطعام بين يديهما ولكنه كان وحده هو الذي يأكل ملء راحتيه وملء اشداقه فالتهم دجاجة كاملة. وشرب زجاجة نبيذ مترعة.. اما ماري فلم تتناول شيئاً ولم تشرب قطرة نبيذ واحدة.. وقد ازعجتها رائحة الطعام فرأت ان تبتعد عن زوجها وتجلس الى جانب الحوذي.. وعادت، حوالي الظهر، فاتخذت مكانها قرب زوجها، واخذت تحاول جّره الى حديث يبعث الثقة والاطمئنان في نفسها القلقة.. فتحدث عن الادب. وعن الموسيقى.. وعن التمثيليات والمسارح.. غير ان هذا كله ما كان ليثير ادنى اهتمام في ذهن زوجها.

واخذ هو، بدوره، يسألها عن الخشب، والحطب، والفحم والبيع والشرا.. فلم تجد ماري ما تقوله له.. وهكذا عاد الصمت فاطبق عليهما..

وقرر السيد لافارج ان يبيت ليلته في مدينة «اورليان» حيث تصل المركبة التي تقلهما في نحو الساعة الخامسة.. وكانت ماري قد نال منها التعب.. فطلبت اعداد الحمام لها.. وراحت «كليمانتين» خادمتها الصغيرة التي اصطحبتها معها تعاونها على خلع ملابسها والدخول في الماء..

وفي هذه اللحظة يقرع باب الحمام.. انه السيد لافارج يريد ان يدخل وتصيح ماري..

- انتظر لحظة فانا استحم، ولا اريدك ان تدخل..

غير انه راح يقول نافذ الصبر:

- انك امرأتي.. ولتذهب المواصفات والعادات الى جهنم.. وبئس المصير..

وعادت تقول:

- بعد ربع ساعة اكون قد ارتديت ملابسي

ولكنه اخذ يعربد صائحاً:

- اني اريد الدخول لانك لم ترتدي ملابسك بعد.. أم انك ترينني ابله؟ وهل تعتقدين انني سأسمح لباريسية وقحة ان تتلاعب بي بعد اليوم؟.. افتحي يا ماري.. والا اقتحمت الباب اقتحاماً !

-٦-

اتقدت عينا ماري.. فما سبق لها ان تنازلت عن شيء بالقوة والارغام اجابته

- حطم الباب اذا اردت، ولكني لن افتح لك ابدا..

وعندئذ راح السيد لافارج يصخب ويشتم دون اي اهتمام بمن عسى ان يسمعه ثم مضى غاضباً، ساخطاً، مستشيطاً..

وفي نحو الساعة السادسة كانت ماري قد ارتدت ملابسها، وشحب لونها من التعب والهم والقهر.. وذهبت الى لقائه، وكان السيد لافارج لا يزال تحت وطأة غضبة. ولما رآها قال بخشونة:

- وهل انتهيت، بعد، من عبث القرود الذي عبثته؟

ويله.. أليس يرى شحوبها؟ أليس بدانة هاتيك النساء في منطقة يرى نحولها المختلف عن «ليموسان»!..

وسرعان ما زال عنه الغضب كما يسقط القناع الزائف عن الوجه، فاحتضنها، وقبلها بلطف ورقة، وعرض عليها ان يتناولا طعام العشاء، ثم قبل ان لا يشرب معها غير قدح من الشاي، وذهب بها الى الشرفة، وقد اخذ المساء يرخي سدوله..

وتبادر الى حس ماري شعور بالهاوية المفتوحة قدميها.. الا انها تجاهلت هذا الاحساس.. وارتضت باللحظة الحلوة الراهنة..

وتم الاتفاق على ان لا يناما في مدينة «اوليان»، وان يمضيا ليلتهما في المركبة التي ستقلهما وتنطلق بهما.. وما كان لشيء ابعث للرضا والمسرة في قلب ماري كهذا القرار.. وانطلقت بهما المركبة متابعة رحلتها.. ووصلت بهما الى «شاتورو» حيث توقفت عند اقارب للسيد شارل لافارج.. وتبرع اولئك الاقارب فراحوا يروون لماري قصصاً وحكايات عن اعراس منطقة «ليموسان»، وحفلات الزفاف، بالتقاليد المرعية، وكيف يتدافع فتيان الشرف الى غرفة العروسين

وعلأونها، ووصفوا لها حساء النبيذ بالبهارات الافاوية، وهو حساء يجب ان يقتسمه العروسان في سريرهما.

واشمأزت ماري.. واحسّت انها تكاد تتقيأ.

***

واقبل يوم ١٥ آب وكانت العاصفة قد اخذت تهب، فادلهم الجو، واربد وجه السماء، ثم تدفق المطر كثيفاً، غزيراً، كأنه الطوفان.. واستحالت الطرقات الى برك يملاها الماء والوحل.. ووصلت المركبة الى قرية اسمها «اوزارش» وكان يجب ان تتوقف هناك بضع ساعات لاصلاح المركبة..

-٧-

تساءلت ماري، وهي تدير بصرها فيما حولها: اهذه مزرعة، ام قصر، ام انقاض؟ ثم هبطت من المركبة واخذت تصعد سلما صغيراًمن الحجر الاسود المنزلق. واستقبلتها حماتها وابنة هذه الحماة، وأدخلتاها غرفة استقبال إنها غرفة استقبال مجاوزاً... وتهاوت ماري جالسة على مقعد خشبي.. وعادت تسائل نفسها: اين تراه هذا القصر الجميل الذي تطل شرفاته الواسعة على منبسطات الارض المزدانة بالعشب الخضيل؟.. ها هي الجدران هنا متداعية، والارض عارية، والمفروشات تافهة حقيرة... وبينما كان السيد لافارج يحتضنها ويحيط خصرها بذراعيه وهو يدعوها بـ «عصفورتي الصغيرة» كان اليأس الكبير الحالك قد ملا نفس ماري وتغلغل في شعابها..

وتبادر الى ذهنها ان هذا كله فخ.. نصب لها وها هي قد وقعت فيه.. اجل لقد القي بها بين فكي فخ رهيب.. ولاح لها انها اشبه ما تكون بحيوان اطبق عليه الفخ، وليس يطلب شيئاً غير ان ينجو ويفر..

يجب ان تهرب من غرفة الاستقبال هذه، ان تهرب من هؤلاء الناس، ان تترك كل شيء وتنطلق ناجية، هاربة، وهي تنفض ثيابها.. وتذرعت بالصداع وتطلبت ان يذهبوا بها الى غرفتها الخاصة..

لما دخلت تلك الغرفة وقفت ذاهلة مبهوتة.. أهذه غرفة حقاً؟ انها صحراء.. صحراء فيها سريران وبضعة مقاعد رديئة ضائعة في اركانها الاربعة.. وهذا ايضا يجب ان تفر منه.. يجب ان تفر نهائياً من هذا الكذب.. هذا الاحتيال.. من هذا القبح.. من اولئك الكذابين..

وكان اول ما خطر لها: ان تكتب لجميع اهلها وذوي قرباها،، اولئك الذين خدعوهم ايضا وغرّروا بهم كما غرروا بها..يجب ان تكتب لهم وتطلب النجدة.. وطلبت دواة وريشة فجاءوا لها بأناء زجاجي من اواني المربى، ولكنه قذر ومشروم.. وفيه خبز.. وكان الليل قد ارخى سدوله تماما على محلة (غلاتديه) التي تحيط بها التلال والغابات من كل ناحية. وكانت السحب الداكنة المربدة تقطع وجه السماء.. وما تزال ماري تقول في نفسها: الهرب.. الهرب.. ويجب ان لاتنتظر شيئاً لكي تهرب.. ولاحتى عون ذوي قرباها..

وراحت تسير في ارجاء الحجرة الواسعة ذهابا وايابا، وكانت تسمع وقع خطاها تسك سمعها لفرط خلو الحجرة وفراغها المخيف.

ثم هجمت هجوما على الريشة، والورق، فان فيهما ثمة نجاتها.. واخذت تكتب.. وكانت ريشتها تجري على الورق الازرق الباهت بسرعة. ولم تكن تكتب لاهلها، وانما لزوجها، لكي يرد اليها حريتها.. لكي يعيدها من حيث اتت.. لكي يطردها طرداً.. وعندئذ راحت تبتكر كل ما في وسعها ان تبتكره.. والصقت بنفسها تهما، فقالت ان لها عشيقاً .. وان هذا العشيق قد تبعها في رحلتها الطويلة الشاقة، رحلة زفافها المشؤوم.. وقد التقت به في مدينة

«اورليان» التي استراحت فيها، ثم في قرية «اوزارش».. كتبت كثيراً..وما من كلمة من كلماتها، وما من حركة من حركاتها، الا وكانت تصدر عن امرأة خائنة.. لا تستحق من السيد لافارج الا ان يطردها على الفور.. وابقت له في هذه الرسالة بانتها «دوطتها».. وقالت انها ستذهب بعيدا، الى الشرق، الى ازمير، الى اي مكان.. في نهاية الدنيا.. اما اذا حيل بينها وبين الذهاب.. فانها ستقتل نفسها دون ريب على الاطلاق..

وعندما انتهت من كتابة هذه الصفحات الكثيرة.. عاد الى خديها بعض حرارة.. ثم هبطت من غرفتها لكي تتناول طعام العشاء.

-٨-

كان العشاء وكأنه لا نهاية له، وكانت الشموع القليلة الكثيبة تنير المائدة، وتركوها صامتة، واخذ السيد لافارج يتحدث مع افراد اسرته باللهجة المحلية التي لا تفهمها ماري. كان صمتها تاما وشاملا، وكان يأسها بالغا حتى ليكاد أن لا يكون له اسم معروف.

في نحو الساعة العاشرة نهض السيد لافارج عن المائدة وقال:

- هيا.. يا زوجتي.. ولنذهب الى غرفة نومنا..

وقالت ماري:

- ارجوك.. ان تتركني وحدي في غرفتي.. بضع دقائق. ولكنه قال متبرما:

- لا تزال لك هذه الاطوار الغريبة.. انني امنحك ما تطلبين لاخر مرة.

وعندئذ اغلقت ماري غرفتها على نفسها، واعطت رسالتها الى خادمتها

كليمانتين التي اصطحبتها معها، وقالت لها ان تسلمها للسيد لافارج.. ومضت بضع دقائق.. وحدث ما حدث عند باب الحمام في مدينة «اورليان».. فقد وقف السيد لافارج، من الناحية الاخرى للباب، واخذ يسب ماري ويكيل لها الشتائم.. ويقول متبجحاً انه بحاجة الى امرأة.. وانه سيحتفظ بها.. لانه لا يملك وسيلة الزواج بأخرى غيرها.. وفتحت ماري الباب.. ثم لاذت بفرجة احدى النوافذ... واراد هو ان يقترب.. ويمسك بها.. ولكنها تراجعت.. وهددته ان تلقي بنفسها من النافذة العالية اذا تقدم خطوة اخرى..

وقالت له:

- اقتلني اذا اردت ... ولكن اياك ان تمسني...

وعندئذ شحب لونه، واضطرب، وانطلق ينادي امه واخته اللتين كانتا تنتظران خائفتين في الحجرة المجاورة.. وما أسرع ما تقدمتا... وأخذتا تبكيان.. وتسألان ماري الصفح عن اكاذيب شارل.. وطفقت امه تقول وقد اخذت يدي ماري بين يديها.

- لقد احبك حباً عظيماً.. احبك حباً جارفاً.. وكان يخشى، فوق هذا كله، ان يفقدك..

وقالت ماري.

- انني أصفح عن كل شيء.. ولكن يجب أن تخلوا سبيلي.. اريد ان اذهب..

واقترب لافارج هو الاخر، وراح يبكي مع امه واخته، ويقبل يدي ماري الجامدتين.. وجعل يتوسل اليها ان تمكث يوماً آخر، او يومين.. وقال:

– واذا لم تجدي نفسك سعيدة واذا لم استطع ان اقنعك بحبي، فلن احاول ان استبقيك..

وفي النهاية وقد حطم الارهاق ماري، ونال منها الهم، استلقت فوق سريرها شبه مغمى عليها لقد احتواها ذلك السرير الكبير الضخم وحدها، ولا من يقوم على حراستها سوى خادمتها كليمانتين.. وانسحبت افراد اسرة لافارج وعادوا على أعقابهم فائزين منتصرين، لقد انتهى الأمر وغدت ماري سجينه ذلك المكان الكئيب الذي زعم السيد لافارج انه قصر عظيم فاذا هو انقاض وخرائب تملأ النفس انقباضا ورهبة..

-٩-

ارتفعت الشمس في الغداة وملأت اشعتها صفحة السماء الصافية. وجاء من اعلم ماري ان زوجها مريض، فذهبت لتراه، وما ان رفت الابتسامة على شفتيها حتى شاع السرور فيما حولها وتطلعت اليها العيون.. وفي هذا اليوم تضافر كل شيء لاستبقاء ماري: اسرة لافارج، السماء الزرقاء، والنسيم المعطر والنهر المعتكر..

وفي اليوم الثاني تماثل شارل لافارج للشفاء، فركب هو وماري زورقا ذهب بهما الى مصنع صهر الحديد، بينما كان الزورق ينساب على صفحة النهر جعلت ماري تمس الماء براحتيها فتجد لذلك شعوراً بالمسرة والابتهاج.

وفي المصنع احتفى العمال بها ايما احتفاء، واطربهم ان يجدوها جميلة خلابة، ولم يخف السيد لافارج سروره بذلك، وراح يشرح لماري كيف يجري العمل في المصنع، ويفسر لها اسرار صهر الحديد، فاهتمت عظيم الاهتمام بما سمعت، والقت الكثير من الاسئلة وتلقت عليها الاجوبة.

ثم جاء فلاحو تلك الناحية وقدموا للعروس الشابة اكاليل الزهور مصحوبة بتهانيهم وتمنياتهم القلبية لها بالسعادة. وابتسمت ماري، واحست، على مهل، ان يأسها والام روحها قد اخذت تخف وتزول وطأتها عليها...

ولما عادت إلى البيت ووقعت عيناها على كل صور القبح والدمامة في ذلك البيت العتيق الكئيب اخذ السيد لافارج يبذل الوعود والعهود بان يدخل على البيت كل التحسينات التي تريدها..

وفي النهاية وافق، مؤقتاً، ان لا يكون بالنسبة لها اكثر من اخ.. اخ وحسب.. ولما اضطجعت على سريرها سرعان ما وجدت النوم الهنيء القرير الذي كانت تنعم به وهي طفلة غريرة..

***

ومرت الايام، واخذت ماري تتعود هذه الحياة.. وامكنها ان تروض هذا الزوج الغليظ... بل ان تسحره.. وقد وافق على كل ما تريد لينال رضاها.. واعتزمت، هي، ان تغير وتبدل في هذا البيت الكئيب المريد.. فوضعت لذلك الخطط والتصاميم، واتى لها بالبنائين فجعلوا يعملون وفق ارشاداتها وتوجيهاتها.. وانها لتوشك ان تصنع من هذه الخرائب والانقاض بيتاً جميلا تضيئه الشمس من نوافذ حديثة عريضة، وغرفة الاستقبال الموحشة سرعان ما تغدو قاعة رحيبة زاهية، وهذه الممرات المعتمة سوف تتألق وتستضيء.. ثم انه بيت لا كتاب فيه، واذن فلا من حجرة واسعة تكون مكتبه انيقة، وتزدان بشتى الكتب والمؤلفات.

وفي انتظار ان يتم هذا كله فقد أتي لها بالمعزف الذي اشتراه لها من باريس وُوضع في حجرتها الخاصة الواسعة، فكان[illegible]ف له عليه فيفرح ويبتهج.. ثم كانا يقومان معاً بنزهات طويلة سيراً على الاقدام، وغدت ماري تحب مظاهر هذه الطبيعة التي يشيع الجمال في غاباتها ووديانها ونهرها.. كان السيد لافارج

فخوراً مزهوا فأخذ يقدمها لجميع اقاربه واصدقائه وكانت هي تهزأ في نفسها من اولئك الناس سكان الاقاليم، الا انها كانت، في سريرتها، جد مزهوة ان تثير كل هذا الاعجاب والانبهار.

وذهب بها ذات يوم الى مرابض ترويض الخيول، واهداها فرساً شهباء استثارت اعجابها.

وذات مساء وفيما كان الزورق يعود بهما من مصنع صهر الحديد، همس السيد لافارج قائلا:

ماري.. اتراك ستبقين معنا؟ واجابت: احسب ان ذلك متوقف عليك . فعاد يقول: انت تعلمين انني على استعداد ان افعل كل ما يمكن ان ينال اعجابك ورضاك.. قولي يا ماري هل ستحبينني ؟...

واجابت ماري بوقار.

– اظن انني بعون الله، وبعونك انت على الخصوص، اعتقد.. انني سأحبك..

وفي المساء نفسه دعا السيد لافارج أمه ان تقدم لماري المفاتيح التى ستجعل منها سيدة القصر... وقدمت لها امه تلك المفاتيح بإذعان... اجل قدمت لها مجموعة المفاتيع التي كانت من اسباب كبريائها وازدهائها اربعين سنة او تزيد..

– ١٠ –

عندما كانت ماري تحس ان شجاعتها توشك ان تخونها كلما فكرت باهلها، وبمسافة الخمسمئة كيلو متر التي تفصلها عنهم، كانت تقول في نفسها. «اريد ان اكون سعيدة، بل يجب ان اكون سعيدة» وعندئذ كانت تشيع بوجهها

عن الماضي، وترمي ببصرها الى المستقبل وجعلت تكثر من المشروعات. وتهتم بصنع صهر الحديد، وتعنى بمهنة زوجها وكانت في هذا السبيل، تجمع المعلومات والمعارف، وتدرس الكتب العلمية المتعلقة بهذه المهنة. وكانت تريد ان تكون على علم بكل شيء.

وكان السيد لافارج يحسب انه اهتدى الى وسيلة لمضاعفة الانتاج بتخفيض الايدي العاملة وزيادة العمل الالي مما يؤدي حتما الى تخفيض الاجور.

وتحمست ماري لهذا المشروع وراحت تحضر التجارب التي كان زوجها يجريها، وتنسخ ما يمليه عليها من نتائج تجاربه، وهي نتائج سيودعها رسمياً ليسجل حقوق اختراعه، ويحصل بذلك على شهادة رسمية تحمي حقوقه في هذا الاختراع.

ومضت الايام بماري بين معمل صهر لحديد وتحويل البيت الكئيب الى سكن حديث بهيج، والقيام بنزهات فوق صهوة فرسها والاحاديث العائلية مع زوجها.. مضت الايام بها بسرعة جعلت تفكر معها: كيف امكنها، ذات يوم، منذ بضعة اسابيع او بضعة اشهر ان تخشى السأم والملالة... وساءلت نفسها: أتراها غدت تحب لافارج؟... انها لتفسح له المجال ليحبها.. الا يقدم لها، كل يوم، الدليل تلو الدليل على حبه اياها؟ الم يكتب وصيته التي جعل فيها من ماري وارثة ثروته كلها؟..

وماذا فعلت هي بالمقابل؟

لقد دونت وصيتها هي الاخرى وجعلت فيها من حق شارل لافارج ان تعود اليه غلة حصتها من املاك اسرتها..: ولقد عهدت بهذه الوصية طي مغلف سري مختوم..

ومع ذلك فان ثمة امورا كثيرة ما كانت ماري لتستطيع ان تتصورها، اوتراها بعين خيالها او بصيرتها، لانها ما كانت لتريد ان تراها وهي مأخوذة بجمال سعادتها الطارئة.

***

والواقع فان اسرة لافارج كانت قد زينت لشارل الذهاب الى باريس ليأتي بزوجة غنية، زوجة تستطيع ان ترفد بمالها اعمال مصنع صهر الحديد الموشكة على الغرق... ولم يفكر احد انه سيقع في هوى تلك الزوجة.. وعلى الرغم من هذا فان مشروع الاسرة لم يتغير وهو: ان يجردوا ماري من مالها.. وكان هو السبب الذي جعل شارل يكتب وصيته سالفة الذكر التي قابلته بمثلها..

وقد حدث ما هو انكى من هذا، فقد كتب شارل، خفية، وصية اخرى تلغي الوصية الاولى، وتجعل امه وحدها هي وارثة ثروته. ولم تعلم ماري شيئاً عن هذه الوصية الثانية الا فيما بعد..

اجل .. ان هذا كله ما كانت ماري لتستطيع ان تتصوره او تراه بعين بصيرتها او خيالها.

وشيئا فشيئاً، وبصورة غير محسوسة تكون ثمة فريقان، او جبهتان متعاديتان: الام من ناحية وحولها اسرة لافارج، ومن ناحية اخرى شارل لافارج نفسه ومعه ماري.

وكانت امه تجمع حاشيتها واعوانها في غرفتها الخاصة لا تستقبل فيها احداً غير المقربين اليها، وهي حجرة يختلط فيها الادميون بالدجاج والديوك الرومية، شأن القرويين، وتعكف فيها الام على صنع طعامها الخاص بيديها، وتدور الاشباح والشياطين والخرافات.

ومن ناحية أخرى كانت ماري وكان زوجها شارل منصرفين الى بحث مشاريع المستقبل.. ولا ريب في ان شارل كثيراًما كان يتجاذبه هذا الفريق.. وذاك الفريق.. فيكون عند امه وحاشيته مرة.. ومع زوجته مرة..

-١١-

واستقر الرأي على ان يسافر شارل الى باريس لكي يحصل على الشهادة الرسمية باختراعه، ولكي يحاول الحصول على قرض يمكنه من استغلال هذا الاختراع الجديد.. وتدخل ماري في هذه اللعبة الخطرة، فتكتب الى اصدقائها، والى ذويها، تشرح لهم مشروعات السيد لافارج وتشهد بنزاهته وصدقه، وتشيد بمزاياه وعبقريته.. لقد جعلت من نفسها داعية لاختراعه ومروجة له..

ولما حانت ساعة الرحيل، كان الوداع مؤلما الى حد جعل ماري تمتطي صهوة فرسها الشهباء، وتلحق بعربة البريد التي كانت تقل زوجها شارل..

وهتف هو بها.

- تعالي معي يا ماري. فنذهب الى باريس معاً..

غير انها هزت له رأسها بالنفي وقالت

- لن يكون هذا معقولا.. افلا يجب ان ابقى لكي اقوم بالاشراف على العمل بدلا منك حتى تعود.

***

في هذه الاثناء، كان قد ظهر في محيط اسرة لافارج متقحم جديد انه رجل يدعى «دنيس» يعمل سمسارا لبيع المصنوعات الزجاجية في باريس. وقد قدمه شارل لافراد اسرته قبل رحيله الى باريس بقليل على اعتبار انه رجل ثقة وقد

جعل له صلة بمصنعه... وبيته على السواء.

الا ان ماري لم تمل اليه، ولم تجد فيه صفة واحدة من تلك الصفات التي زعمها له السيد لافارج... بل هي وجدت مساعيه في رفع التكلف في البيت بغيضة مقيتة، وسارعت فاعلنت فتورها حياله،، لكي يلزم مكانه لا يتعداه.. وحصلت من زوجها على وعد قاطع بأن لا يدخل هذا الرجل المقتحم حجرة الاستقبال ابداً.. وكان هذا وحده كافياً ليصبح ضيفاً يستقبل في اية لحظة في غرفة السيدة لافارج الام..

وهكذا فان ماري لم تستشعر مدى الحقد الذي انطوت عليه اضالع هذا الرجل ضدها...

لزمت ماري غرفتها الفسيحة حيث يتراءى لها المعزف الاسود الكبير في ضوء الشموع الموقد وكأنه نعش رهيب.. وجعلت ماري تكتب لزوجها الرسالة تلو الرسالة.. وكانت حين يتقدم الليل تعكف على معزفها، لكي تنجو من احساسها بوطأة الوحدة، وتوقع بعض معزوفات شوبان الشجية وغيره من الموسيقيين .

وفي الصباح كانت تبعث برسائلهاالى قرية «اوزارش» لكي تصل الى السيد لافارج في باريس بسرعة. وفي كل صباح كانت تنتظر نافذة الصبر الرسالة اليومية التي كان هو يرسلها اليها من باريس.

وكانت كل رسالة من هذه الرسائل مليئة بعبارات الحب والهيام، وباخباره في باريس.. وكان يقول لها في رسائله ان المساعي التي يقوم بها طويلة جداً، وهي تتطلب صبراً لا نهاية له، والناس هناك يعدون، ويعدون، ويخلفون وعودهم.. وان الشهادة الرسمية بالاختراع لا بد ان ينالها قريبا.. اما قروض المال.. فالله اعلم.

ولكن ماري لا تتردد، فتعود تكتب موصية بزوجها اصحاب النفوذ والكلمة المسموعة.. واصفة اختراعه انه عظيم.. ولا مثيل له.. وكان هو لا ينفك يسألها المزيد من هذه التوسلات لرجال ونساء من ذوي النفوذ.

وكانت ماري تحس بصغار نفسه، وخسته في هذا الذي يلح في طلبه منها.. كانت تحس بهذا كله فتخجل ويعلو الاحمرار خديها..

ثم تعود وتتمالك نفسها.. وتقول في نفسها انها يجب ان تكون سعيدة حيث ارادت لها الاقدار ان تكون.. وكانت تعود فتتشبث بكلمات الحب والحنان التي كانت تطفح بها رسائل شارل لافارج اليها... وتجيب عليها بما يماثلها رقة وحنانا..

وكانت ماري لا ترى، او هي لا تريد ان ترى ان تبادل هذه الرسائل كان يلقى ببذور الغيرة المدمرة في قلب السيدة لافارج الام. فقد كانت ام شارل تحمل الى كنّتها، كل صباح، البريد الواصل من باريس.. وتظل واقفة مجللة بردائها الاسود الذي لم تفارقه منذ وفاة زوجها.. وكانت ماري تتسلم منها رسائل شارل فتفضها وتقرأها، ولا تنبس بكلمة واحدة.

-١٢-

كانت ماري تفض رسائل زوجها وتقرأها ولا تنبس بكلمة واحدة. وعندئذ تسالها امه:

ماذا تراه يقول؟

وتحس ماري، انها مضطرة ان تقرأ بصوت جهير بعض الفقرات فتتمتم السيدة لافارج الام:

ما اشد رقته نحوك.. وماذا تراه يقول عني؟

راحت ماري، بعد هذا تخفي عن حماتها الكلمات والعبارات اللطيفة الرقيقة التي يخصها بها وتتشكى امه وتقول: انك لا تثقين بي يا ماري فتخفين عني كل شيء».

وفي احيان اخرى ايضا كانت ماري تلقي في موقد النار الرسائل التي كانت تتلقاها من عمتيها واصدقائها. ولكن السيدة لافارج الام لا تغتفر لها هذا لم تعد تغتفر لها شيئاً. بل هي قد اضحت تمقتها وتنطوي لها على الحقد والكراهية وكانت ماري من ناحيتها تبتهج وتسر ان تسدد مثل هذه الضربات الى هذا الفضول الذي يبتدي في سكان الاقاليم وتزدريه هي كل الازدراء غير انها لم تكن لتدري انها بهذا تحفر بيديها الهوة السحيقة التي يوشكون ان يدفعوا بها فتهوى الى قرارتها.

قررت ماري ان تبحث عمن يرسم لها صورتها لكي ترسل بها الى زوجها المتغيب في باريس. فاستدعت فتاة من العوانس مشهورة بحذاقة الرسم في «غلانديه»، اسمها الانسة «بروس» فكانت ماري تجلس قبالتها كل صباح وتروح الانسة بروس ترسمها.. ثم تنسحب الرسامة، بعد الظهر، وتنسل داخله حجرة السيدة لافارج الام حيث تغلق الابواب ولا، تدري ماري ما يدور ثمة من احاديث.

ولكنها ما كانت لتهتم بهذا كله، وانما هي كانت تشغل ذهنها الف فكرة تتلهى بها لكي تملا هذا الفراغ الكبير الذي يفصل بينها وبين زوجها والذي لم يعد محتملا لكليهما..

وقد ارسلت له صورتها التي رسمتها لها الانسة بروس، ثم جعلت تبعث اليه بنوع لذيذ من قطع الحلوى التي تجيد صنعها، واتفقت معه في احدى رسائلها،

على ميعاد- كل مساء وفي ساعة معينة - حيث يقفان ويروح كل منهما يتأمل نجمة بعينها فيكون هذا بمثابة لقاء يومي بينهما.. بل ذهبت الى ابعد من هذا واوعزت له ان لا يتناول قطع الحلوى المرسلة له الا في ساعة معلومة كل مساء، وهي الساعة نفسها التي تروح هي تتناول فيها قطعا مماثلة من هذه الحلوى.. فيكون لهما من وراء هذا كله تواعد غرام، وموافاه حب وهيام.. ولكن الامر لا يتم على نحو ما تخيلته ماري.. فقد كان زوجها لا يكاد يعود مساء الى غرفته في فندق وقد نال منه التعب والارهاق، حتى يستسلم لنوم ثقيل بعد ان يكون قد تناول قطعة من هذه الحلوى.. ولكنه لا يلبث ان يستفيق مذعورا ويروح يتقيّأ باستمرار ويمضي ليلة من اسوأ الليالي.

وفي الوقت نفسه كانت ماري لا تنفك تعينه وتشد ازره بصورة رائعة. ولقد كتبت له تقول في احدى رسائلها المرسلة اليه في مطلع شهر كانون الاول لا تنس انك السيد الوحيد المتصرف بعوائد املاكي في باريس وغيرها.. وان ما املكه هو لك. فافعل ما تشاء، ولك ملء الحرية في ان تقترض او تبيع فانا موافقة سلفا على كل شيء..»

أليس هذا السخاء كافيا للتعبير عما تملكه في قلبها من مودة للسيد شارل لافارج.

وذات صباح حملت امه الى ماري تفويضا لا بد ان توقعه قبل ارساله اليه في باريس، وكان هذا التفويض هو الذي يتيح له ان يعقد قرضا هو بحاجة اليه، وكان الموضع الذي يجب ان توقع فيه مشارا اليه بصليب صغير، وكانت ماري توقع في العادة دون أن تقرأ نص ما توقع عليه... ولكنها لا تدري، هذه المرة، كيف بسطت الورقة تحت ناظريها وآخذت تقرأ فيها.. وكانت كلما قرأت ازدادت شحوباً وارتعاشا.. واحست من جديد انهم قد نصبوا لها فخا رهيبا.. ذلك ان النص الذي وقعت عليه لم يكن تفويضا لزوجها.. وانما كان وصيتها..

وصيتها نفسها..

واتضحت لها الحقيقة المروعة، الحقيقة التي تفقأ العين..

ذلك ان السيدة لافارج الام كانت قد فتحت وصية ماري التي ائتمنتها عليها مختومة في مغلف مغلق، وسلمتها لاحد رجال القانون وطلبت منه ان يجري فيها التبديل والتغير الموافقين اللذين يجردان شقيقتها السيدة «فيولان» من حقها في وراثتها، ويحصر هذا الحق جميعا في اسرة لافارج وحدها دون منازع.

وصرخت ماري غاضبة، مهتاجة، وقذفت حماتها بنعوت الاحتقار والازدراء.. وراحت هذه ترتجف وتقول:- رحماك يا ماري.. لا تقولي شيئاً من هذا لابني.

-١٣-

تمالكت ماري نفسها، وكظمت غيظها اخيراً واجابت حماتها العجوز:

- لن اقول، ياسيدتي، شيئاً... ولست اريدك ان تحمري خجلا وعاراً امامه...

غير ان العجوز لن تلقي سلاحها من بعد، ولن تعترف بالهزيمة في هذا الصراع المرير....

اجل ان هذه الوصية التي ارادوا الحصول عليها بالمكر والدهاء... لابد ان تكتبها بملء رضاها. وقالت لها حماتها:

- واذا وضعت يا ماري ولداً لك... اتراك تحرمينه ايضاً من ميراثك؟

وهتفت ماري منسحقة:

- اذا اقدر لي ان اضع ولداً... فثقي ياسيدتي ان كل ما املك يكون نصيبه...وعندئذ قالت العجوز:

- ثقي، يا بنيتي، بخبرتي وتجاربي... ان عينيك المتعبتين... وآلام القلب تنتابك... هذه كلها خير دليل على انك حبلى... واخيرا اعلن السيد شارل لافارج عودته من باريس. وعين لذلك موعداً هو الثالث من شهر كانون الثاني. وقال في رسالته:« سأصل في الضحى. واريد ان تقع عيناي، اول ما تقعان. عليك انت.. فكوني وحدك.. وحتى بدون امي.. اعملي على ان يكون هذا كله كما اريد..»

ولكنه وصل قبل موعده.. وكان الصبح لما يتنفس بعد، في الثالث من شهر كانون الثاني، عندما انحنى السيد شارل لافارج على سرير زوجته وايقظها بقبلة طبعها على صفحة وجهها. وفتحت ماري عينيها.. أهو، حقاً، الماثل امامها؟ ولكن.. لماذا تراه قد هزل.. وارتخت، هكذا، معارف وجهه؟ وارتسمت في عينيها امارات القلق والالم... وراحت تسأله عن هذا كله بلطف ورقة.. وألحت في السؤال واضطر ان يتخفف مما يكتمه في صدره.. وافضى لها بكل شيء.. فهو، في اثناء اقامته في باريس، لم يكن ليتلقى رسائلها الجميلة وحدها، ولكنه كان يتلقى رسائل كثيرة اخرى من امه، وشقيقته، وفي هذه الرسائل كانتا تنقلان له كل كلمة تقولها ماري، وكل مسعى. وكل حركة من حركاتها، وتخبر انه بكل رسالة تتلقاها، وتعلقان على هذا كله وتفسر ان الاشياء على هواهما، وتموهان، وتذكر ان ما كان وما لم يكن...

وذهلت ماري... وشرعت تبين له زيف ما كانتا تخبر انه به، وتوضح بطلانه، وتقضي، بهذا، على جميع الشبهات، وعلى ما امتلأت به نفس شارل من غيره،

وهم، وغصص... سمّمت ايامه ولياليه في باريس...،

ولم يذهب شارل لتحية امه الا حوالي الظهر، وكانت هي قد راحت تنتظره منذ الصباح الباكر.. وشدماحز في نفسها تأخره عن موافاتها، فأنبته لعدم اهتمامه بها، وقلة اكتراثه بشأنها..

وعلى الفور احس انه متعب، وانه بحاجة الى النوم، فطلب من ماري ان ينام في غرفتها ليكون قريباً منها. وانتابته، بعد الظهر، نوبات من التقيؤ.. وعندئذ نطقت امه بكلمة رهيبة مروعة.. فقالت: انه السم..

واستدعى الطبيب «باردون» ففحص السيد شارل لافارج، وقال انه مصاب بمرض عصبي، وبالتهاب في الحلق لا خطر منه، ونصح للمريض بالهدوء والسكينة..

وجعلت ماري من نفسها ممرضة لزوجها، فلم تعد تبارحه.. وجعلت تحادثه عن مشاريع المستقبل وعن اعماله.. وكان هو قد حصل على الشهادة الرسمية باختراعه ..، واذن.. فهذا انتصار اول له.. لا بد ان تتبعه انتصارات.. بعد ان تزول من الطريق كل صعوبة، في حينها، من الصعوبات والمعوقات..

ويروح شارل فيغمر يدي زوجته تقبيلا، وينادي امه ويقول:

- اترين عظيم حبهالي؟...

وفي اكثر الاحيان كان يأبى ان يتناول اي دواء ما لم تعطه اياه ماري نفسها...وكانت ماري تسر وتبتهج لانه يفضلها على امه وشقيقته...

-١٤-

في هذه الاثناء كانت تكثر الجلبة حول سرير شارل لافارج، وتزداد الحركة ممن

لا ينفكون يروحون ويجيئون، ويحرمونه بجلبتهم وحركتهم من الهدوء والنوم المنشودين، فهذه امه.. وهذه شقيقته.. وزوج هذه الشقيقة وشريكه، والسمسار دنيس.. كلهم يروحون ويجيئون حوله، ويتحدثون، ويتساءلون، ويتهامسون، ويدور في احاديثهم ذكر المال، والاعمال، وما يجب من تفويضات.. وتوقيعات، انهم جميعاً يفكرون كثيراً بالمال.. اجل انه المال.. المال دائما..وفي الوقت نفسه اخذت الجرذان الموبوءة التي تملأ ذلك البيت العتيق، تعيث في كل مكان، وتثير الفوضى والاضطراب حتى في غرفة المريض نفسه.. وكان السيد شارل لافارج يتوسل الى ماري قائلا:

- خلصينا من هذا الوباء يا ماري.. خلصينا منه..

وتقرر القضاء على هذه الجرذان بقتلها.. واتت ماري بمادة الزرنيخ من صيدلية في بلدة «اوزارش» القريبة.. ولم تكف هذه الكمية الاولى من الزرنيخ.. للقضاء على الجرذان..بل ان الجرذان، وقد تكاثرت جداً، لم تعد تمس الزرنيخ..وجعلت ماري تأتي بمقادير اخرى اكبر واوفر من الزرنيخ ولا هم لها الا ان تقضي عليها وتخلص البيت منها..

وذات صباح، وفيما كان السيد لافارج متكئاً يستريح فوق كتف ماري الجالسة حده، اقتحمت الغرفة عليهما شقيقته كالمجنونة التي فقدت صوابها، ثم القت بنفسها على شقيقها، وأيقظته بصراخها وبكائها، وهي تقول:

- انك على وشك ان تموت يا شارل.. وماذا تكون الحياة بدونك؟ سألحق بك الى القبر.. ولكنك لن تموت الا في أحضاني.. ونهضت ماري مضطربة، وحاولت ان تهدىء هذه المرأة الباكية... في حين كان شارل يلتفت نحوها وقد توترت ملامحه من الهم والغم وقال لماري:

- لقد اخفيت عني هذا.. واذن..فلا بد من ان اموت؟! وصاحت ماري:

- انت لست في خطر... ولكن مثل هذه المشاهد... ستقضي عليك حتماً...

وجاء من ذهب بشقيقته من الغرفة.. وبقي هو مغموماً يهمس قائلا:

- آه.. ياماري المسكينه.. لا مفر من الموت اذن.. شدما احببتك..

وازدادت حالته، في الغداة، سوءاً... واتوا له بطبيب آخر.. هو السيد «ماسينا»... وقال هو الاخر.انه مرض عصبي.. وذكر، مؤكداً، انه ليس في خطر على الاطلاق... ومع ذلك فقد كانت السيدة لافارج الام لا تنفك تحاول بجميع الوسائل ان تبعد ماري عن سرير ابنها وتقول لها

- لقد نال منك التعب... ولقد هزل جسمك... ويجب ان تستريحي.. ولكن شارل كان يئن قائلا:

- فلتبق ماري الى جانبي.. فهي وحدها التي تستطيع ان تواسيني وترفق بي..

وعندئذ كانت امه تنفجر قائلة:

- انكما تريدان، انت وهي، ان تطرداني.. انا عارفة.. ولكنني سأدافع .. وسأعرف كيف ابقى. وهكذا تجمعت حول سرير المريض: مظاهر العنف، والحقد، والمقت، والصراخ، وراحت تتدفق من حوله كالسيل العرم.

وفي احيان اخرى كانت العجوز تنسحب الى حجرتها الخاصة فتتأدى الى السمع محادثات... ومداولات... وكان صوت السمسار «دنيس» يعلو جميع الاصوات...

وفي هذه الاثناء كان شارل لافارج لا يتناول الا القليل من الطعام... وكانوا يعطونه النبيذ الاحمر الكاوي.. فكانت ماري تأخذ بقايا هذا النبيذ فتلقيها وتقول:

– انهم يعطونه نبيذا... في حين ان حنجرته في اشد حال من الالتهاب...

-١٥-

كانت ماري نفسها تشكو من ألم معدتها منذ امد طويل. ولكي تخفف من هذه الالام كانت تستعمل نوعا من الصمغ العربي فتهدأ وتستكين..

ولهذا كانت تمزج هذا الصمغ المفيد عدة مرات كل يوم فيما كان يتناول زوجها من سوائل.

وتعبت ذات يوم فتولت شقيقة زوجها صنع نوع من الحليب لها فشربته كله في حين كان زوجها يبدي رغبته في ان يشرب بعدها، نصف هذه الكمية. فاضطروا لكي يرضوا السيد لافارج ان يضعوا له من جديد كمية اخرى من هذا الحليب.ولما تم اعداد هذا الحليب كان شارل قد اخلد الى النوم وعندئذ وضعوا الوعاء الممتلىء بهذا لحليب قرب ماري غير انها اعادته فيما بعد الى المطبخ عندما تبين لها انه قد ابترد..

وكانت الامور المالية لا تنفك كل يوم الشاغل الاكثر لافراد هذه الاسرة وقدطلبوا من ماري ان توقع لهم على سندات غير مؤرخة بمئات من الفرنكات وكان لا يمر يوم الا وتشعر ماري فيه انها تكثر فيه وتكثر حركات الذين يأتون ويذهبون ويضطربون في ارجائه جميعاً.. والانكى من هذا كله انهم كانوا سرعان

ما يصمتون ولا تعود شفاههم تنطق بكلمة واحدة كلما اقتربت منهم او لمحوها آتية نحوهم.

***

وذات يوم وفيما كانت ماري تضيف ذرارة من الصمغ الى كمية الدواء الذي عليه ان يتناوله اسرعت امه حانقة، ظافرة، متوعدة فانتزعت من يد ماري الملعقة والدواء معاً وهتفت وهي تريهما لابنها:

- اياك ان تتجرع شيئاً من هذا الدواء خاصة.. لقد وضعت فيه مسحوقاً ابيض ألم ترها تفعل ذلك يا بني اياك... اياك..

وعندئذ القى السيد لافارج نظرة حزينة، يائسة، منكسرة الى ماري، ثم اشاح بوجهه..

ما لبث السيد دنيس، السمسار وصديق شارل لافارج وعدو ماري، ان جاء واستقر عند سرير المريض.. ويبدو أن شارل لافارج نفسه طلب ذلك والح فيه... واصر ان لا يفارقه ابداً...

وبعد ذلك بقليل طلب السيد لافارج ان يساندوه، ثم تماسك واستدعى ماري الى جانبه، وامسك بيدها وراح يتوسل اليها هامساً.

- دعيهم يفعلون ما يشاؤون... ولكن لا تتركيني..

وانصاعت لارادته، ولبثت بقربه، وراحت تفكر، وتطيل التفكير في حال زوجها وما آل اليه من سوء يزداد يوماً بعد يوم، حتى غدا لا يكاد يتماسك، وكأنما كانت الحياة تنسل رويداً من جسمه الناحل..

-١٦-

وجاء طبيب اسمه «فلينيا» من اصدقاء الاسرة في زيارة خاصة. وشاهد ما حل بالسيد شارل لافارج، وتفحص حاله، وعجب من تفاؤل الطبيب «باردون»... وقال انني غير راض ولا متفائل من ابتراد اطرافه وخدرها، واني لجازع حقاً من ضعف نبضه فلماذا تراكم لا تفعلون له شيئا؟... وصرخت ماري تقول:

- ارجوك يا سيدي احر الرجاء ان تقنع حماتي بان تأتي لشارل بطبيب اخر غير السيد «باردون»...

واستولت الدهشة على «فلينيا» وحدق النظر في وجه ماري ثم قال:

- حماتك تقول انك انت التي تعارضين في استدعاء طبيب اخر غير الدكتور باردون...

غير ان ماري انتفضت مذعورة،واختلجت شفتاها غيظاً، وانكرت بشدة ان تكون قد عارضت... وقالت :

- بل ما اكثر ما ألححت عليهم ان يستدعوا طبيباً آخر فلم يسمعوا لي يا سيدي.. فأرجوك رجاء صادقاً من القلب ان تقنعهم انت بضرورة استدعاء طبيب آخر.. او اكثر من طبيب.

وعندئذ عهد الى السمسار دنيس ان يذهب الى مدينة «لوبرساك» غير البعيدة ويعود بطبيب آخر. وانطلق دنيس الى هذه المدينة وغاب يوماً ثم عاد ومعه طبيب اسمه «لسبناس».

واكب الطبيب الجديد يفحص السيد شارل لافارج، ويقلبه ظهرا لبطن، ويجسه هنا وهناك، وينظر في عينيه ولسانه، ويستمع الى دقات قلبه، ويفحص

نبضه باهتمام مصطنع، ثم قال بوقار، وبصوت جهير:

- ان السيد لافارج يسير الى حتفه مسموماً..

وعندما اقتربت ماري من زوجها شارل، بعد هذا بقليل، دفعها عنه حانقا مغيظا، وهو يتمتم بكلمات غير مفهومه، وكأنه يهذي ولا يتكلم.. ويهمس ولا يفصح..

وكان افراد اسرة لافارج قد تجمعوا كتلة راحدة عند موقد النار وعلى افواههم ابتسامة ظفر، وانتصار، وشماته بالغة.. وقالت شقيقته بنبرة ذات مغزى رهيب:- اذهبي ونامي يا ماري.. فانت متعبة، وشقيقي يفضل ان نبذل، نحن، عنايتنا له.. بدلا منك..

وتدهورت صحة شارل لافارج... ومن عجب انه، كما قال الطبيب الذي جاء به دنيس السمسار وعدو ماري، يسير إلى حتفه مسموماً... ومع ذلك فان هذا الطبيب لم يكلف نفسه باعطائه ترياقاً ضد السم!..

شاهدت ماري على وجه زوجها الشاحب امارات الموت... فهلعت... واغمي عليها... واخذت تهذي هذيانا متواصلا.

-١٧-

غدت الاسرة كلها لا تبارح غرفة شارل لافارج الذي انهكه المرض ويرى جسمه حتى غدا وكانه من الاشباح.

وتوافد الاصدقاء، وجعلوا يأتون ويذهبون، رلا ينفكون يتهامسون، ويرقبون في ريبة وتوجس كل حركة تبدو من ماري.. ثم يمضون وهم يهزون رؤوسهم.

وغدت ماري لا تستطيع ان تقترب من سرير هذا الرجل الذي شغف حباً بها.. والذي ربما يدفعون به الى القبر وهم يقولون له ان زوجته هي التي قضت عليه بالموت.

ثم ذهب افراد اسرة لافارج الى أبعد من هذا فاحتجزوا ماري في غرفة اخرى.. فما اكثر ما بكت حتى غرقت في دموعها المسفوحة، وتلفت صحتها، وغابت عن الوجود وقتا لا تدري مداه.. ولما عاد اليها وعيها بعد ليله من العذاب المبرح كان شارل لافارج قد فارق الحياة وفي يوم وفاته نفسه فقد ارتمى زوج اخت شارل لافارج بين ذراعي ماري وهو ينشج ويبكي احر بكاء ويتوسل اليها ضارعاً لكي توقع تفويضاً على بياض...

في هذه الاثناء كانت السيدة لافارج الام تفرغ الخزائن والادراج من كل ما فيها ولما تبترد جثة ابنها... وقد جمعت كل ما وجدته من فضيات ثمينة وتحف نادرة وارسلت به الى ابنتها.

وفي الغداة احتالوا على ماري بحجة ولاثبات التهمة على ماري قامت النساء، في هذه الاسرة، سرا بتحليل اكواب شرب الحليب، والعلب الصغيرة التي كانت ماري تضع فيها الصمغ العربي.. واسفر التحليل المخبري عن وجود مادة الزرنيخ في تلك الاوعية جميعاً..

وقد وُجد الزرنيخ كذلك في فنجان موجود في درج خاص بماري... يلاحظ ان هذا الدرج كان مفتوحاً، وفي متناول الجميع...

اوغلت اسرة لافارج في اتهام ماري انها كانت ترسل الى زوجها، في باريس قطع الحلوى المسمومة.. وهي القطع التي أدت، في بادىء الامر الى التقيؤ الاولى عند شارل لافارج..

ثم عملوا على نشر اشاعة حول ان ماري تأبى بشدة تشريح جثة زوجها.. ماري كانت ترفع عقيرتها بأن الامر على نقيض وتقول ان التشريح وحده الذي يمكن ان ينقذها من هذه الاتهامات الظالمة..

كانت في هذه الفترة اشبه بسجينة في ذلك البيت المريد، وكانت في ايامها وسط اسرة تمقتها، وتحقد عليها اشد الحقد، فتلوذ بصلاتها وتسأل الله ان يكون معينها ونصيرها.

وذهبت اسرة لافارج في ايذائها ابعد من هذا فوضعت سندات مزوّرة موضع التداول عن طريق السمسار دنيس.. وكانت هذه السندات استحق دفعها.. وعندئذ، ولكي تلوث ماري الاسم الذي تحمله اوعزت إلى وكيلها موثق العقود ان يدفع قيمة هذه السندات المزورة وتكون اسرة لافارج هي المستفيدة وحدها... وفي هذا وحده الدليل على سمو تلك المرأة.. كما كان آخر عمل حُرٌّ قامت به..قبل القائها في غياهب السجون..

على ان التشريح لم يسفر عن وجود اثر للسم في امعاء السيد لافارج فان الزرنيخ الذي وجد بكميات كبيرة في الحليب الذي لم يشربه السيد لافارج، والزرنيخ الذي وجد في الاوعية التي تُستعمل للمريض، والزرنيخ الذي كا:ت تظهر آثاره فوق خزانة ماري ذات الادراج، والزرنيخ الذي كان منتشراً بوفرة من حولها... وكذلك الرسالة المجنونة المؤرخة في ١٥ آب والتي هددت فيها بالانتحار سماً، والاتهامات المتكررة التي ما فتئت السيدة لافارج الام وابنتها توجهانها ضد ماري اذ تقولان انهما شاهدتا بأم عينيهما ماري وهي تضع مسحوقا ابيض في السوائل التي كان يشربها السيد شارل لافارج.. هذا كله حرك قاضي التحقيق الى بلدة «غلانديبه» ليحقق في هذه القضية، كما ادى الى تدخل النائب العام.. وكان نتيجة لهذا التحقيق العاجل ان نقلت ماري الى سجن التوقيف، ولقد كان سجنها قبل ذلك: ممتلكات زوجها نفسها بغاباتها، وخرائبها،

ومياه نهرها.

وجرت المحاكمة التي تنعتها كاتبة هذه القصة بانها قذرة، ونظر فيها قضاة ذوو عقلية غليظة متحجرة.. وبعد جلسات طويلة، ومجادلات بيزنطية، واتهامات ظالمة صدر الحكم على ماري بالسجن المؤبد مدى الحياة.

وقد قضت ماري سنوات طوالا في سجنها الرهيب الى ان فتحت ابواب هذا السجن بعفو عام اصدره نابليون الثالث، فخرجت ماري محطمة الروح والجسد وهي لا تنفك تنكر تلك الجريمة وتعلن براءتها منها.. وما هي الا اشهر قليلة حتى قضت نحبها.

لقد انقضت، الى اليوم، مئة وستة وعشرون عاما، وما تزال هذه القضية المذهلة تشغل بال الناس، وما، تزال موضوعا لنقاش وجدل طويلين.. وما زال هناك من يؤمنون بان ماري قد قضت على زوجها بالسم، ومن يؤمنون بانها بريئة وان اسرة زوجها هي التي دبرت لها هذه المكيدة . وقد الفت في هذه القضية الكتب العديدة واصبحت من القضايا التاريخية الشهيرة.. وسائل نفسك ايها القارىء الكريم: اتراها حقا سمّمت زوجها.. ام انها بريئة ذهبت ضحية الكيد والتآمر؟ وهل انت من مؤيدي مدام لافارج.. ام من مدينيها؟ واعلم انه ما زال لها مؤيدون عديدون، واعداء وخصوم كثيرون حتى يومنا هذا.

الجاسوسان الخفيان

-١-

صب «بيتر فاست» الماء المعدني في كأسه التي كان فيها مقدار كاف من منوم قوي ثم شرب جرعة كبيرة. ولم يلبث المنوم الشديد ان اخذ يفعل فعله فاحس بيتر فاست بقاعة الاستقبال الواسعة في «الفيلا» تميد به وتدور حوله... الا انه استطاع، فيما يشبه الحلم، ان يلمح قبالته، من الناحية الاخرى للطاولة الخفيضة، الكأس الثانية وفيها المخدر دون الماء.

ولقد كان من العبث ان يقاوم بيتر فاست تلك القوى الخفية الكامنة في المخدر والتي جعلت تضغط على اجفانه ضغطاً قوياً، فأغمض عينيه، وانزلق رأسه فاصطدم بالطاولة، غير انه لم يحس بأي الم لان المخدر كان قد تم مفعوله فيه فاستغرق في سبات عميق. وكان الليل، في الخارج، تنيره النجوم المتلامحة، وكان الرجال الذين يحدقون بالفيلا يستطيعون ان يمضوا في مراقبتهم على هينه ومهل كانوا منبطحين تماماً كأنهم جنود يحاربون في ارض عراء، وكانت اجسامهم قد التصقت بالارض حتى غدت وكأنها قطعة منها. وكانوا مزودين باجهزه تتيح لهم ان يتبادلوا الحديث، بصوت خفيض، مع جميع المراكز التي تتشكل منها تلك الدائرة المحدقة بالفيلا.

وكانت هيئة القيادة مختفية تحت الشجر وفي حوزتها جهاز مزدوج للارسال

والاستقبال معاً. وكان احد الرجال يتسمع وغطاء رأسه قد هبط فوق اذنيه، ولكنه كان، كلما رشقه رئيسه بنظرة متسائلة، يجيبه بالنفي دائما بحركة من رأسه، لانه لم يكن يسمع شيئاً.

ونظر قائد الفرقة في ساعة يده الفوسفورية الوجه وقال بلهجة انكليزية منبثقة من « اكسفورد » مباشرة:

- لا تزال هناك خمس دقائق متبقية وكانت هذه الدقائق الخمس طويلة جداً وبدت الاشياء والرجال كأنما قد جمدوا في مواقفهم واوضاعهم تلك الى الابد.

وفي قاعة الاستقبال بالفيلا كان بيتر فاست غارقا في نومه او تخديره ويده اليمنى قابضة على كأسه بحركة مضحكة أنه يخشى اذا استفاق ان لا يجد كأس «السكوتش» الذي يحبه.

وحول الفيلا لم تعد الات الاتصال تتناقل شيئا من الحديث وبدت بيئة القيادة كأنما قدت من صخر. كانت السحب وحدها تتراكض وكأنما القمر نفسه يتراكض هو الآخر ولكن بصورة لا تراها العين إلا لماما..

واخيرا رفع القائد رأسه وقال:

- لقد حانت الساعة لتنفيذ الخطة، ثم لا تنسوا اننا نريدها حية.. وعلى الفور تمزق الصمت وثم تناقل القائد هنا وهناك واخذت دائرة الرجال تضيق شيئاً فشيئا.

ولم يكن ليتحرك شيء في داخل الفيلا، ولم يشق الفضاء كما لم يزعج الرجال الهاجمين اي عيار ناري مصدره الفيلا الساكنة، وجعل اولئك الرجال يستعملون بمهارة المفاتيح المقلده لفتح الابواب، والقاطعات الماسية لقص زجاج

النوافذ.. وانتهى بهم الامر الى ان يدخلوا الفيلا ثم يلتقوا جميعاً في قاعة الاستقبال الواسعة حيث كان بيتر فاست لا يزال مستغرقا في نومه العميق. وهتف القائد قائلا:

- لقد ظفرت به تلك اللعينة! ثم اندفع نحو بيتر... الا انه بعد ثانيتين راح يطمئن رجاله بقوله:

- انه لم يفارق الحياة.. فتشوا البيت كله.. اذ لا يمكن ان تكون قد تمكنت من الخروج..

-٢-

ولكن وأسفاه! فما كادت تنقضي عشر دقائق بعد ذلك حتى اضطر اولئك الرجال ان يروا الحقيقة السافرة، ذلك ان تلك المرأة كانت فعلا قد هربت.. فقد اكتشفوا في قبو الفيلا باباً يفضي الى ما يشبه ان يكون نفقاً قطره متر واحد يؤدي في نهايته الى السهل، على مبعدة ثلاثين متراً وراء الحلقة التي كان اولئك الرجال قد شكلوها واحتلوها بكل نشاط واهتمام.

وكان من العبث تعميم الانذار عن افلاتها هذه المرة ايضاً. لقد كان اي انذار لا يجدي نفعاً مع امرأة خطيرة ككاتيا.. ثم انه لا بد قد مضى وقت طويل عادت فيه الى لندن حيث اتخذت دون شك، احدى هاتيك الهويات والاسماء المستعارة الكثيرة التي في حوزتها.. ولعلها، في هذه الساعة، قد جلست بهدوء واطمئنان لتشاهد ما يعرضه جهاز التلفزيون كأية امرأة انكليزية شابة تنتمي الى اسرة طيبة. ونقل بيتر الى لندن هو الاخر في سيارة «جاغوار» سريعة يقودها رجل يوثق به.. وكمن خلف هذه السيارة رجال آخرون مزودون باسلحتهم الاتوماتيكية الرهيبة تحسبا من ان تكون «كاتيا» قد بثت عددا من اصدقائها الاعزاء لا بد ان يلقوا مصارعهم في التو واللحظة. ووصلت السيارة التي كانت تقل بيتر فاست

الى المنزل الشخصي الذي يقيم فيه «ن.ن.» دون ان يشعر بذلك احد على الاطلاق.

ولقد كان شرفا عظيما ونادراً جداً ان يحظى المرء بالاستقبال في المنزل الشخصي للسيد «ن.ن» فقد كان «ن.ن» هذا هو الرئيس الاعلى لجميع دوائر ومنظمات التحري السرية الانكليزية. وما كان احد ليعلم باسمه الحقيقي والارجح به ان حرفي «ن.ن.» الانكليزية يعنيان «رجل بلا اسم» دخل ثلاثة رجال اشداء، وبكل رفق وضعوا بيتر فاست في سرير كبير مريح، وعندما لم يبق في الحجرة احد، اقبل اخيراً «ن.ن» ليزور هذا الشاب الذي كان يعتبره افضل واذكى رجاله. ومن بعيد راح يتأمله ويفكر طويلا. ولم يكن بيتر منيف القامة، غير انه كان رائع الجمال، وبصورة خاصة عندما يكون نائماً.

وكان لا بد ان تكون العين ذكية جداً ونفاذة جداً لكي تستطيع ان تكتشف في التقاطيع الجميلة المتناسقة لهذا الوجه الوضيء: ملامح جاسوس قدير خطير يستطيع بكل سهولة ان يعبر الستار الحديدي الذي يفصل روسيا عن غيرها من بلدان اوربا ويعود من ورائه كما يشاء وحين يشاء كما يركب غيره بسهولة ويسر قطار «المترو» تحت الارض ويخرج منه في اية محطة يريد..

وقال «ن.ن.» في نفسه وهو لا يزال يتأمل بيتر فاست: «ما اشبهه بصورة دوريانغراي» التي وصفها الروائي «اوسكاروايلد» في روايته الشهيرة. اجل، وبدون جدال فانه جميل، بل رائع الجمال، بهاتين الشفتين القرمزيتين المتقوستين بمنتهى الرقة والنعومة، وبهاتين العينين الزرقاوين اللتين تشعان ذكاء وصدقاً، وهذا الشعر الاشقر الذي يتوج رأسه.. وما احلى هذا التعبير على وجهه الذي يوحي بالثقة والاطمئنان من اول نظرة..

كان بيتر في الرابعة والعشرين من عمره، وكان قد دخل الخدمة في دوائر التحري قبل هذا بثلاث سنوات. وكان يتيماً غير ان والده كان صديقاً حميماً ومن اعز اصدقاء «ن.ن» الذي اهتم كثيراً بأمر بيتر فاست الشاب الغريب الاطوار. نقول غريب الاطوار لانه كان يوحي احياناً بردود فعل تبعث الشك في صفاء الطوية التي تنعكس على محياه الا انه كان يقال، عندئذ انه يتحلى بكل بساطة بذكاء لماح، اذ انه من غير المعقول ومن غير المفهوم ان تكون ردود الفعل المذكورة من ادلة خلق فاسد..

وكان قد تلقى تربية وتعليما استثنائيين. وكان يتحدث بعدة لغات ويتقنها الى حد الكمال، وبصورة خاصة اللغة الروسية، والفضل في هذا يرجع الى امه التي كانت من مواليد «فلادمير» التي تبعد مسافة مئتي كيلومتر الى الشرق من موسكو.

وقد جرى تدريب بيتر فاست تدريباً خاصاً فاصبح يسبح ويعوم وكأنه «نبتون» اله البحر، ويمتطي صهوة الجوادو كأنه فارس من بواسل فرسان القفقاس على نهر «الدون» الروسي، ويقارع بالسيف كأنه الفارس « دارتنيان » في قصة الكسندر دياس « الفرسان الثلاثة »، وقد اتقن حركات (الجودو) التي يستطيع بها ان يتغلب على العتاة الاشداء، وكان يسعه ان يفلق قطعة من الحطب بضربة واحدة من حافة يده كأي خبير يحترم نفسه في هذا النوع من المهارة كما كان يستطيع بأي سلاح ان يصوب ويصيب الهدف على بعد الف متر من امام. ومن خلف ظهره..

وكان، في اثناء عمله، قد حمل الى «ن.ن» معلومات واسراراً مثيرة لم يسمع بها احد، وانما جرى ذكرها همساً على الشفاه في اشد قاعات قصور «

الكرملين » الروسية سرية.

ولم يكن يشوب هذه الصورة المكتملة لبيتر فاست غير ظل قاتم واحد، ذلك انه كان يعترض طريقه دائما جاسوس آخر يماثله قدرة وقوة. وكان هذا الجاسوس الذي أصبح لا سبيل الى القاء القبض عليه: امرأة اسمها « كاتيا »..

مرت هذه الافكار والصور جميعاً في ذهن « ن.ن» وهو واقف الى جانب هذا الشاب المستغرق في نومه والذي بسط عليه حمايته وأسباب مودته وعندئذ قام « ن.ن » بحركة رهيبة من شأنها ان تثير الرعده في اشد القلوب جرأة.. فقد اقبل على ملابس بيتر فاست يفتشها تفتيشاً دقيقاً! فوجد في الجيب الايمن جهاز الارسال الصغير ولا يزال يعمل بحالة جيدة، وان كان بيتر لم يسعفه الوقت، ولا ريب، في ادارته واستعماله ثم وجد سجائر، وقداحة ذهبية، ومشطا. وتحسَّسَ بعد ذلك بطانة السترة، وعندئذ اضاءت وجهه المليء بالتجاعيد الكثيرة كأنه وجه الحيوان «وحيد القرن»... لقد كانت في البطانة رزمة كبيرة سميكة.. اجل ان مبلغ الخمسين الف جنيه استرليني لا تزال في مكانها داخل تلك البطانة.

ظل بيتر فاست مستغرقاً في نومه الثقيل هذا مدة اثنتي عشرة ساعة متواصلة، وعندما فتح اخيراً عينيه الزرقاوين كان اول ما شاهده هذه النظرة الرمادية العطوف المصوبة اليه من عيني « ن.ن ».

-٤-

راح « ن.ن» يوجه الى بيتر فاست اسئلة متلاحقة:

- كيف تجد ذهنك الآن ايها الفتى؟

- انه صاف تماماً

- اتراك قادراً على ان تتذكر الحوادث؟

- اجل ياسيدي، وعلى اكمل ما يكون التذكر.

-اذن سأراجع على مسمعك ما كان من الامر كله.

- انا مصغ اليك كل الاصغاء ياسيدي

- اتصلت بك « كاتيا » في برلين الغربية لتعلمك ان في امكانها ان توافق على ان تصبح جاسوسة مزدوجة واشترطت لذلك ان ندفع لها الثمن الذي تريده... وقد طلبت منك، وبالهاتف دائما. ان تكون موجوداً في موعد معين في فندق « البط المنتوف الريش » بمدينة « تشيشتر » بمقاطعة « ساسكس »، وقد وضعنا في ذلك الفندق أحد رجالنا، وقبل وصولك بقليل الى الفندق تلقى الرجل مكالمة هاتفية. كانت « كاتيا » هي المتحدثة بلهجتها التي توحي الى السامع انها تغني اكثر منها تتحدث، وقد ضربت لك موعداً للقاء في تلك « الفيلا ».. وعلى الفور استقينا معلوماتنا الخاصة عن تلك الفيلا، فعلمنا بسرعة ان امرأة ما قد استأجرتها قبل ثلاثة اشهر، ومن ثم سلمناك مبلغ خمسين الف جنيه استرليني.

وعند هذا الحد من الحديث هتف بيتر فاست جازعاً.

- النقود! ناولني سترتي يا سيدي.. انني لا استحق العذر.. كان علي ان اتذكر هذا المبلغ منذ اللحظة التي صحوت فيها! وتناول «ن.ن » السترة وناولها بيتر فاست فأخذها هذا وسارع الى البطانة فانتزعها بحركة عصبية فسقطت منها على الفور دفعات من اوراق النقد الجديدة الاخاذة وراحت تنتشر فوق السجادة البديعة من صنع القيروان..

وتمتم بيتر فاست:

- الحمد للهّ.. انها لم تسرق المال فيالها من امرأة عجيبة غريبة الاطوار.

رعاد « ن.ن » يقول:

- ولم تكن لنا اية ثقة في تلك المخلوقة ذات الشعر الاحمر المتوهج الذي يشبه، فيما يبدو، حمرة معتقداتها ومبادئها.. وقال بيتر مؤمنا على قول الرجل الخطير « ن.ن »:

- وانها لكذلك ياسيدي.. وياما اجمل شعرها الاحمر المتألق انها واللهّ لامرأة هائلة، وما أكثر ما تثير من فتنة واغراء..

واردف « ن.ن » يقول:

- ولاننا لم نكن نثق بها فقد حاصرنا تلك بالفيلا.. وكان معك انت جهاز الارسال والاستقبال معاً.. وقد انتظر رجالنا الذين احدقوا بالفيلا ساعة كاملة، ولما لم تصلهم انباء منك فقد اضطروا ان يتدخلوا فداهموا الفيلا.. والان قل لي ما حدث بالضبط.. عندئذ مر بيتر فاست بيده البديعة فوق عينيه ثم قال:

- استقبلتني أحسن استقبال، وكانت باهره الجمال، وقد انسدل على قدها الاهيف فستان انيق عاري الصدر والذراعين من « الساتان » الذي.. فقاطعه « ن.ن »

- هذا لا يهمني فقال بيتر فاست:

- الحق معك يا سيدي.، ولقد دخلت هي في الموضوع مباشرة فسألتني باقتضاب: « كم ؟ » فقلت لها: ...ألف جنيه استرليني فانفجرت ضاحكة عندئذ وقال « ن.ن »

- اتراها قد ضحكت حقاً ؟

اجل يا سيدي.. وقد انفرجت شفتاها عن اسنان لؤلؤية تتألق و.. فقاطعه « ن.ن » مرة اخرى وقال

- اختصر...

فقال بيتر فاست:

- قالت اريد مئتي الف جنيه استرليني للعمل معكم مدة سنة واحدة فقط... وهذا المبلغ، ايضا، ليس باهظاً كما قد تتوهمون

وعجب « ن.ن » وقال كالمبهوت:

- مئتا الف جنيه ؟

-٥-

اجاب بيتر فاست على دهشة « ن.ن » واستهواله المبلغ الذي طلبته «كاتيا».

- اجل يا سيدي. لقد طلبت مئتي الف جنيه لقاء عملها معنا لسنة واحدة فقط على اعتبار انها جاسوسة مزدوجة تقدم خدماتها لنا وللاخرين ايضا.. وقال « ن.ن » بعد ان عاد وتمالك نفسه:

- وبعد ؟

- وبعد، فقد حضرت كأسين من « السكوتش » بيديها الاثنتين المندستين في قفازين اسودين، وشربت هي اولا.. فلم احترس.. ولم اتوجس.. لقد شربت

كأسها غير ممزوج بالماء.. اجل بدون ماء او ثلج على الاطلاق.. اما انا فقد اضفت الماء أو الثلج الى كأسي.. ولا بد ان المخدر الشديد كان في احدهما.. اعني في الماء والثلج..فقال «ن.ن »

- كان في الماء ولا ريب

وفكر هنيهة، ثم اضاف قائلا بلهجة صارمة:

- قلت لك دائما ان لا تشرب الخمر ممزوجة ابداً.. ثم بعد ؟

- قالت لي قبل ان ابل شفتي من الكأس : طلبت منك ان تأتي الى هنا وحدك، يا بيتر فاست، ولكن رجالا من دوائر كم يراقبون الان الفيلا ويحدقون بها.. ومع ذلك فانهم لن يظفروا بي كما تتوهمون.. وتمتم « ن.ن. »

- لقد صدقت تلك المرأة الداهيه.. فانا لم نظفر بها كما قالت.. وسيشق عليك العمل يا فتاي المسكين، لانه لا بد لك منذ اليوم ان تضاعف جهدك فتكون في غنى عن خدمات « كاتيا » ان العمل مع الجواسيس المزدوجين يخبىء دائما اسوأ المفاجآت..

بعد انقضاء خمسة ايام على هذه الحوادث كانت هذه المرأة الباهرة الجمال، الخلابة الملامح، موجودة في مكتب الرئيس الاعلى للمخابرات السرية الروسية، الذي يحتل في بلاده منصباً يماثل منصب « ن.ن » في انكلترا. وكان هو الاخر لا يحمل اسما معروفا، وانما كان الروس يسمونه « صاحب الرقم الاول » . غير انه كان اصغر سناً من زميله الانكليزي وفي وسعه، بكل ارتياح، ان ينفق بضع ساعات مع « كاتيا » في خلوة تامة.. غير ان تلك المرأة الساحرة، الباهرة الحسن كانت من شدة الحفاظ على شرفها واحتشامها بلغت حداً هو اقرب الى الاساطير.. حتى انه ما من انسان يستطيع ان يزعم انه رآها ولو مرة واحدة

بملابس الاستحمام والسباحة في البحر، وحتى ثدياها الناهدان الراسخان فانهما لا يبرزان لعين الرائي الا لأنها تحبك بأناقة وانسجام، اعلى فستانها حول صدرها، وسألها رئيس الاستخبارات الروسية قائلا :

- لماذا لم تأخذي منه مبلغ الخمسين الف جنيه استرليني . انه لما يبعث على السرور والرضا ان يغنم الانسان مثل هذا المبلغ من الانكليز، وعلى الاخص في مثل هذا الوقت الذي يبذلون فيه اعظم الجهد في سبيل ان يقتصدوا الكثير من نفقاتهم..

- حدث انني سمعت حركة في الحديقة ساعتئذ

- ولماذا لم تقتلي هذا الـ « بيتر فاست » الذي ما اكثر ما ازعجنا ؟

- لم اقتله لانه جد مغرم بي !

- آه... يا سلام !

- مغرم جدا.. الى حد الوله والهيام

- وهل انت واثقة تماماً يا كاتيا ؟

- كل الثقة

- حسن. في هذه الحالة اذن...

- في هذه الحالة لن آتيك بخمسين الف جنيه . . ني ولكن بمئتي الف.. وسترى..

- اذن ادع لك ان تقومي بلعبتك على النحو الذي تريدين يا كاتيا...

-٦-

كان لا بد من انقضاء ثلاثة اشهر طوال لكي يوقن «ن.ن» ان«كاتيا» ماهرة حاذقة الى حد الاعجاب. حدث هذا ربما بعد اسبوع من انعقاد اجتماع غاية في السرية في احد منازل مدينة «شيلسي». وكان المعنيون بهذا الاجتماع قد قدروا انه يستحيل ان يستطيع اي عدو او خصم اكتشاف هذا المنزل الذي لا يلفت الانظار بشكله، ولكنه مع ذلك هو مكان اجتماع ألمع الاذكياء في مخابرات بريطانيا السرية وهم لا يلجأون الى الاجتماع فيه غير مرة واحدة كل اربع سنوات.. اما في الاوقات الاخرى فانهم يعقدون اجتماعاتهم السرية هذه في مدن: ليفربول، ابردين، يا رموث الخ...

وفي اجتماع «شيلسي» هذا اتخذت قرارات خطيرة برئاسة «ن.ن» وكان بيتر فاست حاضرا، وقد ابتسم مرتاحاً عندما رأى تفاصيل الخطة الاقتصادية التي وضعت في هذا الاجتماع والتي من شأنها، اذا ما نجحت، ان تكلف الروس مبالغ جد باهظة، فتكون درساً مفيداً جداً لهم لن ينسوه ابد الدهر...

ولكن... يا للعنة!

ان تلك الخطة البارعة اخفقت اخفاقاً ذريعاً لان الروس كانوا على اطلاع تام على تلك الخطة، وقد انعكست الاية تماماً فكلفت الحكومة البريطانية نفسها مليونين من الجنيهات الاسترلينية! كيف امكن ان تنكشف هذه الخطة وتتسرب تفاصيلها الى الخارج، وهي الخطة التي انبثقت عن تفكير «ن.ن» العميق ونبوغه الخارق ولم يعلم بها غير رجاله الخمسة المقربين؟

وقد جاءهم الجواب عندما قلبوا ذلك المنزل الصغير في «شيلسي» رأساً على عقب فوجدوا جدرانه جميعاً محشوة بالمسجلات الدقيقة الخفية.. وحتى لقد وجدوا قصاصة ورق صغيرة معلقة باحد هذه المسجلات الخفية وقد كتبت عليها

بخط مائل بصورة غريبة هذه السطور المذهلة: « كان الافضل لكم لو انكم اعطيتموني ما كنت طلبته وهو مبلغ مئتي الف جنيه. اما الان فلن تستطيعوا ان تتجنبوا هذا النوع من المتاعب المرهقة التي اسببها لكم الا اذا دفعتم لي اربعمئة الف جنيه - كاتيا » وعندئذ كان لا بد من عقد اجتماع خطير على أعلى المستويات، وقد حضره عدد كبير من الوزراء فاحاطوا بـ «ن.ن» ولم يبدأوا الحديث والمداولة الا بعد ان جاء : امهر الخبراء ففحصوا كل شبر، بك كل الملة في قاعة الاجتماع فحصاً دقيقاً جدياً.

وبدأ احدهم الحديث فقال: -

- يجب ان نصفي نهائيا هذه المرأة.. يجب ان نزيلها من طريقنا واقترح آخر فقال:

- ما علينا الا ان نوصل الى علم الرئيس الاعلى للمخابرات الروسية السرية وهو المعروف برقم واحد ان « جاسوسته » كاتيا هذه خائنة... قد عرضت ان تعمل معنا كجاسوسة مزدوجة... وهم سيقومون تجاهها بما يجب، ويريحوننا منها بالقضاء عليها وتصفيتها...

غير ان «ن.ن» أبدي اعتراضه فقال ان الروس اولا، لن يصدقونا، ولن يروا فيما سنعلمهم به غير مناورة خادعة مضللة وانتم تعلمون أنهم يعتقدون باننا لا نحجم عن اي عمل يخدم مصالحنا.. ليس لها غير رغبتين: ان تحصل على مبلغ الاربعمئة الف جنيه استرليني، ثم تروح تغزل خيوط الحب والغرام مع بيتر فاست..

وقال احد الوزراء:

- انك تمزح ولا شك ياسيد «ن.ن» ان هذا الحب ليس اكثر من فخ منصوب.

واجاب «ن.ن» .

- ولكن بيتر فاست قال لي انه قرأ هيامها به في عينيها، وانتم تعلمون ان هذا الشاب الخارق المواهب لا يخطىء ابداً...

-٧-

قال وزير آخر يسأل «ن.ن» : ماذا ترى اذن ؟

واجاب «ن.ن»

- ارى ان يعود بيتر فاست وهذه المرأة فيتصلا ، ولا بد لنا من ان نتيح لها الحصول على مبلغ الاربعمئة الف جنيه استرليني، كما نتيح لها فرصة حب بيتر كما تريد، هذا اللهم اذا كان هو لا مانع عنده. اجل. اني انصح بهذا كله علماً بانكم تدركون مبلغ حذري وتوجسي من الجواسيس المزدوجين...

كان دخان السجائر قد تكاثف في جو غرفة الاجتماع حتى اضحى لا يكاد احدهم يرى الاخر، وعندئذ استطاعوا ان يقروا اقتراح الرجل الرهيب « ن.ن »..ولكن، مع ذلك ، فيالها من مبالغ جسيمة هذه الاربعمئة الف جنيه! ولا بد ان يكون المرء قد صار وزيراً مراراً لكي يستطيع ان يستخف بها ويسمح باعطائها لجاسوسة تعمل لحساب اكثر من دولة واحدة، حتى لو كانت هذه الجاسوسة امرأة بارعة الجمال لماحة الذكاء! في الغداء، استدعي بيتر الى مكتب « ن.ن ». ولم يكن هذا المكتب. كما قد يحسب البعض، عش نسر يقوم في قمة ناطحة سحاب، وانما هو يقع في قبو غائص في اعماق الارض بحيث تخشى الجرذان نفسها ان تهبط اليه.

دخل بيتر المكتب واخذ يستمع الى ما يقوله « ن.ن »، وما استقر عليه الرأي في الاجتماع السري الاخير. وبعد ان فرغ « ن.ن » من كلامه، قال بيتر:

- هذا جميل جداً، اعني صعب جداً، واضف الى هذه الصعوبة ان علي، ايضاً، ان اعثر عليها. فين هي الان؟ اتراها في ستوكهولم. ام في مدريد، ام في سنغافورة، ام في بوينس ايرس؟ على اي حال سأترك لها رسالة في كل مكان...بعد مرور اسبوعين وصلت الى منزل بيتر فاست في لندن رسالة مؤرخة في روما، وكان قد مر بها لفترة قصيرة قبل بضعة ايام. وقد كان خط هذه الرسالة مائلا، وراسخاً هو الاخر. وجاء فيها ما يلي:

« عزيزي بيتر: انا موافقة، وسأنتظرك يوم ٢٤، اي بعد ثلاثة ايام، في تمام الساعة الثامنة مساء. سأكون على ظهر يخت في خليج نابولي في ايطاليا وستعرف اليخت من لونه الابيض كما ان اسمه مكتوب عليه وهو « سورانت » ولا يمكن ان تخطىء. وسأكون وحدي على ظهر اليخت. وكن واثقاًان تكون وحدك انت ايضاً، اذا ما اردت ان لا يتحقق المثل القائل: « رؤية نابولي وبعد ذلك مرحباً بالموت ». كن وحدك ومعك مبلغ الاربعمئة الف جنيه استرليني ولست اريدها اوراق نقد، بل بما يعادلها ويساويها من الماس الخام، وسنشرب قدحين من الشمبانيا معاً، ولا شك في انك تعلم ان الشمبانيا لا تمزج بالماء. اقبلك وفي انتظارك: كاتيا ».

دبر « ن.ن » الحجارة الماسية المطلوبة بما يساوي اربعمئة الف جنيه استرليني، ثم ارسل تنهيدة طويلة وسلمها الى بيتر فاست وقد بهرت الانظار بتألقها العجيب. وقال له::

- وعلى اي حال فلن نكون بعيدين... وسأذهب بنفسي الى نابولي ولا ريب في انك تحمل جهاز الارسال الذي زودتك به. فاذا مادعت الضرورة استعمل

الجهاز في استدعائنا، هذا وسيكون اليخت محاطاً هنا وهناك بالزوارق الخفيفة التي تستعمل للهو والمتعة..

وقال بيتر:

- موافق. ومنذ هذه اللحظة وزع رجالك في المراكز التي تريدها. ولكن يجب ان لا يتبعني احد على الاطلاق، اذ من يدري.. فربما كنت انا مراقباً... ربما اخذوا يراقبونني حتى في هذه الساعة نفسها...

-٨-

وصل بيتر فاست وحده الى نابولي، وفي اثناء النهار جعل يتأمل اليخت الابيض البديع بمنظار مكبر جداً. ولكن شيئا لم يتحرك على ظهره. ومن ثم ركب زورقاً من زوارق التجذيف اخذ يشق الماء به الى اليخت المنشود. وقد شاهده « ن.ن » بعينيه الاثنتين يصعد الى اليخت، اذ كان متمدداً فوق الشاطىء كما كان يفعل وهو شاب منذ أمد بعيد سعيد..

وكان اليخت يبدو شعلة من انوار باهرة كأنما يوشك من فيه ان يحتفلوا بمناسبة سعيدة غاية السعادة، غير ان مدخنته كانت قاتمة قتام مياه البحر التي اخذت تتحول الى اللون الاسود مع هبوط الليل.

وكان الوقت يمر، و « ن.ن » يتمثل المشهد وكأنه امام عينيه، وتمنى في قرارة نفسه، وبكل تواضع وفرط حنين، لو انه الان مكان بيتر فاست... وشاهده بعين خياله وهو يخرج من جيبه كيساً صغيراً مليئاً بقطع الماس المتوهج،.. وخيل اليه انه يرى عيني كاتيا الساحرتين المتألقتين تألق الماس الذي يبهر النظر... ورآها تمد يدها بدلال الجمال الاخاذ وتتناول هاتيك القطع من الماس وقد تضوأ محياها بنور ابتسامة ساطعة... ثم ها هي تفتح ذراعيها البضتين لغرعها

وحبيبها في آن واحد، ثم سرعان ما تتمازج تنهدات العاشقين الرائعين بهمسات البحر المشترك في مؤامرة غرامهما والتستر عليهما... وقد انتظر « ن.ن » طويلا، بل طويلا جداً، وعلى حين غرة انتفض انتفاضة هائلة، ذلك ان صوت بيتر فاست انبعث فجأة من جهاز الاستقبال والارسال الذي يحمله « ن.ن »، وكان صوت بيتر خافتاً، لاهثا، قلقا الى حد الموت! وقال الصوت :

– سيدي : لقد غدرت بي كاتيا. أخذت قطع الماس، وفي الوقت الذي خيل لي معه انني اوشك ان اتناول شفتيها بفمي استعداداً لقبلة حارة مستغرقة.. في هذه اللحظة الحرجة جاءتني ضربة على راسي صعقتني.. ولما ثبت الى رشدي وجدت نفسي مقيد اليدين، موثق القدمين.. وكانت هي امامي وعلى شفتيها ابتسامة ساخرة حرقت قلبي كانها جمرة من نار.. وكان امامي كذلك جهاز الارسال فوق طاولة.. وسمعتها تقول لي: استدع رجالك يا حبيبي اذا شئت.. ولكن خبرهم ايضاً ان اليخت لن يلبث ان ينفجر متطايراً شظايا في الفضاء. واليك فاسمع : وسمعت يا سيدي نابض القنبلة الموقتة في داخلها : « تيك .. تاك » .. ومن ثم ذهبت كاتيا يا سيدي ، ذهبت ولا شك مع زمرة من الرجال الضفادع .. ابحث عنها، يا سيدي ، واقبض عليها وانتقم لي منها ولكن اتوسل اليك ان لا ترتكب حماقة المجيء الى هذا اليخت الذي هو، منذ هذه اللحظة ، لحد وقبر.. انني اسمع حركة القنبلة.. سينفجر اليخت بين لحظة واخرى.. وداعاً.

واستولى الذعر على « ن.ن »... وراح ينظر الى البحر، ومرت دقيقة واحدة... وكان رجاله من حوله يمسكون انفاسهم.. وعلى حين غرة حدث ما يشبه ان يكون وميض برق عظيم .. وبعد نصف ثانيه تأدى الى مسامع « ن.ن » ورجاله صوت الانفجار ، ذلك ان اليخت« سورانت » كان مرابطاً على مبعدة ١٦٥ مترا عن الشاطىء.

وقد تطاير اليخت متناثراً في الفضاء الف قطعة وشظية ملتهبة تساقطت

جميعها على صفحة البحر الصامت وكأنها آخر شرارات صواريخ الزينة والاعياد...

وبعد انقضاء بضعة اسابيع كان بيتر فاست الرجل الخامس والعشرين الذي يمنح، بعد وفاته، الانشوطة ذات اللونين الازرق والاحمر القاني لـ « وسام الاستحقاق » . وبعد انقضاء بضعة اسابيع كذلك كان شاب يكتب مذكراته وهو في دارة بديعة بمدينة « ريودي جنيرو » وهي مذكرات كتب عليها : « أن لا تنشر الا بعد وفاته ». وكان شعر هذا الشاب ذا خصل سوداء ، وكانت عيناه زرقاوين شديدتي الزرقة، ويبدو عليه انه على جانب عظيم من الصراحة والبراءة، وقد أطلق شاربين كثين أخفيا شكل فمه الرائع التكوين .: وكانت مذكراته مهداة الى :«ن.ن ».،

ونحن لو انحنينا قليلا فوق كتفي هذا الشاب لأمكننا ان نقرأ السطور الاخيرة من مخطوط مذكراته هذه «.. كنت قد وضعت مجلات امام جهاز الارسال في اليخت، وراح القسم الاكبر الذي لا تسجيل عليه من الشريط يدور ويدور في جو من الصمت المطلق . ونزلت انا وفرقة رجالي من ضفادع البحر الى الماء ، ثم سرعان ما انتقلت الى مطار نابولي ، عندما بدأت انت ، يا سيد « ن.ن » تسمع الجزء المسجل حقا من الشريط الذي سمعت منه ندائي الاخير اليك ، واخباري اياك بان القنبلة المؤقتة ستنفجر هي واليخت بعد دقيقتين اثنتين. وانت ترى ان كل شيء قد تم كما اردت انا بموجب توقيت دقيق .

اجل ان بيتر فاست ، والجاسوسة الجميلة كاتيا لم يكونا غير شخص واحد... ولقد كنت على حق يا سيدي . في تخوفك من الجواسيس المزدوجين ... اجل كنت على حق يا سيدي ...»

وفيما كان هذا الشاب الجميل الذي اتخذ لنفسه اسماً جديداً هو « بيدرو »

يصرف من حين الى آخر في اسواق ومحلات بيع المجوهرات في مدينة « ريودي جنيرو » قطعة نادرة المثال من قطع الماس الوفيرة التي في حوزته ، كان « ن.ن » الرئيس الاعلى لرجال الاستخبارات السرية البريطانية، وزميله الروسي «رقم ١» قد اطلقوا المئات من رجالهما في اعقاب الجاسوسة الحسناء «كاتيا» تلك الجاسوسة الجميلة التي لا وجود لها الا في دنيا الخيال....

جبل الأفاعي

-١-

كنا جماعة من الاصدقاء ، وقد ذهبنا نستطلع أمر ذلك الرجل العجوز المتزهد الذي جعل ، من سطح قبر كبير مخروطي الشكل تغطيه الاشجار ، مستقراً له وسط ذلك السهل الافيح الممتد من مدينة « كان » حتى بلدة «نابول».

وفي عودتنا جعلنا نتحدث عن اولئك المتوحدين نفسهم المتزهدين ، ولكن من غير المتدينين المتنسكين ، فما اعجب امرهم ! وما كان اكثرهم في الماضي، غير ان هذا النوع من المنفردين بانفسهم في صوامعهم قد اخذ يقل في ايامنا حتى ليكاد يتلاشى . وكنا نبحث عن الاسباب النفسية التي تدفعهم الى هذا التزهد ، ونجهد انفسنا في تحديد طبيعة الهموم والاحزان التي كانت تدفع باولئك الرجال الى الوحدة والانقطاع . فقال احد رفاقنا فجأة :

- لقد رأيت اثنين من اولئك المنقطعين : رجلا وامرأة . ولا بد ان المرأة ما تزال على قيد الحياة . وقد كانت ، منذ خمس سنوات مضت ، تقيم بين الخرائب والاطلال في قمة جبل اجرد على [illegible] [illegible]يكا » يبعد نحواً من عشرين كيلومترا عن العمار . كانت تعي[illegible] [illegible] ، وكنت اذهب لرؤيتها . ولا شك في انها احدى سيدات المجتمع [illegible]رفات ، وكانت ، كلما زرتها

تقابلني بادب ، بل بكثير من اللطف . غير انني لا اعرف عنها شيئاً . اما الرجل فهو الذي سأروي لكم قصته.

اذا التفتم الان رأيتم هناك ذلك الجبل المستدق القمة والذي تكسوه الاشجار فيما وراء بلدة « نابول » انه يجثم وحده هناك ، متقدما على قمم منطقة « استيريل » ويطلق عليه سكان هذه النواحي اسم « جبل الافاعي » . هناك كان يعيش الرجل المنقطع الذي احدثكم بقصته ، وقد اتخذ من جدران معبد صغير قديم متهدم مأوى منذ اكثر من اثنتي عشره سنة وقد اعتزمت ان اتعرف اليه بعد ان سمعت الكثيرين يتحدثون عنه ، فامتطيت صهوة حصاني وانطلقت الى مدينة « كان » في صباح يوم من ايام شهر آذار . وفي بلدة « نابول » تركت فرسي ورحت اتوقل الجبل سائراً على قدمي ، وكانت تغطيه النباتات ذات الاريج ، ووجدت مسالكه وعرة تكثر فيها الحجارة ، وسرعان ما تلمح العين الحنشان الطويلة تنساب فوق الحصى ثم تختفي بين الاعشاب . ومن هنا كان اسم جبل الافاعي الذي اطلق عليه بحق .

ولقد يبدو لك ، في بعض الايام ، ان هذه الزواحف انما تتوالد تحت قدميك عندما تصعد المرتقى المواجه للشمس . وانها لمن الكثرة بحيث لا تطاوعك قدماك على السير فتشعر بالضيق والحيرة لا بدافع الخوف من هذه الحيات فانها لا تؤذي . وانما يستولي عليك ذعر خفي غيبي لا تدري له كنهاً . ولقد استشعرت اكثر من مرة انني اجوس خلال جبل مقدس من جبال العصور الموغلة في القدم : جبل عجيب ، معطر الارجاء مليء باسرار غيبية ، تعمره الافاعي والحيات ، ويتوجه معبد قديم . وهذا المعبد لا يزال موجوداً الى اليوم ، او على الاقل قيل لي انه مايزال قائما ، ولم احاول ان اعلم اكثر من هذا لئلا افسد الصورة التي تكونت في مخيلتي عنه .

رحت اتوقل الجبل اذن بحجة اني اريد ان اقنع ناظري برؤية ذلك المشهد الفريد . ولما بلغت قمته شاهدت حقاً ان ثمة آثاراً واطلالا ورجلاجالسا على حجر هناك . كان في الخامسة والاربعين من عمره لا اكثر ، على الرغم من ان شعر رأسه كله كان أشيب ناصع البياض ، غير ان لحيته كانت لا تزال سوداء على وجه التقريب وكان الرجل بربت بيده على ظهر قط متكور فوق ركبتيه ، ولا يبدو عليه انه رآني لو اهتم بي . وقمت انا بجولة خلال الاطلال ، وكان قسم منها مغلقاً ومغطى باغصان الشجر والقش والاعشاب والحصى ، فادركت انه اتخذ من هذا المكان سكناً له . ثم عدت أدراجي ماراً من ناحيته.

كان المنظر ، ثمة ، رائعا . فالى اليمين جبال « استيريل » ذات القمم المستدقة ، ثم البحر ، من اسفل ، يمتد الى ما لا نهاية حتى يصل الى السواحل الايطالية البعيدة . وتقوم قبالة مدينة « كان » جزر « ليران » الخضراء المنبسطة فتبدو كانها تطفو فوق الماء . وتقدم لك آخر جزيرة منها ، في عرض البحر ، منظر قلعة ضخمة وذات ابراج مسننة قد ارسيت اسسها في اعماق المياه نفسها . وهمست قائلا :

– ما اجمل ما ارى !

فرفع الرجل رأسه وقال :

– شيء جميل ولا ريب . ولكنه يغدو رتيباً مملا اذ تظل تشاهده طيلة يومك . واذن فهو يتكلم ، ويتحدث ، ويصيبه الملل هذا الرجل المنقطع . لقد اصبح في قبضتي منذ الساعة ..

ولم اتلبث طويلا في ذلك اليوم . وقد حاولت ، فقط ، ان اكتشف في ملامحه آثار ابتعاده عن الناس وعن الحياة فبدا لي كأنه انسان قد تعب من

الاخرين وسئم كل شيء ، وزالت عن عينيه غشاوات الاوهام والضلال فكره نفسه وكره كل شيء آخر.

غادرته بعد حديث معه استغرق نصف ساعة ، غير اني عدت بعد اسبوع ثم بعد اسبوع آخر ، ثم جعلت ازوره كل اسبوع ، فلم ينقضِ شهران حتى غدونا صديقين . في امسية من امسيات شهر أيار رأيت ان الوقت قد حان ، فأخذت معي طعاماً وزاداً ونبيذاً على نية تناول طعام العشاء معه فوق جبل الافاعي .

ولقد كانت امسية من امسيات الجنوب التي تنفح عطراً وطيباً من مغارس الزهر المنتشر في تلك الناحية انتشار سنابل القمح في الشمال . وفي هذه المنطقة من البلاد تصنع معظم العطور وأنفسها مما يعطر ابدان النساء وثيابهن .. . كانت من الامسيات التي تعبق بشذا البرتقال من مغارسه التي لا تحصى في الحدائق والبساتين ومنحنيات الادوية ... انفاس مضمخة بالعطر تشيع في الاجسام نشوة واضطراباً وتبتعث احلام الحب حتى في صدور الشيوخ الطاعنين في السن ...

وقد استقبلني الرجل المنقطع المتزهد بفرح ملحوظ ، ورحب بأن يشاركني طعام العشاء.

وقدمت له شيئا من النبيذ الذي انقطع عن شربه منذ زمن طويل فانتعش واخذ يتحدث عن ماضيه . وبدا لي انه قد عاش حياته كلها في باريس عيشة الرجل الاعزب المرح . ووجهت اليه هذا السؤال بغتة :

- اية فكرة غريبة أتت بك لتقيم منقطعاً عن الدنيا فوق هذه القمة العالية

فاجاب على الفور :

- اواه : ما كان ذلك الا لأنني اصبت باقسى واشد هزة يمكن ان تزلزل كيان

انسـان . ولكن لماذا تراني اخفي عنك حكاية هذه المأسـاة ؟ ربما رثيت لحـالي لو حدثتك بهـا .. ثم .. انني لم احدث بهـا احداً قط .. على الاطلاق .. وشـد مـا اريد ، ولو مـرة واحـدة ، ان اعـرف رأي رجل آخـر فـيـهـا .. وكيف يكون حكمـه عليـهـا .. ولدت في باريس ، وقـد ورثت عن ابوي بعض مـال اتاح لي دخـلا دائما..

واستطعت الحصـول على وظيفة متـواضعة وهادئة بفضـل مسـاعي من يهمـهم امري . وكان دخلي الخاص ومرتبي من الوظيفة قد جعلا مني شـاباً غنيا بالنسـبة لغير المتزوجين.

وكنت ، منذ سن المراهقة ، قد عشت حياة فتى اعزب ، وانت تدري ما هي ، كنت حرا ، طليقاً ، بلا اسرة ، وكنت قد قررت ان لا اتخذ زوجة شرعيـة قط . وهكذا كنت انفق ثلاثة اشـهر مع احداهن ، وستة مع اخرى ، وسنة كـاملة بدون صـديقـة مـحـتـاراً ايهن آخذ وايهن ادع لمتـعـة ليلة عـابرة بين حـشـد الفـتـيـات المعروضات لاخذ وعطاء..

كانت هذه الحياة المبتذلة ، تلائمني وترضي اهوائي وما استقر في طباعي من حب التنقل من هوى الى هوى ، ومن متـعـة الى اخرى . كنت اعـيش في صـخب الميادين الكبيرة ، والمسـارح ، والمقاهي ، خارج بيتي دائما حتى لا يكاد يكون لي بيت . كنت احد اولئك الالاف الذين يعيـشـون عـائمين في بحر الحـيـاة والذين يرون في جدران باريس وكأنها جدران العالم جميعاً ، لا يهمهم شيء ولا يستأثر بقلوبهم عاطفة . كنت مثال الشـاب الاعزب الطيب بدون مزايا وبدون مسا
وهذا كل شيء . وانني لازن نفسي وزنها الصحيح .

ومنذ العشرين حتى الاربعين من عمري جرت حياتي بطيئة مرة وسريعة مره دون ان يقع فيها حادث بارز .

وما اسرع ما تمر الاعوام الرتيبة المتشابهة في باريس فلا تترك في النفس ذكرى من هاتيك الذكريات التي تصبح من معالم حياتنا وتاريخها . انها سنوات طويلة ، تمضي على عجل مبتذلة ، مرحة ، نشرب فيها ، ونأكل ، ونضحك ولا ندري لماذا تمتد شفاهنا نحو كل ما يذاق ، ونقبل دون اشتهاء اي شيء .. وقد تكون شابا او عجوزا ولكنك لا تفعل ما يفعله الاخرون فتظل دون ارتباط بشيء ، دون جذور ، ولا اصدقاءلك ، ولا اهل ، ولا زوجة ولا اولاد..

بلغت الاربعين اذن برفق وسرعة .. ولكي احتفل بهذه الذكرى منحت نفسي وحدها - فقط - عشاء سخياً في مطعم فاخر ، ولقد عشت عيشة انفراد في الدنيا ، فرأيت ان احتفل بذكرى مولدي الاربعين منفردا كذلك .

وبعد العشاء ترددت فيما افعله . واحببت ان ادخل احد المسارح، ثم خطر لي ان احج الى الحي اللاتيني حيث درست الحقوق فيما مضى ، فاجتزت باريس ودخلت دون سابق تفكير احدى هذه الحانات التي تقوم بالخدمة فيها فتيات حسان.

-٢-

كانت الفتاة التي قامت على خدمتي في الحانة صغيرة السن ، وجميلة ، ضاحكة الفم والاسارير . وطلبت لها شيئاً تشربه فرضيت على الفور . وقد جلست قبالتي ، ونظرت الي بعينها المدربة وهي لا تدري اي رجل انا بين الرجال .. كانت شقراء ، بضة لا يستعصي عليك ان تدرك انها ذات بدن وردي مكتنز يختفي وراء ثيابها .. وهمست في اذنها بكلمات حلوة معسولة مما يقال لهاتيك المخلوقات . ولما كانت رائعة ساحرة خطرلي فجأة أن آخذها واذهب بها .. مختتما بذلك احتفالي ببلوغ الاربعين .. ولم اجد منها الا سهولة ومطاوعة ، فقد كانت حرة من اية علاقة منذ خمسة عشر يوماً .. وقبلت ان اذهب بها ، بعد

انتهاء عملها ، الى اسواق « الهال » حيث نتناول شيئا ما مع طلوع الفجر .
ولقد خشيت ان تتفلت مني - فانت لا تدري ما يمكن ان يحدث في هذه الحانات
ومن قد يدخلها ، وما يمكن ان يهب في رأس امرأة - فبقيت في الحانة انتظرها
طيلة السهرة ...

وكنت انا ايضا ، اذ ذاك ، بدون امرأة ، وتساءلت ، وانا اشاهد تلك
الصغيرة الحلوة السائرة في اول طريق الحب ، عما اذا لم يكن الافضل ان اتخذها
بعض الوقت لقاء مبلغ معين ، انني اروي لكم ، هنا ، احدى هذه المغامرات
اليومية من حياة الناس في باريس ، واغفروا لي ذكر هذه التفاصيل النابية ..
فان اولئك الذين لم يحبوا ذلك الحب الشعري انما يختارون النساء اختيارهم
قطعة من لحم في دكان اللحام ، دون اهتمام باي شيء آخر سوى نوع اللحم
وجودته ..

ذهبت بها ، اذن ، الى غرفتها التي تقيم فيها ، فأنا رجل يحترم فراشه
الخاص ... وكان مسكنها هذا مسكن عاملة فقيرة في الطابق الخامس ، غير انه
نظيف ومرتب ، فأمضيت ثمة ساعتين ممتعتين تبدت خلالهما تلك الصغيرة في
غاية اللطف والرقة .

وفيما كنت اهم بالذهاب دلفت نحو موقد النار لاضع على حافته تلك الهدية
من نقود معلومة ... بعد ان تواعدنا على اللقاء مرة اخرى ، وكانت هي قد بقيت
في السرير .. وقد رأيت على حافة الموقد ساعة تحت كرة من زجاج ، ومزهريتين
وصورتين احداهما قديمة جداً ، وقد انحنيت ، دون قصد ، متفرساً في تلك
الصورة فذهلت ايما ذهول وارتج علي فلم أفهم ... انها صورتي ... بل اول صورة
لي ...منذ كنت طالباً في الحي اللاتيني ... اختطفت الصورة اختطافاً لأتفحصها
عن كثب .. انها صورتي دون اي ريب .. واحسست رغبة في الضحك لفرط ما
بدا لي الامر مضحكا وغير متوقع .. وسألتها .

- من عساه .. يكون .. هذا السيد ؟

فأجابت :

- انه ابي .. ابي الذي لم اعرفه .. وقد تركت لي امي صورته وأوصتني ان احتفظ بها فقد تنفعني ذات يوم .. وترددت قليلا .. ثم جعلت تضحك . وعادت تقول .

- ولكنني لا أدري فيما ستنفعني .. ولست اعتقد انه سيأتي لكي يتعرف علي . ودق قلبي بين ضلوعي بشدة وسرعة أشبه ما يكون عنفاً بجواد جامح .. واعدت الصورة الملقاة على حافة الموقد ، ووضعت فوقها ، دون ان أدري ما افعله ، ورقتي نقد من فئة المئة فرنك كانتا في جيبي ، وادبرت وانا اقول صائحا . الى اللقاء .. » وسمعتها هي تجيب : « الى يوم الثلاثاء اذن .. » وهبطت السلم وانا اتحسس طريقي .. ولما صرت في الخارج كان المطر ينهمر ، فانطلقت واسع الخطى في احد الشوارع ... وجعلت اغذ السير مولهاً ، مستطار اللب ، محاولاً ان اتذكر ! أهذا ممكن حقا ؟ اجل ، لقد تذكرت فجأة فتاة ما ، كانت قد كتبت الي تقول ، بعد نحو شهر من القطيعة بيننا ، انها قد حملت مني ... وقد مزقت او أحرقت تلك الرسالة ، ثم نسيت الامر كله ...وكان يجب ان ارى الصورة الاخرى على حافة موقد النار ، فهي ولا شك صورتها ... ولكن اتراني كنت سأعرفها ؟ انها صورة امرأة عجوز فيما بدا لي ..

وبلغت رصيف النهر وجلست على مقعد هناك ، وكان المطر لا ينفك ، ينهمر، وكان اناس يمرون بين حين وآخر وقد بسطوا مظلاتهم فوق رؤوسهم وبدت لى الحياة دميمة ومثيرة ومليئة بالمآسي والمخازي ، والبأساء قصدا او بدون قصد... ابنتي اذن؟ اتراها كانت ابنتي هذه التي احتويتها بين ذراعي؟ وباريس، باريس الكبيرة، المظلمة، الجهماء، الموحلة ، الكئيبة ، السوداء ، ببيوتها المغلقة ،

مليئة بمثل هذا ، مليئة بالفجور ، والسفاح . والرذيلة ، واستباحة المرء عرض بناته ... ؟ وتذكرت ما يقال عما يحدث تحت الجسور والقناطر من موبقات .

وانا .. قد فعلت دون ارادة مني ، دون علم ، ما هو اشد نكرا مما يجترحه اولئك الاخساء الادنياء .. دخلت فراش ابنتي ؟! كدت القي بنفسي في النهر .. كنت كمن اصابه مس من جنون ! وبقيت تائها مشرداً حتى طلع النهار ، ثم عدت الى مسكني لاديم النظر وافكر. وقمت عندئذ بما بدا لي انه الارشد والاكثر حكمة: فرجوت مسجلا للعقود ان يستدعي تلك الصغيرة ويسألها في اي الظروف سلمتها امها صورة الرجل الذي تحسب انه ابوها ، زاعما ان صديقا كلفني بهذه المهمة .

ونفذ مسجل العقود اوامري ، فعلمت ان امرأة قد عينت والد ابنتها وهي على فراش موتها وامام كاهن ذكر له اسمه . وعندئذ ، وباسم ذلك الصديق المجهول ، تنازلت لتلك الفتاة عن نصف ثروتي ، اي نحو مئة واربعين الف فرنك، ولكنها لا تستطيع ان تنال غير ربعها فقط . ثم استقلت من وظيفتي . وهأنذا الان ... لقد وجدت هذا الجبل اذ كنت اضرب في ارجاء الشاطيء ، فتوقلته ، واقمت منقطعاً في قمته ... ولكن الى متى ؟ لست ادري .. فما رأيك في ... وفيما فعلت له :

– لقد فعلت ما كان يجب ان تفعله .. وربما كان غيرك اقل اهتماماً بهذا المقدور البغيض ..

وعاد هو يقول : انا اعلم هذا . ولكني كنت على وشك ان افقد صوابي .. ويبدو ان لي نفساً حساسة على غير علم مني .. انني الان اخشى باريس خشية الاتقياء المؤمنين نار جهنم .. لقد تلقيت ضربة شديدة فوق قمة راسي . ضربة شبيهة بسقوط حجر على الرأس اذ يمر الانسان في شارع ما .. وانا اليوم أحسن

حالا .. وغادرت ذلك الرجل المنقطع في صومعته ، وقد هزتني حكايته هزاً ، ثم عدت فرأيته مرتين اخريين ، ثم ارتحلت لانني لا امكث في الجنوب بعد نهاية شهر ايار ..

ولما عدت في السنة التالية لم اجد الرجل في جبل الافاعي ..

ثم لم اسمع من يتحدث عنه ..

بطل وطني في ثياب جاسوس

-١-

في مستهل سنة ١٩٤٢ غادرت السواحل الهولاندية سفينة شراعية تحمل عدداً من الهاربين الهولانديين . وعلى مسافة ٨ كيلو مترات من الشواطىء البريطانية أوقفت مدرعة انكليزية حربية هذه السفينة الشراعية وأجرت تحقيقا مع ركابها الفارين ثم ساقتها الى احد الموانيء . وقد كان الركاب جميعاً من الشبان الهولانديين وعددهم اربعة عشر شخصاً، ومعظمهم قد ولدوا أو عاشوا في البلاد التي كانت تعرف، اذ ذاك، باسم الهند الهولاندية .

وبصفتهم لاجئين غرباء قد وصلوا الى انكلترا، كان لا بد بصورة آلية، من ارسالهم الى المركز الرئيس للمراقبة في لندن، وهو المركز الذي عرف باسم « مدرسة الملكة فيكتوريا الوطنية في واندسورث » وكنت انا قد اسسته بمساعدة احد الزملاء، على نية ان يجمع فيه جميع القادمين الغرباء لدراسة امورهم وفحصها جيداً .

وقد جرى استجواب الشبان الاربعة عشر منفصلين ولم اتردد في تصديق حقيقة هربهم، كما شر حوها لي، من هولاندا التي كان الالمان قد احتلوها .

لقد كانوا يريدون الانخراط في الجيش لكي يشاركوا مشار كة فعالة في

النضال ضد الالمان المكروهين .

وقد سئلوا، بالطبع ، عن الطريقة التي استطاعوا بها ان يهربوا . وقد رووا جميعا القصة نفسها . وبدا من حديثهم ان خطة الهرب قد دبرها ونفذها شاب اسمه « بولهوف » وهو خلاسي، اي من اب هولاندي كان يعيش في الهند الهولاندية ومن ام ماليزية ..

وقد كان « بولهوف » هذا، فيما قاله اصدقاؤه، طالباً لما غزا الالمان هولاندا في سنة ١٩٤٠، وقد كان الالمان بحاجة الى شبان ذوي مقدرة وكفاية لكي ينهضوا بالاعباء الادارية المدنية في البلاد، ولذلك فقد عينوه في وظيفة بمكتب خدمات التموين بـ « روتردام » فقبلها على الفور . وقد كان قد اتم الحادية والعشرين من عمره في ذلك الوقت .

ومن موظف صغير رفع، بعد مضي ثمانية عشر شهراً من العمل والنشاط، الى منصب مساعد مدير عملية التموين جميعاً . وبهذه الصفة كان تحت امرته المباشرة اثنان وسبعون موظفا كان معظمهم شيوخاً ويصلح كل منهم ان يكون أبا له .. ولقد كان واضحاً جداً انه اما ان يكون خارق الذكاء او.. وما كدت اصل الى هذا الحد من التفكير حتى اشتعلت في ذهني شرارة من نور احمر محذرة بالخطر ..

ولما انبأني صديق له كان قد اتصلت اسبابه به صلة وثيقة بانهما لما كانا في الهند الصينية فان بولهوف، وكان اذ ذاك في السابعة عشرة من عمره، تقدم لامتحان شهادة الدراسة الحقوقية في تلك البلاد، وبعبارة اخرى اصبح محامياً في وسعه ان يمارس عمله في الهند الصينية، لما انبأني صديقه بهذا كله ازداد اعجابي به وتقديري اياه .

ولما اضاف هذا الصديق نفسه ان بولهوف، وهو في السادسة عشرة من عمره، كان احد الذين انشأوا حركة الشبيبة الاشتراكية الوطنية في الهند الهولاندية، ثم كان من قادتها ازددت اعجابا بمواهبه، الا انني لم انشرح لذلك لان تلك الحركة كانت توائم تماماً حركة الشبيبة النازية في المانيا، بل كانت ايدي النازيين انفسهم تساند الحركة المذكورة وتدعمها . وعندئذ ازداد توهج الشرارة الحمراء في ذهني في مزيد من الالحاح والانذار بالخطر.

-٢-

بعد ان جمعت مختلف قصص الشبان الاربعة عشر، اتضحت لي طريقة « بولهوف » في تدبير وتنظيم حركة فرارهم .

وكان اول ما فعله انه اشترى سفينة شراعية مزودة بمحرك اضافي مساعد . ثم استغل منصبه الرسمي الكبير فاستطاع ان يزود المركب بالمحروقات الوافية، وعلأه بالمؤن والاطعمة وغير ذلك مما لا بد منه في الرحلة .

ولما حان الوقت لصعود الهاربين الى ظهر السفينة الشراعية فان بولهوف لم يتكلف حتى ان يتم الامر خفية او يضفي عليه ضربا من التمويه الخادع .. فقد أتى باولئك الاشخاص واحداً واحداً الى ظهر السفينة بصورة علنية، وفي وضح النهار، وقد اركبهم سيارة رسمية من سيارات مكتب التموين .. واذن فبولهوف اما انه كان يبدي بسالة منقطعة النظير، بعمله هذا، واما انه كان لا يهمه ان يلفت نظر الالمان اليه لسبب بسيط هو اتفاقه التام مع الغستابو الالماني ..

ولكي نختصر قليلا هذه القصة الطويلة، يمكننا ان نقول، دون تلكؤ ان اربعة مراكب شراعية ملأى بالفارين الهولانديين وبتدبير من بولهوف استطاعت ان تبلغ الشواطيء البريطانية فيما بين صيف سنة ١٩٤٢ وشهر آذار سنة ١٩٤٤ . وكان

مجموع عدد الشبان الهولانديين الذين وصلوا الى انكلترا بهذا الاسلوب سبعة وثمانين هارباً من الاحتلال النازي .

ولقد رووا جميعهم دون اي استثناء القصة نفسها وعلى افتراض ان بولهوف كان حقا عميلا المانيا فان فيما دعا الى مزيد من العجب والدهشة ان التحقيق اثبت ان اولئك الرجال جميعا كانوا من غلاة الوطنيين المتحمسين ..

وقد اخبرني الشبان الذين وصلوا الى انكلترا في اخر رحلة هرب في مستهل ربيع سنة ١٩٤٤ ان لهويوف نفسه سيكون في عداد القادمين على ظهر المركب المقبل ..

وقالوا ايضا انه كان على عجل من امره لكي يأتي الى انكلترا ويتصل مباشرة بدوائر المخابرات السرية وبعد هذا يعود الى هولندا لكي يواصل معركته الفردية ضد الالمان ..

واعلموني كذلك انه خلاف المرات الاربع التي وصلت فيها مراكب الهرب سالمة من كل اذى الى انكلترا فان مركبين آخرين حاولا الفرار من هولاندا الا انهما اضطرا الى العودة من حيث ابحرا بسبب صعوبات قاهرة، وهذه هي الحوادث الغريبة التي رافقت اولى هاتين المحاولتين الفاشلتين : كان بولهوف قد اعد المركب اعدادا كاملا بما في ذلك ما يلزمه من مؤن وطعام ومحروقات كالعادة، وقد مهد له لكي ينطلق في رحلته في ليلة حالكة الظلام من نقطة هادئة في الساحل الهولاندي تقع بين «شفيننجق » و « هوك »

وقد كانت الليلة هادئة ساكنة، وكل شيء على احس ما يرام . وبعد ابتداء الرحلة بقليل اعترت المحرك بوادر خلل اثارت القلق، ثم ما لبث ان تعطل تماماً وعاد لا ينتفع به، وازداد سوء الحظ استشراء فهبت على المركب رياح جد عنيفة .

وقد قضوا ليلة ليلاء في مكافحة العاصفة، غير ان الرياح العاتية، لسوء الطالع، اعادت المركب الى مرفأ هوك الهولاندي ...

-٣-

قام المسؤولون عن المركب، وقد ايقنوا بسوء المصير، بسحبه الى الرصيف وربطه هناك، ثم انحدر الشبان الهاربون الى البر وهم يتوقعون ان يلقي الالمان القبض عليهم بين لحظة واخرى . ولكن احداً على البر لم يرفع في وجوههم اصبعاً . ولم يصدقوا انهم قد نجوا فعلا فسرعان ما تفرقوا واختفوا وذهب كل الى بيته..

انهم لم يسمعوا صوتاً واحداً يأمرهم بالوقوف، ولم يروا اشارة واحدة تدل على ان هناك من يريد القاء القبض عليهم بل اكثر من هذا فان كل الجنود الالمان الذين مروا بهم لم يلتفتوا اليهم ولم يكترثوا بهم .

وكنت أنا لا استطيع اطلاقاً ان افترض ان السلطات الالمانية يمكن ان تكون مهملة متهاونة الى هذا الحد، او من الغباء بحيث تتساهل وتغض النظر عن اتخاذ احتياطات الامن البدائية في مثل هذه الحال . فبدا لي، اذن، ان بولهوف كان على اتفاق مع هاتيك السلطات وانه نظم تلك الرحلة بموافقة الالمان انفسهم .

وقد عزز وجهة نظري هذه ما رواه لي اللاجئون الجدد حول الرحلة الثانية الفاشلة، اذ ان بولهوف لم تثبط عزيمته الرحلة الاولى التي اخفقت فأعد رحلة اخرى مماثلة بعد شهرين، غير ان السفينة لقيت ما لقيته زميلتها من سوء الجو والعواصف وهبوب الرياح فاضطرت ان تعود من حيث اقلعت .

وفي هذه المرة لم ينج الفارون بجلودهم كزملائهم في المرة الاولى، فقد استطاع حرس الشواطيء من الالمان ان يلقوا القبض عليهم جميعا وهم يوشكون

ان يغادروا مركبهم .

وقد عكف رجال الغستابو على استجوابهم، حتى ان الكثيرين منهم قد عذبوا ونكل بهم فباح احدهم تحت صنوف التعذيب والارهاب بكل شيء حتى باسم بولهوف نفسه بصفته مدير رحلة الهرب هذه .

وكان المنطق يدعو رجال الغستابو ان يقوموا بعمل واحد لا ثاني له وهو القاء القبض على بولهوف في الحال . الا ان شيئا من هذا لم يحدث، حتى ان الالمان لم يفتشوا مسكنه، واستمر بولهوف في عمله الرسمي بكل برود اعصاب كما واصل اعمال التهريب الخفية كما كان يفعل في السابق ..

ولم يكن في وسعي أنا الا ان اصل الى نتيجة منطقية واحدة تؤيدها قصة فشل الرحلة وهي ان بولهوف كان عميلا المانيا دون ادنى شك، وقد اعدت الرحلتان المذكورتان ودبر امرهما بالاتفاق الكلي مع الالمان .. هذه القصص جميعاً زادت من رغبتي وتلهفي ان التقي ببولهوف وارى اذا كان في مستطاعه ان ينجو من شبكة البراهين المثبتة التي كنت قد انتويت ان احيطه بها فيتخاذل، ويضعف امام الادلة الناطقة . ويبوح لي بانه بالفعل عميل الماني ...

ولما كنت واثقاً ان اليوم الذي سأراه فيه وجهاً لوجه غير بعيد، جعلت ارد ما نفد من صبري في انتظار ذلك اليوم الموعود ...

-٤-

وقد حدث بالفعل، في اواخر ربيع سنة ١٩٤٤، ان سفينة صغيرة غادرت الساحل الهولاندي ليلا متجهة نحو الغرب وفي صباح اليوم التالي شاهدتها بارجة من بوارج البحرية الملكية البريطانية فساقتها محروسة حتى احد الموانيء الانكليزية . وقد نزل الهاربون الهولانديون - ومن بينهم بولهوف نفسه - وبعد

ان تناولوا الطعام واخذوا حظهم من راحة جيء بهم الى مركز « واندسورث » وهو المركز الذي انشأته انا وذكرته سابقاً واسمه « مدرسة فكتوريا الملكية الوطنية » وفي النهاية اخذ بولهوف الى مركز القيادة العامة للامن الهولاندي في بريطانيا والواقع في حكم الاجراءات الروتينية المعتادة . وهكذا فقد وضعت قضيته، رسمياً، بين يدي انا .

واذن ففي يوم بديع من اوائل ايام صيف سنة ١٩٤٤ اي قبل نزول قوات الحلفاء على شواطي « نورماندي » الفرنسية ببضعة اسابيع، وجدت نفسي اقف وجهاً لوجه لاول مرة مع بولهوف . ولقد وجدتني، في الواقع، امام اخطر واصعب قضية تواجهني على الاطلاق في اثناء عملي في مقاومة التجسس وتطلب مني حلا سريعاً وكشفا عن الاسرار الكامنة وراء هذه الشخصية الهولاندية العجيبة .

وما ان وقعت عيني عليه حتى وجدت فيه حقاً ملامح الهولاندي الخلاسي الذي اختلطت فيه الدماء الاروبية بالدماء الشرقية، كانت معارف وجهه اروبية بلا ريب، غير ان له عينين سوداوين براقتين وبشرة سمراء بما ورثه عن امه المليزية . وكانت قدماه ويداه صغيرة دقيقة، وكانت له قامة قصيرة دون متوسط القامات، وكان نحيلا ساطع الاسنان .

ومن المعلومات التي كانت في حوزتي فيما يتعلق بمهنته كنت اعلم مسبقاً انه ذو ذكاء لماح، غير انني لم اكن اتوقع ان اجد فيه هذه اليقظة العظيمة التي تنبعث من شخصيته بقوة باهرة وتشي بها عيناه البراقتان المتوقدتان نباهة وألمعية وشرعت احادثه فقلت له :

– يا سيد بولهوف . لقد فحصت جميع اقوالك، ويبدو لي كل شيء فيها، على وجه التقريب، واضحاً بسهولة، ومع ذلك فثمة بعض نقاط تظل غير مفهومة وكأنه لا تفسير لها .

وقد رأيت ان اوجه اليك اسئلة ارغب في ان تجيب عنها بصورة مرضية اذا استطعت، فقال وهو يحني رأسه احتراماً

- اتفقنا اذن . منذ بضع سنوات فقط كنت احد رؤساء حركة الشبيبة الوطنية الاشتراكية، او قل انك كنت رئيسها الوحيد في الهند الهولاندية . ومع ذلك تزعم انك كنت دائما شاباً هولاندياً وطنياً متحمساً لوطنيتك . فكيف تفسر التناقض البين الواضح بين هاتين الظاهرتين المتناقضتين حقاً ؟

فقال يجيبني :

- ان هذا سهل، يا سيدي، فلم اكن غير فتى صغير في تلك الفترة التي انضممت فيها الى حركة الشبيبة الوطنية الاشتراكية الموالية للحركة النازية الهتلرية . وكنت اعتقد ان الامر لا يعدو ان يكون حزبا وطنياً خالصاً . ولا تنسى يا سيدي ان آلافا من الهولنديين الاخرين الذين لا يشك في وطنيتهم قد فعلوا مثلي، ولم يكتشفوا خطأهم الا فيما بعد . وبعد ان مضى وقت ما على انضمامي الى حركة الشبيبة المذكورة بدأت اتوجس منها واستريب فيها . وعندما اجتاح الالمان البلاد الهولندية في هذه الحرب ادركت حقا انهم اوغاد

- وهذا سبب من الاسباب التي دعتني الى الاندفاع في تنظيم حركة تهريب الشبان الهولانديين عبر الساحل الهولاندي الى انكلترا . وقد كان هذا مني انتقاماً من خداع النازيين وبهتانهم وكذبهم .

والحق ان جوابه هذا كان مقنعاً، ويمكن ان يكون صحيحاً وحقيقياً .

وقلت له :

- هذا حسن . واليك الان السؤال الثاني .

-٥-

وجهت الى بولهوف السؤال الثاني فقلت :

- انت لا تزال شاباً في ريق الشّباب ولست في نظر النازيين واحداً من ابناء الجنس « الآري » الذي يزهون به، بدليل ان والدتك مليزية، وبدليل سحنتك ولون بشرتك وعينيك.. ومع ذلك ما كدت تعمل موظفا صغيرا في وزارة التموين، في مدينة روتردام، حتى رفعت من وظيفتك الصغيرة الى منصب مساعد مدير، وذلك في مدة لا تتجاوز الثمانية عشر شهراً، فكيف تفسر لي هذا الامر الغريب؟

فراح يجيبني دون ان يتردد لحظة واحدة :

- وهذا ايضاً، يا سيدي، بسيط جداً فانا اولا وفيما اعتقد، دون زهو او مباهاة، املك قدرة خاصة في اعمال التنظيم الاداري . غير انني ادرك جيداً انه كان لي ان اتقدم هكذا سريعا دون مساعدة احدهم واشير الى اسمه بحرفي « م.ل. » الذي كان مشرفا على اعمال الادارة . وقد كان يعلم انني أمقت النازيين مقته اياهم، وكان كذلك، على اطلاع بما اقوم به من تنظيم حركة تهريب الهولانديين الى بريطانيا . ولهذا السبب قفز بي من فوق رؤوس زملائي في العمل الى منصب مساعد مدير، وقد كان اكبر دافع له الى هذا انه كان يدرك انني ازددت نفوذاً كلما كان أسهل علي ان اساعد الهاربين الى انكلترا .

وفي هذه المرة ايضاً كان جوابه معقولا ومقنعاً تماماً . وقد زادني اقتناعا معرفتي، من خلال الاضبارات السرية الرسمية التي في حوزتي، ان ما قاله بشأن المدعو « م.ل.. » كان صحيحاً كل الصحة .

وقلت له :

– حسن جداً . اننا على وفاق في هذا ايضاً الان . ونأتي الى السؤال الثالث : لقد قمت بتهريب سبعة وثمانين شخصاً . والمفروض ان الذي ينقذ حياة انسان ما، فان هذا الانسان يظل مديناً له بالشكر وعرفان الجميل . ومع ذلك فان اكثر اولئك الشبان الذين انقذت حياتهم مدينين لك شخصياً صرحوا لي بأنهم لا يحبونك . فكيف يسعك ان تقدم لي تفسيراً لهذا ؟

فابتسم بولهوف من جديد، غير ان ابتسامته دلت على انه حزين اسيف، وقال :

– كنت احسب، يا سيدي، انك انت بما تعرفه عن الطبيعة البشرية كنت تستطيع ان تجيب عن هذا السؤال بسهولة . أليس من المعروف المتداول ان الانسان يجب ان يتقي شر من احس اليه؟ وبالاضافة الى هذا فاني اعلم تماماً انني كنت، احياناً، اظهر بعض العنف في عمليات التهريب مما احفظ قلوب اولئك الشبان وجعلهم يحقدون علي . وهذا العنف صفة من طباعي لا يسعني التخلص منها .

ومرة اخرى استطاع هذا الفتى الذكي ان يزيل بقوة عارضته وتوقد ذهنه ان يجلو ما في سؤالي من معان ضمنية .. غير انني كنت مضطراً ان اعترف بان برهانه كان متماسكا، ومقبولا وقلت له:

– اسلم معك جدلا، هذه المرة ايضاً، وليس ما يمنع ان اقبل جوابك . والان فاليك سؤالي الرابع:

-٦-

وجهت الى بولهوف سؤالي الرابع فقلت :

- لقد اتضح لك دائما ان عملك السري في تهريب الشبان الهولنديين الى انكلترا لا بد انه يتعرض الى اخطار جسيمة . فلماذا، باللهً، كنت تضيف الى هذا مجازفة اخرى غير مجدية وذلك بتجولك في سيارة مكشوفة في شوارع روتردام ومعك الاشخاص الذين كنت تستعد لترحيلهم او تهريبهم ؟ وفوق هذا كله فان السيارة التي كنت تتجول فيها سيارة المانية رسمية!

غير ان سؤالي لم يربكه، ولم يضايقه فقال:

- هل تعتبر هذا حقاً مجازفة كبيرة يا سيدي؟ اما انا فقد كنت أرى دائما انك، في بلد محتل، تكون أقل اجتذابا للانتباه والاهتمام اذا عملت بصورة مكشوفة. .وهل تذكر، يا سيدي، قصة الاديب الشهير « ادغاربو » المعنونة باسم « الرسالة المسروقة »؟ في هذه القصة يقوم رجال التحري، في سبيل العثور على تلك الرسالة الخطيرة، بالبحث عنها عبثاً في كل ركن وزاوية، بل هم قد بحثوا عنها طي الجدران، وفي ثنايا الاثاث، وفي كل ما يخطر ولا يخطر على البال من المخابىء.. وفي اثناء بحثهم الجاد المرهق كانت الرسالة الخطيرة الثمينة موضوعة تحت انوفهم، وعيونهم وفي متناول ايديهم.. كانت قريبة منهم، تشير الى نفسها في اوضح مكان، حتى ما خطر لهم على الاطلاق ان يبحثوا عنها في هذا المكان القريب، الواضح، الظاهر .. لانه لم يدر لهم في بال ان رسالة لها مثل هذه الخطورة يمكن ان توضع، او تخفى في مثل هذا المكان القريب، والموضع الظاهر للعيون.. وانا، يا سيدي، قد عملت وفقا لهذا المبدأ . كان عملي اشبه ما يكون بالمزايدة العلنية.. وما كان جندي الماني واحد ليجرؤ ان يفترض او يظن ان في الامكان استعمال سيارة رسمية، في وضح النهار، في سبيل مساعدة الشبان الهولانديين على الهرب والى بريطانيا. .واحسست، حيال هذا الشاب الالمعي، كأنني اقبض، عبثاً، على حية البحر التي سرعان ما تنزلق متفلتة من بين يديك. .وانتقلت الى السؤال الخامس راغماً . ويحسن، اولا، ان اقدم بعض

ستوكل اليك في المستقبل . وفي نهاية هذه المدة ستتيح لك ان تهبط بالمظلة في هولاندا . ولكن الناس لا يلبثون، على الفور ان يعرفوك في شوارع روتر دام، وسيدركون انك كنت متغيبا مدة طويلة... وسيصر الالمان على ان يعرفوا لماذا منحت نفسك، فجأة، اجازة مدتها ثلاثة اشهر دون اذن، ثم عدت بهذه الصورة الخفية المدهشة . قل الم يخطر لك ابدا انك ستجد نفسك في مثل هذا الموقف المحرج؟ فاجابني بولهوف قائلا

– ان هذا لن يكون معقداً الى الدرجة التي تتصورها يا سيدي، واني لأحسب اولا ان العملاء السريين يتم انزالهم بالمظلة الواقية ليلا . اليس كذلك؟ فهززت رأسي موافقاً ثم واصل هو كلامه:

– اذا ما هبطت ليلا هناك فسيكون امامي متسع من الوقت لكي اذهب الى بيت احد اعضاء منظمتي السرية . وعندما الوذ بهذا البيت واستقر فيه فاني انوي ان لا اغادره الا ليلا، واظل مختبئاً فيه نهاراً . وان لي عدداً من الاعوان الذين يقومون مقامي وهم رجال شجعان وذوو فعالية ويمكن الاعتماد عليهم تماماً . وهم، بهذه الصفات، سيعرفون كيف يأخذون على انفسهم ان ينفذوا التعليمات التي تكون السلطات البريطانية قد زودتني بها . وانا استطيع، من مخبئي هذا، ان اوصل اليهم التوجيهات اللازمة، فهل ترى، يا سيدي، في قولي هذا ما يصلح ان يكون جوابا على سؤالك؟ لزمت الصمت هنيهة، الا انني كنت مرغماً، فيما بيني وبين نفسي، ان اعترف انه في الواقع جواب محكم . غير انني كنت قد ادخرت الاهم والاشد وطأة من الاسئلة الى النهاية، فقلت اسأله:

– حتى الان كانت اجوبتك حسنة، وقد استطعت ان تواجهني بكلام ارضاني . ولكني سأعجب كيف تستطيع ان تفسر المشكلة التالية: لقد علمت من مصادر مختلفة، وقبل نحو ستة شهور من وصولك الى انكلترا، ان احد مراكب تهريب

الشبان الهولنديين بعد ان اعددته وزودته بما يلزم لم يصل الى انكلترا ، ذلك ان الرياح الشديدة اعادته الى الساحل الهولندي، وفي الغداة، حوالي الساعة العاشرة صباحاً

- اي في رائعة النهار - القى ذلك المركب مرساته في مرفأ « هوك » .. فانت ترى الصورة كاملة: الركاب يهبطون بهدوء، وكل منهم يعود الى بيته من طرق واتجاهات مختلفة، ومع ذلك لا يلاحظهم احد، ولا يوجه اليهم اي موظف في الميناء سؤالا ما .. انني لاعجب حقاً كيف يسعك ان تفسر لي هذا الامر؟.. ثم قال :- لست اجد انا نفسي تفسيرا لهذا .

ان هذه القصة كلها غامضة وغير مفهومة . ان المعقول والبدهي كما لاحظت انت ان يكون اولئك الاشخاص الذين عاد بهم المركب بقوة الرياح قد ألقي عليهم القبض في اللحظة التي وطئت فيها اقدامهم الارض .. اجل .. لا استطيع ان اجد لهذا تفسيرا وحبذا لو امكننى ذلك .. وكل ما استطيع ان اقوله هو ان الحقيقة احيانا اعظم وابعث على الدهشة من الخيال .

وقلت انا له :

- ربما كانت هذه الحيرة هي التفسير الصحيح .. وربما كان التفسير الاصح ان الالمان كانوا على علم بالامر، لانك انت قد اطلعتهم، في الليلة السابقة، على ابحار المركب، وربما فكروا ان الافضل ان يتركوا المركب،يذهب دون اعتراض لان ركابه اصدقاؤك ومن اعوانك انت صديق الالمان وعميلهم .. اليس هذا ممكناً؟

-٨-

ابتسم بولهوف بمنتهى الهدوء وقال :

– هذا ممكن جداً لو كنت انا فعلا احد عملاء الالمان كما تتصور . ولكنني كما قلت لك سابقا انا لست عميلا لاولئك الخنازير، ولن اكون . وانت حر ان تصدقني او ان لاتصدق، غير انني لا استطيع الا ان اقول الحقيقة . فقاطعته قائلا:

– ولقد تكون الحقيقة، في اكثر الاحيان، اغرب من الخيال .. يبدو لي انني سمعت مثل هذا الكلام في مكان ما .. حسن فلنتحدث، بعض الوقت ايضاً، عن عمليات التهريب هذه في السفن والمراكب ... فانها لتستثير فضولي اكثر فأكثر : بعد مرور شهرين على حادث المركب الذي ذكرناه الان بصورته الغريبة، قمت انت بتنظيم رحلة تهريب اخرى مماثلة . وحدث لهذا المركب ما حدث لسابقه فهبت الرياح، وتعطل المحرك، وعاد المركب من حيث اتى . غير ان الركاب، في هذه المرة . لم يستطيعوا ان يعودوا بهدوء الى منازلهم، فقد شاهدهم الالمان والقوا عليهم القبض فورا . وزيادة على ذلك علمنا ان احدهم قد ذكر اسمك باعتبارك منظم رحلة تهريب الشبان الهولانديين هذه، وحتى انه أعطى الالمان عنوانك الشخصي . ولكنك فيما يدل شاهد الحال، مزود بالطلاسم والحجب التي تدرأ عنك السوء .. ذلك ان رجال « الغستابو » لم يلقوا عليك القبض في الحال وحسب، بل انهم لم يقوموا حتى بأي تحقيق حولك .. فلماذا ؟ انه سؤال اوجهه اليك انت .. ولم يبد على بولهوف انه اضطرب اطلاقا، بل راح يجيب قائلا:

– ومرة اخرى اقول ان هذا من المعميات حقاً . ولا تفسير له الا انهم آثروا ان يضعوني تحت المراقبة لكي يستدرجوني في نهاية الامر الى ان اقود خطاهم الى شخصيات اخطر شأناً ترغب في الهرب من هولندا .. او ربما كانوا لم يتأكدوا بعد، او لم يدر لهم في بال انني اعمل وحدي، ففكروا انني، حين لا يوقظون توجسي . ربما كشفت لهم عن وجود شبكة تجسس واسعة النطاق تعمل في السر وطي الكتمان .

وعندئذ قلت له :

- صحيح . ان هذا تفسير منطقي . ولكن ما دمنا نتحدث في المنطق فلو ان الالمان راقبوك مراقبة جدية حقاً لاكتشفوا انك، بعد بضعة اشهر، اعددت رحلة تهريب جديدة كنت انت نفسك احد اشخاصها الهاربين الى انكلترا ويقضي المنطق، في هذه الحال، ان يلقوا القبض عليك قبل الرحيل، ومع ذلك فهذا انت معي الان، وفي ارض بريطانية ... والنتيجة الوحيده التي يمكن استخلاصها هي : انهم لم يكونوا يراقبوك على الاطلاق .... وقد استمر استجوابي الثاني لبلهوف هكذا اياماً متتابعة، وكنت اعود دون كلل او ملل الى تلك الاسئلة الثلاثة التي لا اجوبة مقنعة لها . اجل لقد كانت هكذا دون ريب على الاطلاق اذا ما استبعدنا الفرضية التي تملي نفسها املاء وهي : ان بولهوف كان على اتفاق مع الالمان ..

وفي النهاية اضطررت الى ايقاف الاستجواب وقلت له انني سأعلمه بما يتم بشأنه قريبا .

-٩-

ان دراسة ملف بولهوف اتعبتني، واقلقتني، وجعلتني انفق الليالي البيضاء في النظر فيها، كنت على اتم الاستعداد لقبول اجوبته واعتبارها مرضية تماماً عن اسئلتي الثلاثة الاولى التى وجهتها اليه في مستهل الاستجواب غير انه لم يقدم لي اي تفسير مقنع واي جواب مقبول عن الاسئلة الاخيرة ...

ومع ذلك لو افترضنا انه كان يعمل لحساب العدو، فان الالمان يكونون قد اضاعوا وقتا ثميناً جدا في الانتفاع بخدماته .. فقد انقضى اكثر من سنتين منذ ان وصل الى انكلترا اول مركب اعده هو لتهريب الشبان الهولانديين، ثم تبع ذلك

خمسة مراكب اخرى استطاعت ان تهرب ما مجموعه سبعة وثمانون لاجئاً..

وزيادة على ذلك الفريق الذي وصل مؤخرا وكان هو نفسه من بين اشخاصه الهاربين .. وما كان للالمان ان يفترضوا قط ان الحرب ستستمر حتى سنة ١٩٤٤ واذن وبنتيجة هذا كله فقد استفادوا من حركة هذه المنظمة التي كان يرأسها بولهوف مدة طويلة قبل تاريخ التهريب هذا .. غير انه لم يقم اي دليل بل لم نقع على اية علاقة او اشارة مقنعة تنبيء بان تواطؤا ما قد حدث في تنظيم عملية التهريب التي كان تجري باشراف بولهوف..

واضف الى هذا لو ان بولهوف كان عميلا للالمان لكانوا اذكى من ان يجهلوا ان دوائر مقاومة التجسس عندنا سيتولاها العجب ان لا يكونوا قد ازعجوه اي إزعاج مهما يكن يسيرا عندما وشى به صديقه الذي وشى به، تحت العذاب، وذكر لهم اسمه وعنوانه باعتباره المشرف على حركة التهريب يوم القى الالمان القبض على ركاب المركب الثاني الذي اعادته الرياح الى الساحل الهولاندي، ولكان الالمان، على الاقل، لكي يتستروا ويصرفوا الشبهات عن انفسهم، تظاهروا بالقاء القبض عليه واستجوابه، بل لكانوا، دون اي ريب، وقد دبروا امر هربه هو نفسه على نحو يوقع في الاوهام، لدى وصوله الى انكلترا، انه انما استطاع النجاة بنفسه من تعذيبهم واضطهادهم . فتكون مثوبته ، بهذا ، مضاعفة، واجره مزدوجاً لانه ، اولا قد خاطر بنفسه بتنظيم حركة تهريب الشبان الهولانديين، ولانه، ثانياً، استطاع ان يفلت هو نفسه من مخالب الغستابو الرهيب ..

لقد كان شعوري الشخصي يؤكد منطق هذا الافتراض نفسه .

والواقع كان شعوري يحدثني بأن بولهوف بريء . فان شيئاً ما في موقفه في نوع ثقته الهادئة بنفسه، قد انتهى باقناعي ببراءته . وكما قلت سابقاً فقد كان

بولهـوف اكـثـر واحد ذكـاء والمعيـة بين جـمـيـع الذين قـدر لي ان التـقي بهم من الشبـان، ولقد قلت لنفسي لو ان هذا الفتى الموهوب والذي له مثل هذه الصفات الفائقة من الذكاء البارع كان عـمـيـلا المانيـاً، لتحوط من ان يورط قصـتـه ويفسـد حقيـقتـها بمثل تلك الثـغرات الفاضـحة التي ظهرت في اجوبتـه الاخيـرة . بل ان عجزه في الجواب عن تلك الاسئلة والادلاء بالتفسير المقنع المرضي لها قد ساعد، اذن على اظهار برا ءته في نظري .

وجلسـت الى مكـتبي، ورحت اكتب تقريري بشـأن بولهوف الى وزير العدل . قد ذكرت جميع التفاصيـل المتعلقة بهذه القضيـة، وقدمت تلخيصـاً مركزاً ضـمنته جميع النقاط التي تقف الى صالح بولهوف لتعزيز برا ءته .

وكـما قد توقعت فقد قبل الوزير وجهة نظري، فاطلق سراح بولهوف، وعين في وظيـفة ادارية فعالة . ولكن، وفي شـهر نيسـان سنة ١٩٤٥ وقع مـا لم يخطر على بال ..

-١٠-

في شـهر نيسـان سنة ١٩٤٥. اي بعد نحو تـسعة أشهر استقرت قيـادتي العـامـة في المدينة الهولاندية « بريدا »، وكـانت الجيـوش الالمانيـة قد دحرت، وجعلت فلولها تهرب نحو الغرب .

وكـان النازيون قـد اقـامـوا في المدينة المجـاورة « آنشـينده »، حـتى اواخـر ايامـهم فيـهـا، احد اجهـزتهم لمقـاومـة التـجـسـس وقد اطلقوا عليـه هذا الاسم: « الجـهـاز السـري رقم ٣٠٦ » وكنت انا، بالطبع، تواقـاً ان اكـون اول من يدرس اسـاليـبـهم الخاصـة بمكافـحـة التـجـسـس، والمعلومـات التي كانت في حـوزتهم . فأصدرت اوامري، اذن، ان تقدم الي في الحال جميع الوثائق الموجودة في مكاتب

ذلك الجهاز .

وقد امضيت ساعات وانا مكب على تلك الاوراق والوثائق والملفات اتفحصها، وادرس محتوياتها. وذات يوم، وفيما كنت القي نظرتي سريعة على احدى الاوراق المكتوبة على الآلة الكاتبة في اسطر ملزوزة ووقعت عيني على اسمي انافدهشت ايما دهشة وجعلت اقرأ: «الميجر او. بنتو، المعروف في الشفرة السرية باسم «فرانك جاكسون» فبلغ من دهشتي اني وثبت من مكاني ويدي ثابتة في منتصف الطريق لا هي تتحرك لتصل الي شفتي من شدة المفاجأة، ثم عدت فجلست ورحت اقرأ تلك الوثيقة من اولها بمنتهى الانتباه.

وقد كان عنوانها «الاعتراف الكامل للعميل المعروف في الشفرة السرية باسم بوبي واسمه الحقيقي انطون بولهوف. ولقد ادلى بهذه الاعترافات يوم ٢٢ اذار سنة ١٩٤٥ في مدينة اولروم.

كان هذا صدمة كبيرة لي وكنت قد غادرت لندن بعد ان اصدرت اوامري ان لا يسمح لبلهوف بالخروج من انكلترا قبل نهاية الحرب... غير انه استطاع ان يجد الوسيلة لمغادرة لندن والذهاب الى هولندا حيث القى الالمان القبض عليه فاعترف لهم اعترافا كاملاً بكل شيء بما في ذلك اسمي انا... فيا لها من قراءة شائقة في هذه الوثيقة المفاجئة... .

والواقع ان قراءة الوثيقة كانت شائقة حقاً... وقد بدأ اعتراف بولهوف فيها بأن اثنين من العملاء الاميركان السريين التابعين لما يسمى «جهاز التجسس لما وراء البحار» قد اتصلا به في خلال صيف سنة ١٩٤٤ وطلبا منه ان ينخرط في الجهاز المذكور.

ويؤكد اعتراف بولهوف انه كان الهولندي الاول الذي سمح له بان ينضم الى

جهاز التجسس الاميركي، ولم يسمح لهذا، من قبل، الا للفرنسيين، البلجيكيين والاميركيين المنحدرين من اصل الماني ليعملوا في التجسس في القارة الاوروبية.

وجاء في الاعتراف ان المهمة التي أسند بها اليه هي ان يهبط بالمظلة الواقية شمال هولاندا حيث يقوم فورا بتنظيم شبكة تجسس. وكان عليه ان يتصل بموظفين موالين في وزارة الزراعة ومصايد هناك ويجتذب من بينهم عملاء لشبكة التجسس المذكورة.

-١١-

تروي اعترافات بولهوف، بعد هذا، انه القي به، بالمظلة الواقية، يوم ١٠ تشرين الثاني سنة ١٩٤٤ في مقاطعة «غروننغ» الهولاندية. وقد انهمك، في الحال، بتنظيم شبكة التجسس المتفق عليها، وتم له كل شيء على احسن وجه.... وبعد مضي ثلاثة اشهر بالضبط قام رجال الغستابو بغارة مفاجئة على احد مخابىء شبكة التجسس التي يديرها بولهوف في المدينة التي تحمل اسم المقاطعة نفسها وقد اهتدى رجال الغستابو الى هذا المخبأ في ضوء معلومات قدمها لهم احد الخونة من الشبكة نفسها... وقد مر على سجن بولهوف اسابيع كثيرة، وفي النهاية جرى استجوابه امام قائد الامن المحلي الالماني، وامام جهاز امن هولاندا المحتلة وذلك بموجب لائحة اتهام رسمية مسهبة.

وفي ٢٢ آذار سنة ١٩٤٥ قدم قائد الامن المحلي نسخة من اعترفات بولهوف الى الميجر«فون فيلدمن» رئيس الجهاز السري الالماني رقم ٣٠٦ لمكافحة التجسس في مدينة «آنشيندة». وكانت هذه النسخة هي التي بين يدي... .

واستمرت اعترافات بولهوف تروي كل شيء، وتذكر جميع المعلومات التي ادلى بها في خلال استجوابه، اي القصة المفصلة لوصوله الى انكلترا، ووصف

اساليب المراقبة التي احيط بها، دون ان ينسى بالطبع ذكر دوره في هذه القصة كلها... .

وكأن هذه المعلومات لم تكن لقمة سائغة ودسمة للالمان، فقد تبرع بولهوف بمعلومات واسرار اخرى كاملة في غير هذا من مجالات الاستخبارات السرية منها تفاصيل وافية حول اجهزة الاستخبارات البريطانية، وملاحظاته الشخصية فيما يتعلق بالصاروخ الطائر «ف١» وتقرير مقتضب بصدد لغم بحري وجده الحلفاء غير منفجر في سواحل نورمانديا، وبعض نقاط تتعلق بتزويد الطائرات البريطانية بالوقود ووسائل صيانتها الخ.

بعد ان فرغت من قراءة هذه الاوراق احسست كأن حلقي قد جف وقلبي قد توقف عن خفقانه... ذلك ان بولهوف، في ضوء هذه البراهين الدامغة التي طالعتها، قد انقلب خائناً لوطنه دون اي ريب.

وفي هذه اللحظة كنت على اتم الاستعداد ان أتنازل عن اي شيء مهما يكن غاليا وثميناً لكي يقع في قبضتي هذا الخائن ذو الابتسامة الساطعة والحديث البارع... غير انني فكرت في مزيد الحسرة والاسف ان بولهوف لا بد قد هرب الى المانيا بصحبة اسياده النازيين الفارين المهزومين.

وقلت في نفسي: لن يساعدني الحظ ابداً ان اجد بولهوف امامي وواقفاً معي وجهاً لوجه... وتملكني الغيظ والحنق، وجعلت اردد ساخطاً غاضباً: انني لن اراه... لن اراه... .

غير ان الواقع كان غير هذا، وكانت نبوءتي غير صادقة... .

-١٢-

في مطلع شهر ايار سنة ١٩٤٥ كان شمال هولاندا جميعاً قد وقع في ايدي

الحلفاء. وقد فتحت السجون الالمانية كلها، واستجوب نزلاؤها بسرعة قبل اطلاق سراحهم واعادتهم الى بلدانهم... وكان بين اولئك السجناء السابقين الذين كانوا ينتظرون دورهم في الاستجواب: بولهوف نفسه!

وسرعان ما مثل امامي، ورحت أنا اتفحصه ببرود بضع ثوان... وكانت نظراتي إليه مثقلة بالاشمئزاز والازدراء ومنتهى الاشتباه بأمره... ثم قلت له:

- والان يا بولهوف، او يا «بوبي» اذا اردت ان ادعوك بالاسم الذي تعرف به في الشفرة السرية، والان ها نحن قد التقينا ثانية... وفي المرة الاولى استطعت ان تخدعني وتنجو بنفسك... غير انني اشك الان انك ستستطيع ان تنجو بجلدك بسهولة... لقد ابتكرت ، في السابق، قصة طريفة... اما الان فاني ارى انك ابتكرت قصة اخرى اكثر طرافة لاعدائنا.

قلت له هذا ورحت اضرب براحة يدي فوق الوثائق العجيبة الموضوعة فوق مكتبي.

غير ان بولهوف قابل نظرة الازدراء والاشمئزاز التي رميته بها بما يعادلها. بل يفوقها ثقة بنفسه واعتداداً بها... ثم قال:

- هل استطيع، يا سيدي، ان اجيب على سؤالك بان اوجه انا اليك سؤالين؟

فقلت مغمغماً،

- سل ما تشاء ولكن لا تتصور ابدا انك تستطيع ان تنجو باكتساب الوقت. لقد اوشكت الحرب ان تنتهي... وامامي الوقت الكافي جدا والذي لا اخشى ضياعه.... .

فأجاب متنذا:

- انا اعلم يا سيدي ان وقتك ثمين ولست اطمع فيه. واذن فسأدخل في صلب الموضوع فوراً:

- هل تستطيع ان تظهر لي في اعترافاتي هذه الموجودة تحت نظرك فوق المكتب اية معلومات او اي طرف من معلومات مهما تكن ضئيلة او كبيرة لم تصل الى الالمان قبل ان ابوح لهم بها؟

كان سؤاله محرجاً حقاً. فلقد اتضح لي ان جهاز مكافحة التجسس الالماني كان قد علم من مصادر شتى اخرى بالوقائع والتفاصيل والمعلومات والاسرار المهمة التي وردت في اعترافات بولهوف، قبل ان يبوح لهم بها.

واقدم مثالا صغيراً لما اقول، وهو يتعلق بي انا شخصياً: لقد كنت اعلم على وجه اليقين وبصورة ليس فيها ولا غموض ان اسمي المستعار في الشفرة السرية وهو «فرانك جاكسون» كان معروفاً عند الألمان منذ زمن طويل.

-١٣-

ان الذي لم استطع ان افهمه هو كيف استطاع بولهوف نفسه ان يعلم باسمي السري المستعمل في الشفرة، ثم لماذا هو احتاج ان يقدم لهم بضاعته من معلومات واسرار قديمة طوعاً واختياراً ودون اي اكراه فيما يظهر؟ وقلت له:

فلندع هذا جانباً الان. وانا اقرك على ان المعلومات والاسرار التي بحت بها للالمان كانت قديمة ومعروفة لهم الا ان هذا لا يجعلك أطهر ذيلا في نظري، فأنك اطلعتهم على ما وسعك ان تطلعهم عليه. اما ان تكون بضاعتك قديمة فان هذا لا يقلل في شيء من نيتك التي أنتويتها ان تساعد العدو.

ولم يفقد بولهوف هدوءه وسكينته ابداً، فقال يجيبني:

- استميحك العذر، يا سيدي، فاني ارى نقيض ما تراه تماماً. واليك الان السؤال الثاني الذي كنت اهم ان القيه عليك لما غادرت لندن اعطوني، هناك، اسماء وعناوين شتى لعملاء يعملون لحساب الحلفاء. وكان على ان اتصل بهم في هولاندا... وانا لو كنت خائناً كما تتوهم او عميلا مزدوجاً في خدمة الالمان والحلفاء في آن واحد، الم يكن من السهل علي ان اميط اللثام عن اولئك العملاء.. للالمان في اول مناسبة سانحة؟ فهل قتل اولئك العملاء الهولانديون او القي القبض عليهم حتى الان؟ قل يا سيدي، هل حدث لهم شيء من هذا؟ أرجوك ان تعود فتقرأ هذه الوثائق التي بين يديك لكي تتأكد من صحة ما اقول.... .

***

واغلقت نهائيا باب الاستجواب والتحقيق مع بولهوف، واعتبرتها «قضية» منتهية ولا لزوم للعودة اليها. ذلك ان ابرع المستجوبين واحذق المحققين واكثرهم خبرة واختباراً في شؤون مكافحة التجسس ما كان ليستطيع ان يجد حجة يحتج بها امام أجوبة بولهوف الصادقة المليئة بالذكاء والفطنة والالمعية.

ان بولهوف لم يخن ايا من رفاقه في المقاومة اومن كانوا مثله يعملون في سبيل وطنهم هولاندا.

والواقع انه بنباهته، وبداهته الذكية النيرة استطاع ان يجد السبيل الذي ينتهجه في وجه عدو مصمم على مواصلة الاستجواب والتحقيق معه حتى النهاية لكي يصل الى مبتغاه.... .

اجل ان بولهوف قد أفلح في انقاذ نفسه كما افلح في انقاذ رفاقه وزملائه. ذلك ان الالمان اقتنعوا بقيمة وصحة المعلومات التي افضى لهم بها، وحسبوا ان

هذا كل ما يعلمه... ولا شك في ان الضابط الالماني المحقق قد وقع امضاءه بفخر وازدهار على التقرير الذي يتضمن اعترافات بولهوف والذي رفعه الى رئيسه الميجر «فيلدمن» وهو يعتقد انه قام بعمل ناجح عظيم الجزء بنباهة وصدق طوية واخلاص.

وفي رأيي ان تجنب بولهوف ان يزود الألمان باسماء وعناوين رفاقه وزملائه في شبكة التجسس كان كافياً ليمثل برهاناً قاطعاً وبينه حاسمة مطلقة على صدقه واخلاصه... وما كان اسهل عليه ان يخونهم ويغدر بهم.

هذه هي قصة انطون بولهوف، الخلاسي القمحي، المتحلي بذكاء متوقد، الحاذق في التنظيم والتدبير، وتهريب الشبان الهولانديين الى بريطانيا في اثناء الحرب لكي ينضموا الى حركة المقاومة... هذه هي قصة هذا الشاب الذي حامت حوله الشبهات، والذي كان عميلا سرياً ناجحاً، ثم حامت حوله الشبهات مرة ثانية، ثم تكشف في النهاية عن انه حليف صادق ومخلص وامين.

المجزرة الثلاثية

قد تمتاز بعض قضايا العصر بطابع خاص، لا لانها تعبر عن روح هذا العصر بصفة خاصة-فالجرائم المروعة تقع مع الاسف في كل العصور- وانما لانها تحدث من الدوي والانفعال بحوادثها واحداثها ما يملأ قلوب المعاصرين دهشة او غضبا وسخطا. وقضية أسرة «دومينيسي» كانت هي القضية التي وضعت طابعها وميسمها على جبين سنوات ما بعد الحرب العالمية الثانية في بلادنا فرنسا الكثيرة اكبر من جريمة بشعة ومروعة... وان الكلمة الاخيرة، في هذه الجريمة، لم تعرف حتى اليوم، وعلى مؤرخى المستقبل الافذاذ أن يدرسوها، وينظروا في ملفاتها، ويبحثوا في ملابساتها، عسى ان يصلوا الى الحقيقة ويميطوا اللثام عن خفاياها وأسرارها إذا وجدوا الى ذلك سبيلا.. وبعد فاليك ايها القارىء الكريم حوادث هذه الجريمة النكراء: كيف وقعت وكيف جرت.

-١-

كان السير «جاك دراموند» العالم المختص بشؤون التغذية، المعروف في الاوساط العلمية البريطانية، قد وضع مشروعا خاصا، في هذا الصيف، لقضاء اجازته الطويلة في فرنسا.

وفي خلال شهر تموز ابحر من انكلترا حتى وصل إلى «دانكرك» فأنزل سيارته الكبيرة من طراز «هيلمان» وراح يغذ السير على طريق «اللورين»

الفرنسية وبصحبته زوجته «ليدي آن» وابنته «اليزابث» وهي تلميذة صغيرة في الثانية عشرة من عمرها.

وقد عبرت هذه الطفلة عن سرورها بهذه الرحلة في بطاقة ارسلتها الى جدتها وقالت لها فيها:

جدتي العزيزة. انني جد مبتهجة، وما اكثر ما الهو وامرح. وانا الآن في-دومريمي- المكان الذي ولدت فيه «جان دارك» بطلة فرنسا التاريخية.. واحب ان تعلمي، يا جدتي الطيبة، انني كنت الرابعة في الامتحان. وانه ليطيب لي ان ارسل اليك اطناناً ومقادير عظيمة من محبتي وقبلاتي».

صغيرتك اليزابث

ومن «اللورين» انحدرت اسرة «دراموند» الى مدينة «فليفرانش سورمير» حيث كان عالم الكيمياء العضوية الدكتور «ماريان» وصديق اسرة دارموند قد أستاجر دارة بديعة. فنزل فيها السير جاك وزوجته وابنته، غير انهم لم يلبثوا طويلا، وقد كانت اقامتهم فترة استراحة قصيرة انطلقوا بعدها، في اليوم الرابع من شهر آب، الى مدينة «ايكس» وقد اتخذوا اليها الطريق المسمى «طريق الطلاب» في «البروفانس العليا». وكان قسما من حقائبهم ونقودهم عند مواطنهم عالم الكيمياء العضوية «ماريان».

وقد كان شهر آب هذا من سنة ١٩٥٢ رائعاً حقاً. وبدلاً من أن يبحث افراد اسرة «دراموند» عن فندق ريفي لهم فقد فضلوا ان يمضوا ليلتهم في العراء تحت النجوم المتلامحة، فاخرجوامن سيارتهم اسرة السفر المطوية والفراش والاغطية، فنصبوا الاسرة ورتبوا فوقها فراشهم بمشاعر من الغبطة والسرور ولكن لماذا تراهم اختاروا هذا المثلث الصغير من الارض الصلبة الجرداء التي تعلو نهر «دورانس» اسفل قرية «لورس»؟

لا ريب في ان اختيارهم هذا كان لانهم والموت كانوا على ميعاد..

-٢-

لم يحس السياح الانكليز الثلاثة في تلك الامسية، انهم منعزلون في هذه الناحية من الريف التي تكاد تتصل بطريق السيارات رقم (٩٦) التي ستنطلق عليها سيارتهم صباح الغد الى مدينة «ايكس»، والسكة الحديدية نفسها كانت جد قريبة منهم، وكذلك محطتها الصغيرة. ثم انهم يستطيعون ايضاً ان يلمحوا، على مسافة نحو مئة وخمسين متراً من مكانهم، مزرعة ضخمة، بديعة المنظر بقرميد سطوحها الاحمر، ونوافذها العريضة المعروشة.

كان صاحب هذه المزرعة، العجوز «غاستون دومينيسي» يملك، ثمة، ارضاً زراعية اسمها «غرانتير» غير ان الناحية التي رأى افراد اسرة «دراموند» ان يقيموا مخيمهم فيها لا تخصه، وانما كانت من املاك دوائر الاشغال العامة لانها تؤدي مباشرة الى الجسر الصغير الذي يعلو الخط الحديدي.

وفي عتمة المساء ذهبت «ليدي آن» وابنتها الصغيرة اليزابث الى المزرعة تطلبان من سكانها بعض الماء، وقد عادتا بدلو من قماش غير نافذ يطفح ماء. وكانت السيدة آن دراموند لا تعرف من اللغة الفرنسية كلمة واحدة، وكانت البنية الصغيرة- اليزابيث- هي التي تعرف هذه اللغة وتقوم بالترجمة... وبعد قليل اوت الاثنتان الى سريريهما واستغرقتا في النوم. وكانت ليلة الرابع من شهر آب قد بدأت. وسكب القمر، الذي يكاد يكون بدراً في تمامه، نوره فأضاء ثلاثة اشخاص توشك ان تصبح جثثاً ثلاثاً..

وفي نحو الساعة الواحدة، بعد منتصف الليل، سمع سكان النواحي المجاورة بعض العيارات النارية، فلم يهتموا بها ادنى اهتمام، وما أكثر ما يسمعون من اعيرة نارية يطلقها بعض من يخرجون لصيد ارنب او ثعلب..

مرت، بعد ذلك، ساعات، ثم طلع النهار. وكان المدعو «اوليفبيه»، وهو عامل في مصانع «بيشبنية»، قد انحدر الى الطريق العام وهو يمتطي دارجته النارية الصغيرة، فبرز امامه رجل هو «غستاف دومينيسي» احد ابناء «غاستون» صاحب المزرعة، فراح ينبىء الرجل بأمر رهيب خلاصته انه وجد، فوق الحشائش بنية صغيرة مقتولة.. وتوسل اليه ان ينطلق، على دراجته النارية، لاخطار مركز البوليس في بلدة «اوريزون» الصغيرة الواقعة على مبعدة عشرة كيلو مترات في الناحية الاخرى من مصب نهر «دوايس» فاستعد صاحب الدراجة النارية للقيام بهذه المهمة، وعاد فامتطى دراجته بسرعة وقبل ان ينطلق استطاع ان يلمح امرأتين تتحدثان امام سور المزرعة... وسنعلم فيما بعد. ان كبرى الاثنتين هي زوجة العجوز «غاستون دومينيسي» والاخرى كنته «ايفيث» .

وقد مر اناس آخرون قريباً من مخيم اسرة دراموند دون ان يلاحظوا شيئا غريباً وغير معتاد، ومع ذلك فان المدعو «ريكار»، وهو عامل من مرسيليا، وكان ذاهبا لركوب «الاتوبوس» الى مدينة «فوركلكيبه» قد ادهشه ما شاهد من فوضى حول سيارة الـ (هيلمان) الكبيرة، فقد كانت ابوابها مفتوحة، واشياؤها مبعثرة على الارض..

-٣-

غير ان «ريكار» صاحب الدراجة النارية لم يساوره القلق. فقد رأى احد افراد اسرة دراموند الانكليزية نائما، ولكن الغريب انه كان، فيما يبدو، نائما تحت سريره السفري، وقد كانت قدماه ظاهرتين تحت السرير فما اغرب هذا كله حقاً ! ولكن لماذا الاهتمام بما يفعله الاخرون؟ وانطلق صاحب الدراجة النارية لا يلوي على شيء...

واقبل رجال الشرطة اخيرا، وعلى رأسهم الضابط «رومانيه»، وعندئذ

اكتشفوا الحقيقة المروعة. لم تكن البنية الانكليزية هي وحدها المقتولة. بل كان ابواها ايضا مقتولين برصاص بندقية..

وقد اتضح ان السيدة دراموند اصيبت بجروح ثلاثة مميتة، وكان فستانها المشجر ملطخا بالدم. اما زوجها سير (جاك) فلا بد انه حاول ان يدافع عن نفسه، فان الكثير من الاصابات والجروح قد بانت على جسمه واعضائه جميعاً.. ولا ريب في انه استطاع ان ينهض، ويمشي، ذلك ان بركة كبيرة من الدم وجدت على مسافة بضعة امتار من جثته، وكان الدم قد تشربه التراب حتى عمق ثلاثة سنتمترات.

اما الصغيرة اليزابث فظهر انها قتلت ضربا بكعب البندقية، فقد كان جسمها سليما، غير انها اصيبت بجرحين بالغين في رأسها احدهما يبدأ من قاعدة الانف، والاخر في الجبين، وكانت هذه الاصابة الاخيرة هي التي حطمت لها جمجمتها.

وكانت جثة الفتاة الصغيرة ملقاة على بعد نحو مئة متر عن جثتي امها وابيها، اتراها حاولت ان تهرب ناجية بنفسها؟ هذا أمر مستبعد ولا ريب، لانها كانت حافية بدون حذاء، ولم يكن في اخمص قدميها آثار من تراب او شظايا الحصى، واذن: لماذا كانت جثتها بعيدة هكذا عن جثتي والديها؟

وقد استدعى عمدة قرية «لورس» الطبيب الشرعي. وجاء الطبيب الدكتور «دراغون» في تمام الثامنة صباحاً وكان اول ما قرره ان اصابة جثتي السير دراموند وزوجته أشد بكثير من اصابة ابنتهما الصغيرة، ولذلك كان من رأيه ان البنية قد فارقت الحياة بعد أبويها بنحو ثلاث ساعات.

وبدا أن هذه المجزرة الثلاثية غير مفهومة. ورغم فوضى الاشياء المبعثرة فانه كان ظاهراً ان شيئاً لم يسرق من متاع الاسرة واشيائها، والدافع الى الجريمة لم

يكن الشذوذ والشغف بالتعذيب ورؤية الدم... واذن فماذا كان الدافع الى هذه الجريمة النكراء التي ذهب ضحيتها ثلاثة من السياح الآمنين المسالمين؟

بعد ان انتهى الطبيب «دراغون» من معاينته الرهيبة، وبعد ان خاض في دماء الضحايا الثلاث اتجه الى مزرعة اسرة «دومينيسي» لكي يغسل يديه الا ان صاحب المزرعة وسيدها العجوز «غاستون» لم يحسن استقباله... وكان هذا العجوز قوياً، صلباً كشجرة البلوط رغم السادسة والسبعين من عمره. وكان المجاورون قد اطلقوا عليه لقب «الخنزير البري» كما كان معروفاً بينهم بأنه فلاح متحرز، وآمر متسلط مستبد... ولما رأى الطبيب خاطبه بضمير المخاطب المفرد استخفافاً به:

- اراك هنا... فماذا اتيت تفعل؟

- أتيت اسألك ماء اغسل به يدي وغمغم الفلاح العجوز،ناقماً:

- ولم يتحرك من مكانه. وكانت تقف إلى جانبه امرأة طاعنة في السن وقد انتشرت التجاعيد في وجهها، انها زوجته،وقد كانت واقفه، ثمة، وقد شبكت يديها على بطنها. وجعلت تحدق بعينيها في الارض، وبدا كأنها هي الاخرى قد تصلبت وتحجرت..

-٤-

نفد صبر الطبيب فسحب طلبه.. وذهب «غاستون» ليحضر له وعاء فيه ماء ثم عاد فغير رأيه فجأة وقال:

- لو جئتك بهذا الوعاء فانه الوعاء الذي نستعمله لشرب الجواد ، والمعروف ان الحيوان عندما يحس بوجود الدم فانه يمتنع عن الشرب.

وأخيراً سمح للطبيب «دراغون» ان يذهب ليغسل يديه من الدماء من المضخة. وكان اصحاب المزرعة ينظرون اليه على مضض وهو يغسل يديه، وكأنما هم يكظمون غيظاً كامنا في صدورهم.

وفيما بعد روى «غاستون» انه استيقظ في الساعة الثالثة صباحاً ليذهب بعنزاته الى حقل يقع في اتجاه مضاد للناحية التي حلت بها تلك الاسرة الانكليزية وانه لم يعلم بالمأساة التي وقعت الا بعد ان عاد الى بيته، فانطلق في الحال ليشاهد الجثث، ولما رأى جثة «اليزابث» الصغيرة استأذن بأن يلقي عليها غطاء لان ذلك، كما قال سيجعل الناس يشمئزون ان يروا البنت الصغيرة ملقاة الجثة هكذا في الشمس.

غير أن رجال الشرطة تملكتهم الدهشة، ذلك أن أحداً ما قد نبش كل ما في السيارة قبل مجيئهم دون ريب، بحيث تغيرت مواضع الأشياء وزحزحت الجثث من أماكنها!...

ومعنى هذا أن القاتل قد عاد ليبحث عن شيء ما في أولى اشعاعات النهار بلا شك، ومن هذا يبدو، على الأرجح، أن القاتل لا بد أن يكون شخصاً يقيم في تلك الناحية أو في جوارها غير بعيد عنها.

وقد جاء من مارسيليا بعد ظهر ذلك اليوم ضابط البوليس «سيباي» لكي يتولى التحقيق. واستمر بعد ذلك خمسة عشر شهراً وهو مكب على دراسة آثار الجريمة، وسؤال الأشخاص، ومحاولة تلمس الحقيقة وسط كل شهادات الشهود المتناقضة.

وقد أقلقته أسرة «دومينيسي» جداً، وبصورة خاصة «غستاف» الذي كان أول من اكتشف الجريمة. وتساءل: ترى لماذا لم يهتم غستاف بالبحث عن أبوي الفتاة اليزابيث عندما شاهد جثتها؟ وقد أجاب عندما سئل في التحقيق عن هذه

النقطة فأجاب بكل بساطة:

- ذلك لأنني ظننت أنهما هما اللذان قتلاها..

وكانت هذه فكرة عجيبة أذهلت المحققين.. غير أنه ظلت هناك نقطة أخرى غامضة، وهي أن راكب الدراجة النارية الذي أنبأ «غستاف» بما وقع وقد شاهد غستاف نفسه يدور السيارة الـ «ميلمان»، وهي سيارة الأسرة الانكليزية، لكي يصل إلى الطريق العام، فماذا تراه كان يفعل في تلك الساعة المبكرة من الصباح في مكان الجريمة؛ وقد أجاب عندما سئل عن هذا فقال:

- كنت ثمة ألاحظ السيارة لئلا يأتي من يسرقها.. ولذلك فقد نقلت رقمها على ورقة أيضاً.

غير أنه اتضح، فيما بعد، أن غستاف كان قد شاهد جثتي العالم الانكليزي وزوجته قبل أن ينبيء صاحب الدراجة النارية بمقتل الفتاة الصغيرة ابنتهما، وذلك خلافاً لما أدلى به في أول الأمر. وزيادة على ذلك فان هذا الشاهد المريب أدلى بشهادة أخرى أشد خطراً واثارة.. فقد اعترف بأنه في اللحظة التي شاهد فيها الصغيرة اليزابيث كانت هذه لا تزال حية، وكانت تتحشرج أو على الأصح، فيما قاله هو. كان يخرج من حنجرتها ما يشبه أن يكون «هرهرة».. ويا له من اعتراف!

واذن فان غستاف قد ترك تلك الفتاة الصغيرة تحتضر دون أن يفكر لحظة في أن يغيثها.. وكذلك زوجته «ايفت» لم تفكر هي الأخرى بأن تهتم بالبنية التي كانت تعاني سكرات الموت.. ومع ذلك فقد ذهب غستاف وقال لزوجته: «رأيت منذ لحظات فتاة صغيرة ملطخة الوجه بالدم، وشاهدت احدى ذراعيها تتحرك..»

ترى اي قلب من صخر في صدر هذه المرأة؟ لقد تداولت قليلاً مع حماتها

قليلاً، غير بعيد عن الطريق العام، ثم ذهبت إلى بيتها لكي تستعد للسفر إلى بلدة «اوريزون» حيث زعمت أنها كانت تريد أن تشتري بعض الأدوية لأولادها. وقد أجابت لدى التحقيق:

بالطبع كان يجب أن أشاهد تلك الفتاة المغدورة واستدعي لها الطبيب، غير أن قلبي لم يطاوعني.. فأنا حبلى في الشهر الخامس.. وخشيت أن يؤذيني منظر الفتاة الصغيرة.

وترك المحققون هذه المرأة الحساسة... ووجهوا إلى زوجها غستاف التهمة التي ينص عليها القانون وهي «عدم تقديم العون لشخص في خطر» فحكم عليه بالسجن شهرين» وقد أمضى غستاف هذه العقوبة، غير أنها لم تغير شيئاً في أساس القضية وهي: من قتل أفراد أسرة دراموند البريطانية؟

- ٥ -

بقيت كمية كبيرة من النقاط المهمة غامضة شديدة الغموض. من ذلك أن رجال البوليس لم يجدوا غير فشكتين اثنتين فارغتين في مكان الجريمة على الرغم من أنه قد أطلقت ست أو سبع رصاصات وبالمقابل فان سلاح الجريمة، وهو بندقية، كان قد اكتشف في قاع مجرى نهر «دورانس».

وكان هذا السلاح عبارة عن بندقية حرب قديمة معتنى بها عناية جيدة، فمن يك صاحب هذه البندقية اذن؟ ولكن يبدو أن أحداً لا يعرف عنها أو عن صاحبها أي شيء. ومع ذلك، وعندما أراها المحققون لـ «كلوفيس» الابن البكر العجوز رب أسرة دومينيسي فقد ظهر عليه الاضطراب وشحب لونه، وتهاوى على نفسه، ثم استعاد هدوءه وقال مؤكداً:

- أنا لم أر قط هذه البندقية... واستجوب أفراد أسرة دومينيسي عن كيفية

قضاء وقتهم في ليلة الرابع من شهر آب وهي الليلة التي وقعت فيها الجريمة وهل سئلوا هل عقد اجتماع ما في المزرعة ضم بعض الأقارب أو الأصدقاء؟ وكان قد روي أن اجتماعاً كبيراً من هذا النوع كان قد عقد ثمة، وشرب فيه المجتمعون العديد من كؤوس الراح،.. غير أن أفراد الأسرة انكروا ذلك تماماً..

غير أن الثابت المؤكد هو أن العجوز «غاستون» وابنه «غستاف» كان قد أقلقهما انهيار كان «يوشك أن يحدث في ناحية من أراضيهم على اثر الافراط في ري الأرض عند حافة حقل يعلو خط السكة الحديدية.. وأسرة دومينيسي هي المسؤولة أمام سلطات الأشغال العامة عن كل انهيار أو سقوط أحجار يمكن أن يقع فوق خط السكة الحديدية.. وهم لذلك معرضون لغرامة كبيرة في حالة تأخر أي قطار بسبب اهمالهم.. وقد أفاد غستاف أنه على الرغم من تعبه الشديد في العمل مع أسرة زوجته في دراسة القمح طيلة النهار فقد تناول، في المساء، شيئاً من الحساء ثم تناول مجرفته وانطلق لكي، يزيل جميع آثار انهيار التربة فوق خط السكة الحديدية ثم امتطى دراجته الهوائية وذهب يخبر بذلك حارس الطرق المدعو «وور» وقد أيد حارس الطرق أقوال غستاف كما أيدها شقيقه الأكبر «كلوفيس».

إن حكاية انهيار التربة عند خط السكة الحديدية سيكون لها، ولا ريب أهميتها فيما بعد. أما الآن فانها تظهر أن غستاف ووالده العجوز -غاستون- ماكان لهما، ليلة الرابع من آب، ما يستأثر باهتمامهما غير وصول أولئك السياح الانكليز من أسرة دراموند الذين لاقوا حتفهم مقتولين في تلك الناحية.

* * *

استمرت قضية هذه الجريمة تغذ السير عدة أشهر. ووجد «سيباي» ضابط البوليس نفسه غارقاً في خضم من الشهادات التي يناقض بعضها بعضاً، حتى

ليزداد الاعتقاد بأن أكثر الشهود نزاهة وصداقة يدلون بأية أقوال تتفق لهم.. وفي هذه الأثناء قدمت لضابط البوليس مئات بل ألوف الاقتراحات والآراء.. فمن قائل أن مرتكبي الجريمة من حراس الليل، ومن قائل بل هم من لصوص غلات الأرض والمزارع.. وسار ضابط البوليس في كل اتجاه، وتابع كل أثر ممكن، ولكنه كان سرعان ما يقصر لعدم جدوى ذلك كله..

وقد تلبد الظلام طبقات فوق طبقات حول قضية هذه الجريمة المروعة وملابساتها. وذات يوم رقع انقلاب عجيب، ما كان ليتوقعه أحد، وقد قلب القضية كلها رأساً على عقب.

- ٦ -

في يوم من أيام شهر تشرين الثاني سنة ١٩٥٣، طلب المحققون من غستاف أن يروي مرة أخرى كيفية قضائه الوقت ليلة الرابع من شهر آب وصبيحة الخامس منه، فقال:

-نهضت قبيل طلوع النهار، ولما ذهبت لأرى انهيار التربة عند خط السكة الحديدية شاهدت الفتاة الصغيرة اليزابث، ثم اكتشفت جثتي والديها.. ولما عدت إلى البيت أنبأت نساء الدار بما رأيت، وبعد ذلك انصرفت إلى شواغلي وأعمالي المعتادة.

وبدا هذا الجواب غير كاف، وغير مقنع لرجال التحقيق، فضغطوا عليه بمختلف الاسئلة فعاد يقول:

- شاهدت جسد الفتاة الصغيرة، ولكني سمعت وقع خطى فاختبأت... بعد هذا اتجهت نحو الجثتين الاخرتين، جثتي والديها فقلبتهما، وادرت جثة السيدة على شكل نصف دائرة ممسكاً برسغي قدميها، فعلت ذلك لكي أتأكد من انها قد

ماتت حقاً...

وقال له المحققون:

- دعك من هذا.. لقد كان من الواضح جداً انها ميتة.. والافضل ان تعترف بأنك كنت تبحث عن شيء ما..

غير أن غستاف رفض ان يعترف بذلك غير انه في الغداة لم يستطع ان يستمر في انكاره، فأفلتت منه هذه العبارة:

- اردت ان اعلم ما اذا كان ثمة رصاص او فشك فارغ مصدره بيتنا..

ثم انهار تماما وانكب يبكي فوق كتف ضابط البوليس... وقد حرص الضابط ان لا يفجأه ولا يعنف به فقال له:

- تخفف مما في صدرك

غير ان غستاف اعتدل واقفا واندفع يقول:

- ان والدي هو الذي قتل افراد تلك الاسرة الانكليزية. لقد قال لي ذلك في الساعة الرابعة صباحا عندما ذهب للبحث عن عنزاته..

وهكذا فان العبارات التي شد ما كان «سيباي» ضابط البوليس يتوقعها قد نطقت بها اخيراً شفتا غستاف. ومن الان فصاعدا فان التحريات ستأخذ مجراها في جو اقل حيرة وريباً..

واذا كانت اقوال غستاف صادقة فانه يبدو مفهوما واضحاً الان السبب الذي حدا به الى اشاعة الفوضى والاضطراب في مكان وقوع الجريمة.

وجاء دور الابن الاكبر «كلوفيس» فأيد اعتراف شقيقه غستاف وقال: أجل ان والدنا هو الذي ارتكب الجريمة..

ومع ذلك فان الشقيقين رفضا التعرف على البندقية، وقد قال كلوفيس فيما بعد:

- كنت في بادىء الأمر أحسب أن غستاف هو الذي ارتكب الجريمة... حتى كان يوم قال لي فيه أن الوالد هو القاتل...

وفيما بعد، أيضاً، قال أن غستاف وصف له: صرخات الرعب التي انطلقت من حناجر أولئك المساكين أفراد أسرة دراموند الانكليزية.

أما «ايفيت» زوجة غستاف فقد أدلت باعترافها فقالت:

- قال لي كلوفيس أن الوالد هو القاتل.. وأنا أعلم أنه قال لي هذا لأنه ذات ليلة وقد بات في أرضنا التي تدعى «غرانتير» فلم يشهد شجاراً بين والده وأمه في تلك الليلة. ولما رآه والده في اليوم التالي قال له حانقاً ومشيراً إلى ذلك الشجار مع أمه:

- لقد سبق وقتلت أشخاصاً ثلاثة.. وأنا قادر على قتل شخص رابع.

وفي يوم المحاكمة أنكر هؤلاء الأشخاص العجيبون جميع الأقوال التي أدلوا بها عن والدهم وارتكابه جريمة القتل.. ولكن كان قد فات الأوان فانهم لن يستطيعوا مهما حاولوا أن يحولوا دون العجوز نفسه من أن يفضي بما في صدره ويضع رأسه تحت رحمة المقصلة..

- ٧ -

جيء بالعجوز غاستون، أو الخنزير البري كما كانوا يسمونه في تلك الناحية،

جيء به فور الاتهامات التي وجهها ولداه إليه واعترافهما بأنه هو القاتل، وراح المحققون يمطرونه من جديد بسيل من الأسئلة.، وكان هو لما يعلم بعد باعتراف ولديه، فأخذ يجيب على الأسئلة بطلاقة حيناً، وحيناً يقاطع المحققين لكي يبدي بعض الملاحظات الثائرة العاصفة، أو يبدي انزعاجه بازدراء وترفع، ويقول:

– انكم تشتمونني.. أنا ذاهب. غير أن ضابط البوليس بسط صحيفة يومية ووضعها تحت عينيه فقرأ فيها بأحرف ضخمة ما اتهمه به ولداه: غستاف، وكلوفيس،.. وعندئذ ثار حانقاً وراح يقول:

– هذا غير ممكن... آه! يا للقذرين.. الساقطين..

وبدا على الرجل العجوز أنه قد انهار وتخاذل وأخذ ينوح ويجوح، فاودع السجن، وعين لحراسته عن كثب الحارس «غيرينو» الذي تلطف معه حتى وثق به العجوز، فجعلا يتحدثان باللهجة المحلية لتلك الناحية، واندفع العجوز يروي للحارس قصصاً طويلة في أعماله في الصيد في أراضي الآخرين. ثم تحدث عن صعوباته العائلية، وأبدى كثيراً من العطف والحنان عند ذكر أحفاده الستة عشر، ثم وعلى حين غرة، وضع رأسه بين راحتيه، وجعل يردد:

– آه تلك الصغيرة.. تلك الصغيرة.

أتراه كان يشير بذلك إلى الفتاة الصغيرة اليزابت التي وجدت مقتولة مع أبويها أم إلى احدى حفيداته؟ ولكن حتى لو كان يقصد بعبارته الفتاه الانكليزية فان ذلك يمكن ان يفسر بما يلي: «ولكن انا الجد الطيب العطوف كيف يمكن ان يفكر احد بانني قتلت تلك البنية؟»

ومع ذلك فقد احس الحارس «غيرينو» ان سجينه يوشك ان يفضي بما في صدره، فقال له بلهجة ساذجة

- تلك الحكاية.. ربما لم تكن اكثر من حادث غير مقصود.. فقال العجوز غاستون دومينيسي مردداً بهدوء:

- اجل. انها ليست غير حادث غير مقصود، فأنني انا الذي قتل اولئك الاشخاص.. غير ان الرجل الانكليزي هاجمني، وقد اعتقد انني لص فتناول بندقيته، واطلقت انا النار..

فبهت الحارس غيرينو، غير انه لم يعنف به، بل اخذ يشجعه في هذا الاتجاه من الحدث والافضاء فقال له:

- ان البوح يخفف عن النفس همها وينفس عن الصدر.. وسيكون هذا في مصلحتك.. وعلى الاخص في مثل سنك.. اترى ان تعيد هذا لضابط البوليس السيد «سيباي» وتجمد الرجل العجوز فقال:

- لا.. ليس للسيد سيباي.. بل للرئيس، في نظر غاستون العجوز، هو السيد «برودوم» رئيس ضابط البوليس.

ونقل الخبر الى رئيس ضابط البوليس وفي هذه الاثناء جعل الحارس غيرينو يؤكد للرجل العجوز انه يستطيع، اذا شاء، ان يحتفظ بكلبه الذي يحبه.. يحتفظ به حتى في السجن..

وامام ضابط البوليس «برودوم» اعاد الرجل العجوز اعترافه، غير انه ادخل عليه شيئا جديدا فقال:

انه اراد في ليلة الجريمة ان يرى عن كثب السيدة البريطانية الحسناء، وقد تحدث معها بل قد استطاع ان تكون له دالة عظيمة معها.. غير ان زوجها نهض ووثب عليه فاشتبكا في عراك..

غير ان هذه الحكاية لا بد مختلقه اذ انه لا تبدو محتملة التصديق ولا يمكن ان يتصور العقل سيدة كريمة كـ «اللادي آن» تدع لفلاح مجهول ان يقترب منها فتروح تتحدث اليه الى حد ان تصبح له دالة عليها، وهي التي تجهل اللغة الفرنسية جهلا تاماً...

ثم ما لبث العجوز غاستون ان نطق بعبارة مذهلة كان من شأنها ان قلبت افادته كلها رأسا على عقب، فقد قال:

- انني أقول لكم هذا لكي أبعث بالسرور الى نفوسكم... انني في الواقع أضحي بنفسي في سبيل شرف احفادي..

-٨-

الواقع ان العجوز «غاستون» تراجع، فيما بعد، عن اقواله كلية وبشدة. وراح يؤكد انهم انتزعوا منه اعترافه انتزاعاً وهو في حالة من الاجهاد ونفاد الصبر بل هو اتهم المسؤولين بانهم سمموه تسميما بكميات وافرة من القهوة الرديئة.

ومما كان ادعى الى العجب والدهشة انه عندما طلب منه ان يمثل امام المحققين ارتكاب الجريمة هرع فورا وعن طيب خاطر وقام بتمثيل جميع مشاهد الجريمة، ولكنه كان يضيف اليها، من تلقاء نفسه، تفاصيل واشياء غير مطابقة للواقع.. ومن هذا القبيل قيامه بالركض، في الحقل، لمطاردة فتاة صغيرة متخيّلة..

غير انه في اثناء تمثيله المضحك المبكي هذا استولى عليه نوع من الخوف فقفز عن جانب خط السكة الحديدية ووثب من فوق حاجز الجسر وأوشك ان يلقي بنفسه من حالق، غير ان رجال البوليس ادركوه قبل ان يفعل شيئاً، وقال عندئذ:

- رأيت ان أقضي على نفسي... وهكذا يتاح لي ان أموت في سريري..
غير انه اضاف قائلا فيما بعد:

- لقد سخرت بكم... ومثلت منظراً هزلياً مضحكا بمحاولتي الانتحار..
وسواء كان هذا تمثيلا مضحكاً أو غير مضحك، فان التحقيق قد تقدم خطوات واسعة في هذه القضية..

وقد اضطر الاخوان «غستاف» و «كلوفيس» ان يعترفا، في النهاية، بأن البندقية التي كانت السلاح الذي ارتكبت به الجريمة، هي من اسلحة المزرعة.. ومع ذلك ما اكثر ما في هذه القضية من فجوات... ومن شكوك وريب..

وانتشرت شتى الاشاعات في تلك المنطقة وما جاورها من المناطق حتى وصلت الى مدينة باريس نفسها.. وقيل إنها كانت جريمة سياسية، وقيل إن اسلحة كثيرة كانت مخبأة منذ عهد المقاومة السرية في اثناء احتلال الالمان لفرنسا في الحرب العالمية الثانية، وقيل إن الجريمة كانت عبارة عن تصفية حساب بين جماعات من المعارضة.

بل اكثر من هذا، فقد اشيع ان العالم البريطاني القتيل «سيرجاك دراموند» كان من رجال دوائر التحري الانكليزية « الانتليجنس سورفيس»، وحتى انه قد هبط بالمظلة الواقية في «البروفانس» الفرنسية في الحرب العالمية الثانية.

وقد كانت هذه الاشاعة الاخيرة مغلوطة تماما. ذلك ان حياة العالم البريطاني السير جاك كانت معروفة جداً في بريطانيا. ثم ان جهله التام باللغة الفرنسية يكفي لنفي هذه الاشاعة.

واذن فهل كان الذين ارتكبوا هذه الجريمة ممن يكرهون الاجانب الى درجة التعصب العنيف؟

لقد كانت، في ذلك العهد، عبارة «عودوا الى بلادكم» المستعملة ضد الاميركان معروفة متداولة، وكثيراً ما كانت توجد مكتوبة على الجدران.. واذن فيمكن التصور ان مرتكبي الجريمة حسبوا العالم الانكليزي وزوجته وابنته من الاميركان..

ولكن هذا كله كان يبدو غير محتمل التصديق.. غير ان الخرافة المضحكة حقاً والتي تناقلها الكثيرون في ذلك العهد لفرط ما هزت الجريمة المجتمع الفرنسي في اعقاب الحرب العالمية الثانية هي ان اشخاصاً من سكان كوكب «المريخ» قد هبطوا في الارض.. لكي يسفكوا دماء البشر..

وهكذا اختلطت الخرافة والاسطورة بألوان الاشاعات فلم يكن بعضها احق بالتصديق من بعض.. وشعر الكثيرون انهم يتخبطون في الظلام، ويضربون في جنبات اللامعقول، وفي الوقت نفسه يخوضون في بركة هائلة من دماء الجريمة.

-٩-

تجري حوادث هذه الجريمة المروعة، بعد هذا، في مدينة «دين»، وبقصر العدل بالذات، حيث حوكم الرجل العجوز «غاستون». وقد كانت ايام المحاكمة من الايام التي ظلت فيها الشمس مشرقة ساطعة، والسماء صافية زرقاء الاديم.

كانت قاعة المحكمة الرحيبة غاصة بالحضور لا مكان فيها لقدم. وفي تمام الساعة التاسعة صباحا ظهر غاستون العجوز، الملقب بالخنزير البري، بين حراسه من رجال البوليس. وكان شعره ممشوطاً مُرتباً، وكانت نظرته متوقدة، ولما تكلم كان صوته جهيراً، قويا، وهو هذا الصوت الذي ينبىء بانه سيكون في اثناء المحاكمة، جريئا، قوي الشكيمة، عنيداً، إذا أنهض ليجيب أو يناقش انتصب متعالياً، معتدل القامة، بل متحديا لا يتضعضع، ولا يتخلخل، ويبدأ يقول مزهواً عندما سئل عن هويته:

– اسمي: غاستون دومينيسي من ملاك الاراضي في نواحي «غرانتا» والألب السفلي.

ثم راح يستمع بمنتهى السكينة والهدوء الى لائحة الاتهام. ولم يفارقه هدوؤه قط حتى عندما أعادوا على مسمعه اعترافه الشخصي الذي قال بموجبه:

«انني انا الذي قتل افراد تلك الاسرة الانكليزية».

ولقد كان أشبه بأب جليل وشيخ وقور منه بمجرم قاتل ... وكان اذا ما ذكر ابناؤه التسعة واحفاده الستة عشر هتف قائلا: «انني احبهم جميعاً» ، فيا له من أب. ويا له من جد لاشبيه له ولا نديدا

ولكن ربما كان زوجاً أقل طيبة. والواقع انه لا يبدو انه كان زوجاً عطوفاً او حانياً على امرأته التي يصفها، في اكثر الاحيان، بالعجوز القذرة... غير ان اللقب الذي كان يطلقه عليها عادة هو: «السردينة العجوز»...

وعلى العموم فان الصورة التي رسمت له في الاذهان هي صورة رجل متسلط، يرهبه أهله وذووه، وينكب على العمل بهمة عظيمة، ويخص نفسه بالقسوة كما يقسو على الاخرين.

اترى هذا الفلاح من الجرأة والاقتدار حتى ليقتل ثلاثة من السياح المسالمين دونما سبب ظاهر؟

وبدأت، معه، معركة القضاء. وراح الخنزير البري يستمع مرة اخرى الى قصة اكتشاف الجريمة، والى تقارير الخبراء، وشهادات الشهود، وقد بان عليه الانفعال بصورة خاصة عندما رأى افراد اسرته بين هذا الجم الغفير من الشهود المتتابعين على منصة الشهادة.. وهذه هي زوجته «ماري دومينسي»– السردينة

العجوز-انه يراها نحيلة، عجفاء، مصوصة، جافة العود وقد التفّت بشال عريض اسود. انها تبدو وجلة، فزعة، ومع ذلك فقد أخذوا يضغطون عليها لكي تتحدث عما تعرفه من حوادث تلك الليلة الرهيبة، ليلة الجريمة النكراء، فراحت تقول:

- لا أعلم شيئاً، ولم أسمع أية عبارات نارية ولا أي صراخ أو صياح. لم أسمع غير نباح الكلب. وحوالي الساعة السادسة صباحاً قال لي غاستون إن هناك فتاة صغيرة ميتة قرب الجسر. وهذا كل شيء.

- ١٠ -

سألها رئيس المحكمة:

- ولكن ألم تتأثري عندما سمعت زوجك يقول لك إنه شاهد فتاة صغيرة ميتة عند الجسر؟ أنت جدة ولك أحفاد، ألم تفكري بأن تمدي يد العون إلى تلك الصغيرة؟

وأجابت العجوز:

- والله... إن شيئاً من هذا لم يخطر ببالي... لم أفكر في شيء من هذا...

إن «السردينة» العجوز لا تريد أن تبوح بشيء. فهي لم تر، ولم تسمع، ولم تعرف، ولم تقع عينها على البندقية قط... لا شيء على الاطلاق.. انكار تام يدعو إلى الدهشة.. وسئلت عما إذا كانت سعيدة هانئة البال مع زوجها غاستون، فقالت:

- لم أجد نفسي محرومة من شيء أبداً. وليس ثمة ما آخذه عليه.

وحدق غاستون دومينيسي النظر في زوجته. وفي اللحظة التي انسحبت فيها

وهبطت عن منصة الشهود. ناداها قائلاً:

– ألا قولي.. أصحيح أنك رأيت بنطالي محتلئاً بالدماء؟

والتفتت الفلاحة العجوز الماكرة وقالت:

– أبداً.. كان بنطالك نظيفاً وجافاً ومهندماً كشأنه دائماً..

كان هذا نصراً لـ «غاستون».. لقد بقيت «سردينته» العجوز وفية له ولكن أكان هذا وفاء صدق وحق، أم وفاء كذب وبهتان؟ على أي حال فان تضامن الزوجة لعب دوره بلا شك، وسيلعب هذا التضامن دوره بلا شك، وسيلعب هذا التضامن أيضاً بين الرجل وكنته «ايفيت» زوجة ابنه «غستاف».

وظهرت «ايفيت» السمراء، ربعة القوام، واعتلت منصة الشهود، واستهلت حديثها قائلة بأنه يجب أن لا تقيم المحكمة أي وزن لأقوالها السابقة. وسكتت هنيهة ثم أردفت تقول:

– قاضي التحقيق قال لي: «إذا لم تقولي مثلما قال زوجك فقد تصابين بما لا تحمد عقباه...». وعندئذ قلت في نفسي: لقد وقع في قبضتهم انسان بريء حتى الآن هو الأب... فماذا يهمهم أن يقع في قبضتهم بريء آخر.. ما داموا لا يكترثون لبريء أو مذنب؟ ثم أنهت شهادتها بهذه البساطة نفسها فقالت:

– لقد ساعدنا قاضي التحقيق وبذل كل جهده لكي يجعلنا نقول: «إن الأب هو القاتل»... فقلنا ما أراد القاضي. ولكنه غير صحيح، وليس هو الحقيقة..

ولسوء حظ المتهم، غاستون دومينيسي فان ولده الأكبر «كلوفيس» لا يشارك زوجة أخيه وجهة نظرها.. إن هذا الرجل، كلوفيس، الذي بلغ التاسعة والأربعين من عمره، والذي يعمل بناء، يشبه والده شبهاً غريباً. أجل إنه يشبه

هذا الوالد، ولا ينفك في الوقت نفسه، يتهمه بجريمة القتل اتهاماً صريحاً لا لبس فيه ولا غموض. لقد أطبق شفتيه، ولزم الصمت أشهراً طوالاً، وظل طيلة هذه المدة محتفظاً بسره الرهيب، ثم تكلم.. وراح يؤكد أن البندقية هي بندقية والده العجوز دون ريب.. ولكن.. لماذا تراه رفض أن يتعرف إلى البندقية في بادىء الأمر؟

- ١١ -

أجاب كلوفيس الابن الأكبر للعجوز غاستون على سؤال رئيس المحكمة عن سبب انكاره أنه يعرف البندقية التي كانت أداة الجريمة في بادىء الأمر فأجاب قائلاً:

- كنت لا أريد أن يأتي الاعتراف مني أنا.

وأراد رئيس المحكمة أن يشعره بفداحة اتهامه لأبيه فقال له:

- انه لرهيب وبشع جداً أن يتهم الابن أباه، فقال كلوفيس:

- أجل يا سيدي الرئيس، إن هذا رهيب حقاً... وعاد رئيس المحكمة يقول له:

- وإذا كنت تكذب فاننا لن نجد لمثل هذا الكذب ما نصفه به من شدة بشاعته وفرط دمامته...

فأجاب كلوفيس بهدوء ودون أن يتلعثم:

- انني أقول الحقيقة!

ثم روى حكاية شجار حدثت في المزرعة، قال الأب في أثنائه صائحاً ومحتداً

ومهدداً:

- إنني أنا الذي قتل الأشخاص الثلاثة، وإني لخليق أن أقتل شخصاً رابعاً..

عندما سمع العجوز غاستون هذه الكلمات، لم يستطع أن يضبط نفسه فهب واقفاً وصرخ قائلاً:

- كذب! لقد كذبت يا كلوفيس.. إن كل ما قلته كذب.. لقد ذكرت شجاراً عنيفاً حصل، ولكن، أيها الولد القذر، لقد كنت أتحدث إلى أمك حول انجراف التربة عند خط السكة الحديدية، وقد قلت بكل بساطة: لولا اننا أزلنا الحجارة والتربة المنهارة فوق السكة الحديدية لذهب ضحية الانجراف عدد كبير من القتلى.. يا ناس: كلوفيس يتهمني.. ابني يتهمني.. لقد كان دائماً يتهمني.. ولا تأتي الأكاذيب إلا منه هو.. غير أن كلوفيس قال دون أن يتزحزح أو يتلجلج:

- لقد قلت الحقيقة!

وعاد العجوز غاستون يصرخ قائلاً:

- انك تكذب.. انني أريد أن أدافع عن شرف أسرتي وأحفادي..

وعندئذ قال كلوفيس متهكماً:

- شرف الأسرة.. آه.. يا له من إرث.. وما أجملها من تركة!

وجاء دور «روز» زوجة كلوفيس لتؤدي شهادتها.

وبالطبع فانها لم تناقض أقوال زوجها إلا أنها راحت تؤكد مع ذلك أن زوجها.. قد أخفى الحقيقة عنها زمناً طويلاً، ثم قالت:

– لقد لمت كلوفيس لأنه لم يذكر لي شيئاً. فأجابني أنه كان يأمل أن والده سوف يتقدم إلى العدالة من تلقاء نفسه ويبوح بارتكابه الجريمة أو أنه سينتحر تاركاً، من بعده، رسالة، تشرح كل شيء.. وإني لأذكر أن زوجي لم يعد، منذ مدة، يجد إلى النوم سبيلاً.

* * *

كان كلوفيس وزوجته روز دقيقين واضحين في شهادتيهما. وجاء بعدهما، دور الابن الثاني – غستاف – فكانت شهادته سبباً في مزيد من الريب والتشكك. واستهل شهادته فقال أنه في كل ما قاله سابقاً قد كذب على الجميع دائماً...

ولكن تأكيده هذا أليس كذباً جديداً يضاف إلى الأكاذيب الأخرى السابقة التي ذكرها؟

انه في هذه اللحظة لا يتهم أباه أبداً ويكذب كل ما سبق وقاله لقاضي التحقيق. ثم يقول:

– لقد اتهمني رجال البوليس بمختلف الاتهامات الشائنة، عندما رأوا انني لا أريد أن أتكلم، وقد انهالوا علي ضرباً... لأن صمتي قد أزعجهم... كانوا يريدون أن يدفعوني إلى الإدلاء بالأكاذيب... واضطررت أن أكذب.. انهم ما كانوا يريدون الحقيقة.. لقد جعلوني أتهم والدي.. ووالدي بريء... أجل بريء...

- ١٢ -

واذن فقد تغير كل شيء. وها هو غستاف، الابن الثاني، يؤكد أنه لم تصافح اذنيه قط حشرجات الفتاة الصغيرة – اليزابيث – في نزعها الأخير.. وهو

يؤكد كذلك أنه لم يذهب قط إلى مكان الجريمة باحثاً عن الفشك الفارغ كما سبق وأدلى في شهادته السابقة.

كيف يمكن أن يعرف الانسان: في أي يوم يقول الكاذب الحقيقة؟ لا سبيل إلى ذلك إلا أن يستطاع سبر أغوار النفوس وأعماق القلوب.

ومع ذلك فان الحضور قد أيقنوا أن الذي يعلمه غستاف أكثر بكثير مما يدلي به، وأنه إذا أفضى بما في نفسه فان الكثير من المعميات في هذه الجريمة لا بد أن تتضح تماماً.

وحاول الأستاذ «بولاك» محامي العجوز غاستون أن يحل عقدة من لسان غستاف، فقال له:

- يا غستاف دومينيسي اصغ لما أقول: إن المحكمة ترجوك أن تقول الحقيقة.

فأجاب باقتضاب

- لقد قلتها!

- انني أستحلفك أن تفضي بما في صدرك.. ما الذي حدث في ليلة الجريمة؟ إن والدك يطلب ذلك منك على رؤوس الاشهاد، فانك أنت تعلم الحقيقة.

فقال غستاف باقتضاب مرة أخرى:

- قلت الحقيقة.

وراح الرجل العجوز، والده، يتوسل إليه هو نفسه فقال:

- لا أريدك يا غستاف أن تقول انني بريء. ليس هذا ما يجب أن يقال.

وانما قل الحقيقة نفسها. من كان معك في الحقل عندما سمعت الصراخ؟ من كان معك؟. يجب أن تتكلم أمام الجميع. قل الحقيقة وحسب.

فعاد غستاف يردد قائلاً باصرار وعناد:

قلت الحقيقة وانتهى الأمر.

وتوالت بعد هذا شهادات الشهود. لقد كان من بينهم الكثيرون ممن قالوا أي شيء مما يخطر ببالهم. فمثلاً «روجيه بيران» حفيد المتهم، وهو فتى في العشرين من عمره وتبدو عليه الطيبة والصراحة. هذا الفتى اخترع في شهادته حوادث من عالم التصور والخيال، وراح يذكر تفاصيل كاذبة فوق أخرى وسط كل هذه الأكاذيب التي لا جدوى منها وكذلك بسط الملابس القذرة للعائلة، لم يساعد على الاطلاق في إلقاء شعاع ضئيل يساعد في توضيح الموقف.

لم يبق اذن غير أصوات الاتهام والدفاع ترتفع من حنجرتي محامي الدولة ومحامي المتهم. أتراها تستطيع أن تحل جميع الألغاز والمعميات وتصل إلى الحقيقة؟.

لا زلنا نرجو هذا ونتمناه.

* * *

سيكون هناك قراران للاتهام: أولا المحامي العمومي «سبانييه» الذي قال انه واثق ومقتنع كل الاقتناع «بأن العجوز غاستون دومينيسي هو المذنب الوحيد الذي اقترف الجريمة اقترافاً تاماً، كاملاً، كلياً»، ويأتي بعد هذا الاتهام النائب العام «روزان» الذي أيد ما قاله المحامي العمومي ثم راح يوجز القضية على النحو التالي:

- ١٣ -

لخص النائب العام «روزان» القضية كلها على الوجه التالي فقال:

نهض الفلاح العجوز «غاستون دومينيسي» وانطلق إلى حيث أقامت أسرة «دراموند» الانكليزية في العراء غير بعيد عن مزرعته.

وقد تملكه الفضول فأراد أن يعرف لماذا آثر أولئك الانكليز الأغنياء أن يناموا هكذا في العراء بدلاً من أن يتخذوا لأنفسهم غرفة طيبة في فندق محترم بالمدينة القريبة، وجعل يجوس خلال السيارة وحول أشياء الأسرة الانكليزية.

وقد استيقظ العالم البريطاني «جاك دراموند» فحسب المزارع العجوز لصا يحاول أن يسطو على شيء ما من متاعهم فنهض وتماسك الاثنان ولا ريب في أن الغلبة في أول الأمر كانت للعالم الانكليزي فهو أصغر سناً من غاستون وأكثر رشاقة وخفة..

وأمسك النائب العام هنيهة، ثم تابع كلامه قائلاً:

- وعندئذ فان غاستون دومينيسي لم يطق أن يكون ثمة من هو أقوى منه جسماً وارادة، ولو كان في السادسة والسبعين من عمره، وتساءل: كيف يتغلب عليه انسان ما، وهو الذي ترتعد أوصال أفراد أسرته فرقاً منه ومن مجرد سماع صوته الجهير، وكيف يستسلم أمام قوة طارئة توشك أن تقهره وتذله؟ وهكذا استولى الغضب الرهيب على الخنزير البري العجوز فتناول بندقيته وأطلق النار على الانكليزي وزوجته معاً.. غير أنه بقي هناك شاهد على جريمته، فلا بد اذن من التخلص من هذا الشاهد... وقد كان هذا الشاهد هو البنية البريئة «اليزابيث» فقتلها هي الأخرى، وعلى هذه الصورة تمت «المجزرة الثلاثية» الرهيبة...

كانت هذه هي وجهة نظر النائب العام. وفي ختام مرافعته طلب برأس غاستون العجوز ثمناً لهذه الجريمة النكراء.

* * *

ولكن. ماذا ترى سيفعله الدفاع؟ انهم محامون ثلاثة عن غاستون. أتراهم سيستطيعون أن يهدموا ببلاغتهم وقوة منطقهم هذا البناء الذي أقامه النائب العام؟.

كان المحامي الأستاذ «بولاك» هو أبلغ الثلاثة وأشدهم عارضة وفصاحة، وقد جهد جهده لكي يثبت أنه ما من بيّنة أو برهان أمكن تقديمهما ضد الرجل العجوز، وأن الأمر كله لا يعدو مجرد الفرضيات الذهنية والتصورية التي لا يساندها واقع ملموس أو بينة مادية واحدة..

والواقع أن تصرفات مختلف أفراد أسرة دومينيسي بقيت مقلقة ومحيرة يلفها الغموض والخفاء.

وقد جعل الأستاذ بولاك، هدفاً لهجومه الشديد: الابن الأكبر للرجل العجوز، ابنه الأول «كلوفيس» الذي اتهمه بقتل الأسرة الانكليزية، وشهد عليه وكأنه أكثر الناس اقتناعاً بجريمة والده واقترافه إياها، وقال محامي الدفاع:

- ان كلوفيس هذا جد سعيد ان يفقد والده ويكون هو سبب ضياعه.. ولقد أدى به حقده الدفين هذا إلى ارتكاب هذه الخطيئة الكبرى وهي: رغبته في القضاء على والده العجوز.

فلماذا ترى كلوفيس قد كذب؟ لقد كذب لأن اكتشاف أداة القتل وهي البندقية تخصه هو، أجل إنها بندقيته. وان اكتشافها أصابه بالذعر الرهيب..

وهو الذي يعرف جيداً من ارتكب الجريمة.. وربما كان للجاني أولاد، وربما كان الجاني لا يزال شاباً. وربما كان العمل في الأرض لا يزال بحاجة إليه.. في حين لم يعد الرجل العجوز صالحاً لشيء غير الخروج بعنزاته الهزيلات للنزهة.. فما نفعه، وما الجدوى من بقائه؟

واذن فان كلوفيس يكون قد ضحّى بوالده، اذ اتهمه وشهد عليه، وفي يقينه أنه لم يعد فيه أي نفع، وقد فعل هذا لكي ينقذ انساناً آخر من أفراد الأسرة.. غير أن الابن الثاني «غستاف» يعلم هو أيضاً الحقيقة. وعندئذ ناداه الأستاذ بولاك بصوته الجهوري، وقد خيم الصمت الرهيب على جو قاعة المحكمة. ناداه قائلاً:

– غستاف! انني لا أدري إذا كنت موجوداً في هذه القاعة. ولكن إذا كان لا يزال في أعماق قلبك شيء ما.. إذا كنت تعلم الحقيقة بالغة ما بلغت من الرهبة والهول.. أجل يا غستاف.. انني أستحلفك أن تقول، وتفضي بهذه الحقيقة.

– ١٤ –

كان لكلمات المحامي البارع وقعها المخيف في النفوس. وقد حلق جو المأساة في القاعة، وتمثل الحضور وقائع تلك المجزرة الثلاثية الرهيبة، وارتعدت أوصال الكثيرين، ولاح للجميع ان هذه الجريمة هي جريمة ما بعد الحرب العالمية الثانية الكبرى، الجريمة التي القت شبح الذعر على فرنسا كلها، وبسطت فوقها وشاحاً اسود رهيباً زاد حدادها، على ضحايا الحرب، سواداً.. انها وصمة عار ان تراق دماء اولئك السياح الانكليز فوق تربة فرنسية غيلة وغدراً، وأين يواري الشعب الفرنسي وجهه اذ يقال ان عالما بريطانيا كبيراً واستاذاً مرموقا من اساتذة الجامعات قد قتل هكذا، في ارض فرنسية، دونما جريرة او ذنب سوى ان انساناً مسالماً اتى مع افراد اسرته لقضاء بضعة اسابيع في فرنسا؟، واين يواري وجهه

وقد اغتيلت بنيه صغيرة بريئة لم تتجاوز الثانية عشرة من عمرها، واغتيلت معها امها المرأة الجميلة، التي كانت ترجو من هذه الرحلة الخير والعافية لزوجها وابنتها؟..

اجل. كان لكلمات المحامي البارع وقعها المخيف في النفوس، الا نفس انسان واحد هو «غستاف» الابن الثاني لغاستون دومينيسي، وهكذا هوى نداء الاستاذ «بولاك» في الفراغ التام... وسط الانفعال العام الشديد..

ترى: ماذا سيكون وقع هذا كله في نفوس المحلفين؟ هل تراهم سيرتابون في ان يكون هو القاتل؟ هل سيشتبهون بالابن الثاني: غستاف ان يكون هو القاتل.. هو الذي يجب ان ينجو رأسه من المقصله لتهوي بحدها الرهيب على رقبة والده الشيخ الذي لم يعد صالحاً لشيء، فاذا قتل تكفيراً عن ذنب ابنه ذهب غير مأسوف عليه؟؟

وينهض الرجل العجوز غاستون دومينيسي متحاملا على نفسه، ينهض للدفاع الاخير عن نفسه، للافضاء الحاسم بما في صدره.. انها عبارات قليلة تلك التى فاه بها وكأنه تلميذ صغير غير نجيب يلقي درسه، فقال:

- انا هنا في مكان الاتهام والجريمة بدلا من انسان آخر. وهذا الانسان الاخر كان- هو- الذي يجب ان يقف هذا الموقف بدلا مني.. واني لرجل صادق ونزيه... واعلن على رؤوس الاشهاد انني: بريء...

اتراه حين نطق بهذه الكلمات كان يعلم بما يجازف به؟

ونهض المحلفون، واختلوا بأنفسهم ودامت خلوتهم ساعتين كاملتين، ثم عادوا الى قاعة المحكمة.. وفيما يشبه الحلم لم يسمع الرجل العجوز «غاستون دومينيسي» من الكلمات والعبارات الكثيرة التي قالها رئيس المحكمة غير

عبارة واحدة، او غير كلمة صغيرة واحدة خرجت من بين سائر العبارات والكلمات وكأنها ترتعد ارتعاداً: الموت!

لقد حكم عليه بالموت اذن... بالاعدام... والجم فمه فلم يجد كلمة واحدة يقولها...

ومع ذلك فان جميع الفرنسيين يعلمون ان الرجل العجوز غاستون دومينيسي الذي صدر عليه حكم الاعدام الرهيب هذا، لم يصعد قط الى منصة المقصلة التي تحز الرقاب، وما انفكت تحزها منذ الثورة الفرنسية الى اليوم... أنه لم يصعد الى منصة المقصلة، ولم تهو شفرتها المخيفة على رقبته لسبب بسيط هو ان تقدمه في السن قد سمح باستبدال حكم الاعدام بالسجن وحسب!

وفي شهر تموز سنة ١٩٦٠ اطلق سراح الرجل العجوز غاستون دومينيسي الذي كان يطلق عليه اسم الخنزير البري وقد خرج من سجنه حتى وصل الى بيت احدى بناته، بعد ان بيعت املاكه واراضيه وهو في السجن.

في هذه الاثناء شرع في تحقيق جديد حول هذه القضية، ذلك ان الكثيرين كانوا يرون، في الواقع، ان القضية السابقة لم تقدم اي حل، وان الكثير من نقاطها بقي غامضاً شديد الغموض.

وقد قال «بيير سيز» احد شهود القضية: «اما ان غاستون العجوز كان مذنباً فما من احد كان يستريب حقيقة في هذا غير أن اصرار المحكمة العجيب على أن لا ترى غير هذا المتهم الوحيد من ملابسات القضية كان صدمة لكثير من اصحاب الوجدانات والضمائر الحية». وقال المحامي «جاكوب» من ناحيته: إن شكاً ثقيل الوطأة قد ران على هذه القضية سواء في اثناء التحقيق او في خلال المرافعات الطويلة. وهذا الشك لا يزال قائما إلى اليوم».

وعلى الرغم من هذه الريب والشكوك وعلى الرغم من الخشية ان لا تكون العدالة قد اخذت مجراها الصحيح في هذه القضية، فان التحقيق الجديد الذي اوعز به وزير العدل الفرنسي قد اوقف بقرار صدر ووصف هذا التحقيق بانه «غير ذي موضوع».

وقد دار الحديث أيضا حول امكان مراجعة القضية السابقة، غير انه لم يحدث جديد يقتضي اعادة النظر في القضية. ويبدو- الى اليوم- ان هذا الاحتمال قد تلاشى هو الاخر.

ولقد مات العجوز غاستون دومينسي موتاً طبيعياً، غير ان سائر افراد اسرته الكبيرة يعلمون الكثير عن هذه الجريمة، ويعلمون ان ثمة تفاصيل كثيرة لا تزال طي الخفاء، ولا يدري بها احد غيرهم. اتراهم سيبوحون يوماً بما يعلمون؟ ان هذا مستبعد، وسيظل جدار الصمت قائماً اذا كان المجرم الحقيقي: لا يزال حياً بينهم..

أبناء زعماء النازي

ماذا حل بهم؟

كتبها نرين غان

زعماء النازي: هيلمر، هيس، غورنغ، روزنبرغ، ويبنتروب، بورمن، وغيرهم، وعلى رأسهم جميعاً هتلر نفسه. هؤلاء الزعماء من طراز الشخصيات التاريخية التي هزت التاريخ وتحكمت بمصاير الشعوب، ولا تزال اسماء زعماء النازي ترن في اسماعنا، فالعهد بهم قريب قرب الحرب العالمية الثانية وويلاتها. الا انهم، الى جانب حياتهم الحافلة بالحوادث والاحداث الجسام، كانت لهم حياة خاصة، وكان لهم ابناء وبنات وزوجات. وقد طويت صفحات اولئك الزعماء الذين هزوا العالم فترة من الزمن، وبقي اولادهم وبناتهم وزوجاتهم. ولا يملك المرء الا ان يتساءل: كيف كانت حياة زعماء النازي العائلية، كيف كانت علاقاتهم بابنائهم، واين يعيش، اليوم، اولئك الابناء وماذا يفعلون، وكيف تراهم يحملون على اكتافهم عبء اسماء آبائهم؟ انها اسئلة في الصميم شد ما يتطلع الى أجوبتها جميع المهتمين بكل ما يتصل بالتاريخ الحديث من أسباب. وها هو الكاتب الاميركي «نيرين غان»، مؤلف كتاب «ورود دالس الحمراء» عن مصرع الرئيس كنيدي الذي احدث دوياً كبيراً في الولايات المتحدة، يقوم بالتحقيق الشائق، ويتتبع آثار ابناء اولئك الزعماء، ثم يحدثنا عنهم، وعما يصنعون في آفاق الدنيا، وكل منهم يحمل اسماً تاريخياً مليئاً بالمعاني.

-١-

* ابنة هيملر

في كل صباح، وفي الساعة التي تخرج فتيات مدينة «ميونخ» اللواتي يحسن الاختزال والضرب على الآلة الكاتبة الى اعمالهن، تشق امرأة شابة مكتنزة باب العمارة التي تقيم فيها وتروح تلقي بنظرات محترزة متوجسة الى الخارج لكي تتأكد من ان ليس ثمة من أحد يراقبها. واذا تطلع الناظر الى وجه هذه المرأة فانه يشعر انها قد تجاوزت الثلاثين من عمرها، غير ان جسمها يدل على أنها ما تزال محتفظة بقوام ورشاقة فتاة في ربع الشباب.

واذا ما هدأت مخاوفها وتوجساتها فانها سرعان ما تتجه اولا نحو دكان تقوم في الزاوية . دكان للكي الآلي باسم «محل غادران لكي الملابس» تملكه هي.. ثم تجتاز مشياً على قدميها حي «شوابنغ»، وهو أشبه ما يكون بنموذج مصغر لمدينة باريس في بافاريا ، وتصل اخيراً الى المكتب الذي تعمل فيه موظفة.

غير انها اذ تشق الباب وتنظر من خلاله ترتد راجعة الى شقتها اذا اشتبهت في الخارج بوجود شخص مجهول ينظرها او يترقب خروجها. وعندئذ تتناول سماعة الهاتف وتتصل باصدقاء لها. ولا يلبث اولئك الاصدقاء الموثوق بهم ان يوافوها في دقائق، وساعتئذ يعرفون كيف يلقون الذعر والارهاب في قلب ذلك الفضولي المجهول. وقد يكون، احياناً، احد المصورين فيأخذون آلته عنوة ويحطمونها ويذيقونه ضربا موجعاً لا ينساه.

وكان في وسع هذه المرأة الشابة ان تتحاشى كل هذه المزعجات لو أنها ارتضت ان تختفي وراء اسم آخر غير اسمها، غير ان «غادران هيلمر» رفضت هذا الاجراء البشع إذ ان اسمها الحقيقي مكتوب في دليل الهاتف، وفي وسع الجميع ان يعرفوا انها تقيم في عمارة رقم ٨١ بشارع «جورجنستراسه».

وهي تقول: «انا معتزة باسمي اعتزازي بوالدي»، وترفض ان تعترف بان والدها كان اكثر من يخشاه الناس في المانيا، وربما كان رجل الرهبة الوحيد في العصر كله.

إنها ليست الوحيدة التي تتظاهر بمثل هذه الكبرياء.

ان جميع الابناء الاخرين، ابناء وبنات: غورنغ، ويبنتروب، بورمن، شيرتش، هايدرتش، رزنبرغ، فرانك انتهت بهم الاقدار الى مصاير مختلفة: فمنهم الان الاغنياء والبؤساء، والمشاهير والمنسيون الخاملون، والمتطرفون والمعتدلون ولو في الظاهر» ولكن احداً منهم لا ينكر اباه وان دفعوا الثمن غالياً، في بعض الاحيان، لهذا السبب وحده.

وربما كان وراء هذه الحيوية المفرطة بهذه الاسماء لانها لا تنفك تتلبسهم ليل نهار وكأنها اشبه ما تكون بسحر ساحر القي عليهم. إنها خطيئتهم الاصلية التي يريدون ان يحيلوها الى فضيلة، ما داموا لا يدخل في مقدورهم التخلص منها.

ومع ذلك فان «غادران هيلمر» فتاة محببة. ولقد تناولنا طعام العشاء معاً، وكانت سهرتنا لطيفة ممتعة، وربما لانني عنيت بان أخفي عنها انني كنت احد اسرى الحرب العالمية الثانية في معتقل «داشو» وهي تعرف كيف تكون رائعة ساحرة عندما لا تتحدث في السياسة. وقد اعترفت لي بأنها قد رفضت دائماً ان تتزوج رغم عروض الزواج الكثيرة التي قدمت لها. اما السبب فلأنها لا تريد أن تغير اسمها وتستبدل به اسماً آخر. وقالت:

- لا اريد ان انكر والدي واجحده. يجب ان يكون هنا احد ما يحمل اسم «هيملر»....

-٢-

عندما دخلت شقتها الصغيرة في شارع «جورجنستراسه» دهشت حقاً على الرغم مما قيل لي سابقاً، انه ليس مسكن فتاة بل هو متحف. ففي كل ناحية وزاوية تطالعك لوحات من وحي النازية، وتماثيل نصفية، وكتب كثيرة، ومستندات، وتحف، ولطائف، والبومات، وأشياء شخصية للذكرى، ورسائل، وأوسمة ومداليات، وشارات عسكرية.. الخ...

لقد جمعت، خلال سنوات، ما استطاعت ان تعثر عليه مما يتعلق بوالدها. وقالت:

- هنا اشياء اضطررت ان أبقى اسبوعاً كاملا دون ان أتناول وجبة العشاء لكي استطيع ادخار ثمنها وشرامها.

ارسل اليها اشخاص مبعثرون في انحاء العالم من النازيين القدماء اشياء كثيرة لتحفظها ذكرى لوالدها . وتابعت بحثها عن بعض هذه المخلفات فسافرت عدة مرات الى السويد، وانكلترا، وحتى فرنسا، وهي ترغب في الذهاب الى واشنطن حيث توجد، كما قالت، مستندات ذات اهمية خاصة تتعلق بوالدها.

كانت صورة واحدة ناقصة في هذه المجموعة هي صورة هيملر ميتاً، التقطت له قبل حرق جثته بقليل. وبعد حرق الجثة نثر رمادها مع الريح في غابة «لينوبورغر هايد». وأشارت الى احدى الصور وقالت:

- انها صورة غير حقيقية لوالدي هيملر، وكانت قد التقطت له في استعراض عسكري سنة ١٩٤٣ ثم ركبت تركيباً خاصاً. انني لا اعتقد ان والدي انتحر. ان نهايته لا تزال سراً خفياً، غير اني ارجو ان أجلو هذا السر في يوم من الايام- الواقع انني اعتقد انهم قتلوه.

وقد أبدت رغبتها في وضع كتاب عن والدها. ولما اقترحت عليها هذا

العنوان: «في سبيل الدفاع عن ابي» هزت رأسها غير موافقة، واجابتني:

– ليس أبي في حاجة الى من يدافع عنه: والا كان ذلك اقراراً بأنه مذنب، سأسمي الكتاب بكل بساطة: «هينرتش هيملر» وسيأتي يوم سينطق باسم نابليون اليوم، او «ولنغتون» او «مولتكيه».

****

لم تكن «غادران هيملر» عند وقوع الهزيمة قد تجاوزت الخامسة عشرة، وهي لا تتذكر شيئاً ذا اهمية. وقد كانت في سنوات الحرب لا ترى والدها الانادرا، ويبدو انه اضطر الى التخلي عن حياته العائلية. وكان آخر لقاء بينها وبينه في شهر نوفمبر– تشرين الثاني– سنة ١٩٤٤ . وقالت:

– لا شك في اننا كنا نتصل هاتفياً. غير انني لم اكن لأحدثه في غير مشكلاتي المتعلقة بفترة المراهقة.

ومع ذلك فقد اعترفت انها ذهبت يوماً مع والدها الى معتقل داشو، وقالت:

– اجل، لقد أراني والدي بعض الاسرى والمساجين، وقال لي: اولئك الذين يحملون شارة مثلث أحمر هم المساجين السياسيون، وذوو المثلث الاسود هم المجرمون. وقد تراءوا لي جميعاً بهيئة جميع مساجين العالم في كل السجون. كانوا يرتدون ملابس مهلهلة، وقد تركوا حلق لحاهم، انهم لم يوحوا الي بأية طمأنينة.

ولم يثر اهتمامي شيء هناك سوى بعض مزروعات الخضر، وقد حدثني والدي عن اهمية النباتات التي تزرع في المعتقل، واستطعت ان اقتطف بعض اوراقها للذكرى.

في يوم ١٣ مايو- ايار- سنة ١٩٤٥ اجتاحت الفرق الاميركية قصر «بولزانو» الملكي في «اديج العليا» بايطاليا حيث كان قائد القوات الالمانية، الجنرال وولف، ينتظر وصول هذه القوات بسكينة وهدوء، وقد امسك بقدح من الشمبانيا في يده. وفي هذه الاثناء عرض احد الضباط الالمان القريبين منه، عرض على الاميركان هذه المساومة: «دعوني ارجع الى المانيا وانا ادلكم اين تختبيء زوجة هيملر «مارغا» وابنته «غادران» ».

وهكذا القي القبض عليهما وذهبتا تحت الحراسة الى «البيرغو ديلابوستادي بولزانو» بعد أن كانتا مختبئتين في «كازال مونتيه» فوق رابية تطل على المدينة.

اقول انهما ذهبتا تحت الحراسة حماية لهما خاصة. فقد كان الشعب وجماعة الانصار لا يحنون الى شيء حنينهم الى قتل هاتين المرأتين وهما زوجة وابنة أبغض رجل الى اوروبا كلها. ثم نقلتا باسرع ما يمكن الى مدينة «فيرونه»، ثم الى «فلورانسا».

وقد استجوبتا مرة بعد آخرى، وانهالت عليهما الشتائم والمسبات والاهانات وقال لها احد ضباط الحلفاء وقد ذهبت اليه تشكو ما تعاني هي وامها من هذه الاهانات، قال لها وهو يهز كتفيه:

- عندما يحمل اي انسان اسم هيملر يجب ان يتوقع هذا واسوأ منه.

وكانت المرحلة الثالثة لهذه التنقلات الكثيرة: «سينيسيتا» في مدينة روما، وسينيسيتا هي مدينة السينما، وقد حول الحلفاء «هوليوود» ايطاليا الى سجن ضخم. وقد اعدوا لزوجة هيملر وابنته غرفة في هذا السجن، هو عبارة عن

«ديكور» استعمل في السابق لتمثيل فيلم من افلام الفاشية. وكان الحرّ هناك فظيعا لا يطاق، والغذاء ملوثاً، وقد عزلت الاثنتان تماماً، وراحت «غادران» تحلم بالفيلا الانيقة التي كانت تقيم فيها، وبغرفتها ذات الاثاث الجميل المدهون، وبمدرستها الثانوية الالمانية في «رايتشر سبورن». ان هذا كله الان بعيد، بعيد جدا، وكأنه لم يكن حقيقة ماثلة ذات يوم..

وقررت ابنة هيملر ان تضرب عن الطعام. واضطرب لذلك موظفو الاستخبارات البريطانية، وقد كانوا مسؤولين عن احوال الاسرى. وفي النهاية استسلم اولئك الموظفون، وأمروا بأن يقدم للمرأة وابنتها ما يقدم لضباط الحلفاء من طعام. وهكذا انتصرت ابنة هيملر وكانت لم تتجاوز الخامسة عشرة من عمرها. وقد أبت بشدة ان تتخذ اسماً غير اسمها ، حفاظا على سلامتها وسلامة أمها. وقد أعطيتا اسماً مستعاراً هو «براندث».

وفي مقابلة لهما مع مصور اميركي، ارتكب المصور حماقة بالغة اذ اعلمهما بانتحار هيملر، وكان انتحاره لا يزال حتى تلك اللحظة مكتوماً عنهما. ولما علم المصور باسمها الحقيقي، سأل الابنة بكل سذاجة:

- اذن فإن والدك مات مسموماً. واغمي عليها، فوراً، وظلت حياتها كما ظلت قواها العقلية في خطر حقيقي مدة شهر كامل.

- ٤ -

اخيراً استطاعت ابنة هيملر ان تتغلب على أزمتها المروعة. وما ان استطاعت السير على قدميها حتى أرسلت مع امها الى مدينة «ميلانو» حيث اقامتا في السجن المركزي، وقد كان، اذ ذاك، مزدحماً بالفاشست. وحتى تتجنبا ما لا تحمد عقباه، اضطرتا الى ان تتحاشيا اسم «سكيث».

وحينما اصطحبهما، بعد ذلك، ضابط اميركي الى فرنسا حيث لم تلبثا اكثر من ايام ثلاثة في فيلا بفر سايل، ثم الى «نورمبرغ» الحت ابنة هيملر قائلة:

– سيكون اسمي منذ هذه اللحظة الانسة هيملر. لن اقبل بعد اليوم اسماء مزورة. لم يعد مكان لكل هذا الهراء.

ولم يكن وجودها في «نورمبرغ» مجديا، لانها لم تعلم اي شيء عن والدها. ولم تمثل امام المحكمة كشاهدة. وما كان ليسعها ان تقول شيئا سوى انها كانت تلتقي بهتلر في رأس السنة، وكان في تلك المناسبة، يهديها دمية او علباً من الشكولاتة. هذا كل ما يمكن ان تتذكره بنت صغيرة.

ثم تقرر ادخالها هي وامها الى معتقل مدني الحياة فيه احسن احتمالاً، وحتى كان يمكن ان ترقصا فيه مساء، كان ذلك المعتقل أشبه بالاماكن الحرة، الا انه اكثر امناً على اي حال. وكان اسم هيملر، في الخارج لا يزال ممكنا ان يؤدي الى القتل الاعتباطي دون محاكمة او قانون، في حين كان الالمان يعانون من اقسى واشد شتاء عرفوه في حياتهم.. وفي سنة ١٩٤٦، حينما عرض قائد المعتقل عليها وعلى أمها ان يطلق سراحهما، رفضت زوجة هيملر، قائلة انها لا تدري اين تذهب، وما كان أحد ليقبل أن يؤوي تحت سقف بيته: زوجة هيملر وابنته.

وكان ثمة دير يتخذ في الوقت نفسه مأوى في «بيثل»، وكان هذا الدير، وفقا لتقاليده، مكاناً لايواء المصابين بداء الصرع، وللمجانين، والنساء الساقطات، منذ قرن، وفي قسم من هذا الدير اسمه «بيت دمشق» اعطيت زوجة هيملر وابنته غرفتين، وقد سجلتا في سجل الدخول على اعتبار انهما «ضعيفتا العقل».

وأرادت الراهبات البروتستانيات ان يعملن على جذب الفتاة الى الدين،

وتعميدها لتصبح مسيحية بحق... فثارت وتمردت وقالت:

- اريد ان أظل كوالدي، ثم لاذت بعزلة تامة.

وفي السنة التالية، حينما، أرادت أن تدخل مدرسة مهنية، رفعت مديرة المدرسة يديها الى السماء لدى سماعها اسم هيملر. غير ان رئيس بلدية المدينة الاشتراكي، جعل المديرة تغير رأيها اذ قال لها:

ان ديموقراطيتنا الناشئة لا تأخذ الابناء بجريرة الآباء.

وهكذا استطاعت ابنة هيملر ان تتعلم مهنة التفصيل، وفيما بعد بقيت مدة عند «خياط» معروف للتدرب..

ولما بلغت الثانية والعشرين انفصلت عن امها وجاءت الى مدينة ميونخ، غير انها اصطدمت بمصاعب جمة في البحث عن عمل، وكانت رفيقاتها لا يكدن يعلمن اسمها، والى من تنتسب، حتى يطلبن فوراً وبالحاح طردها.

وقد اقترح عليها بعضهم، عدة مرات، ان تتخذ اسما مستعاراً لكنها رفضت.

-٥-

اضطرت ابنة هيملر ان تغير اماكن اقامتها باستمرار، بحيث لا تبقى في المكان الواحد اكثر من ثلاثة اسابيع. وذات مرة طردت بعد ان ذكرت احدى الصحف اسمها وهوايتها دون قصد، ومرة اخرى طردت أيضاً لاحتجاج بعض الناس. وهكذا عملت خادمة في فندق، وعاملة، وبائعة في دكان، وسكرتيرة، واضطرت ان تتنقل باستمرار من مسكن الى مسكن.

اما اليوم فقد استقرت في حياة طبيعية نسبياً، وهي تشتغل ولا يبدو انها تعاني من هموم مالية. يتهامس بعضهم ان هناك اصدقاء اوفياء يرسلون اليها سراً ومن وقت الى آخر مبالغ تؤخذ من صندوق إعانة سري مودع في بنك سويسري. وبالطبع فان «غادران» ترفض ان تبوح باي شيء حول هذا الموضوع وهي لا تنفك تقول:

– مهمتي بسيطة جداً. اريد رد الاعتبار الى ابي. واني لارجو ان يساعدني في هذه المهمة الكثيرون من اعوانه الذين احتجبوا حتى الان تحت اسماء مغفلة مجهولة، ولاذوا بالصمت. وقد يستمر هذا خمس سنوات، او عشراً، ولكن ماذا يهم؟ لست خائفة، فانا هيملرية.

***

ابن هيس

هذا الشاب الذي يعمل مهندساً في مصنع صغير بضواحي «ميمنيحف»، والذي يدعوه الجميع بوده ظاهرة «وولفي» يثرثر كثيراً طواعية واختياراً حول كأس من الويسكي الجيد، إنه يتحدث عن والده الذي لم يكد يعرفه في الواقع، ما دام لم يكن له من العمر الا ثلاث سنوات عندما انفصل عنه.

ان والده لم يمت، لكنه لم يعد في ذاكرته اكثر من ظل او شبح، لانه يرفض، منذ خمس وعشرين سنة، ان يرى ابنه الوحيد.

ومن المستحيل الحصول على صورة لـ «هيس» الان.

والوثيقة الوحيدة التي يحوزها الشاب هي صورة غير واضحة التقطت خلسة بآلة تصوير من بعيد. ووالده هو «رودلف هيس» الذي نجا من مشنقة

«نورمبرغ». باعجوبة. غير انه الان ميت حي.

اما الشاب، وولف رايجر هيس، وهو اليوم في الثامنة والعشرين فانه متصل بوالده، والمعروف بالرجل الثاني ونائب هتلر، عن طريق المراسلة. ذلك ان للوالد الحق في ان يرسل الى ولده رسالة واحدة في الشهر ويتلقى منه مثلها. وهو لا يراسل احداًغير ابنه لاسباب مجهولة. ولا يكتب قط الى زوجته «السي».

وهيس، اليوم، هو السجين الوحيد في قلعة «سباندو» المتجهمة العابسة التي شيدها فردريك الكبير.

ان هذه الرسائل الشهرية المتبادلة تبعث اولا من انكلترا، ثم من نورمبرغ واخيرا من سباندو، وهي التي تمثل العلاقة الوحيدة، بين الاب وابنه منذ ربع قرن.

ومما يجدر ذكره ان وولف كان الوحيد، من ابناء زعماء النازي، الذي ذاق مرارة الخزي قبل انهيار النازية بزمن طويل. وكان قد ولد سنة ٩٣٧ ووقف هتلر نفسه شبينا له، وما اكثر ما وصفت له امه هذا المشهد التاريخي الرائع، وهما يقيمان معاً في دارة باذخة لها حديقة غناء وحوض سباحة فخم. وفي سنة ١٩٤١ جاء والده فاحتضنه وقبله وقال له: الى اللقاء القريب، فان علي ان اركب الطائرة الان.

ومنذ ذلك اليوم، وعلى وجه الدقة بعد ظهر ذلك اليوم المطير العاشر من شهر مايو-ايار- سنة ١٩٤١ لم ير والده ثانية. وقد مات ولقي حتفه بسقوط الطائرة في بحر الشمال. ثم زعم هتلر ان مساعده الأثير عنده قد اصيب بالجنون.

-٦-

اضطر الطفل الذي لم يتجاوز الثالثة من عمره فقط ان يغادر الدارة الجميلة،

وحديقتها الفينانة، ومسبحها الرائع، ويذهب للاقامة في كوخ متوار في الجبال. وما عاد احد ممن حوله ينطق امامه باسم والده هيس. وفيما بعد، حين صار في سن دخول المدرسة، كان رفاقه يبتعدون عنه، واذا سار في الشارع يومئون اليه وكانت امه لا تنفك تبكي وتنوح وتذرف الدموع كل مساء.

ثم كانت هزيمة المانيا وانهيارها، واحتلت القوات الفرنسية قرية، «هند فلانغ» حيث كانت تقيم زوجة هيس وولده. الا ان احدا لم يزعج هذه الاسرة. غير ان زوجة هيس اعتقدت ان اوقاتا اهنأ وأرغد توشك ان تأتي، اذ انها كانت تخشى دائما انتقام هتلر حتى لو جاء متأخرا. ثم لم تلبث اول رسالة من هيس ان وصلت اليهما وقد ورد فيها قوله: «يجب ان لا تخدعكم الظواهر. وانالم اتغير، وصحتي جيدة.. ويمكن ان يقع لي كل شيء حقا: الموت، السجن، النفي.. كل شيء...»

وكان السجن نصيبه، من بعد، وقد أخبر وولف بذلك احد الرفاق، اذ سمع النبأ من الاذاعة، وقد قال له: «لا تجزع، سيبقى والدك على قيد الحياة»

وجاء في بعض رسائله قوله: «ان سجني، في سباندو، نظيف، وانا هادئ، مرتاح، ولي وسادة وفرشة، واهتم بالبستنة فأزرع الجزر، والبطاطا، وغدوت ماهرا وخبيرا في مثل هذه الشؤون».

انها رسائل ود خاصة وحميمة، تتحدث في كل موضوع سوى السياسة. ولا يشير أحد من المتراسلين الاثنين: الوالد وولده الى كون رسائلهما خاضعة الى فحص المراقبين، والى انها ترسل الى لندن، وباريس، وموسكو، قبل ان تصل اليهما ويتسلماها، وهذه فقرة اخرى من احدى رسائل هيس الى ولده:

«يجب ان تعنى باللغة والنحو ، ويجب ان تقرأ رسائلي دون جواب. واني لسعيد ان تكون بطلا من ابطال كرة القدم، ولا تنس كذلك انني اتوق الى ان

تصبح رجلا..»

ويحب هيس ان يناقش ولده في اتجاهاته الفنية، فيحدثه عن الموسيقى قائلا في احدى رسائله: «انه لحسن جداً ان تحول موسيقى «السلام عليك يا مريم» من قطعة كلاسيكية الى قطعة من موسيقى الجاز. ولكن لا تنس انه ما ثمة شيء يعادل جمال احدى سيمفونيات شوبيرت حين يعزفها العازفون كما وضع الحانها مؤلفها نفسه».

ثم هو ينصح لولده ان يتعلم اجادة الحديث، وهو يذكر له مثلا على ذلك اسلوب الكاتبة الفرنسية القديمة «مدام دي ستايل»، ويقدم رأيا عن نابليون، وكان بذلك يضحك على رجال المراقبة. وفي رسائل اخرى يعطيه دروساً في الشطرنج، وفي احيان كثيرة يصور له مدى الم لبعده عنه. غير انه يستمر في رفضه ان يرى ابنه، وقد اصيب الابن بخيبة شديدة في المرة الاولى عندما حاول، بصحبة امه، ان يرى والده، فجاءها رفض دخول سجن نورمبرغ: «الهر هيس لا يقبل زواراً».

ويفسر وولف هذا الموقف العنيد من والده قائلا:

- انه يريد ان يترك لنا صورة جميلة منه. وهو لا يريدنا ان نفكر فيه تفكيرنا برجل بين الجنود، وراء قضبانه الحديدية.

-٧-

وقد ذاق «وولف» نفسه مرارة الاسر. كانت امه قد القي القبض عليها ثم زج بها في معتقل «غرجينجن» قرب «اوغسبيرغ» بامر من السلطات البافارية كغيرها من زوجات المتهمين في محاكمات (نورمبرغ)، وكان وولف لا يستطيع زيارتها الا مرة كل خمسة عشر يوماً، وبوجود الحرس. وفيما بعد انضم بدوره الى

امه في المعتقل بناء على طلبها والحاحها، وقد وجد وولف نفسه بين رفاق له من لداته: «ايدا» ابنة غورنغ، وابناء فرانك، واولاد برمان الخ..

وفي ربيع سنة ١٩٤٨ قررت المحكمة اطلاق سراح السيدة (السي هيس)، والدته، غير ان ثروتها كلها كانت قد صودرت، ولم يبق لها الا بضع قطع من الحلي كانت قد اودعتها بعض الاصدقاء، ولكي تستطيع ان تكسب قوتها عملت في الفنادق، وادخلت ابنها مدرسة في «برختسفادن» ثم نقلته الى مدرسة اخرى داخلية، حيث نال شهادة «البكالوريا» الثانوية، وحاز بطولة التزلج على الثلج، ودرس بعد ذلك الهندسة في جامعة ميونيخ وتخرج فيها مهندسا يحمل دبلومها. وكان ، لكي يدفع نفقات دراسته ومصروفات معيشته، ينهمك في اعمال مختلفة فعمل بائع جرائد، وممثل مسرح، وحطاباً وبائع مرطبات الخ..

وفي سنة ١٩٥٩ ذكر اسمه في الصحف والمجلات، وقد رفض ان يقوم بالخدمة العسكرية، وعلل ذلك قائلا:

- ان الاسباب التي تدعوني الى الامتناع عن الخدمة العسكرية بسيطة. الجيش الالماني جزء من قوات حلف هي الدول الحليفة التي تبقي والدي في سجنه ظلماً، ولن يسعني ابداً ان اخدم جلاد والدي.

***

اما الفتاة الباهرة الجمال «ايدا» ابنة «هيرمن غورنغ» فقد راحت تقول لي في كثير من الكبرياء والفخر:

- إن فرح ديبا زوجة شاه ايران تسلمت ستة عشر الف برقية تهنئة عندما وضعت ولي العهد، ولما ولدت أنا تلقى والداي ستمئة وثمان وعشرين برقيةا

وعلى الرغم من اسم اسرتها، بل على الرغم من اسمها الشخصي «ايدا»، وكان قد اختير لها تكريما لزوجة الكونت «شيانو» ابنة موسوليني، وكانت تدعى «ايدا»، وكما يعلم الجميع ان الكونت شياتو قتل رميا بالرصاص نزولا على امر هتلر بموافقة موسوليني والد زوجته، تقول على الرغم من هذا كله فقد ابتسم الحظ لـ «ايدا» ابنة هيرمن غورنغ الزعيم النازي الكبير، انها لنضرة الشباب، وفائقة الحسن، وثرية وتتلقى الدعوات من كل مكان، ويشعر الكثيرون بالزهو ان يظهروا معها في الحفلات او الدعوات . ولقد ورثت شعبية والدها، وكان هو يعرف كيف ينال اعجاب الجماهير، وكان مرحه والبشر الذي يطفح به وجهه يحولان دون الاعتقاد بانه قاتل سفاح. ولقد عرف غورنغ ان يسلك سلوك الكرامة في محاكمة نورمبرغ.

ان الالمان لا يبوحون بهذا علناً، غير انهم لا يزالون معجبين ان استطاع غورنغ ان يهزأ بجلاديه وسجانيه فنجا بالسم من الموت المزري على مشنقة المجرمين. وقالت لي ايدا:

- كان والدي رجلا ممتازاً، ان عمله في السياسة كان خسارة ومدعاة للاسف! وهو لو اكتفى بصنع الشكولاته كما كان يفعل جدي لكنا جميعاً، اليوم معاً سعداء غاية السعادة. اما انا فإني لا اشتغل بالسياسة،، وحسبي انني ابنته، وبالطبع فاني احمل اسمه بكل فخر واعتزاز. ان الكثيرين في احيان جديدة عندما يعلمون انني «ابنة غورنغ» يظهرون السرور، بل ان خدم المطاعم يرفضون ان يدعوني أدفع ثمن طعامي، كما ان سائقي سيارات الاجرة لا يطالبونني قط بأي أجر.

وهي تعيش اليوم على دخل دائم لها، في منزل بمدينة ميونخ، غير انها تعمل مساعدة ممرضة مجازة، واحياناً تعمل في عيادة احد الاطباء.

ويحول دون الفضوليّين والمقتحمين واللصوص باب حديدي كبير لمسكنها.

ومما يذكر انها ولدت كما تولد بنات الملوك، ويومئذ حلقت الطائرات وقامت بألعاب وتشكيلات بهلوانية عجيبة في سماء المانيا، واطلقت لمولدها المدافع، وأحيا والدها حفلة رقص باذخة في قصره «كارينهال». وكان ذلك في اليوم الثاني من شهر حزيران سنة ١٩٣٨ وهو يوم كاد يكون عيداً قومياً في المانيا.

-٨-

بعد سبع سنوات من ذلك التاريخ اي في سنة ١٩٤٥، القى جنود الصاعقة النازيون القبض عليها مع والدها وكانوا قد حاصروا قصر «موتاندورف» الذي كان غورنغ يقيم فيه في اواخر الحرب. وكان هتلر قد امر بابادة اسرة غورنغ جميعاً في الوقت نفسه الذي كان الروس فيه يحتلون المستشارية ببرلين. غير ان جنود الصاعقة اليائسين لم ينفذوا اوامر هتلر، وحاول غورنغ وزوجته وابنته، ومعهم ثمانية من الخدم، ان يجدوا ملاذاً لهم في ايطاليا، ولكن الاميركان اوقفوهم في الطريق، وبعد مضي شهر واحد فرقوا بينه وبين زوجته وابنته، وصودرت حقائبهم ما عدا صندوق قبعات، غير ان هذا الصندوق كان مليئاً بالحلي الثمينة التي تجاوزت قيمتها المليون دولار.

وفي شهر اكتوبر- تشرين الاول- اوقفت «ايما غورنغ» مرة اخرى، واكتشفت الحلي الثمينة فصودرت. اما «ايدا» فقد اخذتها الراهبات «البندكتيات» الى ديرهن، لكنها لم تلبث طويلا في كنف الراهبات بعيدة عن امها التي سمح لها بأن تحتفظ بابنتها معها في السجن. وربما كانت كلمة سجن مبالغاً فيها، فقد اتيحت اسباب الراحة للام وابنتها ولم يعوزهما، نسبياً، شيء، اذا ما اخذت بعين الاعتبار أوضاع المعيشة في المانيا في تلك الحقبة.

وأراد الاميركي قائد المعتقل الالماني ان يتخلص منهما ويطلق سراحهما،

غير ان زوجة غورنغ آثرت البقاء قائلة:

– لست ادري الى اين عسى ان اذهب. واخيراً وجدوا لهما، في شهر آذار سنة ١٩٤٦ كوخ صيد في احدى الغابات فاقامتا فيه في عزلة تامة. ولم يكن في وسع «ايدا» ان تذهب الى المدرسة، وهي بعيدة جداً عن مكان اقامتهما، فراحت امها تعنى عناية تامة بأمر تعليمها وتربيتها.

وفي النهاية استطاعت هذه البنية الجميلة ذات ضفائر الشعر الشقراء المرسلة على طريقة الممثلة الطفلة «شيرلي تامبل» والتي تشبه والدها هيرمن غورنغ شبهاً عظيماً، استطاعت ان تزور والدها في سجنه بـ «نورمبرغ». وقالت لها امها:

– عديني ان لاتبكي

ولم تبك أبداً، فقد كان يفصل بينها وبينه حاجز زجاجي شفاف. وبدا لها غورنغ وقد فقد الكثير من وزنه، الا انه كان صافي المزاج. وفي هذه المقابلة اسمعته ايدا قصيدة من محفوظاتها، فابتسم لها.

وكانت زوجته «ايما» تأمل دائما ان لا يحكم عليه بالاعدام، وتقول لابنتها:

– سترين يا ايدا. سيصدرون العفو عن والدك، وينفونه في جزيرة مثل نابليون.

واستطاعت ايدا، بعد ان بلغت العاشرة من عمرها، ان تدخل المدرسة اخيراً، وقد غدت من انجب الطالبات ثم انتقلت الى المدرسة الثانوية حيث نالت شهادة البكالوريا وكانت الاولى دائما في جميع سني الدراسة. انها لم تنل عقاباً قط، وما يذكر انها نسيت شيئا من دروسها، او تأخرت يوماً واحداً عن مدرستها.

ولما كانت المدرسة تنظم حفلات مسرحية، كانت ايدا تختار لتمثيل الادوار الرئيسية ، واساتذتها يذكرون انها كانت ذات موهبة عظيمة. اترى كان هذا من الورثة؟. والمعروف ان والدتها «ايا» كانت احدى كبيرات ممثلات المسرح الكلاسيكي في زمانها.

-٩-

بعد ان تحدثنا عن «ايدا» ابنة الزعيم النازي الكبير غورنغ، لا نجد شيئاً كثيراً نقوله عن: آنجليك، وتشارد، روبرت، وكلاوس ابناء «بالدور فون شيراش» زعيم الشبيبة النازية وحاكم النمسا، ولعل القراء يذكرون انه قد اطلق اخيرا سراحه مع الزعيم النازي الآخر «سبير» وكانا قد أمضيا معاً سبعة آلاف وثلاثمائة وخمسة أيام في السجن وهي المدة التي حكم عليه بها في محكمة نورمبرغ.

وبعد المضايقات التي عانى منها أبناء شيراش غداة كارثة انهيار المانيا، فقد استطاعوا ان يُخطوا مصيرهم ويشقوا طريقهم دون مساعدة أحد، ولم يكونوا في ضيق مالي إذ أن والدهم ينتمي إلى أسرة ثرية من علية القوم. وكانت جدتهم لأمهم اميركية من مدينة «ميدلتون» بولاية «فيرجينا». وفي سنة ١٩٥٢ ورث شيراش من جدته هو - اليزابيث بوالي نوريس، من فيلدلفيا باميركا - رزمة ضخمة من الاسهم في شركة خطوط السكة الحديدية الاميركية.

وكانت هذه الأسهم في اعتبار «دولستريت» حي المال والأعمال الأميركية أكثر من ثروة حقيقية. وفي خلال مدة سجنه فان شيراش لم يمس شيئاً من رأسماله هذا. غير أن أبناءه - روبرت وأخوته وأخواته - كانوا يتسلمون فوائد هذه الأسهم وكانت كافية لنفقاتهم وتلبية رغائبهم.

* * *

ويأتي الآن دور «ارين» ابنة الزعيم روزنبرغ. انها الآن في الثلاثين من عمرها، وهي في عداء مستمر مع العالم كله.. وتبدو متعبة مجهدة الملامح، وتعكس نظرتها غضبها الدائم. وليس لها غير ضفائرها الشقراء تثبت بها أنها لا تزال آنسة. وهي تعيش على نحو ما مع أمها في مسكن متواضع بمدينة فرانكفورت الالمانية. والاثنتان تجدان عسراً ومشقة في كسب قوتهما.

وقد سمعتها تقول:

- لقد بقيت نازية، وانها، بهذا، جد مزهوة.

وتقول انها لا تنفك ضحية لليهود. ومما يذكر أن والدها «الفريد روزنبرغ» كان هو واضع المبادىء النظرية للنظام النازي. وكان كتابه «الظاهرة العظيمة في القرن العشرين» هو انجيل النازية الجديد، وربما كان له من التأثير أكثر مما كان لكتاب هتلر نفسه: «كفاحي»، وقد أصبح روزنبرغ أيضاً وزيراً للأراضي الروسية المحتلة، ويقال انه يتحمل مسؤولية كبيرة مما جرى هناك.

وقد كانت حياة «أرين» عذاباً موصول الأسباب، ذلك أن والدها فقد حظوته عند هتلر قبل انهيار المانيا بزمن طويل، وفي ٢١ آذار سنة ١٩٤٥ دمرت قنابل الغارات الجوية الدارة المترفة التي كانت أسرة روزنبرغ تسكنها في «داهلم» الحي الارستقراطي في برلين.

وكانت «هيدويغ» زوجته الثانية، إذ كان قد طلق زوجته الأولى الروسية. وكانت «ارين» فتاة صغيرة رائعة لا تنفك تنشد الشعر وتتدرب على انحناءات التأدب والمجاملة. وكانت ابنتهما الوحيدة، وقد استطاعت أسرة روزنبرغ أن تهرب من برلين وتجد ملاذاً لها عند الاميرال «دونتز» الذي عينه هتلر ليكون خلفاً له.

- ١٠ -

إلا أنه ما لبث الجميع أن أغلقوا أبوابهم في وجه أسرة روزنبرغ، واختفى هو في أحد المستشفيات متظاهراً بأنه أحد المرضى، وتخفت زوجته في ثياب ممرضة، وكانت «ارين» معها لا تفارقها، إلا أنه وشي بهم. وفي يوم ١٩ ايار جاء البوليس البريطاني العسكري وأوثقهم جميعاً..

وبعد أيام أطلق سراح «ارين» وأمها، ووجد لهما رئيس بلدية المدينة غرفة صغيرة في عمارة، غير أن المستأجرين الآخرين احتجوا، وأبوا أن يجاوروا هاتين «الساحرتين النازيتين». وأخيراً أسكنهما رئيس البلدية مؤقتاً في غرفة مطبخ منزوية، ومع ذلك فقد دامت هذه الاقامة المؤقتة سبع سنوات.. ولم يكن لهما غير سرير واحد ومنضدة، وكانت الصغيرة «ارين» تنام على الأرض وأبت والدتها «هيديغ» أن تزاول أي عمل. وكانت تقول: «سأظل زوجة وزير في الرايخ». وكان بعض النازيين السابقين يمدونها من حين لآخر بمبالغ زهيدة لا تغني عنها شيئاً، فكانت تضطر إلى بيع بعض حليها، أما «ارين» فكانت تذهب إلى المدرسة حيث تتعلم الفرنسية والانكليزية والايطالية والروسية... وما كانت الأم وابنتها لتريا أحداً قط.

وأمكن أن ينجو قسم من ثروة الأب من المصادرة فتحسن وضعهما المالي قليلاً وأصبحتا أقل بؤساً وشقاء. وذات يوم اكتشفت «ارين» مخطوطاً لوالدها لم ينشر من قبل، وعنوان هذا المخطوط «مثاليات ومعبودات النازية» فأتمنت عليه أحد أشياع هتلر السابقين.

وقد طبع هذا المخطوط ونشر، إلا أن نشره أثار عاصفة قوية، فاحتجت الصحف، وهاجم الناس المكتبات التي عرضته وحطموا واجهاتها، وسخطت «ارين» أيما سخط، واستولى عليها الغضب الشديد، ولم تستطع أن تدرك سبباً

لهذه العاصفة التي هبت في وجه الكتاب، ووقع في روعها أن هنا حملة اضطهاد ضدها.

وحاول بعض أصدقاء والدها أن يوجدوا لها عملاً، ولكن هذا كان مهمة معقدة جداً، إذ أنها لم يكتب لها أن تحبب نفسها إلى زميلاتها في العمل وكانت كثيرة النقاش في السياسة، كثيرة التذمر، كثيرة الحرد، وكان سوء طبعها يدفعها أحياناً إلى أن تصفع احدى زميلاتها. وهكذا فلم تستطع أن تبقى في محل عمل واحد أكثر من ستة أسابيع، وكان يقال عنها أن الاقتراب منها والاتصال بها مستحيلان. ومن ناحية أخرى كانت تتهم الصحفيين بأنهم إنما يريدون أن يستفيدوا مادياً من سوء حظها وبلواها... وتقول: انهم ضباع يأتون لنهش جثة...

* * *

إن كل من يواظب على مشاهدة برامج التلفزيون الألماني يرى عدداً من الغواني ذوات الحسن الخلاب كما في أي بلد آخر، ويروح يبدي اعجابه بابتساماتهن، وسيقانهن، وتسحره أصواتهن، إلا أنه يندر أن يتساءل عن اسم احداهن، من عساها تكون، وهل يخفي اسمها معنى من المعاني السياسية.. وربما كان هذا هو السبب في أن «سيلكه هيدرتش» لم تجد، إلى اليوم، في طريقها ما يزعجها أو يملأ قلبها خشية ورهبة.

ولا شك في أن والدها كان - نسبياً، شخصية ثانوية بين رجالات النازي، وقد توفي قبل ما يسمى بـ «مغرب الآلهة» بمدة كافية، قتلته قنبلة، القى بها رجال المقاومة التشيكية يوم ٢٧ ايار سنة ١٩٤٢ في براغ.

- ١١ -

وقد كان الجنرال «رينهارد هايرتش» مساعد هيملر، وكان مرتبطاً به ارتباطاً وثيقاً. ثم احتل بعد هذا منصب نائب حامي الأقاليم التشيكية، ولما ذهبت به قنبلة رجال المقاومة التشيكيين بكته المانيا كبطل، ثم انتقمت له شر انتقام.

وكان «هايدرتش» متعصباً شديد التعصب للنظام النازي، وسبق له أن أدار ما يسمى بـ «سيشر هيت دينست» وهي أشد دوائر «الغستابو» الالماني قسوة، وشارك في مقتل «رويم» زميل هتلر القديم في الكفاح.

وفي براغ، خلال الفترة القصيرة التي تسلم فيها مقاليد الحكم، نفذ حكم الاعدام في ٧٧٨ رجلاً من رجال المقاومة.

ومع ذلك فقد كان «هايدرتش» في حياته الخاصة، رجلاً على جانب كبير من الثقافة، وكان لطيفاً، عطوفاً، وله ميول فنية رائعة، وقالت زوجته «لينا ماتيلدا فون اوستن» تذكر سبب زواجها اياه: لقد تزوجته لأنه كان يعزف على الكمان عزفاً بارعاً لا مثيل له».

وتم هذا الزواج سنة ١٩٣١، وولد لهما ابنهما الأكبر «كلاوس» في سنة ١٩٣٣، و«هايدر» سنة ١٩٣٤، ولم تكن «سيلكه» تجاوزت الثالثة من عمرها عندما قتل والدها، أما «مارت» فقد ولدت في شهر تموز سنة ١٩٤٢ بعد شهرين من مقتل والدها، وكلتاهما لا تحتفظان بأية ذكرى مباشرة عن والدهما.

وبعد انهيار المانيا لجأت ارملة هايدرتش ومعها أولادها إلى «فهرمارن» وهي جزيرة في بحر الشمال تنتمي إليها أسرتها في الأصل. وفي هذه الجزيرة عملت بائعة سمك، ويا للفارق العظيم لحياتها السابقة في قصر «بانسكيبريزاني» القريب من براغ عاصمة تشيكوسلوفاكيا حيث استمرت تقيم

بعد مقتل زوجها، برعاية من هتلر، حتى سنة ١٩٤٥ .

وأمام الباب الحديدي الكبير لهذا القصر قتل ابنها البكر «كلاوس» في حادث سيارة نقل دهمته وسحقته سحقاً.

وذات مساء، في براغ، أعلن عن مجيء هيملر. ولم يبد، إذ ذاك، بمظهر سيد الغستابو الرهيب، وإنما كان مجرد رجل يهرب من وجه الجيوش الحمراء المكتسحة. ولما قابل أرملة هايدرتش قال لها:

- وأنت أيضاً، مدام هايدرتش، يجب أن تفكري بالنجاة.

وخرجت من براغ ومعها أبناؤها وبناتها، وساروا جميعاً على أقدامهم ليل نهار، وكانوا يركبون السيارات التي تقلّهم أحياناً، وإذا التقوا بجنود الحلفاء قالوا انهم لاجئون لا يملكون أوراق هوية، ثم وصلوا أخيراً إلى الجزيرة الصغيرة في بحر الشمال.

وفي سنة ١٩٤٨ طالبت براغ بتسليمهم، غير أن الحرب الباردة كانت قد بدأت، فتجاهلت الحكومة البريطانية هذا الطلب. ومن جهة أخرى قررت السلطات الالمانية مصادرة أموال وثروة «هايدرتش» ولكن الارملة لم تيأس، ففتحت فندقاً ريفياً، واستطاعت، بمعاونة بناتها أن تؤمن لفندقها مجموعة كبيرة من الزبائن المداومين.

وأراد ابنها الثاني «هايدر» أن يصبح مهندساً، وقد انساق، وهو ما يزال طالباً، في تيار أحد النازيين المتعصبين، واشترك في بعض الاجتماعات الحزبية، ووزع بعض المناشير، وهاجت الصحافة المحلية وهاجمته بشدة.

ثم مرت الأيام والأعوام، فعاد «هايدر» إلى حظيرة التعقل، وتزوج، وهو

اليوم يعمل عملاً متواصلاً وبهمة كبيرة، وقلما يتحدث في السياسة، في الظاهر على الأقل.

- ١٢ -

أما ابنتا هايدرتش: «سيلكه» و«مارت»، فانهما لا تهتمان بالسياسة ولا بالماضي – وهما تقولان: – ان هذا كله ما أثار اهتمامنا في يوم من الأيام. إن الرايخ الثالث، في نظرنا، تاريخ بعيد غير ملموس كحرب المئة عام، أو عصر نابليون، ونحن لم ندر قط ماذا يعيبون على والدنا. وإنما ينبغي أن نسأل أمنا عن هذا. أما فيما يتعلق بنا فان والدنا رجل لم نعرفه إلا في صوره، وكان يعزف على الكمان، وقد توفاه الله جندياً في أثناء الحرب، وكان مطيعاً لأوامر هذه الحرب.

وقد مالت «مارت» إلى مهنة الفنادق، فغيرت وبدلت في فندق والدتها، ووسعته، وأوقفت عليه كل عنايتها.

أما شقيقتها «سيلكه» فقد كانت تهوى (الاوبرا)، وما أن تحسن الوضع المالي للأسرة حتى شرعت تتلقى دروساً في الغناء، ثم أرسلوها، فيما بعد، إلى المعهد. وانضمت، من ثم، إلى غرفة المنشدين في دار الاوبرا المحلية، ثم حصلت على أدوار صغيرة في المسرح، وفي النهاية عملت في التلفزيون.

وهي اليوم فتاة جميلة. تدعى إلى كل مكان، والمعجبون بها وبجمالها كثيرون. انها رياضية ممتازة، وتهوى رياضة السفن الشراعية، والتزلج على الماء، والسباحة، وهي تلعب «التنس» وترقص بمهارة عجيبة.

وتجتمع الأسرة في برلين مرة واحدة في السنة. ويذهبون جميعاً إلى مقبرة «الانفليد» فيجثون أمام قبر لا يحمل أي اسم وتحيط به الأعشاب البرية. وفي

الماضي كانت محفورة فوق هذا القبر عبارات الاطراء والتمجيد لذكرى البطل النازي الكبير «هايدرتش» ثم كانت القنابل المدمرة، واجتياح المانيا، ولم يستطيعوا العثور على هذا القبر إلا فيما بعد.

والسؤال الآن: ماذا حل بأبناء الزعيم النازي الكبير «ريبنتروب»؟

إن ابنه الثاني «برتهولد» لم يتم الثلاثين من عمره بعد. وهو يطمح الى النجاح في عمله كمحام. إن الثروة الضخمة التي يتمتع بها ليست ثروته، ولا هي ثروة والده «يواكيم فون ريبنتروب» وزير خارجية هتلر الذي شنقته محكمة نورمبرغ وصادرت ممتلكاته. وإنما هي ثروة «انيليس» - والدته - من أسرة «هينكل» التي تدير مشروعاً من أكثر مشاريع صنع الأنبذة ازدهاراً في المانيا كلها. وهي تملك حزمة ضخمة من أسهم هذا المشروع. ويتلقى «برتهولد» راتباً شهرياً سخياً، يضاف إلى دخله من المحاماة، وهذا يمكنه أن يعيش موفور الرزق، دون احساس بأية ضائقة مالية.

أما أخوه الأكبر، رودولف، ففي التاسعة والثلاثين من عمره، وهو الذي يدير شركة «هينكل» آنفة الذكر، غير أن اسمه لا يظهر رسمياً كمدير، وكانت أمه «أنيليس فون ريبنتروب» قد طالبت بتنفيذ عقد وضع سنة ١٩٣٤ وألحت أن يكون ابنها، بموجب هذا العقد، مديراً للشركة، غير أن المساهمين الآخرين رفعوا قضية ضد هذا الطلب، فقد كانوا يخشون أن ينصرف الزبائن والمستهلكون عن أنواع النبيذ التي تنتجها الشركة بسبب اسم «ريبنتروب». وفي النهاية أمكن التوصل إلى حل وسط، وهو أن يصبح أحد الأصدقاء مديراً في الظاهر، أما الرئاسة الحقيقية فتظل لـ «رودولف» طي الاخفاء.

أما الابن الثالث «ادولف» فانه يعمل مع شقيقه. و«ارسولا» اختهم تزوجت رجلاً ارستقراطياً.

ويقول الابن الثاني برتهولد الذي يفضل العمل في المحاماة على العمل في انتاج الشمبانيا والأنبذة الأخرى:

- إنني أدرس الآن تاريخ الحقبة الهتلرية. إن هذه الدراسة تستهويني، ولكني لست غازياً، وأنا أتحاشى ما وسعني أن أصطنع اسم «ريبنتروب»، فهذه وجاهة لا أريدها. غير انني ابن صادق وبار بوالده. لست أخجل من والدي، وأنا لا أكاد أحتفظ له بذكريات فقد كنت صغيراً جداً يوم وفاته.

- ١٣ -

والواقع أن «برتهولد» مقتنع اقتناع أخوته وأخواته بأن والده كان بريئاً. وهو يقول:

- لم يفعل والدي غير ما كان يعتقد انه حق، ولو وجدنا في الظروف نفسها فانني لا أتردد في اتخاذ القرارات والاجراءات التي كان يتخذها. وهو لم يكن إلا واحداً من مستشاري هتلر، غير أن الواقع هو أن هتلر لم يكن يترك لأحد أن يقوده ويوجهه، وكان أبي لا يريد غير أمر واحد وهو أن يؤدي واجبه نحو المانيا، ولقد تفطن إلى الخطر الجسيم الذي كان سيحيق بنا من الشرق ومن ثم أظهر التاريخ أنه كان على حق.

وقد اشتهر عن برتهولد أنه يحب اللهو والاندفاع و«الزوغان»، وانه لشاب تتدفق في عروقه دماء الشباب. وما أكثر ما ذهب إلى لندن حيث كان والده، في يوم من الأيام، سفيراً لألمانيا وحيث كان الفاشست من الانكليز يتلقونه مرحبين به بحرارة.

ومع ذلك فقد وقع يوماً في يد العدالة الالمانية. كان إذ ذاك يسوق سيارته «الفولزفاغن» في الطريق من ميونيخ إلى سالزبورغ بسرعة جنونية، فخرجت

السيارة عن الطريق وانقلبت براكبيها، وأصيب بعض أصدقائه الذين كانوا معه في السيارة بجراح، فحكمت عليه المحكمة بغرامة طفيفة، غير أن القاضي، قبل أن يصدر حكمه، عني بأن يظهر ان المتهم هو ابن مجرم الحرب.. يواكيم فون ريبنتروب، ثم تحدث طويلاً عن أعمال ذلك الوالد.

* * *

ونحن الآن مع أبناء «هانس فرانك» الزعيم النازي وحاكم بولونيا من قبل هتلر:

- أنا أعلم أن والدي كان مذنباً. لقد ارتكب جرائم فظيعة، ودفع ثمن خطاياه غالياً. هو نفسه قال لنا ذلك قبل أن يلقى حتفه وهذه الخطايا هي «ارثنا» منه.

هذا هو ما يقوله «نيكلاس فرانك» عن والده.. وكان لا يزال يحفظ «الالف باء» عندما شنقت محكمة نورمبرغ والده بتهمة أنه كان الحاكم السفاح لبولونيا المحتلة.. ويوافق على ذلك شقيقه الأكبر «نورمن» بايماءة من رأسه..

والاخوان يقيمان في ميونخ وفي المسكن الذي كان لوالديهما. وقد ماتت أمهما، وبقي منزلهما على ما كان عليه من أثاث ونظام قبل ثلاثين عاماً، ولا تزال اللوحة النحاسية المثبتة في الباب الخارجي تحمل هذه العبارة: «الدكتور الحقوقي هانس فرانك»..

ويعمل «نورمن» في السينما، وقد عاون في اخراج عدة أفلام، أما أخوه «نيكلاس» فانه يفضل العمل في المسرح. غير أنه في النهاية قرر أن يصبح محامياً.. وقال يعلل ذلك:

- انني بدراستي الحقوقية أستطيع أن أدرس محاكمة نورمبرغ، لا لكي أرد الاعتبار لوالدي، ولكن لأكون أحسن معرفة به.. لكي أحاول أن أتفهمه.. إنني لا أخشى الماضي، بل على النقيض أريد أن أعرف كل شيء.

في غرفته بنورمبرغ كان والدهما «هانس فرانك» يكاد يخنقه عذاب الضمير، ولذلك فقد اعتنق، وهو في سجنه، المذهب الكاثوليكي. واستطاع ابنه «نورمن» أن يزوره عشية وفاته. وقد ركعا معاً واسترسلا في صلاة طويلة.

- ١٤ -

وكان «هانس فرانك» قد غادر «فار سوفيا» في شهر يناير -كانون الثاني- سنة ١٩٤٥، والتجأ الى قصره البافاري في «شوبرهوف» وكانت أسرته قد سبقته إلى ذلك القصر قبل سنتين، وهناك وجده الأميركان.

وقد استقبلهم والابتسامة على شفتيه. ألم يتنبأ له «منجمه» الشخصي أن الحظ وحسن الطالع سيلازمانه؟ وقد ضم ولده نورمن وقبله وقال له:

- قل لوالدتك واخوتك انني سأعود بعد بضعة أسابيع.

ولم تكن حياة، برجيت، زوجته وحياة أبنائه سهلة يسيرة. على الرغم من أن الأمير كان لم يتخذوا أي اجراء ضدهم. وحدث ذات مساء أن جماعة من العمال الغرباء، أكثريتهم من البولونيين الذين خرجوا من المعتقلات الألمانية، هرعت إلى باب القصر، ثم دخلته وراح ذلك الجمع من العمال ينهبون موجودات القصر ويخربون ما يجدونه. ولما عثروا بالأم وأبنائها الخمسة أمروهم بأن يصطفوا قبالة جدار وأمسكوا ببنادقهم يهددونهم.. وكانوا يريدون القبض على هانس فرانك، ملك بولونيا، فأخذوا يبحثون عنه في كل مكان..

واغتنمت الأم وأبناؤها فرصة الفوضى فأفلحوا في الافلات والهرب من طريق ضيق خفي في حديقة القصر.. ولكنهم لم يجرؤوا على العودة إلى القصر، بل ذهبوا وأقاموا عند مزارع من جيرتهم.

وفي شهر اكتوبر -تشرين الأول- تزوجت «سيفريد» الابنة الكبرى، وذهبت مع زوجها إلى الشمال، وقد كانت سعيدة ان استطاعت تغيير اسمها.

وفي هذه الأثناء بدأت ترد رسائل فرانك الأولى إلى أسرته، وقد أعلمتهم هذه الرسائل بتوبته واعتناقه المذهب الكاثوليكي، غير أن الصحف تحدثت عن محاولاته الكثيرة للانتحار و الذي يبدو أنه لم يعد مالكًا لكل قواه العقلية.

وعاد «نورمن» إلى مدرسته الثانوية، غير أن الهموم التي أحدثتها له محاكمة نورمبرغ كان لها تأثير سيء على دروسه، فرسب مرتين في الامتحان، وكان هو يفضل أن يصرف اهتمامه إلى موسيقى «الجازبند».

وكان «نيكلوس» هو الآخر في المدرسة، في حين كان أخوهما الأصغر «ميشيل» قد بدأ دراسته الابتدائية. وقد أزعج أمه. وذات يوم اختفى. ولم يصدق البوليس انه هرب، فطلبت أمه العون من أحد الصحفيين وقالت له: «لقد اختفى ابن فرانك».. وانتشر النبأ فأحدث ضجة، وفي النهاية استطاع البوليس العثور عليه مختبئاً في «عنبر» احدى السفن بمدينة «هامبورغ» فأعيد إلى أمه الجازعة.

وقد ترك «نورمن» دراسته نهائياً بعد اخفاق ثالث في امتحاناته، فأبحر إلى الأرجنتين على ظهر باخرة شحن، ووجد عملاً بمخزن أدوات في بيونس آيرس.

ولسوء حظه فان النازيين الأرجنتيين رأوا في شخص ابن الزعيم «فرانك» وارثاً لاسم شهير، ولكي يفر من هذه الوجاهة المؤذية انتقل إلى داخل البلاد

وعمل في المناجم.

وكان العمل شاقاً ولكنه مريح، وقد بقي ثلاث سنوات يعمل في المناجم، وقد غير اسمه وأصبح يحمل اسماً آخر هو «هانس شميت» وقد عاد إلى المانيا بعد وفاة والدته، فوجد وطنه هادئاً ومزدهراً، ولم يعد أحد يطارد أبناء زعماء النازية.

أما ميشيل فكان قد أصبح بائع سيارات، و«نيكلوس» محامياً، والاختان قد تزوجتا.

وكان نورمن يحلم دائماً بأفلام السينما، فاستطاع أخيراً أن يحقق هذا الحلم، واسم «فرانك» من الأسماء الشائعة في بافاريا، يسمى به الكثيرون، وكان معظم الناس قد نسوا والده، فلم يعد به حاجة إلى الاحتفاظ باسمه المستعار، فعاد يحمل اسم والده دون خوف.

- ١٥ -

- أحرق هذه البلدة الرسمية، وغير اسمك فوراً، وإليك بطاقة هوية مزيفة.

كان المتكلم هو سكرتير الحزب النازي في -سالزبورغ- وقد قدم البطاقة المزيفة إلى فتى في الخامسة عشرة من عمره في زي الشبيبة الهتلرية، وعلى ذراعه الصليب المعقوف، وفوق صدره أوسمة وميداليات.

وكان الفتى أحد خمسة عشر طالباً أمروا بالخروج على عجل من مدرسة خاصة بالحزب النازي، في (ماتراي) بمنطقة البترول. وفي تلك الأثناء لم تكن لديه أية فكرة عن مصير والده الذي لم يكن قد رآه منذ عيد الميلاد سنة ١٩٤٣. وقد كتب له أن لا يراه من بعد أبداً. وحتى اليوم فانه لا يزال يجهل، والعالم كله لا يزال يجهل، إذا كان والده ميتاً أو من الأحياء.

هذا الفتى الذي كان يومئذ في الخامسة عشرة من عمره، يدعى، كوالده، «مارتن بورمن». أجل ابن الزعيم النازي الكبير «بورمن».

واستطاع «مارتن» الصغير أن يدبر لنفسه، وقد استولى عليه خوف شديد، بعض الملابس المدنية وذهب لاجئاً عند فلاح من «سالز كمرغوث» وروى له أنه مواطن فقد والديه في الغارات الجوية. فآواه الفلاح، غير أنه قد تملكته الدهشة إذ تبين أنه، في أيام الاحاد إذ يذهبون إلى الكنيسة، لا يدرك شيئاً من شعائر الدين.. والواقع أن الفتى حتى ذلك الحد من عمره لم يتلق أي تعليم ديني على الاطلاق. وكان الله، في نظره، يدعى «هتلر».

واستطاع «مارتن» أن يحتفظ طويلاً بهويته المجهولة، ولكن حدث ذات يوم أن جدران القرية كلها وغيرها من القرى المجاورة ظهرت مغطاة بالاعلانات المثيرة منبئة بأن رأس «مارتن بورمن» – والد الفتى – قد جعل له ثمن باهظ يدفع من يرشد إليه، وانه إذا ما قبض عليه حياً فانه سيعدم فوراً دون محاكمة..

وأحس الفتى بالخوف واليأس، وكان قد حاول عبثاً أن يجد أمه وسائر اخوته واخواته.

وذات مساء، وقد بلغ به اليأس مبلغه، اعترف لكاهن القرية، الأب «ريجنس» كاهن الكنيسة الصغيرة البديعة «مار ياكيرشتال»، فرضي بأن يأخذه عنده ويلقنه مبادىء الدين بصورة جدية. وهكذا اتضحت خطوط مصير «مارتن ادولف بورمن» الابن، فقد دخل الكهنوت وأصبح من رجال الدين «اليسوعيين».

وفيما بعد فقط استطاع رجال المخابرات الأميركية السرية أن يعلموا أن ذلك الراهب هو ابن الرجل الذي يبحث عنه عبثاً رجال البوليس في الدنيا كلها... وقد تم توقيف الراهب مارتن غير أن استجوابه لم يؤد إلى أية نتيجة، وقد كان لا يعلم أي شيء على الاطلاق عن والده، فأطلق سراحه بعد أن أعلموه في خلال

استجوابه، أن والدته قد توفاها الله في سنة ١٩٤٦.

وهذه هي قصة أمه «جيردا بورمن». كان قد ألقي عليها القبض في كوخ جبلي يقع في «غورين» بالجبال البافارية حيث كانت تقيم مع أولادها الآخرين: «فيكه، فردريك هارموث، جيردا، ايفاماريا، جيرهارد، هيزتش، ايرما، وجوزيف فولكر، وهذا الأخير كان ابن سنة فقط، أما فيكه فقد كانت في الثالثة عشرة.

وذهب الأميركان بامهم جيردا إلى «ميلانو» في اديج العليا بايطاليا. وبقي أمر احتجازها سراً مكتوماً. وبقي أولادها كلهم في الكوخ الجبلي، متروكين لأنفسهم تماماً، إلى أن ارتضت خادمة عجوز الاهتمام بهم. وقد ماتت أمهم في السجن وهي تجهل أيضاً كل شيء عن مصير زوجها.

كيف وقعتُ في أسر الروس

كتبها طيار هتلر: هانس بور

كان الروس مقتنعين كل الاقتناع بأن «هانس بور» طيار هتلر قد نقله إلى مكان سري مجهول، وأن الجثة التي وجدوا أكثرها محترقاً فوق أرض المستشارية ببرلين لم تكن جثة هتلر نفسه، بل جثة «شبيهة»، وقد وقع هانس أسيراً في أيدي الروس وأمضى في الأسر أكثر من عشر سنوات، وهو يروي في هذه السلسلة المثيرة قصة أسره الطويل، وقصة عذابه، وقصة استجوابه المستمر حول هتلر والمكان المجهول الذي نقله إليه بطائرته... وقد ظل الكثيرون، حتى أيامنا هذه، يعتقدون أن هتلر ما يزال حياً، وأن قصة الجثة المحترقة فوق أرض المستشارية لم تكن إلا تمويهاً وذراً للرماد في العيون. إن العنوان الأصلي لهذه السلسلة التي أترجمها لقراء الدفاع هو: «هل أنقذ الطيار الخاص هتلر وذهب به إلى مكان مجهول؟»

«المترجم»

- ١ -

كان لا بد من أن نظهر فوق الأرض من مخابئنا تحت أرض المستشارية. وقد استطعنا أخيراً أن نخرج إلى فضاء برلين سنة ١٩٤٥، وما استطاع أحد ممن رأوها يومئذ أن ينسى اطلاقاً المشهد الرهيب الذي تبدت به عاصمة المانيا المحتضرة، انه

منظر الروع والبؤس واليأس الذي لا سبيل إلي وصفه أو تصويره بالغاً ما بلغ القلم من قدرة على الأداء والوصف.

وما كدنا نخرج ونتنفس الصعداء حتى وجدنا أنفسنا وقد وقعنا في جحيم من اطلاق الرصاص والقذائف، فرحنا نعدو فارين على امتداد شارع «زايفلستراسه» وقد باعدنا بين أحدنا والآخر مسافة تقرب من ثلاثين متراً.

كان الرصاص، وكانت القنابل تطلق من جميع النوافذ، ومن جميع الأركان، في كل اتجاه. وكانت كأنها المطر المنهمر الذي لا ينقطع أبداً. وكنا نرى سيارات تحترق وقد تعالت منها ألسنة النار، وكنا نشاهد جرحى تتسايل دماؤهم من جروح مفتوحة نفّارة تقشعر من رؤيتها الأبدان، وكان أولئك الجرحى يصرخون ويستغيثون وما من مغيث.. وقبل أن أصل إلى الجامعة بقليل ارتميت على الأرض ولم أعد أشاهد أحداً... وخيل إلي أن اطلاق النار قد خف قليلاً.

وعندما نهضت كان النهار لما ينقض بعد، وحاولت أن أسير ولكن الجموع المذعورة الفارة ساقتني معها... وعلى مقربة من لهيلتر باهنوف «ألقينا بأنفسنا في احدى الساحات الداخلية، وكان الروس يحرسون مدخلها وبأيديهم المدافع الرشاشة يطلقونها كيفما اتفق. وعلى حين غرة أحسست بطلقة عنيفة أصابت ساقي الاثنتين فسقطت على الأرض... ولا بد إني صحت من شدة الألم فقد جاء بعض الرجال فأنهضوني وذهبوا بي إلى بيت كان قد اشتعلت فيه النار وانهارت واجهته كلها. وفي أحد أركانه البعيدة عن النار جاءوا بقطع من الخشب والورق المقوى فجبروا، على عجل، ساقي المكسورة، أما ساقي الأخرى فقد كانت الرصاصة قد اخترقتها دون أن تكسر العظم فضمدوها، ومنذ تلك اللحظة أصبحت أسير الروس.

* * *

ثم ذهبوا بي إلى مكان ما فوجدت فيه نحواً من خمسين أو ستين جندياً المانيا. وكان ثمة شرطي يتكلم الروسية ويساعد في معرفة أسماء الموجودين، وعندما سألني عن اسمي ورتبتي العسكرية وأجبته بأنني «جنرال» انتفض مأخوذاً.. وكنت يومئذ أرتدي سترة لا تدل على رتبتي، ولما وقعت هكذا في الأسر لم يبال بي أحد، ولم أجد من يظهر أي اكتراث بي. ولكن ما كدت أذكر رتبتي حتى تغير الوضع تماماً وبدا الاهتمام المفاجيء، وأسرع الشرطي الالماني يخبر الروس بأمري..

وبعد قليل جاءني «كولونيل» روسي وقدم لي بطاقة صغيرة بيضاء اللون وطلب مني أن أكتب فيها اسمي. غير انني رفضت طلبه وقلت اشرح سبب رفضي بانني لا أريد أن أوقع هكذا على بياض لاخول الناس سلطات لا أدري ما هي إذا استغل اسمي وتوقيعي.. وكان هو يريد أن يجمع تواقيع الجنرالات الالمان – على بياض – لاستعماله في توجيه نداءات رسمية إلى الجنود الألمان لالقاء السلاح..

وقلت له بأنني كنت طيار هتلر الخاص، ولا شأن لي بهذا كله..

ولما رأى أن التهديدات نفسها لا تجدي معي ساقني إلى حجرة خالية حيث مددوني فوق منضدة عريضة..

– ٢ –

كان الدم الكثير الذي نزف من جراحي قد أوهنني، فجعلت اسناني تصطك بعضها ببعض. وانقضت ساعتان ثم جاء اشخاص من الروس وذهبوا بي الى السلطات المختصة لكي تجري اول استجواب لي. ولما علم اولئك المسؤولون انني كنت الطيار الخاص لهتلر ارادوا ان يعرفوا فورا كيف نهاية الفوهرر، وهل هو قد قضى نحبه حقا وهل صحيح ان جثته احرقت.. وفي تلك اللحظة لم يخطر لي على بال الى اي حد كان هذا الموضوع يخبيء لي من متاعب وعذاب وآلام..

وتوسلت اليهم ان يأتوني بما يطفيء عطشي.. وعلى انني كنت جريحا بالغ الجراح فان هذا لم يعفني من مشاهدة عرض الجيش الالماني ومروره في شوارع برلين، وكان قد صدر امر عسكري عام بان يشاهد جميع العسكريين الاسرى من الالمان العدد الضخم من الرايات والاعلام الحمر والبيض التي تخفق في سماء برلين..

وهكذا القوني في سيارة انطلقت وراء دبابة روسية، وكانت السيارة تمر في اماكن حفرت القنابل ارضها فكنت ارتج في مكاني من السيارة ارتجاجا عظيما، وفي احيان اخرى اثب من مكاني إلى علو عشرين او ثلاثين سنتمتراً فأصرخ واتوجع من شدة الالم ولكن ما من سميع.

وشد ما كان خطئي اذ تصورت انهم لا بد ان يذهبوا بي إلى المستشفى بعد كل هذا العذاب... لقد ساقوني، في الواقع، الى محققين آخرين. ولما آرخى الليل سدوله نقلوني الى مزرعة ما، دون أن يهتموا أبداً بجراحي وبحاجتي إلى العناية الطبية، وفي المزرعة واصلوا تحقيقهم واستجوابهم. وكان موضوع الاستجواب لا يتغير ابداً، انه موت هتلر ولا شيء غير هذا...

وفي اليوم السادس قلت للضابط الذي يستجوبني:

– من الان فصاعداً لن اجيب على اي سؤال توجهه الي، لن اقول شيئاً. انما اريد طبيباً لجراحي. ثم انكم لا تنفكون تسألونني الاسئلة نفسها. اجل ان هتلر قد مات وشبع موتاً، ولست انا الذي سيعيده الى الحياة. وبالاضافة الى هذا قد احرقوا جثته.

ومن جديد قدموا لي شيئاً اضع فيه توقيعي. فقلت:

– هذا لن يكون!

ولم تثنني التهديدات المتواصلة عن عزمي. وعدت اقول لهم:

- اقتلوني رمياً بالرصاص! كفاني ما لا قيت حتى الان. انني لا اتمنى غير امر واحد هو: ان تأتوني بطبيب أو تقتلوني..

وعندما تبين الضابط الذي يستجوبني انه لن يستطيع ان يحصل مني على اكثر من هذا اخذني والقى بي في سيارة ذهبت بي الى بيت احد المزارعين حيث تجرى فيه عمليات جراحية.. وكان في البيت المذكور اربعة اسرة ضيقة فرشت فوقها قطع من المشمع. وكانت ثلاثة من هذه الاسرة قد احتلها اشخاص روسيون لا يزالون تحت تأثير المخدر.

لما بدأ الطبيب يشق ساقي كان المخدر لما يفعل بعد فعله الكامل.. وعندئذ صرخت وارسلت لعنة قبيحة في وجه الطبيب ومساعديه، فأدركوا عندئذ ما حدث فأنشقوني مزيداً من المخدر فلم البث أن فقدت وعيي.

ولما صحوت وجدت ساقي الاثنتين قد وضعتا في الجبس.

-٣-

ارسل الروس الجنرالات والقواد الاخرين الى موسكو، اما المرضى والجرحى فقد ذهبوا بهم الى «بوزن». وقد تجمع في احد المعتقلات الصحية خمسة وثلاثون الف رجل، كان بينهم اربعة آلاف جريح فقط. الا انه لم يكن ثمة اية علاجات او ادوات.

وقال لي الطبيب الاستاذ «شنيدر» انه يجب ازالة الجبس للكشف عن جراحي اذ كان من المستحيل فحصها بالأشعة ذلك لأن الروس في فَوْرة تحمسهم عند دخولهم برلين قد حطموا كل شيء، بما في ذلك آلات التصوير بالاشعة..

وبعد ان صحوت من مفعول المخدر لم يكن ما رواه لي مشجعاً على الاطلاق وقد قال:

- انهم لم يفعلوا لك شيئاً سوى انهم قد شقوا ساقك من الكاحل حتى الركبة.

ومع ذلك وعلى الرغم من هذا الجرح الضخم الذي احدثه الروس في ساقي فانهم لم يفلحوا في استخراج شظايا الرصاص، بل ظلت كامنة في صميم عظامي.. وعاد الاستاذ شنيدر يقول:

- ستكون لك ساق مهتزة مرتجة منذ الان، اذ انها تفتقر الى بعض العظام.. غير انك تستطيع، فيما بعد، ان تعوضها بغيرها.

ولم يستطع احد ان يدرك لماذا احدث الروس في ساقي ذلك الشق الكبير الضخم. ثم لم تلبث ساقي ان اخذت تتقيح ويتسايل منها الصديد، فساءت صحتي بسرعة غريبة، وما اسرع ما وجدت وزني قد هبط من ٨٦ كيلو غراما الى خمسين فقط، وكان لا بد ان اقبل، وغصص الحسرة تكاد تخنقني، بان يبتروا لي ساقي، ولم تكن هناك مباضع ومشارط ومناشير طبية، فاستعمل الطبيب، بدلا منها، سكين عادية من السكاكين التي تحمل في الجيب..

ووضعت من ثم مع نحو اربعين جريحاً يرقدون على أسرة جمعت من هنا وهناك، ولم يكن احدنا ليستطيع ان يحتل من السرير اكثر من ثلاثين او أربعين سنتمتراً على الاكثر- وهكذا لم نكن لنستطيع ان نتحرك او نتقلب الا بأمر- وبعد ايام نقلوني الى احدى الخيام... ولقيت يومئذ احد موظفي الهاتف في المستشارية الالمانية، وقد وقع في الاسر مثلي، واسمه «ميتش». واستطعت ان احصل من المسؤولين الروس على امر ان يبقى معي كجندي تابع لي.

وذات يوم انبأتني طبيبة المستشفى. وهي برتبة ضابط، انني سأنقل الى موسكو حيث ادخل مصحا مخصصا للجنرالات والقواد، وحيث اجد طعاما اوفر وغذاء افضل.

ويسعني الحصول يوميا على مئة غرام من الخمر (وهذا امر ذو اهمية خاصة لمعظم الروس). ورجوت الطبيبة ان تسمح لميتش ان يصحبني، وقد سمح لي بذلك بعد تردد طويل الامد.

***

في يوم ٢٤ تشرين الثاني سنة ١٩٤٥ حشرونا في القطارات التى تنقل الحيوانات، وكان على هذه القطارات ان تذهب بنا شرقاً. وكان عددنا اربعمئة وخمسين اسيراً. وذهب بنا القطار الى «موجايسك» وهي تقع على مسافة مئة وعشرة كيلومترات الى الغرب من موسكو. وعندئذ اخرجوني من قطار البهائم وذهبوا بي مع بعض الضباط ومعهم الجندي الامين «ميتش» الى مصح الجنرالات والقواد.. وقد كان لهذا المصح باب حديدي ضخم واقفال لا تقل عنه ضخامة.. ولم يكن المرء بحاجة الى ان يكون خارق الذكاء لكي يدرك انه ليس مصحاً بل سجناً كبيراً.. وقد وضعونا، ميتش وانا، في غرفة صغيرة واحدة تكاد لا تتسع لنا..

-٤-

كانت الساعة الرابعة صباحاً عندما ايقظونا. وقد تفقدونا بالمناداة باسمائنا، ثم جاء ضابط فأطلعني على بلاغ عسكري يمنع على الاسرى ارتداء الملابس العسكرية والاوسمة والشارات. ولما جردني من كل ما دخل في وسعه من تجريدي راح يؤكد لي، كالعادة، ان هذا كله سيعاد الي في يوم من الايام.. غير اننا لم نلبث ان فهمنا معنى هذه العبارة على حقيقتها وهو اننا قد فقدنا كل شيء

نهائياً. ولكن الغضب والسخط لم يكونا ليجديا شيئاً..

***

وبالطبع فان التحقيق معنا واستجوابنا استمرا دون انقطاع بعد هذا، ولقد عرفت، منذ اليوم الاول، الرجل الذي ستتصل اسبابي بأسبابه، اغلب الايام، في خلال السنوات المقبلة. هذا الرجل كان: الدكتور«سفالي»، وقد كان يحتذى في اشياء كثيرة.. من بينها انه من المغرمين جداً بالعمل ليلاً، اجتمع بي الدكتور سفالي عدة ايام، وفي كل يوم كان يطلب مني ان اروي له بالدقة وبكل التفاصيل الممكنة حوادث الايام الاخيرة وحتى الساعات الاخيرة في المستشارية ببرلين، وكان يدون كل ما ارويه في كثير من الصبر والاناة، الا انه تبدى ملتزماً حدود الادب الجم معي الذي يبلغ مبلغ الصداقة..

وكنا، انا وميتش، لم نقل لإنسان ان احدنا يعرف الآخر منذ ان عملنا في المستشارية في خدمة هتلر، وكان «ميتش» يخشى كل الخشية ان ينكشف هذا الامر..

وذات مرة كنا معاً عند الدكتور سفالي بعد منتصف الليل بقليل، وعلى حين غرة تناول سفالي كتابا وضرب به رأس ميتش، وقال:

- هلا حدثتني قليلا عن المستشارية يا ميتش؟ لمن كنت تفتح خطوط الاتصال الهاتفي؟ لهتلر؟ لـ «كاتيل»؟ لغيرهما؟ وعم كانوا يتحدثون؟

ولم يستطع ميتش اخفاء ما اعتراه من هذه المفاجأة.. وعلى الفور بادروا فأقصوه عني، وذهبوا به الى حجرة اخرى صغيرة في السجن حيث بقي فيها سنتين كاملتين. وقد اعلمني فيما بعد انهم أساءوا معاملته بصورة رهيبة. وقد جلدوه خمس مرات جلداً بلغ من القسوة والعنف انه كان، في كل مرة، يغيب عن

وعيه..

وبعد هذا واصلوا استجوابي انا كل يوم على وجه التقريب. ثم نقلوني الى سجن «لوبليانكا» حيث كانوا يحبون ان يعكف الاسير على كتابة كل شيء، وما اسرع ما ملأت مئة وثلاثين صفحة كبيرة عن الحوادث والاحداث التي وقعت في المستشارية. وكنت، كل يوم، اعكف على الكتابة ست ساعات متواصلة غير انني كنت ادون ما اعرفه فقط، ولم يكن هذا بكاف في نظر الروس!

ولما قدمت الصفحات الثلاثين الاخيرة الى الضابط المسؤول، اخذها مني ومزقها والقى بمزقها تحت قدمي، وسألني اذا كنت غبياً الى حد الاعتقاد بانه يكتفي بمثل هذه التفاهات.. ثم قال إن في وسعه أن يرغمني على أن أقول كل ما اعرف.. وعبثاً حاولت ان اقنعه بان هذا كل ما اعرفه.. فلم يعرني اذناً صاغية وأصر على اعتقاده بان في حوزتي معلومات لا اريد الإفضاء بها.

وبدأت بعد هذا فترة تعذيبي، وبدأ جهاز التعذيب، يعمل بوسائله الخاصة، وكان اول ما فعلوه انهم خفضوا حصتي من الطعام. ونجمت عن هذا اصابتي بالدوار المستمر، وكان لا بد من ان يأتي اثنان من الرجال ليحملاني الى حيث يعاد استجوابي.. كنت في الواقع قد بدأت أهن وافقد قواي البدنية.

-٥-

ما اكثر المفاجئات التي كانت مخبأة لي! وذات ليلة ذهبوا بي لأمثل امام الجنرال «كابولوف»، ويحسن ان اذكر هنا انه اعدم رمياً بالرصاص في قضية الزعيم السوفياتي «بريا».

وقال لي كابولوف:

– اسمع يا «باور» لقد شاهدت جميع الحوادث والاحداث ومع ذلك فانت لا تريد ان تذكرها لنا...

فأشرت الى الصفحات المئة والثلاثين التي كتبتها ثم اكدت على انني لا اعرف شيئاً خلاف ما جاء فيها.

غير انه عاد فأكد لي على انه سيرغمني على «الجلوس الى المائدة» وهو تعبير يراد به الضرب والتعذيب فوق احدى الموائد.

وقد اشار الى ضابطين كانا موجودين وقال لهما ان يرفقا بي أولا ويدعواني الى أن أكون مدركاً ومتفهماً للحقائق حتى اذا لم يسفر هذا عن النتيجة المنشودة فإن عليهما أن يضعاني تحت سياط الضرب المبرح... وقال لهما بالحرف إن عليكما مهمة ضرب الجنرال باور، وضربه بأقصى ما في وسعكما من شدة وعنف. وانه ليؤسفنا حقاً أن نضطر الى ضرب الجنرالات والقواد.. غير أن الجنرال باور لا يدع لنا سبيلاً آخر.

وعندئذ ذكرت له انه قد سبق وضربت ضربا مبرحاً، غير انه أجاب والابتسامة تتراقص فوق شفتيه:

لم يكن ذلك شيئا يذكر الى جانب ما ستذوقه!

بعد هذا المشهد الليلي عادوا بي الى سجن «بورديكا» حيث عوملت وكأن شيئاً لم يحدث في هذه الاثناء.

ودخلت مرحلة سلسلة جديدة من الاستجوابات شملت ايضاً الجنرال «راتنهوبر» والكثيرين غيره من مواطنينا. وقد وجدنا انفسنا في غرفة تفتيش خاصة حيث جردونا من كل ما كنا نلبس على ابداننا، بل لقد جردوني حتى من

ضمادات جراحي. ثم القوا الينا بعض الاسمال والاطمار المهلهة، وهي من بقايا اردية روسية.

وبدأوا باستجوابي من جديد ابتداء من ساعة الصفر حتى الخامسة.

وكانوا يرددون على مسمعي باستمرار بأني قمت بتهريب هتلر بالطائرة، وهذا ما كان يعتقده الاميركيون ايضاً، ثم عدت بعد ان نجحت في تهريبه، عدت، عامداً متعمداً واتحت للروس ان يأسروني لكي اثبت لهم، بوجودي في المكان الذي اسروني فيه، اني كنت بعيداً ساعة هرب هتلر.. اجل هذا ما كانوا يعتقدونه.

ولكي اعترف لجأوا الى الاغراء فعرضوا علي مبالغ جسيمة من المال، واغروني بمنصب رفيع في «تشيلي»، واذا شئت بقيت في روسيا نفسها اذا كنت اخشى على نفسي وسلامتي في المانيا.. ولكن يجب ان ادلهم على المكان الذي هربت اليه هتلر!

لقد كانت تلك الفترة فترة جنون.. كانوا ينهالون علي بالاسئلة نفسها، والتهديدات نفسها، والوعود المغرية نفسها! ونفوا النوم عن عيوني فلم اعد اجد ساعة نوم واحدة، وكان الطعام الذي يقدم الي يقل ويقل يوماً بعد يوم.. ودائما استحالة الاستقرار حيال وجه المحقق، هذا الوجه الجامد، البارد، المتجهم باستمرار.

وذات يوم جاءني الضابط المحقق بقصة جديدة، قصة جديدة، قصة مثيرة حقاً، فقال: انت تعلم أن الجثة التي احرقت في المستشارية هي جثة شبيه هتلر، لا هتلر نفسه، واذن فيجب ان تقول لنا اذا كان هذا صحيحاً، من هو شبيه هتلر هذا...

انني اعلم ان فكرة اصطناع شبيه لهتلر قد اثيرت رسميا في الواقع. ففي سنة ١٩٣٤ طلب مني الجنرال «راتنهوبر» وكان يومئذ مديرا للامن، ان الفت نظر هتلر الى ان الرسميين الالمان اكتشفوا رجلا يشبهه شبهاً عظيما، وانه يمكن ان يحل محله في بعض الظروف والأحوال.. وقد تحدثت بهذا الى هتلر ونحن جالسان الى مائدة الطعام... فطفق يضحك وقال. «انا لست ستالين لكي يكون لي شبيه.. وما كنت بحاجة الى من ينوب عني على هذه الصورة».

وقد قلت للضابط المحقق ان يسأل الجنرال «راتنهوبر» الذي لا بد انه دون عنده، عنوان ذلك الرجل الذي يشبه هتلر، وهو ربما لا يزال يعرف اين يمكن ان يجدوه.

***

وفي الغداة امرونا ان نحمل متاعنا واشياءنا، ثم حشرونا في قطار صغير انطلق بنا غربا، وقد ادركنا اتجاه القطار وفقا لوضع الشمس. ودامت رحلتنا تسعة ايام ولا طعام لنا، كل يوم، غير القليل من ماء عكر كانوا يغترفونه لنا من مياه القاطرة، ونصف سمكة من الفسيخ المملح بكثرة و٤٥٠ غراما من الخبز..

وهكذا وصل بنا القطار الى برلين ونحن انصاف اموات! وقد كنا نزعم اننا نعلم، بالاختبار والتمرس، كيف يكون السجن الرهيب، غير ان سجن «ليختنبرغ» الذي نزلنا فيه في برلين قد اقنعنا باننا كنا واهمين. فان سوء هذا السجن نسخ من اذهاننا كل صورة لاي سجن رهيب غيره...، وحسبك ان تعلم ان البحارة الاشداء الغلاظ القلوب كانوا هم الذين يهيمنون عليه دون ما رحمة!

والواقع انه لم يؤت بنا الى هذا السجن في عاصمتنا برلين، الا لكي نذوق

الواناً جديدة من العذاب والضرب.

وبعد انقضاء نحو شهر تذكر احدهم اننا نرسف في ذلك السجن، وجاء ضابط كنت قد عرفته في موسكو فاستجوبني من جديد، وقال لي ان جثتي هتلر وايفا براون قد حفظتا واني سأطالب بالتعرف عليهما..

ووجدت في السجن محارباً قديماً في حركة المقاومة السرية وكان يعمل في شؤون التدفئة المركزية في السجن، فقال لي انه حضر عملية استخراج جميع الجثث التي دفنت في فناء المستشارية، وقد رأى جثتين محترقتين نصف احتراق، كما شاهد في الوقت نفسه جثث افراد اسرة الزعيم النازي «غوبلز». وقد كانت الجثتان المحترقتان نصف احتراق هما اللتان احتفظ بهما الروس...

وبالنسبة لي أنا فاني لم أر هذه الجثث قط، غير انني مثلت أمام ضابط برتبة كولونيل. وبعد أن راجع تصريحاً للمفتش (هونياك) يقول فيه انني قد حضرت، شخصياً، حرق جثة هتلر، سألني عما إذا كان الرجل الذي تحدثت إليه هو هتلر نفسه وليس شبيهه.

وقلت للضابط الكولونيل: «لقد وجدت مع هتلر مئات المرات. وتناولت الطعام على مائدته مرات لا تحصى، وأنا أعرف طريقته في الحديث وهو خليط من اللهجة النمساوية واللهجة البافارية، ولذلك فمن المستحيل أن يختلط علي الأمر من شبيه له.»

وقد وقعت على افادتي هذه.. ثم أعادوني.. أعادوني إلى موسكو.

- ٧ -

سررنا جداً لرجوعنا من برلين من سجن «بورديكا» في روسيا، وقد يصعب

تصديق ذلك، غير أن تلك الرحلة إلى برلين كانت قد أنهكت آخر ما تبقى من قوانا. وبعد انقضاء بضعة أيام علمت اننا سننقل إلى أحد المعتقلات، وخيل إلينا أن مشروع هذا النقل يبتسم لنا كأنه وعد بالحرية. لا شك في اننا سنكون سجناء غير طليقين في ذلك المعتقل إلا اننا سنجد ثمة رجالاً آخرين وستبدو الحياة لنا أكثر اشراقاً وسطوعاً.

ولكن وأسفاه فان شيئاً من هذا لم يحدث، وقد انقضت سنة كاملة تذكرني بعدها، الجنرال الروسي «كابولوف»، وقد بدا لي في أول سؤال وجهه إلي غير معقول وغير متوقع، إلا أنه دل تماماً على العقلية الروسية، فقد قال لي:

- وأخيراً هل تريد أن تتكلم؟

غير أن جوابي كان هو الجواب نفسه في كل المرات السابقة. وبدا له هو أيضاً، هذا الجواب غير معقول وغير مصدق! وأخيراً عاد يقول:

ستبقى هنا سنتين أخريين، ثلاث سنوات، خمساً، وحتى عشر سنوات إلى أن ترى أنه قد آن الأوان لكي تحدثنا بما تعرف من أمر هتلر، وهذا هو بالضبط، ما نريد أن نعرفه.

* * *

يقع أحد أحواض الفحم في جنوب موسكو، وكانت مدينة «ستالينوغورسك» هي مركز ذلك الحوض، وتبعد عن العاصمة نحواً من ١٧٠ كيلومتراً. وقد أقيمت حول هذه المدينة معتقلات عديدة.. لسجناء من الروس، إلا أن عدد هذه المعتقلات بلغ ما بين سنة ١٩٤٥ وسنة ١٩٥٠ ستة عشر معتقلاً للأسرى الألمان، وكان يخرج منها، كل يوم، الألوف من أولئك الأسرى لكي يعملوا في مناجم الفحم.

وذات صباح وجدت نفسي قد انتقلت إلى تلك المدينة - ستالينوغورسك - بعد رحلة ليلية شاقة في قطار خاص بالمساجين.

وقد ذهبوا بي، حال وصولي، إلى عمارة «الادارة المركزية». وفي الغداة نقلتني سيارة شحن إلى المعتقل رقم (٣٠)، وهناك فحصني الطبيب ووجدني في حالة يرثى لها من قلة التغذية فارسل بي إلى المحجر الصحي، وقيل لي أنه يجب أن أقضي فيه اسبوعين أستطيع في اثنائهما أن أقرأ أو أن أفعل شيئاً آخر إلا أنني لا أستطيع أن أتحدث إلى أي مخلوق في المعتقل سوى الموجودين معي في المحجر الصحي.

وطلبت الصحف اليومية فجاؤوني بها، ولأول مرة، بعد نحو أربع سنوات، استطعت أن أقرأ أنباء عن المانيا بلادي وان تكن أنباء قد مرت بالمراقبة في المنطقة الشرقية.

وقد انتشر نبأ وصولي بسرعة، وكنت أشاهد أشباحاً تقترب من نافذتي إذا ما انسحب الرقباء الروس، وقد تبين لي انني أعرف عدداً طيباً من أولئك الأشخاص الذين كانوا يقتربون من نافذتي. واذن فها هم مواطنون المان أجدهم من حولي، وغدوت أستطيع التحدث بلغتي. أجل ولقد أصبحت أملك سريراً خاصاً بي، ونافذة يمكنني أن أفتحها وأرى من خلالها الأشجار، والأغصان، والورق الأخضر، والعشب.

ولأول مرة، منذ شهر ايار سنة ١٩٤٥، وجدتني، أجل، وجدتني سعيداً.

وقد أزعجت الرفاق ساقي المبتورة، فاستدعوا نجاراً صنع لي في غضون خمسة عشر يوماً ساقاً من خشب.. وقد قدمت لي هذه الساق خدمات جلى. إذ أتاحت لي أن أستغني عن عكازي الاثنين واتخذ بدلاً منهما عصا بسيطة، كما أتاحت لي أن أعود فأستعمل يدي لما وجدنا له من وجوه الاستعمال المعتاد.

- ٨ -

كان الروس قد أعلنوا أن سنة ١٩٤٩ ستكون هي سنة اطلاق سراح الأسرى واعادتهم إلى أوطانهم. ولكن هذه السنة شارفت على نهايتها دون أن يطلق سراحي. وقد أصابني الهم لذلك وغدوت ثائر الأعصاب متوتر الحس، ولكن سرعان ما انقشع هذا الغم عن قلبي عندما قيل لي ما يلي:- ستدخل المستشفى أولاً، يجري عليك الفحص والتأكد من سلامة صحتك، ثم نعيدك إلى وطنك مع آخر دفعة من الأسرى العائدين...

وقد جمع الروس كل من كانت حالتهم شبيهة بحالي في مدينة «سالينوغورسك» ثم أرسلونا جميعاً إلى موسكو.

واتضح أنه لا بد من اجراء عملية لي، غير انني رفضت بشدة، فتقرر تحسين حالتي الصحية مؤقتاً على أن يتاح لي، فيما بعد، اجراء العملية النهائية في المانيا.

غير أن الروس لم يعيدرني إلى المانيا. وبعد اقامة قصيرة في المستشفى المركزي في «لوبلينو» نقلوني من جديد إلى «ستالينوغورسك» حيث وضعوني في عيادة المعتقل رقم (٢).

وفي شهر ديسمبر -كانون الأول- غادرتنا الدفعة الأخيرة من الأسرى المسرحين، وبقي منا عدد قليل ممن لم تصدر في حقهم أحكام بعد. إلا أنه في شهر يناير -كانون الثاني- تضخم عددنا بمن خرجوا من الحبوس ليصبحوا، حسب قولنا، «سجناء الحرب الطلقاء»..

وفي تلك الأثناء فتحت أبواب سجن «لوبليانكا» وسجن «بوريكا» وأبواب العديد من السجون والحبوس. وقد قيل أنه كان قد ارتكب خطأ فادح،

والشبيبة السوفياتية التي آل إليها النفوذ لا تجد ما يعيبها في الاعتراف بهذا الخطأ، ولذلك فقد تقرر انه لن تجري، في المستقبل، أحكام جماعية على هذا النحو.

وأبينا أن نصدق هذه الأقوال ومع ذلك، فان شيئاً من الأمل أضاء زاوية في قلوبنا، فاستسلمنا له، وهكذا نامت الهموم والمخاوف، ولم يحتفظ بالاحتراس والتوجس إلا عدد قليل منا، والعجيب أنهم هم الذين كانوا على حق!

جاء الكولونيل «سيترين»، من وزارة الداخلية السوفياتية، يعدنا من جديد العودة إلى الوطن... إلا أنه في مساء اليوم نفسه، بدأت عملية الاختيار والانتخاب، ففي يومي ٣٠ و٣١ آذار واليوم الأول من شهر نيسان أعيد حوالي نصفنا إلى سجون قريبة أو بعيدة، ولما نقلت من رفاقنا ثلاث دفعات إلى سجون مختلفة -وقد كنا نعلم هذا على الرغم من التأكيدات المناقضة- حسبنا أن قسماً منا سيطلق سراحه حقاً ويعاد إلى وطنه... وعندئذ جاء الكولونيل ستيرن ليراني مرة أخرى، وقال لي:

- انك، يا سيد باور، جنرال. وبموجب أمر أصدره «ستالين» فان الجنرالات والقواد يجب أن لا يعادوا إلى وطنهم في القطارات التي تحمل الحيوانات عادة. ولذلك فانك ستسافر في قطار نظيف من قطارات الركاب، فأعد متاعك وحوائجك الشخصية، وليس أمامك أكثر من خمس دقائق، وسنذهب أولاً إلى موسكو، ثم إلى «كراسنوغورسك» وفي اليوم الثاني عشر من شهر نيسان تكون، على الأرجح، في طريقك إلى المانيا.

- ٩ -

ولم يبارح القطار «ستالينوغورسك» في الساعة الخامسة بعد الظهر، كما أعلن ذلك، وإنما هو غادرها في الواحدة بعد منتصف الليل، وقد تشاءمت جداً

ورحت أتوقع أن أجد نفسي، من جديد، أمام أبواب أحد السجون في موسكو.

ومع ذلك فينبغي أن أكون صادقاً، ذلك اني ما أن رأيت لدى وصول القطار إلى موسكو، سيارة ذات ستة مقاعد، حتى راودني الأمل لحظة بأن الأسر قد انتهى بالنسبة لي أنا أيضاً.

وقد درجت بي السيارة نحواً من نصف ساعة في أرجاء المدينة، ثم توقفت.. أمام ذلك الباب الذي أعرفه كل المعرفة ومع ذلك أبغضه كل البغض: باب سجن «بورديكا»!

ولقد ذهبوا بي إلى البرج الذي يسجنون فيه الأسرى الذين يدخرون لهم المزيد من التهم وسوء الحال والعذاب.. واستطعت أن أعرف عن طريق هيئة استعلام نظمناها ولعب فيها ذهابنا إلى مرافق السجن وعودتنا منها دوراً مهماً اننا كنا في ذلك البرج نحو خمسة وستين جنرالاً المانياً. وقد بقينا في وضعنا هذا في البرج المذكور شهرين كاملين. وبدا لنا كأنما هم قد نسونا من جديد!

غير أن دولاب الاستجواب القديم لم يلبث أن عاد يعمل من جديد، مع اضافات أخرى هذه المرة. فقد جاء أحد الضباط وسألني عما إذا كنت قد ذهبت عند (موسوليني) مع هتلر.. واحترت ولم أجد لهذا السؤال أي رابط أو صلة بينه وبين الأسئلة السابقة التي وجهت إلي حول تهريبي لهتلر على متن احدى الطائرات.. وأجبت الضابط، بكل صراحة، انني ذهبت أربع مرات مع هتلر في زيارة موسوليني.. واكتفى الضابط بهذا الجواب وأعادني إلى مكاني في السجن.

وبعد مضي ثلاثة أسابيع وجهت إلي لائحة الاتهام التالية:

«بما أنك ذهبت لزيارة موسوليني عدة مرات بصحبة هتلر فأنت متهم بالاعداد للحرب، إذ أنه في أثناء المحادثات بين موسوليني وهتلر قد وضعت

خطة الاعتداء على الاتحاد السوفياتي.»

وانه والله لمنطق ساخر كنت أرى آثاره فيما ارتسم من تعبير على وجوه الذين كانوا يحيطون بي...

وقلت للمترجم الذي كان يقوم بمهمة الترجمة بيني وبين من وجهوا إلي هذا الاتهام انني، فعلاً، كنت قد ذهبت مع هتلر عند موسوليني في سنتي ١٩٣٣ و١٩٣٤، وسنة ١٩٣٧، وسنة ١٩٤٣، وكما يتضح من هذه التواريخ فقد كانت المرات الثلاث الأولى قبل ابتداء الحرب مع روسيا بزمن كبير، والمرة الرابعة الأخيرة كانت بعد مرور سنتين في هذه الحرب..

ومن ناحية أخرى فقد كنت قائد طيارة وحسب، ولم يتح لي قط أن أحضر اجتماعات موسوليني وهتلر أو أستمع إلى محادثاتهما ومفاوضاتهما..

وكان في جواب المترجم من المنطق الرائع ما كان من منطق ساخر في لائحة الاتهام. فقد قال:

– ليس من شأننا هنا أن نناقش في هذا، وسوف يتاح لك أن تشرح ما تريده أمام المحكمة.

- ١٠ -

بعد أن غادرت سجن «بوروديكا» ذهبوا بي إلى احدى بنايات وزارة الداخلية وقد جهدوا كثيراً في اضفاء حلة من المهابة على تلك المهزلة.. وكان يجلس في مكان الرئاسة أحد الجنرالات الروس يحيط به عن يمين وعن شمال ضابطان كبيران وفي سبيل مزيد من التعمية والتمثيل أضافوا إلى هذه الهيئة ترجمانة وكاتباً.

وكان أول ما قلته لهذه المحكمة انني أعدت ما سبق وأدليت به سابقاً عندما

ووجهت بالاتهامات التي كانت معدة لي. ثم قلت للجنرال رئيس هذه المحكمة أنه كان يجب أن يأتي أيضاً بالميكانيكي سائق القطار الذي أقل هتلر وموسوليني إلى «برينر»، وهو القطار الذي أجريا فيه محادثاتهما النهائية الحاسمة.. أليس هذا حقاً؟ وأي فرق بين من يقود طائرة فيكون مسؤولاً وبين سائق قطار فلا يكون مسؤولاً كذلك؟

لقد أرضاني على الأقل أن كلماتي هذه خلقت جواً من الصمت العميق. وأنا لم أدر في أي اتجاه اتجهت أفكار أعضاء هذه المحكمة في أثناء هذا الصمت الطويل غير اني أحسب أنهم كانوا آسفين لصورة الحكم المعدة ضدي مسبقاً والموضوعة في أحد الأدراج أمامهم. أو تراهم كانوا يفكرون بأن يتحدوني قائلين بأن محادثات هتلر وموسوليني قد جرت في طائرتي وليس في قطار؟!

وأخيراً قرر الجنرال الخروج من نطاق هذا الصمت المطبق المليء بالمهابة واستنكف عن ابداء أية ملاحظة حول موضوع القطار، وأمر باخراجي من القاعة.

وبعد ربع ساعة أعادوني ثانية أمام المحكمة التي يرأسها الجنرال الروسي. وفي هذه المرة لم يشيروا إلى محادثات هتلر وموسوليني غير أن أولئك الأشخاص الطيبين أعضاء المحكمة قد وجدوا موضوعاً آخر جديداً فقال الجنرال:

– هل أتيت، مع هتلر، إلى روسيا؟

وأجبت أنا على الفور:

– أجل. وفي مرات عديدة. وقد استقرت قيادتنا العليا، عدة أشهر في «فينيتزا» بـ «اوكرانيا».

وعاد يسألني:

- وإلى أي مكان آخر ذهبت في روسيا؟

فقلت:

- ذهبت تقريباً إلى جميع الأمكنة التي جرت فيها أحداث عسكرية مهمة كمنطقة «لينغراد»، و«سمولانسك»، و«زابوروجيه»، ومواقع أخرى مختلفة في اوكرانيا، والقرم وغيرهما..

وبدت على الجنرال سيماء الرضا لأقوالي هذه. وقيل لي أن في وسعي أن أنسحب، وأن المحكمة ستختلي للتداول، وعلى أي حال فقد مضت ساعة ونصف الساعة قبل مثولي من جديد أمام المحكمة لاستماع الحكم، وهذا نصه:

- حيث أنك ذهبت إلى عدة مدن روسية مع هتلر، وحيث أنك، بهذا، قد اشتركت في تدبير الجرائم التي ارتكبت ضد المواطنين السوفيات وأسرى الحرب فاننا نعلن أنك مذنب، ونحكم عليك بالاقامة خمساً وعشرين سنة في معتقلات الاصلاح عن طريق العمل.

- ١١ -

وفي يوم ١٥ تموز سنة ١٩٥٠ انفتحت أبواب سجن، «بورديكا» فخرجنا منها إلى حيث نقلنا إلى سجن «كراسنوغورسك» قرب مطار «توشيتو» في جوار موسكو. ومع الأيام تجمع مئات المحكومين الذين نقلوا من جميع السجون الممكنة. وكل من أولئك المحكومين خرج من المحاكمة بنصيبه المقرر وهو خمسة وعشرون عاماً من الأشغال الشاقة في المعتقلات.

وبالنسبة لي فان سيارة السجن حملتني حتى مدخل المعتقل في ليلة اليوم الأول من شهر آب، غير أن المسؤولين في أحد معتقلي «يوروفتش» أبوا قبولي

زاعمين أنهم تلقوا أوامر بعدم قبول المحكومين. فما العمل اذن؟ فتم الاتصال هاتفياً بموسكو بعد بضع ساعات من الانتظار المرير، ودار نقاش طويل بين مدير المعتقل وبين المسؤول المتحدث في الهاتف، واستطاع المدير في النهاية أن يفرض وجهة نظره، فاضطر حارسي أن يذهب بي بعيداً، إلى المعتقل الآخر.

وقد كان في «بوروفتش»، كما قلت معتقلان للأسرى الالمان. فدخلت أحدهما سعيداً بأن أجد نفسي بين المواطنين الالمان، ولم تكن ثمة على أحسن ما تروم، إلا أنه كان خيراً من السجن.

* * *

وفي شهر تموز سنة ١٩٥١ أضاء قلوبنا الأمل، ثم عاد فانطفأ وشيكاً، كما حدث في جميع المرات السابقة. إن كل استعدادات الرحيل التي كنا نراها لم يكن القصد منها اعادتنا إلى أرطاننا، وإنما نقلنا إلى مكان آخر. وقد تم هذا فعلاً، فذهبوا بنا نحو مكان أكثر ايغالاً إلى الشرق.

وأحب هنا أن أصور كيف يجري نقل الأسرى بصورته الطبيعية في روسيا. وهذا النقل لا يستطيع القلم وصفه لقسوته، وأسوأ منه بكثير نقل المحكومين بخمسة وعشرين عاماً، ويطلقون عليه اسم النقل بالمطارق «لأن حراس القطار لا ينفكون، في الصباح وفي المساء، يقرعون حواجز القطار بعصي غليظة طويلة لكي يتأكدوا من أن الأسرى لم يحدثوا في خشب هذه الحواجز ما يمكنهم من الهرب... وهذه ولا ريب تجربة من أشد التجارب هولاً يمكن أن يتعرض لها الأسير في حياته. وكان هذا يبدأ منذ لحظة المناداة: فيشرع الحرس بترويع الأسرى ودحرهم من طرف إلى آخر في القطار ضرباً بقبضاتهم وركلاً بأقدامهم، وهم ينعمون بسرور وحشي خارق أن يعنفوا أشد العنف بأكثر الأسرى عجزاً في الحركة وفي الوقت نفسه يبصقون في وجوهنا سيلاً من الشتائم والكلمات والعبارات

البذيئة القذرة...

وتكون أبواب القطار مغلقة اغلاقاً محكماً. ولا يسع الأسير أن يرتاح ويتمدد إلا فترة وجيزة جداً، لشدة ما يعاني من ألم مبرح في أعضاء جسمه جميعاً. أما الماء فان أوعيته ناضبة، ويستطيع الأسرى في المحطات التي يقف فيها القطار لحظات محدودة أن يحصلوا على الماء أو ان الحرس لا يسمحون لهم.

- ١٢ -

وأخيراً توقف القطار الذي كان يقلنا في «بيرفو اورالسك» حيث يبدو أن أخطر مجرمي الحرب في العالم أجمع قد تقررت اقامتهم في هذا المعتقل.

وفي هذا المعتقل أصبحت خياطاً أقوم بصنع القفازات.. وكنت أنجز منها مئات الأزواج دون أن أنال أقل مكافأة مهما ضؤلت.. بل على نقيض هذا فقد بدا لبعضهم أن انتاجي غير كاف ولم يرض به الروس. وسألني قائد المعتقل كم من الساعات أعمل كل يوم. وأجبت انني أعمل أربع ساعات وذلك نزولاً على ما أوصت به الطبيبة التي فحصتني.. وقدر قائد المعتقل أن هذه المدة يمكن أن تضاعف، ثم أن صنع القفازات بحد ذاته ليس بعمل ذي بال. وأجبت قائد المعتقل قائلاً:

- لقد حكم علي بالعمل أربع ساعات كل يوم فقط. ولست أنوي أبداً أن أعمل أكثر من هذا. وانه فيه الكفاية لي.

وعلى الفور اتخذ القائد قراراً حاسماً لا رجعة فيه، وهو اني سأوضع، في أثناء خمسة الأيام المقبلة، في زنزانة مخيفة إذا لم أقبل بالعمل ثماني ساعات يومياً بدلاً من أربع. وبهذا انتهت المحادثة، وتسلم الديدبان رقعة صغيرة

واستاقني أمامه. وقد وضعوني بعد هذا في زنزانة من الاسمنت المسلح مساحة ١,٨٠ سنتمتراً طولاً و٠,٢٠ ,١ سنتمتراً عرضاً... وبسبب ساقي المبتورة فـ أعطيت موطئاً صغيراً لقدمي... ولقد بقيت ثمة خمسة أيام طوال...

* * *

كنت قد أمضيت في المعتقل نحواً من ثمانية عشر شهراً، عندما ناداني أ. الجنود القائمين على الخدمة وسلمني أمراً باعداد حقائبي.. وبعد ساعتين وقفـ في سيارة السجن أمام مدخل معتقل آخر.

وكان هذا المعتقل يقع على مبعدة عشرين كيلومتراً من المعتقل السابق وكانوا يطلقون عليه اسم «معتقل النمساويين» وقد كان يضم، بالفعل، نحواً مر أربعمئة أسير نمساوي، ومئتي أسير الماني وثلاثين اسبانياً.. وقد وجدت في هذ المعتقل حشداً من المعارف والأصدقاء.

وفي سنة ١٩٥٣ عاودنا الأمل. وكانت قد جرت مفاوضات بين «غروتوهل والحكومة الروسية في موسكو. وكتبت الصحف السوفياتية تقول أن الأسرى سيطلق سراحهم ويعادوا إلى أوطانهم، باستثناء أولئك الذين ارتكبوا جرائم ذات خطورة بوجه خاص.

وفي خريف وشتاء سنة ١٩٥٣ أعيد الألوف من الأسرى إلى بلادهم، واستطاعوا أن ينقلوا إلى ذوينا وأهلنا بعض أنبائنا، ثم ارتحل الآخرون من بقية الأسرى في شهر كانون الأول من السنة نفسها.

وفي يوم ١٥ شباط سنة ١٩٥٤ نقل جميع الجنرالات الذين كانوا في المعتقلات المجاورة إلى معتقلنا نحن، وبعد بضعة أيام نقلنا، وكان عددنا نحواً من ثلاثين جنرالاً، إلى «فولكوفو» وهي تقع على مسافة ثلاثمئة كيلومتر إلى

القرب من موسكو، حيث وجد دائماً معتقل خاص بالجنرالات، ومع ذلك فان الروس، وفقاً لأسلوب خاص يحبونه فقد كانوا يأخذون منه الأشخاص الذين لا ينالون رضاهم فيرسلون بهم إلى مكان آخر.

- ١٣ -

عادت آمالنا فانتعشت في ربيع سنة ١٩٥٤، غير أنها سرعان ما تلاشت هذه المرة أيضاً. وقد أقبل الخريف وأعقبه الشتاء، ثم ابتدأت سنة ١٩٥٥ كسابقاتها وكما يمكن أن تكون السنوات الأخرى المقبلة: آمال جديدة، انتظار وقلق، ضروب من الشك، تأرجح مستمر ومنهك للقوى، ثم دقت ساعة الخلاص الحاسمة على غير انتظار أو تصديق من أحدا

في تلك الحقبة جاء إلى موسكو المستشار الالماني «اديناور»، وعلى اثر ذلك انتشرت الاشاعات قوية، بل أقوى من أي وقت مضى، وقفزت معنوياتنا، في أحيان قصيرة، من الصفر إلى درجة الغليان إلى الصفر...

وقد تتبعنا المفاوضات بلهفة شديدة وفي هذه الأثناء أحسسنا باحترام الروس للموقف القوي الراسخ الذي لا يمازجه الخوف لبعثة المفاوضات الالمانية.

وبعد هذا ظهر فجأة ثلاثة من الجنرالات الروس في معتقلنا بـ «فولكوفو» وقد استدعوا رئيسنا الجنرال الالماني «ماينرث» وقالوا له أنهم يريدون الدعوة إلى ما سموه «اجتماع العودة إلى الوطن».. وقيل له أن روسيا والمانيا ستأخذان، منذ الآن، بأسباب صداقة ودية فتتبادلان السفراء والتمثيل السياسي، وبهذا تصبح طريق العودة إلى الوطن حرة وخالية.. وعلى الجنرال «ماينرث» أن يسهل مهمة هذه اللجنة الثلاثية، التي جاءت لوداع الأسرى في معتقل «فولكوفو» بحيث يفترق الجميع لا كأعداء وانما، كأصدقاء أوداء!..

وقد تلقينا هذا النبأ بقلوب منشرحة، وتناسينا كل الاساءات.. وقد تم انعقاد الاجتماع المنشود، فألقى أحد الجنرالات الروس الثلاثة خطاباً طويلاً عرض فيه الحوادث والأحداث الأخيرة، ثم أعلمنا أننا قد أصبحنا، منذ هذه اللحظة، مواطنين أحراراً.

وقد توزعنا إلى فئات، كل فئة مكونة من ٣٢ رجلاً يجب أن يرحلوا في غضون اسبوع. وقد علمنا كذلك أن الروس سيعدون لنا ملابس جديدة لائقة.

وقد رد على خطاب الجنرال الروسي أكبرنا سناً ببضع كلمات، ثم سرعان ما خلا المكان، وقد بهت الجنرالات الروس وقالوا لزميلنا الجنرال «ماينرث» انهم لا يتوقعون أن يفترقوا عنا على هذه الصورة، وإنما هم يريدون أن يدعونا إلى مأدبة وداعية.. وعبر الجنرال ماينرث عن بعض الاعتراضات، ثم تقرر أن نكون نحن أصحاب المأدبة الذين يدعون الروس، لا هم.. وقد سر هذا الاقتراح لجنة الجنرالات الروس غير أنهم اشترطوا لذلك أن يقدموا هم لوازم المأدبة والطعام والشراب والخدم.

وجاءت سيارات النقل الكبيرة تحمل الأقداح والأوعية، وأدوات المائدة، وكل شيء حتى الطهاة والطباخين.

وقد جلس في قاعة الطعام الجنرالات الروس الثلاثة، ومدير معتقلنا، وزميلنا الجنرال ماينرث، وبعض أشخاص آخرين منا نحن الأسرى، أما الباقون من الأسرى فقد احتلوا قاعة المطالعة دون أن يكون معهم شخص روسي وقد امتلأت الموائد بزجاجات الجعة، والنبيذ، والشمبانيا، والفودكا، والحساء، واللحوم، والحلويات والقهوة... كان كل شيء موجوداً وبوفرة..

وأنا لا أذكر هذا كله لأقول اننا، نحن المقصودين بالتكريم، قد علقنا أية أهمية أو اننا اعتبرنا هذه المأدبة تكريماً لنا، ولكن لكي أقول، بكل بساطة، أن

كل شيء ممكن في روسيا.

ثم أعطونا الملابس الجديدة اللائقة التي وعدونا بها، وذهبت، مع فريق الأسرى الثالث، إلى «ايفانورو» ومنها إلى موسكو، وكان الروس في موسكو قد أعدوا لنا مفاجأة جديدة: القيام برحلة في السيارة خلال المدينة.. وهكذا شاهدنا «الكرملين» وذهبنا إلى «جامعة لومونوسوف» التي أدهشتنا بضخامتها. ثم التقينا في المحطة في تمام الساعة الثانية بعد الظهر.

وقد تناولنا طعام الغداء في مطعم القطار فلم ندفع شيئاً سوى ثمن الخمر، ووصل بنا القطار «بريست ليتوفسك» حيث توقفت بضع ساعات.. وانتقلنا، من بعد، إلى قطار آخر انطلق بنا إلى «فرانكفورت سور اودر».. أجل لقد دخلنا أخيراً بلادنا: المانيا..

جاسوس بخمسة أسماء

بين نيويورك وموسكو - ترجمة: محمود سيف الدين الايراني

لم ينس أحد بعد حادثة الطيار الأميركي العاثر الحظ «فرنسيس غاري بوارز» الذي وقع، في سنة ١٩٦٠، هو وطائرته «U-٢» في ايدي الروس. وقد كان لهذا الحادث يومئذ صدى كبير في الصحافة العالمية وشغلت الرأي العالمي زمناً طويلاً. وفي سنة ١٩٦٢ أفرجت السلطات الروسية عن الطيار الأميركي المذكور عن طريق التبادل، أي أن الولايات المتحدة أفرجت هي الأخرى عن «رودولف آبل» مقابل الافراج عن فرنسيس غاري بوارز. و«آبل» هذا كان أخطر وأمهر جاسوس روسي، وقد جعل مسرح أعماله في الولايات المتحدة، وأقام شبكته التجسسية فيما بين نيويورك وموسكو. وهذه المسلسلة تروي قصة هذا الجاسوس الخطير.

«المؤلف»

- ١ -

في الساعة السابعة من صباح يوم ٢١ حزيران سنة ١٩٥٧، دخل ثلاثة من رجال دوائر الاستخبارات الأميركية المعروفة بـ «اف.بي.آي» قاعة فندق «لاثام» رقم: في الشارع الثامن والعشرين إلى الشرق من نيويورك... ثم ركبوا المصعد إلى الطابق الثامن، وطرقوا باب الغرفة رقم ٨٣٩، وكان الشخص الذي يقيم فيها

يدعى «مارتن كولينز» حسبما سجل اسمه في سجل الفندق...

وكولينز هذا رجل منيف القامة، متوسط العمر، أنيق المظهر، ولكنها أناقة رخيصة تدلّ على أن صاحبها من أولئك النزلاء الكثيرين الذين يقيمون في فنادق من الدرجة الثالثة، ويدفع الواحد منهم تسعة وعشرين دولاراً في الاسبوع أجراً لغرفته...

وما أن سمع كولينز طرق أولئك الرجال على باب غرفته حتى راح يخاطبهم بصوت خافت مكتوم ويرجوهم أن يتمهلوا لحظة.. وكان كولينز ساعتئذ شبه عار بسبب حر حزيران الشديد الذي جاوز الثلاثين درجة في الظل.. ثم شق الباب قليلاً وهو يستر عريه بيده.

غير أن رجال الاستخبارات الأميركية اقتحموا عليه الغرفة اقتحاماً، وأذنوا له أن يرتدي، على عجل ما يستر به عورته.. ولاحظ أحد أولئك الرجال أسناناً مستعارة على حافة المغسلة فتناولها ومد بها يده إلى كولينز..

ثم قال له رجل آخر من رجال الاستخبارات:

– اننا نأمل في أن تتعاون معنا، يا «كولونيل»..

ولم يبد على كولينز أنه أخذ على غرة من أمره وهو يسمع رجل الاستخبارات يناديه بذلك اللقب الكبير.. وسألوه، بعد هذا، عما إذا كان قد استأجر مرسم فنان في «بروكلين» مستعيراً اسماً آخر هو «اميلي غولدفوس».. فأجاب بالايجاب بحركة واهنة من رأسه..

* * *

وفي الساعة السابعة والنصف دخل الغرفة رقم ٨٣٩ مفتش دوائر الهجرة

«روبرت شونبرجر»، وسأل كولينز عن اسم ثالث له:

- هل دخلت الولايات المتحدة آتياً من كندا سنة ١٩٤٨ وأنت تحمل اسم «آندرو كايوتيس»؟

فاعترف كولينز بذلك.. وعندئذ أبلغه رجال الاستخبارات الأميركية أنه، منذ هذه اللحظة، قد ألقي عليه القبض رسمياً بتهمة دخوله البلاد بصورة غير شرعية.

ثم تابعوا استجوابه لكي يعترف بما لا يجهلونه من أمره، أي أنه - تحت هذه الأسماء المستعارة الزائفة - هو في الواقع «رودولف ايفانوفتش آبل» وانه ذو رتبة عالية في «كوميسبرية» أمن الأرض الروسية.. وهي منظمة لم يعرف عنها أنها توزع الألقاب والرتب اعتباطاً..

- ٢ -

وقد علمت دوائر الاستخبارات الأميركية، فيما بعد، أن الرتبة العسكرية كانت صحيحة، ولكن اسم «آبل» كان، بكل بساطة، اسماً حربياً آخر، وكان قد اصطنع في سنوات العشرين ليتخفى به كثير من عملاء الروس في فرنسا.

وقد كان زملاء آبل يعرفونه باسم آخر هو «مارك» الاسم المخصص للمخابرات السرية. أما اسمه الحقيقي فلم يعرفه أحد حتى اليوم.

وفي هذه اللحظة، في غرفة الفندق، كان: مارتن كولينز، أو اميل غولدفوس، أو اندرو كايوتيس، أو الكولونيل آبل، أو مارك.. جالساً على حافة سريره وكوعاه الاثنان فوق ركبتيه ورأسه بين راحتي يديه.. وكان من العسير أن يتصوره المرء مرتدياً بزته العسكرية الخشنة المزدانة بالأوسمة والشارات الذهبية، مما يرتديه الضباط الروس...

ومع ذلك، وفي عشر سنوات أو ما يقارب هذا العدد، من العمل الخفي المتواصل كعميل روسي من كبار العملاء في الولايات المتحدة: من كان يأنس في نفسه الشجاعة ليزعم أن هذا العميل المحنك، الداهية، لم يحز رتبته العالية دون جدارة أو استحقاق؟!

وقد كان مما أقر به رجال الاستخبارات الأميركية أن آبل كان أهم وأخطر جاسوس استطاعوا القبض عليه...

كان آبل يحمل لقب العميل السوفياتي «المقيم»، وله في مدينة نيويورك مركز قيادة عامة.. غير أن الاستخبارات الأميركية أصبحت تعتقد اليوم أن نشاطه ومهامه كانت تتعدى نيويورك نفسها، وانه كان في الواقع عميلاً «مقيماً» لأميركا الشمالية كلها، وحتى المكسيك وأميركا الوسطى... وهو، بهذه الصفة، كان رئيساً لشبكة ضخمة من أعمال التجسس الروسية.

ويبدا على آبل أنه قد تقبل القاء القبض عليه كأنما هو كان قد عاش، في عالم الفكر، هذه اللحظة نفسها، لحظة القبض عليه.. وكان مرتاح الضمير تماماً، لأنه يعلم أن اكتشاف أمره - باعتباره ممتهناً للتجسس ومختصاً به اختصاص من يكره العمل غير الدقيق وغير المحكم - لا يعود إلى خطأ ارتكبه أو اهمال بدر منه.

والواقع أن دوائر الاستخبارات الأميركية توصلت إلى اكتشاف أمره، وكأنما كان ذلك معداً ومهيأ وموضوعاً على صينية جاهزة، ذلك أن أحد مساعديه المدعو «رينو هيهانن» هو الذي خانه ووشى به..

* * *

كان آبل قد انخرط في سلك الاستخبارات السرية السوفياتية سنة ١٩٢٧.

وفي سنة القاء القبض عليه (١٩٥٧) كان يحتفل بالذكرى الثلاثين لحياته كجاسوس..

قال له مفتش دائرة الهجرة الأميركية روبرت شونبرجر - انهض وارتد ثيابك.

فنهض آبل وفتح خزانة الملابس المواجهة لسريره ثم اختار حلة من نسيج «التويد» الرمادي، وفي هذه الأثناء كان رجل آخر من رجال دوائر الهجرة قد بدأ بالقاء قطع من الملابس الخاصة بآبل في احدى الحقائب، غير أنه اعترض على ذلك، وقال ان ملابسه غير مرتبة ترتيباً جيداً، وطلب أن يؤذن له أن يقوم هو باعداد حقائبه.

ولما أذن له بذلك أخذ يطوي ملابسه قبل أن يضعها في الحقيبة، وفي الوقت نفسه جعل يفرز بعض القطع وينحيها جانباً ثم يلقيها في سلة للمهملات.

- ٣ -

كانت غرفة آبل في الفندق قد انتشرت فيها أنابيب ألوان الرسم، وفرشاة هنا وأخرى هناك، وتبعثر فيها الورق والأقلام.

وكان موضوعاً فوق منضدة صغيرة قريبة من سرير النوم جهاز اذاعي من الأجهزة ذوات الموجات القصار من نوع «هاليكرافتر»، وكان سلك «الهوائي» بهذا الجهاز ممتداً على طول جدران الغرفة وخارجاً من نافذة حجرة الحمام.

وبعد أن امتلأت سلة المهملات بما ألقاه آبل فيها، وبعد أن انتهى من اعداد حقائبه، ارتدى سترة حلته، وعندئذ رآه المفتش شونبرجر يدس في كمه ورقة مطوية.. وسرعان ما فاجأه واستولى على الورقة الصغيرة المطوية عدة طيات دقيقة ولما فتحها وجد مكتوباً فيها خمس فئات من الأرقام في صفوف منتظمة..

هي في الواقع رسالة سرية لا تفك إلا بمفاتيح خاصة هي هذه الأرقام نفسها..

وبعد هذا تقدم أحد رجال الاستخبارات الأميركية فوضع القيود في يدي آبل وذهب به خارج الفندق.. أما الرجال الآخرون الذين بقوا في الغرفة، فقد راحوا يفتشون وينبشون سلة المهملات فوجدوا فيها قطعة من الخشب ملبسة بورق الزجاج.. واستطاعوا أن يفتحوا قطعة الخشب تلك فتكشف تجويف فيها عن كتاب صغير الحجم مؤلف من مئتين وخمسين صفحة، وفي كل صفحة منها كتبت فئات مؤلفة من خمسة أرقام منتظمة في صفوف متحاذية..

كان هذا الكتيب عبارة عن شبكة من الأرقام ذوات المعاني والرموز التي تستعمل في كتابة الرسائل السرية المغلقة.. وقد خصص هذا الكتيب لآبل نفسه ولاستعماله الشخصي في مخابراته السرية. وكانت الأرقام فيه مطبوعة على شكل أعمدة صغيرة ذات لونين هما الأحمر والأسود، وكانت طباعتها واضحة كل الوضوح.. ولقد كان كل من هذه الأرقام بسيطاً غير مركب ويقوم مقام الحروف في نص من النصوص... وأضيف إلى كل فئة من هذه الأرقام رقم كيفما اتفق ودون قصد معين إلا أن يضلل من تقع في يده الرسالة السرية فلا يجد في الرسالة من النظام وتوالي الأرقام بصورة معينة ما قد يعينه على فهم مضمونها.. وإذن فقد كانت هذه الطريقة غير قابلة لأن تحل رموزها وتفهم معانيها..

ووجد الرجال كذلك قلماً من أقلام الرصاص مثبتة في طرفه ممحاة، ولما عالجوه وجدوه مجوفاً يحتوي على ثمانية عشر فيلماً دقيق الحجم المعروف باسم، ميكرو فيلم، وكان أكثر هذه الأفلام الدقيقة رسائل من الكولونيل آبل إلى زوجته وابنته، وقد تبينت من أحد هذه الأفلام مواقيت الاتصال بموسكو وبث الرسائل اللاسلكية إليها.

ولقد ذهبوا بآبل من غرفة في الفندق إلى مكتب الهجرة المركزي الواقع في شارع كولمبوس رقم ٧٠، وهناك استجوب استجواباً سريعاً، وفي الساعة الرابعة والربع من بعد ظهر ذلك اليوم نفسه وضع في طيارة فأقلعت به إلى «مكالن» في ولاية تكساس لكي يجري استجوابه هناك في دوائر الهجرة.

ومع ذلك، وقبل مغادرته إلى تكساس، مثل أمام عدسات آلات تصوير أجزاء وهيئة الجسم فأخذت له الصور التقليدية اللازمة، فكيف كانت صوره تلك، وعما كشفت من هيئته؟

- ٤ -

أظهرت الصور التي أخذت له وجهاً مكدوداً صارماً شديد العبوس، وبأن شعره الخفيف الأغبر مسترسلاً حول أذنيه ورقبته، وبدا بنظرة منكسرة على أنف أقنى... ولحية لم تحلق منذ أيام يقذي العين منظرها... أما ياقة قميصه الأبيض فلم تزور على ربطة عنق معوجة...

كان المرء إذ يلقي نظرة على وجهه هنا يتبادر إلى ذهنه شكل موظف ما أرهق نفسه في العمل والعكوف عليه مدة طويلة في مكتب واحد لم يبارحه.. وقد أعادت هذه الصورة إلى الذاكرة كلمة قالها أحد الشهود وهي «أن آبل كان ذا مقدرة فذة في عدم لفت الأنظار إليه».

ولد الرجل الذي يسمى «رودولف ايفانوفتش آبل» في مدينة موسكو يوم الثاني من حزيران سنة ١٩٠٢، وكان الابن الوحيد لأسرة طيبة من روسيا الجنوبية. وقد أظهر منذ حداثته مواهب مرموقة في تعلم اللغات وقد أتقن اللغات: الانكليزية، والالمانية، والبولونية ومارس تعليمها في مدرسة ثانوية في موسكو ولم يكن، يومئذ، قد تجاوز الخامسة والعشرين من عمره.

ولما بلغ الخامسة والعشرين اتخذ أخطر قرارين في حياته: تزوج أولاً ثم انخرط فيما كان يدعى يومئذ «الغيبيو» أي البوليس السوفياتي السري. وقد عينوه في فرع التجسس الخارجي..

وفي أول الأمر أخذ يعلم اللغة الانكليزية للمرشحين للتجسس، وفي سنوات الثلاثين من هذا القرن أهلته معرفته باللغة الالمانية لأن يرسل في أولى بعثاته إلى الخارج..

وبعد الحرب العالمية الثانية ضاعف الروس من نشاط تجسسهم في البلدان الغربية، وكانت طريقهم المفضلة في ارسال جواسيسهم إلى الولايات المتحدة هي «كندا» التي لم تكن تبذل عناية كافية في مراقبة المهاجرين، وتتباهى بأنها تقبل الكثيرين منهم وتوسع لهم في رحابها على نقيض ما تفعله البلدان الأخرى..

وفي سنة ١٩٤٦، ادخل آبل إلى المانيا سراً متخفياً تحت اسم «اندرو كايونيس»، ثم انتمى إلى جماعة الأشخاص الراغبين في مغادرة وطنهم..

وبعد مدة تقدم بطلب إلى السلطات لمنحه الاذن بدخول «كندا» بصفته لاجئاً، وتم له ذلك ووصل إلى كندا سنة ١٩٤٧، وفي السنة التالية، وبفضل أوراقه التي حصل عليها من السلطات الكندية استطاع أن يدخل الولايات المتحدة.

* * *

في الامكان الترجيح أن وصوله إلى مدينة نيويورك كان في شهر حزيران سنة ١٩٥٠، وهو تاريخ أول دفعة تقدم بها إلى «صندوق التوفير» في «ايست ريفر»، وكان في تلك الأيام، يقيم في فنادق برودواي، في اتجاه الشارع الثمانين والثاني والتسعين غرباً.. وكان كثير التنقل من فندق إلى آخر.

وقد عقد صلات مع بعض الأصدقاء، وقد اختارهم بعناية تامة، فكانوا رجالاً أصغر منه سناً بسنوات عديدة، وكان معظمهم من الرسامين الفنانين مثله، وبصورة خاصة كانوا رجالاً لا يهتمون اطلاقاً، ولا يعنون بما يجري في الدنيا حولهم ومن خلال ما ترويه الصحف والمجلات...

- ٥ -

كانت هذه هي خطته: أن يتابع نشاطه في التجسس ويمارس أعماله الخفية السرية بصبر عظيم خارج مظاهر حياته الاجتماعية.. إلا أنه رأى، في سنة ١٩٥٢، أنه أصبح في حاجة إلى مساعد، فأرسل إلى موسكو يطلب أن يرسلوا إليه أحداً ما.

وراح المسؤولون في دوائر البوليس السري السوفياتي يدرسون قوائم جواسيسهم الذين أرسلوا بهم إلى البلدان المحايدة في اوروبا لمثل هذا الغرض، فاختاروا المدعو «رينو هايهانن»، وهو شاب في الثانية والثلاثين من عمره، برتبة ملازم أول في دوائر البوليس السري..

وكان «هايهانن» من مواليد مدينة «لينتفراد» من أبوين فلاحين، وقد علمته الحكومة على نفقتها وخصصت له اللغة «الفنلندية» كلغة ثانية بعد الروسية.. وقد بعثوا به إلى «فنلندا» لكي يوجد لنفسه هناك قصة حياة معقولة تتيح له، إذا دعا الأمر، أن يدخل الولايات المتحدة بسهولة وسرعة، وكان، لهذا، يحمل أوراقاً ثبوتية، باسم «اوجين نيكولو ماكي».. مواطن أميركي من مواليد «ايناقيل» في ولاية «اوهايو» وقد أمضى معظم حياته في فنلندا..

وقد عمل في فنلندا مساعد حداد وميكانيكي سيارات، وفي الوقت نفسه كان يعمل على اشاعة قصة حياته المرتبة على النحو الذي ذكرناه.

وفي شهر آب سنة ١٩٥٢، أي بعد قليل من طلب آبل، استدعي «مايهانن» إلى موسكو لكي يقضي فترة تدريب مدتها ثلاثة أسابيع استعداداً لمهمته الجديدة... فعبر الحدود إلى روسيا مختبئاً في صندوق خلفي لاحدى السيارات، وأمضى ثلاثة أسابيع في دورة عاجلة للغة الانكليزية، وتلقى دروساً تتعلق بالأفلام السينمائية الدقيقة المعروفة باسم «ميكروسينما»، وبالصورة العادية، والأرقام السرية... ثم أعطي اسماً حربياً هو «فيك» وقيل له أن رئيسه الموجود في مدينة نيويورك يحمل اسم تجسس هو «مارك».

وكانت الأوامر التي تلقاها هي أن يتصل بـ «مارك» وأن يساعده، وأن يظل على اتصال بالموظفين السوفيات في نيويورك.. ثم أعطوه مبلغ خمسة آلاف دولار لكي يستعين بها على ايجاد عمل يتستر به، وعينوا له راتباً قدره أربعمئة دولار في الشهر بالاضافة إلى مئة دولار أخرى لنفقاته.. وخصصوا لزوجته التي ظلت في روسيا راتباً آخر..

وبعد انقضاء أسابيع التدريب الثلاثة عاد «مايهانن» إلى فنلندا، وبقيت زوجته في روسيا.. إلا أنه، بدافع من ضرورة الاحتياط والتستر، تزوج امرأة فنلندية اسمها «هانا هوريكا» فاصطحبها معه... وقد غادر الزوجان فنلندا إلى انكلترا في مطلع شهر تشرين الأول باسمين مستعارين هما السيد والسيدة «ماكي» ووصلا من ثم إلى نيويورك في ٢١ تشرين الأول.

- ٦ -

غداة وصول «هايهانن» إلى نيويورك، انطلق يتنزه سائراً على قدميه في حديقة «سنترال» بارك، قرب مطعم «تافيرن اون ذي غرين»، وعند التقاء ممرين من ممرات الخيل فتناول «هايهانن» من جيبه مسماراً صغيراً ذا «طبعة» حمراء وغرزه في احدى عوارض الحاجز قريباً من اللوحات ذات التحذير...

وقد كان هذا الموضع هو أحد المواضع العديدة المتخذة كعلامات متفق عليها، وقد أعطيت له في موسكو. ولقد كان الغرض من غرز ذلك المسمار الصغير اللون الطبعة هو أن يعلن نبأ وصوله إلى نيويورك.

وعلم هايهانن، فيما بعد أن مواضع تلك العلامات يجب أن يتم تفقدها كل يوم لكي يتحقق من وجود رسائل أو اشارات موجهة إليه وعليه أن يتسلمها.

وقد كان السور الحديدي حول الحديقة، ومحطات «المترو» - القطار الكهربائي تحت الأرض - كانت جميعاً من المواضيع المتفق عليها كعلامات لمثل هذه الغاية.

وكانت هذه المواضيع تعلم بالطباشير الأزرق اللون وفوق العلامة خط صغير أفقي يدل على أن رسالة ما وضعت في المخبأ المخصص في ذلك الموضع.. وللدلالة على تسلم الرسالة يجب أن يوضع خط آخر عمودي.

وفي مدة السنوات الخمس التي قضاها «هايهانن» في أعمال التجسس بنيويورك أتيح له أن يستعمل أكثر من ستة مخابىء متفق عليها.. وكان أحد هذه المخابىء شقاً في جدار من اسمنت، في طريق «جيروم» فيما بين الشارعين (١٦٥ و١٦٧). وكان مخبأ آخر هو عبارة عن قطعة من القرميد المفككة والموضوعة تحت جسر صغير فوق ممر للخيول قرب حوض حديقة «سنترال بارك». وكان مخبأ ثالث يقع قرب النصب التذكاري للجنود والبحارة، فيما بين ركن «ريفر سايد درايف» والشارع التاسع والثمانين..

* * *

وذات مرة استعمل هايهانن وآبل ثقباً في سلم يقع في حديقة (بروسبكت بارك)، وقد لفت هذا الثقب أنظار حراس الحديقة، وعندما جاء هايهانن مساء

لكي يتسلم الرسالة المفروض أنها وضعت في الثقب، وجد أن العمال جاؤوا وسدوه بالاسمنت سداً محكماً.. ودون أن يدروا أن في داخله رسالة تجسس سرية.. وقد ثبت ذلك بصورة قاطعة لأن دوائر الاستخبارات الاميركية وجدت تلك الرسالة، بعد مضي سنوات، لا تزال في موضعها تحت الاسمنت.. ولكن ماذا كان مكتوباً في تلك الرسالة؟

- ٧ -

كان ما كتب في الرسالة التي وجدتها دوائر الاستخبارات الاميركية السرية في الثقب المسدود بالاسمنت ما يلي، وهي بالطبع موجهة إلى «هايهانن»: «لماذا تراك تخلفت عن حضور اجتماعين مهمين؟ أجب برسالة مماثلة وضعها في هذا الثقب نفسه» وقد كانت هذه الرسالة الموجزة عبارة عن قطعة صغيرة من نوع الأفلام الدقيقة التي لا يرى ما فيها بالعين المجردة، وقد حشرت في تجويف قطعة من حديد تشبه المسمار..

ربما كانت هذه الاحتياطات المعقدة تبدو مبالغاً فيها عندما نرى أي نوع من الرسائل كان يتم تبادلها..

غير أن الأمر كان يختلف كل الاختلاف في نظر آبل، فقد كان يرى أن التجسس مسألة عادات حسنة يجب أن يتعودها الجاسوس، وكان في تقديره، أنه لا بد من اتخاذ أعظم الاحتياطات حتى بالنسبة لأتفه الأمور وأقلها شأناً وأهمية.. وكان يتشدد في التزام القواعد والوسائل الأشد صرامة حيال أقل التفاصيل قيمة في أية عملية تجسس، كائنة ما كانت التعقيدات، وكائناً ما كان الوقت الذي يهدر في هذا السبيل.

والواقع أن احتياطات آبل كانت أشبه بدرع الفارس الشجاع المستلئم.. أي أنها كانت كثيرة، ومتعددة الألوان ومربكة حتى أنها أدت إلى ضياعه..

ولقد كان من جملة وسائله وأدوات تجسسه مجموعة متنوعة للشكول والأحجام من أقلام رصاص، وأقلام ملونة خادعة ذات تجاويف ومخابىء سرية، وكان من بينها أيضاً مسامير مثقوبة، وبطاريات مصابيح يدوية زائفة، ولم تكن. كما وصفها الادعاء لدى محاكمته بأنها مما يستعمله فتيان الكشافة، وإنما كانت، في الواقع، بطاريات زائفة ولكنها في الوقت نفسه تحتوي على رسائل تتضمنها أفلام دقيقة لا يرى ما فيها بالعين المجردة، وكانت توارى في مخابىء مدروسة بحيث لا تستلفت الأنظار ولا تثير الشبهات حتى لو اكتشف أمرها..

وكان في حوزته، كذلك، قطع نقود مزيفة، من فئة الخمسة السنتات، و«البني» الواحد، وكانت قطع النقد هذه تبدو وكأنها صحيحة لا غبار عليها، غير أنها كانت مثقوبة من أحد جوانبها، فإذا أعمل فيها دبوس صغير انفتحت نصفين وأسفرت عن تجويف صغير فيها...

نعود الآن إلى أول يوم جاء فيه «هايهانن» إلى نيويورك، وإلى الدبوس الصغير ذي الطبعة الحمراء الذي غرزه تحت عارضة الحاجز في مكان التقاء ممري الخيول في حديقة «سنترال بارك»: فقد تفقد آبل هذا الموضع ووجد الدبوس ففهم منه أن «هايهانن» قد وصل أخيراً إلى نيويورك حسب طلبه.

وقد أجاب آبل على هذه الاشارة برسالة مكتوبة بالأرقام السرية ثم صورها في أحد الأفلام الدقيقة التي لا يرى مضمونها بالعين المجردة، ثم وضع الفيلم في قطعة نقود مزيفة من معدن «النيكل» ومن فئة الخمسة «السنتات» المسكوكة في سنة ١٩٤٨، وخبأ قطعة النقد هذه في احدى مخابئه المتفق عليها، ولم تكن الرسالة تحتوي غير التعليمات والأوامر الأولى الموجهة من آبل إلى مساعدة هايهانن. غير أن قطعة النقود المزيفة هذه، والرسالة المخبأة داخلها كان لها قصة عجيبة أذهلت حتى رجال الاستخبارات الأميركية فما هي هذه القصة؟

- ٨ -

كانت قطعة النقود المزيفة عجيبة حقاً، بل كانت من الغموض والابهام بحيث يحار الانسان في تعليلها وتفسيرها. ويزعم «هايهانن» انه لم يتسلم الرسالة المخبأة في قطعة النقود قط... أما التعليل فهو أن أحد المارة، وقد لفت نظره بريق معدني خلف قطعة مفككة من «القرميد» فبادر إليها ومد يده فتناولها من موضعها بكل بساطة ووضعها في جيبه...

وثمة أيضاً تعليل آخر وهو أن يكون آبل قد أخطأ فدفع القطعة المزيفة ثمناً لشيء ما في لحظة سهو، ثم وضع قطعة صحيحة غير زائفة في المخبأ المتفق عليه.. ومهما يكن من أمر فان الذي حدث، بدون أي ريب، هو أن قطعة النقود المزيفة دخلت في التداول العام..

وذات صباح اشتدت حرارته في سنة ١٩٥٣، قبض بائع جرائد صغير في الرابعة عشرة من عمره اسمه «جيمس بوزانت» مبلغ خمسين سنتاً مكوناً من هذه القطع النقدية الصغيرة من ذوات الخمسة والعشرة سنتات أعطاه اياها زبون يسكن شقة رقم ٣٤٠٢ من عمارة في «بروكلين» تقع في شارع «فوستر آفنيو».. وكان مما أدلى به الصبي بائع الصحف، فيما بعد، قوله:

- جعلت أهبط السلم مسرعاً، وعلى حين غرة خرجت النقود من يدي ووقعت على درجات السلم، ولما عدت فجمعتها رأيت احداها قد انشقت نصفين، فأخذتهما وجعلت أنظر فيهما فشاهدت في جانب من احداهما قطعة صغيرة من «الميكروفيلم» الذي لا يقرأ ما هو مطبوع عليه بالعين المجردة.. وقد خيل إلي أن ثمة أرقاماً، أو صفوفاً من أرقام.

وقد سارع الصبي بائع الصحف إلى أقرب مركز للبوليس وسلم ما وجده.. وتلقى التهنئة الحارة من رجال البوليس.

وعلى افتراض أن هذا الصبي لم يتعثر في نزوله على السلم، لكان الأرجح أن قطعة النقد الزائفة كانت ستظل في التداول وشراء الصحف اليومية إلى يومنا هذا.

وقد قدم بوليس نيويورك هذه القطعة إلى دوائر الاستخبارات الأميركية الـ «اف.بي.آي» وهذه، بدورها، أحالتها إلى خبرائها في فك رموز الأرقام غير أنهم عجزوا عن ايجاد المفتاح الذي يؤدي إلى فك هذه الرموز الرقمية.

ومنذ صيف سنة ١٩٥٣ وحتى ربيع سنة ١٩٥٧ - وهو التاريخ الذي سلم فيه هايهانن نفسه إلى السلطات الأميركية - ظلت قطعة النقد لغزاً محيراً لدى دوائر الاستخبارات الأميركية.. ولكن مايهانن قدم لهم، بعد تسليم نفسه، مفتاح رموزها كاملاً.

* * *

استمر هايهانن يتبادل الرسائل مع آبل دون أن يراه، ولم يتعرف إليه ويلتقي به إلا بعد مرور نحو سنتين من تاريخ وصوله إلى نيويورك.. وفي هذه الأثناء كان على اتصال دائم بـ «ميكايل سفيرين» الذي سبق والتقى به في موسكو.. وفي أول لقاء سري له معه وكان ذلك عند سلم الخروج من احدى محطات «المترو» في «لنكولن رود»، كان هايهانن يحيط عنقه بربطة زرقاء مخططة بالأحمر ويدخن الغليون على الرغم من أنه ليس من المدخنين، وانما كانت ربطة العنق بألوانها، وكان الغليون علامتي تعارف بين الاثنين... وعندئذ لمحه سفيرين، فتقدم منه وسلمه علبة أفلام مما لا تقرأ مضمونها العين المجردة، وكانت هذه الأفلام تحتوي على رسائل له من أسرته في موسكو ثم تمنى له النجاح في عمله الجديد... وفي شهر نيسان سنة ١٩٥٤ غادر سفيرين الولايات المتحدة فجأة... وبعد ذهاب سفيرين غدا مايهانن تحت امرة آبل الشخصية مباشرة...

بعد أن أصبح هايهانن تحت امرة آبل الشخصية،تلقى ذات يوم من أيام شهر آب سنة ١٩٥٤م أمراً بأن يكون موجوداً في رحبة المنافع التابعة لدار سينما «آر. كيه. او.» في تمام الساعة الثامنة، وفي عنقه الربطة الزرقاء ذات الخطوط الحمراء، وفي فمه غليونه. وكانت كلمة التعارف السرية تتراقص على شفتيه، إلا أن الرجل النحيل، التافه المظهر، الذي تقدم نحوه قال له:

- ما من أهمية ذات بال لكلمة التعارف السرية، فأنا أعرف أنك هو ذاك الذي أبحث عنه...

وعندئذ ذهبا معاً إلى مقهى مجاور، حيث جعل آبل - وقد كان هو نفسه الرجل النحيل التافه المظهر - يتفحص مساعده... وكان الذي رآه فيه مخيباً لأمله... فقد كان هايهانن ذلك الرجل القميء المربوع، ذا الوجه الشاحب المتورم والشفتين الغليظتين اللتين تشيان بشراهة لا حدود لها لأطايب الطعام والشراب... كان يوحي، بصورة عامة، بتميع العزيمة... وأحس هايهانن بازدراء رئيسه آبل فأبغضه من اللحظة الأولى... وقال في نفسه: «انه يعاملني وكأنني أحد الخدم...».

وكانت المهمة الأولى التي عهد بها آبل إلى هايهانن هي: أن يكون سائق سيارة... والواقع أن هايهانن كان قد اشترى لنفسه سيارة وبيتاً في «بيكسيكيل» التابعة لولاية نيويورك، حيث أخفى جميع الأوراق السرية المتعلقة بشخصه في قبو بذلك البيت، ثم جعل يسوق السيارة برئيسه في نواحي «وتشتر» حيث كان آبل يبحث عن مكان صالح لكي ينصب جهازه اللاسلكي ذا الموجات القصار. فقد كان معه محول بقوة ستة إلى مئة «فولت» وحاول بعد أن علق الهوائي باحدى الأشجار أن يتصل بموسكو غير أن عملية الاستقبال لم تكن

مرضية، فذهبا معاً، بعد هذا إلى «هوبويل جانكشين» في طريق «ناكونيك» العامة على أمل شراء بيت يسعهما أن يركبا فيه أجهزة الارسال والاستقبال، غير أنهما لم يجدا أي بيت بثمن أقل من خمسة عشر ألف دولار، وهو مبلغ أعلى بكثير من أن تقبل بدفعه حتى الحكومة السوفياتية نفسها...

وقد بدأت الشكوك الأولى تساور آبل حول قيمة مساعدة هايهانن في أثناء هذه الرحلة نفسها في السيارة، وذلك عندما طلب منه أن يسجل شيئاً كان الراديو يذيعه برموز «مورس»، غير أن هايهانن قال متضايقاً أنه لا يعرف رموز «مورس» فذهل آبل أيما ذهول وقال:

- إن كل من يعملون في التجسس يجب أن يكونوا على معرفة تامة برموز مورس... ترى ما الذي علموك اياه، اذن، في موسكو؟

وبعد هذا قام هايهانن بمهمتين صغيرتين فسافر في احداهما إلى مدينة «بوسطن» لكي يجتمع بـ «اولاف كارلسون» وهو ضابط ميكانيكي في باخرة سويدية، وفي الثانية ذهب إلى «آولاي» بـ «نيوجيرسي» لكي يستعمل عميلاً جديداً إلى عملية التجسس... غير أنه أخفق اخفاقاً ذريعاً في المهمتين معاً...

وعندئذ أخذ آبل يتساءل عما إذا كان هايهانن قادراً على القيام بأية مهمة مهما صغرت، وقرر، من فوره، أن يختبره اختباراً يتبين به حقيقة أمره على وجه الصحة والتأكد...

- ١٠ -

قرر آبل أن يختبر مساعده هايهانن اختباراً يتبين منه حقيقة أمره على وجه الصحة والتأكد. فأرسله إلى «بيرمونتين» لكي يبحث عن مبلغ من المال مدفون في حديقة تلك البلدة، والواقع أن آبل كان قد دفن في تلك الحديقة مبلغاً

بمجموعه خمسة آلاف دولار، وكان هذا المبلغ معداً لدفعه إلى السيدة «هيلين سويبل» زوجة «مورتون سويبل»، وكانت قد تعاونت في سنة ١٩٥١ مع الزوجين «روزنبرغ» في عمليات تجسس أخرى لحساب الروس.

انطلق هايهانن إلى بلدة «بيرمونتين» وشرع يبحث وينقب في حديقتها العامة وبيده خارطة المكان الذي خبيء فيه المبلغ، ولم يلبث أن وجد رزمتين مدفونتين، وكانت احدى الرزمتين تحتوي على ثلاثة آلاف دولار، والأخرى على ألفين... وقد أثبت هايهانن أن مقدار ما يكون من شرف بين الجواسيس هو مقدار ما يكون من هذا الشرف بين اللصوص... فبدلاً من أن يدفع هايهانن المبلغ إلى المدعوة «سويبل» دسه في جيبه... وفي الغداة قابل رئيسه آبل وقال له:

- لقد سلمتها المبلغ... ونصحت لها أن تنفقه بحذر...

* * *

وفي شهر ايار سنة ١٩٥٥ قرر آبل أنه قد آن الأوان أن يتخذ هايهانن لنفسه قناعاً أو ستاراً للتمويه والتعمية فدفعه إلى فتح دكان صغير للتصوير في «نيوارك» بـ «نيوجيرسي»... ولكن آبل ما لبث حتى اكتشف أن هايهانن لا يكاد يعرف شيئاً عن مهنة التصوير... ومع ذلك فقد رأى من واجبه أن يساعده عندما وجد هايهانن محلاً آخر مع شقة سكن في حي فقير من المدينة، بشارع «بيرجن ستريت».

وفي هذه الأثناء ارتكب آبل، بنية حسنة، الخطأ الذي دفع ثمناً له حريته فيما بعد، ذلك أنه خالف القاعدة الأولى التي تأخذ بها كل شبكة تجسس وهي: أن عملاء التجسس يجب أن لا يعرفوا أبداً أسماء وعناوين رؤسائهم... ولم يكتف آبل بذكر عنوانه لهايهانن بل اصطحبه في موسمه في «فولتون ستريت» لكي يعطيه بعض مواد التصوير... وجهازاً لاسلكياً للارسال والاستقبال قصير

الموجات.

وقد كان هذا الاهمال الوحيد هو الذي أتاح لهايهانن، فيما بعد، أن يرشد دوائر الاستخبارات الأميركية إلى رئيس شبكة التجسس الكبير: آبل...

وبعد انقضاء شهر، على وجه التقريب، من استقرار هايهانن في دكانه فوجيء آبل مفاجأة سارة وهي أن رؤساءه، وقد سرهم عمله وأرضاهم، رفعوه إلى رتبة «كولونيل» ومنحوه اجازة مدتها ستة أشهر يقضيها مع أسرته... وفي اليوم العاشر من شهر حزيران غادر نيويورك عن طريق باريس ثم فيينا.

وما أن سافر آبل حتى تنفس هايهانن الصعداء، ولم يعد بحاجة إلى تفقد مخابيء ومعالم التجسس والدبابيس ذوات الطبعات الحمراء يومياً. كما لم يعد مضطراً أن يعمل سائقاً لآبل في الضواحي بحثاً عن المواقع المناسبة لنصب أجهزة الارسال والاتصال بموسكو، وأهم من هذا كله أنه أصبح غير مجبر على أن يستمع إلى تعليمات ودروس رئيسه المتزمت.

- ١١ -

... وبدلاً من أن يفتح هايهانن دكان التصوير فقد عمد إلى زجاج واجهته ودهنه بالمسحوق الأبيض دلالة على أن المحل مغلق وليكون من ثم واثقاً من أن أحداً لن يستريب في أنه مفتوح... وبعد هذا أخذا يسلك سلوكاً غريباً لا يتفق وسلوك من يعملون في التجسس.

وننقل، فيما يلي، أقوال المحامي «دونفان» في أثناء المحاكمة التي جرت لآبل فيما بعد للدلالة على هذا السلوك الغريب: «على الرغم من أن هايهانن كان من عملاء التجسس في الناحية التي فتح فيها دكان التصوير فقد ارتكب جميع الأخطاء والحماقات الممكنة التي يتجنبها الجواسيس عادة... والجاسوس الحق هو

الذي ينبغي أن يذوب في الجماهير، أن يطل بلا وجه معلوم وذي سمات... أما هايهانن فقد فعل كل شيء لكي يلفت إليه الأنظار ويجذب الانتباه... كان يحب خمر «الفودكا»، ولأول مرة في حياته كان يحوز المال الكافي لكي يحتسي الفودكا ويروي بها ظمأه رياً كاملاً... بل هو كان يشتري صناديق الفودكا الملأى بالزجاجات، وكان كلما فرغت زجاجة أو أكثر يلقي بها في وعاء النفايات الموضوع خلف مسكنه الملتصق بدكانه... ولقد بالغ في هذا كله حتى لفت أنظار جميع سكان الحي فلم يكن لهم من حديث سوى ذلك...»

* * *

لما عاد آبل من اجازته الطويلة في أوائل سنة ١٩٥٦ حاول أن يتصل بهايهانن عن طريق المخابيء المتفق عليها، غير أنه لم يلبث أن لاحظ أن مساعده عاد لا يتفقد هذه المخابيء بصورة منتظمة... وأخيراً وجده، وسأله كيف تسير الأمور في دكان التصوير.

وعندئذ أخذ هايهانن ينتحل المعاذير ويقول أن الحي الذي يقيم فيه رطب، وانه من المستحيل فتح دكان فيه... ولم يقنع آبل بهذه الحجج الواهية فعنفه، وأغلظ له القول... ثم عاد فغير من حدة لهجته وقال له أنه يدرك ما قد عسى أن يكون قد طرأ على أعصابه من توتر، وقد يكون الأفضل أن يأخذ اجازة ويذهب إلى موسكو لكي يرى أسرته...

واتصل آبل بموسكو، وطلب لمساعده الاجازة المنشودة، ولم يأت الجواب إلا بعد بضعة أشهر وكان يتضمن منح هايهانن الاجازة المطلوبة... كما يتضمن نبأ ترفيعه إلى رتبة «رئيس».

وبادر آبل إلى تنظيم رحلة هايهانن الذي كان عليه بموجب ترتيبات رئيسه أن يذهب أولاً إلى باريس باسم مستعار هو «لوري ارلوند اورماس» غير أن هذه

الاجازة التي أتت بسهولة مرفقة بترفيع رتبته ملأت قلبه ريبة.. وتحسباً.. وأدرك أن موسكو لا تريد استقدامه لكي تقدم له التهنئة والثناء العاطر...

ولكي يكسب مزيداً من الوقت قال لآبل أنه سيحصل على تذكرة سفر في الباخرة «كوين اليزابيث» التي ستبحر في شهر كانون الثاني سنة ١٩٥٧ ثم تقبل من آبل مبلغ مئتي دولار كنفقات سفر، غير أنه لم يبحر على السفينة المذكورة... وابتكر قصة خيالية زعم فيها أن بعض رجال المخابرات الأميركية حققوا معه وأرغموه على مغادرة السفينة.

والواقع أنه كان يزداد ذعراً، يوماً بعد يوم. لمجرد تصوره أنه يوشك أن يعود إلى موسكو... وجعل يزعم لآبل أنه يشعر أن ثمة أشخاصاً يتعقبون أثره... غير أن آبل رفض أن يصدق شيئاً من هذا كله... وأرغمه على السفر في الباخرة «ليبرتي» يوم ٢٤ نيسان.

- ١٢ -

لما وصلت الباخرة «ليبرتي» إلى الهافر، الميناء الفرنسي، نزل منها هايهانن، ثم ذهب إلى أقرب هاتف ثم أدار القرص على الرقم الذي كان آبل قد زوده به وهو «كليبير ٤١-٣٣» وكانت كلمة السر لمن يحادثه هي: «هل أستطيع أن أشحن على باخرتكم رزمتين بواسطة شركة ميري؟».

ولم تمر ساعة أو نحوها حتى وجد هايهانن نفسه أمام أحد الموظفين السوفيات في الشارع فأعطاه الموظف مبلغاً من الفرنكات الفرنسية بالاضافة إلى مئتي دولار.

بعد أن استطاع هايهانن أن يستولي على أكثر ما يمكنه الاستيلاء عليه من الروس، ذهب في الغداة إلى باريس وقدم نفسه إلى سفارة الولايات المتحدة

هناك.

وروى لموظفي السفارة قصته كلها فذهلوا أيما ذهول، ولم يصدقوه... غير أنه أظهر لهم، بكل بساطة، قطعة من النقود المجوفة التي تستعمل لأعمال التجسس... ولما أكد لهم إنما يقول الحقيقة التي لا شبهة فيها، سارعوا فأعادوه إلى نيويورك حيث تتولى أمره دوائر الاستخبارات الأميركية المعروفة باسم: «أف. بي. آي».

وفي نيويورك بقي مجهول الهوية. فقد وضعته دوائر الاستخبارات في محجر «ستيتن آيلاند» حيث خضع لفحوصات طبية وعصبية ونفسية عديدة لكي يتبينوا إذا لم يكن مصاباً بحب الكذب والادعاء... إلا أنه عندما وضع لرجال الاستخبارات الأميركية أسرار فك رموز الأرقام التي عثروا عليها لدى تفتيش غرفة آبل في الفندق، بدأوا يأخذون أقواله على محمل الصدق...

وفي هذه الأثناء كان آبل قد أخذ يحس أن الأمور لا تجري في مجراها الطبيعي... فجعل يعد العدة للهرب... ولكن رجال الاستخبارات الأميركية سرعان ما ألقوا عليه القبض قبل فراره كما تقدم في الحلقة الأولى من هذه السلسلة...

* * *

وعين يوم ١٤ تشرين الأول موعداً لمحاكمة آبل. وكان هذا الموعد يقترب... وكان محاميه يجتمع به في سجنه ويتحدث إليه طويلاً لكي يعد العدة للدفاع عنه. وقد تم اختيار المحامي الأستاذ «دونفان» من بين ثلاثة من كبار المحامين في «بروكلين» نزولاً على طلب آبل نفسه من المحكمة الفيدرالية...

وفي اليوم السابع من شهر آب سنة ١٩٥٧، أي بعد شهر ونصف الشهر من

القاء القبض عليهم، وجه إليه الادعاء العام ثلاث تهم.

التهمة الأولى: كانت أنه تآمر وحصل على معلومات عسكرية أوصلها إلى الاتحاد السوفياتي، والعقوبة القصوى لهذه التهمة هي الحكم بالاعدام.

والتهمة الثانية: كانت اشتراكه في مؤامرة للحصول على المعلومات المذكورة وعقوبة الاشتراك في المؤامرة هي السجن مدة عشر سنوات.

أما التهمة الثالثة: فلم ينكرها، بل اعترف بها وهي دخوله إلى الولايات المتحدة بصورة غير مشروعة ودون أن يسجل نفسه كأجنبي في الدوائر المختصة. وكانت العقوبة التي ينص عليها القانون، في مثل هذه الحالة السجن خمس سنوات...

- ١٣ -

وقد اختيرت هيئة محكمين على وجه السرعة من تسعة رجال وثلاث نساء. وقد جلس في منصة المحكمة القاضي الاتحادي «موريتماربايرز».

ولقد كانت هذه القضية من القضايا الفريدة من نوعها في الولايات المتحدة. أولاً لأن هذه كانت هي المرة الأولى في تاريخ الولايات المتحدة - فيما قاله المحامي الأستاذ دونوفان - التي يحاكم فيها، مواطن سوفياتي ويصدر عليه الحكم، باعتباره جاسوساً، وفقاً للقوانين الأميركية ثم كانت المرة الأولى أيضاً التي يحاكم فيها أجنبي بموجب قانون «روزنبرغ» الذي ينص على أن انساناً ما يصبح مستحقاً لعقوبة الاعدام إذا ما قام بعملية التجسس لحساب بلاد أجنبية تكون معها الولايات المتحدة في حالة سلام شرعاً وقانوناً...

وفي أثناء المحاكمة كلها لم يفتح آبل فمه بكلمة واحدة دفاعاً عن نفسه.

وكان قد قال لمحاميه «دونفان» انه لا ينتظر عوناً من الخارج. وكان لذلك، يبدو راضخاً مستكيناً...

والواقع أن المحامي دونفان لم يقدم أي شاهد لمصلحة موكله، ومع ذلك فان شهود الاتهام، بعد أن نوقشوا مناقشة دقيقة وقوية، تحولوا إلى شهود دفاع بما وصفوا به أخلاق آبل. فقد صرح أمام المحكمة، رجال من أولئك الشهود فقالوا أن آبل كان رساماً يثير الاهتمام، وكانت رسومه تستلفت الأنظار، وأن سمعته في الحي وفي بيئتهم جميعاً «فوق الشبهات».

وحاول المحامي أن يشكك في صحة شهادة الشاهد الرئيسي في القضية... وكان آبل لا يرغب في قول أي شيء لأنه يدرك أن الخطيئة الكبرى التي يرتكبها عميل التجسس هي أن: يلفت الأنظار إليه، حتى بعد أن يكشف أمره ويقبض عليه.

أما الشاهد الرئيسي في القضية فقد كان «هايهانن» نفسه، وقد مثل أمام المحكمة وقد حجب عينيه بعيونات سوداء، وصبغ شعر رأسه وشاربيه. وراح يروي للمحكمة بلهجة عسيرة ولكنها متبجحة أعمال التجسس التي كان يقوم بها هو وآبل، وذكر ما كانا يستعملانه من الأفلام التي يقرأ ما فيها بالعين المجردة «الميكروفيلم»، ووصف المخابيء السرية التي كانا يصطنعانها، وكيف كانا ينفذان الأوامر التي كانا يتلقيانها من موسكو...

غير أن أخطر ما جاء في شهادته هو ذلك القسم المتعلق بما سمي (رسالة كيبك) والتي تشير إلى أوامر صدرت إليهما بوجوب الاستمرار في النشاط والعمل على ضم المدعو «روي رورس» إلى أعمال التجسس السوفياتية، وقد كان روي رورس هذا جندياً في جيش الولايات المتحدة، وكانت هذه الرسالة قد وجدت عند «هايهانن» في - بيكسكيل - وقد أخفيت في ثقب لولبي خاص...

كانت هذه الشهادة بأن آبل ومساعديه قد تلقوا أوامر من موسكو بافساد ذمة جندي في الجيش الأميركي واستمالته إلى العمل معهم واغرائه بافشاء أسرار بلاده عن طريق أخ له قيل أن في وسعه أن يصل إلى الحصول على أسرار تتعلق بأمور الطاقة الذرية... كانت هذه الشهادة ثقيلة جداً رجحت بها كفة اتهام آبل حقاً.

- ١٤ -

ومع ذلك فان الاستخبارات ودوائر التجسس السوفياتية لم تستفد شيئاً مذكوراً مما قدمه لها الجندي الأميركي «رودس»، بل لقد ضلل رودس هذه الدوائر وأمدها بخليط من المعلومات الصحيحة والزائفة معاً - ولم يكن له، في واقع الأمر، شقيق يعمل مهندساً في المصانع الذرية...

وقد استطاع رودس، بهذا الخداع أن يبتز أموالاً طائلة من الروس في موسكو، وكان واضحاً أنه بالغ مبالغة مفضوحة وأضفى على معلوماته كثيراً من البهرجة لكي يكسبها قيمة ليست لها...

ويبدو أن الروس قد انخدعوا فعلاً وأخذوا مزاعمه وكأنها حقائق لا ريب فيها...

ثم طلب الاتهام من هايهانن أن يروي للمحكمة، وبالتفصيل الدقيق، كل أعمال التجسس التي قام بها في خلال خمس سنوات من العمل باعتباره الساعد الأيمن لآبل، وقد نفذ هايهانن ما طلبه منه الاتهام وروى كيف جاء، وبالتفصيل الدقيق، كيف كان يعمل مع آبل، والمهام التي أوكلت إليه...

وعلى الاثر حاول المحامي دونوفان في مناقشته الصارمة لهايهانن أن يبطل شهادته ويجعلها غير ذات قيمة، فصور للمحكمة حالة هايهانن برجل بين نارين:

فالولايات المتحدة تحتقره من ناحية، وروسيا تزدريه من ناحية أخرى، فكان أمله الوحيد: أن لا يجر أكثر ما يمكن من الناس في جرائمه وحسب، بل أن يبالغ كذلك ويضفي على أقواله أكثر ما يستطيع من الأهمية والقيمة والأبهة...

وقد بدأ ما تبقى من القضية مسنماً وعملاً بعد أن أدلى هايهانن بشهادته المثيرة.

وكان من جملة الشهود الذين مثلوا أمام المحكمة الجندي «رودس» نفسه فقال أنه سلم الروس فعلاً خليطاً من المعلومات الصحيحة والملفقة الزائفة، وذلك في الوقت الذي كان فيه مستخدماً في السفارة الأميركية بموسكو.

واغتنم محامي الدفاع - دونوفان - هذه البادرة فهاجمه بعنف شديد، واتهمه بأنه «الجندي الوحيد في تاريخ الولايات المتحدة كله الذي تجرأ واعترف بأنه باع وطنه في سبيل حفنة من المال»...

وكان «رودس» هذا رجلاً ساذجاً طويل القامة، بادي العظام، وفي نحو التاسعة والثلاثين من عمره إذ ذاك، فلم يكن منه إلا أن علق على شفتيه ابتسامة رضى وطمأنينة طيلة الوقت الذي أدلى فيه بشهادته كأنه كان مزهواً جداً بما فعل... وقد أحيل، فيما بعد، إلى محكمة عسكرية فأصدرت حكمها عليه بالسجن خمس سنوات مع الأعمال الشاقة، وكان ذلك في اليوم الحادي والعشرين من شهر شباط سنة ١٩٥٨.

- ١٥ -

طلب الدفاع، في القسم الأخير من القضية، أن تأذن المحكمة بقراءة رسائل تلقاها آبل من أسرته في موسكو، وكانت مصورة في «الميكروفيلم» الذي وجدت دوائر الاستخبارات الأميركية نسخاً منه في فندق «لاثمان» في أول يوم قبض

فيه على آبل. ولدى قراءة رسائل زوجته «ايليا» وابنته «افلين» بدأ آبل لأعين الجميع في صورة انسانية لم تدر في خلد أحد طيلة الوقت الذي استغرقتها محاكمته.

فقد وصف في سياق المحاكمة بأنه جاسوس من أساتذة التجسس الخطرين، وأنه كان، بسهولة، يصنع الهويات... والأشخاص... كما تقص اليد الحاذقة من الورق عرائس ودمى وألعاباً... وعلى هذا فقد كان من الصعب جداً، بعد هذه الصورة القاسية، أن ينظر إليه كرجل عادي مثل سائر الرجال... له أسرة، وبيت، وزوجة، وابنة، وحياة خاصة حقيقية.

وقد استمعت المحكمة، واستمع المحكمون، واستمع الحضور جميعاً إلى ما جاء في تلك الرسائل: فزوجته كان يصيبها القلق على صحته وراحته وأمنه. وابنته التي بلغت الخامسة والعشرين من عمرها كانت تحدثه عن زواجها، وعن عملها الجديد، وتبثه حبها العظيم له، وتعترف أن زوجها كائناً ما كان حبها إياه، لا يصل، مهما علا وسما، إلى أعلى من رسغ قدمه.

وكأنه لم يكن من اللائق أن يطلع أحد، هكذا فجأة، على أن الجاسوس السوفياتي الأول في الولايات المتحدة كان يتلقى رسائل من زوجته تسأل فيها عن أحواله وتحدثه عن كلب البيت وأنه بصحة جيدة... وتستفسر منه عن معدته وشؤون صحته... الخ...»

أجل، كان هذا كله يبدو في غاية الغرابة ومثيراً للدهشة كما يمكن أن يثير الدهشة نفسها مجرم قاتل زنيم، ويقال بعد ذلك أن هوايته جمع الفراشات الملونة الزاهية وحفظها، لجمالها، في محافظ خاصة بها...

والواقع أن قراءة هذه الرسائل كانت مؤثرة جداً، وقد زاد من معقوليتها أنه كان معلوماً، بصورة مسبقة، في المحكمة أن آبل لن يعود فيرى أسرته في وقت

قريب...

وقال بعض أعضاء هيئة التحكيم أن اللحظة الوحيدة التي أظهر فيها آبل بعض الانفعال هي اللحظة التي قرئت فيها هاتيك الرسائل، فقد شوهدت الدموع تجول في مآقيه ويتغيم منها زجاج عويناته...

وفي يوم ٢٣ تشرين الأول انسحب المحلفون ليختلوا، ويتداولوا، وكانت الساعة، إذ ذاك، قد بلغت الثانية عشرة والربع.

وبادر «ابلين» رئيس هيئة التحكيم فقال مؤكداً:

- إن القضية لا تحتاج إلى جدل كثير أو قليل... وأخذ يستطلع آراء زملائه.

- ١٦ -

بعد الادانة كان لا بد من صدور الحكم، والحكم من شأن المحكمة وحدها، ولا دخل للمحلفين فيه، وحسب المحكمة أن تأخذ بالادانة أو التبرئة التي يصدرها المحلفون، ثم أن المحكمة، بعد ذلك، هي التي تقرر العقوبة المناسبة.

ولم يصدر الحكم بالعقوبة، في هذه القضية، إلا يوم ١٥ تشرين الثاني، وفي هذه الأثناء، بين الادانة وصدور الحكم بالعقوبة، كتب الأستاذ «دونوفان» محامي الدفاع عن آبل رسالة إلى القاضي «بايرز»، وكانت هذه الرسالة - في خضم ما وقع من حوادث وأحداث لاحقة - تبدو الآن وكأنها نبوءة لا ريب فيها.

ولقد أقر المحامي بما في ادانة «آبل» من وجه حق لا ريب فيه ولا مجال للطعن في صدقه، غير أنه، إلى هنا، قدم لائحة مستفيضة من الحجج والبراهين التي تدعو، في رأيه، إلى عدم اصدار الحكم بالاعدام على آبل.

وقد قال في رسالته أن المبرر السوي المعقول لاصدار الحكم بالاعدام، هو أن تحول هذه العقوبة، في الواقع، دون الاقدام على أعمال التجسس في المستقبل... ولكنه سيكون من الحمق والسخف البالغين الاعتقاد بأن اعدام آبل سيجعل روسيا تقلع عن أعمال التجسس، وتكف عن ارسال عملاتها وعيونها حيث يطيب لها، وحيث تستدعي ذلك مصلحتها.

وبالاضافة إلى هذا، بل فوق هذا فان الحكم بالاعدام يجب أن تروزه الحكومة وتزنه وزناً دقيقاً قبل النطق به، وذلك في ضوء التفكير بأن ثمة مواطنين أميركيين لهم نشاط وفعالية ومهام تشبه، بل تماثل نشاط وفعالية ومهام آبل.. في بلاد.. في الخارج.. وبعبارة أخرى فان «دونوفان» ذكر القاضي «بايرز» بأن للولايات المتحدة جواسيس وعيوناً وأرصاداً في أنحاء هذه الدنيا، فمن مصلحتها، إذن، أن لا تصدر أحكاماً بالاعدام... إذا كانت لا تريد أن يصدر مثل هذا الحكم على أحد المواطنين الأميركيين لو أوقعه سوء الطالع وانكشف أمره لسلطات البلاد التي يعمل فيها ما يشبه أو يماثل أعمال آبل لحساب بلاده.

لقد كانت هذه الفقرة بالذات، في رسالة المحامي الأستاذ (دونوفان) هي التي كان فيها ما يشبه أن يكون تنبؤاً لما قد يحدث في المستقبل.

وأراد المحامي الحاذق أن يكون أكثر تخصيصاً في حجته، بعد التعميم الذي ذكره في الفقرة السابقة من رسالة، فكتب أيضاً يقول:

إن من الممكن الذي لا سبيل إلى استبعاده أن يحدث في مستقبل غير بعيد أن تلقي روسيا القبض على شخص أميركي من رتبة مماثلة لرتبة آبل، أو على شخص آخر له منزلة أعوانه والعاملين في فلكه، أو شبكته... وفي مثل هذه الحال قد يصار إلى تبادل المساجين، بالوسائل الدبلوماسية، تبادلاً هو في مصلحة أميركا الوطنية.

- ١٧ -

ومع ذلك كان أعضاء هيئة التحكيم، اجمالاً، في صف «آبل» كرجل وانسان.

وقد قال أحد المحلفين:

- لو كنت أنا صاحب الأمر لاخترت جاسوساً لبلادي رجلاً مثله.

غير أن الأعضاء لم يستطيعوا أن يتغاضوا أن بينات الاثبات المتراكمة ضد آبل من الثقل بحيث لا سبيل إلى انكارها أو التخفيف من شأنها وشدة وطأتها عليه.

وكان من رأي «دابلين» رئيس هيئة المحلفين أن اجراء التصويت بطريقة رفع الأيدي قد تحول دون أن يعطي المتحرجون آرا ءهم بصدق ونزاهة، فاقترح أن يجري التصويت بالطريقة السرية على ورق مطوي في أول الأمر.

وبالفعل جرى اعطاء الأصوات على هذه الطريقة، وكانت الورقة الأولى التي فتحها تنص على أن آبل «غير مذنب»، وكانت هي الورقة الوحيدة التي برأته... وجاءت الأصوات الأخرى، وهي أحد عشر صوتاً، ضده، وهكذا أدانته هيئة المحلفين بأحد عشر صوتاً ضد صوت واحد.

وبهذه المناسبة فقد صدرت مسرحية من فصل واحد مثلت على المسرح، ثم اقتبس منها فيلم سينمائي باسم «اثنا عشر رجلاً غاضبون» ويرى في هذه المسرحية العضو الوحيد المخالف من هيئة المحلفين في احدى قضايا الجريمة يبذل المستحيل في الجدل والمناقشة وتحكيم المنطق والعقل، والطعن في الأدلة أكثر من ساعتين وهو يستميل إلى جانبه الأعضاء الآخرين واحداً بعد واحد حتى يصل في

النهاية وبعد تعب ومشقة بالغتين، إلى كسب الأعضاء الذي كادوا يدينونه في باديء الأمر بأحد عشر صوتاً ضد صوت واحد...

وربما كانت هذه المسرحية مستوحاة من قضية محاكمة آبل... وربما خطر لمؤلف المسرحية أن يبرهن أن مخالفاً واحداً قد يكون على حق، ويكون الآخرون على باطل رغم ما يشبه الاجماع، لو تذرع المخالف الوحيد بالشجاعة والصمود لرأيه وبذل الجهد المرهق لاقناع الآخرين...

وعلى أي حال فان شيئاً مثل هذا لم يجر في قضية آبل، واكتفي بادانته بأكثرية أحد عشر صوتاً.

ومع ذلك فقد استمرت مداولات هيئة التحليف ثلاث ساعات ونصف الساعة، أي الساعة الواحدة حتى الرابعة والنصف، ثم عاد المحلفون إلى مقاعدهم في المحكمة وهم يحملون ادانتهم بأن آبل «مذنب» من جميع الوجوه...

وقد انتصب آبل واقفاً على قدميه لكي يستمع إلى الادانة من أفواه المحلفين...

وفي حركة الضجيج التي أعقبت النطق بالادانة في المحكمة غادر القاعة شامخ الرأس، منتصباً، لا شيء، في موقفه واعتداده بنفسه، يشي بأي معنى من معاني الهزيمة أو الانهيار أو التضعضع على الأقل مما أذهل الحاضرين حقاً، فارتفعت همساتهم تعلق شتى التعليقات على هذا الموقف الذي يدل على رجولة أصيلة لا ريب فيها...

- ١٨ -

وقد حدث هذا فعلاً، وتحققت نبوءة المحامي الحاذق. ففي شهر ايار من سنة

١٩٦٠ سقط الطيار الأميركي «فرانسيس غازي بوارز» وطائرته «يو-٢» في قلب روسيا مما جاء مؤكداً ومثبتاً لتوقع المحامي «دونوفان» وبعد نظره. وفي أقل من سنتين، بعد ذلك، وبفضل تشبث هذا المحامي واصراره كان هذا التبادل في المساجين بين أميركا وروسيا، وغدا مجرد الاحتمال حقيقة واقعة.

* * *

ونعود الآن إلى قضية آبل، وإلى الحكم بالعقوبة المتوقعة فقد أنهى المحامي رسالته إلى القاضي «بايرز» قائلاً: ان آبل رجل في الخامسة والخمسين من عمره، وهو قد خدم بلاده باخلاص... وسواء كانت هذه البلاد على حق أو على باطل، فـانهـا وطنه دون ريب واني لأطلب من المحكمـة، بكل بسـاطة أن تدخل في اعتبارها أننا في حالة سلام شرعية مع تلك البلاد.

وفي اليوم الذي صدر فيه الحكم بالعقوبة أعلن القاضي «بايرز» أنه تسلم طلب المحامي «دونوفان»، ثم قال أنه وحده هو الذي يستطيع أن يقول ما إذا كان لهذا الطلب أي تأثير عليه.

ثم أردف القاضي يقول:

- إن المحكمة تكاد تجهل كل شيء من الحياة الشخصية الخاصة لهذا الرجل ومن حقيقة أخلاقه. وبما أننا لا نستطيع أن ننفذ إلى طوايا وخلايا عقل هذا الرجل المعروف باسم «آبل» فان أدلة الجريمة تقضي أن يحاكم باعتباره رجلاً قد اختار مهنته عن علم ودراية، ودون أن يجهل شيئاً مما يحف بها من مخاطر ومن الثمن الذي يتوجب عليه أن يدفعه في حالة اكتشاف أمره والقاء القبض عليه.

وإذا ما ترجمت عبارات القاضي إلى عدد من السنين وعدد من الدولارات فانها تعني: السجن ثلاثين عاماً، وغرامة قيمتها خمسة آلاف دولار للتهمة

الأولى، وعشر سنوات وألفي دولار للتهمة الثانية، وخمس سنوات وألف دولار للتهمة الثالثة. غير أن هذه العقوبات جميعاً يجب أن تختلط ويذوب بعضها في بعض فتكون العقوبة القصوى: السجن مدة ثلاثين عاماً... وحسب. وهي، في الواقع، العقوبة التي حكم بها على آبل دون الغرامات المالية. وقد اقتيد آبل للسجن (الفيديرالي في اطلنطا) بولاية جورجيا، حيث شرع ينفذ تلك العقوبة.

وفي سجن اطلنطا أعطي آبل رسمياً الرقم الخاص به بين المساجين وهو «A-١٦٠٨٨».

وقد علم، من مصادر موثوق بها فيما بعد، أن آبل كان واحداً من أكثر المساجين شعبية، وحسن سلوك وطاعة واستجابة لقوانين السجن ونظمه. وبالمقابل نال الاحترام الذي يناله محارب حلت به هزيمة شريفة... حتى جاء اليوم الذي خرج فيه حراً طليقاً من سجنه وعاد إلى بلاده بفضل التبادل الذي تم التوصل إليه، بالأساليب الدبلوماسية، بينه وبين الطيار الأميركي بوارز.

جثة على ضفة النهر !

للقصصي العالمي «جي دي موباسان»

- ١ -

انطلق ساعي البريد «ميدريك رومبيل» في ميعاده العادي من مكتب بريد «روي لوتور»، وكان سكان تلك الناحية يختصرون اسمه متحببين إليه ويدعونه «ميدري». وبعد أن اجتاز المدينة الصغيرة بخطواته الواسعة التي اعتادها باعتباره جندياً قديماً قطع أولاً سهول «فيلوم» لكي يصل إلى ضفة نهر «البرانديل» التي تؤدي به، وهو سائر يحاذي مياه النهر، إلى قرية «كرفلين» حيث يشرع بتوزيع ما في جعبته من رسائل وصحف ونحوها.

كان يخطو بسرعة، في محاذاة النهر الضيق الذي كان يرغي ويزبد ويفور ثم تنساب مياهه في مجراه من الأعشاب تحت قبة معروشة من شجر الصفصاف. وكانت الحجارة الكبيرة، وهي تعترض جريان الماء، تحدث حولها منه حلقات تنتهي بما يشبه أن يكون عقداً من زبد. وكانت الشلالات الصغيرة، في مواضع هنا وهناك، لا تكاد تتبينها العين، ومع ذلك كانت كلها تصخب وتعربد غاضبة وهي تجيش متدفقة خلال النباتات الوريقة، والمتسلقة، وتحت مشتبك الشجر الملتف. وكانت عدوتا النهر تتسعان، عند مسافة أبعد، ولا تعدم العين أن تجد ثمة بحيرة صغيرة هادئة تسبح فيها أسماك النهر وتتقلب بين الأعشاب الشبيهة

بشعر أخضر جميل يتماوج في أعماق مسايل المياه الهادئة.

ولكن «ميدريك» كان يغذ السير دون أن يرى شيئاً من هذا كله، ولا ينفك يفكر في نفسه: أن أول رسالة أقوم بتوزيعها ستكون لبيت «بوافرون» ما دامت في جعبتي رسالة غيرها للسيد «رينارديه» فلا بد إذن من أن أجتاز الغابة ذات «الأرواح الكبيرة».

كانت سترته الزرقاء مشدودة جيداً حول قامته، بحزام من جلد أسود اللون، وقد اندفع يسير مسرعاً ولكن بخطى موزونة منتظمة، وبيده عصاه المتينة، ثم اجتاز النهر من فوق جسر مصنوع من كتلة شجرة واحدة ألقيت فوق الضفتين.

كانت الغابة ذات الشجر الباسق من أملاك السيد «ريناردیه» عمدة قرية «كارفلين»، وهو من أغنى أغنياء ملاك الناحية. وكانت الأشجار في تلك الغابة أدواحاً ضخمة، عتيقة، منتصبة، في استقامة رائعة كأنها أعمدة قائمة، وكانت كثيرة العدد، ومنتشرة على مسافة نصف فرسخ وعلى امتداد الضفة الشمالية لجدول المال الذي اتخذ حداً لذلك الرواق من الشجر الوريق الملتف.

تمهل «ميدريك» وطامن من خطاه، ونزع عن رأسه قبعته السوداء المزدانة بشارة حمراء تدل على مهنته، وجفف عرقه المتفصد من حرارة السهول على الرغم من أن الساعة لم تكن قد بلغت حد الثامنة صباحاً.

وما أن استروح قليلاً، حتى عاد فاعتمر قبعته واندفع يغذ السير من جديد ولكنه لم يخط بضع خطوات حتى شاهد عند أسفل شجرة، سكيناً صغيرة مما يعبث به الصبية، ولما انحنى يلتقط هذه السكين وجد أيضاً «كشتباناً» ثم اكتشف، غير بعيد، علبة صغيرة للإبر.

بعد أن أخذ هذه الأشياء حدث نفسه قائلاً: - سأسلمها إلى العمدة. ثم تابع

سيره، غير أنه غدا منتبهاً الآن، مفتوح العينين، يترقب أن يجد دائماً شيئاً جديداً...

وعلى حين غرة توقف مبهوتاً كأنه ارتطم بحاجز من خشب، ذلك أن جسماً عارياً لفتاة يافعة في نحو الثانية عشرة من عمرها كان منطرحاً على ظهره فوق الطحالب الخضراء على بعد عشر خطوات أمامه...

كانت الفتاة مفتوحة الذراعين، متباعدة الساقين، مغطاة الوجه بمنديل، وقد لطخ فخذيها قليل من دم...

- ٢ -

جعل «ميدريك» يتقدم على رؤوس أصابعه كأنه يخشى خطراً ما، ثم راح يرى بعينيه ويحدق ببصره، فما هذا الذي يراه؟! انها نائمة ولا شك. غير أنه فكر وقال في نفسه لا يمكن أن تنام عارية هكذا... وفي الساعة السابعة والنصف صباحاً تحت الشجر الرطب... لا بد، اذن، أنها... ميتة... وأنه أمام جريمة... واعترته، لهذا الخاطر، ارتعاشة باردة تراكضت حتى كليتيه على الرغم من أنه جندي قديم... ثم أن الجريمة كانت أمراً نادر الوقوع جداً في تلك المنطقة... وزيادة على ذلك: مقتل فتاة يافعة... انه لا يصدق عينيه حقاً... ولكن لا يبدو عليها أي جرح... لا شيء غير هذا الدم المتجمد فوق فخذيها. كيف أمكن أن تقتل اذن؟

وكان قد تلبث واقفاً جد قريب منها وراح يحدق فيها النظر معتمداً على عصاه لا ريب في أنه يعرفها ما دام يعرف جميع سكان المنطقة، غير أنه، إذ لا يستطيع أن يرى وجهها، فانه لا يسعه أن يعرف اسمها...

وانحنى لكي ينزع المنديل الذي يغطي وجهها ثم أمسك، ويده لا تزال

محدودة، فقد بدا له خاطر أوقفه: هل يحق له أن يحدث خللاً ما في حالة الجثة قبل الفحص الطبي الذي يباشره رجال العدالة؟ كان يتصور العدالة وكأنها قائد جيش لا يفوته شيء ويعلق على زر ضائع، من الأهمية قدر ما يعلقه على سكين مغمدة في بطن انسان... ومن يدري، فقد يجدون، تحت هذا المنديل، أعظم دليل من أدلة الجريمة... التي قد تفقد قيمتها إذا مستها يد غير حاذقة...

واعتدل واقفاً يريد أن ينطلق ليخبر العمدة، غير أن فكرة أخرى ردته: ماذا لو أن الفتاة لا يزال فيها رمق من حياة؟ انه، اذن، لا يستطيع أن يتركها هكذا... وجثا على ركبتيه برفق، وقد ابتعد قليلاً بداعي الحذر، ومد يده نحو قدمها... فأحس أنها باردة برودة الجليد، هذه البرودة الرهيبة التي تجعل البدن الميت مثيراً للذعر، ولا تبقي في النفس أثراً من الشك في الوفاة... ولقد أحس ساعي البريد، إذ مس قدم الفتاة، أن قلبه قد هوى من قفص صدره، كما قال فيما بعد، وجف ريقه في حلقه. ثم نهض من فوره، وراح يعدو تحت الأدواج الباسقة متجهاً إلى بيت السيد (رينارديه) عمدة البلد - كان يركض وعصاه تحت ابطه، وقبضتاه مطويتان، ورأسه مندفع إلى أمام، وحقيبته الجلدية الطافحة بالرسائل والصحف اليومية تهتز اهتزازاً رتيباً إلى جانبه.

كانت دار العمدة تقع في طرف الغابة التي أصبحت بمثابة حديقة لها، وكان ركن من سورها غائصاً في بركة صغيرة من مياه نهر «برنديل»، انها دار كبيرة، مربعة الشكل، جد قديمة، رمادية الحجارة، ما أكثر ما كانت عرضة للحصار في الماضي البعيد، وكانت تنتهي ببرج ضخم يرتفع عشرين متراً في الفضاء ويقوم على أساس وطيد شيد تحت مياه النهر... ومن قمة هذه القلعة كانت تجري مراقبة المنطقة كلها، وكان يطلق عليها اسم «ريناردييه». وقد اشتق من تلك التسمية، لقب الأسرة منذ أكثر من مئتي سنة. ذلك أن أسرة «ريناردييه» كانت جزءاً من تلك الطبقة البرجوازية التي كادت تكون من طبقة النبلاء في الأقاليم قبل اندلاع

نار الثورة الفرنسية.

دخل ساعي البريد مندفعاً إلى المطبخ حيث كان الخدم يتناولون طعام فطورهم وصاح قائلاً: «هل سيدي العمدة استفاق من نومه... يجب أن أتحدث إليه فوراً...» وأدرك الخدم أن أمراً خطيراً قد حدث وإلا لما صاح ساعي البريد، هكذا، وهو معروف بالاتزان والجد في القول وهيبة المظهر...

وأمر العمدة بإدخاله، فدخل حجرته وهو شاحب الوجه، مبهور الأنفاس، وقبعته فيَ يده، وداو ببصره في الحجرة فرأى العمدة جالساً أمام منضدة طويلة غطتها أوراق كثيرة مبعثرة.

وكان العمدة رجلاً بديناً، عظيم الجثة، منيف القامة، أحمر الوجه، قوي البنية كأنه ثور، إلا أنه كان محبوباً في المنطقة على الرغم من افراطه في الشدة والعنف. وكان في نحو الأربعين من عمره وقد فقد زوجته منذ ستة شهور، وكان يعيش من أملاكه وأراضيه عيشة السادة ملاك الحقول، وما أكثر ما جر عليه من مصاعب ومشاكل مزاجه المندفع، غير أن قضاة تلك المنطقة كانوا ينقذونه دائماً بصفتهم أصدقاء له فيتساهلون ويتغاضون عن أعماله وتصرفاته ومبالغته في العنف والغضب... ألم يكسر لأحد حراس الصيد بعض ضلوعه إذ ذكره بما يكره لأنه اخترق أرضاً لجاره وبندقية الصيد في يده؟

ألم يمسك بطوق وكيل الحاكم الاداري وكان قد توقف في القرية في أثناء جولة ادارية له وصفها للسيد «ريناردية» بأنها جولة انتخابية؟ ذلك أن العمدة كان يقف في صف المعارضة للحكومة نزولاً على تقاليد أسرته...

قال يسأل موزع البريد:

– ماذا هناك يا «ميدريك»؟

- وجدت فتاة يافعة ميتة في غابتك، فاعتدل رينارديه وقد احتقن وجهه:

- تقول... وجدت فتاة... يافعة...

- أجل يا سيدي انها عارية تماماً وملقاة على ظهرها... وثمة دم سائل... لا شك في أنها ميتة... بل قد شبعت موتاً...

- ٣ -

هتف العمدة ناقماً:

- يا اللّه! انني أراهن على أنها تلك الصغيرة ابنة الأرملة «روك» فقد أخبروني انها لم تعد إلى بيت أمها منذ مساء أمس... في أي مكان وجدتها؟

ذكر ساعي البريد ذلك المكان وقدم التفاصيل، وعرض على العمدة أن يذهب به إلى حيث وجد الفتاة.

غير أن السيد ريناردييه سرعان ما تهجم وقال:

- كلا. لست بحاجة إليك. وإنما ابعث إلي فوراً بحارس الغاب، وسكرتير البلدية والطبيب... ثم تابع عملك ووزع بريدك - انطلق بسرعة، هيا... وقل لهم أن يلاقوني في الغابة.

وكان ساعي البريد رجل نظام فأطاع وانسحب غاضباً، آسفاً أن لا يستطيع حضور الكشف على الجثة...

وخرج العمدة بدوره، وتناول قبعته الكبيرة العريضة الحافتين، وتلبث بضع ثوان على عتبة مسكنه حيث شاهد منبسطاً ممتداً من العشب تتوهج فوقه بقع ثلاث إحداها حمراء، والأخرى زرقاء والثالثة بيضاء... انها ثلاث سلال من الزهر

المتفتح الندي، وكانت احداها قبالة المنزل والأخريان إلى جانبيه. وإلى مسافة أبعد قليلاً كانت تنهض متشامخة نحو السماء أولى أشجار الغابة في حين كانت تشاهد إلى اليسار، ومن فوق النهر الذي اتسعت ضفتاه هناك اتساعاً جعل منهما بركة ماء كبيرة، سهول مترامية على مدى البصر... وإلى اليمين، وراء الاصطبلات والمباني الصغيرة التابعة لأملاك العمدة، كانت تبدأ القرية الفنية المزدحمة بمربي الأبقار.

هبط رينارديه درجات السلم متمهلاً، ثم انعطف إلى اليسار فوصل إلى ضفة النهر وسار في محاذاتها بخطى وئيدة وقد شبك يديه وراء ظهره... واستمر يسير مطأطيء الرأس، ويلقي من حين لآخر نظرة سريعة من حوله باحثاً عن الأشخاص الذين أرسل في استدعائهم.

وعندما وصل إلى منطقة الشجر توقف، وحسر عن رأسه، وجفف عرقه، تماماً كما فعل ساعي البريد من قبل، ذلك أن شمس شهر تموز كانت تنصب على الأرض وكأنها خيوط مطر من نار... ثم تابع سيره، وتوقف مرة أخرى، وعاد أدراجه، وانحنى وبلل منديله من جدول الماء القريب من قدميه وبسط المنديل المبتل فوق رأسه من تحت القبعة، وجعلت قطرات من الماء تسيل على صدغيه وأذنيه المحتقنتين بلون البنفسج، وعلى رقبته الغليظة الحمراء... ثم تنحدر قطرة قطرة داخل ياقة قميصه البيضاء.

ولما لم يشاهد أياً من الذين استدعاهم، خبط الأرض بقدمه وأخذ يرسل نداءات متتالية بصوت قوي جهير، وأجابه بنداء مماثل صوت عن يمينه ثم ظهر الطبيب مقبلاً تحت الأشجار، وكان الطبيب صغيراً، ضئيلاً، وهو جراح قديم في الجيش، وقد اشتهر بالمهارة والمقدرة في تلك النواحي. وكان يظلع إذ يسير إذ كان قد أصيب بجروح في ساقه أيام كان يعمل في الجيش، ولذلك كان يستعين في سيره بعصا يتوكأ عليها.

ثم ظهر حارس الغابة وسكرتير العمدة وقد أقبلا معاً، وكان الذعر مرتسماً على وجهيهما وهما يتراكضان لاهثين وقال ريناردبه للطبيب:

- هل تدري ما حدث؟

- أجل وجد ساعي البريد جثة فتاة يافعة في الغابة.

- هيا بنا اذن.

وراحا يمشيان جنباً إلى جنب، يتبعهما الرجلان الآخران، وكانت خطوات الجميع تكتمها الأعشاب وطحالب الماء ولكن عيونهم كانت لا تنفك تبحث هنا وهناك.

وعلى حين غرة مد الطبيب «لايارب» ساعده وهتف قائلاً:

- انها هناك... انظروا...

- ٤ -

كان يبدو من بعيد، تحت الأشجار، شيء له لمعان، ولولا أنهم كانوا يعرفون عما يبحثون لما تفطنوا إليه. كان هذا الشيء يتألق ناصعاً كأنه قطعة ملابس داخلية ملقاة على الأرض، إذ أن ضياء الشمس وقد تسلل بين أغصان الشجر كان ينير البدن الشاحب باشعاع منحرف عبر بطن الفتاة، ورأسها المحجب بالمنديل، والمستدير نحو مياه النهر، وذراعاها المتباعدتان كأنهما ذراعا المصلوب على صليبه...

وقال العمدة

- انني أشعر بحرارة شديدة

وانحنى من جديد على مياه النهر وبلل منديله ووضعه فوق رأسه وحث الطبيب خطوه وقد أثار اهتمامه ما رأى. وما ان اقترب من الجثة حتى انحنى يتفحصها دون أن يمسها بيده، وقد وضع عويناته كأنه يوشك أن يشاهد شيئاً مثيراً للفضول، ثم جعل يدور حول الجثة برفق. وقال دون أن يعتدل:

– انها جريمة قتل واغتصاب... سنتأكد منها الآن... إن هذه الفتاة اليافعة توشك أن تكون امرأة مكتملة الأنوثة والنضج انظروا إلى عنقها.

وكان نهداها الكاعبان قد هبطا فوق صدرها في ارتخاء أحدثه الموت.

وحسر الطبيب، قليلاً، المنديل الذي يغطي وجهها، فبدا أسود، حالكاً، مخيفاً، وقد تدلى لسانها، وجحظت عيناها، وعاد يقول:

– لا ريب في أن القاتل قد أجهز عليها بعد أن قضى وطره منها...

وجس عنقها وقال:

– لقد قتلت خنقاً باليدين... دون أن يبقى أثر ما على الاطلاق، فلا خمشة ظفر، ولا بصمة اصبع... لا شيء... انها ابنة الأرملة «روك» كما تبادر إلى أذهاننا في الواقع.

وأعاد طرف المنديل على وجه الجثة برفق. وأضاف يقول:

– ليس هناك ما أفعله. لقد ماتت منذ اثنتي عشرة ساعة على الأقل. ويجب استدعاء النيابة العامة.

وكان العمدة ريناردييه واقفاً ثمة ويداه وراء ظهره. ولا ينفك يحدق النظر في الجثة المعروضة هكذا فوق الأعشاب. ثم همس:

- يا للمسكينة. يجب البحث عن ملابسها...

وتحسس الطبيب يديها، وذراعيها، وساقيها، ثم قال:

- لا ريب في أنها جاءت تستحم هنا... ولا بد أن ملابسها موجودة في مكان ما من ضفة النهر.

وأصدر العمدة، عندئذ، أمره إلى «برانسيب» سكرتير البلدية:

- اذهب وابحث عن هذه الأسمال على امتداد الضفة...

ثم التفت إلى «مكسيم» حارس الغاب وقال له:

- أما أنت فبادر إلى بلدة «روي لوتور» وارجع ومعك قاضي التحقيق والجند. يجب أن يكونوا جميعاً هنا بعد ساعة هل سمعت ما أقول؟

وانطلق الرجلان تواً وقال السيد ريناردبه موجهاً كلامه إلى الطبيب؟

- أي نذل أمكنه أن يرتكب هذه الجريمة المنكرة في ناحيتنا هذه؟

وهمس الطبيب يقول:

- من يدري، كل انسان قادر على هذا، كل انسان بصورة خاصة... ولا أحد بصورة عامة... لعله متجول غريب... أو عامل عاطل عن العمل... ومنذ قام حكم الجمهورية عندنا لا نجد، على الطرقات، غير هذه الجرائم...

وقد كان العمدة والطبيب كلاهما من أشياع نابليون بونابرت.

وقال العمدة معقباً:

- أجل... لا يمكن إلا أن يكون أحد الغرباء... أحد المتسكعين الضالين... بلا قوت ولا مأوى...

وأضاف الطبيب في شبه ابتسامة:

- ولا زوجة... ولما افتقد البيت المريح الذي يسكن إليه والطعام الجيد الذي يلتذه... بحث لنفسه عن... بدن شهي... متعة لحظة عابرة... ولو عن طريق الجريمة... وما أكثر الرجال القادرين على فعلة كهذه في لحظة ما... هل كنت تدري، يا سيدي العمدة، أن هذه الفتاة كانت قد اختفت؟

وراح بطرف عصاه يلمس الأصابع المتصلبة في الجثة، ويضغط فوقها كأنها مفاتيح معزف موسيقي وقال:

- أجل، أتتني أمها يوم أمس... في نحو الساعة التاسعة ليلاً وقالت أن ابنتها لم تعد لتتناول عشاءها في الساعة السابعة... وقد بحثنا عنها حتى منتصف الليل على الطرقات... غير اننا لم نفكر بالغابة... وكان لا بد من طلوع النهار للقيام بالبحث المجدي.

وقال الطبيب:

- هل لك بسيجارة؟

وأجاب عمدة البلدية:

- لا وشكراً... لا أجد رغبة في التدخين... إن رؤية هذه الجثة عكرت صفو مزاجي...

- ٥ -

ظل العمدة والطبيب واقفين قبالة الجسد الواهن لتلك الفتاة اليافعة وقد اكتسى ببالغ الشحوب وهو ملقى هكذا فوق الأعشاب والطحالب. وجاءت ذبابة كبيرة زرقاء البطن فحطت فوق الجثة وراحت تسير فوق أحد الفخذين، ثم توقفت عند آثار الدم، وعادت تسير مصعدة دائماً، مندفعة، مرتجة الحركة فوق الخصر، ثم تسلقت أحد الثديين وانحدرت منه وذهبت تستطلع الثدي الآخر، وتبحث عما تلعقه على تلك الجثة. وتطلع الرجلان إلى هذه النقطة السوداء التائهة... وقال الطبيب:

- ما أجمل الذبابة فوق الاهاب... كانت نساء العصر الماضي على حق إذ كن يلصقن ذبابة اصطناعية فوق وجوههن... لماذا تراهن تركن هذا الضرب من التجميل؟

وبدا على العمدة كأنه لم يسمعه أبداً، وظل سادراً في تأملاته... غير أنه التفت فجأة فقد سمع حركة نبهته. وكان مصدر الحركة امرأة ذات قلنسوة من نسيج على رأسها، ومئزر أزرق اللون حول خصرها، وكانت المرأة مندفعة تركض تحت الشجر، انها أم الفتاة... الأرملة «لاروك» وما ان لمحت رينادييه حتى راحت تبكي وتولول: «ابنتي... صغيرتي... أين هي؟...» وكانت مولهة، ضائعة الرشد، حتى انها لم تكن لتلقي نظرة واحدة على الأرض... ثم شاهدت جثة ابنتها فجأة فوقفت وكأنها قد تجمدت، ثم ضمت يديها ورفعت ذراعيها وأرسلت صراخاً حاداً ممزقاً، أشبه ما يكون بزئير حيوان بتر عضو من جسمه... ثم اندفعت نحو الجثة، وارتمت جاثية على ركبتيها ورفعت المنديل عن وجه ابنتها وكأنها تنتزعه انتزاعاً... وما ان رأت هذا الوجه المخيف، المسود، المنقبض حتى اعتدلت بحركة عنيفة واحدة، ثم انكبت على وجهها فوق الأرض وهي لا تنفك ترسل صراخاً رهيباً متصلاً يتخلل العشب والطحالب جميعاً... كان جسدها المديد

الأعجف، وقد التصقت به الملابس التصاقاً، يهتز بعنف ثم يختلج . وكانت العين ترى بوضوح رجليها الهزيلتين المعروقتين، وربلتي ساقيها الممصوصتين وهما ترتعشان ارتعاشاً يثير الفزع... وكانت لا تني تحفر الأرض بأصابعها المخرشة الدامية كأنها تريد أن تحدث فجوة تتوارى فيها.

وهمس الطبيب منفعلاً: «يا للعجوز المسكينة!» وأحس العمدة، في معدته بحركة غريبة، ثم عطس عطسة صاخبة انطلقت من أنفه وفمه في آن واحد، وأخرج منديله من جيبه فأخفى فيه وجهه وراح يبكي ويسعل ويعول... ثم تمخط بشدة وتمتم: «لـ.. لـ.. من الله.. الخنزير القـذر الذي أجـ.. زع.. هذه.. الفـعـ.. لة.. شد.. ما.. أ.. تمنى أن أرى رأ.. سه تفـ. صله.. المقصلة..».

وظهر عندئذ -برنسيب- سكرتير البلدية أسيفاً خالي اليدين، ثم همس يقول: «لم أجد شيئاً يا سيدي العمدة، لم أجد شيئاً في أي مكان...».

وسأله عمدة البلدية فزعاً وبصوت أجش لا يزال غارقاً في الدموع: «ما هذا الذي لم تجده؟».

- ملابس... الفتاة...

- ولكن... ولكن... ابحث أيضاً... وحاول أن تجد هذه الملابس... والا... فالويل لك...

وكان الرجل يعلم أن العمدة عنيد متعنت لا يقاوم فعاد أدراجه يائساً وهو يلقي في الجثة نظرة جانبية وجلة.

ومن بعيد ارتفعت أصوات تحت الشجر المنتشر، كانت في أول الأمر أشبه بهمهمة غامضة... ثم إذا هي هدير مخيف... هدير حشد مقبل من الخلف.

- ٦ -

كان «ميدريك»، ساعي البريد، قد نقل الخبر في جولته، من بيت إلى بيت. وقد ذهل سكان تلك النواحي في بادىء الأمر، وتحدثوا في الأمر في الشارع، وعلى عتبات المنازل... ثم تجمعوا، وعلت أصواتهم، وتناقشوا، وعلقوا على الحادث بضع دقائق... وها هم قد أقبلوا ليروا بعيونهم.

وكانوا يتقدمون جماعات جماعات... مترددين شيئاً ما، ومضطربين، خشية الصدمة الأولى... ولما شاهدوا الجثة توقفوا، غير متجرئين أن يتقدموا، وراحوا يتناقلون الحديث بأصوات خفيضة... ثم جازفوا ببضع خطوات وعادوا فتوقفوا... ثم تقدموا من جديد... وما لبثوا أن شكلوا، حول الميتة وأمها والطبيب والعمدة، دائرة كثيفة، هائجة صاخبة ولا تنفك تتراص كلما توافد آخرون وآخرون... ثم ما هي إلا أن تحسسوا الجثة... وانحنى بعضهم يجسها، فنهاهم الطبيب... ولكن العمدة ذهب عنه ذهوله فجأة فاستشاط غضباً وتناول عصا الطبيب ولوح بها في وجوه رعاياه... وهو يقول متعثر الكلمات: «ت.. ف.. رقوا أقو.. ل تفر.. قوا.. يا.. بها.. ثم.. تفر.. قوا..» وفي مثل لمح البصر انداحت دائرة المتحلقين الفضوليين... واتسعت اتساعاً بلغ مئتي متر.

وكانت أم الفتاة قد اعتدلت واستدارت جالسة، وجعلت تبكي وقد غطت وجهها براحتيها... في حين كانت أصوات المتجمهرين لا تفتأ تتحدث وتتساءل... أما الفتيان منهم فقد جعلوا يحدقون بنظرات فاحصة في هذا البدن العاري الملقى أمامهم ورأى العمدة ذلك منهم فخلع سترته الواسعة ورمى بها على الفتاة فسترتها تماماً... وعاد الفضوليون يقتربون قليلاً قليلاً، وامتلأت الغابة بالخلق، واستمرت همهمة الأصوات تتعالى تحت تلك الأدواح من الشجر الوريق المتشابك الأغصان والأعراف.

وظل العمدة بقميصه، دون سترة، واقفاً والعصا بيده... في موقف المحارب... وكان يبدو غاضباً، مهتاجاً بسبب هذا الفضول، ويردد من حين إلى حين:

- إذا خطر لأحدكم أن يقترب... فانني سأحطم رأسه كما أحطم رأس كلب.

وكان أولئك الفلاحون يخشونه خشية كبيرة، فلزموا حدودهم... وجلس الطبيب «لابارب» إلى جانب المرأة وهو يدخن سجائره. وراح يتحدث إليها مسرّياً عنها... ورفعت يديها عن وجهها وطفقت تتكلم كلاماً باكياً منتحباً مفرغة أملها في فيض عباراتها... وروت له قصة حياتها، وزواجها، وموت زوجها بضربة من قرن ثور، وحدثته عن طفولة ابنتها، وحياتها كأرملة دون مورد عيش لها وللصغيرة...

أجل... لم يكن لها أحد سوى صغيرتها «لويز»... وها هي قد قتلت... قتلت في هذه الغابة...

وعلى حين غرة أرادت أن تعود فتتملاها فزحفت إلى الجثة على ركبتيها ورفعت طرفاً من السترة التي تغطيها، ثم تركته يهوي، وراحت تعول، وصمتت جموع الفلاحين... وراحوا ينظرون بفضول وبعيون دامعة إلى حركات الأم المفجوعة...

وعلى حين غرة تعالى هدير يصم الآذان... وصاح بعضهم يقول: «الشرطة... رجال الشرطة».

- ٧ -

ظهر شرطيان من بعيد يخب بهما جواداهما خباً متداركاً. وكان الشرطيان

بواكبان آمرهما وسيماً قميناً له في عارضيه شعر أحمر. وكان الرجل يتقلقل كأنه قرد فوق فرسه العالية البيضاء اللون.

كان حارس الغابة قد وجد السيد «بوتوان»، قاضي التحقيق، وهو يوشك أن يمتطي فرسه ليقوم بنزهته اليومية، وكان يزدهيه دائماً أن يتبدى بمظهر الفارس البارع. فيثير بذلك ضحك الضباط ومرحهم.

لدى وصوله هو والضابط ترجل عن فرسه وصافح العمدة والطبيب وهو يلقي نظرة على السترة التي تغطي جثة الفتاة.

ولما اطلع على تفاصيل الحادث بادر أولاً إلى ابعاد جموع الناس الذين راح الشرطيان يطردانهم من الغابة، ولكنهم سرعان ما تجمعوا في السهل وكونوا ما يشبه أن يكون سياجاً كبيراً من الرؤوس المهتاجة المضطربة على امتداد ضفة النهر الأخرى.

وقام الطبيب، بدوره، يذكر شروحاته، وكان رينارديه يدونها بقلم الرصاص في مفكرته، ولقد جرى التحقيق وسجل بصورة كاملة، ونوقش، ولكن دون أن يؤدي هذا كله إلى أي اكتشاف... وكان سكرتير البلدية قد آب أيضاً من بحثه الطويل عن ملابس الفتاة فلم يقع على شيء.

وقد أذهل اختفاء الملابس الحاضرين جميعاً، ولم يجد له أحد من تفسير غير السرقة... غير أن هذه الملابس كانت اطماراً وهلاهيل لا تساوي شيئاً... واذن فمن غير المعقول أو المقبول أن تكون قد سرقت...

وجعل قاضي التحقيق، والعمدة، وضابط البوليس والطبيب يبحثون هم أنفسهم، كل اثنين معاً، عن هذه الملابس، حتى لم يتركوا غصن شجرة إلا نحوه بحثاً وتفتيشاً... وكان ريناردية يقول لقاضي التحقيق في هذه الأثناء:

– كيف أمكن لهذا الشقي أن يفعل فعلته... ثم يخفي أسمال الفتاة أو يأخذها معه... ويترك جثتها هكذا في العراء... عرضة لجميع الأنظار؟...

وأجابه قاضي التحقيق بلهجة الذكي المداجي.

– هه... هه... ربما كانت هذه حيلة... إن مرتكب هذه الجريمة إما أن يكون وحشاً ضارياً أو وغداً داهية... وعلى أي حال فسوف نتمكن من اكتشافه.

وتأدى إليهما صوت عربة تدرج فالتفتا نحوها فشاهدا فيها وكيل النيابة والطبيب الشرعي وكاتب المحكمة وقد وصلوا هم الآخرون. وأعيد البحث من جديد... وتحدث الجميع حديثاً فيه حيوية وحرارة، وقال العمدة فجأة:

– هل تعلمون انني سأمسك بكم لتناول طعام الغداء؟

وقد قبلوا دعوته بالابتسامات. ووجد قاضي التحقيق أن فيما انهمكوا فيه من أمر هذه الفتاة القتيل، كان حسبهم في يومهم هنا، فالتفت إلى العمدة وقال:

– أستطيع أن آمر بحمل الجثة إلى بيتك. أتسمح بهذا؟ لا شك في أن عندك غرفة يمكن الاحتفاظ بالجثة فيها حتى المساء.

ولكن العمدة اضطرب وراح يقول متلعثماً:

– أجل.. ولكن لا.. لا.. انني أفضل أن لا تدخل الجثة بيتي.. لأن.. لأن الخدم عندي.. لا يفتأون يتحدثون.. عن.. الأشباح.. في برج دارنا.. برج الثعلب.. وأنت تعلم.. إنني لا أستطيع أبداً.. أوه.. أوه.. كلا.. أفضل أن لا تكون الجثة.. في بيتي..

راح القاضي يضحك، بل أغرق في الضحك ثم قال:

- طيب... طيب... لا تخف... سآمر بارسالها إلى بلدة «روي» للفحص الشرعي... ثم التفت إلى وكيل النيابة وقال:

- أستطيع أن أستعمل عربتك... أليس كذلك؟

- بالطبع... دون ريب...

وعادوا جميعاً نحو الجثة، وكانت الأرملة «لاروك» جالسة إلى جانب ابنتها وممسكة بيدها، وهي تحدق النظر أمامها بوجوم وذهول...

- ٨ -

حاول الطبيبان أن يبعداها لكي لا ترى صغيرتها وهي تحمل من مكانها غير انها سرعان ما ادركت ما يوشك ان يحدث، فارتمت على الجثة واحتضنتها احتضاناً كاملاً، وراحت تصرخ: «لن تأخذوها... انها لي انا... لي انا في هذه الساعة... لقد قتلوها... واريد ان احتفظ بها... لن تأخذها...»

ووقف الرجال جميعاً مضطربين، واجمين، من حولها، وجثا رنارديه على ركبتيه ليحدثها فقال:

- اسمعي، ايتها السيدة لاروك، يجب ان تؤخذ... لكي نعرف من قتلها، وبدون هذا لن نعرف ابداً... ويجب ان نبحث عن القاتل لينال عقابه وستعاد اليك عندما نجده... اعدك بذلك، استطاعت كلمات رنارديه ان تزعزعها عن مطلبها... وقالت وقد توقدت نظرتها المجنونة بمثل النار: وتلقون عليه القبض؟

- اجل... اعدك بذلك

فنهضت وقد اعتزمت ان تدع لاولئك الرجال ان يتصرفوا كما يرون غير ان

الضابط قال هامساً:

«من عجب ان لم يعثر على ملابسها» وعندئذ طرأت فكرة عارضة في رأس هذه المرأة الفلاحة، وسألت:

– اين هي ملابس ابنتها؟.. مفقودة ولم يعثروا عليها!!.. وعندئذ راحت تلحّ باصرار وعناد شديد يائس ان يسلموها ملابس ابنتها، ثم جعلت تبكي وتنتحب وتقول:

– انها لي... واريدها... فأين هي ملابسها... انني اريدها...

وكانوا، كلما حاولوا ان يهدئوا من روعها ازدادت هي عويلا ونواحاً واصراراً. عادت لا تطلب الجثة، وانما تريد الملابس، ملابس ابنتها... وربما كان هذا بدافع من الحرص والشح، على غير وعي منها، اكثر منه حافزا لعاطفتها كأم مفجوعة... وهي الفلاحة البائسة التي ترى في قطعة صغيرة من النقود ثروة ضخمة عزيزة المنال.

ولما جيء من بيت رينارديه باغطية لفت بها الجثة ثم حملت وغيبت داخل العربة، كانت المرأة العجوز، واقفة تحت الاشجار يساندها العمدة وضابط البوليس ولا تنفك تعود قائلة:

– لم يعد لى انسان في هذه الدنيا... لم يعد لي اي انسان... اي انسان... حتى ولا طاقيتها الصغيرة... .

وفي هذه الاثناء اقبل كاهن القرية، وهو شاب ظاهر البدانة. وقد اخذ على عاتقه ان يذهب بالعجوز، فسارت الى جانبه واتجها معاً الى القرية. وقد طامنت كلمات الكاهن الرقيقة من الم المرأة، وجعل يعدها بما حصر له من نعيم الاخرة

لابنتها تعويضاً عما وقع لها ... غير انها كانت لا تفتأ تردد دون انقطاع: «لو بقيت لي طاقيتها الصغيرة... لو بقيت لي هذه الطاقية فقط.» وكانت هذه الفكرة قد تمكنت منها حتى حجبت ما سواها...

وهتف رينارديه من بعيد:

- تعال تناول طعام الغداء معنا يا سيدي الكاهن... تعال بعد ساعة.

والتفت الكاهن واجاب:

- حباً وكرامة يا سيدي العمدة... سأكون عندك مع الظهر.

واتجه الجميع نحو دار العمدة التي لاحت لهم، من بين الاشجار، واجهتها المغبرة الدكناء، كان الجميع قد التقوا عند رأي واحد في اثناء حديثهم عن الجريمة، وهو ان متجولا ما هو الذي ارتكبها خلال تجواله في تلك الناحية بينما كانت الفتاة تغتسل في مياه النهر.

-٩-

بعد الانتهاء من مأدبة العمدة عاد القاضيان الى بلدة «روي لاتور» وقد اعلنا انهما سيعودان باكراً في الغداة، ورجع الطبيب والكاهن كل الى بيته، اما العمدة رينارديه فقد قام بجولة طويلة في السهول والحقول ثم عاد الى غابة الادواح الباسقة حيث ظل ينتقل في ارجائها بخطى بطيئة، وقد عقد يديه وراء ظهره... الى ان اقبل الليل... فآوى الى فراشه مبكراً جداً، وظل مستغرقاً في نومه حتى جاء قاضي التحقيق في صباح اليوم التالي ودخل غرفته، وهو يفرك يديه وقد بدا راضياً مبتهجاً وقال:

-آه... آه... الا تزال نائماً عال ... لقد وقعنا على جديد في الموضوع هذا

الصباح... يا عزيزي... .

وكان العمدة قد استوى.. جالساً في سريره فسأل قاضي التحقيق:

- ما هو هذا الشيء؟

- أوه! شي غريب... انك تذكر ولا ريب كيف كانت ام الفتاة تطلب يوم امس، بشيء تحتفظ به كذكرى من ابنتها... وكانت تريد، بصور خاصة، طاقيتها.. . عال... لقد وجدت، هذا الصباح وهي تفتح باب بيتها، قبقابيها الخشبيين على العتبة.. وهذا يثبت ان احد سكان الناحية هو الذي ارتكب الجريمة... فرثى لحال الأم.. ووضع لها قبقابي ابنتها على العتبة.. ثم أن «ميدريك»، ساعي البريد، أتاني بـ «كشتبان» الفتاة، وسكينها الصغيرة وعلبة ابرها.. واذن فان القاتل عندما حمل ملابس الفتاة لكي يخفيها سقطت من جيبها هذه الأشياء دون أن يدري، وفي رأيي أنا.. فانني أعلق، بصورة خاصة أهمية كبيرة على القبقابين.. فهذا أمر يدل على شيء من تربية خلقية.. وعاطفة حنان في القاتل.. وسنشرع الآن معاً، إذا أردت، في استعراض أسماء السكان الرئيسيين في هذه الناحية..

كان العمدة قد نهض، وقرع الجرس طالباً ماء ساخناً لحلاقة لحيته، وقال:

- كما تشاء، ولكن هذا سيطول جداً.. وفي وسعنا أن نبدأ فوراً..

جلس قاضي التحقيق السيد «بوتران» على كرسيه جلسة من يمتطي صهوة جواد، مسترسلاً بهذا حتى داخل الغرفة، في هوسه بالفروسية وركوب الخيل.

وفي هذه الأثناء كان السيد رينارديه قد غطى لحيته برغوة الصابون البيضاء وراح ينظر إلى وجهه في المرآة، ثم أخذ يشحذ موسى الحلاقة فوق قطعة من الجلد

وعاد يقول:

- إن أبرز شخصية تقيم في قرية «كارفلين» يدعى «جوزيف رينارديه» وهو عمدة القرية، وثري من أصحاب الأملاك والأراضي، وانه لرجل فظ، غليظ، ينهال ضرباً على الحراس والحوذية.. فانفجر قاضي التحقيق ضاحكاً، ثم قال:

- حسبنا هذا منه... فمن يليه؟

- يأتي بعده في الأهمية السيد «بيلدان» مساعده، وهو من الذين يربون البقر، وانه لغني هو الآخر وصاحب أملاك، وفلاح داهية، ومراء، وذو حيلة واحتيال في كل أمر له علاقة بالمال، غير أنه، في رأيي، أعجز من أن يرتكب مثل هذه الجريمة.

وقال قاضي التحقيق:

- فلنتركه إلى غيره.

وراح السيد رينارديه، وهو لا ينفي يحلق لحيته، ويقوم ويقعد، يستعرض أسماء سكان القرية جميعاً متحدثاً عن صفاتهم وأخلاقهم.. وبعد انقضاء ساعتين من جدل ونقاش، حام اشتباه قاضي التحقيق والعمدة حول أشخاص ثلاثة من أصحاب الشبهات هم: المدعو «كافيل» وهو قناص طيور مشرد، والمدعو «باكيه» وهو صياد سمك وسراطين في النهر، وراعي أبقار اسمه «كلوفيس».

دامت التحريات طيلة فصل الصيف دون العثور على القاتل وقد استطاع الذين اشتبه بهم وألقي القبض عليهم أن يثبتوا براءتهم واضطر مكتب المدعي العام أن يقلع عن ملاحقة القاتل والبحث عنه.

غير أن هذه الجريمة كانت قد روعت تلك الناحية جميعاً وبصورة غريبة فقد

أبقت في نفوس السكان قلقاً واضطراباً، وخوفاً غامضاً واحساساً خفياً بالذعر لم يتأت من استحالة الوقوع على أي أثر للقاتل وحسب بل وبصورة خاصة من وجود قبقابي الفتاة على عتبة أمها العجوز في الغداة.

وقد كان اليقين بأن القاتل قد شهد التحقيق، وانه لا يزال يقيم في القرية دون ريب. كان هذا كله لا ينفك يساور الأفكار ويلازمها ويتسلط عليها ويحوم فوق المنطقة كأنه نذير مخيف لا ينقضي..

- ١٠ -

غدت غابة الشجر نفسها مكاناً رهيباً، يتجنبه السكان لاعتقادهم أن الأرواح والشياطين أصبحت تسكنه. وقد كان أهل القرية، في الماضي، يتوافدون إليه للنزهة عصر أيام الآحاد فيقتعدون الأعشاب حول جذوع الشجر الباسق، أو ينطلقون إلى عدوتي النهر يرقبون الأسماك وهي تتفلت هاربة تحت ما يعلو المياه من طحالب وأعشاب. وكان الفتيان يلعبون بكرات الخشب أو الحديد أو المطاط في بعض الأماكن التي سوروا أرضها ومهدوها، أما الفتيات فقد كن يتنزهن صفوفاً وجماعات من أربع أو خمس، وهن ممسكات بعضهن بعضاً بالسواعد، ويرحن ينشدن الأناشيد بأصوات، منكرة تصرخ أكثر مما تغني، وتخرس الآذان بأنغامها النابية وتذهب بسكينة الجو وتثير الأعصاب بألحانها المزعجة كأنها قطرات خل تكوي أعصاب الفم كياً.

غير أن أحداً، الآن، لم يعد تحدثه نفسه أن يهرع إلى حيث تنهض قبة الشجر الباسق الملتف.. كأنما أضحى ينتظر أن يجد ثمة جثة ما ملقاة على الأرض.

وجاء الخريف، وتساقطت أوراق الشجر.. كانت لا تنفك تتهاوى ليل نهار فتهبط وهي تدور حول نفسها هشة خفيفة على امتداد الأدراج العظيمة.. وهكذا أخذت تبين صفحة السماء من خلال الأغصان لا يكاد يحجبها شيء. وفي بعض

الأحيان، عندما كانت تهب الريح فوق القمم العالية، كان المطر المتباطيء المتواصل يزداد كثافة على حين غرة، ثم لا يلبث أن يهطل مدراراً حتى يحجب العشب تحت بساط أصفر اللون تسمع له خشخشة إذا ما وطئته الأقدام. وكان هذا الخرير الذي لا يكاد يسمع، هذا الخرير الطافي، الهادىء، الحزين، الذي لا ينقطع: يبدو وكأنه شكاة متصلة، وكان ورق الشجر المتهاوي دائماً أشبه ما يكون بالدموع، الدموع الكبيرة تسكبها الأدواح الشامخة آناء الليل وأطراف النهار أسى على السنة المنصرمة، وعلى انقضاء الأصباح النيرة والأمسيات الرقيقة الوادعة، والنسائم الندية الدافئة وأشعة الشمس الساطعة.. وربما، أيضاً على الجريمة النكراء التي شاهدت الأدواح ارتكابها تحت افيائها، وعلى الفتاة الصغيرة التي اغتصبت وقتلت عند جذوع هاتيك الأشجار.. كانت تذرف دموعها في صمت الغابة الخاوية المهجورة المثيرة للرعب، حيث لا بد أن روح الفتاة الصغيرة الميتة تهيم وحدها في أرجائها.

كان نهر «برانديل» وقد تضخم بما حملته إليه هواطل الأمطار، أكثر اندفاعاً في جريانه، وأكثر اربداداً وغضباً وجيشاناً بين ضفتيه..

وها هو دينارديه قد عاد، فجأة، يجوب الغابة، كان كلما أرخى الليل سدوله، يخرج من داره، ويذهب منطلقاً تحت الأشجار وعليه سيماء من يفكر، وقد دس يديه في جيبه. كان يسير طويلاً فوق الأعشاب الرطبة في حين كانت جماعات الغربان المقبلة من كل ناحية مجاورة لتأوي في أعالي الشجر، تتقلب في فجاج السماء وكأنها حجاب حداد أسود كبير يسبح في مهب الرياح، لم تطلق نعيبها عنيفاً، مدوياً ونذيراً للشؤم والنحس.. وكانت تحط، أحياناً، فوق الأغصان المتشابكة أشبه ما تكون ببقع سوداء، تحت سماء تتوهج احمراراً، تحت سماء مدماة في غسق أمسيات الخريف... ثم تعود فتنطلق، وهي ترسل نعيبها الرهيب، وتبسط أجنحتها من جديد، فوق أرجاء الغابة، الحالكة السواد...

وأخيراً تتهاوى دراكاً فوق أعلى الذرى. ثم تكف عن صياحها شيئاً فشيئاً في حين يخلط الليل الذي يزداد حلوكة وكثافة، بين سواد أجنحتها وظلمة الفضاء الرحيب...

ويستمر ريناردية هائماً على وجهه، وعندما لا يعود الظلام المتكاثف يسمح له بالمسير، كان يرجع إلى داره، وينحط فوق مقعده المواجه لموقد النار كأنه يجففهما، ويظل البخار يتصاعد منهما مدة طويلة.

وما هي إلا أن شاع نبأ كبير في المنطقة كلها مفاده: أن العمدة قد شرع يقطع أشجار غابته.

- ١١ -

تجمع عشرون حطاباً لقطع أشجار الغابة، وبدأوا عملهم في أقرب ناحية منها إلى دار العمدة. كانوا يعملون بهمة ونشاط وسرعة وهو واقف ثمة يراقبهم ويشاهد ما يفعلون. كانوا، في بادىء الأمر، يعرون الشجرة الضخمة من فروعها وأغصانها الكبيرة والصغيرة على السواء، ثم يكسرونها قطعاً صغيرة ويحزمونها ويجمعون منها أكواماً بعضها فوق بعض، وبعد هذا يعمل الحطابون بلطاتهم وفؤوسهم في جذع الشجرة حتى إذا أحدثوا فيه صدعاً غائراً أمسكوا بحبال غليظة مربوطة في أعلى الشجرة وجعلوا يشدون ويجذبون وهم يرسلون صوتاً واحداً منغوماً حتى تسمع الشجرة تضقضة ثم سرعان ما تهوي على الأرض محدثة دوياً يصم الآذان كأنه هزيم رعد بعيد..

هكذا أخذت الغابة تخلو من أشجارها يوماً بعد يوم أشبه ما تكون بجيش يفقد جنوده. وكان ريناردية لا يفارق المكان من الصباح حتى المساء، وهو لا ينفك يشاهد الغابة تموت ببطء ويداه معقودتان وراء ظهره وكان إذ يرى شجرة تهوي يبادر فيضع قدمه فوقها كأنها جثة من الجثث، ثم يشخص بعينيه إلى شجرة

أخرى قائمة دونما اصطبار خفي كأنما هو ينتظر بل يأمل وقوع شيء ما في نهاية هذه المجزرة.

وفي هذه الأثناء كان الحطابون يقتربون من المكان الذي وجدت فيه جثة الفتاة، وذات مساء، في ساعة الغروب، وجدوا أنفسهم في هذا المكان نفسه. وكان الظلام قد أخذ يزحف ويغطي السماء فرأى الحطابون أن يكفوا عن العمل ويؤجلوا إلى الغد قطع شجرة ضخمة من الزان. ولكن العمدة اعترض وألح في أن يجردوا -في هذه الساعة نفسها- الدوحة العظيمة، التي أظلت الجريمة، من فروعها ويقطعوها من جذورها..

ولما قام الحطاب المختص بتعرية الشجرة وأعدها لتلقي مصيرها المختوم، وبعد أن أعمل الحطابون بلطاتهم في جذعها وأحدثوا فيه ذلك الصدع العميق راح خمسة من الرجال الأشداء يجذبون الحبال المثبتة في ذروتها.

وقاومت الدوحة العظيمة، وكان جذعها على الرغم من أن بلطات الحطابين قد حزته حزاً حتى منتصفه، صلباً قاسياً كأنه حديد لا يلين، وتجمع الحطابون كلهم وأمسكوا بالحبال وجذبوها في وثبة واحدة منتظمة، واستمروا يجذبون حتى كادوا ينبطحون على الأرض ثم أرسلوا صيحة جهورة من حلوقهم، صيحة تشي بالجهد الخارق الذي يبذلونه. وكان قد وقف اثنان من الحطابين قبالة الشجرة العملاقة، وكل بلطته في يده فكأنهما سيافان على استعداد لضرب عنق مجرم أثيم... وكان رينارديه نفسه واقفاً ثمة ويده فوق لحاء الشجرة ولا ينى ينتظر سقوط الشجرة في انفعال عصبي قلق... وقال له أحد الرجال:

- إنك قريب جداً من الشجرة يا سيدي العمدة.. فقد تجرحك وتؤذيك عندما تهوي.

فلم يجب ولم يتراجع بل كان يبدو مستعداً أن يحيط بساعديه الاثنين شجرة

الزان لكي يجندلها وكأنه من عتاة المصارعين.

وعلى حين غرة سمع ما يشبه التمزق بدأ من أسفل الشجرة العملاقة وتراكض حتى قمتها كأنه ارتجاجة رهيبة، ثم انحنت قليلاً توشك أن تسقط ولكنها مع ذلك لا تنفك تقاوم.. وازداد اهتياج الرجال، وتوترت سواعدهم وبذلوا جهداً أكبر.. وفيما كانت الشجرة يتقصف جذعها لتهوي خطا ريناردييه إلى أمام ثم توقف مرتفع الكتفين لكي يتلقى الصدمة الهائلة الصدمة القاتلة التي ستسحقه على الأرض سحقاً. غير أن شجرة الزان انحرفت قليلاً في سقوطها فلم تمس منه غير جانبه مساً خفيفاً ألقاه منكباً على وجهه على مبعدة خمسة أمتار من مكان سقوط الشجرة.

وتدافع الحطابون لينهضوه غير أنه سبقهم وتحامل ناهضاً على ركبتيه ذاهل الملامح زائغ العينين وأخذ يمر بيده فوق جبينه كأنه قد استعاد صوابه بعد نوبة عارضة من جنون..

ولما استوى واقفاً على قدميه سأله الحطابون عما دهاه، وقد باغتهم الأمر ولم يفقهوا مما حدث شيئاً، فأجاب مغمغماً أن ذهنه قد شرد لحظة، أو على الأصح، كان هذا منه رجعة إلى الطفولة فقد تصور أن أمامه سعة من الوقت لكي يمر تحت شجرة كما يفعل الصبية وهم يمرون مسرعين أمام العربات المنطلقة... وقال أنه كان كمن يلعب بالنار حقاً.. وانه كان منذ ثمانية أيام يتساءل عما إذا كان يستطيع أن يمر تحت شجرة توشك أن تسقط فلا يصيبه منها سوء...

واعترف بأن هذا كان حماقة منه، غير أنه اعتذر بأن كل انسان تمر به مثل هذه اللحظات غير السليمة، ومثل هذا الاغراء الصبياني السخيف.

كان يشرح للحطابين ما حدث له بصوت خفيض، وهو لا يكاد يجد الكلمات التي يقولها، ثم ذهب وهو يتمتم: إلى الغد، يا أصدقائي؟

وما أن عاد إلى غرفته، حتى جلس إلى منضدته التي كان يضيئها مصباح ساطع النور، ووضع جبينه بين راحتيه وطفق يبكي.

بكى طويلاً، ثم كفكف دموعه، ورفع رأسه. ونظر إلى ساعة الحائط، فوجدها لم تبلغ السادسة بعد. قال في نفسه: «لا يزال في الوقت متسع قبل موعد طعام العشاء» ثم نهض وأغلق الباب بالمفتاح، وعاد فجلس أمام المنضدة وأخرج من درجها الأوسط مسدساً وضعه فوق أوراقه، في موضع ينسكب عليه نور ساطع، فتلألأ معدن السلاح وأرسل شعاعاً متوهجاً كأنه اللهب..

- ١٢ -

تأمل ريناديه المسدس مضطرب النظرة كرجل ثمل، ثم نهض وراح يمشي من أول الغرفة حتى آخرها، وكان يتوقف أحياناً ولا يلبث أن يواصل سيره. ثم فتح، فجأة، الباب المؤدي إلى الحمام وبلل فوطة مسح بها جبينه، تماماً كما فعل في صبيحة اكتشاف الجريمة، ثم عاد يقطع الغرفة جيئة وذهاباً، وكلما مر أمام منضدته كان المسدس المتوهج يجتذب أنظاره، وكأنما يتوسل إلى يده أن تقترب منه وتأخذه... غير أنه كان يرقب الساعة ويقول في نفسه: «لا يزال ثمة متسع من الوقت»..

ودقت الساعة النصف بعد السادسة، وعندئذ تناول السلاح، وفتح فمه على وسعه ودس فيه أنبوب المسدس كأنما يريد أن يبتلعه. وتلبث هكذا بضع ثوان لا يأتي بحركة واصبعه على لسان اطلاق النار، وعلى حين غرة اعترته هزة رهيبة، فبصق المسدس، وتهاوى على مقعده وهو يشهق باكياً ويقول: «لا أستطيع.. لا أجرؤ.. يا إلهي.. يا إلهي.. ماذا أفعل لأجد القوة على الانتحار؟..».

وقرع الباب فاستوى جالساً مستطار اللب. وسمع الخادم يقول:

- عشاء سيدي جاهز..

فأجاب:

- حسن. أنا آت..

والتقط المسدس فأعاده إلى الدرج، ونظر إلى وجهه في مرآة موقد النار لكي يتأكد من أنه غير كثير التقبض. فرآه أحمر كالعادة، ربما أكثر احمراراً بعض الشيء وحسب. وعندئذ غادر غرفته وهبط إلى حجرة الأكل.

طفق يتناول طعامه متمهلا كمن يريدان يطيل الوقت، كمن لا يريد ان ينفرد بنفسه قط... ثم دخن بضعة «غلايين» في الحجرة في حين كان الخدم يرفعون عن المائدة الاطباق وبقايا الطعام. ثم عاد ريناردیه فصعد الى غرفته.

وما ان دخلها حتى راح ينظر تحت السرير، ثم فتح الخزائن جميعا، وبحث في كل ركن. وتفقد كل قطعة من الاثاث وبعد ذلك أشعل الشموع الموضوعة فوق موقد النار، ودار حول نفسه عدة مرات، وارسل بصره في ارجاء الغرفة خائفاً مذعوراً متقبض الوجه... ذلك انه كان واثقاً انه يوشك ان يعود فيرى الفتاة المقتولة رؤيته اياها في جميع الليالي السابقة، تلك الفتاة الصغيرة التي اغتصبها ثم صرعها... كان هو الذي قتلها.

كانت هذه الرؤيا تعاوده كل ليلة فيسمع اولا ما يشبه هدير آلة تدور، او دوي قطار بعيد يمر فوق جسر. وعندئذ يروح يلهث، ثم يشعر انه يكاد يختنق. فيفك زر ياقته ويحل حزامه... ثم يمشي في الغرفة لينشط دورته الدموية، ويحاول ان يقرأ، ويحاول ان يغني... دون جدوى... فقد كان ذهنه، على الرغم منه، يعود الى يوم الجريمة مستعيداً كل اسرارها وتفاصيلها بما رافق ذلك من اشد الانفعالات، منذ اول دقيقة حتى آخر لحظة... .

ساعة نهض من نومه. في ذلك الصباح الرهيب، صباح يوم الجريمة... كان يحس بشيء من دوار وصداع فعزا ذلك الى الحر فلزم غرفته حتى، موعد الغداء. وبعد تناول طعامه نام القيلولة، ثم خرج عصر ذلك اليوم ليستنشق النسيم العليل المهدىء تحت اشجار الغابة.

ولكنه ما ان أصبح في العراء حتى عاد الهواء الثقيل الملتهب الآتي من السهل يلفحه ويزيد في ضيقه. وكانت الشمس لا تزال تتكبد السماء وتصب على الارض المحترق، الظمأى، شواظاً من نارها. وما كانت ثمة نسمة واحدة رطبة تحرك ورق الشجر. وكان يخطو فوق طحالب نهر «البرانديل» الذي كان يرسل بعض رطوبة في الجو وتحت قبة الشجر المعروش. غير ان رينارديه كان لا يزال يحس انه على غير ما يروم، وكان يبدو له كأن يداً غير منظورة تضغط على عنقه، وما كان ساعتئذ، ليفكر في شيء، وما كان اقل الافكار في رأسه عادة. ولكن فكرة واحدة غامضة كانت تلازمه منذ اشهر ثلاثة هي: ان يتزوج ثانية... كان يتألم ان يعيش وحيداً، كان هذا الالم ينتابه روحاً وبدناً... وكان قد اعتاد، منذ عشر سنوات، ان يتمتع بوجود امرأة قربه اعتاد أن يراها في كل لحظة، اعتاد معانقتها إياه يومياً، وكان بحاجة شديدة، آمرة، غامضة، الى هذا الاحساس بوجود هذا البدن، وتلك القبلات... ومنذ وفاة زوجته كان يعاني من ألم موصول دون ان يفقه السبب. كان يعاني من انه لم يعد يحس بفستانها يخفق بين ساقيه كل يوم... وان لا يجد، بصورة خاصة، سبيلا الى السكنية والتفتر اللذيذ بين احضانها... وكان السيد رينارديه قد ترمل منذ ستة أشهر، ومع ذلك راح يبحث، في تلك الناحية، عن فتاة او ارملة ما يمكنه ان يتزوجها.

وكان في ذلك الصباح قد عاودته تلك الرؤى البدنية التي تخامره، فخطر له، فجأة، ان يسبح في نهر «البرانديل» لكي يتخفف من وطأة الحر... ومن وطأة الدم الذي يفور في عروقه... وكان يعرف موضعاً متسعاً وعميقاً من النهر، على

مبعدة قليلة، يأتي اليه اهالي تلك الناحية فيستحمون فيه احياناً ابان فصل الصيف. فغذ السير اليه.

كان الشجر الصفصاف يخفي هذا الحوض الصافي الذي يرتاح في احضانه تيار الماء، ويغفو قليلا قبل ان يعود فينطلق. وحسب رينارديه، وهو يقترب من ذلك الموضع، انه يسمع حركة خفيفة، واصطفاق ماء واهن ليس هو اصطفاق النهر بين عدوتيه، فنحى الاغصان برفق وراح يتطلع، فشاهد بنية صغيرة عارية تماماً، تبدو ناصعة البدن من خلال الماء الشفاف، وهي تخبط صفحة النهر بيديها وترقص قليلا، وتدور حول نفسها بحر كات لطيفة... .

-١٣-

لم تكن طفلة غريرة، ولم تصبح بعد امرأة: كانت مكتنزة وتامة التكوين، وفي الوقت نفسه محتفظة بملامح صبية مبكرة النضج والنمو، لم يتحرك ريناردیه... تسمر في مكانه وقد تملكته الدهشة واستبد به القلق، وتقطعت انفاسه من اثر انفعال غريب حاد. تلبث ثمة خافق القلب كأنما قد تمثل له احد احلامه الشهوانية... وقد تحقق كأنما قد اتت جنية رجسة فكشفت له عن هذه المخلوقة المثيرة اليافعة، عن «فينوس» صغيرة وربة جمال. فلاحة ولدت في ثنايا فورة نهر صغير، كما ولدت «فينوس» الاخرى الكبيرة من اثباج امواج البحر العظيم وزبده... .

وعلى حين غرة خرجت الفتاة من ماء النهر، واتجهت نحوه- دون ان تراه- باحثة عن ثيابها لكي ترتديها، وكان كلما تقدمت هي خطوات قليلة مترددة خشية الحصى المدبب الرؤوس، يحس انه مندفع اليها بقوة لا تقاوم، بعرام وحشي ضار اشرأب له بدنه، وارسل في حسه سيلا من جنون، واشاع فيه الارتجاف من رأسه حتى اخمص قدميه.

بقيت واقفه بضع لحظات مختفية وراء شجرة صفصاف. وعندئذ فقد رينارديه عقله كله، فنحى الاغصان وانقض عليها واخذها بين ذراعيه، فسقطت وهي اشد خوفا من ان تقاوم، واعظم ذعرا من ان تصيح وتنادي... وهكذا اغتصبها دون ان يعي ما يفعله.

وقد استفاق من فعلته كما يصحو الانسان من كابوس رهيب. وطفقت الفتاة تبكي وتعول فقال هو:

– اسكتي... اسكتي... سأعطيك نقوداً.

فصرخت وهي تتلوى وتحاول الهرب .

حاول أن يوقف، في حلقها، صرخاتها الرهيبة الممزقة.. ولما استمرت تتخبط بين يديه بقوة المخلوق البائس الذي يريد ان ينجو من الموت اطبق بيديه، وهما يدا عملاق، على عنقها الصغير الممتلىء صياحاً وصراخاً، وراح يضغط بقوة حتى صرعها في لحظات...وما كان ليفكر في قتلها، وانما كان يريد فقط ان يسكتها!...

ثم استوى واقفاً وقد أذهلته بشاعة فعلته... كانت منطرحة امامه، محتقنة الوجه سواداً، وهم ان يهرب، ولكن غريزة خفية غامضة انبثقت في نفسه الهالعة وقادت خطاه كما تقود جميع الاشخاص في مواطن الخطر... واوشك ان يلقي بجثة الفتاة في مياه النهر، غير ان دافعاً آخر دفع به نحو اسمال الفتاة فجمعها وحزمها بخيط كان في جيبه واخفاها في فجوة عميقة في النهر تحت جذع شجرة غاص اسفلها في الماء.

ثم انطلق واسع الخطى نحو الحقول والسهول، وقام بجولة كبيرة لكي يراه الفلاحون الذين يقيمون بعيداً جداً عبر الجانب الاخر من الناحية، ثم عاد الى داره

ليتناول طعام العشاء في موعده،

ومع ذلك فقد استغرق في النوم تلك الليلة، استغرق في نوم ثقيل، أشبه بنوم البهائم، اشبه بنوم المحكوم عليهم بالاعدام احياناً... ولم يفتح عينيه الا مع اولى شعاعات النهار، وراح ينتظر ساعة نهوضه المعتادة، والعذاب يفري قلبه خشية اكتشاف الجريمة.

ثم كان عليه ان يحضر كل ما جرى من تحقيق، بعد ذلك، وهو كمن ينهضون ويتكلمون في احلامهم، وقد تغيم عقله من الذهول والوهم حتى كان يرى الاشياء والناس من خلال ضرب من الاحلام، وفي شبه سحابة من خمار، وشك يبلبل العقل في اوقات الكوارث الكبرى.

وقد اخترقت قلبه الصيحة الممزقة التي ارسلتها امها العجوز... في تلك اللحظة كاد يرتمي جاثيا عند قدميها معترفاً بجريمته هاتفاًمن اعماقه: «انا الذي قتلتها» ولكنه تمالك نفسه... ومع الليل انطلق الى النهر واخرج صرة ملابس الفتاة، واخذ قبقابها الخشبي وذهب به فوضعه على عتبة دار الام... .

-١٤-

كان ريناردبه هادئاً، ومالكا لنفسه، ومخادعاً، ومبتسما طيلة الوقت الذي استغرقه التحقيق في الغابة، وقد استطاع ان يوجه هذا التحقيق ويضلله كيف شاء. وكان يناقش قاضي التحقيق والمدعي العام بطمأنينة حول جميع الافتراضات التي كانت تخطر لهما، وكان يكافح آراءهما، ويقوض براهينهما، وكان يجد سروراً ما مؤلما ومر المذاق وهو يجهد في تشويش افكارهما، وتبرئة كل من كانا يشتبهان بهم.

ولكنه، منذ اليوم الذي تركت فيه التحريات والبحث عن القاتل، اصبح،

شيئاً فشيئاً، عصبي المزاج، واكثر استثارة واهتياجاً عما كان عليه في السابق، على الرغم من انه كان يسيطر على نوبات غضبه. وغدا ينتفض انتفاضاً لدى اية حركة، وحاق به الخوف فهو يرتعد فرقاً لاية نأمة، وكان احيانا يرتجف من قمة رأسه حتى اخمص قدميه اذا ما حطت على جبينه ذبابة . وعندئذ اجتاحته حاجة ملحة، غلابة، لكي يتحرك، ويسير ويتجول على نطاق واسع، ويظل، ومع ذلك منتصبا على قدميه الليالي الطوال، وهو لا ينفك يسير في ارجاء غرفته.

ولم يكن هذا منه لأن ضميره كان يخزه ويؤنبه. ان طبيعته البهيمية لم تكن لتستجيب لاي لون او ظل من عاطفة او خشية، او وازع خلقي. وانه لرجل فطر على العنف والقوة، وقد ولد للحرب والنضال واكتساح البلاد المفتتحة وذبح المغلوبين المقهورين، وهو كان، لذلك ممتلئا بالغرائز الوحشية رغرائز القتال التي لا تقيم لحياة الانسان اي وزن. وعلى انه كان يحترم الكنيسة بدافع سياسي فقد كان لا ينتظر في آخرته ثوابا او عقابا. وانما كان يحتفظ لنفسه بايمان ما، هو عبارة عن فلسفة غامضة مصنوعة من كل افكار وآراء جماعة «الانسيكلوبديين» في القرن الماضي: وكان يرى في الدين عقوبة روحية للقانون، وكلاهما من مبتكرات بني البشر لتنظيم وضبط العلاقات الاجتماعية.

وكان يبدو له ان قتل انسان ما في مبارزة، او في حرب او في شجار، او في حادث، او بدافع الانتقام، او حتى بدافع الصلف والمباهاة، امر يصلح للهو والازدهاء، وخليق ان لايترك في نفسه من اثر اكثر مما يمكن ان تتركه طلقة من بندقية تصيب ثعلباً... ولكنه قد احس بانفعال المسكينة، وهو قد قتلها، اولا، في نشوة جنون عارمة، فيما يشبه عاصفة شهوانية افقدته عقله. ثم احتفظ في ملمس شفتيه، وحتى في مجس اصابعه القاتلة بضرب من الحب البهيمي، وفي الوقت نفسه بانتفاضة كره مذعورة لهذه الفتاة التي باغتها هكذا وقتلها بنذالة. وكان تفكيره يعود به، في كل لحظة، الى ذلك المشهد الرهيب وعلى انه حاول

جاهداً ان يقصي هذه الصورة وينحيها برعب واشمئزاز عن خاطره فانه كان يحس بها تحوم في نفسه، وتدور من حوله، مترقبة- دون انقطاع- ان تعود فتترا ءى له.

وعندئذ استحوذ عليه الخوف من الامسيات، والخوف من العتمة التي تتكاثف حوله،وكان لا يدري، بعد، لماذا تبدو له الظلمات مرعبة، غير انه كان يخشاها بالغريزة، ويشعر انها مليئة بالرهبة والفزع. اما النهار بنوره الساطع فقد كانت تمحي فيه اهوال الخوف وتري الاشياء والمخلوقات في وضحه كما هي، وكما تبدو في النور... غير انه في الليل، الليل الكثيف، الاشد كثافة من الاسوار الجاثمة، الليل الحالك السواد، الشاسع الواسع الرحيب الذي تحس في اطوائه الفزع الخفي يضرب تائها، ويجوس في كل مكان، كان هذا الليل يبدو له وكأنه قد اخفى في احشائه خطرا مجهولا، قريباً، ومتوعداً. ولكن ما هو هذا الخطر؟

-١٥-

وما اسرع ما علم بامر هذا الخطر: كان جالسا في مقعده في ساعة متأخرة من ليلة لم يذق فيها طعما للنوم فتخيل اليه انه يرى ستار النافذه يتحرك فراح ينتظر قلقا خافت القلب ولكن الستار لم يعد يتحرك. ثم وعلى حين غرة اضطرب الستار من جديد او على الاقل خيل اليه ذلك فلم يجرؤ على النهوض ولم يجرؤ على التنفس ومع ذلك فقد كان شجاعا وما اكثر ما دخل في حياته في الوان من العراك وشد ما كان يشتهي ان يجد في بيته لصوصا يصاولهم... .

وهل كان صحيحا ان هذا الستار يتحرك؟ القى على نفسه هذا السؤال وهو يحسب ان عينيه خدعتاه.

ومع ذلك فقد كان شيئاً يسيرا ما يراه، انه اقرب ما يكون الى حفيف غلالة رقيقة، أو اشبه بشيء بما تحدثه الريح من خفق وتماوج. غير ان ريناردييه بقي جاحظ النظر، مشرئب العنق، ثم نهض فجأة وقد تولاه الخجل من خوفه، وخطا

بضع خطوات وامسك بالستار بكلتا يديه ونحاه عن آخره. فلم ير بادىء الامر، غير الالواح الزجاجية السوداء، سوداء كأنها بقع كبيرة من حبر لامع، وكان الليل، الليل العريض الذي لا يسبر غوره يمتد خلف الزجاج حتى الافق غير المرئي. تلبث واقفاً قبالة هذا الظلام، الذي لا حدود له وعلى حين غرة شاهد ضوءاً متحركاً بدا كأنه بعيد. وعندئذ قرب وجهه من لوح الزجاج وقد حسب ان صائد اسماك يحاول ان يصطاد خلسة في نهر «البرانديل» بعد منتصف الليل.

وكان هذا الضوء لا ينفك يزحف فوق ضفة النهر، وتحت اشجار الغابة، ولما لم يستطع ان يميز ما يرى اخفى عينيه في راحتيه. ولكن هذا الضوء لم يلبث ان غدا نوراً ساطعاً، فشاهد رينارديه الفتاة الصغيرة عارية مدماة وملقاه فوق الطحالب... وعندئذ تراجع وقد تقبضت اساريره من الهلع، فاصطدم باحد المقاعد وسقط على ظهره، وبقي في هذا الوضع بضع دقائق كئيباً محزوناً، ثم استوى جالساً وراح يفكر: لا شك في ان ما شاهده كان كابوساً ثقيلا، سببه ان سارق حصاد او غلات يجوس ضفة النهر ومصباحه في يده. ثم ماذا يدعو الى الدهشة ان تعاوده، احيانا، ذكرى جريمته وتلقي في روعه انه يرى تلك الفتاة التي قتلها ؟

وبعد ان نهض واقفاً شرب كوبا من ماء، ثم جلس.، وراح يفكر: «ماذا عسى ان اصنع لو عادت هذه الصورة ثانية؟» وقد كانت ستعاوده دون ريب، وكان يشعر بهذا، وعلى اتم ما يكون ثقة فيما يشعر... وها هي النافذة قد عادت تسترعي انتباهه، وتدعوه، وتجتذبه، ولكي لا تقع عيناه عليها ادار كرسيه، ثم تناول كتاباً وحاول ان يقرأ، ولكن سرعان ما بدا له انه يسمع شيئاً يتحرك.

لا شك في انه قد تحرك هذه المرة. لا سبيل الى اي شك، فاندفع نحوه وقبض عليه بيد بالغة العنف والوحشية حتى هوى مع عارضته الخشبية، ثم الصق وجهه، بشراهة، فوق الزجاج، فلم ير شيئاً. كان كل شيء شديد الظلام في الخارج،

وعندئذ تنفس الصعداء بسرور وارتياح كما يفعل رجل تم انقاذه من خطر الموت.

وعاد فجلس. ولكن لم يلبث ان استحوذت عليه الرغبة في النظر، من خلال النافذة ومنذ ان هوى الستار اصبحت النافذة اشبه بفجوة مظلمة رهيبة تجتذب نظره نحو ارض الريف المظلمة. ولكي لا يستسلم لهذا الاغراء الخطر، نضا ملابسه، واطفأ الانوار واضطجع واغمض عينيه، وراح ينتظر النوم. وعلى حين غرة اخترق اجفانه نور متدفق ساطع، ففتح عينيه وفي يقينه ان داره تحترق. ولكن كل شيء كان مظلماً. فاتكأ على مرفقه لكي يستطيع ان يميز النافذة التي كانت لا تنفك تجتذبه دون وناء، ولفرط ما حاول ان يتبين شيئا ما شاهد نثارة من نجوم، فنهض، وقطع غرفته متحمساً متلمساً، ثم وجد الواح النافذة الزجاجية عن طريق يديه المبسوطتين الى امام، فوضع جبينه فوق الزجاج، وسرعان ما شاهد، هناك تحت الأشجار، جثة الفتاة تتوهج وكأنها قطعة من الفوسفور تنير الظلام من حوله... فأرسل رينارديه صرخة مدوية وانثنى عائداً الى سريره فبقي فيه حتى الصباح وقد اخفى رأسه كله تحت الوسادة...

-١٦-

غدت حياة رينارديه، منذ هذه اللحظة، لا تحتمل ابدا، وكان يقضي نهاره في الهلع من الليلة المقبلة. وكانت الرؤيا الفظيعة تعاوده كل ليلة. وكان لا يكاد يدخل غرفته ويغلق بابها حتى يروح يحاول ان يكافح دون جدوى. فقد كانت تنهضه وتدفع به الى زجاج النافذة قوة لا سبيل الى مقاومتها، فكأنه يستدعي شبح الفتاة ثم لا يلبث ان يراه، يراه ممددا، بادىء الامر، في مكان الجريمة، وقد انكشفت ذراعاه، وتباعدت ساقاه تماماً على الصورة التي وجدت فيها الجثة: ثم كانت الميتة تنهض وتتقدم بخطى بطيئة كما فعلت الفتاة وهي تخرج من النهر. كانت تتقدم برفق في اتجاه مستقيم وهي تطأ العشب والازهار الجافة، ثم ترتفع في الفضاء منطلقة نحو نافذة رينارديه.

كانت تقبل اليه كما اقبلت نحو قاتلها يوم ارتكاب الجريمة... وكان هو يتراجع... يتقهقر امام هذه الرؤيا... حتى يصل الى سريره فينهار فوقه وهو موقن ان الصغيرة قد دخلت من النافذة ووقفت وراء الستار الذي لا يلبث ان يتحرك، ويظل يحدق النظر في هذا الستار حتى وهو ينتظر، دون انقطاع، ان يراها تخرج من ورائه.ولكنها لا تخرج ابداً، بل تظل هناك، متوارية خلف الستار الذي لا يتحرك اكثر من مرة واحدة احياناً... وهو لا ينفك يقبض باصابع متقبضة على اغطية السرير، ولا ينفك يضغط عليها كما سبق وضغط على عنق الفتاة يوم مصرعها... وكان يستمع الى الساعة تدق اوقاتها، ويصغي الى حركة محركها في صمت مطبق، وينصت الى وجيب قلبه وضرباته العميقة. كان ذلك التاعس يتألم، وكان المه اشد مما يعاني انسان.

ثم لا يكاد يظهر في سقف الغرفة اشعاع من نور ناصع البياض ينبىء بالنهار الوليد حتى يحس انه قد نجا، وانه قد اصبح وحده في الغرفة... فيستغرقه النوم، عندئذ، ويسترسل بضع ساعات في سبات قلق، محموم، وقد تعاوده في احلامه ايضا تلك الرؤيا المخيفة التي تلازمه في لياليه الساهرة.

وكان اذ يهبط الى قاعة الطعام، فيما بعد، ليتناول غذاءه يحس انه متيبس الاطراف، متجمد الجسم كما يحدث للانسان بعد تعب شديد مرهق. واجهاد طويل الامد، وكان لا يكاد يتناول شيئاً من طعام، وهو لا ينفك يلازمه الهلع من تلك التي... ستظهر له... في الليلة المقبلة... .

ومع ذلك فقد كان يدرك انه ليس ثمة من رؤيا، وان الاموات لا يعودون ابداً. وان روحه المريضة، روحه التي تلازمها فكرة واحدة ثابتة وذكرى لا سبيل إلى نسيانها، كانت هي السبب الوحيد في عذابه، وهي وحدها التي تبتعث شبح الفتاة وتحييها من جديد، وتستدعيها، وتنصبها واقفة امام عينيه اللتين لا تمحى منهما آثار تلك الصورة- غير انه كان يدرك ايضاً انه لن يشفى ولن يبرأ، ولن

ينجو ابداً من عذاب ذاكرته الوحشي: وقد قرر ان يموت ولا يظل فريسة لهذه الالوان من العذاب... .

وعندئذ طفق يبحث عن وسيلة للموت. وكان يريد وسيلة بسيطة وطبيعية، ولا تشي بأنه انتحر، اذانه كان حريصاً على سمعته، وعلى الاسم الذي اورثه اباه آباؤه. فاذا حدث اي اشتباه في وفاته فسرعان ما يفكر الناس دون ريب بتلك الجريمة الغامضة، ومقتل الفتاة، والقاتل الذي لم يعثر عليه... ولسوف لا يلبثون ان يتهموه بانه كان هو القاتل حقاً... .

وخطرت له فكرة غريبة وهي ان يدع الشجرة الضخمة التي خنق تحتها الفتاة الصغيرة ان تسحقه سحقاً، وهكذا قرر ان تقطع اشجار غابته وان يصطنع ذلك الحادث، غير ان الدوحة الكبيرة انحرفت وهي تهوي وابت ان تحطمه تحتها.

ولما عاد الى داره، وقد اصبح فريسة يأس قاتل تناول مسدسه ودسه في فمه... غير انه لم يجرؤ على اطلاقه.

وحان وقت تناول العشاء فتناوله وعاد فصعد الى غرفته، دون ان يدري ما عساه أن يفعل. واحس انه جبان رعديد ما دام قد نجا من الموت في هذه المرة الاولى. لقد كان قبل قليل قوي العزم والعزيمة، ومالك لشجاعته وتصميمه... وها هو الآن قد انقلب ضعيفاً، خائفاً من الموت خوف الفتاة التي قتلها... وقتم يقول [illegible]

[illegible]

-١٧-

راح ريناردية يبكي كطفل وهو يردد «لن اجرؤ، لن اجرؤ» ثم خر جاثياً على ركبتيه واخذ يتمتم: «يا الهي يا الهي». ولكن دون ايمان بالله على الاطلاق. وفي الواقع لم يعد يجد الجرأة للنظر الى النافذة التي يدرك ان الرؤيا الرهيبة تختبىء وراءها، ولا الى المنضدة التي يلمع فوقها مسدسه.

وعندما نهض واقفاً قال بصوت مرتفع:

- ان هذا لا يمكن ان يدوم... ويجب الانتهاء منه.

ولقد اشاع صوته، في الغرفة الصامتة ارتعادة خوف في جسمه كله... واذ لم ينته الى قرار حاسم يتخذه، واذ احس ان اصبعه لا تطاوعه على ضغط زناد المسدس فينتهي من حياته بطلقة واحدة، فانه عاد فأخفى رأسه تحت اغطية السرير وراح يفكر.

كان لا بد له من ان يجد شيئاً يرغمه على الموت ارغاماً، ان يبتكر حيلة ضد نفسه لا تترك بعدها اثرا لتردد او ابطاء او اسف ممكن. وقد غدا يحسد المحكومين بالاعدام. آه لو يستطيع ان يتوسل الى شخص هنا ان يطلق عليه الرصاص وليته يستطيع ان يفضي الى صديق كتوم بحاله النفسية، ويبوح له بجريمته وهو واثق ان هذا الصديق لا يشي به، بل يبادر الى اجابة طلبه ويمنحه الموت. ولكن ممن تراه سيطلب اسداء هذه المكرمة؟! وعلى حين غرة برقت في ذهنه خاطرة: سيكتب الى قاضي التحقيق الذي تربطه به رابطة صداقة حميمة، سيكتب له ويعلمه كل شيء سيقول له انه هو الذي ارتكب جريمة قتل الفتاة، وسيروي له عذابه، ورغبته في الموت، وتردده، ووسيلته التي يصطنعها لكي

ينهض عزيمته الخائرة. وسيتوسل اليه، باسم صداقتهما القديمة، ان يمزق رسالته بعد ان يعلم ان المذنب قد اقتص من نفسه. وريناردبه يستطيع الاعتماد على هذا القاضي، فهو يعرف انه كتوم، واهل للثقة، وغير قادر حتى على التلفظ بكلمة واحدة رعناء وانه لاحد اولئك الرجال من ذوي الضمائر الحية التي لا ينفك العقل يحكمها، ويوجهها، وينظم امرها.

وما كاد ريناردبه يتراءى له هذا المشروع حتى غمر قلبه سرور مبهم. ولقد هدأ واستكان . سيكتب هذه الرسالة على مهل، وعندما يطلع النهار يضعها في صندوق البريد المعلق فوق جدار مزرعته، ثم يصعد الى قمة برج داره يرقب مجيء ساعي البريد ، وبعد ان يذهب سيلقي بنفسه- ورأسه في المقدمة- فوق كتل الصخور التي تقوم عليها أسس البرج.

وسيبذل جهده لكي يراه، اولا الحطابون الذين لا يزالون ماضين في تقطيع اشجار الغابة، ووسيلته الى هذا ان يثب الى الدرجة الناتئة التي تقوم عليها سارية العلم الذي يرفع في الاعياد فيمسك بها بيديه الاثنتين ويهزها هزة عنيفة فتتقصف وتهوى ويهوى هو معهم من حالق فتندق عنقه وهكذا لا يمكن الاعتقاد الا بان حادثاً قد وقع له قضاء وقدراً.

وترك ريناردبه سريره فوراً، وجلس الى منضدته وراح يكتب. ولم ينس، فيما كتبه، شيئاً، ولا ايا من تفاصيل الجريمة، وما ذاق من مرارة العذاب في قلبه وروحه جميعاً. ثم ختم رسالته قائلا انه قد اصدر الحكم على نفسه، وانه سيقتص بتنفيذ حكم الاعدام بها، وتوسل إلى صديقه، القديم ان يحرص على ان لا تلوث ذكراه ابداً، وان يظل هذا السر مطويا الى الابد.

ولما انتهى من كتابة رسالته وجد ان النهار قد لاح، فطوى الرسالة، وغلفها، وكتب العنوان، ثم هبط من غرفته في الطابق العلوي بخطى خفيفة مسرعة،

وانطلق الى صندوق البريد الابيض اللون المثبت بالحائط في ركن من المزرعة، وبعد ان القى فيه بالرسالة التي كتبها بيده عاد مسرعاً واقفل الرتاج الكبير وراءه وصعد الى قمة البرج العالي وراح ينتظر مرور ساعي البريد الذي لن يلبث أن يأتي ويأخذ الرسالة التي اصدر فيها الحكم بالاعدام على نفسه.

-١٨-

أحس الآن بالهدوء والسكينة، وبأنه قد نجا وتخلص، ثم هبت على نفسه ريح جافة، وباردة برودة الثلج، فاستنشقها بنهم وراح يعب منها مفتوح الفم، وكانت السماء، ساعتئذ، حمراء متقدة الحمرة، في هذا اليوم من ايام الشتاء الذي انبسط فيه السهل ابيض ناصعاً بما كساه من صقيع الصباح وقد اخذت تلتمع فوقه اولى شعاعات الشمس فغدا وكأن نثارة من زجاج مبروش فرشت فوقه.

وكان ريناردبه واقفا في مكانه حاسر الرأس يرسل بصره الى انحاء المقاطعة فيرى السهول المترامية شمالا، والقرية جاثمة الى اليمين وقد اخذت مداخن مواقدها ترسل دخانها استعدادا لوجبة الصباح. وفي أسفل كان يرى نهر البرانديل يجري بين الصخور التي سيهوي فوقها عما قريب فتندق عنقه ويموت... وقد احس كأنما هو يولد من جديد في هذه الساعة المبكرة الشديدة البرودة كما احس انه ممتلىء قوة وعافية وحيوية. كان الضياء ينسكب عليه، ويحيط به، ويدخل في ذات نفسه كالأمل الجميل. وانثالت على خاطره الذكريات: ذكريات الأصباح المماثلة لهذا الصباح، ذكريات الارض الصلبة وهو يسير فوقها سريع الخطى فيسمع لخطوه وقع له في اذنيه اصداء، ذكريات الصيد الهنيء عند برك الماء، ذكريات كل هذه الاشياء التي كان يحبها، الاشياء الطيبة في الوجود... وقد اخذت كلها تتدافع في مخيلته وتشحذ في نفسه رغائب جديدة، وتوقظ جميع مشتهيات جسده القوي النشيط العظيم الفعالية... ومع ذلك اتراه يوشك ان يموت حقاً؟ ولكن لماذا؟ وهل تراه سينتحر بغباء هكذا لانه

اصبح يفزع من شبح... ويخاف من لا شيء! انه ثري ولا يزال شاباً... فما اشد حماقته! ان حسبه، لكي ينسى ان يتلهى بشي ما، ان يتغيب وقتاً ما، ان يقوم برحلة ما... وحتى انه، في الليلة الماضية، لم ير شبح الفتاة لان ذهنه كان مشغولا بأمر آخر... فهل لن يعود يراها ابداً؟ واذا كانت رؤياها تلازمه في داره هذه، فانها دون ريب لن تتبعه الى مكان آخر! فدنيا الله واسعة والمستقبل رحيب مديد!!... فلماذا، اذن، يموت؟

كانت عيناه لا تنفكان تدوران في السهل المترامي فلمح بقعة زرقاء في الدرب الضيق الممتد على ضفتي النهر. لا ريب في ان القادم هو «ميدريك» ساعي البريد وقد اقبل حاملا رسائل المدينة لكي يوزعها ويأخذ رسائل القرية.

وانتفض رينارديه انتفاضة سريعة، وداخله شعور بالالم، فاندفع في السلم الحلزوني لكي يستعيد رسالته من البريد. ولا يهمه ان يراه احد الان وراح يعدو راكضاً فوق العشب الذي اخذ يذوب فوقه ثلج الليل فبلغ ذلك الركن من القرية الذي علق فيه صندوق البريد، في الوقت الذي وصل فيه ساعي البريد. وقد فتح الرجل باب الصندوق الخشبي الصغير، وتناول الرسائل القليلة التي وضعها فيه سكان الناحية. وقال له رينارديه:

- اسعدت صباحاً يا ميدريك

- اسعد الله صباحك سيدي العمدة

- الا قل لي يا ميدريك... لقد القيت في الصندوق رسالة انا بحاجة اليها الان... وقد اتيت لاطلب منك ان تعيدها الي.

- طبعا يا سيدي العمدة. سأعطيك اياها... .

ورفع ساعي البريد عينيه فأذهله ما رأى من وجه رينارديه، فقد كان خداه بلون البنفسج، ونظرته زائغة، وعيناه غائرتان وحولهما دوائر سوداء وشعره اشعث، ولحيته غير محلوقة، وربطة عنقه محلولة... كان واضحاً جداً انه لم ينم في ليلته ابداً... وسأله الرجل:

– هل انت مريض يا سيدي العمدة؟ وادرك ريناردیه، فجأة ان مظهره لا بد ان يكون مثيراً للاستغراب، ففقد ضبطه لنفسه واخذ يقول متلعثماً:

– ولكن لا... لا... فقد نهضت من سريري فقط لكي آتي وأسالك ان تعطيني هذه الرسالة... لقد كنت مستغرقاً في النوم... اتفهم ما اقول؟

غير ان شبهة ما دارت في ذهن ساعي البريد الذي كان جنديا في يوم من الايام فقال:

– اية رسالة؟

– الرسالة التي ستعطيني اياها.

فازداد تردد ساعي البريد فقد كان موقف العمدة غير طبيعي... وربما كان في هذه الرسالة سر من اسرار السياسة. وهو يعلم ان ريناردیه ليس جمهورياً، وكان يدرك جميع الحيل وضروب الغش والخداع التي تستعمل في الانتخابات فسأل العمدة:

– ولمن هي موجهة هذه الرسالة؟

– الى السيد بوتوان «قاضي التحقيق... وانت تعلم جيدا انه صديقي».

وبحث ساعي البريد في الرسائل التي اخذها من الصندوق فوجد الرسالة

المطلوبة وجعل يتأملها ويديرها بين اصابعه وقد تولاه الارتباك الشديد، والاضطراب الاشد خشية ان يرتكب خطأ جسيما او يجعل من العمدة عدوا له... .

-١٩-

لما رأى رينارديه تردد ساعي البريد اتى بحركة يريد بها ان يمسك بالرسالة وينتزعها منه. غير ان هذه الحركة المفاجأة اقنعت ميدريك ان في الامر سرا خطيراً، فقرر ان يقوم بواجبه كائناً ما كان الثمن... فالقى بالمغلف في حقيبته الجلدية واغلقها وقال يجيب العمدة:

-كلا. لا استطيع يا سيدي العمدة لا استطيع ما دامت هذه الرسالة موجهة الى العدالة... لا استطيع... .

احس رينارديه ان غماً ثقيلا يعتصر قلبه فاخذ يتمتم متلعثما:

-ولكنك تعرفني جيداً بل انت تستطيع ان تعرف خطي واقول لك انني بحاجة الى الرسالة.

- كلا... لا استطيع.

وعندئذ اخذت العمدة رعشة غضب فقال:

- ولكن حذار... ايها الرجل... فانت تدرك جيدا انني لا امزح... وفي وسعي ان اعزلك من وظيفتك ودون ابطاء... ثم انا عمدة الناحية... وآمرك الان ان تعيد الي هذه الرسالة... .

غير ان ساعي البريد اجاب بحزم:

- كلا... لا استطيع يا سيدي العمدة... وعندئذ استشاط العمدة غضباً ففقد صوابه وقبض على ساعد الرجل يريد ان ينتزع منه حقيبة، الا ان ساعي البريد تخلص منه بحركة عنيفة، وتراجع قليلا، ورفع عصاه الغليظة وقال دون ان يفقد هدوءه:

- آه... لا تحاول ان تمسني يا سيدي العمدة... أو تضطرني الى استعمال هذه العصا... حاذر اذن... فانا انما اقوم بواجبي... .

احس رينارديه انه قد قضي عليه فانقلب على الفور لطيفاً، متواضعاً، وراح يتوسل الى ساعي البريد وكأنه طفل يبكي:

- ولكن... ولكن... يا صديقي... اعد الي هذه الرسالة.. فأكافئك... واعطيك مئة فرنك... أسامع انت... مئة فرنك... .

فلوى الرجل قدمه واستدار ماضياً في طريقه... ولكن ريناردیه تبعه لاهثاً متلعثما:

- ميدريك... ميدريك... اصغ الي... سأعطيك الف فرنك... اتسمع... الف فرنك...

واستمر الرجل يسير دون ان يجيب بشيء فعاد ريناردیه يقول:

- سأغنيك... اتسمع... سأعطيك ما تريد... سأعطيك خمسين الف فرنك لقاء هذه الرسالة... وماذا تراها تهمك؟ الا تقبل؟ اعطيك اذن مئة الف... مئة الف فرنك... هل تدرك ما اقول مئة الف... مئة الف.

والتفت ساعي البريد وقد تصلب محياه، وبانت القسوة في نظرته وقال:

- حسبك هذا... وكفاك... والا نقلت الى العدالة كل ما قلته لي الان.

وعندئذ توقف رينارديه وامسك عما كان مسترسلاً فيه. لقد انتهى الامر ولم يعد له اي امل. فاستدار وانطلق يعدو نحو داره كأنه وحش يطارده الرماة.

وتوقف ميدريك بدوره وراح ينظر ذاهلا الى العمدة، وراح ساعي البريد ينتظر كأن شيئاً خطيراً ومفاجئا يوشك ان يقع.

وفي الواقع فان قامة رينارديه المنيفة لم تلبث ان ظهرت في قمة برج الثعلب... كان يركض كمجنون فوق السطح، ثم اعتلى المصطبة التي ركزت عليها صارية العلم فامسك بها وهزها بعنف دون ان يصل الى كسرها، وعلى حين غرة أتى بحركة سابح يستعد للقفز في الماء من مكان شاهق، ثم اندفع في الفضاء الرحيب ويداه ممدودتان امامه... .

وجرى ميدريك طلباً للنجدة، وفيما كان يجتاز غابة الاشجار شاهد الحطابين مقبلين على عملهم فناداهم وهو يصرخ معلنا اليهم ما حدث... فاندفعوا مسرعين إلى اسفل اسوار البرج فوجدوا جثة العمدة عندها وقد انبعث منها الدماء وانسحق الرأس فوق احدى الصخور... وكان نهر البرانديل يحيط بهذه الصخرة وقد شوهد فوق مياهه الصافية، الهادئة المنداحه في هذا المكان: خط طويل يتمايل وردي اللون هو مزيج من دم ونخاع معاً... .

أخطر جاسوس في العصر الحديث!

للمؤرخ الألماني «كورت سنجر»

- ١ -

في الحرب الباردة، تكون الجبهة مفتوحة في كل مكان. وقد كان اكبر جاسوس سوفياتي وجد على الاطلاق في العصور الحديثة يعمل، كالكثيرين غيره من الجواسيس السوفيات: في سفارة، ولكنها لم تكن السفارة الروسية.

وكما سماه بعضهم «دون جوان الجحيم». أما التقرير الرسمي للقيادة الاميركية في الشرق الاقصى، تقرير الجنرال «ماك آرثر» عن «رتشارد سورج»

- وهو اسم هذا الجاسوس الخطير- فقد اطلق عليه لقب «الرجل الذي انقذ حياة ستالين».

ويمكن ان يقال انه جاسوس بلغ حد الكمال في اعمال التجسس، ولكن على وجه التقريب فقط.

وقد كان كل من يقابل الدكتور رتشارد سورج الصحفي الالماني المولود في «باكو» بروسيا يتضح له فوراً انه رجل لامع بكل ما في هذه الكلمة من معنى.

وقد كان يتحدث بعدة لغات ويهتم بالتاريخ، وكان اليابانيون والصينيون

يرون ان قلة من الغربيين استطاعت ان تتفهم العقلية الشرقية وتكون قريبة منها قرب الدكتور سورج...

وكان هو منيف القامة، متردداً، وكانت له عينان زرقاوان تتواقدان، وكان دائم الابتسام شأنه في هذا شأن الرجل المحب للحياة الذي يدرك كيف يعيش احسن العيش.

وقد كان هو الرجل الذي اطلع، مقدماً، على سر الهجوم الياباني على «بيرل هاربر» ذلك بفضل شبكته من الجواسيس التي كانت تتألف من ستة عشر عميلا. وقد استطاع، ايضاً، ان يعلم تاريخ وساعة الهجوم بدقة متناهية. وبادر سورج فأوصل هذه المعلومات لاسلكياً على الموجات القصيرة الى رؤسائه السوفيات... غير ان روسيا لم تخطر بها اميركا حليفتها... .

اما اكبر عون قدمه لسادته الروس هو العون الكبير وقت احتدام معركة «ستالنغراد» حيث كانت روسيا تدافع عن كيانها نفسه. فقد ارسل الى رئيسه «بريا» والى ستالين نفسه البرهان السياسي والعسكري على ان اليابان كانت قد قررت ان لا تهاجم روسيا، وان الجيوش اليابانية لن تعرض سيبيريا للخطر.

وفي اللحظة التي تسلم فيها ستالين هذه المعلومات أمر بارسال معظم الفرق المحتشدة على حدود «فلاديفوستوك» ومعها سلاحها وعتادها لتعزيز ومساندة القتال في ستالنغراد... وقد كان هذا عملا حاسما غير وجه التاريخ في معركة ستالنغراد وتاريخ الحرب جميعاً.

وفي ذلك الوقت الحرج، فيما لو أخذنا بعين الاعتبار ما جاء في تقارير رجال المخابرات السرية، صرح ستالين قائلاً:

– ان سورج انقذ حياتنا بلا ادنى ريب...

وقد كان سورج أذكى من ان يستريب لحظة واحدة في ان اليابانيين سينتهون بالقبض عليه ان عاجلا او آجلا.. على الرغم من الحماية التامة التي كان يتيحها له مركزه كمستشار اول لـ «اوجين أوت» سفير المانيا النازية في اليابان. ولا بد ان سورج كان يستشعر دنو ساعته لانه قال للسفير في اثناء حديث له معه:

- هل تدري، يا اوت، كيف يعدم اصدقاؤنا اليابانيون سجنا ءهم؟ انهم يعدمونهم ببطء، وشيئاً فشيئاً. فيلفون حول أعناقهم سلكاً من حديد، يشدون هذا السلك على مهل تاركين لهم ان يعيشوا اطول ما يمكن من لحظاتهم الاخيرة... انهم لا يشنقونهم... وانما هم يخنقونهم بصورة بارعة حقاً... فما اظرف اولئك اليابانيين الاقزام... ثم تناول كأسه المترع بالويسكي فرفعه الى شفتيه وهو يقول «على صحتك»... ثم شرع هو والسفير يحتسيان الخمر على طريقتهما الخاصة... .

-٢-

كان ما قاله سورج صحيحاً. ولكن، فيما يتعلق به هو شخصياً، فان اليابانيين، مع ذلك، لم يكونوا قساة الى الدرجة التي صوّرها. ففي اليوم السابع من شهر تشرين الثاني سنة ١٩٤٤، وهو اليوم الذي نفذ فيه الحكم عليه بالاعدام كانت آخر كلماته التي وجهها الى موظفي السجن هي:

- اني اشكر لكم لطفكم معي... ثم رفع رأسه، وشمخ بانفه، وسار حتى بلغ المشنقة المنصوبة في سجن «سوغامو» في العاصمة طوكيو. وفي الساعة العاشرة والدقيقة العشرين فغرت هوة المشنقة فاها تحت قدميه فهوى يتأرجح معلقاً من عنقه. وفي الساعة العاشرة والدقيقة الثلاثين أعلن الجلاد انه قد قد فارق الحياة... وانتهى الامر... .

وقد كان سورج آخر رجل من الغرب أعدم في اليابان في خلال الحرب العالمية

الثانية.

***

وبما ان رتشارد سورج كان، دونما ريب، جاسوس الحرب العالمية الثانية الذي نال اعظم النجاح في مهمته، وبما ان الكثير من الخرافات والاساطير قد ابتكرها المبتكرون حول هذا الرجل العجيب في جميع انحاء العالم، فقد قررت ان أنشر بياناً صادقاً وصحيحاً عن حياته واعماله.

ولاول مرة، فيما احسب، انشر ملخصاً لتقرير رسمي هو تقرير الجنرال «دوغلاس ماك آرثر» كما قدمه الجنرال «دوغلاس ويلوغبي» رئيس مكتب الاستخبارات السرية التابع لماك آرثر.

ان تقرير ماك آرثر عن رتشارد سورج أرسل بصورة رسمية الى الوزارة الاميركية، كما ارسل الى وزارة الحرب ودوائر الاستخبارات التابعة لها، والى الكونغرس الاميركي نفسه ويُعدّ اوفى تقرير من تقارير التجسس قدم لاية حكومة بعد انتهاء الحرب ا لعالمية الثانية، وهذا هو موجز هذا التقرير:

«ان عصابة من اشد الجواسيس جرأة ومهارة قد عملت في اليابان، مدة تسع سنوات طوال، لحساب وطنها الروحي- روسيا السوفياتية- وقد استطاعت هذه الشبكة من الجواسيس ان تصل، على وجه التقريب، الى ارتكاب ما يسمى بالجريمة البالغة حد الكمال بقيادة الدكتور رتشارد سورج، وهو شيوعي الماني، وقد كان المشار اليه يوهم الجميع ببراعة خارقة اقناع خارقة انه من غلاة النازيين واكثرهم صدقاً واخلاصاً.

ان الدكتور سورج ونائبه الياباني «اوزاكي هازومي» قد ارسلا. كجاسوسين من جواسيس الاتحاد السوفياتي، الى الصين واليابان من سنة ١٩٢٩ الى «سنة

١٩٤١ .

وكان سورج يعيش في جو من المودة الحميمة بينه وبين سفير المانيا وموظفي السفارة، وكان لـ «هازومي» علاقات مماثلة مع الامير الياباني «كونومي» الذي تولى رئاسه الوزارة اليابانية ثلاث مرات. ومن هذه المصادر الممتازة التي لا يرقى اليها الشك كان الجاسوسان- سورج وهازومي- يستقيان جميع معلوماتهما واسرارهما المختلفة حول السياسة الداخلية وحول الحرب... . وهي معلومات واسرار كانا ينقلانها الى السلطات الروسية عن طريق رسل يعملون طي الخفاء، وبمختلف وسائل النقل والبريد، وكذلك عن طريق السفارة السوفياتية.

وقد كان هدفهما الرئيس الحصول على الخطط اليابانية والسعي لمعرفة نوايا اليابان المتعلقة جميعاً بهجوم غير مستبعد على الاتحاد السوفياتي.

وقد استطاع سورج، خلال الأعوام الكثيرة من خدمته في مجال التجسس، ان ينقل عدداً لا يحصى من التقارير التحليلية المفصلة الوافية الى المكتب الرابع للجيش الاحمر.

-٣-

لقد القي القبض على اعضاء فريق التجسس الذي كان يرأسه سورج في شهر تشرين الاول سنة ١٩٤١، وقد مات في السجن اثنان من أبرز هؤلاء الاعضاء، اما الاخرون، وهم ذوو مراكز ثانوية، فقد صدرت عليهم احكام بالسجن لمدد طويلة.

وفي اليوم السابع من شهر تشرين الثاني سنة ١٩٤٤ شنق الدكتور رتشارد سورج الألماني الجنسية، واوزاكي هازومي الياباني الجنسية، بسبب الخدمات الجلى التي قدماها للاتحاد السوفياتي.

وما استطاع البوليس الياباني المدني، ولا البوليس الخاص، ولا اية منظمة أمن يابانيـة ان تقع اطلاقاً، على اية شبهة أو ريبة تتعلق بمكان سورج او بمكان مرؤوسيه وهم ستة عشر شخصاً من رجال ونساء كانوا يؤلفون هذه الشبكة من التجسس، هذا المكان الذي كانوا فيه يجتمعون، ويتداولون ويضعون الخطط والمؤامرات. وانما قد خانهم وغدر بهم المدعو «ايتو ريتسو» وهو عضو ذو نفوذ في الحزب الشيوعي الياباني، وذلك بدافع الانتقام من امرأة هي عضو في شبكة التجسس المذكورة. وقد كان ايتو ريتسو يجهل بأنها تخدم قضية الحزب. ومما يدعو الى سخرية حقا ان هذا الخائن هو، اليوم عضو ذو نفوذ في الحزب الشيوعي الياباني... .

ان رتشارد سورج الرئيس اللامع لهذه الشبكة من الجواسيس ولد في: باكو بروسيا الجنوبية يوم ٤ تشرين الاول سنة ١٨٩٥، وكان أبوه مهندساً المانياً يعمل في شركة نفط المانية في القفقاس، ويعتقد ان امه روسية. ولما كان سورج لا يزال طفلا عاد والداه الى برلين حيث تلقى تعليمه العادي، واصبح من ثم مواطنا باراً لالمانيا القيصرية.

وفي اوائل الحرب العالمية الاولى دخل رتشارد سورج الجيش واصيب بجروح، ثم عاد فدخل الجيش وجرح مرة اخرى.

وفي اثناء نقاهته، وبعد انتهاء الحرب، درس في جامعات برلين، وكييل، وهامبورغ. وفي سنة ١٩٤٤ نال شهادة الدكتوراة في العلوم السياسية من جامعة هامبروغ. وفي خلال السنتين التاليتين عمل، بالتتابع، معلماً في مدرسة وعامل مناجم... ثم، وفي سنة ١٩٢٢ بدأ يكتب للصحف والمجلات... .

وما ان تألف الحزب الشيوعي الألماني، في شهر تشرين الاول سنة ١٩١٩ حتى انضم اليه سورج واصبح عضواً في خلية مدينة «هامبورغ». وكان سورج

ماهراً وذا موهبة خاصة في تعلم اللغات. ويوم اقام في اليابان كان يتكلم بطلاقة: الفرنسية، والروسية، واليابانية وربما الصينية ايضاً، بالاضافة الى الالمانية... .

وقد بدأ سورج باحتراف الشيوعية في سنة ١٩٢٤، وفي تلك الحقبة كان يتمتع بسمعة ممتازة بين الشيوعيين الالمان، وكان المسؤولون الروس يحترمونه، وانضم الى الروس، واصبح عضواً في «الكومنتيرن» الذي كان له، انذاك، نفوذ بعيد المدى على مصاير العالم الشيوعي... .

وقد عمل سورج مدة ثلاث سنوات في قيادة الكومنتيرن العامة بموسكو، ليلم بما يجب على الارجح، ولكنه ارتحل إلى الخارج في سنة ١٩٢٧ لكي يبدأ العمل بمهنته الخطيرة كعميل سري، متخفياً وراء واجهة مجلة المانية، وقضى في البلاد الاسكندنافية وبريطانيا العظمى سنتين كممثل لاستخبارات التجسس وللمكتب التنظيمي للكومينترن... .

-٤-

في سنة ١٩٣٠ ذهب الى الصين ثلاثة من عملاء المكتب الرابع التابع للجيش الروسي. وهؤلاء الثلاثة كانوا: «اليكس» وهو غير معروف الهوية، والدكتور رتشاردسورج نفسه. وشخص آخر اسمه «واينفارت» يعمل في الراديو الالماني.

وبعد مضي نحو ستة اشهر غادر «اليكس» الصين وقد كان هو رئيس هذه البعثة ليعود الى روسيا على الارجح، وكان «سورج»، من بعده، هو الذي اصبح رئيس هذه العصابة من الجواسيس التي اتخذت من «شنغاي» مركزا لها، غير انها كانت جعلت مجال عملها بلاد الصين كلها.

وكان سورج كثير الاسفار والتنقلات ودائم الاطلاع، بصورة دقيقة ومفصلة على كل ما يصدر من كتب ونشرات تتعلق بسياسة اليابان، وتاريخها، وثقافتها، وفي هذه الاثناء كان لا ينفك يدرس اللغتين الصينية واليابانية حتى غدا مورداً لا ينضب له معين من المعلومات والمعرفة في الشؤون الاسيوية جميعاً. والواقع انه كان عميلا مدهشا لا مثيل له على الاطلاق.

وقد كانت الانسة «اغنيس سميدلي» عضوا في عصابته، وكانت قبل هذا، من اكثر الاشخاص فعالية ونشاطا في العمل لقضايا السوفييت في الصين. وقد كانت هي وحدها، وقبل اي انسان اخر، التي تصورت وكان تصورها صحيحاً ان الشيوعيين الصينيين ليسوا في الحقيقة شيوعيين، ولكن، وبكل بساطة، كانوا ثواراً زراعيين لاتربطهم بالسوفييت اية علاقة ولا يقارب بينهم سبب.

اما اشد حلفاء سورج وفاء له، ونفعاً لاغراضه فهو «اوزاكي هازومي» الصحفي، والمعلق السياسي الشهير، والذي اختص في الشؤون الصينية. والمعروف انه كان لاوزاكي الشرف الكبير ان يلاقي حتفه قبل موت سورج نفسه بنصف ساعة، وان يكون هو وحده، ثاني اثنين من بين اعضاء هذه العصابة، الذي لفظ آخر انفاسه معلقاً بحبل المشنقة.

وكان اوزاكي هازومي قد اكتسب الشهرة بانه الخبير الياباني الاول بكل ما يتعلق بالصين من شؤون، وقد كتب عدداً وافراً من المقالات بهذا الصدد في مجلات عديدة مختلفة. وقد كانت مقالاته هذه تنشر في صحف انكلترا وصحف اليابان على السواء.

وفي سنة ١٩٣٨ اصبح اوزاكي المستشار الرسمي للوزاره اليابانية التي كان يرأسها الامير «كونوي»، ولما سقطت حكومة كونوي في شهر كانون الثاني سنة ١٩٣٩ قدم اوزاكي استقالته من منصبه، الا انه، في شهر حزيران من السنة

نفسها، عين مستشاراً وسمياً في «مكتب طوكيو لسكك حديد منشوريا الجنوبية» وقد ظل محتفظاً بهذا المنصب حتى اوقف في سنة ١٩٤١ .

وهو يوم كان لا يزال صبيا صغيرا في فرموزا انطوى على حقد دفين لـ «العسكرية» اليابانية وتطلعها النفعي الى الشؤون الصينية.

ولما اصبح طالبا في طوكيو بعد ذلك انكب يقرأ كل ما يصدر من كتب عن اليساريين اليابانيين الا انه لم يصبح قط عضوا في اي حزب شيوعي.

وقد نشأت صداقة عميقة وصادقة بين او زاكي الصحفي الياباني و بواغنيس سميدلي الصحفية الاميركية.

ولا شك في ان التوصية التي قدمتها لسورج الانسة سميدلي ثم التحريات التي قام بها قد اوضته واقنعته اقناعا تاما باخلاص وصدق اوزاكي.

وقد طلب منه سورج ان يزوده بمعلومات وافية عن الحالة الداخلية في الصين وعن سياسة اليابان نحوها. فوافق اوزاكي فوراً ودون اي تردد.

-٥-

في سنة ١٩٣٠ حينما وصل سورج الى «شنغاي» وجد فيها «ماكس غوتفريد كلوزن» الذي كان هو الاخر عضواً في المكتب الرابع للجيش الاحمر، وكان قد قدم من موسكو في السنة السابقة متخفيا بزي آمر صغير في الجيش السوفييتي. وقد اكتسب خبرة طيبة في شؤون الاتصالات السرية بالراديو. وقد ظلت هذه هي مهمته خلال الحقبة التي كان فيها سورج يمارس اعماله التجسسية. وعندما انتقل «كلوزن» الى اليابان كان هو العامل الرئيسي في الاتصال بين سورج والاتحاد السوفيتي.

في شهر ايار من سنة ١٩٣٣ ذهب سورج الى برلين لكي يتخذ ستارا يختفي وراءه ويبرر اعمال التجسس الخطيرة التي كان يمارسها في اليابان. ولذلك سرعان ما عين مراسلا خاصا لعدة صحف ومجلات المانية من بينها صحيفة «فرانكفورتر زايتونغ» و «برجن كوريه» و «تخنتش راندشار» و « آمتر دام هاندلسيلات» وغيرها... ثم طلب ان يصبح عضوا في الحزب النازي الذي كان قد استولى على الحكم في المانيا بأمر من هتلر. وقد قبل سورج في الحزب فوراً...

اما كيف استطاع سورج ان يؤمن لنفسه هذه «الواجهة» البارعة فأمر ذلك مجهول حتى اليوم. ولا شك في ان مفتاح السر لهذا كله كان صحيفة «فرانكفورتر زايتونغ» التي لم تكن مراسلتها في شنغاي غير الآنسة «اغنس سميدلي» الاميركية والعميلة السرية للحزب الشيوعي للحكومة الروسية...

وبعد ان اثبت الدكتور سورج انه نازي مخلص، وصحفي معروف، انتقل الى اليابان عن طريق الولايات المتحدة، وكندا، فقد ابحر الى «يوكوهاما» ووصل اليها يوم ٦ ايلول سنة ١٩٣٣، ولم يلفت الانظار شيء في هذا الصحفي الالماني فسمح له فوراً بمغادرة السفينة والنزول الى البر. وبعد مضي وقت قصير اختار سورج لنفسه منزلا رقم ٣٠ في حي «نغازا كاماشي» بطوكيو. وقد كان طيب السمعة لاتدور حوله الشبهات... وما لبث سورج ان راح يمارس عمله الظاهر كصحفي. وقد تقدم الى السفارة الالمانية كما تقدم الى النادي الالماني هناك فسرعان ما وجد الترحيب الحار من الجالية الالمانية وزملائه الصحفيين.

وفي هذه الاثناء، وبناء على طلب الجيش الاحمر، فقد شرع «الكومنتيرن» في اعادة توزيع عملائه، غير المشتبه بهم، في انحاء العالم جميعاً. وقد كان الجيش الاحمر بحاجة الى عملاء من طراز خاص في اليابان. وهكذا فقد تلقى ممثلو «الكومنتيرن» بفرنسا والولايات المتحدة اوامر عاجلة انتقلوا، على اثرها، الى طوكيو. رجال لا يعرف بعضهم بعضا على الاطلاق كما لم يسمعوا قط باسم

الدكتور رتشارد سورج، واذا استثنينا الاشخاص الثانويين من اولئك الرجال فانه تبقى، بعد هذا، شخصيتان رئيسيتان هما: «برانكودي فوكيلتش» «مياغي يوتوكو».

وقد كان سفير المانيا هو الهدف الرئيسي امام سورج. ولم يكن له من المنزلة في السفارة اكثر مما لاي صحفي آخر. إلا أنه استطاع أن يتصل بأحد أعضاء مكتب الملحق العسكري الالماني الضابط «اوجين اوط» وذلك عن طريق صداقته التي أنشأها مع زوجة هذا الموظف.

وكان «اوط» لا يحب منهج الحزب النازي، ومع ذلك فقد كان ينفذ ما يتلقاه من أوامر وتعليمات من حكومته، ولم يكن قد وصل إلى اليابان إلا في سنة ١٩٣٣، وكان أصدقاؤه قد أبعدوه إلى اليابان لكي لا يتم الاستغناء عنه في خلال عمليات التطهير ضد الموظفين التي شرع يقوم بها النازيون.

وكائنة ما كانت آراء «اوط» في أمور وطنه المانيا، فإنه كان يجهل كل شيء عن اليابان، وقد سره جداً أن يكتشف أن صديقه الجديد -سورج- معين لا ينضب من المعلومات والأسرار المتعلقة باليابان والسياسة اليابانية ومراميها، وقد سره أكثر من هذا أن سورج يخلص له النصح والمشورة.. ولما رفع «اوط» إلى درجة أعلى ازدادت صداقته لسورج متانة وقوة وجعلا يلتقيان أكثر فأكثر في معظم الأحيان..

- ٦ -

واذن فقد جعل سورج يعمل جاهداً وسريعاً لكي يكون دخوله سهلاً إلى السفارة الالمانية ويكون أقرب منزلة. وفي الوقت نفسه كان لا ينفك يكون شبكة التجسس التي يرأسها. وفي شهر تشرين الثاني انتقلت أسرة «برانكو فوكيلتش» إلى بيت جديد خاص.

وقد كان سورج في أمس الحاجة أن يُكون بعيداً عن العيون المستطلعة. وكان «برانكو» هاوي تصوير متحمساً فوفر لنفسه غرفة مظلمة في بيته الجديد جعلها لتحميض الأفلام وممارسة هوايته التي أخذت عليه مشاعره.

وفي هذه الغرفة المظلمة جرت جميع عمليات إعداد الأفلام الدقيقة التي لا يرى ما فيها بالعين المجردة «الميكروفيلم» والتي كانت تحمل المعلومات السرية الخطيرة فترسل إلى السفارة السوفييتية في شنغاي..

وفي هذه الأثناء كان «الكومنتيرن» يواصل جهوده لكي يساند سورج ويعزز مكانته، فكان الياباني «يوتوكو» المقيم في الولايات المتحدة منذ سنة ١٩١٦ هو الذي اعتبر خليقاً أن يكون مساعداً لسورج وملبياً لرغباته ومتطلباته. فأبحر من الولايات المتحدة ووصل إلى طوكيو في شهر تشرين الأول سنة ١٩٢٣.

وبهذا وصلت شبكة التجسس التي شرع سورج بتأليفها إلى تمامها.. غير أنه لم يكن أحد من أعضائها يعرف الآخرين أو يعرفه الآخرون.. وقد بدأ «يوتوكو» يتعرف على «طوكيو» ويتلمس ملامحها وقد كان قبل هذا لا يعرف عنها شيئاً قط إذ كان قد أمضى حياته كلها في الولايات المتحدة دون أن يعرف عاصمة بلاده..

وقد كانت الحلقات الرئيسية لشبكة التجسس هذه مكونة في طوكيو نفسها من رتشارد سورج رئيساً وبرانكو دي فوليكتش الصحفي المحايد.. وميباجي يوتوكو المصور الفنان الهاوي ومكس كلوزن خبير الارسال بالراديو.

وكان همهم أن يوجدوا فيما بينهم وسائل اتصال محكمة وأن يؤمنوا أسلوباً بارعاً في الاحتكاك باليابانيين بغية خلق تيار يرفدهم بالمعلومات والأسرار النافعة التي يسعون إليها... وقد كان في وسعهم الاعتماد على السفارة السوفيتية لنقل التقارير العادية إلى موسكو، أما بالنسبة إلى سورج فقد كان

الأخلق به أن يذهب إلى أبعد من هذا ويقوم بأعمال أفضل بكثير.

وقد كان انتسابه إلى الحزب النازي كافياً ليفسح له مجال دخول السفارة الالمانية والاتصال بالسفير نفسه.

وهو قد كان، يومئذ، الهر «هربرت فرن ديركسن»، وبغيره من شخصيات السفارة.. وقد كشف سورج عن مزايا وخصال شخصية في نفسه كانت كافية لكي يدعوه السفير ويدعوه سائر أصحاب المراكز المهمة في السفارة أن يزورهم ويتردد عليهم في أي وقت يشاء..

وفي أثناء هذا كله وصل الكولونيل «اوط» إلى درجة قائد، ومن مساعد للملحق العسكري إلى ملحق عسكري أصيل، ثم أصبح سفيراً.. مما أتاح لسورج أن يصل إلى أوفى وأدق المعلومات السرية الالمانية عن اليابان.. وقد كان «اوط» يعتبر الأنباء والمعلومات التي يحملها إليه سورج والنصائح الثمينة... التي كان يخصه بها لا تقدر بثمن... وبالطبع كان المكتب الرابع في موسكو يرى الرأي نفسه في المعلومات الثمينة التي كان السفير «اوط» يطلع عليها سورج فينقلها هذا بدوره إلى موسكو دون أن يدري اوط من الأمر شيئاً.

- ٧ -

تتابعت السنوات في أثر بعضها البعض، وانتهى الأمر بالسفير الألماني «اوجين اوط» إلى إطلاع سورج على أشد تقاريره سرية وكتماناً، لكي يستطيع أن يلم بمضمونها ويكون الحديث بشأنها، فيما بينهما مجدياً. وهكذا لم يخف عنه شيئاً من أدق الأسرار وأخطرها..

ولم يكن السفير «اوط» وحده هو الذي يثق بسورج، بل كان يثق به كل الشقة أيضاً: الملحق العسكري، وملحق الطيران، والملحق البحري وكذلك

الكولونيل «جوزيف مايسنجر» وهو من رجال « الغستابو» الألماني الرهيب..
أجل كانوا جميعاً قد أولوه ثقتهم التامة، وكانوا لا ينفكون يستشيرونه ويطلبون رأيه فيما يعرض لهم من أمور ومشاكل ومعلومات.. غير أن المستشار البحري وحده كان يبدو أنه يستريب به، لا لأنه كان قد وقع في وهمه أن سورج يعمل لحساب السوفييت، ولكن، بكل بساطة، لأنه كان لا يحبه، ولا يميل إليه.

وبالطبع كان لا بد أن تنقضي بضع سنوات قبل أن يستطيع سورج بلوغ هذه المنزلة الخارقة للعادة في السفارة الالمانية. غير أنه كان، في سنة ١٩٣٩ قد بلغ غايته. وعندما نشبت الحرب العالمية الثانية عين السفير اوط: الدكتور سورج ملحقاً صحفياً في السفارة.. ولم يتح له هذا التعيين راتباً محترماً وحسب، ولكنه أتاح له أيضاً مركزاً دبلوماسياً رسمياً له مزاياه وقيمته التي لا تخفى في مجال عمله كجاسوس سوفييتي خطير.

وكان سورج، في كل صباح تقريباً وبعد أن يكون قد كتب أنباء الصحيفة حول العمليات الحربية في الجبهة الاوربية، يذهب لتناول طعام الفطور المتأخر عند السفير «اوط». وفي هذه الأثناء كان يطلع السفير على آخر اشاعات العاصمة اليابانية، ويبسط له السفير بدوره، الوضع الدبلوماسي يوماً بيوم... ويطلعه على التعليمات التي يكون قد تسلمها ويتناقش معه في مشروعات البرقيات التي يريد أن يرسلها إلى الحكومة الألمانية. وكان سائر موظفي السفارة يحذون حذو رئيسهم السفير فيطلعون الدكتور سورج على كل شيء، وكان يفعل هذا بصورة خاصة الضابط الكولونيل «مايسنجر» مبعوث الغستابو..

وبعد توقيع الحلف الثلاثي الذي تكون منه محور: المانيا وايطاليا واليابان في السابع والعشرين سنة ١٩٤٠ جعلت القيادة العامة للبحرية والجيش اليابانيين أكثر انطلاقاً وأقل تقيداً في تبادل الحديث، مع أعضاء وموظفي مكتبي البحرية والعسكرية في السفارة الالمانية. وتبعاً لهذا كان الملحقان البحري والعسكري

يلوذان بسورج طالبين مشورته فيما يعرض لهما من أمور. والواقع أن سورج كان أحد الأشخاص الذين قاموا بعمل هندسي بارع لتحقيق فكرة المحور العتيد..

* * *

نعود الآن إلى الوراء قليلاً لتوضيح الأمور: كان «مياغي» الذي مر ذكره في الحلقات السابقة باعتباره أحد أفراد شبكة التجسس التي يديرها سورج قد اتخذ اسماً مستعاراً هو «مينامي ريوتشي» وقد قام بزيارة لـ «اوزاكي» وكان في سنة ١٩٣٤ يعمل مستشاراً للوزارة. وفي هذا الاجتماع قال مينامي أن أحد أصدقائه القدماء في شنغاي يود أن يقابله وهذا الصديق القديم لم يكن غير سورج نفسه. وقد دبر مينامي الأمر بحيث تقابل الاثنان وكأن مقابلتهما كانت بفعل المصادفة فقط، في حدائق «تارا» اليابانية بطوكيو في أحد الآحاد. وفي هذا المكان الذي لا يخشى فيه فضول الفضوليين أفضى سورج للمستشار لوزاكي أن الروس يحتاجون إلى رجال لهم داخل الوزارة اليابانية والقصر الامبراطوري نفسه.

– ٨ –

وقد استجاب اوزاكي لما طلبه سورج واستطاع أن يؤمن خدمة عشرة من زملائه اليابانيين إما باستنخاء مشاعرهم وعواطفهم المنحازة للشيوعيين.. أو باغراء المال.. غير أنه اتخذ كل الاحتياطات الضرورية في اختيار أولئك المرشحين. وهذه الحيطة، وهذا الحذر يدلان بل ويثبتان اثباتاً قاطعاً كيف أن شبكة التجسس استطاعت أن تعمل خلال سنوات طوال بكل أمان واطمئنان وأن يكون عملها الخطير ناجحاً كل النجاح إلى أبعد حد مستطاع.

وكان سورج لا يلتقي، من أفراد شبكته، بغير أربعة فقط هم: «فوكيلتش» و«اوزاكي» و«مياغي» و«ماكس كلاوزن» وقد مر نبأ ذكرهم جميعاً. وقد كان

يلتقي بهم، أكثر الأوقات، في المطاعم، والبارات، أو في مسكنه الخاص. وكان عليهم أن ينقلوا ما يسلمهم إياه من أفلام ورسائل سرية في علب سجائر تكاد تكون فارغة. وكانت لهم طريقة في تسليم هذه العلب إلى الأشخاص الموجهة إليهم: فقد كان الشخص يطلب من أحدهم سيجارة فيناوله علبة وهو يقول له: احتفظ بسجائرها لنفسك فان معي غيرها. فيأخذ الشخص العلبة ويمضي لطيته، وهو عالم بما فيها.

وفي سنة ١٩٣٥ قام سورج برحلة إلى اوروبا، وقد اتخذت هذه الرحلة طابعاً رسمياً في الظاهر وهو أنه ذهب لمقابلة رؤسائه أصحاب صحيفة «فرانكفورتر زايتونغ»، إلا أنه ذهب في الحقيقة لحضور مؤتمر «الكومنترن» في موسكو حيث يقدم لرؤسائه، هناك، تقارير ويتلقى تعليماتهم...

وقد وصل إلى نيويورك مزوداً بجواز سفره الألماني وفي نيويورك استبدل به جوازاً آخر وفيه سمة دخول الاتحاد السوفييتي. وهكذا ذهب إلى موسكو عن طريق برلين، ثم عاد إلى اليابان.

وما أن عاد إلى طوكيو حتى بادر سورج وأصدر الأوامر اللازمة لانشاء شركة تجارية باسم «كلاوزن وشركائه». وكانت مهمة هذه الشركة أن تنتج وتبيع الماكينات التي تصنع الألوان، كما تصنع مصابيح «النيون» الكهربائية. والعجيب أن أعمال هذه الشركة ازدهرت وراجت بصورة تلفت النظر.. ففي سنة ١٩٤١ استطاع كلاوزن أن يحقق أرباحاً جسيمة جعلته يحول شركته إلى شركة مساهمة برأس مال قدره مئة ألف ين من العملة اليابانية، احتفظ منها لنفسه بـ ٨٥ ألفاً. بل هو قد ذهب إلى أبعد من هذا فأنشأ فرعاً للشركة في «موكدن» خصصا له عشرين ألف ين.

والواقع أن كلاوزن وجد نفسه ثرياً إلى حد كاد معه يفقد إيمانه بالشيوعية.

ولم تصبح شركته مجرد واجهة لا يشتبه بها قط وحسب، ولكنها أضحت أيضاً مصدراً لتغطية جميع نفقات شبكة التجسس... وقد كان يتعامل مع الخارج بيعاً وشراء... واذن فلم يكن من غير الطبيعي أن يتلقى تحاويل مالية من نيويورك، وسان فرانسسكو، أو شنغاي...

ونحن فيما لو حاولنا أن نوجد صلة ما بين الأشخاص الذين لا يزالون أحياء وبين نشاط وفعالية الدكتور سورج في اليابان لوجب أن نذكر القراء بأسلوبه الصارم الذي كان بموجبه يتجنب الاتصال بالحزب الشيوعي الياباني وبأعضائه العاملين، كما كان ناجحاً كل النجاح في ابقاء رصيده من المال معقولاً لا مبالغة فيه. وفي حرصه الشديد أن لا يثير الشائعات من حوله حتى بين الأشخاص ذوي الاستعداد الطيب نحوه، وأن لا تكون له أية اتصالات بعملاء جواسيس السوفييت الآخرين الذين كانوا لا يعملون تحت أوامره.

- ٩ -

وقد كان سورج، بالاضافة إلى ما كان يقوم به من بث معلوماته وأسراره بالراديو، يرسل الكثير من المعلومات بواسطة أشخاص مسافرين. وكانت هذه المعلومات، بصورة عامة، عبارة عن أفلام صغيرة دقيقة لا يرى ما فيها بالعين المجردة وتحتوي على تقاريره الشخصية، كما تحتوي في أحيان أخرى على نصوص يابانية والمانية. وقد كان هؤلاء المسافرون يربطون رزم الأفلام حول خيط متين يلفونه على خصورهم تحت ملابسهم. وكان من بين أولئك الأشخاص نساء أيضاً. غير أن النساء كن يجدن صعوبات أقل في اخفاء هذه المعلومات ونقلها إلى جهاتها...

وفي سنة ١٩٣٩ وقبل قليل من قطع العلاقات الاقتصادية بين اليابان والولايات المتحدة أصبح من العسير جداً الحصول على أموال عن طريق المصارف

الأمريكية. فقام سورج بارسال رسالة بالراديو طلب فيها انشاء ارتباط مباشر باليابان بدلاً من الولايات المتحدة. وبعد أيام تلقى «كلاوزن» تعليمات تقول له: «هناك بطاقتان باسم فريتز وبطاقة للعميل الآتي من روسيا». وفي الغداة وجد في بريده بطاقتين لدخول «المسرح الامبراطوري» وقد كان واضحاً في التعليمات المرسلة أن بطاقة مبعوث موسكو ستكون ذات رقم أدنى من البطاقتين الأخريين اللتين أرسلتا له باسم فريتز للتعمية والتمويه. وقد ذهب كلاوزن وزوجته إلى المسرح المذكور فجلست الزوجة في المكان ذي الرقم الأعلى، وجلس هو إلى يمينها، وفي أثناء عرض التمثيلية على المسرح مد كلاون يده إلى جاره الجالس إلى يمينه وسلمه ٣٨ رزمة من الأفلام السرية التي طبعت عليها وثائق مصدرها السفارة الالمانية بطوكيو وبمقابل هذا سلمه جاره رزمة من الدولارات، بلغت خمسة آلاف دولار..

كان مجموع التكاليف لشبكة التجسس التي يرأسها الدكتور سورج ثلاثة آلاف ين في الشهر أي نحو ثلاثمائة دينار فقط، وذلك لدفع أجور عشرين عميلاً كانوا يقومون بأعمال ذات أهمية لا تنكر، وإذا كانت هذه الأجور قليلة أو لا تكاد تذكر فلأنها كانت تدفع لأشخاص يعملون جميعاً، باستثناء واحد فقط، لمصلحة معتقدهم الشيوعي لا في سبيل كسب وربح.. وقد كانت المبالغ التي يأخذونها كل شهر تغطي نفقات معيشتهم وتنقلاتهم وحسب ولا يمكن بحال أن تسمى رواتب. وهناك اوزاكي مثلاً فانه لم يتقاض فلساً واحداً على الاطلاق لنفسه.

وليس من شك أبداً في أن المعلومات التي كان يرسلها سورج بعد تاريخ ٢٢ حزيران سنة ١٩٤١ كانت تقدر، بالنسبة للاتحاد السوفييتي، بعدد كبير من ملايين الدولارات.

كانت سنة ١٩٤١ هي أكثر سنوات سورج عملاً وتجارب واختبارات. وهو

بعد أن أرسل تقارير عديدة ذات طابع عام قام بتاريخ ٢٠ ايار بارسال رسالة عاجلة محذراً فيها بأن الجيش الالماني قد ركز ما بين ١٧٠ و١٩٠ فرقة على طول الحدود السوفييتية وأن هذه الفرق الهائلة ستبدأ هجومها في العشرين من شهر حزيران في الجبهة كلها، وسيكون الجهد المبذول بصورة خاصة مركزاً في اتجاه موسكو، والواقع اننا نذكر أن الهجوم وقع يوم ٢٢ حزيران.

ومن الواضح أن جهود سورج اتجهت بعد ذلك إلى اكتشاف نوايا اليابان وامكان هجوم يقومون به من الشرق. ولقد كانت ظواهر السياسة اليابانية جميعاً، والعلاقات اليابانية الأميركية، والحرب في الصين، والسياسة الداخلية، هذه كلها كانت خاضعة لهذه المسألة الأساسية...

- ١٠ -

في اليوم الثاني من شهر تموز، وعلى اثر انتهاء اجتماع المجلس الاستشاري الامبراطوري، قام سورج على الفور بكتابة تقرير عن القرار الذي اتخذته الحكومة اليابانية والذي، بموجبه، ستتقدم القوات اليابانية فتدخل الهند الصينية وتستولي على القوات الاستراتيجية فيها، وقد نص هذا القرار على أنه في الوقت الذي تحترم فيه اليابان معاهدة الحياد مع الاتحاد السوفياتي فان التعبئة العامة للقوات اليابانية ستتم، بمرسوم تنفيذي، في حالة احتمال وقوع حرب روسية يابانية.

وفي يوم ١٥ تشرين الأول أرسل سورج إلى روسيا معلوماته الختامية التي بموجبها قد قررت اليابان أن تبدأ هجومها على الهند الصينية من الجنوب، واذن فلم يكن ثمة خوف جدي من هجوم جيش (كوانتانغ) على سيبيريا.

وقد وجد الدكتور سورج أن مهمته في اليابان، قد تمت فأعد برقية طلب فيها أن يبادر الاتحاد السوفياتي إلى استدعائه دون امهال لكي يغادر اليابان.

غير أن «كلاوزن» لفت نظره إلى أن طلبه سابق لأوانه، وأنه يحسن الانتظار، وليس ثمة ما يدعو إلى مغادرة اليابان بمثل هذه السرعة. ولذلك فإن البرقية التي أعدها لم ترسل إلى روسيا على الاطلاق. ولكن لم تمض ثلاثة أيام على ذلك حتى ألقي القبض على سورج وكلاوزن معاً..

* * *

لم يكن أمر اكتشاف سورج وشبكته بسبب خطأ وقع منه أو من زميله كلاوزن، فانهما ما ارتكبا أي خطأ على الاطلاق منذ بداية عملها حتى اللحظة التي أوقفا فيها، ولم يستطع أن يشتبه بهما أحد قط. والذي حدث أن المدعو «ايتوريتسو»، وهو عميل شيوعي، هو الذي خانهما وغدر بهما، مدفوعاً إلى هذا بآلام بدنية مبرحة وبالغيرة وحسب، وهو لم يكن ليدرك قط ما كان موشكاً أن يفعله..

وقد كان «ايتو» هذا في التاسعة والعشرين من عمره، وقد أوقف في شهر حزيران سنة ١٩٤١ بتهمة القيام بنشاط شيوعي، وقد قام باستجوابه رجال التحري التابعون لمكتب بوليس العاصمة طوكيو، وبنتيجة هذا الاستجواب أدلى ايتو باعترافات كاملة، وأقر بأنه أخطأ إذ انضم إلى الشيوعيين ثم وشى بآخرين من الشيوعيين.

كان توقيف سورج مفاجأة كبرى لأصدقائه وللسفير الألماني «اوط»، ولجوزيف مايسنجر، عضو الغستابو في السفارة الالمانية، وقد حسبوا، في الحال، أن اليابانيين قد ارتكبوا، بحق سورج، احدى غلطاتهم الكبرى التي لا يحسن أحد غيرهم ارتكابها... وبذل أصدقاء سورج كل ما في وسعهم من جهود لكي يطلق اليابانيون سراحه... غير أن البوليس الياباني لم يصغ إلى شيء من هذا على الاطلاق - وكان رجال البوليس مقتنعين تماماً أنهم يمسكون في قبضتهم أكبر

زعيمين لأخطر شبكة تجسس لم يكتشف مثلها في اليابان حتى ذلك اليوم.

- ١١ -

ومع ذلك فقد ظل في الاذهان سؤال خطير شغل اذهان اصدقاء سورج في السفارة الالمانية وهو: ماذا لو صح، على سبيل الافتراض والمصادفات البعيدة ان سورج «النازي» المخلص هو في الواقع جاسوس سوفييتي؟ وماذا سيحدث لاكبر شخصيتين في السفارة، وهما السفير اوط ورجل الغستابو جوزف مايسنجر اللذان وضعا في سورج ثقتهما التامة المطلقة حقبة طويلة من الزمن؟

على الرغم من ان رئيس وزراء اليابان قد اصر مستحثاً البوليس على سرعة العمل في قضية سورج وكلاوزن فان البوليس الياباني لم ير أن ثمة أي داع للاستعجال، لا سيما وأن عدداً كبيراً من السجناء الذين ألقي القبض عليهم قد أدلوا باعترافات ذات فائدة كبرى مكنتهم، دون أية صعوبة تذكر، من اعادة تنظيم تفاصيل القضية ومعرفة المذنبين من الأبرياء.

بعد أن أقام رجال البوليس اليابانيون الدليل القاطع على صحة آرائهم، وجدوا من الضروري أن يذهبوا في تحقيقهم وأبحاثهم وتحرياتهم إلى أبعد من هذا، وهم إذا لم يكتفوا أن يعرفوا كيف كانت تعمل وتدار شبكة التجسس وأية معلومات استطاعت أن تحصل عليها وتوصلها إلى مراجعها فقد أرادوا أيضاً أن يعرفوا الدوافع التي تكمن وراء أولئك الجواسيس، والحوافز التي كانوا يعملون في سبيلها، وبصورة خاصة ما يتعلق بـ «اوزاكي هازومي» الذي أطلقوا عليه اسم «الخائن الياباني»..

وفي أول الأمر حاول سورج أن لا يفضي بشيء على الاطلاق، وقد أخذ يزدري أشد الازدراء زميله كلاوزن الذي أدلى باعترافات كثيرة. ولكن سورج ما لبث، هو نفسه، أن سار في دروب الاقرار والاعتراف بعد مضي خمسة أشهر عليه

في السجن، وقد بدا أنه أخذ يبوح بما في صدره من تلقاء نفسه.

وفي النهاية أصدر الحكم على «كلاوزن» بالسجن المؤبد مدى الحياة، وقد نجا من الاعدام لأنه، فيما يبدو، قد تنكر لمبادئه من ناحية، ومن ناحية أخرى لأنه أدلى باعترافات كاملة بدافع تلقائي ودون اكراه أو ضغط. أما زوجته «آنا» فقد صدر عليها الحكم بالسجن ثلاثة أشهر فقط لأن المحكمة اعتبرت انها كانت تمارس التجسس بالقوة ومكرهة على أمرها.. وقد ظلت تنتظر خروج زوجها من السجن، وبالفعل فقد أطلق سراحه من سجن «اكيتا» يوم ٩ تشرين الأول سنة ١٩٤٥ بأمر من الجيش الأميركي على أثر هزيمة اليابان في الحرب.

أما «اوزاكي هازولي» الياباني فانه ما ساورته خشية ما من عواقب الخيانة، وقد كان في ذهنه دائماً أنه إذا ما اكتشف أمره فلن يخشى الموت قط.

وفي شهر ايلول سنة ١٩٤٣ أصدرت محكمة طوكيو أحكامها. وقد استأنف سورج اوزاكي إلى محكمة البلاط العليا والغريب أنهما قد تعللا، في هذا الاستئناف، بأنهما لم يقوما قط بأي عمل غير شرعي... وذكرا أنهما لم يستعملا العنف، على الاطلاق، للحصول على المعلومات، وأنهما اكتفيا بأن يرسلا إلى موسكو بمعلومات متاحة وفي متناول أي رجل ذكي. أما سورج فقد أوجز دفاعه عن نفسه بما يلي.

- ١٢ -

أوجز سورج دفاعه عن نفسه فكتب يقول:

تلقيت معلومات من السفارة الالمانية. وأرى أن القليل جداً من هذه المعلومات كان يعد من أسرار الدولة، وهي قد أعطيت لي عن طيب خاطر ولم أصطنع العنف أو الاحتيال أو القوة قط للحصول على هاتيك المعلومات. وقد كان

السفير «اوط» والكولونيل «سكول» يسألانني أن نساعدهما في كتابة برقياتهما، وعلى الأخص «سكول» الذي كان يثق بي ثقة كبرى فيطلعني على جميع تقاريره قبل ارسالها إلى ألمانيا.

أما أنا فقد كنت أضع ثقتي التامة كلها في هذه المعلومات التي كان يأتي بها خبراء ثقات عالمون ببواطن الأمور ويعملون متحمسين للقيادة الألمانية العليا، وكنت أنا أحسب أن هذه المعلومات كانت الحكومة اليابانية نفسها تتيح لها أن تنتقل إلى السفارة الألمانية لكي تتسرب إلى الخارج بناء على خطة خفية رسمتها الحكومة اليابانية للايهام والتمويه.. وقد كان اوزاكي هازولي يقع في يده الكثير من هذه المعلومات من جماعة كانت تطلق على نفسها اسم «جماعة فطور الصباح»، غير أن هذه الجماعة لم تكن ذات طابع رسمي. ولا شك في أن الأمور والقضايا التي كانت تدور حولها أحاديث هذه الجماعة كانت أموراً وقضايا يدور حولها الحديث، بين جماعات أخرى مماثلة تكثر في طوكيو. فهي اذن ليست بأسرار محاطة بالكتمان.. وحتى المعلومات التي كان اوزاكي يعتبرها ذات قيمة عليا كانت في الواقع قد فقدت الكثير من أهميتها ما دام كان يستقيها بصورة غير مباشرة بعد أن تكون قد خرجت من مصادرها الرسمية..

هذا كان موجز دفاع سورج عن نفسه، غير أن هذا المنطق الذي أضفاه سورج على دفاعه لم يكن له أي تأثير على محكمة البلاط العليا، فأهملته، بل استخفت به، رسارعت إلى التصديق على الحكم بالاعدام الذي أصدرته محكمة طوكيو على سورج في شهر كانون الأول، وعلى اوزاكي في شهر نيسان من سنة ١٩٤٤.

وربما كان مما يدعو إلى الاهتمام، وربما يثير الدهشة، فيما يتعلق بأسلوب المحاكمات المدنية الباقية، أن نلاحظ أنه فيما كانت اليابان تخوض حرباً عاتية لا رحمة فيها كان أخطر من وقع في أيدي اليابانيين من جواسيس على الاطلاق

يتمتعون بكل أنواع وضروب الحماية التي وفرها لهم القانون الياباني...

وانه ليبدو مدهشاً كذلك أن اثنين فقط، من بين عشرين رجلاً وامرأة من الجواسيس، قد حكم عليهما بالاعدام في حين أن الحكم بالاعدام، بموجب القوانين اليابانية، كان يجب أن يشملهم جميعاً.

وقد أعدم سورج واوزاكي في اليوم السابع من شهر تشرين الثاني سنة ١٩٤٤ . هذا ما يقال عن نهاية الدكتور رتشارد سورج الألماني، النازي، الشيوعي وأحد أساتذة التجسس السوفييتي.

ولكن.. أجل.. ولكن هل أعدم سورج حقاً؟ وهل هو، رغم كل ما تقدم، ورغم المحاكمات، واصدار الأحكام، ما يزال حياً يرزق... هذا ما ستقرأه في حلقة الغد، وهي الحلقة الأخيرة من هذه السلسلة.

- ١٣ -

ما يزال موضوع بقاء الدكتور رتشارد سورج على قيد الحياة قائماً إلى اليوم ومدار تكهنات كثيرة وثمة ما يروى بقوة ومفاده أن سورج ما يزال إلى اليوم يعمل لحساب «المكتب الرابع» السوفييتي. ومن وقت إلى الآخر تنشر صحف اوروبا حوادث ووقائع تذهل من يعتقدون أن سورج قد أعدم ومات. واليك ما كتبته الصحيفة الفرنسية اليومية المعروفة باسم «باري-برس» على أثر ظهور اعلان عن فيلم سينمائي حول سورج:

قرر المخرج «ايف شيامبي» منذ سنة، وعلى أثر تلقيه رسالة من زوجته أنبأته فيها بسلسلة مقالات ظهرت في اليابان حول قضية «سورج»، قرر اخراج فيلم سينمائي عن حياة أكبر جاسوس سوفييتي عرفه العصر الحديث. وبفضل «بول كانتان» التقى بـ «هانس اوتومايسنر» وهو صديق قديم لسورج ومؤلف

قصة بوليسية اسمها «رجل طوكيو»، وهي أقرب ما تكون من قصة حياة سورج الحقيقية. وما لبث، بعد هذا، أن قام بتحريات وتحقيقات لدى جميع الأشخاص الذين لا يزالون على قيد الحياة ممن عرفوا سورج أو احتكوا به. وهؤلاء الأشخاص دون استثناء، أبدوا شكهم العميق في وفاة الجاسوس السوفييتي الخطير. ولكن لماذا تراهم أبدوا شكوكهم هذه؟ إليك ما يقدمونه من حجج وبراهين:

في صباح يوم الاعدام احتجز جميع المساجين في زنزاناتهم، وقد غلقت الأبواب والمعابر والمخارج كلها، وفيما عدا النائب العام ممثل الأمير «كونوي»، وحاكم السجن، والجلادين الثلاثة المقنعين لم يكن ثمة أحد من الشهود، واذن فقد كان التقرير عن تنفيذ الاعدام تقريراً رسمياً وحسب. وقد ارفقت فيه تفاصيل يبدو أنها ملفقة لم يستعمل مثلها من قبل. والواقع أن ما من أحد يستطيع أن يقول أنه شاهد سورج.

ثم هناك «انيكو» المعروفة باسم «اغنيس» - وهي قد ذكرت كصديقة في سياق هذه السلسلة - كانت في ذلك العهد من فتيات الجيشا في «رينغولد» وعاشت متصلة عن كثب بسورج من سنة ١٩٣٩ إلى سنة ١٩٤٤، وقد حاولت خلال عدة سنوات أن تجد دليلاً واحداً على موت سورج، وهي لا تزال، إلى اليوم، تعيش في طوكيو في «بانسيون» أحد العائلات، انها الشخص الوحيد الذي فعل له سورج شيئاً ما، ذلك أنه ترك لها خمسة آلاف من العملة اليابانية قبل توقيفه والقاء القبض عليه، وبعد انقضاء سنوات عديدة من البحث والاستقصاء لدى السلطات اليابانية وموظفي السجن والمقبرة فقد استطاعت أن تحصل من حارس عجوز للمقبرة على «ابزيم» حزام، وحذاء، وسن من ذهب زعم أنها وجدت في القبر المشترك للذين أعدموا، ولكن سورج واوزاكي قبل أنهما اعدما بعد تجريدهما من حزاميهما وحذاءيهما جميعاً...

وهناك قصة أخرى معروفة غير هذه. وهي أن السيدة «كلايا غاشي دونفان»

وهي امرأة من أصل ياباني ارلاندي وقد كانت من أسباب سقوط سورج. كانت ذات ليلة من سنة ١٩٦٦ موجودة في احدى علب الليل بشنغاي، وفيما كانت تغني على مسرح ذلك الملهى توقفت في وسط أغنيتها وقد استولى عليها ذعر شديد وصرخت تقول: «لقد رأيته... انه هنا...» ثم اندفعت خارجة من المسرح، ولم تمضِ بضع لحظات بعد ذلك حتى وجدت هذه السيدة مقتولة على باب الملهى برصاصة مسدس...

وفي هذه الحقبة نفسها أكد دبلوماسي سياسي فرنسي وصديق للصحفي الايطالي «توليدانو» الذي واكب عن كثب قضية سورج، أكد أنه رأى الدكتور رتشارد سورج في منطقة شنغاي...

وقصة ثالثة غريبة أيضاً: فهناك السيدة الالمانية «هيد ماسنغ» التي اتصلت بسورج اتصالاً وثيقاً في اليابان يوم كانت هذه السيدة شيوعية، ثم انقلبت على الشيوعية انقلاباً مشهوداً. وغدت من ثم من أتباع حزب المستشار الالماني «اديناور»، وكانت كذلك من شهود الاثبات في قضية «مكارثي»، قالت في مدينة «ميونيخ» حيث تقيم الآن: «اننا لم نستطع إلى الآن، أن نقول أي شيء عن حقيقة سورج. واليوم ربما قد حان الوقت لنقول هذه الحقيقة. لو سمح لنا بذلك».

والمعروف أن المخرجين «ايف شيامبي» و«راؤول ليفي» مهتمان بحياة رتشارد سورج. غير أن التنافس قد انتهى الآن بين المخرجين السينمائيين. فقد استقر الرأي على أن يقوم راؤول، إذا استطاع، باخراج فيلمه عن حياة سورج، أما فيلم المخرج شيامبي فيبدأ بعد وفاة سورج المزعومة فيروي التحقيقات التي قام بها أحد الصحفيين حول هذه القضية المثيرة.

سجين في السفارة!

كان هذا في أحد أمسيات الخريف، بلندن . وكان المطر مختلطاً بالضباب في ذلك المساء المكفهر من شهر تشرين الاول سنة ١٨٩٦ ، حينما هبط من القطار في محطة « اوسطون » شاب صيني . وقد أتت به، قبل هذا ببضع ساعات، من مرفأ « ليفربول » الباخرة « ماجستيك »:

وفي اثناء الرحلة الطويلة، بين نيويورك وليفربول، تبدى الشاب الصيني بمظهر المسافر الصامت، المتحفظ، المسترسل دائما مع افكاره .

لم يكن هذا الشاب المجهول قد تجاوز العشرين من عمره بعد . وكانت الحلة التي يرتديها جيدة التفصيل، وكان شعره مقصوصاً، ويبدو عليه الحزم والعزم، ويزين شفته العليا شارب صغير . وعلى الرغم من شبابه وحداثة سنه فان هذا المسافر كان قد انساق في عدة مغامرات خطيرة ، ثم ارتحل كثيراً حول العالم، وفي النهاية وبعد ان تعرض لغضب امبراطوره ونقمته، اضطر ان يفر من وطنه . وها هو الان قد قدم الى لندن يطلب فيها ملجأ وملاذاً . وكان يتراءى له انه سيجد في العاصمة البريطانية الامن والهدوء .

ولما خرج هذا الشاب من المحطة استدعى عربة وطلب من الحوذي ان يذهب به الى فندق يقع في حي « ستراند » وقد استقبل في هذا الفندق استقبالا حسناً وحل في غرفة بديعة بعثت السرور والبهجة في نفسه .

ولما انتهى من فتح حقائبه، ورتب ملابسه في اماكنها من خزانة الملابس قرر، على الفور، ان يزور صديقاً عجوزاً له، هو استاذه القديم الدكتور « جيمس كانتلي » الذي كان عميد نقابة الاطباء في « هونغ كونغ » وقد استقبل الطبيب وزوجته زائرهما الشاب بحرارة ومودة ظاهرتين . وكان في صدور هؤلاء الاشخاص الثلاثة الكثير مما يودون ان يفضوا به في حديثهم ..فسأل الطبيب عن اخبار زملائه واصدقائه الصينيين الذين تركهم في « هونغ كونغ ». وأسف انه لم يتلق منهم اية رسائل . وقال الشاب ان معظم اولئك الاصدقاء القدماء قد تعرضوا، هم ايضاً، الى غضب ونقمة الامبراطور . ثم اضاف قائلا :- ومع ذلك فقد قررت، دون تردد، ان ازور السفارة الصينية واقدم نفسي للمسؤولين فيها .. حتى لو كان ذلك من قبيل المجاملة...

وما ان نطق الشاب الصيني بهذه العبارة حتى اكفهر وجه الدكتور« كانتلي » وبادرة قائلا:

- حذار ان تذهب الى السفارة المذكورة ... ولست انصح لك حتى بالاقتراب منها او السير في الاحياء القريبة منها ... فانك ان فعلت هذا اختطفوك واعادوك الى الصين .

ومرت الايام واستطاع الطالب الشاب ان يتكيف مع الحياة الانكليزية وكان يتحدث بلغه الانكليز كأنه قد ولد في لندن نفسها . وكانت قيافته، وملابسه، وحركاته تبدو وكأنها بريطانية تماماً ... واستطاع في هذه الاثناء ان يعقد صلات صداقة مع كثير من الاشخاص . وقد قدم له الدكتور « هنري مانسون » هو الاخر وكان قد سبقت له معرفته في هونغ كونغ، النصيحة نفسها التي قدمها له الدكتور كانتلي، وقال له:

- اياك ان تقترب من السفارة الصينية ..

غير ان الشاب الصيني لم ياخذ هذا التحذير مأخذ الجد... ثم ان الصين، بعد كل شيء، بعيدة... بعيدة.... حتى ليحسبها المرء تقع في آخر الدنيا... ومهما يكن من غضب الامبراطور، وبالغة ما بلغت نقمته، فهو ايضا بعيد جداً... وان المرء ليحس بالامن حقاً في لندن، هذه المدينة الطيبة.

وبعد مضي اسبوع من وصول هذا الشاب الى لندن، فقد ترك فندقه واستقر في شقة جميلة تقع في «غريز اين رود» وكان قد تم انتقاله الى هذه الشقة في يوم سبت. وفي الغداة، اي في يوم الاحد، غادر مسكنه، وذهب يضرب في ارجاء الشارع المعروف بـ« ديفونشير ستريت» .... وكان يسير متمهلا، متئد الخطو، على غير عجل من امره. وكان في الواقع على موعد مع افراد اسرة «كانتلي» لكي يذهب معهم الى الكنيسة.

غير ان الشاب الصيني داخله احساس غامض غريب عندما اقترب من «اكسفورد سيركوس»، وبدا له كأنه قد اصبح، بالضبط، على بعد خطوات من ساحة «بورتلاند» حيث تقع السفارة الصينية بالذات... .

وتوقف الشاب المنفي، وتلفت من حوله، فشاهد أحد مواطنيه، وهو رجل متوسط السن، ويرتدي ملابس ذوي المناصب العليا في الصين... وابتسم له الرجل وسأله متأدباً:

- هل استطيع ان اسألك في اية منطقة من الصين ولدت؟

واجابه الشاب دون تردد:

- في «كانتون»...

فبدا السرور على وجه الرجل ذي الملابس التي تدل على رفعة منصبه وقال وهو ما يزال يبتسم للشاب:

- نحن اذن من منطقة واحدة... اولاد بلد.... فأنا ايضاً من كانتون...

وسار الرجلان معا، جنباً الى جنب، وهما يتجاذبان اطراف الحديث... وما ان وصلا الى شارع «غافنديش ستريت» حتى ظهر بغتة رجل يرتدي كذلك ثياب اصحاب المناصب الصينية العالية... .

وبهدوء، وكأن الامر طبيعي جداً ولا غبار عليه اطلاقا، سار الصيني الجديد الى يسار الشاب واشترك في الحديث هذا الرجل.

وفي هذه الاثناء تحدث هذا الرجل، وعمد الى ارق عبارات المجاملة والادب فاستعملها في دعوة مواطنيه الاثنين الى شرب الشاي في بيته... غير ان الشاب اجاب قائلا:

- يؤسفني جداً أن لا استطيع تلبية هذه الدعوة الكريمة، فانا على موعد مع الاصدقاء... ويجب ان نذهب الى الكنيسة معا... فليكن شرب الشاي، اذن، في موعد آخر.

وعلى حين غرة ظهر صيني ثالث... كان رجلا عملاقا، ضخم الجثة، وحشي السمات، لا ينم وجهه عما في صدره... وعندئذ تخلى الموظفان الصينيان الكبيران عن مهزلة تأدبهما الزائف، وتعاون ثلاثتهم فأمسكوا بفريستهم الشاب من تحت ابطيه، وارغموه ان يستدير حول ركن البيت. انه امام بناية السفارة الصينية.

-٣-

وانفتح باب، فدفع الصينيون الثلاثة بالشاب الى داخل السفارة... وكان هو، ما يزال لم يدرك بعد ما حدث له... فقد وقع كل شيء بسرعة خارقة وفي وضح النهـــار... يوم أحـــد لندني هادي‍ء... ايمكن، اذن، ان تقـــوم دوائر الاستخبارات الصينية السرية، من الطرف البعيد الاخر من الدنيا، بترصد خطاه، واقتفاء اثره، ومطاردته ثم الاستيلاء عليه هكذا في قلب مدينة لندن؟

وشرع رجلان صينيان يفتشانه بدقة متناهية، فجرداه من اوراقه، ونقوده وساعته. ثم صعدا به الى احدى الغرف... ولم يستطع الشاب من خلال النوافذ المحاطه بشبكة من قضبان الحديد المشبك ان يشاهد غير الاسطحة المجاوره، وغير المداخن، والضباب. والدخان الكثيف المعقود فوق المنازل.

***

استولى الذهول على الشاب الأسير... ولم يسعه الا ان يبدي اعجابه- فيما بينه وبين نفسه- بالسرعة، والبساطة اللتين تمت بهما عملية اختطافه... وفتح عليه الباب فجأة، ودخل الغرفة الصغيرة رجل انكليزي... ولم يعلم الشاب الا فيما بعد بوقت طويل جداً، ان هذا الزائر هو السير «هاليداي ماكرتني» احد رجال القانون... وانه يعمل مستشاراً حقوقياً للسفارة.

وشرع المستشار الحقوقي يتحدث الى الشاب ثم قال له:

- يا بني... انك الان موجود في ارض صينية... ولو كانت هذه الارض في لندن نفسها... فمن اية وجهة نظر جئت الموضوع فانت في الصين ذاتها... تحت طائلة القوانين الصينية... فهل استطيع ان اعرف اسمك؟

فذكر له الشاب اسمه... .

فابتسم البريطاني وقال بهدوء:

– او تحسب ان معلوماتنا غير صحيحة؟ ان اسمك الحقيقي هو: «صن وان»... .

والواقع ان الشاب كان قد وقع بهذا الاسم عدة طلبات واستدعاءات في طلب الاصلاح السياسي في الصين... .

وعاد الرجل الانكليزي يقول متابعاً حديثه:

– يجب ان لا نضيع وقتنا يا بني... فنحن على اطلاع تام بصورة خاصة فيما يتعلق باعمالك، وحركاتك، وسكناتك... ولقد وصلتنا المعلومات من نيويورك بأنك قد ركبت الباخرة «ماجستيك» قادماً الى ليفربول... ومن الصين تلقينا الاوامر بالقبض عليك... وقال الشاب مستغرباً:

– وما هي الجريمة التي كان لا بدّ من القاء القبض علي بسببها ؟

واجاب المستشار الانكليزي:

– انت تعلم هذا تمام العلم... فقد اغضبت الامبراطور كما اغضبت الحكومة...

وبدا للشاب غريباً كل الغرابة ان يسمع هذا الرجل الذي يبدو اوروبياً مغرقاً في «اوروبيته» يتحدث كما يمكن ان يتحدث اكثر الشرقيين تعصباً..

والواقع ان هذا المحامي الذرب اللسان كان مخلصاً أشد ما يكون الاخلاص لسادته... .

وعاد المحامي الانكليزي يقول:

اننا نجد انفسنا مضطرين ان نستبقيك سجيناً هنا، الى ان يطلعنا الامبراطور على نواياه نحوك... .

-٤-

لم يجد الشاب السجين اية صعوبة في تصور ما يمكن ان تكون عليه نوايا الامبراطور .. بل هو سرعان ما رأى بعين خياله السيف والنطع والجلاد في انتظاره ..

وتمالك نفسه وسأل رجل القانون الانكليزي:

- هل استطيع اعلام اصدقائي الانكليز بوجودي في هذه السفارة؟ واجابه المحامي الانكليزي بكل هدوء:

- يستحيل .. هذا غير وارد اطلاقاً .. وانما انت ستكتب رسالة الى صاحب مسكنك امليها انا عليك وتخطره فيها انك لم تعد بحاجة الى الشقة التي استأجرتها .. وتقول له فيها ايضاً ان يسلم حقائبك الى من يحمل رسالتك اليه .

وأطاع الشاب السجين، ونفذ ما اراده منه، وبعد هذا تركه السير « هاليداي » وخلى بينه وبين افكاره وشتى تصوراته ..

وقد شرع الصيني الشاب بكتابة يومياته في اثناء مدة سجنه . وقد وصف فيها مشاعره بعد اختطافه وسجنه فكتب ما يلي:

« لقد ادركت للوهلة الاولى ان القائمين على سجني كانوا يرجون ان يجدوا في اوراقي ما يرشدهم الى اصدقائي او شركائي .. »

وما انقضت ساعة حتى تأدى الى مسمعه طرق عنيف انتفض له بدنه ،، ثم

تبين له انهم اخذوا يركبون قفلا ثانيا في باب حجرته الضيقة .. ثم اتخذ اثنان من الحرس مركزهما في الرواق الذي تقع فيه الحجرة المذكورة ولما سمعهما يتحدثان بلهجة سكان « كانتون » الصينية ناداهما .. غير انهما رفضا ان يجيباه .. وانما بادرا الى دخول سجنه وراحا يفتشانه، هو من جديد . وفي هذه المرة جرداه من مفاتيحه التي كان يحملها، واخذا منه سكيناً صغيره كان يضعها في جيبه .

ولما اقبل المساء سأله حارساه اذا كان يرغب في تناول الطعام، فطلب كوباً من الحليب .

وفي تمام الساعة السابعة فتح عليه باب غرفته ودخل منه خادمان انكليزيان ... وشرعا في ترتيب الغرفة، ووضعا قطعاً من الفحم في موقد النار ... ولا بد انهما تلقيا اوامر جد مشددة، ودليل ذلك انهما قاما بعملها وكأن الشاب الحبيس غير موجود او غير مرئي ...

وانقضى معظم الليل، ولما لاح الفجر كان الشاب قد شحب وجهه، ونال منه الاعياء ... ومع ذلك فقد كان ذهنه اكثر صفاء من اي وقت آخر ... وكان قد استقر عزمه على الهرب .. واذا دعت الضرورة فانه سيحاول ان يرشو حراسه .. ولكن ينبغي له، قبل كل شيء، ان لا يضيع دقيقة من الوقت تذهب سدى .. ولقد سبق وحذره صديقه الانكليزي الدكتور « كانتلى » وصديقه الاخر الدكتور « هنري مانسون » من الخطر الكامن في اقترابه من السفارة الصينية .. وقال في نفسه : « انهما اذا استبان لهما انني اختفيت فلا شك في انهما سيبادران الى العمل لتخليصي واطلاق سراحي .. »

-٥-

في صبيحة هذا اليوم كان اول من زاره ودخل غرفته الرجل الصيني العجوز

الذي كان اول من عمل على اختطافه ساعة ان اقترب منه وهو في الشارع . وقد زعم هذا الرجل ان اسمه « تانغ » وهو يعمل سكرتيراً في السفارة ..

وقال تانغ :

– أنا آت لاحدثك باعتباري صديقاً لك .. فلماذا لا تعترف انك « صن وان »؟ ان انكارك لا معنى له على الاطلاق .. والامبراطور لا يجهل شيئاً من حركاتك وفعاليتك .. وانا لو كنت مكانك لسرني ان تتاح لي الفرصة لأموت ميتة الابطال في سبيل افكاري ومبادئي .. وسأله الشاب السجين : ولكن ما الذي يجعلك تعتقد انني سأموت؟ ثم انني لست بعد في الصين .. وما نزال في بلاد الانكليز حتى الان .. وانكلترا بلد حر .. وبدهي انكم تستطيعون قتلي هنا في السفارة، الا انكم ستجدون مشقة اي مشقة في اخفاء جريمتكم .. ولست اعتقد انكم ترومون ان تواجهوا المصاعب الجمة مع السلطات البريطانية ...

واجاب تانغ بخبث ثعلبي :

– لقد سبق وقلت لك اننا سنرسلك الى الصين ... وبالطبع لا احسب انك تتصور اننا سنطلب من السلطات البريطانية تسليمك الى الجهة الشرعية التي تطالب بك ... فهذه حماقة ما بعدها حماقة ... وانما سنعمل على تخديرك ونقلك بعد هذا من لندن الى « ساثمبتون » ... وهناك توضع في مكان على ظهر سفينة شحن ... وقبل ان تصل هذه الباخرة الى هونغ كونغ فستعترضها سفينة صغيرة مزودة بالمدافع والاسلحة المدمرة ... فتتولى هي الذهاب بك الى «كانتون» ... حيث سيتم اعدامك ...

وقال السجين الشاب :

– وسيكون هذا . بلا محاكمة ...بالطبع .. فأجابه العجوز « تانغ » دون ان

يبدو عليه أثر للغضب :

- سيتم كل شيء حسب الاصول .. ونحن لسنا برابرة .. فستحاكم اولا .. ويقطع رأسك بعد ذلك .

وعاد الشاب يسأله :

وعلى ظهر الباخرة .. هل تعتقد أن ضباطها وبحارتها .. لن يداخلهم شك .. ولن يلحظوا وجودي؟

غير ان العجوز تانغ لم يبد عليه اي انفعال، بل قال في هدوء مخيف :

- لم ندع شيئاً الا وفكرنا فيه .. ويحسن ان تعلم ان اصحاب تلك السفينة اصدقاء لمستشار السير « هاليداي » .. ومصلحتهم التجارية مع الصين اعظم من ان يدسوا انوفهم في امورنا ..

ووجد السجين الشاب في هذا الحديث فائدة كبرى له .. فقد اتضح له اكثر فأكثر ما يعدونه له .. وما هو المصير الذي ينتظره ... واذن فان امامه فرصاً كثيرة يجب ان لا يدعها تمر دون ان يستغلها ويدبر امر فراره .. ومن كثير ما استطاع ان يعلمه ان الباخرة التي ستقله .. تابعة لشركة الخطوط البحرية « غلين لاين ».. وفهم ايضا ان رحلة الباخرة ستكون في خلال الاسبوع المقبل .

وكان الوقت يمر سريعاً ... والشاب السجين يزداد قنوطاً ... وقد حاول عبثاً ان يرشو حراسه ... ثم القى من النافذة قصاصات من الورق تتضمن صيحات الاستغاثة وطلب النجدة ... غير انه رأى قصاصاته تلك تحملها الريح وتتطاير بها فوق الأسطحة او تدسها في ميازيب المياه ...

-٦-

خطر للشاب السجين ان يكتب رسالة ويلفها حول قطعة معدنية ويلقي بها الى الشارع... ونفذ فكرته في محاولات ثلاث، فسقطت القطعة المعدنية الاولى، ومعها الرسالة، في حديقة بيت مجاور، والاخرى فوق احد الاسطحة، اما الثالثة فقد وصلت الى الشارع فعلا، غير ان بواب السفارة كان هو الذي التقطها.

وفي الغداة دخل الخدم غرفة السجين وقاموا بتسمير الالواح فوق النافذة... وهكذا وجد الشاب نفسه غارقاً في لجة من الظلام.

وقد كان هذا الشاب مسيحياً فوجد في الاستغراق في الصلاة عزاء وسلوى، وراح ينفق الساعات الطوال مصلياً وداعياً ربه... لقد كان حسه هو الذي يخيل اليه انها ساعات... ولكن الحقيقة فانه لم يكن ليدرك شيئاً، اذ انه كان يعيش في ظلام دامس... لا ينيره غير بصيص من النار الموقدة.

***

هذا الوضع الرهيب جعله يدرك انه لم يبق له غير فرصة واحدة لا غير، وهي ان يحاول إلانة قلب الخادم الانكليزي المكلف بتنظيف غرفته وترتيبها وايقاد النار... وكان اسم هذا الخادم «ادوارد كول»، وكان يقوم بعمله وكأنه إنسان آلي... ولم يحاول قط ان يتحدث الى السجين... بل كان يبدو عليه انه لا يراه...

وذات صباح وجه الشاب الصيني الحديث الى كوال هذا فقال له:

– هل ترفض ان تساعدني يا سيدي؟ وفي سنة ١٨٩٦ لم يكن احد يحدث خادما ويقول له « يا سيدي»... وقد دهش ادورارد كول وبوغت... وحدق النظر في السجين كأنه يراه لاول مرة في حياته... فقال هامساً:

- من انت؟... ،ماذا تريد؟... فقال الشاب :

- انا لاجىء سياسي . وقد جئت الى انكلترا لكي اضع نفسي تحت حماية حكومتك ... وانا مسيحي مثلك .

ولانني مسيحي فان الامبراطور يريد ان يقتلني ... وكذلك فانني أنتمي الى من يريدون أن يجعلوا من الصين بلداً حراً كانكلترا ... وانا لم أؤذ أحداً ... وقد جاؤوا بي الى هنا ختلا واحتيالا ..، وكان الشاب السجين يعرض نفسه لمجازفة كبرى وهو يتحدث هكذا بصراحة ... الا انها كانت هذه هي الوسيلة الوحيدة التي يستطيع بها ان يكسب مودة هذا الرجل الانكليزي وعطفه...

غير ان « كول » لم يجب فوراً ... بل جعل يتشاغل في الغرفة منهمكا في عمله ... واخذ يكنس الارض، وينفض الغبار، ويروح ويجيء، ثم قال مخافتاً جداً من صوته:

- انك تقول لي ان الحكومة البريطانية ستساعدك الا انني لست على علم بشيء من هذا .. وانت، من بعد، لست اكثر من انسان غريب .

واستمر الخادم في تنظيف الغرفة .. وكان مستحيلا ان يدرك المرء انه تأثر بتوسلات الشاب السجين، او ان هذا كله ذهب هباء منثوراً .غير ان الشاب السجين عاد يقول باصرار:

- انها مسألة حياة او موت يا سيدي .. انقل هذا الى السلطات البريطانية فتنقذني ..وانا واثق من انك لا تريد ان يقضى بالموت على رجل بريء مثلي .

-٧-

لم يكن احد قد تحدث الى « كول » بمثل هذه اللهجة » وكان « كول »

خادماً اميناً ومخلصاً وجاداً في عمله . ولذلك فهو يتأبى التدخل في شؤون مخدوميه . وسأله الشاب الصيني السجين :

– اليس واجبك باعتبارك مسيحياً أهم بكثير من اخلاصك لمخدوميك في السفارة؟

وكان « كول » قد انهى عمله، فمضى دون ان يجيب على سؤال الشاب بكلمة واحدة .

ولم يغمض للشاب السجين جفن في هذه الليلة . وكان لا ينفك يتساءل : هل استطاع ان يقنع هذا الخادم الانكليزي؟ ام تراه سيخونه ويغدر به؟ ام ان كلماته لم تستطع ان تحرك وتراً حساساً في قلبه؟..

وفي صبيحة غد عاد الخادم، ودخل غرفة السجين كعادته، ووضع على المنضدة صينية طعام الفطور، ومضى متكتماً دون ان يفوه بكلمة واحدة . وجاء في المساء ومعه دلو مملوء بالفحم ولم يفتح فمه . ولم ينبس ببنت شفة، الا انه اشار الى دلو الفحم باصبعه، ثم غادر الغرفة ...

وهرع الشاب السجين الى الدلو، وجعل يبحث، ملهوفاً، في كوم الفحم واخيرا وجد قصاصة مطوية من ورق، ففتحها وقرأ فيها ما يلي:

« لا اريد ان تكون لي مشاكل مع البوليس، غير انه لا مانع عندي ان اذهب برسالة تكتبها انت، الى اصدقائك وحذار ان تكتب هذه الرسالة وانت جالس الى المنضده فان الذين يقومون على حراسة غرفتك يراقبونك من ثقب الباب باستمرار، اما اذا كتبتها وانت في سريرك فانهم لا يستطيعون ان يروك » وتمدد الشاب السجين فوق سريره وادار وجهه الى الحائط، وكتب بالقطعة الصغيرة التي في حوزته من القلم رسالة فوق بطاقة زيارة، هذا نصها :

« الى الدكتـور جيمس كانتلي، ديفونشير ستريت، رقم ٤٦ - ارجوك ان تحرص كل الحرص على مصير حامل رسالتي هذه اليك، فهو رجل فقير ومسكين وسيجازف بعمله ومورد رزقه وهو يقدم لي خدمة حمل رسالتي اليك . لقد اختطفتني السفارة الصينية يوم الاحد الماضي، ووضعتني في احدى غرف السفارة، ولسوف يذهبون بي، خفية من انكلترا الى الصين حيث يتم اعدامي . فأتوسل اليك ان تغيثني بأسرع ما تستطيعا »

غير ان هذه الرسالة لم تصل الى الدكتور جيمس كانتلي بهذا الشكل الذي كتبت فيه، فقد كان « كول » رجلا شديد الحذر، ورأى ان ينتظر اولا يوم عطلته، وقد كان يوم سبت في السابع عشر من شهر تشرين الاول، ثم كتب هو نفسه رسالة بعث بها، مع شخص آخر، الى الدكتور « كانتلي » واليك ما جاء في هذه الرسالة .

« ان احد اصدقائك سجين في سفارة الصين منذ يوم الاحد الماضي، ولن يلبث طويلا حتى يرسلوا به الى الصين حيث سيعدمونه، ان هذا يدعو الى عظيم الاسى بالنسبة لهذا الرجل، وعلى الاخص اذا لم تفعلوا شيئاً لانقاذه ... وأؤكد لكم ان ارساله الى الصين سيتم دون ان يدري احد بذلك . وانا لا استطيع ان اوقع هذه الرسالة . غير انني قلت لكم الحقيقة بحذافيرها . ويجب ان تصدقوني . فبادروا الى العمل فوراً والا فات الاوان . ان اسم هذا الرجل هو « لن ين صن » فيما اعتقد .

-٨-

وصلت الرسالة الى الدكتور « جيمس كانتلي » واسرته، وهم جالسون يقرأون الى جانب موقد النار، وكانت أمسية يوم السبت تلك عادية كغيرها من الامسيات .. وصحيح انهم دهشوا ان لم يوافهم صديقهم الصيني الشاب في

الموعد المضروب للذهاب الى الكنيسة يوم الاحد الماضي، الا انهم لم يقلقوا عليه، وحسبوا انه اخلف الميعاد لسبب من الاسباب الشخصية .

ولما قرأ كانتلي تلك الرسالة التي بعث بها الخادم الانكليزي « كول » ادرك بداهة ان عليه ان يبادر الى العمل فوراً ودون تلكؤ او ابطاء .. وكان كانتلي طبيباً كما ذكرنا سابقاً، ولهذا فانه لم يكن يفقه شيئاً في السياسة والامور القضائية والتجسس ، وعمليات الاختطاف الخ .. ولم يخطر له ان يذهب لينبىء البوليس بما حدث لصديقه الصيني الشاب .. غير انه كان قد سمع باسم محام انكليزي كبير هو السير « هاليداي ماركارتني » على اعتبار انه المستشار القضائي والحقوقي للحكومة الصينية .. ووقع في روعه ان السير هاليداي يستطيع ان يقدم له مشورة نافعة بشأن صديقه الصيني الشاب المسجون في السفارة ..

وكان السير « هاليداي » يقيم في مكان قريب، ويحتل داراً مستقلة وعلى غاية من جمال البناء وروعة الهندسة . فاسرع كانتلي الى تلك الدار، وقرع جرس الباب الخارجي مراراً فلم يتلق اي جواب .. فلا ريب، اذن، في ان السير « هاليداي » قد مضى إلى ناحية من الريف لقضاء عطلة نهاية الاسبوع.. وعندئذ قرر الدكتور كانتلي ان يفضي الى البوليس بما تأدى اليه من مصيبة صديقه الشاب الصيني .. فأسرع ودخل اقرب مركز للبوليس .. وقد اصغى اليه المسؤولون اصغاء كله تأدب حتى انتهى من قصته .. ثم نصحوا له ان يراجع رجال « سكوتلانديارد » واصغى اليه مفتشو البوليس هناك في كثير من المجاملة والادب ايضاً ولكن هذه المجاملة، وهذا اللطف، وهذا الادب لم تخف عدم تصديقهم لما رواه لهم .. ومع ذلك فقد سجلوا ملاحظاتهم عما قاله لهم بعناية فائقة ... ووعدوه ان يرجعوا بذلك الى رؤسائهم .. ثم نصحوا له ان يعود الى بيته .

وفي صبيحة الغد هرع الدكتور « كانتلي » الى صديق آخر للشاب الصيني السجين هو الدكتور « هنري مانسون » لكي يسأله ماذا عسى ان يفعل ... وبعد المداولة اتضح للرجلين ان دوائر سكوتلانديارد ليست على عجل في امرها، ولن تفعل اي شيء بالسرعة التي يتصورانها، وانه يجب ان يفعلا شيئا .. وان يجدا شخصاً يقبل بالذهاب الى سفارة الصين .

ومرة اخرى عاد كانتلي الى دار المحامي سير « هاليداي » وكان يرجو ان يجد حارساً او بواباً يرشده الى مكان وجود المحامي ... غير انه لم يجد ثمة احداً يسأله ... ولما عاد الى بيته وقد انهكه التعب تماماً لفرط ما بذل من المساعي والجهود، وجد زائراً لم يكن يتوقع وجوده في بيته، وقد كان هذا الزائر هو «ادواردكول» خادم السفارة الانكليزي، وكان قد عقد عزمه على ان يأتي، هو شخصياً، لكي يشرح قصة الشاب الصيني السجين، ويطلب، بل ويلح في الطلب ان ينقذه اصدقاؤه ...

-٩-

رحب الدكتور « كانتلي » بالخادم ترحيباً حاراً، ثم روى له ما فعله، والمساعي التي بذلها دون جدوى، وذهابه اكثر من مرة الى دار المحامي سير « هاليداي » وكيف انه لم يجده، بل لم يجد احداً يسأله عنه ... وأصغى « كول » بكل انتباه لما قاله الدكتور كانتلي، وبدت عليه الدهشة عند سماع اسم المحامي « هاليداي »، ثم لم يتمالك نفسه فقال وما تزال الدهشة مرتسمة على محياه : ان سير « هاليداي » يقيم في لندن ولا شك، وانه يراه في السفارة كل يوم، الا انه، دون اي ريب، ضالع في قضية اختطاف الشاب الصيني السجين، بل هو من واضعي خطة الاختطاف تمهيداً لارسال السجين الى الصين حيث سينفذ فيه الاعدام بقطع الرأس... وهذا كله يعقد الامور ولا يسهلها ابدا... وان رجلا كالسير هاليداي يمكن ان يكون عدواً مرهوب الجانب حقاً... .

وفكر الدكتور كانتلي، واطال التفكير، ثم اتضح له اخيراً انه لم يبق امامه، لانقاذ السجين الشاب، الا القليل من الوقت... وكان يوم الثلاثاء هو اليوم المعين لابحار السفينة التي سينقل عليها الى الصين... وكان ربان هذه السفينة قد جاء الى السفارة لكي يبحث الموضوع مع سير سهاليدايش نفسه... .

وهكذا لم يكن امام اصدقاء الشاب الصيني السجين غير ثمان واربعين ساعة فقط لكي يعملوا على انقاذ صديقهم... .

وعلى الفور هرع الدكتور «كانتلي» الى بيت صديقه الدكتور «مانسون»، وانطلقا معاً الى دوائر سكوتلاند يارد ليسألوا المسؤولين، هناك، المبادرة الى مساعدتهما قبل فوات الاوان... .

واصغى لهما المفتش صاحب النوبة، ثم راح ينظر في اضابيره، ويتفحص اوراقها، واخيراً قال:

– انني ارى بموجب القيود في الاضبارة، انك اتيت الى هنا مساء يوم امس يا سيدي الدكتور كانتلي... وحتى هذه اللحظة لم نتلق اي اثبات لما رويته لنا....

وخرج الرجلان يائسين يضربان كفاً بكف... وقررا الذهاب لمراجعة وزارة الخارجية ولم تكن امامهما مسافة طويلة يقطعانها فقد كانت الوزارة غير بعيدة، ولم تمض بضع دقائق حتى وصلا اليها، غير انه تبين لهما ان المصاعب والعقبات لا تطل برأسها الا بعد الوصول الى المكان المقصود... وقيل لهما في وزارة الخارجية، وبعبارة مؤدبة جداً، ان الموظف المداوم المختص لا يستطيع ان يقابلهما قبل الساعة الخامسة من بعد ظهر ذلك اليوم، ثم أردفَ الموظف الذي قابلهما قائلا:

– ان الموضوع الذي تبذلان مسعا كما في سبيله حساس جداً، وهو يتناول علاقاتنا ببلد اجنبي كما يتناول الحصانة الممنوحة للارض التي تقوم عليها السفارة الصينية واية سفارة اخرى، وكذلك القانون الدولي نفسه... ثم انني انا شخصياً، لا املك اية صلاحية للعمل في هذا الموضوع الخاص.... وعلى هذا فلا بد من ان تنتظر الموظف المختص... .

ولم تستطع هذه الصعوبات ان تثبط من عزم وعزيمة الرجلين، فخرجا من الوزارة، وانتخبا جانباً من الرصيف المقابل لمبنى وزارة الخارجية... واستقر رأيهما على الذهاب الى السفارة الصينية نفسها غير ان الدكتور «كانتلي» كان معروفاً كل المعرفة لرجال السفارة الصينية، فلا يمكنه الذهاب إليها للتحدث في موضوع الشاب السجين، الا انه لم يكن ثمة اي مانع يحول دون ذهاب الدكتور «مانسون» ولن يجد الصينيون اي سبب لرفض مقابلته... وقال كانتلي:

– اذهب انت الى السفارة، واذا لم تعد بعد انقضاء ساعة فسأخطر بذلك دوائر سكوتلانديارد... .

–١٠–

في الساعة السادسة والنصف كان الدكتور «ماسون» يقرع باب مبنى السفارة رقك ٤٩ في ساحة «بورتلاند» وقد فتح له الباب خادم انكليزي، ثم جاء من تقدمه وذهب به الى غرفة الاستقبال التي ازدانت جدرانها بقطع من الحرير المشغول بالذهب والفضة، ولاحظ الزائر عدة تماثيل لـ «بوذا» مصنوعة من البرونز، ولفتت نظره صورة كبيرة للامبراطور.

وقال الدكتور «ماسون» انه يرغب في ان يتحدث في أمر مهم الى احد ملحقي السفارة... ولم ينتظر طويلا قبل ان يوافيه الى حجرة الاستقبال الصيني «تانغ» وقد علت الابتسامة العريضة شفتيه، ثم انحنى محييا زائره

الانكليزي... .

ودخل الدكتور «مانسون» مباشرة في الموضوع دون ما حاجة الى المداورة فقال:

– انكم تحتفظون بأحد اصدقائي سجيناً في هذه السفارة، وهذا الصديق هو احد طلابي القدامى، وارغب في ان اراه.

وعلى الفور تغير وجه «تانغ» واختلفت ملامحه كل الاختلاف، وانقلب قاسي الملامح واكتست اساريره ببرود ثقيل، وغدا كأنه احد هاتيك التماثيل البرونزية الجامدة، وقال:

– اننا لا نحتفظ بأي انسان سجين في هذه السفارة، وما هو اسم هذا الشاب الذي تبحث عنه؟

– اسمه « صن ون»

– ليس من انسان اسمه «صن ون» في هذه السفارة... .

وعاد الدكتور «مانسون» يقول بصراحة عجيبة:

– انا على اطلاع تام على انكم تحتفظون به سجيناً هنا. ولقد اصبحت دوائر سكوتلنديارد مطلعة على هذا كله وكذلك وزارة الخارجية... .

لم يبد على «تانغ» انه ذهل او تضعضع امام هذه اللهجة القاطعة الجازفة، بل راح يؤكد للدكتور مانسون ان في الموضوع خطأ أو التباساً، ولا ريب انه ضحية «مقلب».... .

وكان موقف هذا الموظف الصيني بالغ الاقناع الى الحد الذي استطاع ان يقنع

الدكتور «مانسون» بأقواله.... فنهض مودعاً وانصرف... ثم هرع للقاء زميله الدكتور «كانتلي» واخبره انه ليس في السفارة من سمع باسم الشاب الصيني السجين... .

غير ان «كانتلي» لم يقتنع بما قاله زميله «مانسون»، وراح يتساءل عما اذا لم يكن من الخطأ ارسال «مانسون» ليقوم بهذا المسعى الفاشل في السفارة الصينية... بل ربما كان اثر هذه الزيارة وبالا على الشاب السجين فيستعجل رجال السفارة ارساله الى بلاده حيث سينكل به ويتم اعدامه بقطع رأسه.

-١١-

عاد الدكتور « كانتلي » كالمنكسر الى دوائر « سكوتلانديارد »، وراح يتوسل الى مفتشي البوليس ان يقوموا بمراقبة السفارة الصينية على الاقل ... فأجابوه بان هذا ليس من مهام دوائر سكوتلانديارد، وانما هو من اختصاص مركز بوليس « ويست آند » وهو المكان الذي تقع فيه ساحة « بورتلاند » ...

ومضى « كانتلي » الى ذلك المركز فاستقبل استقبالا سيئاً، ولم يصدق احد ما قاله بصدد السجين الصيني الشاب .. وعلى الاخص انه لا يملك اي دليل او اثبات على صحة قصته تلك .. ثم قيل له :

– ان بث رجالنا حول سفارة ما قرار لا نستطيع اتخاذه لانه، ببساطة، يفوق صلاحيات اي مركز بوليس ... واطرق الدكتور « كانتلي » قليلا يفكر وامضت في ذهنه خاطرة سرعان ما نفذها، فنهض من فوره ودخل مبنى صحيفة « التايمز » اليومية وطلب ان يقابل احد رؤساء التحرير .. غير ان هذه المقابلة لم تجده شيئاً، بل وجد نفسه كأنما قد اصطدم بجدار أصم .. وحز هذا في نفسه .. انه قام بشتى المساعي، وبذل جهوداً جمة، وحاول مختلف المحاولات .. غير ان تعبه ذهب دون اية نتيجة ايجابية ..

كانت الساعة قد تجاوزت الحادية عشرة والنصف عندما عاد الى بيته، وعلى الرغم مما ناله من تعب وارهاق فقد أبى ان يخلد الى النوم .. وكيف تراه سيغمض له جفن واحد طلابه يوشك ان يقضى عليه ويعدم اعداماً .. ان المرء عندما يسهر على شخص يحتضر يجب ان لا تثبط عزيمته، بل عليه ان يكافح ويبذل المستحيل لانقاذه ..

وعاد الدكتور « كانتلي » فارتدى ملابسه استعداداً للخروج من بيته، وقد اختار اردية دافئة تساعده على السهر طيلة الليل .. اجل، لقد قرر ان يقوم هو نفسه بمراقبة سفارة الصين .. ونفذ قراره العجيب هذا بشجاعة ورباطة جأش حتى صباح اليوم التالي .. ثم هرع الى احدى وكالات الاستخبارات والتحري الخصوصية وراح ينتظر حتى فتحت ابوابها . فدخل مع عدد كاف من رجال هذه الوكالة لكي يحيطوا بمبنى السفارة الصينية ويراقبوها ليل نهار .

ثم مضى وقد اطمأن قليلا، وقد زاده هذا الاطمئنان قوة، وتصميما وعزماً، وقرر ان يواصل مساعيه، فاتجه من جديد الى وزارة الخارجية.

-١٢-

ما ان دخل الدكتور كانتلي وزارة الخارجية، وقابل المسؤولين وروى لهم القصة بحذافيرها ، حتى لاحظ شيئاً من الاهتمام، واتصلت وزارة الخارجية بدوائر سكوتلانديارد ، وطلبت ان يقوم المسؤولون فيها بالتحقيق اللازم ليتأكدوا من ان السفارة الصينية قد استأجرت فعلا احدى سفن الشحن .

ولم يلبث الجواب ان جاء سريعاً وعلى الفور، وهو ان سفارة الصين قد استأجرت باخرة شحن من بواخر « غلين لاين » التي ستبحر في الغد وهو يوم ثلاثاء .. وان الباخرة ستكون محملة بالسلع التجارية المطلوبة للصين .. وسيكون فيها راكب واحد لم تذكر شركة البواخر اسمه، ولكن المعروف هو انه صيني

الجنسية.

***

في هذه الاثناء كان الشاب الصيني السجين في احدى غرف الطابق الثالث من سفارة الصين يذوق الموت اشكالا والواناً من الشك، وعذاب التفكير والقلق، والامل الذي سرعان ما يخيب، واليأس القاتل... بل هو لم يكن على يقين من أن الخادم الانكليزي «كول» قد أوصل رسالته الى الدكتور «كانتلي»... .

غير ان شعاعاً واحداً من امل عاد فاضاء جوانب نفسه المعذبة مساء يوم الاحد، عندما دخل عليه غرفته «كول» وبيده الدلو الممتلىء بالفحم كالعادة. وقد وجد الشاب السجين قصاصة ورق بين الفحم فيها عبارة واحدة هي:

«تشجع. اننا نهتم بامرك»... مع ذلك فقد كان الوقت يضيق ويضيق، واضطر الخادم «كول» ان يرسل الى الدكتور «كانتلي» رسالة جديدة هذا نصها:

«سيتاح هذه الليلة ان اصعد بصديقك الى سطح البيت المجاور للبناء... الذي تعرفه... وليكن ثمة من ينتظره.... ولكن هل يجب ان أجازف هذه المجازفة؟ ارجو ان تعلمني رأيك....»

وما كاد الدكتور «كانتلي» يتسلم هذه الرسالة حتى هرع من فوره الى دوائر سكوتلانديارد وجعل يتوسل الى المسؤولين ان يرسلوا بمفتشي البوليس الى سطح البيت المذكور في رسالة الخادم «كول» غير ان بوليس سكوتلانديارد رفض... ثم قيل له انهم، في النهاية، قد قرروا ان يقوموا بتحقيق في الموضوع، غير ان اجراءاتهم ستكون كلها وفقاً للاصول القانونية، وهي اصول يجب احترامها تماماً... .

وفي صباح يوم الاثنين، الثاني والعشرين من شهر تشرين الاول، طلب البوليس مذكرة توقيف، على بياض ضد سجين مجهول... .

-١٣-

كانت مذكرة التوقيف التي طلبها البوليس قبل يوم الاثنين ٢٣ تشرين الاول ضد سجين مجهول نوعاً من الاحتياط قد ينقذ حياة الشاب الصيني حبيس سفارة الصين... ومعنى ذلك ان البوليس البريطاني يبادر الى توقيفه... ثم يضعه تحت حمايته بعيداً عن الخطر المخيف الذي يهدده... .

الا ان مما يدعو الى الاسف الشديد هو موقف قاضي الصلح البريطاني الذى طلب منه القيام بهذا الاجراء القانوني الذي يراد به تقديم شخص ما ليمثل امام المحكمة... فقد رفض القاضي توقيع مذكرة التوقيف هذه التي بفضلها كان يؤمل ارغام السفارة الصينية على تسليم السجين.

ومع ذلك فان هذا المسعى لم يذهب سدى ودون اية فائدة، فقد لفت، على الاقل، انتباه صحف لندن كلها... ومنذ هذه اللحظة اتخذت الحوادث شكلا جديداً، واتجاهاً آخر لم يكن متوقعاً... .

فقد احاط مراسلو الصحف تلك العمارة القائمة في ساحة «بورتلاند»... عمارة السفارة محط الانظار، ومثار الكثير من التعليقات والاهتمام المتزايد... وتصلب الصحفيون في موقفهم، وكأنما قد اصابهم عناد شديد حيال هذا التحدي فأخذوا يطالبون ويلحون في المطالبة: ان يروا هذا السجين الذي تحتفظ به السفارة في احد غرفها... .

وظهر لهم الثعلب العجوز «ت   هو اشد ما يكون تأدباً، ومجاملة، وابتساماً، ودعاهم الى مؤتمر صحفي عاجل، وراح يؤكد لهم، وابتسامته المؤدبة لا

تفارق شفتيه ابداً، ان الامر لا يعدو ان يكون من باب الختل والخداع والوهم الكبير... .

غير ان رجال الصحافة لم يأخذوا بمظهره المريب هنا، جابهوه باصرار قوي وبكلمات قاسية، وقالوا له ان لمن العار ان تعمد السفارة الى انسان بريء لتخطفه، وتسجنه في احدى غرفها، وتنسى انها تفعل هنا... في قلب مدينة لندن نفسها... اي في انجلترا... .

واشتدت حماسة الصحفيين، وادركوا انهم امام هذا التحدي يجب ان يزدادوا عزما وتصميما، وان الامر لم يعد يتعلق بسجين ما، بقدر ما هو متعلق بسمعة بريطانيا نفسها، ثم بسمعة صحافتها التي انتهت اليها انباء هذا الاختطاف السافر...

وتساءل الصحفيون في غضب شديد: «هل ترانا سنفسح المجال لكي يقال ان صحافة لندن علمت بالامر كله، ولم تفعل شيئاً... لم تنبه الرأي العام... لم تستقطبه كله لاطلاق سراح السجين... الذي اختطف في قلب مدينة لندن؟»

واخذ فريق من الصحفيين يتحرى الامر باهتمام عظيم، واخذوا يدرسون القضية بحذافيرها، وبترتيبها المنطقي منذ اللحظة التي وصل فيها الشاب الصيني الى انكلترا... .

وهكذا استطاعوا أن يكتشفوا رجل القانون الانكليزي ومستشار السفارة الصينية «سير هاليداي ماكارتني» وكانت صحيفة «الديلي ميل» هي اول صحيفة قابلته واجرت معه حديثاً صحفياً مطولا باعتباره الممثل القانوني للسفارة الصينية... .

وهكذا، وللمرة الاولى، اميط اللثام عن هذه القضية العجيبة، ووضعت امام

الرأي العام، بعد ان كانت محصورة في حدود ضيقة لا تعدو بضعة اشخاص... .

-١٤-

كانت هذه الحوادث كلها، في الواقع انقلاباً فجائيا في قضية الشاب الصيني السجين .. وتحت ضغط الصحف في حملاتها اليومية النارية، وتحت ضغط الرأي العام البريطاني واستنكاره الشديد، واستغرابه ان يقع هذا الاختطاف في بلادهم، والحاحه في اطلاق سراح السجين، تحت هذا الضغط كله اضطرت السفارة الصينية ان : تعترف بوجود هذا السجين .. وقد جاء هذا الاعتراف على لسان السير « هاليداي» نفسه، وقد نشرت صحف لندن حديثه وتصريحه الصحفي التالي :

« عندما سئل السير هاليداي ما كارتني رجل القانون الذي يعمل مستشاراً حقوقياً لسفارة الصين في لندن قال انه ذهب الى وزارة الخارجية البريطانية بعد ظهر يوم امس الساعة الثالثة والنصف، ولما سأله ممثل الصحافة : عن قضية الشاب الصيني السجين ادلى بالتصريح التالي : « ليس عندي اية معلومات جديدة اضيفها الى ما سبق ونشرتموه في جرائدكم حول هذا الموضوع .. »

ولما قيل له ان اللورد « ساليسبوري » وزير الخارجية قد طلب من السفارة الصينية ان تطلق سراح شاب سجين عندها، اعترف السير هاليداي بهذا، وقال انه على علم بهذه الواقعة، ثم فكر هنيهة، وعاد فأضاف قائلا :

« سيطلق سراح هذا الرجل .. ولكن اسمه الحقيقي ليس « صن ون » .. والواقع اننا نعرفه معرفة لا يشوبها لبس في هويته الحقيقية، كما اننا على اطلاع تام على جميع اعماله وحركاته وسكناته وتصرفاته منذ ان وطئت اقدامه ارض

انكلترا..»

وعاد المحامي الخبيث يفكر، ثم رفع رأسه واخذ يدير عينيه في وجوه الصحفيين، واخذ يقول:

«ان الشاب الصيني الذي اثار اهتمامكم العظيم هذا... لم يختطف اختطافاً... وانما هو دخل السفارة طواعية واختياراً دون اي ارغام على الاطلاق... وبالطبع ليس ما يدعو الى الدهشة ان يجد رجل صيني نفسه وحيداً في لندن فيرغب في ان يزور سفارة بلاده ويتبادل الحديث مع مواطنيه...»

غير ان ممثلي الصحافة البريطانية لم تنطل عليهم هذه الخدعة، ولم يؤخذوا بمكر هذا الرجل الداهية فجابهوه بهذا السؤال المحرج:

– ما دام الامر كما ذكرت... فما هو التفسير الذي تستطيع ان تقدمه لإبقاء هذا الشاب سجيناً في السفارة الى اليوم؟

وكان الرجل سريع البديهة فأجاب بدهاء، محاولا اخفاء كذبه:

– كان هناك خطأ ولا ريب... فقد ظن بعض الاشخاص، ان هذا الشاب كان قصده ان يتجسس على موظفي السفارة.

-١٥-

في اليوم الثالث والعشرين من شهر تشرين الاول وصلت مذكرة اللورد ساليسبوري وزير الخارجية البريطانية الى سفارة الصين، وفيها طلب الافراج الفوري عن الشاب الصيني السجين في السفارة.

ولم يمض وقت طويل حتى جاء الحرس وفتحوا على الشاب باب غرفته،

وامروه ان ينتعل حذاءه، ويرتدي معطفه، ويعتمر بقبعته، ثم يتبعهم ... واطاع المسكين ما أمروه به، واخذ يسائل نفسه ماذا يراد به: اتراهم سيذهبون به الان الى السفينَة المتأهبة للسفر وحمله الى بلاده حيث سينفذ فيه حكم الاعدام بقطع رأسه؟ ام انهم بكل بساطة سيهبطون به الى احد أقبية السفارة حيث يقتلونه رمياً بالرصاص؟؟

وسأل سجانيه خائفاً متوجساً:

- الى اين نحن ذاهبون؟

الا انهم لم يحيروا جواباً... وانما ساروا وسار هو معهم حتى وصلوا به الى غرفة استقبال صغيرة في الطابق الارضي وكان، ثمة، في انتظاره رجال ثلاثة هم: الدكتور كانتلي، ومفتش من رجال بوليس سكوتلاند يارد، واحد موظفي وزارة الخارجية البريطانية...

وانفتحت ابواب السفارة، وخرج الرجال الثلاثة وبينهم الشاب الصيني، وهو لا يكاد يصدق انه قد اطلق سراحه حقاً ونجا من الهول الذي كان ينتظره... .

وفي الخارج وجدوا حشداً كثيراً من الخلق ينتظرهم... وما ان رأوهم، ورأوا الشاب السجين معهم حتى تعالت هتافات الجماهير تشق الفضاء...

والعجيب ان وصول هذا الشاب الى لندن قبل ثلاثة اسابيع لم يكن له اي صدى، لم يدر بوجوده احد... اما في هذه الايام الاخيره، و في هذه اللحظة بالذات فقد كان هو الرجل الذي لم يكن للندن، وللملايين من سكانها من حديث غير قصته العجيبة.

وما اكثر ما امطروه من أسئلة، غير ان هذا السؤال كان هو الاكثر دوراناً

على ألسنتهم:

- كيف تراك فعلت لكي تنبىء الدكتور كانتلي بامرك ؟

وكـان هذاالسـؤال، بالذات، هو الذي لا يسـتطيع ان يجـيب عنه بكلمـة واحدة... فقد كان لزاماً عليه ان يحمي حتى النهاية، ذلك الخادم المخلص الذي كان هو الذي انقذ حياته بالفعل.

وكان لا بد. من باب الشكر وعرفان الجميل، ان يزور الشاب الصـيني دوائر سكوتلاندیارد، ثم تناول طعـام العـشـاء، في تلك الليلة نفسـهـا، على مـائدة الدكتور كانتلي... وبعد هذا كتب رسالة موجودة في كثير من كتب التاريخ التي يدرسها الطلاب في بعض انحاء العالم، وهذا هو نصها:

«لو تسـمحون لي ان استـأثر بحيـز من صـفحاتكم لكي اعبر عن شكراني العميق للحكومة البريطانية التي كان لها فضل اطلاق سراحي من سجني في السفارة الصينية؟ وان الواجب ليدعوني، كذلك، ان اشكر للصحافة عونها ومودتها . واذا كنت بحاجة الى الاقتناع بكرم بريطانيا ومحبة شعبها للعدل والانصاف ، فان الحوداث التي عشتها اخيراً تكفي لاقتناعي.

واناعلم الآن، واحس اكثر من اي وقت مضى: كيف يمكن ان تكون الحكومة الدستورية، وكيف يمكن ان يكون الشعب الحر. ولقد كسبت شجاعة عظيمة ستمكنني، اكثر مما فعلت، من خدمة قضية التقدم، والتعليم والحضارة في وطني المحبوب»

المخلص : صن يان صن

اجل ان الرجل الذي كتب هذه الرسالة المفتوحة التي نشرتها في حينها

صحف لندن جميعاً كان هو الذي اصبح، فيما بعد، اول رئيس للجمهورية الصينية، والطليعي الاول للديموقراطية في بلاده: صان يان صن.

أنا أمرت بضرب هيروشيما

اكثر من عشرين سنة انقضت منذ ذلك اليوم، يوم اللعنة والهول، الذي ادركت فيه البشرية ان في الامكان ان تمحى وتُباد بسهولة... ومنذ ذلك اليوم والقوة الخارقة المدمرة لم تفتأ تعظم وتتضخم... فالى متى يمكن لحكمة الانسان او خوفه ان يردعا رؤساء الحكومات عن سحق البشرية وابادتها؟ فلنصغ، اذن الى ما ما يقوله الرئيس ترومان عندما كان عليه ان يقرر استعمال هذا السلاح الرهيب الذي وضعه العلماء بين يديه.

«دار النشر التي اصدرت هذا المقال»

-١-

كان وزير الحربية «ستيمسون» هو الذي ابلغني الرسالة التاريخية المنبئة بتفجير اول قنبلة ذرية، وكان ذلك في صباح يوم ١٦ تموز سنة ١٩٤٥ . واذن فقد نجح أكثر مشروعاتنا الحربية سرية وجرأة، وغدونا من بعد، نمتلك سلاحا حربيا سيكون من شأنه تطوير الحرب ، وربما أدى الى تغيير مجرى التاريخ والحضارة.

لقد جاءني هذا النبأ في «بوتسدام» غداة وصولي اليها في سبيل مؤتمر الثلاثة الكبار.

كانت الاستعدادات الاخيرة لتجربة اول تفجير ذري قد سارت بسرعة عاجلة

في «الاموغوردو» في نيومكسيكو في الوقت الذي كنت فيه مضطرا الى السفر لأوربا، وبعد انتهاء رحلتي جعلت انتظر وانا نافذ الصبر اعلان النتائج. وكان العلماء قد اطلعوني على الكثير من هواجسهم والوان حدسهم، ولكن احدا منهم لم يكن واثقاً من نجاح هذا التفجير الذري الاول على نطاق واسع.

وعندما قرأت الرسالة التي بعث بها الى «ستيمسون» ادركت ان التجارب الاولى لم تؤكد توقع الخبراء كابعد ما يكون التوقع تفاؤلا واستبشارا وحسب، بل هي قد حققت للولايات المتحدة ان تمتلك قوة متفجرة لا تعادلها قوة في العالم.

وجاء «ستيمسون» في الغداة الى «بوتسدام» على متن طائرة، حاملا الي جميع التفاصيل المتعلقة بتجربة اول تفجير ذري، فاستقبلته فوراً، ورجوت وزير الخارجية «بايرتس»، والاميرال « ليهاي» والجنرالات «مارشال» و« آرنولد» وكذلك الاميرال «كنغ» ان يأتوا «لينضموا» الينا في مكتبي.

وتمت دراسة خططنا الحربية في ضوء هذا الحدث العظيم الذي قلب مفاهيمنا جميعاً رأساً على عقب. ولم نكن قد قررنا بعد، استعمال هذا السلاح ضد اليابانيين، على الرغم من اننا لم نكن نعرف حتى تلك اللحظة الاثر الجثماني او النفسي الذي يمكن ان يعاني منه العدو... ولهذا السبب نصح لي الرؤساء العسكريون ان احتفظ بالخطط الموجودة لاجتياح اليابان.

وقد بقي سر القنبلة الذرية مصوناً بعناية تامة في «بوتسدام» وغيرها، كما اننا لم نوسع دائرة الاميركيين الصغيرة المطلعة عليه.

لقد كان تشرشل، بالطبع، عالماً بهذا المشروع منذ جذوره الاولى، ثم ان الموارد الفنية «التكنيكية» البريطانية والاميركية قد اضيف بعضها الى بعض في عمل مشترك.

وفي يوم ٢٤ تموز اشرت اشارة عابرة لـ «ستالين» باننا نملك سلاحاً جديدا له قوة مدمرة استثنائية، غير ان الرئيس السوفياتي لم يبد كثير الاهتمام بهذا النبأ، واكتفى بان يقول انه سعيد ان يعلم ذلك، وانه يرجو ان نحسن اصطناعه ضد اليابانيين.

وكان «غرو» وزير الخارجية بالوكالة المؤقته قد سألني في اواخر شهر ايار اذ لم يكن الاجدر ان ننشر نداء يدعو اليابانيين الى التسليم، ونؤكد لهم في الوقت نفسه اننا نأذن للامبراطور ان يظل على رأس الدولة، وقد عزز هذا الاقتراح بالدلائل والبراهين التي امدته بها سنوات عشر امضاها سفيرا في اليابان وقلت انا له انني قد واجهت هذه الفكرة ايضاً لانها بدت لي عادلة.

وكان «غرو» يحمل مشروعاً لهذا النداء، فرجوته ان يقدمه بالطريق العادية المألوفة الى المجلس المختلط، والى لجنة التنسيق الحربية البحرية، لكي نطلع على آراء جميع من يعنيهم الامر قبل ان اتخذ قراري.

وفي يوم ١٨ حزيران اعلمني «غرو» ان زملاءه في الوزارة، وكذلك المجلس المختلط قد اقروا اقتراحه، كما ان القواد العسكريين كانوا قد تحدثوا معي في هذا الموضوع عندما جاءوا يعرضون علي ما قاموا به من اعمال في ذلك اليوم نفسه .

وقد قررت أنا اننا سنذيع هذا النداء في اثناء انعقاد مؤتمر الثلاثة الكبار في «بوتسدام». وكان من رأيي ان هذا الاجراء سيظهر، بوضوح لليابان و للعالم اجمع ان الحلفاء متحدون في نواياهم ومقاصدهم، ثم اننا نكون، في تلك الفترة، اكثر اطلاعاً ومعرفة حول نقطتين تهمان جهودنا المقبلة وهما: مشاركة الاتحاد السوفياتي، والقنبلة الذرية نفسها. وكنا نعلم إذ ذاك ان التجارب الأولى لتفجير القنبله الذرية ستتم في اواسط شهر تموز، وكنت اريد في حالة نجاح هذه

التجارب، ان أقدم لليابان فرصة متاحة لانهاء الحرب قبل استعمال سلاحنا الجبار الذي استطعنا امتلاكه حديثاً.

-٢-

لهذه الاسباب مجتمعة كان روزفلت وتشرشل قد اتفقا ان يوحدا الابحاث ويركزا جميع الاعمال داخل الولايات المتحدة. واذن فان تعاون البريطانيين معنا قد اتاح لنا، نصراً عملياً في مجال الطاقة الذرية.

ومع ذلك، وكائنا ما كان خطر هذا الحدث فقد كان ينبغي ان نعتبره، اذ ذاك، امراً ثانوياً بالنسبة الى الحرب التي نشنها في الرحاب المترامية للمحيط الهادي، وندفع لها ثمناً باهظا من الارواح الاميركية.

وربما كنا ننتظر معجزة من المعجزات الا ان المأساة اليومية لحرب دامية كانت تمسك بخنقنا، في حين كنا نعمل لانجاز سلاح، كان هذا هو الهدف الاساسي من مجهودنا السري الجبار، الا انه لم يكن، في وسعنا، بعد، ان نكون اقل استمراراً في تحمل العبء الضخم لخططنا الحربية التقليدية.

ولقد اوكلت مهمة تحقيق وانجاز القنبلة الذرية إلى وحدة خاصة من المهندسين العسكريين سميت «منطقة منهيتان» بادارة الجنرال «ليسلي غروفز». الا ان المجهود الرئيسي كان يضطلع به العلماء البريطانيون والاميركيون في المختبرات وفي مكاتب متفرقة في انحاء البلاد.

وكان الدكتور «جـ . روبرت اوبنهايمر» عالم الفيزياء الممتاز، من جامعة كاليفورنيا، قد اقام البناء الرئيسي لهذا المشروع جميعاً في «لوس الاموس» بنيومكسيكو. ونحن مدينون له اكثر من ديننا لاي انسان آخر في انجاز للقنبلة .

وانا لم اطلع على كل هذه التطورات الا بعد ارتقائي الى الرئاسة بقليل، عندما جاء الوزير «ستيمسون» يروي لي القصة كلها.

وقد قال لي، في ذلك الحين، ان المشروع على وشك الانتهاء، وان في الامكان انتظار حيازة القنبلة في خلال الشهور الاربعة المقبلة. وبموجب هذه النصائح ايضا عينت يومئذ لجنة من رجال ممتازين، ،كلفتهم ان يدرسوا في كثير من العناية والاهتمام ما قد يكون لهذا السلاح الجديد من عواقب علينا. وكان الوزير «ستيمسون» يرأس هذه اللجنة التي كانت تعاونها طائفة من العلماء بينهم من كانوا يهتمون مباشرة بانجاز القنبلة الذرية وهم: الدكتور اوبنهايمر، الدكتور آرثر كومبتون، الدكتور لورنس، رالدكتور انريكو فيرمي، وهو من اصل ايطالي.

وقد قدمت الي، في اليوم الاول من شهر حزيران، وعن طريق الوزير ستيمسون، النتائج الختامية التي توصل اليها اولئك الرجال سواء كان ذلك في اللجنة الاستشارية للخبراء، او في الفريق الاكثر عددا الذي تم تشكيله بادىء ذي بدء.

فماذا كانت توصيات اولئك الرجال فيما يتعلق بالقنبلة الذرية؟

-٣-

اما في حالة انتهاء تجاربنا النووية الى الاخفاق فسيكون من الاهم ايضا، بالنسبة لنا أن نثير ما يسحب عرضنا لليابان قبل ان نضطر الى الظفر باليابان قوة واقتداراً. وقد اخطرني الجنرال «مارشال» ان ارغامنا اليابان على التسليم داخل اراضيها قد يكلفنا تضحية نصف مليون جندي اميركي.

ولكن تجارب القنبلة الذرية ها هي قد نجحت ! ولقد كان تطوير اغراض هذه

القنبلة جميعاً خاضعاً وموجهاً بتقديرات عسكرية محضة. وكان العلامة البرت اينشتاين هو الذي اوحى بالفكرة الى الرئيس روزفلت، وقد تبين على وجه التأكيد ان انجاز القنبلة يقتضي جهوداً مشتركة ومتداخلة على صعيد العلم، والصناعة، والعمل والاوساط العسكرية وباختصار، كانت شيئا لم يكن له مثيل في التاريخ.

***

وفي سبيل اتمام هذه القنبلة كان لا بد للخبراء ومعاونيهم والذين يعملون معهم ان يكونوا واقعين تحت توتر عصبي فائق التصور. في حين كان لزاماً لانجاز هذا العمل الضخم ان يحتشد له مئة الف رجل بالاضافة الى مقادير هائلة من المواد المختلفة. ولقد امضينا في اتمامه اكثر من سنتين ونصف السنة، وانفقنا مليارى دولار ونصف المليار.

ان حفنة من بضعة آلاف رجل كانوا يعملون في هذه المصانع ويدركون هذا الذي ينتجونه، وكان التكتم على هذا السر قد فرض فرضا شديدا حتى ان بعض اصحاب المناصب العليا في واشنطن لم يكونوا مطلعين على ادنى فكرة مما كان يجري... ولا حتى انا نفسي.

وقد كان معروفا منذ عام ١٩٣٩، وبصورة عامة، بين العلماء، انه من الممكن- نظريا- اطلاق الطاقة الذرية، وفي عام ١٩٤٢ شرعنا نحن بالاشتراك مع بريطانيا العظمى في دمج المعلومات العلمية التي يمكن ان تكون ذات نفع في سير الحرب، على الرغم من اننا، نحن الاميركيين، لم نكن بعد قد دخلنا الحرب.

وفي سنة ١٩٤٢ ايضاً، اتصل الى علمنا ان الالمان يعملون باسلوب علمي سيمكنهم من استعمال الطاقة الذرية كسلاح حربي، وسيكون هذا السلاح الذري مضافاً الى قنابلهم الطائرة «ف١وف٢»، وهكذا كان في مرجوهم ان يكتسحوا العالم جميعاً... وبالطبع فقد فشلوا، وشكرا للعناية الالهية، الا انه، منذ الان،

بدأ سباق عنيف في: من سيكون اول من يصنع القنبلة الذرية الاولى، وقد تحول هذا السباق او هذا الصراع الى معركة حامية في المختبرات العلمية... .

وفي اطار السياسة العامة في توحيد المعلومات العلمية البريطانية والاميركية، تمهد السبيل لابحاث القنبلة الذرية أن تظل طي الكتمان العميق البالغ، المصون بغيرة شديدة، وقد تضافر علماؤنا جميعاً ليكونوا السباقين المتفوقين على الالمان في هذا الصراع.

وقد كان لنا في اميركا عدد من الاختصاصيين الممتازين في مختلف المجالات، ثم اننا كنا نملك شيئاً اخر يرجع كفتنا وهو انه كان في وسعنا جمع الموارد الصناعية والاقتصادية الهائلة التي كان لا بد منها للسير بالمشروع بنجاح دون ان يؤثر ذلك على انتاجنا الحربي. زيادة على هذا كانت مصانعنا موجودة في موقع خارجة عن نطاق اعمال قاذفات القنابل المعاديه.

اما بريطانيا التي كان علماؤها مشتركين اصلا بالمشروع وقدموا قسما كبيراً من، المعلومات الاولية حول الموضوعات الذرية فقد كانت باستمرار هدفاً لضربات العدو، وفي الوقت الذي شرعت فيه بابحاثها في هذا المجال: وجدت نفسها مهددة بغزو الالمان.

-٤-

لقد أوصى العلماء، كما يقول ترومان باستعمال القنبلة الذرية، ضد العدو في اقرب وقت ممكن، وان نضرب بها ودون انذار سابق هدفاً يظهر بجلاء فعاليتها المدمرة الخارقة.

ولقد ادركت تماماً، ودون ريب، ان انفجاراً كهذا سيحدث من الخراب والدمار والضحايا في الارواح ما يفوق التصور. ومع ذلك فان المستشارين العلميين

اعلموني بما يلي:

اننا لا نستطيع ان نعرض اي دليل «تكنيكي» مقنع يمكن ان يضع حدا للحرب، ولذلك فلسنا نرى اي حل مقبول يمكن ان يكون بديلا من الاستعمال العسكري المباشر للقنبلة الذرية.

وقد انتهوا بقولهم ان القاء القنبلة دون ما هدف، كتفجيرها في جزيرة خالية لن يكون له اي حظ من النجاح في انهاء الحرب. وانما يجب ضرب هدف للعدو نفسه بهذه القنبلة .

وكان القرار النهائي المتعلق بمكان وزمان القاء القنبلة يعود اتخاذه الي انا وحدي. ولكن ينبغي ان لا نخطىء القول: لقد كنت اعتبر القنبلة الذرية سلاحاً عسكريا، فلم اشك اطلاقاً في انه يجب استعمالها.

إن أنبه مستشاري العسكريين قد اوصوني بذلك، وعندما تحدثت عن هذا الى تشرشل صرح لي، دون ظل من تردد، انه اذا كانت هذه القنبلة الذرية ستساعد على انهاء الحرب، وجب استعمالها، وانا حين اتخذت هذا القرار الاعظم، كنت اريد ان اكون واثقا ان هذا السلاح الجديد سيستعمل استعمالا حسنا، وبموجب قوانين الحرب، اي انني كنت اريد ان يلقى فوق هدف عسكري، وقلت للوزير «ستيمسون» انه يجب باكثر ما يمكن من الدقة، التصويب على مركز من مراكز انتاج الاسلحة ذي طابع «ستراتيجي» لا جدال فيه.

وراحت مكاتب الوزير ستيمسون تعد قائمة بالمدن اليابانية التي يمكن ان تكون هدفاً للقنبلة الذرية. وقد استبعدت مدينة «كيوتو» من القائمة وكان الجنرال «آرنولد» يريد ان تكون هي الهدف لانه كان يرى انها تقع في وسط نشاط عسكري كبير، ولكني استبعدتها، لان الوزير ستيمسون أبدى ملاحظته حول كون تلك المدينة موقعا دينيا يحج اليه اليابانيون باستمرار.وفي النهاية

أوصى باربع مـدن لكي تكون هدف القنبلة الذرية الاولى وهي: هيـروشـيـمـا ، كوكورا ، نغازاكي، ونييغاتا متسلسة حسب اهميتها العسكرية، الا انه كان يجب التحسب من الأحوال الجوية التي يمكن ان تنشأ في لحظة القاء هذه القنبلة.

وقبل الموافقة على هذه الاهداف المختارة، والتصريح بانها صالحة باعتبارها اهدافا عسكرية. رحت ادرسها شخصيا وبالتفصيل مع الوزير ستيمسون، والجنرالين مارشال وآرنولد، وجعلنا ، جميعاً نتناقش حول الوقت الملائم الذي يحسن فيه القاء اول قنبلة ذرية، وحول الاختيار النهائي للهدف المنشود.

-٥-

كان الجنرال «سباتز» هو قائد القوات الجوية الستراتيجية التي عليها ان تحمل القنبلة الذرية وتنقلها الى نقطة فوق هدفها. وقد منح بعض السعة فيما يتعلق بتاريخ القاء القنبلة وتعيين مدى رؤية الهدف. وقد كان هذا ضروريا بسبب من الأحوال الجوية والخطط الحربية التي لا بد من ادخالها في الحساب.

ولكي يتم الشروع في التحضير والاستعدادات فان وزارة الحرب تلقت الاوامر لاخطار الجنرال «سباتز» ان القنبلة الاولى ستلقى بعد اليوم الثالث من شهر آب وعندما يكون الظرف ملائماً.

وكان من شأن هذه الاوامر انها أدارت عجلة العمل بسرعة، وكنت انا قد اتخذت قراري. ثم كنت قد انبأت الوزير «ستيمسون» ايضاً بان هذه الاجراءات تظل معمولا بها ما لم اخبره بان جواب اليابان على انذارنا بانهاء الحرب اصبح مقبولا.

ولقد اختيرت الفرقة (ب ٢٩) المختصة لهذه المهمة، واطلق عليها اسم الفرقة الجوية الـ «٥٠٩»، وادخل تعديل على طائراتها. ثم اصبحت على أتم

الاستعداد مع ما يلزمها من ملاحين ومعدات، وراحت تنتظر الاوامر.

وفي هذه الاثناء اخذت السفن والطائرات تنقل بسرعة فائقة العناصر اللازمة للقنبلة، والتي كان على الخبراء ان يجمعوها في جزيرة «تنيان» بأرخبيل «الماريان».

في اليوم الثامن والعشرين اعلنت اذاعة طوكيو ان الحكومة اليابانية قررت الاستمرار في القتال، ولم تتلق الولايات المتحدة وانكلترا، والصين جوابا رسمياً على انذارها اليابان بانهاء الحرب. ومنذ ذلك الوقت لم يعد الاختيار في يدنا نحن...! وهكذا فان القاء القنبلة الذرية عين له موعد يأتي مباشرة بعد اليوم الثالث من آب، الا اذا استسلمت اليابان قبل ذلك .

وكان السادس من آب، وهو رابع ايام عودتي بالبحر من بوتسدام، هو اليوم الذي تلقيت فيه النبأ التاريخي الذي هز العالم هزا. كنت. اذ ذاك على وشك تناول طعام الغداء مع بعض بحارة السفينة «ارغستا» فجاءني الكابتن «فرانك غراهام» الذي كان مسؤولا عن الاتصالات بغرفة الخرائط في واشنطن ومد لي يده بالرسالة التالية: «وزير الحربية ومنه الى الرئيس. القيت القنبلة الضخمة على هيروشيما في الخامس من آب الساعة ١٧,١٥ (بتوقيت واشنطن) التقارير الاولى تشير الى نجاح تام مع نتائج اشد اثارة من تجربة التفجير السابق».

وتملكني الانفعال فتحدثت هاتفيا مع «بايرنس الذي كان في الباخرة وأعلمته بالنبأ، ثم أعلمت فريق البحارة الذين كانوا يحيطون بي قائلا:

– انه اعظم حدث في التاريخ لقد آن الاوان لنعود الى الوطن.

وبعد دقائق اخرى تلقيت رسالة ثانية هذا فحواها: «بعد مضي خمس عشرة دقيقة من القاء القنبلة يقول-بارسونز- ان النتائج كانت واضحة جداً، والنجاح جد

باهر على طول الخط. وكان اثر القنبلة اضخم بكثير من اية تجربة تفجير سابقة. احوال الطائرة التي القت القنبلة طبيعية بعد عملية الالقاء ».

بعد ان قرأت هذه المعلومات الاخيرة اشرت الى جمهور البحارة الموجودين وقلت لهم ان لدي ما اقوله لهم. واعلمتهم عندئذ باننا استخدمنا الان قنبلة هائلة ذات انفجار اقوى تدميرا عشرين الف مرة من طن من متفجرات من مادة «ت.ن.ت».

-٦-

ذهبت، من ثم، الى استراحة الضباط ورويت، للموجودين منهم هناك لتناول الغداء، ما حدث، ولم اتمالك نفسي من القول بانني ارجو ان ارى، على وجه التأكيد، ان حرب المحيط الهادي، قد انتهت سريعاً.

وبعد دقائق، فيما بعد، راحت محطة «اللاسلكي» في السفينة تلتقط نشرات الاخبار من واشنطن، وهي النشرات المتعلقة بالقنبلة الذرية، وبما في ذلك اعادة نقل تصريحي الذي أبحته قبل مغادرة المانيا.

وبعد قليل جمعت مراسلي الصحف الموجودين في السفينة في مؤتمر صحفي كشفت، خلاله، النقاب جزئياً عن الابحاث الطويلة والاعمال التي امكن بها تتويج هذا العمل الحربي بالنجاح.

ومع ذلك فلم يصلنا اي عرض للاستسلام من اليابان. فارسلت الى الجنرال «سباتز» اوامري بالاستمرار في العمليات الحربية كما هو متفق عليه في انتظار تعليمات جديدة.

بعد ظهر يوم ٧ آب انهت السفينة «اوغستا» رحلتها القياسية ودخلت في

خليج «شيزابيك»، وما ان القت مراسيها في «نيويورت نيوز» حتى هرعت نازلا الى الارض وركبت قطاراً خاصا انطلق بي من فوره الى وشنطن وفي البيت الابيض حيث كان ينتظرني وزرائي لتحيتي والترحيب بي وكانت رحلتي قد استغرقت شهراً كاملا قطعت فيها ٩٣٤٦ ميلا.

وفي اليوم التاسع من آب تم القاء القنبلة الذرية الثانية، وكان القاؤها هذه المرة على «نغازاكي». ثم امهلنا اليابانيين ثلاثة ايام لكي يستسلموا، وجعلنا في هذه الايام الثلاثة نبرهن لليابانيين اننا عازمون ان نضع تهديداتنا موضع التنفيذ.

لقد كانت مدينة «كوكورا» هي هدف القنبلة الذرية الثانية اصلا، وكانت «نغازاكي» تليها على القائمة ، ولكن عندما حلقت الطائرات فوق كوكورا غدت الرؤية رديئة، وبعد ان دارت ثلاث مرات حول هدفها دون ان تتمكن من رؤيته اتجهت الى نغزاكي وقد كاد ينفد وقودها، وهنا ايضاً كان الجو ملبدا، الا ان ثغرة انفتحت بين الغيوم فاتاحت للطائرة حاملة القنبلة ان تلقيها على نغازاكي بنجاح تام.

لقد كان هذا البرهان على القوة الفائقة للسلاح الذري مما اثار جنون طوكيو، وذعرها اذ جاءنا، في صباح اليوم التالي، الدليل على ان الامبراطورية اليابانية اصبحت مستعدة للاستسلام.

قصة أطول هروب

كتبها: روبير دلاكرواه

- ١ -

- انها طائرة المانية!

هذا ما تصايح به، في صبيحة اليوم الخامس من شهر ايلول سنة ١٩٤٠ عمال كانوا يحملون في سيارة نقل صناديق الفاكهة في باحة أحد المزارع قرب «ميدستون» احدى المدن في مقاطعة «كينت» وهم يشاهدون طائرة مطاردة المانية تظهر من خلفهم على ارتفاع نحو من خمسين متراً لا غير، وقد عرفوا أنها المانية من الصليب المعقوف المرسوم على دفة التوجيه في مؤخرتها.

راحت الطائرة تهبط نحو الأرض وقد تركت وراءها خطاً من الدخان الأسود، ثم اختفت وراء ستار من الشجر على بعد نحو من ثلاثمئة متر، وعلى الفور ترك عمال المزرعة سيارات النقل واندفعوا نحو المكان الذي افترضوا أن الطائرة الالمانية قد هوت وتحطمت فيه..

وقد وصل العمال إلى حقل كبير، إلا أنهم سرعان ما وقفوا ذاهلين مبهوتين.. لقد كانوا يتوقعون أن يروا الطائرة وقد استحالت حطاماً وهيكلاً محترقاً، غير أنهم شاهدوا طائرة المطاردة هذه وقد حطت على الأرض ولم يمسها

سوء. لقد كانت ذرعان مروحتها فقط هي التي التوت مما يدل على أن هبوطها كان قاسياً وعنيفاً..

وكان يقف إلى جانب الطائرة طيار مكشوف الرأس، وقد تمزقت صدرته الجلدية عن صدره، وراح هو يتم حرق أوراق كان يحملها.. كانت حركاته هادئة، مطمئنة، واثقة، وكان يتظاهر بأنه لا يرى حرس الأراضي الذين صوبوا بنادقهم جميعاً إلى صدره.

وأخيراً رأى الطيار أن يتبع أولئك الجنود، فسار ويده اليسرى في جيبه، ولما مر تحت شجرة تفاح مد يمناه وقطف تفاحة، وراح يقضمها بإهمال من هنا وهناك ثم سرعان ما ألقى بها إلى الأرض. لقد ظل هادئاً طيلة الوقت باستثناء لحظة واحدة اربد فيها وجهه، وتغضنت أساريره، عندما رفع رأسه وشاهد في الفضاء طائرات القاء القنابل البريطانية التي أسرت طائرته في الجو واضطرتها إلى الهبوط كما وصفنا.

ومثل الطيار الالماني أمام الضابط الانكليزي المحقق، وفيما كان هذا يدون أقواله سمعه يقول.

- إني أراهنك على صندوق «شمبانيا» مقابل عشر سجائر على انني سأتمكن من الهروب قبل انقضاء ستة أشهر.

ورفع الضابط الانكليزي رأسه عجباً من هذا الأسير الذي كان يدون أقواله قبل برهة، والذي يقترح عليه الآن هذا الرهان العجيب! أجل. انها أول مرة في تاريخ الحروب يتحدث فيها أسير حرب بمثل هذه اللهجة.

وهز الضابط الانكليزي كتفيه وتنهد، ثم استدعى الجنديين الواقفين يؤديان مهمتهما الرسمية أمام باب مكتبه، وأمرهما قائلاً:

- والآن اذهبا بالأسير.

ولما أصبح الضابط وحده راح يفكر: ما أغرب هذا الانسان، انه ولا شك هو ضابط الطيران الالماني «فرانز فون فيرا» الذي اشتهر بأنه من أمهر الطيارين الألمان، الذي اضطرته قاذفات القنابل البريطانية إلى الهبوط هكذا قرب «ميدستون».

لقد وضع موضع الاستجواب والتحقيق عدة مرات وقد حاولوا معه شتى الوسائل بالترغيب واللطف مرة، وبالقسوة والعنف مرة دون جدوى، فقد أبى دائماً أن يعترف بشيء، أو يفوه بكلمة إلا أن يردد مؤكداً ايمانه بانتصار الالمان، أو يتباهى بانتصاراته العديدة على الطائرات الانكليزية والفرنسية جميعاً.

وجعل «فون فيرا» يطلب، ويلح في المطالبة، بأن يرسلوا به إلى أحد معتقلات الأسرى، زاعماً أنه إنما يريد أن يشارك زملاءه في مصيرهم، والواقع أنه كان يرى أن الهرب من المعتقل أسهل وأيسر من الهرب من الغرف التي وضع فيها حتى الآن. ولقد كان «فون فيرا» صادقاً عندما تحدى الضابط الانكليزي بأنه سيتمكن من الهرب قبل انقضاء ستة أشهر على أسره. ولكن كيف تراه سيهرب؟ هذا ما لم يكن يعلمه، بعد، حق العلم، غير أن فكرة الهرب كانت تسحره وتخلب لبه على ما فيها من صعوبة تبلغ درجة الاستحالة..

وفي النهاية نقل «فون فيرا» إلى معتقل «غرايزيدال» في «لانكشاير» في أواخر شهر ايلول.

- ٢ -

كان الأسرى يسيرون في طابور واحد في طريق صغيرة ضيقة، وكانت هذه هي نزهتهم اليومية بحراسة عشرة من الجنود وعلى رأسهم رئيسهم الفارس.

واجتاز الرجال قرية صغيرة، وبعد عشر دقائق توقفوا عند منعطف في الطريق لينالوا حظاً من الراحة التقليدية وقد أبيح للأسرى أن ينفرط عقدهم، فراح بعضهم يتمشى فوق العشب الأخضر الذي كان يحف بجانب الطريق، ويقف بعضهم دون ما حراك وقد كونوا من أنفسهم كتلة متكأكئة كثيفة.. وكان يختفي وراء هذه الكتلة البشرية رجل.. وهذا الرجل كان الطيار الألماني البطل «فون فيرا».

وكان قائد فرقة الحرس يسير مستنشقاً الهواء الطلق في ذلك الصباح الخريفي، ولا ينفك يلقي نظرة إلى الأسرى من حين إلى حين.. واسترعت انتباهه عربة محملة بالفواكه كانت تقترب منه، وعندئذ أشار إلى سائقها، وهو صاحب دكان البقالة في القرية، لكي يشتري بضع تفاحات مما تحمله عربته، وبعد أن اشترى ما أراد نظر في ساعته، وأدرك أنه يجب أن يستأنف الأسرى السير، فأصدر لهم أمره لكي يعودوا فيصطفوا.

وعاد طابور الأسرى يسير، وقطع بضع مئات من الأمتار، عندما سمعت صيحات بعيدة.. وشوهدت امرأتان تركضان وراء الأسرى وهما تلوحان بمنديليهما..

وقال الضابط رئيس فرقة الحرس:

– لا بد أنهما تريدان أن تقدما طعاماً للأسرى الالمان.. ان الأفضل لهما أن تحتفظا بمشاعرهما لجنودنا. هيا إلى الأمام.

غير أن هذا الضابط كان مخطئاً، فما كانت هاتان المرأتان تتجهان باشاراتهما إلى الأسرى الالمان، وإنما كانتا تشيران إليه هو، وتحاولان أن تفهماه أنهما شاهدتا أسيراً يركض في السهل..

وكان هذا صحيحاً فان «فون فيرا» قد استطاع أن يهرب.. بعد أن أعمل التفكير والروية طويلاً بمعاونة زملائه الأسرى الآخرين الذين قاموا بدور اخفائه في برهة الاستراحة، وقد ساعدهم على ذلك مجيء عربة الفاكهة التي جذبت إليها انتباه الحرس ورئيسهم.

وقد سار «فون فيرا» محاذياً خط العشب الأخضر على الطريق، وهو منحن ومتقوس الظهر، ثم ما لبث أن توقف خافق القلب، ذلك أن صياح المرأتين ربما أدى إلى تنبه الحرس. ولذلك فسيسمع بين لحظة وأخرى، لعلعة رصاص حراسه.. فالأفضل إذن أن يسلم نفسه قبل أن يقتل.

وراح «فون فيرا» ينتظر اللحظة المروعة، ولكنه عاد فاطمأن اطمئناناً تاماً، فقد سمع زملاءه وقد علت أصواتهم بنشيد مدو من أناشيد الحرب يغطون به صياح المرأتين.. وهكذا لم يستطع الحراس الانكليز أن يتبينوا غيابه من صفوف الأسرى، ثم أن هؤلاء الأسرى جعلوا همهم أن يبدلوا مواضعهم من الطابور لكي لا يلاحظ موضع فون فيرا الخالي.. ولما استطاع المسؤولون أن يدركوا أنه هرب فعلاً كان النهار قد ولى..

وانطلقت مفارز من الجند الانكليز يقلبون الريف رأساً على عقب في سبيل البحث عن فون فيرا بعد أن سمعوا بنبأ هربه من الاذاعة وقرأوه في الصحف، ولكن أتعابهم ذهبت أدراج الرياح.

وفي ليلة العاشر من شهر تشرين الثاني كان اثنان من حرس الأراضي يقومان بحراستهما المتجولة في متفسح كبير من الأراضي البور على مسافة بضعة أميال من الشاطيء الذي كان فون فيرا يسعى إلى الوصول إليه ولا شك، لكي يجد سفينة محايدة يركبها.

واقترب الحارسان من كوخ للرعاة وفي نيتهما أن يأويا إليه طلباً للراحة بضع

لحظات.

غير أن الحارسين وجدا باب الكوخ مفتوحاً، فأخرج أحدهما مصباحه وأضاءه، وعلى الفور تبين أن ثمة شاباً ملطخ الملابس بالوحل، وقد نهض للقائهما عندما شاهدهما.. وسأله أحدهما:

- هل معك بطاقة هويتك؟

وقال الشاب بعد أن فتش في جيوبه.

- بكل أسف ليست معي.. يبدو انني نسيتها.

وقال الحارس وهو يصوب إليه مسدسه:

- هذا ما كنت أتوقعه.. فأنت الأسير الألماني الذي هرب.

وعلى الفور سارع الحارس الآخر فأمسك بالساعد الأيسر للرجل المجهول وأحكم وثاق يديه الاثنتين بحبل وقال له:

- انك تدعى فون فيرا، أليس كذلك.

فقال الرجل:

- لا يسعني أن أنكر..

وعاد الحارس يقول:

- سر، اذن، أمامنا.. إن البوليس ينتظرك على الطريق.

وأجابهما:

- أصحيح هذا؟ انه ليؤسفني حقاً أن أضطر إلى مفارقتكما.

وسحب فون فيرا ساعده الأيسر بعنف وفوجيء بهذه الحركة الحارس الذي كان ممسكاً بطرف الحبل الذي ربطه به الطيار الالماني، فاختل توازنه وتخلى عن مصباحه اليدوي فسقط منه، وعندئذ قفز فون فيرا إلى الناحية المظلمة بعيداً عن متناول الحارس الثاني الذي اندفع عبثاً وراءه..

ولم يسلم فون فيرا نفسه إلا في اليوم الثاني عشر من شهر تشرين الأول، بعد أن طوقوه. وقد دامت مدة هربه ستة أيام كاملة.

* * *

قال أحد الحراس:

- انهم جد مرحين ومبتهجين هذا المساء.

وأجابه رفيق له:

- انهم يفعلون هذا منذ أسبوع.

والواقع أن فريقاً من الضباط الالمان في معتقل «سوانويك» في مقاطعة «ميدلاندز» قد اعتادوا أن يجتمعوا في حجرة تقع في الطابق الأرضي من عمارة المعتقل الوسطى لكي يغنوا ويعزفوا الموسيقى. وكانوا إذا تعبوا أداروا على الحاكي اسطوانات الغناء والموسيقى والأناشيد.

وقد كان أشهر الضباط الأسرى في هذا المعتقل هو الطيار الالماني فون فيرا، وكان قد حكم عليه بالسجن في احدى الزنزانات واحداً وعشرين يوماً بعد محاولته الهرب، ثم نقل إلى معتقل «سوانويك» هذا حيث لا يقوم الأسرى

بنزهات خلوية، وإنما يكتفي المسؤولون باتاحة النزهة الكئيبة لهم داخل المعتقل وضمن الأسلاك الشائكة فقط..

وكان الحراس يفكرون وهم يرون فون فيرا مشتركاً في حفلات الموسيقى هذه «لا شك في أنه عدل عن مشروع الهروب». ومع ذلك فلو قام أولئك الحرس بزيارة مفاجئة للضباط الالمان لأذهلهم أن لا يروا فون فيرا بينهم. وإنما هو موجود في حجرة مجاورة.

أتراه كان يأخذ قسطاً من الراحة في تلك الحجرة؟ أبداً والأحسن أن ندخل هذه الحجرة. إنها تبدو كأنها تحت التجديد، إن الكثير من بلاط أرضيتها قد اقتلع. وكان الحراس عندما يقومون بجولتهم المسائية، ويلقون نظرة على هذه الحجرة، وكانوا يجدونها مرتبة لم يحدث فيها أي تغيير. وإليك سر هذه المعميات: إن فون فيرا لم يعدل عن مشروع هربه إلا أن معتقل «سوانويك» كان شديد الحراسة. ولم يكن ثمة أي أمل في تخطي الأسلاك الشائكة والفرار من وجه الحراس.

وعندئذ رأى فون فيرا أن يقوم بحفر نفق تحت أرض الحجرة، فإذا تم انجاز هذا النفق تمكن من الخروج من منطقة المعتقل كلها.

- ٣ -

وقد كانت فوهة هذا النفق موجودة في غرفة صغيرة خالية غير مستعملة إلا كزنزانة سجن ويفضي بابها إلى القاعة المخصصة للترفيه عن السجناء وهي نفسها الغرفة التي راح «فون فيرا» يحضر هذا الممر الأرضي مبتدئاً من الفوهة، وكان زملاؤه الضباط يتعمدون الغناء والانشاد بصورة عالية لكي يغطوا بأصواتهم حركة الحفر التي يقوم بها فون فيرا مع أربعة آخرين من زملائه مستعينين بأدوات وقعت لهم كيفما اتفق.

كان فون فيرا، إذا حانت ساعة عودته إلى الضباط الآخرين في قاعة الترفيه يسارع فيخفي فوهة الممر باعادة بلاطات الأرضية المنتزعة إلى مكانها.

وكان العمل شاقاً، وأول ما صادفه من عقبات أنه وجد الممر وقد اعترضته مجاري مياه قذرة، وكان لا بد من أن يميل الحفر عنها مستديراً حولها، ثم ان التهوية في النفق كانت تشتد سوءاً كلما اوغل في عملية الحفر، ولذلك كان هو وزملاؤه لا ينفكون يحفرون نصف مختنقين، ومتصببين عرقاً، ومتقطعي الأنفاس، وقد أنهكهم التعب وقلة الغذاء. وكان لا بد كذلك من ألف حيلة وتدبر لتفريغ التراب ونثره بمقادير قليلة لتحمله الريح..

وبعد انقضاء أربعة أسابيع طوال في هذا العمل المرهق انتهى فون فيرا وزملاؤه من حفر النفق أو الممر المنشود، وقد سد فوهتيه من الطرفين بعناية لكي لا يكتشفه الانكليز.

وقال فون فيرا لزملائه الذين كانوا هم أيضاً تواقين إلى المغامرة والهرب.

– ليس أمامنا أي فرصة للنجاة إذا لم نغادر بريطانيا بسرعة.

وإليكم خطتي: سأصل إلى أقرب مطار حيث أزعم انني طيار هولاندي في خدمة سلاح الجو البريطاني الملكي، ثم أحاول الاستيلاء على احدى الطائرات لتقلني إلى المانيا.

وفي هذه الأثناء استطاع أن يدبر لنفسه، كيفما كان الأمر، زي طيار، ومر يومان ثم انسل الرجال الخمسة عبر النفق، وما لبثوا أن وجدوا أنفسهم بعد قليل في الهواء الطلق. وكانت السماء التي يضيئها نور هلال باهت قد ازدحمت بالطائرات الالمانية المغيرة على انكلترا، وكانت صفارات الانذار قد انطلقت معلنة ذلك. وكان الضباط الالمان في معتقل «سوانويك» لا ينفكون يجأرون بغنائهم

وأناشيدهم.

* * *

وعلى حين غرة أوقف ممطتي الدراجة البريطانية، وهو من جنود الدورية، دراجته واعترض طريق فون فيرا في ذلك الظلام وسأله:

– ماذا بك أيها الرجل؟

فأجابه فون فيرا:

– عفوك يا سيدي، فأنا طيار هولاندي وقد سقطت طائرتي على بعد بضعة أميال من هنا، فهل تستطيع أن تدلني على أقرب مطار من هنا؟

وفكر الرجل قليلاً ثم قال:

– مطار؟ لا أذكر..

فقال فون فيرا:

– أين أستطيع استعمال الهاتف؟

– في محطة «كودنوربارك» وما عليك إلا أن تستمر في طريقك هنا.

وبعد انقضاء نصف ساعة كان الطيار واقفاً عند شباك التذاكر. وسأله الموظف:

– هل تريد تذكرة؟

فقال فون فيرا:

- كلا. أنا طيار هولاندي في خدمة سلاح الجو البريطاني. قد سقطت طائرتي وهي من نوع «يلفتون» فهل تستطيع أن تحادث المطار هاتفياً؟

وتردد الموظف، وبدت له هذه الحكاية مشبوهة، فقال:

- سأذهب لاخطار البوليس، ورجال البوليس يعرفون ما يجب عمله.

فما هو اسمك؟

- اسمي «فان لوت».. الكابتن فان لوت من طياري خفر السواحل.

وتحدث الموظف مع مركز البوليس، واستعاد رجل البوليس الحديث مرات، ثم أخبره أنه سيرسل حالاً سيارة بوليس.. وعندئذ تغيرت ملامح فون فيرا، وسارع يقول للموظف:

- اسمع، يجب أن أفضي لك بهذا السر: لقد كانت طائرتي مزودة ببعض آلات الاستكشاف الحديثة، وانه لعلى جانب كبير من الأهمية أن أعود إلى قاعدتي في «ابردين» بأسرع ما يمكن لأقدم تقريري.. فأرجوك أن تطلع بسرعة المطار.. أعني مطار.. مطار.

- مطار «هاكسل»؟

- أجل هو نفسه..

- إذا كان لهذا الأمر صفة الاستعجال فلا بأس.

وطلب الموظف مطار «هاكسل» هاتفياً.. وقال الضابط الذي تم معه الاتصال أنه لا يفقه شيئاً من هذه الحكاية كلها.. ومع ذلك فقد وعد، هو الآخر، بارسال سيارة وتنفس فون فيرا الصعداء.. فقد كانت أمامه فرصة جديدة متاحة..

قال له ضابط المطار:

- تقول أنك الكابتن فون لوت؟ وانك تقود طائرة من نوع «ولينغتون»؟

وجعل فون فيرا يقدم شروحاً وتفاصيل وهو نافد الصبر. وكان يشاهد من خلال النافذة بين الطيارات العتيقة الجاثمة على أرض مطار «هاكسل» - وهو مطار للتدريب - عدداً من المطاردات الحديثة من نوع «هاريكينز». وقال في نفسه: «انني حقاً بحاجة إلى احدى هذه الطائرات لأعود بها إلى المانيا».

لقد بسط الحظ عليه حتى اليوم، جناحه - انه حظ لم يكن مأمولاً دائماً. غير أنه في هذه اللحظة كان يحس بوطأة احساس غير مريح، غير مطمئن. وأخذ الضابط يطالبه بايضاحات مصطنعاً لهجة دقيقة مؤدبة: «من أجل تقريري كما تعلم.. إنها أوراق لا بد من الاطلاع عليها..»

وقال له أن «دايس» القريبة من «ابردين» القريبة من «سكوتلاندا» هي قاعدته، فقرر الاتصال بدايس هاتفياً للتأكد... وأحس فون فيرا، عندئذ، أنه قد ورط نفسه، ومع ذلك فقد اعتزم أن يغامر هذه المغامرة... وفيما كان الضابط ينتظر الاتصال الهاتفي، اتجه فون فيرا نحو مرافق المطار فدخلها ثم خرج من احدي نوافذها وراح يعدو في أرض المطار، وشاهد أحد الرجال الميكانيكيين قرب طائرة من نوع «هاريكين»، فقال له على عجل:

- أنا الكابتين فان لوت، ومعي أمر بأخذ احدى طائرات «هاريكني» والذهاب بها إلى «ابردين»... وانه لأمر عاجل جداً.

وتطلع إليه الميكانيكي، وتردد قليلاً ثم طلب منه أن يوقع ايصالاً، واقتربا من الطائرة، فقفز فون فيرا داخلها. وحاول أن يعرف مؤشر الاتجاه فلم يفلح لأن لوحة التعليمات كانت مختلفة عن مثيلتها في طائرات «ميسر شميت»

الالمانية..

وقال فون فيرا للميكانيكي:

- لقد اعتدت استعمال الطائرات قاذفات للقنابل. فهلا ذكرت لي بعض الايضاحات المتعلقة بهذه الطائرات؟

وبعد انقضاء خمس دقائق كان فون فيرا يحاول ادارة محرك الطائرة. ولكن الميكانيكي صاح به:

- انتظر! انك لا تستطيع الانطلاق بدون بطارية.

وذهب الميكانيكي ليبحث له عن بطارية. وانتظر فون فيرا وهو يرتعد من نفاد صبره وتوجسه.. وعلى حين غرة انتفض فقد سمع صوتاً يأمره أن يهبط من الطائرة - وأطل فون فيرا فرأى الضابط الذي كان يستجوبه واقفاً أمام الطائرة، إلا أن الحزم والتصميم كانا ظاهرين عليه. ولم تبد منه بادرة غضب واحدة، ولم يضطرب. وحسب فون فيرا، وقد خدعه مظهر الضابط، أن الحظ يخدمه هذه المرة أيضاً. غير أن الضابط قال له ببساطة:

- لقد تحدثت هاتفياً مع قاعدة دايس فانزل.. انزل.. وبقي فون فيرا دون ما حراك.. وكانت ثلة من الجند تقترب عندئذ من الطائرة. وخشي أن يأخذوه بتهم التخريب فيعدموه برصاصة، لذلك آثر أن يعترف بالحقيقة.

وقال الضابط متمتماً: «لقد كان هذا الوغد على وشك الاستيلاء على أحد نماذج طائراتنا السرية»، وهكذا أعيد فون فيرا إلى معتقله أسفاً حزيناً، وأكثر تصميماً على الهرب في آن واحد.

* * *

في اليوم العاشر من شهر كانون الثاني سنة ١٩٤١ غادرت الباخرة «دوقة يورك» مرفأ «غرينوك» الاسكتلاندي، وكان على ظهرها ألف راكب معظمهم من الأسرى الالمان المنقولين إلى كندا. وكان بينهم الطيار الالماني فون فيرا. إن محاولته الأخيرة للهرب وان أخفقت فقد أبقت في نفسه شعوراً بالاعتزاز والازدهاء والثقة. وجعل يحلم بـ «كندا» تلك التي لا يعرفها، وكان أشد ايغالاً في أحلامه لأنها قريبة من الولايات المتحدة التي كانت إذ ذاك ما تزال على الحياد ولم تدخل الحرب، وإذن فحسبه أن يعبر الحدود من كندا إلى أميركا ثم يلتجيء إلى أية قنصلية المانية هناك... وقال له ضابط الماني أسير من ضباط الغواصات:

– هذا كله حسن... إلا إذا أمكن أن تهرب الآن.

وابتسم فون فيرا، ثم تطلع إلى الضابط زميله، فأيقن أنه جاد فيما يقول – وعندئذ راح الضابط يشرح له خطته همساً وكانت الخطة بكل بساطة: الاستيلاء على الباخرة نفسها...

– ٤ –

كانت الأنباء المكتومة قد تسربت فعلم ان الجانب الاكبر من هذه القافلة البحرية سيتجه الى افريقيا الشمالية، وإذن فان الباخرة «درقة يورك» ستنفصل عنها، وتستمر في اتجاهها الى كندا وحدها. وهكذا يؤلف الاسرى ثلاث فرق، تحتل احداها مركز اللاسلكي. والثانية تحتل جسر السفينة اما الثالثة فتستولي على مستودع الاسلحة.

تحمس فون فيرا لفكرة الهرب الجماعية هذه... وما لبث الاسرى ان اخذوا يختلطون، وهم متخفون بزي بحارة، برجال السفينة وكان المتفق عليه انه في اللحظة التي يتم فيها الاستيلاء على الباخرة يسارعون بالاتصال لاسلكيا

بالغواصات الالمانية لتهرع الى حمايتها.

وراح المتمردون ينتظرون بفارغ الصبر... وذات صباح شاع نبأ يقول بان الباخرة «دوقة يورك» قد انفصلت عن سائر القافلة.

واندفع فون فيرا ورفاقه، وتأكدوا مما اشيع، وسرعان ما اخذوا يتأهبون للاستيلاء على الباخرة... غير ان احدهم استدار فجأة الى الخلف فشحب وجهه وارتجف... ذلك انه شاهد على مبعدة يسيرة لا تتجاوز نصف ميل كتلة ضخمة تسد الفضاء... انها المدرعة البريطانية الجبارة «راميليس» تخفر الباخرة «دوقة يورك» تسير وراءها حتى تبلغ مستقرها

***

وئد مشروع الاستيلاء على الباخرة، فتابعت رحلتها حتى تبدت مشارف كندا لعيني فون فيرا وهو واقف يتأملها على ظهر السفينة ثم سرعان ما القت مراسيها في «هاليفاكس».

وسأل فون فيرا احد زملائه، وهو يعرف كندا معرفة جيدة، عن افضل مكان يهرب منه فقال له هذا: «افضل مكان للهرب يقع بين «مونتريال» و «اوتاوا» قريباً من نهر «سانت لوران» الذي يقع على الحدود».

وعلم فون فيرا ان القطار الذي سيحمل الاسرى الى مكان اعتقالهم لا بد ان يمر بهاتين المدينتين.

ولما صار في عربة القطار ادرك ان هربه ليس بالامر الهين اليسير، فقد كان الجند المسلحون يتجولون في ممرات القطار ولا ينفكون يراقبون مقاصير القطار بشدة وحذر.

وفيما كان القطار منطلقا في الريف المكسو بالثلوج كان فون فيرا يبحث عن الطريقة التي يستطيع بها التواري عن انظار اولئك الجنود، فلا يرونه وهو يفتح نافذة القطار ويقفز منها الى الخلاء. ولما غادر القطار محطة «مونتريال» وجد بغيته، وتداول مع زملائه لتنفيذها... وكانت سرعة القطار شديدة جدا، واخيرا وقف في محطة منعزلة، وبعد بضع دقائق استأنف سيره، وعندئذ أشار فون فيرا اشارة برأسه فسارع احد زملائه وبسط «بطانية» عالياً كأنما يريد ان ينفضها متهيئاً للنوم، وهكذا اخفت البطانية الاسرى الموجودين في مقصورة القطار عن انظار الحرس لحظة يسيرة استطاع فون فيرا في اثنائها ان يفتح النافذة ويوازن على قضيبها المتعارض ثم يهبط الى الخارج، واغلق زملاؤه النافذة، وانطلق القطار باقصى سرعته.

***

بقي فون فيرا منطرحاً فوق الثلوج وقد فقد اكثر وعيه من شدة الصدمة، وخيل اليه كانما البرد الشديد والثلوج التكاثفة قد الصقته بالارض. ثم ما لبث ان احس بموجة من السرور تجتاحه اجتياحاً. لقد غدا طليقاً... وحسبه مسيرة يوم واحد فقط ليبلغ اميركا نفسها التي كانت لم تدخل الحرب بعد.

واستطاع ان ينهض، ثم اخذ يغذ السير في اطواء الليل محاذيا احدى الغابات وتوقف فجأة فقد سمع صوت محرك، ووجد نفسه قريباً من طريق عامة.

وشاهد عن يساره اضواء سيارة تبتعد فتابع سيره مستهدياً بهذه الاضواء، وبعد انقضاء ربع ساعة كان يسير في الطريق العامة. وعندالفجر وصل الى «جونستاون» على ضفة سان لوران اليسرى، وشاهد امامه الانوار الاميركية تسطع وتتألق.

وكان نهر سان لوران نصف متجمد فسار فون فيرا فوق الجليد، ولكنه اضطر

ان يعود على اعقابه، فقد شاهد امامه مساحة كبيرة من مياه النهر غير متجمدة.

وراح يتطلع من حوله وقد نال منه التعب والجوع والبرد، ثم سار على غير هدى فاكتشف مجموعة من الاكواخ وهي اماكن سكن لمصطافي المنطقة في فصل الصيف. ورجا في نفسه ان يدخل احد هذه الاكواخ فيجد ما يتبلغ به. وقفز من فوق سور صغير وسرعان ما نسي تعبه وجوعه فقد اكتشف اكتشافاً رائعاً اذ عثر على قارب، والقارب هو وسيلته التي يقطع بها نهر سان لوران ويصل الى الشاطىء الاميركي.

وراح فون فيرا يجر القارب بمشقة والدم يخفق في رأسه بشدة... حتى وصل به الى الماء... كم تراه امضى من الوقت حتى استطاع دخول المياه الحرة؟ انه لم يستطع قط ان يعينه بالدقة. وبعد لأي وضياع في تلك المياه، يسبح به القارب مرة هنا، ومرة هناك، وصل الى الشاطيء الاميركي، وهبط فون فيرا من القارب وسار على الحجارة يترنح فوق الجليد حتى اقترب من بيت كبير وقد استضاءت نوافذه بانوار الكهرباء. وفي هذه اللحظة شاهد امرأة تخرج من سيارة فاستوقفها وسألها هامساً:

– عفوك يا سيدتي... اتراني الان في اميركا؟

وذهلت المرأةوسألته:

– هل انت مريض؟

– كلا. ثقي انني لست مريضاً. ولكن في اي مكان انا الان؟

– انك في «اوغدنسبورغ» وانا ممرضة في مستشفى ولاية نيورك.

وفي هذه الاثناء اقترب احد رجال البوليس وطلب منه أن يبرز اوراق هويته،

ولما لم يكن في حوزته اية اوراق فقد استاقه الى المركز حيث اضطر ان يكشف عن حقيقته. وقد سمع له ان يتصل هاتفياً بالقنصلية الالمانية في نيويورك فهرع اليه رجال القنصلية واخذوه في كثير من الاعجاب والرعاية.

وظهرت الصحف الاميركية في اليوم التالي وقد روت قصة فون فيرا ووضعت لها اضخم العناوين. وفي هذا الوقت نفسه كانت واشنطن تدرس قضية الطيار الالماني الشهير فون فيرا... وفي يوم ٢٥ كانون الثاني سنة ١٩٤٠ تقرر انه وفقاً للقوانين الدولية فان الأسير الهارب يجب ان يعاد الى بلاده المانيا عندما تسمح الظروف بذلك. وفي وسعه، في انتظار اعادته الى المانيا، ان يقيم في نيويورك.

واقام فون فيرا عدة اشهر في نيويورك وعاش فيها عيشة مسرة ومرح، وكان كثيراً ما يتلقى باقات الورود ودعوات الى مآدب العشاء من الجالية الالمانية هناك.

وكثر الحديث عن فون فيرا، بل لقد كثر الحديث عنه اكثر مما يجب، وشاعت الانباء بان اثنين اخرين من الاسرى الالمان قد فرا مثله ووصلا الى الحدود الاميركية فاعادتهم السلطات الى آسريهم... واذن فلا يستبعد ان يكون حظه كحظ هذين الاسرين في اية لحظة فماذا يفعل؟

لا بد من الهرب مرة آخرى. كان حشد من الناس يجتازون في الساعة الخامسة كل يوم جسر «ريوغراند» القائم على حدود الولايات المتحدة والمكسيك، فيما بين «البازو»و«سيوادا جوارتش» تخفى فون فيرا بزي فلاح من عمال المياومة وراح يسير بمشقة بين جماعة من اولئك العمال العائدين الى بيوتهم على الحدود المكسيكية الاميركية، وكان يسوق امامه عربة يد مليئة بالزبل والروث والقاذورات ذات الروائح الكريهة محاولا قطع الجسر، واقترب حرس الجمارك

الذين يدققون في هويات من يقطعون الجسر، اقتربوا من عربة اليد تلك ليفحصوا اوراق صاحبها غير ان رائحة القاذورات زكمت انوفهم فابتعدوا مشمئزين... وقالوا هازئين: ««ها ان الولايات المتحدة الان تصدر الزبل والروث...» وابتسم سائق العربة الصغيرة ابتسامة بلهاء مصطنعة... وتابع سيره، وما كاد يقطع الجسر حتى ترك الى جانب عربته وزبله وروثه، واختلط بالناس، واخرج منديله، ورفع قبعته ليجفف عرقه... اجل... انه هو نفسه فون فيرا... لقد خدمه الحظ واستطاع ان يجتاز الحدود الى المكسيك... وغذ السير الى محطة السكة الحديدية واشترى تذكرة الى «مكسيكو» وجلس في عربة من عربات الدرجة الثالثة... وفي اليوم الثامن والعشرين من شهر آذار سنة ١٩٤١ اقترب سائق سيارة «مرسيدس» سوداء أنيقة وحمل قبعته بيده، اقترب من رجل قد طال شعر لحيته دون ان يحلقه، وارتدى ملابس جد قذرة وقد اخذ يهبط من القطار... وسأله سائق السيارة:

-الضابط الطيار الكولونيل فون فيرا؟

وعندئذ استضاء وجه الرجل الذي يرتدي الملابس القذرة، وسرعان ما دخل سيارة قنصل المانيا..

استراح فون فيرا بضعة أيام وهو يعجب كيف حاول الفرار ثلاث مرات، وفي كل مرة كان يحسب نفسه قد نجا، ولكنه يعود الى الهرب ثانية... فهل نجا تماماً هذه المرة؟ ان عليه الان ان يقطع مسافة اخرى طويلة قبل ان تتم له النجاة النهائية. وهذه المرة ركب الطائرة التي ذهبت به الى «البيرو» ثم «بوليفيا» و«البرازيل» وفي يوم ١٣ نيسان كان غلدر «ريودي جنيرو» على طائر مائية ايطالية تقطع الخط الجوي التجاري بين اميركا الجنوبية واوروبا. وفي يوم ١٧ نيسان كان فون فيرا، في روما، وفي الغداة كان في برلين.

وقد انعم عليه بوسام «صليب الفرسان» ورفع الى رتبة قائد سرب، ومنح اجازة طويلة تزوج خلالها، ثم حارب في روسيا، واخيراً عهد اليه بعمليات خفر السواحل جويا.

وفي يوم صباح ٢٥ تشرين الاول اقلع بطائرته على علو منخفض فوق داره حيث كانت ترقد زوجته الشابه... وكأن ذلك التحليق فوق داره كان وداعاً اخيراً... .

والواقع كان الوداع الاخير حقا... اذ لم ينقض ربع ساعة حتى هوت طائرته في البحر كالحجر الثقيل. ولم يعثروا على جثته قط... ان فون فيرا لم يكن ليدري، في نهاية هروبه الطويل ونجاته من آسريه، ان ابواب الموت مفتوحة لاستقباله على رحبها... .

٥٠٠٠ عالم ألماني في الأسر

كتبها: ميشل بار زوهار

«هذه قصة مطاردة الادمغة الألمانية واصطيادها ووضعها في قبضة الاسر والمراقبة الشديدة لكي تنتج خوارقها ومعجزاتها العلمية في مجالات الذرة والصواريخ الجبارة وتقدمها للفاتحين في أعقاب الحرب العالمية الثانية. وقد ترجمنا لك ما فعلته القنبلة الذرية الأولى في هيروشيما مكتوبا بقلم طبيب يابابي كان يعمل في (...) المدينة. وترجمنا لك كذلك مقال الرئيس السابق «هاري ترومان» الذي روى فيه الظروف التي أملت عليه بأن يأمر بالقاء القنبلة الذرية على هيروشيما. ونترجم لك اليوم أساليب ستالين وأعوانه في مطاردة العلماء واصطيادهم وسوقهم إلى أصقاع روسيا ومتاهاتها لكي يضعوا أدمغتهم في خدمة الروس، وينتجوا لهم ما لم يكونوا قادرين على انتاجه من مختلف الصواريخ والأسلحة الفتاكة في أعقاب نهاية الحرب».

- ١ -

- هيا.. بسرعة.. بسرعة أكثر.. وأكثر.. وأكثر..

وينهض وسط الصحراء برج مستوحد، وتنهض بقربه أساطين يعلوها مخروط نحيل ضامر تقوم على حمايتها جميعاً الأسلاك الشائكة والمدافع الصغيرة الرشاشة.

إن اشعاعات الفجر الأولى أخذت تنير مجمع الخيام الكبير، وهي خيام مطبوعة عليها هذه العبارة «صنع الولايات المتحدة». وكانت تسير بين الخيام سيارات النقل التابعة للجيش السوفياتي، كما كانت تتنقل، هنا وهناك، كاسحات الثلج التي استعملت هنا، على نحو غريب، لتمهيد الرمال.. وحيثما امتد البصر في تلك الأصقاع لا ترى العين إلا رجالاً منتشرين.. رجالاً في كل بقعة ومكان..

* * *

كان الجو بارداً ببرودة الثلج، وكانت الريح تهب فوق سهول كازاكستان القاحلة، وجنود الجيش الأحمر يبدون متدثرين بمعاطفهم السميكة، ومعتمرين قبعات من الفراء، وقد جعلوا يختلطون بجماعات الفلاحين ذوي الشوارب الكبيرة الذين هرعوا من هنا وهناك ليشاهدوا ما يحدث..

وقد حضر من «ستالنغراد» الرجال الطلائع في فرقة جنود الاصطدام. وحضر كذلك كل من (...) أكاديمية العلوم، في حين كان (...) ذوو اللهجة الالمانية منهمكين (...).

ولن تمضي بضع ساعات حتى ترتفع الحرارة الشديدة بدلاً من صقيع ليل القطب الشمالي. ولن يحين وقت الظهر حتى لا يعود في وسع المرء أن يظل مرتدياً ولو رداء البحر الخفيف.

وكان يبدو الرجال وكأنما قد تأججت أعصابهم حول البرج المرتفع والخزانات الضخمة، فقد كانت الشتائم والمسبات تتدفق من بين شفاههم باللغتين الروسية والالمانية.. وفوق مدرج للطائرات صنع على عجل وكيفما اتفق حطت طائرة رسمية كانت تقل نفراً من الجنرالات والمدنيين، يمكن أن تميز العين، من بينهم «اوستينوف» وزير التسليح، وقد جرى المسؤولون يقدمون له «الهر دكتور

غروتروب» و«الهر دكتور وولف» والدكتور آلبرينغ، والدكتور آميغانياخ وغيرهم وغيرهم من العلماء الألمان.

فما الذي يحدث، اذن، في هذا اليوم الثلاثين من سنة ١٩٤٧ في ركن منعزل ضائع في آسيا الوسطى؟

إن الذي سيحدث، ببساطة، هو اطلاق أول صاروخ سوفياتي.

إن البرج المصنوع من مواد مجلوبة من «بينموند» لم يكن ثابتاً، وطيد الأركان.. ولكنه، على أي حال، كان متماسكاً.

وقد كان الصاروخ يبدو واضحاً في المكان المعد لاطلاقه، وكانت الخزانات الضخمة ممتلئة، وكانت خيوط من دخان أبيض تنفلت من ذيل الاسطوانة الكبرى المصوبة نحو السماء.. وعلى حين غرة.. -واأسفاه- يترنح الصاروخ إذ قد انهارت احدى ركائزه.

ودونما اهتمام بالخطر اندفع الجنود نحو البرج وأعادوا الركيزة المنهارة إلى موضعها.. وفيما كانت قلوب الحاضرين تخفق بشدة متزايدة.. أخذت أصوات التحذير الآمرة بالتراجع تتصاعد من مكبرات الصوت.

وصدر الأمر القاطع.

- أطلقوا النار.

وسمع على الفور زئير يصم الآذان ولا ينفك يزداد هديراً ودوياً، وانبعثت دفقة من اللهب.. ثم راح الصاروخ يرتفع في الجو.

- ٢ -

تفجرت حناجر ثمانية آلاف شخص بصيحة فرح واحدة، وراح «اوستينوف» يحتضن المدير الروسي للقاعدة، ثم يستدير نحو رئيس المهندسين الالماني «هيلمان غروتروب» فيأخذه في أحضانه وهو يهتف قائلاً:

- أرأيت؟ إن الصواريخ الروسية أفضل من مثيلاتها الالمانية؟

غير أن صوتاً، من بين جماعة العلماء الالمان لم يستطع إلا أن يقول في ملاحظة ساخرة:

- لم يشترك الروس في شيء من هذا كله، وإنما هم المهندسون الالمان الذين صنعوا كل شيء بمواد المانية خالصة..

ومع ذلك فان روسيا سجلت دون حرج، في سجل رصيدها، هذا النجاح في اطلاق الصاروخ، وعلقت عليه بما يلي: «انه ثمرة جهد خارق ضخم ابتدأ منذ اللحظة التي انتهت فيها الحرب».

وفي نهاية سنة ١٩٤٤ صدر مرسوم من الكرملين بانشاء معهد جديد باسم «الدائرة الخاصة» وأعطي حق الاشراف عليه إلى جورج مالينكوف.. وكان الغرض من ذلك واضحاً وهو «الاستيلاء عن طريق، رجال الكوماندو الخصوصيين على جميع الأعتدة والأدوات التجارية والعلمية التي يمكن أن تكون ذات نفع للاتحاد السوفياتي، والتي تصادر باسم اصلاحها واعادتها إلى ما كانت عليه..»

* * *

كانت روسيا قد قررت أن تضرب ضربتها الكبرى وهي أن تهدم المصانع، والمعامل، ومعاهد البحث، وأن تنقل إلى أراضيها ليس فقط الألوف المؤلفة من

أطنان الآلات، والأدوات، والمواد الخام، والوثائق والمستندات، بل الرجال أيضاً، الرجال القادرين على عملية تنسيق هذا الجهد الجبار.

ومنذ سقوط برلين استقر في العاصمة الالمانية قسم خاص، وكان «شوسترك» هو رئيس هذا القسم، ولم يكن في جعبته، في الحقيقة، إلا القليل من المعلومات التي يمكن أن تكون دليلاً له في مهمته، وأقل القليل، إلى حد بعيد، مما كان يملكه الأميركيون من هذه المعلومات.

ومن ناحية أخرى فقد كان التنسيق فيما بين «الدائرة الخاصة» و«القيادة العامة» على غير ما يرام. كيف لا وقد كان القائد الروسي «اناطول فافيلوف» -وهو الذي كان أول من دخل «بينموند»- يحمل في جيبه الأمر الجازم بأن يقوض هذه القاعدة -بينموند- ويدمر جميع موادها ومحتوياتها..

ولم تكن المهمة سهلة بأي حال أمام العملاء التشيكيين للجيش الأحمر، وهم لم يزودوا بأية ايضاحات أو تعليمات دقيقة وجادة، وقد وقفوا وجهاً لوجه أمام السكان الالمان الذين لا ينظرون لهم على غير البغض والمقت..

وفي مثل هذه الأحوال فان في وسع المرء أن يتبين مبلغ الفرحة التي احتلت قلب الضابط الكبير «فلادمير شابينسكي» عندما اكتشف في المانيا مصانع «ميتلورك» الهائلة بمعاملها الضخمة وقاعات التركيب فيها وصواريخها غير التامة.. وعجب كيف أن الأميركيين، الذين غادروا المنطقة قبل ثلاثة أيام فقط، لم يكونوا من النباهة بحيث تركوا هذا كله في مواضعه لم يمسوا منه شيئاً.

وأدلى ضابط الماني بهذه الملاحظة:

- سيندمون كل الندم بعد عشر سنوات، إذ أن صواريخنا يومئذاك ستستطيع اجتياز المحيط الاطلنطي.

واستطاع القائد «يغورروف» وهو من أعضاء القسم الخاص الذي مر ذكر تأليفه، أن يجلب، من مصانع ميتلورك ومن مخابىء «هارتز» حمولة سيارات نقل كاملة من الوثائق والكتب العلمية. وعندئذ أقام شو ستوك على شرفه وتكريماً له مأدبة فاخرة في مقر القيادة العامة في «ثاراكانوف». وفي أثناء هذه المأدبة كانوا يتبادلون الأنخاب ولا ينفكون يعجبون كيف فات الأميركيين أن يتفطنوا إلى قيمة ما في مصانع «ميتلورك» من كنوز الصناعة وبناء الصواريخ. فهل فات الأميركيين حقاً أن يتفطنوا إلى هذا كله؟ الجواب قطعاً «لا». إلا أنهم في ذلك الوقت، لم يدر لهم في خلد: ان حرب المستقبل ستكون حرب صواريخ في الدرجة الأولى...

- ٣ -

كان اكتشاف مصانع «ميتلورك» أشبه ما يكون بضربة سوط ألهبت رجال «شوستوك» فانطلقوا إلى «بينموند» واستطاعوا أن ينقذوا اثنين من مختبرات البحث، وبعض منطلقات الصواريخ، وبضع عشرات من القنابل الطائرة «ف١ وف٢» وصواريخ مضادة للطيران. ومن على أرصفة «لوبيك» و«ماغدبورغ» استرجعوا الزوارق الضخمة المليئة بالصواريخ والمحروقات التي جهد «فون براون» في نزحها، ثم دار البحث الدقيق جداً في جبال «هارز» حيث أمكن الحصول، في النهاية، على غنيمة كبرى من المعدات والوثائق.

ومع ذلك فقد كان السوفيات يبحثون بنافذ الصبر عن الرجال الذين سيستطيعون أن يعلموا الاتحاد السوفييتي كيفية استعمال كل هذه الثروة العلمية الهائلة - إلا أنهم، في هذا المجال، سيصادفون متاعب ومشقات إذ أنه لم يبق في المنطقة السوفييتية من المانيا أحد من هاتيك الأدمغة التي تنطوي عليها رؤوس مستطيلة الشعر.. لأن أصحاب هاتيك الأدمغة قد فروا جميعاً إلى المانيا الغربية على اثر اقتراب الشيوعيين من ناحية الشرق. ولقد كانوا قلة، أولئك

العلماء الذين كانوا يؤمنون بأن عالم الغد سيكون عالماً ماركسياً، وأن عليهم، بناء على ذلك، أن يبقوا حيث هم.

– هير هانس كول؟

انطلق هذا السؤال من فم ضابط روسي شاب وقد بقي واقفاً على عتبة الباب، وابتسامة تعلو شفتيه، وكانت تقف وراء سيارة «جيب» أميركية، ولكنها مرسومة بالنجمة الحمراء، انها سيارات أهديت لستالين بموجب قانون الاعارة والتأجير الذي سنه روزفلت.

ولكن ماذا فعل أولئك الروس لكي يكتشفوا العالم الالماني الكبير «هانس كول» في مدينة «جوتيربورغ» الصغيرة في جنوب برلين؟

والواقع أنهم وجدوا عنوانه عند مصانع (تليفونكن) في برلين، ولم يضيعوا الوقت سدى عندئذ. وكان ذلك اليوم هو الخامس عشر من شهر حزيران سنة ١٩٤٥.

وعاد الضابط الروسي الشاب يقول:

– هير كول: هل تريد أن تعود فتزاول عملك في قسم القيادة الالكترونية والاشراف على القنابل الطائرة «ف٢»؟ اننا على وشك اعادة انشاء المشروع، وفي وسعك أن تبدأ فوراً مزاولة عملك.

وبدأ الضابط الروسي الشاب وكأنه لا صلة له بما كانت دعاية «غوبلز» تصفهم بأنهم من «الذئاب الكواسر».. كان مؤدباً، ومنتبهاً، وكان يصغي باذن واعية للأسئلة، ويجيب عليها، ولا يفتأ يعد أحلى الوعود وأجملها من بيت خاص مريح، ورواتب ضخم، وغذاء، ودخان، ثم اعادة انشاء المصنع السابق الذي

كان قائماً أيام هتلر.

وأجاب كول:

– عظيم جداً.. ولكن ما هي حقيقة الاشاعات التي تقول بالترحيل القهري إلى روسيا.. وما الرأي فيها؟

وأجاب الضابط الروسي:

– هذا ما لن يكون...

ولم يستطع هانس كول أن يقاوم الاغراء المعروض عليه، ولم تمض بضعة أيام حتى كان يقيم، مع أسرته في بيت مريح بهيج في «هوهن سكونهاوزن» القريبة من برلين. ولقد وجد هناك مهندسين وفنيين المان مثله، وعلماء من السوفييت يتحدثون الالمانية بصورة مدهشة.

وبلغ السرور من العالم «كول» حداً دفع به إلى مصاحبة الشخصيات الرسمية إلى «بينموند» ومساعدتهم في حفر الأرض واستخراج الأجهزة والآلات المدفونة فيها. وبعد عودته باشر عمله، وأماط اللثام عن جميع الأسرار المتعلقة بعمل هذه الأجهزة .

– ٤ –

كان العلماء والفنيون الالمان يعملون، وقد لزمهم العلماء الروس حتى لا يكادوا يفارقونهم، وكان العلماء الالمان يتدفقون بعامل الاغراء، كانوا يتوافدون ليلاً في سيارات محجوبة النوافذ، وسرعان ما يقيمون في دور جميلة، ويعكفون على العمل دون تباطؤ.

ولماذا تراهم يترددون؟ كانوا يعلمون أنهم مطاردون، مطاردون حتى لو بدا الروس في غاية التأدب.

ولكن، يا للشيطان، كيف استطاع هؤلاء الروس أن يعرفوا مكان اختفاء هذا الحشد من الفنيين الالمان، كبارهم وصغارهم على السواء؟

الواقع أن الروس لم يتركوا مكاناً إلا بحثوا فيه، وفتشوه، من بلد إلى بلد، ومن بيت إلى بيت. ولقد نصبوا في كل مكان، خيوطهم الحريرية المغرية. وما أكثر ما سألوا الأسرى، والسجناء والضباط القدماء، والموظفين.. بل لقد قلبوا المعتقلات قلباً، ومحتشدات الأشخاص الذين نزحوا عن مدنهم أو بلدانهم..

وأي رجل، في تلك الحقبة كان يرفض عروض العمل، وهي عروض لا تعني إلا العيش الرغد والحرية؟

الحرية؟ إنها لكلمة تقال بسرعة. ذلك أن احياء السكن التي أقام فيها العلماء والفنيون الالمان وان كانت مريحة جداً فانها، مع ذلك، كانت محاطة بالأسلاك الشائكة، ومحروسة ليل نهار، لا يفارقها الحراس المدججون بالسلاح أبداً..

ومع ذلك فان هذا كان أفضل من الاقامة في معتقل وأحسن حالاً من البؤس الرهيب..

في ظل هذه الحراسة المتشددة، وفي ظل هذا النعيم الذي هبط على العلماء الالمان، جعلوا يعملون، ويعيدون انشاء مراكز البحث العلمي والصناعي، وسرعان ما قام معهد «راب» في «بلايشيرود» وقامت مختبرات «جيما» قرب برلين، ومصانع الطيران، والالكترونيات، والفيزياء، والملاحة الجوية، ومعامل «كروب» نفسها..

في هذه الأثناء كان مبعوثون سريون يتسللون خفية إلى المنطقة الغربية فيطرقون الأبواب، ويعرضون عروضهم المغرية، وقد نجحوا في حشد مجموعة صغيرة من العلماء الالمان أصحاب الأدمغة وهربوا بهم إلى المنطقة الشرقية..

وأقيمت على ضفاف «الايلب» الشرقية مكبرات الصوت الضخمة التي راحت تعيد وتكرر اياما طويلة هذا الاعلان: «أين ارنست شتاينهوف؟ من يعرف عنوان شتاينهوف؟ إن مكافأة سخية ستكون من نصيب من يدلي بمعلومات عنه.»

وهكذا تناهى إلى علم شتاينهوف، وهو أكبر دماغ أو أكبر عالم في الالكترونيات، انه مطلوب للروس لقاء ثمن باهظ.

وقد استطاع أن ينجو من الوعيد والتهديد، غير أن الروس حصلوا على ما كان فيه عزاء لهم. لقد أتوا بمساعد شتاينهوف، العالم الشاب «هيلمات غروتروب»، أجل انه عالم ممتاز، ولكنه سيء الخلق.

والعجيب أن فضل النجاح في حصول الروس على هذه الغنيمة الثمينة يعود إلى الأميركيين أنفسهم، فكيف كان ذلك؟

لقد استطاع أن يدخل الولايات المتحدة ثلاثمئة وخمسون فقط من ألوف الفنيين، والخبراء، ورجال البحث الالمان الذين ابتلتهم هزيمة المانيا بالبطالة. ومن فنيي وخبراء ومهندسي «بينموند» البالغ عددهم خمسة آلاف رجل لم يستطع اجتياز المحيط الأطلسي إلى أميركا غير مئة وسبعة وعشرين شخصاً، وذلك عندما قرر هاري ترومان، في سنة ١٩٤٦، انه في الامكان «استيراد» ألف عالم الماني.

أما الآخرون، عندما فتحت أمامهم أبواب معتقلي «غارميش»

و«تينونهاوسن» فقد انطلقوا أحراراً يذهبون حيث يشاؤون.. وحتى إلى المنطقة السوفييتية.

وكان من بين هؤلاء، بل في طليعتهم «هيلمات غروتروب» فقد اجتاز الحدود الداخلية، وكان مصمماً أن لا يفترق عن زوجته وولديه الصغيرين ولو للحظة واحدة وكان يفضل أن يعمل في انكلترا، أو في المانيا نفسها..

فكيف استطاع السوفييت أن يعلموا بقراره هذا؟

– ٥ –

ستظل في وطنك..

كيف استطاع الروس أن يدركوا نوايا «هيلمات غروتروب»؟ هذا ما كان مجهولاً إلى اليوم. غير أن الروس زاروه في منزله غداة خروجه من المعتقل، وتقدم منه الجنرال «عايدوكوف» وعرض عليه ادارة مصانع ومعامل «ميثلورك» التي أطلق عليها الالمان اسماً جديداً هو اسم «زانترالورك» وقال له:

– اننا نؤكد لك، ونضمن هذا التأكيد، انك لن تنقل من المانيا إلى روسيا وستظل تعمل في وطنك نفسه.

وقد علق على هذا أحد الاميركيين فيما بعد فقال: ان غروتروب، وان كان شاباً وطموحاً، إلا أنه أدرك أنه يمسك بذنب نجم محرق، وقد كان لا بد لكل من يساعده ويأخذ بيده أن يغدو سيده المتحكم في أمره..

ومع ذلك فقد تبع الروس واستطاع بالمبالغ الضخمة التي وضعت تحت تصرفه أن يجتذب الكثيرين من زملائه للعمل في المصنع الضخم الذي أعيد فتحه في جبال هارز، وهكذا عادت الحياة إلى أبي الهول..

قنبلة طائرة فوراً

وبعد مضي ما يقرب من خمسة أشهر كان غروتروب قد جمع تحت أمرته أكثر من خمسة آلاف عامل فني الماني كان من بينهم العلماء والفنيون القدماء في معامل بينموند نفسها أمثال الدكتور «والديار شيرهورن»، وهو العالم الساحر في شؤون خلط الالمنيوم وتركيزه، والدكتور «آليرنغ» المدير السابق لمعهد «دانترنغ» للفعاليات الجوية، والذي كان رئيس انتاج الصناعات الثقيلة، وقد استطاع هو أن يأتي بالعالم «جوشن آمضمباخ» الخبير باطلاق الصواريخ، وغيرهم كثيرون أمثال «مولر» و«ماغنوس» و«هوش»..

ولم تلبث نتائج هذا الحشد للأدمغة الالمانية المبدعة أن ظهرت للعيان، فقد تم فوراً انشاء قنبلة طائرة من نوع ف٢ في مصانع «زانترالورك» -ميتلورك سابقاً- ثم تم انجاز عشر قنابل طائرة أخرى، وعشرين، ومئة، وألف صاروخ.

وشحنت أول دفعة منها إلى روسيا حيث تفحصها جيداً العلماء الروس، وكأنما كانوا يقومون بعملية تشريح كاملة، ثم قاموا باطلاق بعضها على سبيل التجربة والتدرب.. وقد صمم الروس أن يعوضوا عن تأخرهم عن الألمان مدة ثمانية أعوام في هذا المجال، ببضعة أشهر فقط.

وكان المسؤولون في الكرملين يفركون أيديهم فرحاً ورضاً، فلقد آن الأوان، أخيراً، ليضربوا ضربتهم الكبرى.

في مساء يوم ٢١ تشرين الأول أقام الجنرال غايدكوف المدير الروسي لمصانع «زانترالورك» مأدبة كبرى دعي إليها مئتا عالم ومهندس ألماني. وكانت هذه المأدبة فاخرة وباذخة في آن واحد، لا سيما وأنها أتت في مساء يوم من أكثر الأيام عملاً وانجازاً ودراسات، وقد دارت الأحاديث حول ضروب النجاح التي تم تحقيقها، وحول مشاريع المستقبل. وقد حفلت موائد المأدبة بكافيار بحر قزوين،

والأمعاء المحشوّة من النوع البافاري، والفودكا، ونبيذ الراين.. وأخذ العلماء الألمان يفقدون شيئاً فشيئاً اتزانهم، فلم يلحظوا مساعد الجنرال غايدكوف وهو يتنقل فيما بين رئيسه وجهاز الهاتف..

- ٦ -

في فجر تلك الليلة التي أقيمت فيها المأدبة الباذخة استفاقت «ايرمغارد غروتروب» -زوجة العالم الالماني الكبير- من نومها على رنين جرس الهاتف، فتناولت السماعة، ولم تستطع أن تفهم غير العبارة الأخيرة من الحديث وهي:

- أنت أيضاً سنذهب بك إلى موسكو.

وقبل أن تتبين حقيقة الأمر كانت دقات عنيفة تطرق باب دارها.. وظهر على عتبة الباب ضباط سوفييتيون وعلى شفاههم تلك الابتسامة الوديعة المؤدبة دائماً.

وفي الغداة شاهد عمال الطرق السوفييتيون في «بريست ليتفوسك» اثنين وتسعين قطاراً خاصاً منطلقة نحو الشرق بسرعة عظيمة. كانت تلك القطارات مزدحمة بالرجال، والنساء، والأطفال، وربما كان عددهم خمسة عشر ألفاً أو عشرين ألف شخص، وهم جميعاً موظفو وفنيو مراكز الصناعة الالمانية العسكرية.

والواقع أن الروس استطاعوا أن يوقعوا في شباكهم الضخمة نحواً من خمسة آلاف رجل من أصحاب الأدمغة الالمانية اللامعة.

ولم يكن ترحيلهم، أخيراً، إلى روسيا قاسياً وبعيداً عن الحس الانساني كلا. لقد كان «سيناريو» أو قصة هذا الترحيل ليلاً، فأحاط الحرس الصامتون بيوت

أولئك العلماء والفنيين، واتخذوا أماكنهم أمام تلك البيوت، وبدأت عملية الترحيل في الساعة ٤,١٥ بالدقة.

وحاول بعض الالمان أن يحتجوا، ويناقشوا، ولكن هذا كله كان عبثاً ولا طائل تحته، فقد كانت الأوامر جازمة حازمة وكان الجنود لا سبيل إلى التفاهم معهم أبداً..

وفي الوقت نفسه كانت حركة نقل الأجهزة والأدوات قائمة على قدم وساق وقد تم فك جميع الآلات والمعدات والمحركات بحيث أن مصانع «زانترلورك» لم تعد موجودة فعلاً..

وقد وجهت التهنئة الحارة إلى جميع الضباط الروس الذين أنجزوا هذه المهمة على أحسن وجه. أجل لقد تم كل شيء بأفضل صورة ممكنة، دون ما حاجة إلى استعمال القوة والعنف!

وبالطبع حدثت بعض الأخطاء، وتم ترحيل أشخاص لا علاقة لهم البتة بشؤون العلم، كما أن بعض العائلات انفصل أفرادها بعضهم عن بعض مؤقتاً، وبعض المهندسين الشبان من الالمان قفزوا من القطار وهو منطلق وهربوا إلى المانيا الغربية عبر الغابات، ولكن بصورة اجمالية، تم نقل اولئك الألوف العشرين من العلماء والمهندسين وزوجاتهم وأطفالهم وفقاً للخطة المرسومة.

* * *

وابتداء من ربيع سنة ١٩٤٥ قررت موسكو أن ترصد كل جهودها بعد الحرب، وتكتلها حول برنامج لصنع الصواريخ والطائرات المتفوقة السرعة في الأرض الروسية نفسها، ولكن بمواد مصادرة من المانيا..

ومع ذلك فان ستالين كان يدرك جيداً أن هذه الكنوز العلمية ستنتهي، بعد الحرب، إلى الفشل والاخفاق. فقد كان من السهل البسيط نسبياً نقل أفران الصهر العظيمة، والمفاعلات الكيمياتية، إلى روسيا وادارتها من قبل أشخاص روسيين، إلا أن الأمر مختلف جداً بالنسبة للآلات والأجهزة الصغيرة والدقيقة المعقدة التي يتم بها صنع الصواريخ والطائرات الأكثر سرعة من الصوت. فماذا يفعل الروس اذن؟

- ٧ -

لم يكن أمام الروس، بالضرورة، إلا أن يتفهموا كيف تعمل هذه الآلات والأجهزة الدقيقة، ولا سبيل إلى شيء من هذا غير أن يراقبوا الالمان، في مكان العمل نفسه، وهم يعيدون انشاء هذه الأجهزة بعد تدميرها أو اتلافها. ومنذ اللحظة التي تعود فيها هذه الأجهزة والآلات إلى العمل، وبعد أن يدرك العلماء الروس كيف تعمل وتدور، عندئذ يمكن أن يعاد فك هذه الآلات من جديد، ولكن في كثير من الاحتراس.

كان العلماء الالمان وهم يشاهدون، من نوافذ القطارات التي تقلهم، روائع الطبيعة في السهل الروسي، لا يعلمون على وجه التأكيد إلى أين تنقلهم هذه القطارات..

وفي أثناء هذه الرحلة عقد الالمان، وعلى الأخص رؤساء أقسام العمل في مصانع «زانترالورك» القديمة، ما يشبه أن يكون مجلس حرب حول العالم الكبير «غيرو تروب»، وبعد مداولات كثيرة وقعوا جميعاً عريضة احتجاج موجهة للضباط الروس.

وكان قد حدث للعالم الالماني الدكتور «روجبر» أن فقد زوجته قبل ثلاثة أيام من هذا الرحيل، إلا أن الضابط الروسي الذي جاء ليضمه إلى قافلة زملائه

المنطلقين إلى روسيا، أيقظه، وقال له:

- في وسعك أن تأخذ أية امرأة تقع عليها يدك، فتتزوجها بعد وصولك...

وحدثت لأحد المهندسين الالمان أيضاً أن زوجته كانت متغيبة في الوقت الذي أراد فيه الالمان ترحيله، فحشروا معه بوابة العمارة بدلاً من زوجته... وكانت البوابة صبية وجميلة فراحت تروي لكل من تقابله في القطار، وقد بلبلت تفكيرها هذه الظروف الغريبة، انها توشك أن تصبح سيدة محترمة وامرأة دكتور كبير...

كانت الاشاعات تملأ ممرات ودهاليز القطارات. فمن قائل أن الروس ذاهبون بالعلماء والفنيين الالمان إلى «الاورال» في آسيا الوسطى، فيكذبه غيره ويقول:

- لا... بل هم ذاهبون بنا إلى معتقلات القتل، وغرف الخنق بالغازات... إلى قائل بأن الروس إنما يريدون أن ينقلوا الألمان إلى الكرملين نفسه... فلا ضرورة للتشاؤم والتصورات الكئيبة السوداء.

وأخيراً هدأت القطارات ثم وقفت أمام محطة «مونيتو» قرب موسكو. وكان أعضاء لجنة الاستقبال من الروس يروحون ويجيئون ويخبطون بأحذيتهم أرض رصيف المحطة التي علتها الثلوج.. انهم ضباط القسم الخاص، وقد أفرغوا القطارات من الالمان، ثم وضعوهم في سيارات نقل تابعة للجيش الأحمر، ومضوا بهم إلى أماكن اقامتهم الجديدة.

لقد أقام أكثر الفنيين في مساكن ضيقة، غير أن الروس من أكثر الناس مراعاة لسلم الرتب ومنازل الأشخاص فخصصوا للعالم «غروتروب» وزوجته وأبنائه دارة رحيبة مؤلفة من ست حجرات، وقد كانت هذه الدارة سكناً لأحد قدماء الوزراء.

وأجاب الروس على جميع الأسئلة التي وجهت إليهم فقالوا أن أمتعة العلماء والفنيين لن تلبث أن تصل بعد بضعة أيام، أما الرواتب فستكون، في متوسطها، أربعة أضعاف ما يتقاضاه المهندسون الروس على الأقل. أما العمل فسيشرع فيه على الفور.

ذلك أن الروس كانوا يحاولون أن يجعلوا ضيوفهم الالمان ينسون، قدر المستطاع، انهم سجناء.. وكانوا يدركون، بالتجربة أن هذا الموقف السخي الذي يخفف عن العلماء الألمان قسوة التفكير في الشؤون المادية، هو موقف إذا استفاد منه أحد فانهم هم سيكونون المستفيدين منه أولاً، وقبل الالمان أنفسهم..

- ٨ -

غير أن بعض أولئك الأسرى لم يتقبلوا ما حدث بسهولة، فان العالم غروتروب نفسه لم يتمالك نفسه ذات يوم فراح يسأل الوزير السوفياتي «اوستنوف»:

- لماذا تراني هنا؟

فأجابه الوزير:

- ألست هنا القائد الأعلى لصنع الصواريخ؟ إن صنع القنبلة الطائرة «ف٢» قد أوشك أن يتم. أصدر أوامرك..

وعاد غروتروب يسأل:

- ومتى نعود إلى المانيا؟

فأجاب الوزير بلهجة ساخرة:

- عندما تستطيع أن تقوم برحلة حول العالم فوق أحد صواريخك يا حضرة الدكتور!..

وبعد مضي بضعة أيام استدعى الوزير اوستنوف العالم الالماني غروتروب، واستدعى معه معاونيه وزملاءه إلى مكتبه وقال لهم:

- أعيد إليكم، أيها السادة، عريضة الاحتجاج التي قدمتموها لأنها غير قائمة على أساس، ذلك أن للاتحاد السوفياتي، بموجب اتفاقات بوتسدام، الحق في أن يستقدم من المانيا خمسة آلاف شخص ويستخدمهم في أعمال الانشاء والتعمير..

فأجاب غروتروب ببرود:

- إن الذي تطلبونه منا ليس انشاء وتعميراً، وإنما هو عمل علمي في نطاق التخصص العالي..

فقال الوزير اوستنوف:

- أتراك تفضل أن نرسل بك إلى «الاورال» حيث ندفع لك أجر كل قطعة تصنعها؟

وعاد غروتروب يقول:

- ونساؤنا وأطفالنا الذين حملتموهم معنا؟ أترى اتفاقات بوتسدام قد أشارت إليهم هم أيضاً؟

غير أن الوزير القميء البدين لم ينهزم فقال:

- إن الاتحاد السوفياتي يحترم حقوق الانسان، ولذلك لم يعمد إلى الفصل

بين أفراد الأسرة الواحدة، يا حضرة الدكتور، انك أنت الوحيد الذي يتذمر بهذه الصورة!

لم يكن العالم غروتروب ممن يستسلمون بسهولة، وكان المشهور عنه أنه عنيد لا يتزحزح عن رأي يرتئيه. وكان «فون براون» قد ذكره فوصفه بأنه شخص سرعان ما يقف موقف المهاجم كلما وجد ما لا يعجبه.. وهو رجل يؤمن ايماناً عميقاً بالحرية الشخصية غير أن الوزير اوستنوف أنهى قضية الاحتجاج هذه عندما صرح بحزم:

- أحب أن أذكرك أن الاتحاد السوفياتي قد ربح الحرب. وأشدد في القول بأن الاحتجاج كائناً ما يكون شكله، غير مسموح به في الاتحاد السوفياتي، وفي وسعي أن أقول كلمة واحدة لكي أنقلك، أنت ورجالك، إلى وزارة المناجم، ثم انك وقعت هذه العريضة بصفتك مديراً لمصانع «زانترلورك»، ولكني أحب أن تلاحظ أن زانترلوك لم يعد موجوداً بصورة رسمية..

وقد بقي غروتروب هو المدير العام، والناطق باسم زملائه الذين احتفظوا بالأعمال والمهام التي كانوا يقومون بها في المانيا - غير أن الروس راحوا يطبقون مبدأ: فرق تسد، فأشاعوا أن غروتروب نفسه هو الذي يعين رواتب العاملين معه، ويحدد أوضاع معيشتهم، وما ينبغي لكل منهم من معاملة.. كما أشاعوا أيضاً أن زوجته مبذرة، كثيرة الانفاق، وأنه هو يعيش في منتهى الرفاهية والترف وأسباب البذخ..

فماذا كان لهذه الاشاعات المدبرة من أثر في نفوس زملائه الالمان؟

- ٩ -

صادفت هذه الاشاعات هوى في النفوس، وعلى الأخص في أماكن العمل

البعيدة عن موسكو. ومع ذلك فقد ظل الالمان عاكفين على العمل، وكانت بعض الأجهزة قد فقدت في عملية النقل والتحويل، إلا أن الالمان أعادوا انشاءها من جديد، بل هم زادوا في تحسينها.

وقال بعضهم:

– انني لأتساءل إذا لم يكن الروس قد أهملوا نقل هذه الأجهزة لكي يضطرونا أن نصنع غيرها، أحدث وأفضل منها.

ومرت الأيام، وفي اليوم الثلاثين من سنة ١٩٤٧ بعد مضي سنة كاملة من انتقال المهندسين والفنيين الالمان إلى روسيا أمكن اطلاق الصواريخ الأولى في سماء كازاكستان وقد كتب عليها «صنعت في الاتحاد السوفياتي». وهاج الالمان وماجوا من الحماسة والمرح فقد كان هذا من عملهم وصنعهم هم، ولم يبق أمامهم، اذن، غير أن يعودوا إلى المانيا.

ولكنهم لم يكونوا يدرون أن ستالين لم يكن مستعداً لمثل هذا الفراق!

* * *

وفي حوالي نهاية شهر تشرين الثاني من سنة ١٩٤٧ ترأس ستالين اجتماعاً للحكومة.

وحمل الضابطان من سلاح الجو والكولونيل «سيروف» ونائب الكولونيل «غريغوري توكايف» إلى هذا الاجتماع حقائب ملأى بالتقارير حول القنبلة الطائرة «ف٢» وقرئت هذه التقارير فتحمس لها الحاضرون باستثناء «مالنكوف» الذي صرح قائلاً:

– ليس لهذا الصاروخ أية فائدة حقيقية، وماذا عسانا نستفيد من الـ

«ف٢»؟ وهل ترانا، في الحرب المقبلة، سنحارب في بولونيا.. ألستم ترون أن مدى هذه القنابل الطائرة محدود وقصير؟

فما لبثت التقارير الكثيرة أن أعيدت إلى حقائبها مع الضباط. وعلى نقيض هذا فقد حان الحديث حول النقطة الأهم، فعرض «توكايف» في خلال أكثر من نصف ساعة صورة عن السلاح المعجزة الذي يعتبر أخفى أسرار «الرايخ» الالماني، وهو «الطائرة الصاروخ».

وكانت هذه الطائرة الصاروخ قد قام بانجازها العالم الالماني «سانفار» ومساعدته «ايرين برادت»، وكان من خصائص هذه الطائرة أنها تستطيع أن تدور حول العالم في ساعتين اثنتين، وتستطيع أن تضرب، حسب الرغبة، أي موضع في الكرة الأرضية.

وفي عام ١٩٤٤ كتب العالم سانغار تقريراً عن سرعتها الفائقة التصور، وكان قد اكتفى بمئة نسخة من هذا التقرير فقط ختمت جميعاً بخاتم السرية المطلقة، ولم يكن يسمح بنقلها من مكان إلى مكان إلا عن طريق أشخاص ثقات يتسلمونها ويسلمونها يداً بيد.

وقد كان «ويرنلهايسمبرغ» و«فون براون» بين الذين أرسل إليهم هذا التقرير في نهاية الحرب، ثم اكتشفه الانكليز والأميركان.

وبدورهم ختموه بخاتم السرية المطلقة، وأخفوه في الخزائن الحديدية الموجودة في مراكز الأبحاث العلمية.

ومع ذلك فإن عالماً المانياً فاته أن يهرب في الوقت المناسب، كان يحتفظ بنسخة من هذا التقرير الخطير في مكتبته فعثر عليها الروس. وفي أقل من شهر كانت هذه النسخة من التقرير قد وصلت ووضعت على مكتب ستالين، فأمر

بترجمتها إلى الروسية فوراً.

- ١٠ -

كان التقرير هو الذي تحدث عنه وعلق عليه «توكايف» فكان له وقع كبير في نفس ستالين وقال:

- اننا إذا سلحنا هذه الطائرة الصاروخ بالقنبلة الذرية فاننا لا نلبث أن نصبح سادة العالم.

وعلى الفور أصدر أمره إلى «سيروف» وإلى «توكايف» وإلى ابنه «فاسيلي» بأن ينطلقوا إلى المانيا للبحث عن العالم الالماني «سانغار»، وأن يأتوا به بأي ثمن.

ولم يمض يومان حتى كان ذلك الوفد قد وصل إلى برلين، فلم يجدوا العالم الالماني، واتضح لهم أن من المستحيل العثور عليه، وعندئذ تسلل «توكايف» إلى المانيا الغربية بكل جرأة، بعد أن اختلق لنفسه لقباً أو صفة تجارية، واستمر ثلاثة أشهر كاملة ذرع فيها المانيا الغربية جميعاً دون جدوى.

وعلى الرغم من جميع الجهود التي بذلها السوفييت فانهم لم يتوصلوا إلى معرفة مقر العالم الالماني «سانغار» الذي كان يعمل يومئذ في باريس.

واذن فان مشروع الطائرة الصاروخ لم يعد قابلاً للانجاز، ما دام العالم الالماني سانغار غير موجود، فكان لا بد من الاكتفاء بمشروع آخر أقل تواضعاً وهو عبارة عن اسطول جوي من قاذفات القنابل من أحدث طراز، ويكون مماثلاً لقاذفات القنابل المستعملة في الغرب بالاضافة إلى «مظلة» من الطائرات المطاردة التي تفوق سرعة الصوت لتقوم بحماية القاذفات.

وقرر الروس فوراً أن يضاعفوا العمل في برنامج الصواريخ. وفي هذا المجال أيضاً كان على الالمان أن يقوموا بدور رئيسي مهم.

وفي يوم ١٢ كانون الأول سنة ١٩٤٧، وفي مقر المختبرات العلمية بموسكو، انعقد المجلس العلمي، وكان يشاهد حول موائد مغطاة بالسجاد الأحمر كبار الضباط والموظفين جنباً إلى جنب مع العلماء والمديرين للمعهد المركزي للفاعليات الجوية وكان ثمة العالم الالماني «غروتروب» مع مساعديه. وفي هذا الاجتماع عرض الالمان أمام هاتيك الشخصيات الروسية الكبيرة مخططهم في سبيل انجاز صاروخ جديد كل الجدة، وأبعد مدى بثلاثة أضعاف المدى الذى تقطعه القنبلة الطائرة ف٢.

وبعد يومين من هذا الاجتماع حضر الروس والالمان مأدبة كبرى، وشربوا الأنخاب مرحين مبتهجين.. وكانوا يلهجون قائلين: «هذه المرة سنبلغ القمر..»

وفي انتظار تحقيق هذا الحلم الجميل أقام العلماء والمهندسون الألمان في «غورودوميليا»، وكانت تشاهد في هذه الناحية نساء يرتدين الملابس البافارية وقد وضعن على رؤوسهم قبعات برلين.. أجل فقد أصبحت تلك الناحية وكأنها نموذج مصغر لالمانيا نفسها..

ففي النهار يعمل الرجال لانجاز الصواريخ الجديدة، وفي المساء يجتمع الرجال والنساء لازجاء الوقت في عزف الموسيقى وفي شتى الألعاب الأخرى.

- ١١ -

مر شتاءان قاسيان على الالمان، وكانوا يشاهدون وهم يجتازون البحيرة التي تجمد سطحها لكي يذهبوا، محروسين، إلى مدينة «اوستاشكوف» حيث كانوا يختلطون بالسكان الملونين في منظمات «الكوخوزنيك» وبغيرهم من الأهالي

المتدثرين بمعاطفهم العسكرية القديمة، غير أن صبية المدينة كانوا يلاحقونهم صائحين: «والنازيون.. النازيون.. ».

ومع الأيام أخذ الروس بأعداد متزايدة يفدون إلى حيث يقيم الالمان ويستقرون معهم، وكان أولئك الروس شباناً جادين عكفوا يدرسون كل جليل ودقيق، وقد وصلوا الليل بالنهار، لكي يدركوا أسرار ما يقوم به الالمان من هذه المنجزات العلمية الرائعة، وقد بدا واضحاً ومما لا ريب فيه أن أولئك المهندسين الشبان من الروس سيصبحون، بعد بضع سنوات قادرين تمام القدرة أن يتسلموا من أعدائهم القدماء شعلة السباق في مجال الفضاء الرحيب.

وبالفعل أخذت الصواريخ تحمل الطابع الروسي الصرف على مهل ومع مرور الزمن.

ومع ذلك فقد كان الروس ما يزالون بحاجة إلى أعدائهم الالمان. وفي شهر نيسان من سنة ١٩٤٩ وصل «اوستنوف» بطائرة هليوكويتر إلى «غوروودومبليا» حيث يقيم الالمان، وراح يقول لهم:

– لا بد لنا من صنع صاروخ يصل إلى مدى ثلاثة آلاف كيلو متر ويستطيع أن يحمل مادة متفجرة تزن ثلاثة أطنان.

هل كان لهذا المشروع علاقة ما بالاشاعة التي كانت تقول يومئذ أن السوفييت يوشكون أن يقوموا بتفجير قنبلة نووية أتم انجازها «فون آردن» الالماني؟.. غير أن «اوستنوف» لزم الصمت ولم يقدم على هذه التساؤلات أي جواب صحيح.

وتم انجاز الصاروخ المطلوب والذي عرف باسم «ر١٤» وكانت مزيته أنه تخلص من ذيله المصنوع على شكل سهم ومن الأجنحة الصغيرة الثقيلة لهذا

الذيل، فغدا خفيفاً، ولم يعد أكثر من خزان مليء بالمحروقات.

وحل الصيف الشديد الحرارة، ومع ذلك بقي الالمان في جزيرتهم، وراحوا يحتسون الخمر بكثرة دون مزجها بالماء، وبدأوا يهملون قيافتهم.. واستمر العلماء السوفييت يفدون، ويوجهون أسئلتهم إلى الالمان، كما كان يأتي من موسكو مراسلون يزداد عددهم يوماً بعد يوم ويروحون يطلبون تقارير، ورسوماً، ومخططات.

وما أشد ما عقدت الدهشة ألسنة الالمان عندما قيل لهم ذات يوم أنه لن يباح لهم المشاركة في تجارب اطلاق الصاروخ الذي صنعوه.

وأطلق الروس صاروخهم ذاك بنجاح، وقبل نهاية سنة ١٩٥٠ تشكلت لجنة سوفييتية فبدأت باطلاق سراح نحو عشرين من الالمان الأقل أهمية من غيرهم، فذهبوا من توهم إلى المانيا.. ثم لم يلبث الروس أن قبضوا على مقاليد الأمور في مختلف أماكن الآلات والأجهزة.

وأخذ الروس من ثم يطالبون أكبر العلماء الالمان الموجودين عندهم أن يصنعوا بعض الأجهزة الدقيقة للطائرات، أو مزيجاً جديداً من المحروقات أو آلات الكترونية حاسبة، أو مركبات تطلقها الصواريخ وغير ذلك.

والواقع أن الروس كانوا يشغلون أولئك العلماء بمثل هذه الطلبات لكي يستبقوهم عندهم. ولكي لا يذهبوا إلى الغرب وفي حوزتهم أسرار السوفييت الستراتيجية.. وهكذا فقد أبقوا أولئك العلماء -مجمدين- هكذا قرابة سنتين اخريين.

وفي شهر تشرين الثاني سنة ١٩٥٣ جاءت لجنة حكومية أخرى، وراح رئيس اللجنة يقرأ قائمة في يده جاء فيها، «ان جميع الالمان الذين ستذكر أسماؤهم،

باستثناء نحو من اثني عشر عالماً سيعودون إلى بلادهم من اليوم الثاني والعشرين من سنة ١٩٥٣ ويجب أن يكونوا قد غادروا أراضي الاتحاد السوفييتي في أثناء ثمان وأربعين ساعة بعد التاريخ المذكور. وبهذه المناسبة نقدم لهم وافر الشكر لما أنجزوا من عمل».

- وكان هذا كل شيء.

وفي الغداة كان العالم غروتروب ومساعدوه في طريقهم نحو الغرب.

وكان العلماء الالمان قد غادروا بلادهم بعد أن صنعوا القنبلة الطائرة ف٢، وهاهم يعودون إليها بعد أن أنجزوا الصاروخ (ر١٤) الذي له عشرة أضعاف سرعة أي صاروخ سابقاً ويستطيع أن يقضي على ثلاثة أضعاف الرجال الذين يمكن أن يقضي عليهم صاروخ أقل كمالاً منه.

فهارس المجلدات الثلاثة

* الفهارس *

فهرست المجلد الأول

المـــــادة	صفحة

المـــادة	صفحة

المـــادة	صفحة

فهرست المجلد الثاني

المـــــادة	صفحة

المــــــادة	صفحة

المـــــادة	صفحة

المـــــادة	صفحة

المـــــادة	صفحة

المـــــادة	صفحة

فهرست المجلد الثالث

المـــــادة	صفحة

المــــادة	صفحة

المـــادة	صفحة

مؤسسة عبد الحميد شومان

هاتف ٠٦٧٩١١٦٦ (٦-٩٦٢)

فاكس ٠٦٧٢٠٤١ (٦-٩٦٢)

منتدى عبد الحميد شومان الثقافي

هاتف ٤٦٠٩١٠٤ (٦-٩٦٢)

فاكس ٤٦٠٩١٦٤ (٦-٩٦٢)

ص.ب (٩٤٠٢٠٠) عمان (١١١٩٤)

عمان- المملكة الاردنية الهاشمية

محمـــود سيف الـــدين الإيـــراني

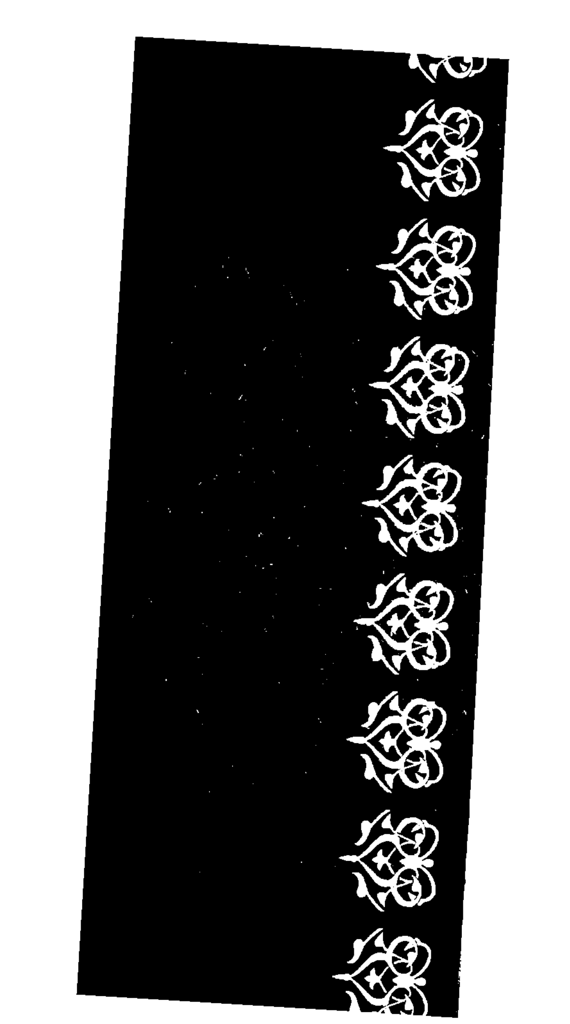
ولد محمود سيف الدين الإيراني في يافا سنة ١٩١٤ . وأنهى تعليمه الإبتدائي والثانوي في مدارس الفرير سنة ١٩٢٩ واستطاع أن يجيد فيها الإنجليزية والفرنسية وأن يلم بالفارسية فضلاً عن اللغة العربية. واستهل حياته العملية بوظيفة حكومية قضى فيها بضع سنين عكف خلالها على قراءة الأدب العربي والغربي مترجماً وغير مترجم وأعجب بآثار تشيكوف وموبسان ودستويفسكي وتولستوي .

وفي سنة ١٩٣٥ أنشأ مجلة الفجر الأسبوعية التي صدر منها خمسون عددا، وعدت من أرقى المجلات الأدبية التي صدرت في فلسطين زمن الإنتداب.

قدم الإيراني إلى الأردن عام ١٩٤٠ ، فاختارته وزارة المعارف في الحكومة الأردنية مدرساً للغة العربية ، فتنقل بين مدن الأردن من عمان إلى إربد والكرك، وترقى في سلك التدريس إلى أن أصبح مفتشا في وزارة التربية والتعليم . وفي سنة ١٩٦١ غادر عمان في بعثة دراسية للتخصص في شؤون اليونسكو على نفقة المنظمة العالمية، وقد مكنته هذه البعثة من الإقامة في باريس مدة اطلع خلالها على أنماط من الحياة الباريسية تركت آثاراً واقعية في أدبه، وبعد عودته الى عمان عين مستشاراً في دائرة الثقافة والفنون، وأشرف على إعادة مجلة أفكار للصدور .

كتب محمود سيف الدين الإيراني المقالة والخاطرة والبحث والتحقيق الصحفي والدراسات والنقد الأدبي، لكنه برع في القصة القصيرة التي يعد رائداً من روادها في فلسطين والأردن وبلاد الشام قاطبة.

صدرت له المجموعات القصصية: أول الشوط ١٩٣٧ وفيها ظهرت ملامح النبوغ، ولفتت إليه النظر، ثم ظهرت مجموعته الرابعة متى ينتهي الليل؟ ١٩٦٤ وأصدر في العام ١٩٦٩ مجموعة قصص مترجمة لكتاب عالميين باسم أقاصيص من الشرق والغرب، وتابع الكتابة القصصية فصدرت له في العام ١٩٧٢ مجموعة خامسة بعنوان أصابع في الظلام. وحين توفي في الحادي والثلاثين من آيار (مايو) ١٩٧٤ ترك تراثاً غير منشور في القصة والمقالة والمسرحية وقد نشر بعض ذلك في الكتاب القصصي غبار وأقنعة الذي أشرف على إصداره د.إبراهيم خليل. وللإيراني كتاب في أدب الرحلات بعنوان ملامح من الغرب ١٩٧٢. وقد أبدى في أيامه الأخيرة إهتماماً كبيراً في المسرح تأليفاً وترجمة وإقتباساً ونقداً. فترجم ل ساروريان وبكيت وحول إحدى قصصه القصيرة الى مسرحية بعنوان الأقنعة وقد عرضت هذه المسرحية في [illegible] ١٩٧٦



اعمال الآيراني

لم يكن سهلاً علينا ان نصل الى هذا اليوم ، الذى تظهر فيه أعمال المرحوم محمود سيف الدين الايراني الأدبية . فقد كان فى الأمر مشقة لكثرة ما خلف الايرانى من كتابات منوعة ، منشورة فى الصحف أو المجلات أو فى كتب ، أو مخطوطة ومحفوظة فى ركام من قصاصات الجرائد والمجلات ، مما يحتاج لجهد واسع من البحث والتنقيب والتنظيم والتصويب . ولولا التشجيع الذى لاقيناه من مؤسسة عبدالحميد شومان، والدعم الصريح لهذا الكتاب ، لما كان لمؤلفات الايرانى أن تظهر أو ان يتاح لها الوصول الى أيدى القراء والمهتمين ، وأيدى أبناء جيل لم يعرف الايرانى عن قرب كما عرفناه . ورغم كل الصعوبات، فقد استطعنا ان نحقق ما أردناه ، من اعادة إحياء لتراث رائد بارز من رواد الأدب فى فلسطين والأردن ، وخاصة فى مجال القصة القصيرة .

ولعل هذا الجهد المشترك الذى تقوم به الأمانة العامة للاتحاد العام للادباءوالكتاب العرب بالتعاون مع مؤسسة شومان ،يكون نواة لجهد أوسع ، وحلقة من مسلسل التعاون الهادف الى احياء ما يمكن احياؤه من ادب الرواد العرب.

فخري قعوار
الأمين العام
للاتحاد العام للادباء والكتاب العرب





